رامونا

مجلة الابتسامة
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

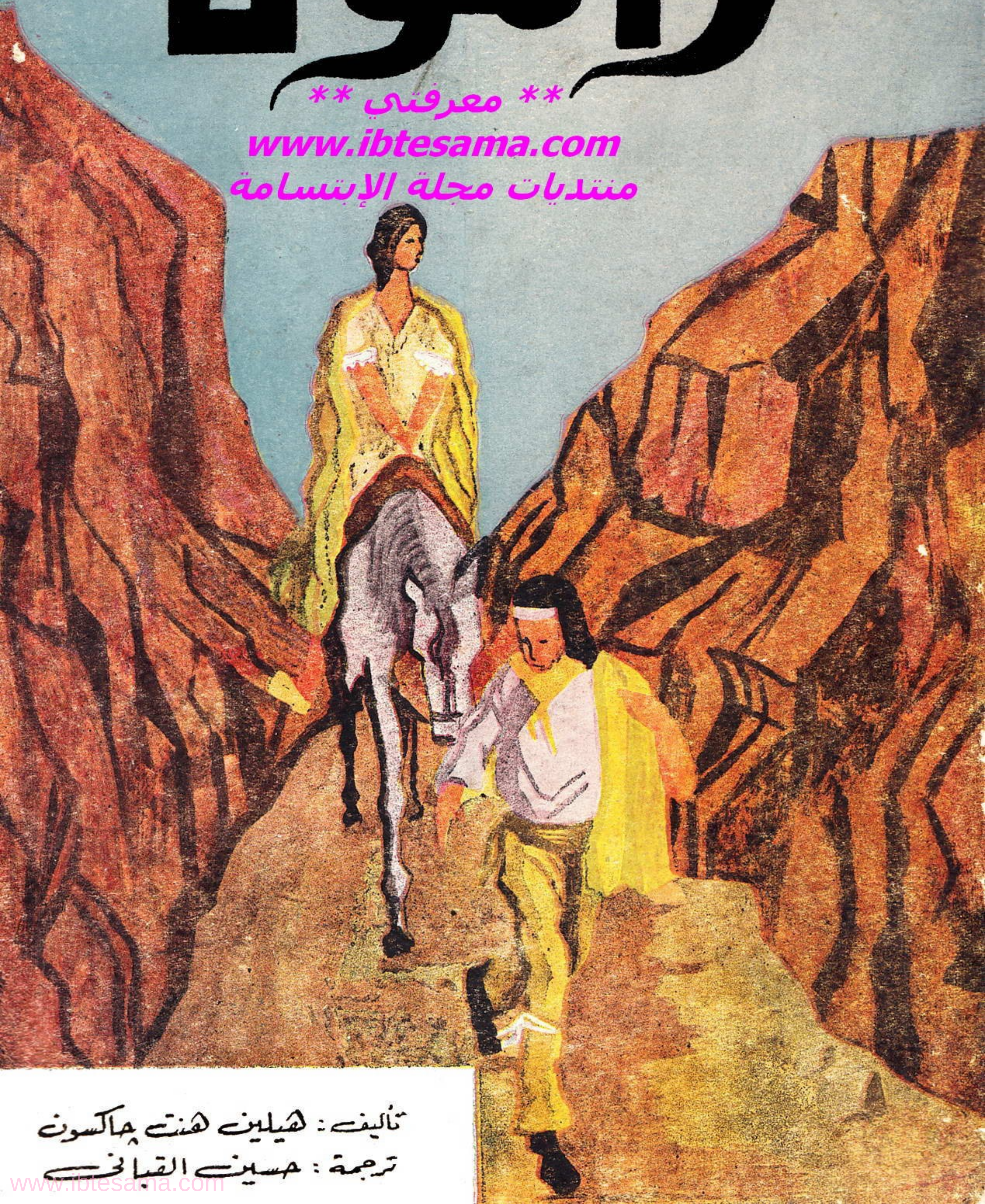

تأليف : هيلين هنت جاكسون
ترجمة : حسين القباني

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

رامونا

www.ibtesama.com

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيو يورك

سبتمبر سنة ١٩٦٤

www.ibtesama.com

رامونا

تأليف

هيلين هنت جاكسون

ترجمة

حسين القباني

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of RAMONA by Helen Hunt Jackson . Copyright , 1884 , by Roberts Brothers . Copyright, 1912, by Little, Brown, and Company. Published by Little, Brown , and Company , Boston,Mass.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلفة :

هيلين هنت جاكسون

شاعرة وكاتبة قصصية . ولدت في أمهرست بولاية ماساشوستس سنة ١٨٣٠ . احترفت الكتابة في سنة ١٨٦٣ ، ونشرت مقالاتها في كثير من المجلات الدورية . كما نالت أشعارها وقصائدها إعجاب كثير من النقاد . كتبت قصصاً طويلة وقصصا للأطفال ، كما سجلت وصفا للرحلات التي قامت بها .

في سنة ١٨٧٥ ، أثارت اهتمامها ضائقة الهنود الأمريكيين الذين اضطهدهم البيض ونهبوا ممتلكاتهم ، فتبنت قضيتهم ونصبت نفسها مدافعة عنهم ، تنادي برد حقوقهم المغتصبة ، ورفع الظلم عنهم . . . وكانت صرختها الكبرى هذه الرواية — رامونا — التي نشرت في عام ١٨٨٤ ، قبل عام واحد من وفاة مؤلفتها في سان فرانسيسكو في ١٢ أغسطس ١٨٨٥ .

المترجم:

حسين القباني

ولد في سنة ١٩١٦ وأصيب بروماتزم مفصلي في سنة ١٩٢٩ بعد وفاة والديه بسنتين . غير أن هذا ما كان ليقعده عن مواصلة البحث عن المعرفة والأدب ، فأمضى سني الحرب في دراسات خاصة متصلة . نال دبلوم معهد ريجنت بإنجلترا

www.ibtesama.com

فى الصحافة الحديثة والقصة سنة ١٩٤٦ . نشرت أول مجموعة قصصية له بعنوان « يقظة الروح » فى سنة ١٩٤٧ كما نشرت له مجموعة بعنوان « السراب » ورواية « دعاء الفجر » فى سنة ١٩٥٧ . ترجم كتاب « ايله لاتنسى » الذى نشرته هذه المؤسسة ، فاز بكثير من الجوائز ، منها جائزة وزارة التربية والتعليم عن الرواية ، وجائزتها عن المسرحيات القصيرة سنة ١٩٤٩ كما فاز بجائزتين فى مسابقة وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى سنة ١٩٥٥ وجائزة وزارة التربية والتعليم عن المسرحيات القصيرة سنة ١٩٥٣ . ونال الجائزة الدولية الثانية فى مسابقة القصص القصيرة فى الشرق الأوسط عن قصته « لحن الغفران » .

أوفدته الدولة وزميله الأستاذ صبحى الجيار إلى لندن للعلاج سنة ١٩٥٩ تقديراً منها لجهودهما فى الميدان الأدبى .

مصمم الغلاف :

مدحت سعد

بكالوريوس فنون جميلة (قسم الزخرفة) ، يعمل فى القسم الفنى للاعلان بالمؤسسة العامة للطباعة والأنباء والنشر . صمم عدة أغلفة لكتب المؤسسة .

www.ibtesama.com

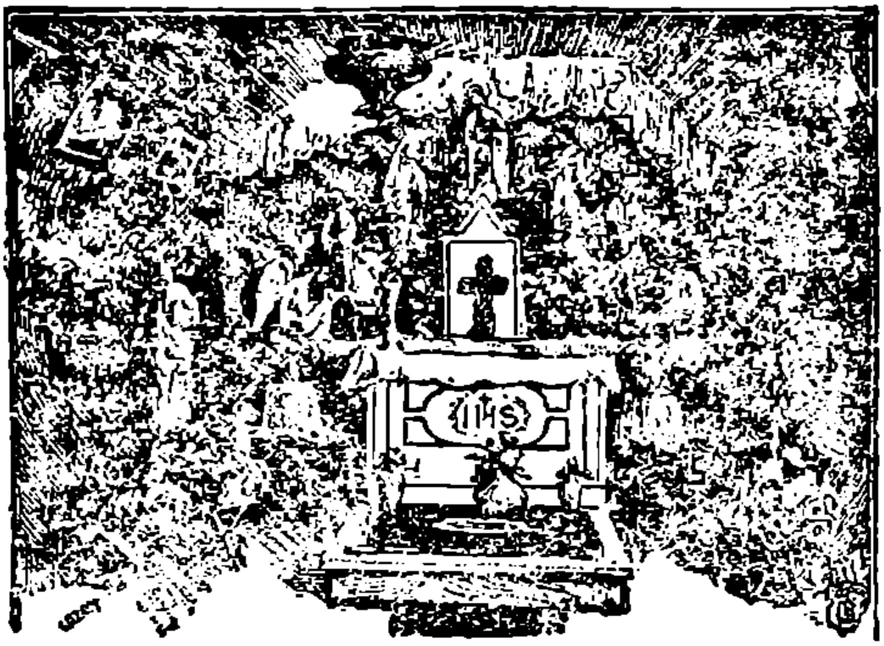

(١)

كان موسم جز صوف الأغنام قد حان فى ولاية كاليفورنيا الجنوبية ، إلا أن هذه العملية تأخرت بالنسبة لأغنام السنيورة مورينو . فقد لاح كأنما الأقدار تحالفت على إرجائها ، ذلك لأن فيليب مورينو — أولا — كان مريضـا . وفيليب هو الابن الأكبر للسنيورة ، وكان ، منذ وفاة أبيه ، بمثابة رب الأسرة فى بيت أمه . وكانت الأم ترى أنه لا يمكن عمل شىء فى الضيعة بدونه . وذلك لأنه كان من المعتاد القول : « اسأل السنيور فيليب » أو « اذهب إلى السنيور فيليب » أو « سوف ينظر السنيور فيليب فى الأمر » منذ نبتت فى ذقن السنيور فيليب بواكير الشعر .

ولكن — إن شئت الحقيقة — فإن السنيورة الأم - لا فيليب - هى التى كانت تقرر أمر كل صغيرة أو كبيرة ، وتدير شئون الضيعة ابتداء من مراعى

www.ibtesama.com

الأغنام فيها إلى أصغر حقل للخرشوف . إلا أنه لم يكن ثمة من يعرف هذا غيرها.
والواقع أن السنيورة جونزاجا موربنو كانت امرأة بارعة بالنسبة لزمنها وجيلها .
بل لعلها - بلا مغالاة - تعتبر من أبرع النساء فى كل زمن أو جيل ، وخاصة فى
الزمن والجيل اللذين نشأت فيهما . فلو أن أحداً كتب عن حياتها ، أو عن مجرد
الجانب السطحى منها ، قصة ، لجاءت قصة عاطفية مثيرة تملأ النفس بشتى
الانفعالات : إنها ستون عاما تجمع بين أجمل ما فى إسبانيا القديمة ، وأروع
ما فى إسبانيا الجديدة - وخلالها كانت أمواج المحيط الباسفيكى من خليج
بسكاى أو خليج المكسيك تقذف بالمقادير للسنيورة . وكانت الكنيسة
الكاثوليكية قد احتضنتها منذ أول لحظة من حياتها إلى آخر ومضة فى العمر .
وكان ذلك هو طوق النجاة الذى أمن حياتها كما اعتادت أن تقول ، إذا حدث
وقالت عن نفسها شيئا ، وقلما كانت تفعل - لفرط حكمتها . وقد بلغ من هدوء
مظهرها ومن تحفظها ورقتها ما لم يجعل أحداً يدرك أن هذا كله يحجب طبيعة
حادة المزاج متسلطة ، سريعة الانفجار قوية الاحتمال للمحن ، لا تعارض إلا
إذا ما جازف معارضوها لمواجهة الخطر ، محبوبة إلى حد العبادة من بعضهم ،
مكروهة إلى أقصى حد من بعضهم الآخر ، وكانت حينما تحل ، تبدو كأنها قوة
هائلة . ولكن إذا شاهدها أحد الغرباء لا يخطر بباله شىء من هذا وهو يراها
تمرق هنا وهناك بردائها الأسود الضيق ، ومسبحتها المدلاة بجانبها ، وعينيها
السوداوين الرقيقتين المطرقتين ، ووجهها الذى امتزجت عليه أمارات الحزن
والتقوى . كانت تبدو فى بساطة السيدة العجوز الحزينة الصوفية الذهن ، وعلى
شىء من الوداعة والرخاوة - كبنات جنسها - وإن كانت أكثر عذوبة وأقدر
على حسن التفكير ، وكان صوتها يؤكد هذا الأثر الخاطىء عنها ، إذ لم يحدث

www.ibtesama.com

قط أن سمعها أحد تتحدث بسرعة أو بصوت مرتفع . بل لقد كانت أحيانا تتردد في حديثها إلى حد الظن بأنها على شيء من التأتأة ، أو أنها تتحدث ببطء وحرص الإنسان الذي شفي أخيراً من هذه التأتأة .

وكثيراً ما كان هذا يجعلها تبدو كأنها غير واثقة بما تريد أن تعبر عنه ، مما يجعل الناس يشفقون بها أحيانا ، أما لو أنهم عرفوا الحقيقة لأدركوا أنها لاتتردد في الحديث إلا لأنها كانت تحيط تماما بما يدور في ذهنها ، بحيث يعسر أن تجد الألفاظ التي تعبر تماما عما تريد ، أو الوسيلة التي تحقق على أحسن وجه أهدافها من الحديث .

وفيما يتعلق بعملية جز أصواف الأغنام ، فقد جرت بينها و بين رئيس رعاة الأغنام ، جوان كانيتو ـ أو جوان كان ـ على سبيل الإيجاز ، وللتفرقة بينه و بين جوان جوزيه كبير رعاة الماشية ـ بعض المناقشات التي كان من الممكن أن تغدو عنيفة حامية لولا حكمة السنيورة .

كان جوان كانيتو يريد أن تبدأ عملية جز الصوف ، حتى رغم ملازمة السنيور فيليب فراش المرض ، ورغم ذلك الراعي الكسلان لويجو الذي لم يعد بعد بقطيعه الذي كان قد ساقه إلى مراعي الساحل ، وقد قال ذات صباح :

ـ إن لدينا هنا الكثير من الأغنام التي يمكن البدء بهـا ـ نحو ألف على الأقل . وعند ما نفرغ منها يكون لويجو ـ بالتأكيد ـ قد عاد بالباقي .

أما فيما يتعلق بمرض السنيور فيليب ، ألم يقف هو ـ جوان كانيتو ـ للإشراف على مثل هذه العملية عند ما كان السنيور فيليب لم يزل صبيا ، فلماذا يعجز عن الإشراف عليها مرة أخرى ؟ إن السنيورة ، كما يبدو ، لا تدرك كيف

www.ibtesama.com

تمر الوقت سريعا ، وأن فرصة استئجار جزازى غنم توشك أن تنفلت ما دامت السنيورة مصرة على ألا تستأجر جزازين من غير الهنود الحمر ، أما إذا كانت تنوى استخدام جزازى غنم مكسيكيين ، كما فعل أصحاب الضياع الأخرى بالوادى ، فإن الأمر عندئذ يختلف بطبيعة الحال . إلا أنها مصرة على استخدام هنود حمر .

ثم اختتم حديثه قائلا بصوت هامس :

ـ ولا يعلم السر إلا الله !

وقاطعته السنيورة مورينو فى نفس اللحظة التى ندت عن شفتيه فيها تلك العبارة الأخيرة غير المهذبة :

ـ تحدث بصوت أكثر ارتفاعا ... فأنا أخشى أن يكون سمعى قد ثقل مع كبر سنى .

يا لها من نبرات رقيقة وادعة مهذبة ! وما أهدأ عينيها السوداوين اللتين استقرت نظراتهما عليه ، واللتين عجز عن النفاذ إلى أعماقهما تماما كما تعجز أية شاة من أغنامه عن النفاذ إلى أعماق عينيه هو . إنه لا يكاد يعرف لماذا قال لها فوراً و بلا إرادة :

ـ معذرة يا سيدتى .

فردت السنيورة بصوت كله رقة :

ـ لا داعى للاعتذار يا چوان ، ما ذنبك أنت إذا كان سمعى ثقيلا ، فمنذ عام وأنا يخيل إلى أنى لم أعد أسمع كما كنت . أما عن الهنود يا چوان ، ألم يخبرك السنيور فيليب أنه استأجر فعلا نفس جماعة جزازى الغنم الذين استأجرناهم فى الخريف الماضى ؟ جماعة أليساندرو من تيميكولا ؟ إنهم على استعداد للانتظار

www.ibtesama.com

حتى نبعث فى طلبهم ، إن السنيور فيليب سوف يبعث إليهم رسولا ، وهو يعتقد أنهم أحسن جزازى غنم فى المنطقة كلها . وفى خلال أسبوع أو أسبوعين سيكون ـ كما يظن ـ فى أحسن حال ، وعلى الأغنام المسكينة أن تحتمل عبء أصوافها بضعة أيام أخرى . أترى أنها فى حالة طيبة يا چوان ؟ هل سيكون محصول الصوف وافراً ؟ لقد اعتاد الجنرال مورينو أن يقول إن فى مقدور الإنسان أن يقدر ثمن الصوف بدقة تامة وهو لا يزال على ظهور الغنم .

فأجاب چوان الذى هدأت نفسه :

ـ أجل يا سيدتى ، إن الحيوانات المسكينة تبدو فى أحسن حال رغم الطعام الضئيل الذى أصابته طيلة هذا الشتاء . وإن محصول الصوف فى هذا الموسم لن يقل كثيراً عن محصول الموسم الماضى إن قل على الإطلاق . هذا مع أننا لا نكاد نعرف على وجه التحديد حالة القطيع الذى سيعود به لويجو .

وابتسمت السنيورة رغماً عنها حين رأت چوان وهو يغص بريقه و يتوقف برهة قبل أن ينطق اسم لويجو ، مما دل على أنه كان يريد أن يسبق الاسم بعبارة تنم عن الاحتقار .

وكان هذا أيضاً من المجالات التى تصطدم فيها إرادته ، بإرادة السنيورة دون أن يدرى السبب ، و إنما كان يعتقد أن سبب الاختلاف فى وجهات النظر بشأن لويجو إنما يرجع إلى السنيور فيليب الشاب ، ومن ثم استطرد يقول متشجعاً بابتسامة السنيورة :

ـ إن السنيور فيليب يحسن الظن دائماً بلويجو لأنهما شبا عن الطوق معا . ولكننى أستطيع أن أؤكد له أنه سوف يندم على حسن ظنه حين يرى ذات

www.ibtesama.com

صباح أحد قطعان الغنم أقرب إلى الموت منها إلى الحياة بسبب إهمال لو يجو . إن كل شيء يسير على ما يرام ما دام لو يجو يعمل هنا فى الوادى تحت إشراف ، أما إذا ترك وشأنه ، فإنه أعجز عن رعاية الأغنام مما لو رعتها واحدة منها ، إنه ليسوقها بعنف يوما ما ، ثم يعرضها للموت والجوع فى اليوم التالى ، وقد ضبطته كثيراً تاركا إياها بلا ماء ، وهو حين يستغرق فى أحلامه ، فإن أحداً ـ غير العذراء ـ لا يعرف ماذا يمكن أن يرتكب من أخطاء ؟ !

وكان وجه السنيورة ـ خلال هذا الحديث القصير المنطلق بلا مقدمات ـ يكتسى فى بطء ، بأمارات الحزم والصرامة ، ولكن چوان لم يره ، لأنه كان فى تلك اللحظة مشيحا بعينيه عنها ناظراً إلى وجه كلبه الأثير الذى كان يرنو إليه بشغف ، والذى كان يتواثب و يلعب و ينبح عند قدميه .

وقال للكلب وهو يمده عنه بصوت ملؤه الحب :

ـ كفى يا كابيتان . إنك تثير من الضجيج ما يجعل السنيورة لا تسمع غير صوتك .

ولكن السنيورة قالت بصوت هادىء وإن كان بارداً جافا :

ـ لقد سمعتك بوضوح تام يا چوان كانيتو . وليس من اللائق أن يغتابه خادم زميلا له ، و إنه ليحزننى أشد الحزن أن أسمع مثل هذه الألفاظ . وأنا أرجو ، حين يأتى الأب سالڤيردبرا فى الشهر التالى ، ألا تنسى أن تعترف له بهذه الخطيئة ... خطيئة محاولتك تجريح إنسان مثلك ، ولو أن السنيور فيليب يتقبل رأيك فى لو يجو ، لكان مصير هذا المسكين الطرد والتشرد ذات يوم . فهل يليق أن يفعل مسيحى هذا بمسيحى مثله يا چوان كانيتو ؟ أخشى أن يشتد عليك الأب حين يسمع ما قلته

www.ibtesama.com

فبدأ چوان يقول ـ وقد أخذ كل عصب فى جسمه يختلج من فرط الشعور بما فى هذا اللوم من ظلم :

ـ ولكننى يا سيدتى لم أقصد إيذاء الفتى ...

ولكن السنيورة كانت قد استدارت ، عازمة ، كما بدا ، على ألا تسمع المزيد منه . ووقف هو ينظر إليها وهى تبتعد بخطواتها البطيئة ، وبرأسها المنحنى إلى الأمام قليلا ، وحبات مسبحتها المرفوعة بيدها اليسرى ، تنساب من بين أصابع يدها اليمنى وهى تسبح عليها بطريقة آلية .

وقال چوان لنفسه وهو يشيعها بنظراته :

ـ تسبيح ودعاء دائما ! إذا كان هذا كفيلا بإدخال أحد الجنة ، فلا شك أن السنيورة ستدخلها من أوسع أبوابها . هذا أمر مؤكد . وإنى لآسف إذ أغضبتها ، ولكن ماذا فى وسع الإنسان أن يفعل إذا كان حب هذا المكان يختلط بدمه ؟ هذا ما أريد أن أعرفه . هل يقف متفرجا ليرى جماعة من الفتيان الحالمين الكسالى يعيثون بكل شىء فساداً ؟ آه ... إنه ليوم مشئوم على الضيعة عند ما مات الجنرال ! يوم مشئوم ! يوم مشئوم ! لينحوا على باللوم كما يشاءون ، وليدفعوا بى إلى الاعتراف بخطاياى بين يدى الأب . ليفعلوا هذا إذا أرادوا ، ولكنهم لن يمنعونى من القيام بواجبى فى رعاية هذه الضيعة . إن السنيور فيليب سوف يقوم بواجبه كاملا يوم يغدو رجلا ... هذا محتمل ، ولكنه الآن ، وهو لا يزال حدثا يافعا ! هه ! !

ومضى الرجل العجوز يضرب الأرض بقدميه فى سيره وهو يشعر باهتياج له ما يبرره إزاء هذا الوضع غير الطبيعى الذى وجد نفسه فيه .

www.ibtesama.com

وعاد يغمغم بصوت مسموع :

ـ أعترف للأب سالفيرديرا ؟ أحقا ! حسنا ؟ هذا ما سأفعله . إنه رجل عاقل ، حتى لو كان رجل دين .

وعند ما أدرك جوان التق ازلاقة لسانه أسرع برسم صورة الصليب على صدره وأردف قائلا لنفسه :

ـ ولسوف أطلب منه أن يدلنى كيف أستطيع أن أقوم بالعمل بين غلام يرأس كل شيء ، وأم رءوم تعتقد أنه أوتى حكمة عشرة رجال بالغين . إن الأب يعرف كيف كانت الضيعة فى الأيام الخوالى ، وهو يعرف أنه ليس من السهل الإشراف عليها حتى فى الوقت الحاضر بعد أن تقلصت مساحتها إلى حد كبير ! لقد كان يوما مشئوما عند ما مات الجنرال ، يوما مشئوما حقا ! ليرحمه الله .

وهز جوان كتفيه بعد أن فرغ من حديثه ، ثم صفر لكلبه « كابيتان » ، وسار نحو الشرفة المشمسة التى تقع جنوبى جناح المطبخ من البيت الكبير ، والتى اعتاد خلال عشرين عاما أو نحو ذلك ، أن يجلس على مقعد خشبى مستطيل بها ، ويدخن تبغ الصباح ، إلا أن فكرة ما خطرت بباله قبل أن يعبر منتصف الفناء الكبير ، ومن ثم توقف فجأة بحيث ظن كلبه « كابيتان » بحساسيته المعروفة عن سلالته ، أن توقف سيده المفاجىء له علاقة ما بالأغنام ، ولهذا دفعته غريزة إحساسه بالواجب إلى إرهاف سمعيه ، وإعداد نفسه للانطلاق ، والتطلع إلى وجه سيده فى انتظار الإشارة أو تفسير الموقف . ولكن جوان لم يحفل بأمره ، وإنما عاد يقول لنفسه :

ـ ها ! إن الأب سالفيرديرا سيأتى فى الشهر القادم ؟ أليس كذلك ؟

www.ibtesama.com

حسنا ! إننا اليوم فى الخامس والعشرين من الشهر ! أجل ... عرفت السر . إن جز أصواف الغنم لن يتم حتى يأتى الأب إلى هنا ، وعندئذ تقام فى كل صباح بالكنيسة الصغيرة صلاة قداس ، وفى كل ليلة صلاة المساء . وهذا يعنى أن إقامة جزازى الغنم ستطول على الأقل يومين فوق المعتاد حيث يطعمون ويعوضون عن الوقت المبذول فى الصلوات والاعترافات . هذا هو ما يهدف إليه السنيور فيليب . وقد تذكرت الآن أنه شاب ورع ، كما أن هذا هو نفس ما حدث منذ عامين . حسنا... حسنا . إنه لمن الخير لهؤلاء الجنود المساكين أن يتلقوا شيئا من الدين بين الحين والآخر ، وكما كان يحدث فى الأيام الخالية ، ســوف نرى الكنيسة ممتلئة بالراكعين منهم ، فى حين يتزاحم على بابها عدد أكبر مما فى داخلها ، ولست أشك فى أن هذا المنظر يسعد قلب السنيورة وكأنما هم ينتمون إلى البيت كما اعتادوا أن يفعلوا ، ويمكننى الآن أن أعرف متى ستبدأ عملية جز الصوف . وما على إلا أن أتخذ الاستعدادات اللازمة فى الوقت المناسب . لقد اعتاد الأب أن يحضر دائما فى الأسبوع الأول من الشهر . نعم ! لقد قالت السنيورة : إن السنيور فيليب سوف يسترد صحته فى خلال أسبوع أو أسبوعين ! ها .. ها .. فى خلال أسبوعين على الأرجح ، أو فى نحو عشرة أيام ، لسوف أبدأ فى إعداد الخيام فى الأسبوع التالى ، اللعنة على لويجو الذى لم يعد بعد . إنه خير من يقطع فروع الشجر لإقامة الأسقف . إنه يعرف الفرق بين عمر هذا الفرع أو ذاك . إننى أشهد له بهذا رغم رأسه المليء بالأحلام !

وبلغ من سرور چوان لمعرفته أخيراً سر تأجيل السنيور فيليب لعملية جز الصوف ، أن ظل طيلة اليوم معتدل المزاج - معتدل المزاج مع كل شخص ، ومع نفسه على وجه الخصوص . وكان وهو جالس على المقعد الخفيض ، ورأسه

www.ibtesama.com

مستند إلى الجدار الأبيض الطلاء ، وساقاه الطويلتان ممتدتان إلى نحو نصف اتساع الشرفة ، والتبغ (البيبة) مرتكز فى أقصى الركن الأيسر من فمه ، ويداه فى جيبه - كان وهو فى هذا كله صورة كاملة للشعور بالرضا التام ، وكان الصغار الذين لا يزالون يتجمعون حول جناح المطبخ فى بيت السنيورة مورينو ، دون أن يقل عددهم عما كان فى أيام الجنرال يجرون ذهابا وإيابا عبر ساقى چوان ويسقطون بينهما ، وينهضون متشبثين بسراويله الجلدية ؛ كل هذا دون أن يزجرهم چوان ، وإن كانت أمهاتهم فى المطبخ يطالبنهم بصوت مرتفع بالكف عن هذا العبث .

وبصوت ناعم قالت مرجريتا - أصغر وأجمل الخادمات - وهى تطل برأسها من نافذة المطبخ وتعبث بشعر چوان :

- ما الذى جعل « چوان كان » معتدل المزاج اليوم ؟

وكان چوان هرما أشيب الشعر مغضن الوجه ، مما جعل الفتيات يشعرن بالأمان معه ؛ إذ كان يبدو لهن أنه طاعن فى السن مثل «متو شالح » ! ولكنه فى الواقع لم يكن هرما إلى هذا الحد الذى يحسبنه ، بل ولم تكن إحداهن فى أمان حقا وهى تمابثه ، لأن دماء الرجل الهرم كانت لا تزال حارة فى عروقه كما يشهد بذلك مرءوسوه من الرعاة .

وأجاب چوان على الفتاة قائلا بسرعة ، وهو يغمز لها بعينه وينهض واقفا وينحنى أمامها :

- إنه منظر وجهك الجميل يا سنيوريتا مرجريتا .

وضحكت الطاهية العجوز ماردا أم مرجريتا قائلة :

ـــ ها .. ها . أحقا سنيوريتا ؟ إن السنيور چوان كانيتو يسره أن يبدو مرحاً عند أبواب أسياده .

ثم قذفت من وعاء نحاسى بكمية من الماء غير النظيف تماماً عبر رأس چوان . ورغم أن قطرة واحدة لم تلمسه ، فإنه بدا كأنما الماء أغرقه . وبسبب هذه الحركة البارعة أخذ كل ما فى الفناء من صغار وكبار وأطفال، ومن ديكة ودجاج وديكة رومية ، يصيحون ويضجون ويتفرقون فى أربعة أركان الفناء كأنما أفزعهم دوى طلقات بندقية صيد. وعلى هذا الضجيج أسرعت الخادمتان الأخريان أنيتاوماريا التوأمتان البالغتان من العمر أربعين عاماً ، وكانتا قد ولدتا بالضيعة بعد عام من وصول الجنرال مورينو إليها مع عروسه الشابة الحسناء ، وأسرعت معهما ابنتاهما روز وأنيتا الصغيرة ، كما يسمونها ، رغم أنها أثقل وزنا من أمها ، وكذلك أسرعت جوانيتا ، أكبر من فى البيت سنا ، بحيث إن السنيورة مورينو نفسها لاتعرف على وجه التحديد سنها أو تاريخ حياتها . أما هى ، المسكينة ، فإنها لاتعرف ، شيئا عن نفسها بعد أن ظلت فى حالة بله طيلة السنوات العشر الأخيرة أو أكثر ، ولم يكن فى مقدورها أن تفعل شيئا غير تقشير الفول . وكانت تفعل هذا ببراعة وسرعة ، ولا تحس بالسعادة إلا حين قيامها بهذا العمل . ومن حسن حظها أن الفول هو المحصول الوحيد الذى لا يكف المكسيكيون عن زراعته ولايحددون مساحة أرضه المزروعة . ومن أجل العجوز جوانيتا اعتاد آل مورينو أن يختزنوا فى كل عام ملء غرف عديدة « أطنان كما يبدو للرائى » أو ما يكفى لإطعام جيش ! والواقع أن المقيمين فى بيت السنيورة يعتبرون جيشاً صغيرا وليس هناك من يعرف على وجه التحديد عدد النساء فى المطابخ ، أو عدد الرجال فى الحقول . فالمطابخ لاتخلو أبدا من بنات أعمام للنساء ، أو أخوات أزواج ، أو

www.ibtesama.com

زوجات إخوة ، أو أراملهم ، أو بناتهن جئن للإقامة ، أو أبناء أعمام للرجال ، أوأزواج أخوات ، أو أبنائهن جاءوا للاقامة حينا فى أثناء عبورهم الوادى ذهابا أو إيابا ، حقا كان السنيور فيليب يعرف على وجه التحديد عدد العمال والخادمات عند توزيع الأجور ، أما عدد الذين يأكلون ويقيمون تحت سقف بيته ، فهذا شأن آخر؛ ذلك لأنه ما كان ليخطر ببال السيد المكسيكى المهذب أن يحصى عدد هؤلاء أو أولئك . إن مجرد التفكير فى هذا يعتبر شيئا لا يليق .

أما السنيورة ، فقد كان يبدو لها أنه لم يعد ثمة أحد فى البيت ، إنها تقول إن المقيمين معها أصبحوا عدداً ضئيلا لايكادون يقدرون على القيام بشئون البيت أو الضيعة ، لاسيما بعد أن تقلصت — للأسف — مساحة هذه الضيعة . أما فى أيام الجنرال فقد كان دائما يفخر بأن الذين يأكلون داخل أبواب بيته كل يوم لا يقلون عن خمسين شخصاً من الرجال والنساء والأطفال .. وإذا كان هناك أكثر من هؤلاء ، فإنه لم يكن يعرف أو يهتم . ولكن ذلك العهد قد ولى حقا .. ولى إلى الأبد . ورغم أن أى غريب يمكن أن يقول ، حين يرى ذلك الضجيج الذى أحدثته العجوز ماردا بقذفها الماء عبر رأس جوان : « يا إلهى ! أيقيم كل هؤلاء النسوة والأولاد والأطفال فى بيت واحد ؟ » فقد كانت الفكرة الوحيدة التى سيطرت على ذهن السنيورة وهى تمر فى تلك اللحظة أمام البوابة ، تدور حول : « يالمساكين ! ماأقل من تبقى منهم فى البيت ! أخشى أن تضطر العجوز ماردا إلى العمل فوق طاقتها . يجب أن أعفى مارجريتا من أعمال البيت لمساعدتها » .

ثم تنهدت بعمق ، وأدنت ، بلا وعى ، مسبحتها إلى قلبها وهى تدخل البيت ، ثم تمضى إلى غرفة نوم ابنها . وكان المنظر الذى طالعها يمكن أن يسعد قلب كل

www.ibtesama.com

أم ، فما إن رأت هذا المنظر حتى توقفت برهة فى مدخل الغرفة ، برهة وجيزة ، ولعله لم يكن هناك مايدهش فيليب مورينو أكثر مما لو قيل له فى هذه اللحظة التى سمع خلالها أمه وهى تقول له بصوت هادىء «طاب صباحك ياولدى ، أرجو أن تكون قد نمت جيدا ، وحالتك أحسن » إن قلب والدته كان فى الوقت نفسه ينتفض هاتفا « آه . . ياولدى الرائع ، لقد شاءت الأقدار أن تجعلك صورة لأبيك؟ وأن تكون جديرا بمملكته ! »

ولكن الواقع أن فيليب مورينو لم يكن جديرا بمملكة على الإطلاق . ولو أنه كان جديرا بها ، لماعاش تحت سيطرة والدته دون أن يدرك هذه الحقيقة. أما فيما يتعلق بجمال المنظر ، فليس هناك ملك يمكن أن يكون له وسامة وجه فيليب مورينو أو جمال قوامه أو روعة مظهره العام ، وقد كان الشاب رحيما حقا كما قالت السنيورة ، سواء رجع الفضل للمقادير أم إلى أنه يشبه والده تماما إلى حد يندر أن يكون له مثيل . وعندما حدث ذات يوم ، بمناسبة احتفال كبير ، أن ارتدى فيليب الرداء الرسمى الموشى بالذهب والسراويل القصيرة المطرزة والمعقودة عند الركبتين بأشرطة حمراء ، والقبعة ذات الحافة العريضة المزينة بالوشى الفضى والذهبى ، أى نفس الملابس التى كان والده يرتديها فى مثل هذه المناسبات ، قبل خمسة وعشرين عاما ، عندما حدث هذا ، سقطت السنيورة مغشيا عليها حين وقعت نظراتها عليه. ولما فتحت عينيها ورأت نفس الشاب الأنيق الجميل بلحيته السمراء منحنيا عليها فى حزن ويناجيها بعبارات الإشفاق والحنان ، عادت إلى إغمائها مرة أخرى .

وقد صاح فيليب يومذاك قائلا :

www.ibtesama.com

ـ أماه . . أماه ... إننى لن أرتدى هذه الملابس مرة أخرى إذا كان منظرها يؤثر فيك بهذا الشكل . دعينى أخلعها ! إننى لن أشترك فى ذلك الاستعراض اللعين .

ثم وثب واقفاً ، وشرع بأصابع مرتعدة ، يفك حزام سيفه . وهتفت الأم بصوت خافت وهى فى مكانها على الأرض :

ـ لا لا يا فيليب ، إنك ترتديها حسب رغبتى .

ثم تحاملت ووقفت ، وراحت ، بفيض من الدموع ، تعيد ربط الحزام بأصابعها المرتعدة التى طالما تلقت القبلات عليها ـ كما سبق أن فعلت مرات عديدة عند ما كان زوجها يودعها فى طريقه إلى حرب لا يعرف أحد مصير المشتبكين فيها .

وقالت بصوت ازداد حماسة وقوة بعد أن جفت الدموع فى عينيها :

ـ ارتدها ... ودع الكلاب الأمريكيين يرون كيف كان يبدو السيد المكسيكى فى ملابس الضباط قبـــل أن يضعوا أقدامهم الحقيرة الغاصبة على أعناقنا .

ثم تبعته يوم ذاك إلى بوابة البيت ، ووقفت منتصبة القامة تلوح له فى شجاعة بمنديلها وهو ينطلق بجواده بعيداً حتى غاب عن عينيها ، وعندئذ تغيرت أمارات وجهها وحنت رأسها ، وعادت ببطء إلى غرفتها ، وأغلقت على نفسها الباب ، وركعت أمام صورة العذراء المعلقة على رأس سريرها ، وأمضت معظم يومها فى الصلاة والدعاء لطلب المغفرة و إنزال اللعنة على جميع الهراطقة الملحدين . ومن الميسور أن نتخيل مدى ما كانت تستمده من راحة نفسية وهى تفعل هذا .

www.ibtesama.com

وقد كان جوان كانيتو صادقا فى حدسه بأن إرجاء جز أصواف الغنم إنما يرجع إلى الرغبة فى انتظار حضور الأب سالفيرديرا ، وليس بسبب مرض السنيور فيليب ، أو بسبب عدم ظهور لويجو بقطيعه من الأغنام . وقد كاد جوان يضحك لنفسه إمعانا فى الشعور بالرضا ، لولا أنه سمع المحادثة التى كانت تدور فى ذلك الوقت بين الأم وابنها ، والتى جملته يؤمن ، وهو نصف نائم على المقعد ، أنه رغم كبر سنه ، لا يزال نداً لهما فى الذكاء ، وأنه لا جدوى من إخفاء شىء عنه بالتحفظ والمراوغة .

كانت السنيورة تقول لابنها :

ـ إن « جوان كان » يزداد قلقا بشأن جز أصواف الغنم . وأعتقد أنك ما زلت عند رأيك فى هذا الشأن يا فيليب ـ أعنى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يحضر الأب سالفيرديرا ؟ و بما أنها الفرصة الوحيدة التى يمكن لهؤلاء الهنود أن يروا فيها الأب هنا ، فإننى أرى أن واجبنا الدينى يحتم علينا أن نتيحها لهم إن أمكن . ولكن جوان شديد القلق ، إنه يزداد كبراً فى السن ، و يبدو أنه يحاول أن يتملص قليلا من سيطرتك ، فهو لا يستطيع أن ينسى أنك كنت طفلا تلعب على ركبتيه ... وأنا ، من ناحيتى ، لا أذكر إلا أنك دائما الرجل الذى أحب أن أعتمد عليه .

وأدار فيليب وجهه الوسيم نحو أمه بابتسامة مشرقة تنم عن مزيج من الحب البنوى والإحساس بالرجولة المبكرة . ثم قال :

ـ حقا يا أماه ، إذا كنت كفئاً لأن تعتمدى على ، فأنا لن أطلب أكثر من هذا من السماء .

www.ibtesama.com

ثم جمع يدى أمه النحيلتين الجافتين ، فى يده القوية اليمنى ، ورفعهما إلى شفتيه كأى عاشق ، ثم أردف قائلا :

ـ اسوف تفسدينني بالتدليل ، وما أعظم ما تشعرينني بالفخر !

فأجابت الأم فوراً :

ـ لا يا فيليب ، إن الفخر لى أنا ، ولست أسمى هذا فخراً ، وإنما اعترافا بفضل الله الذى وهبنى ابنا له من الحكمة ما جعله جديراً بأن يحل مكان أبيه ، وأن يقودنى ويحمينى خلال السنوات القليلة الباقية من عمرى ، اسوف أموت مستريحة البال ، وأنا أراك رب ضيعة ، تعيش كما ينبغى أن يعيش السيد المكسيكى ، أو بقدر مايمكن أن يعيش فى هذه البلاد التعسة . ولكن لنعد إلى موضوع جز أصواف الغنم يا فيليب ، هل تريد أن نبدأ به قبل حضور الأب سالفيرديرا ؟ إن اليساندرو ـ طبعا ـ على استعداد للعمل مع فرقته فوراً . فإن استدعاءه برسول لا يستغرق أكثر من يومين . على أن الأب سالفيرديرا لن يستطيع الحضور قبل اليوم العاشر من الشهر القادم . إنه سيغادر مدينة سانت بربارا فى اليوم الأول من الشهر ، وهو سيسير المسافة كلها على قدميه ـ أى مسيرة ستة أيام ؛ لأنه أصبح الآن شيخا واهن العظم ، ثم لابد له من النزول إلى مدينة فنتورا لإقامة الصلاة يوم الأحد ، وهناك يوم آخر سيقضيه فى ضيعة أورتيجا عند آل لو بيز حيث يقوم بتعميد بعض الناس . نعم إن اليوم العاشر هو أقرب يوم يمكن أن يكون فيه هنا ـ أى بعد أسبوعين من الآن . أما إذا كان الأمر يتعلق بصحتك ، فلعلك تكون أحسن حالا فى الأسبوع القادم .

وضحك فيليب وهو يتمطى على السرير ، ويضرب بعقبه الفراش بقوة جعلت أعمدته وظلته المطرزة السجاف تهتز وتصر .

www.ibtesama.com

ـ نعم .. حقا . إننى فى حالة طيبة الآن لولا هذا الضعف اللعين الذى أشعر به عند ما أقف على قدمى ، أعتقد أن حالتى تتحسن إذا أنا غادرت الفراش إلى الخارج .

والواقع أن فيليب نفسه كان ملهوفا للقيام بعملية جز أصواف الغنم . وذلك أن هذه العملية كانت تعتبر بالنسبة إليه إجازة مليئة بالنشاط والشغل ، أيا كان ما يبذله فيها من جهد ، ومن ثم كان يلوح له أن الأسبوعين الباقيين عليها مدة أطول مما ينبغى .

وقالت الأم :

ـ هكذا الأمر دائما بعد الحمى ، وهذا الشعور بالوهن يستمر أسابيع عديدة وأنا غير واثقة بأنك ستكون فى كامل قواك حتى بعد الأسبوعين الباقيين على جمع الصوف . ولكن جوان كان ـ كما قال هذا الصباح ـ يشرف على هذه العملية وأنت صبى ، ومن ثم فلا داعى لانتظار شفائك التام .

فهتف فيليب قائلا فى غضب :

ـ أقال هذا ؟ ! إن هذا المسن قد بدأ يسىء أدبه . ولسوف أخبره أنه لن يشرف على هذه العملية أحد غيرى ما دمت سيد هذا المكان . وسوف أقوم بجز أصواف الغنم عند ما أريد ، لا قبل هذا .

فسألته السنيورة فى تردد ـ وكأنما هى توازن الأمر فى ذهنها :

ـ أعتقد أنه ليس من الحكمة أن تقول إننا نرجئ القيام بهذه العملية إلى حين مجىء الأب ! أليس كذلك ، إذ لم يعد للأب تأثيره الذى كان من قبل فى العمال الشبان ، بل أعتقد أن شيئا من الفتور قد أصاب جوان نفسه فيما يتعلق

www.ibtesama.com

بالناحية الدينية ، لقد بدأت روح الإلحاد تنتشر فى هذه البلاد منذ أخذ الأمريكيون ينطلقون هنا وهناك سعيا وراء المال ، كالكلاب ، بأنوفها إلى الأرض ، وربما استاء جوان إذا عرف أنك فى انتظار الأب فقط للقيام بهذه بهذه العملية . فما رأيك ؟

فأجاب فيليب وهو لا يزال غاضباً :

ـ أعتقد أنه يكفيه وحسب أن يعرف أن عملية جز أصواف الغنم تنتظر صدور أمرى . وهذا هو رأيى الأخير .

وقد حدث هذا فعلا ، أو بمعنى آخر ، لقد حققت السنيورة مورينو ما كانت تريد منذ البدء ، دون أن يخطر ببال أحد ، حتى جوان كانيتو نفسه ، أن هذه هى رغبتها الخاصة ، وليست رغبة ابنها ، أما فيليب نفسه ، فلو أن أحداً قال له إن أمه ، لا هو ، التى قررت أن من الأفضل إرجاء جز أصواف الغنم لحين مجىء الأب سالفيرديرا من سانتا بربارا ، وإن من الواجب تكتم هذه الحقيقة فى أنحاء الضيعة ، لحاق فيليب فى وجه القائل مندهشاً ، ولحسبه إما أحمق وإما مأفوناً .

إن تحقيق أهداف الإنسان بهذه الوسيلة ، يعتبر من فنون النصر الخالصة . إن النصر الحقيقى هو فى قدرة الإنسان على الايبدو كمنصر فعال ، فى حين يحرك الآخرين كالآلات ، بنفس البساطة والقدرة التى تخضع اليد أو القدم للإرادة . نعم ، إن النصر الحقيقى هو أن يتحكم الإنسان فى مصائر سواه ويسيطر عليها بقدر ما تسمح الأقدار . لقد كان هناك رجال سيطروا على شئون العالم فى هذا الوقت أو ذاك ، رجال درسوا واستقصوا هذه القوة التى تخضع غيرهم لهم

www.ibtesama.com

وا كتسبوها فى النهاية . وبهذه القوة استطاعوا أن يتحكموا فى المشرعين والسفراء والحكام ، وأن يضموا فى قبضات أيديهم مصائر إمبراطوريات . ومع ذلك فإننا نتساءل : هل حدث بين هذه النماذج المعروفة أن عرف مثل هذا النموذج الرائع الكامل للنجاح ، كما نراه فى حالة هذه السيدة التى تعتبر قوة الإرادة فيها غريزة طبيعية وليست صفة مكتسبة ، أو رغبة عارمة وليست هدفاً ! إننا نرى دائماً بين هذين النتيجتين ، وبين هذين الإجرائين ، الفارق بين لمسة الموهبة ولمسة العبقرية .

وقد كانت السنيورة مورينو تتمتع بلمسة العبقرية .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

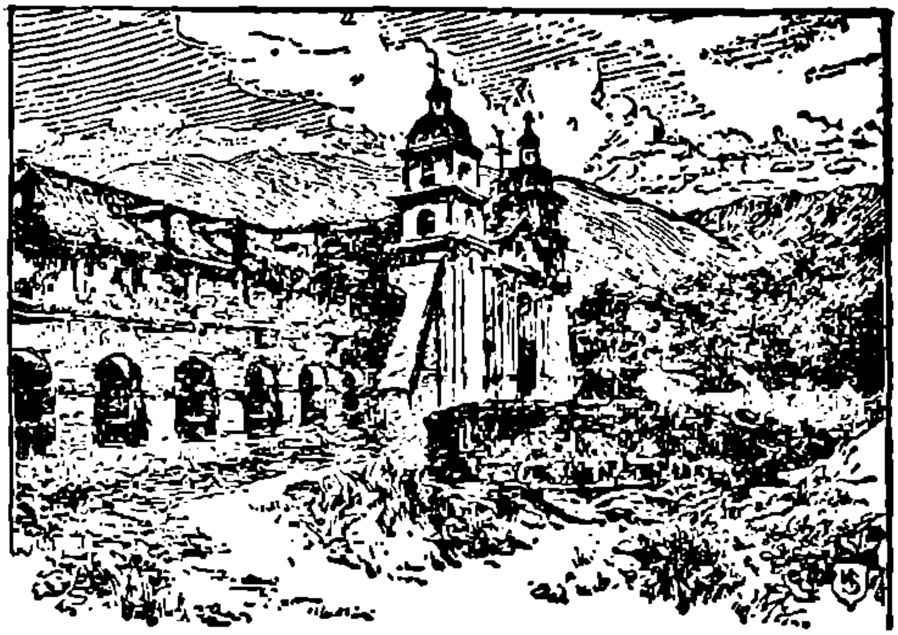

(٢)

كان بيت السنيورة مورينو من أحسن النماذج التى يمكن أن توجد فى كاليفورنيا ؛ فهو البيت الذى يجمع بين البساطة والمرونة وروح الكرم التى تطبع حياة المقيمين فيه من المكسيكيين ، رجالا ونساء على مختلف درجاتهم خلال الفترة الأولى من هذا القرن تحت حكم الحكام الإسبان والمكسيكيين عند ما كانت قوانين جزر الهند الغربية هى قوانين البلاد التى كان اسمها القديم « إسبانيا الجديدة » هذا الاسم الذى كان رمزاً لأجل الذكريات وأصدق الإحساسات الوطنية لسكانها .

كانت حياة متنوعة البهجة ، زاخرة بألوان الحب والمسرات ، وبصنوف من نبض الحياة القوية والمغامرات العاطفية ، ما لم يعد له مثيل على تلك الشواطىء الدافئة .

www.ibtesama.com

إن شذاها لا يزال مرفرفاً فى الجو حتى الآن ، لأن الصناعات والاختراعات لم تستطع أن تقضى عليه . ولسوف يبقى حتى نهاية القرن — بل إنه فى الواقع لا يمكن أن يزول ما دام ثمة بيت مثل بيت السنيورة مورينو لا يزال قائماً فى المنطقة .

وعند ما شيد هذا البيت ، كان الجنرال مورينو يمتلك جميع الأراضى الواقعة فى دائرة نصف قطرها أربعون ميلا — أربعون ميلا نحو الغرب عبر الوادى إلى شاطىء البحر ، وأربعون ميلا نحو الشرق إلى جبال سان فرناندو ، وأربعون ميلا تقريبا على طول الساحل . ولم تكن حدود أراضيه محددة على وجه الدقة ؛ إذ لم يكن هناك مايدعو فى تلك الأيام الطيبة إلى قياس الأراضى بالبوصة . وربما سأل سائل كيف امتلك الجنرال مورينو كل هذه الأراضى . ولعل الإجابة عن هذا السؤال لن تكون سهلة ، ذلك لأنه لا يمكن الإجابة عنه إجابة ترضى لجنة الأراضى التابعة للحكومة الأمريكية، التى أخذت على عاتقها ، بعد تسلم كاليفورنيا، غربلة وتقويم ممتلكات المكسيكيين ، وهذا هو ما جعل السنيورة مورينو تقول عن نفسها إنها امرأة فقيرة . لقد كانت أراضيها تؤخذ منها القطعة بعد الأخرى، حتى جاء الوقت الذى بدا أنه لن يتبقى لها شىء . لقد أخذت منها كل قطعة أرض قامت ملكيتها على عقد هبة من الحاكم بيو بيكو — الذى كان صديقاً حميماً لزوجها . لقد انتزعت ملكية هذه القطع كلها فى يوم واحد ، وبذلك فقدت السنيورة الجانب الأكبر من أراضى الرعى . وكانت هذه الأراضى فى يوم ما ملكا لإرسالية بونافنتورا ، وتمتد على الساحل عند مدخل الوادى الذى ينحدر فيه نبع صغير يمر بجوار بيتها ويصب فى البحر . وكان من أعظم مباهج السنيورة وفخرها ، فى شبابها ، أن تنطلق بجوادها — بجوار زوجها — طيلة الأربعين ميلا

www.ibtesama.com

ممتدة داخل أراضيها ، من البيت رأساً إلى ممتلكاتهما الخاصة الممتدة على شاطىء البحر . فلا عجب إذن إن هي اعتقدت أن الأمريكيين لصوص ، وإذا هي تحدثت عنهم ككلاب صيد . أما أهالي الولايات المتحدة الأمريكية ، فإنه لم يخطر ببالهم ألبتة أن امتلاكهم لكاليفورنيا ليس غزواً للمكسيك فحسب ، وإنما هو غزو لكاليفورنيا نفسها ، وأن للمرارة التي شعر بها سكان إمبراطورية المكسيك أقل كثيراً من المرارة التي ملأت نفوس أهـالي كاليفورنيا المكسيكيين . إن الولايات التي تنتقل على هذا النحو من هذا الحكم إلى ذاك، ضعيفة مستسلمة في أيدي الدول الكبرى ، يحس سكانها بمرارة وذلة الهزيمة ، دون أي شعور بالكرامة أو التعويض عند الانتقال .

لقد استطاعت المكسيك أن تنقذ الكثير من أراضيها بالمعاهدة ، مع اعترافها بالهزيمة ، أما كاليفورنيا ، فقد خسرت كل شيء ، وإن الألفاظ لا يمكن أن تعبر عن مرارة أهاليها عند الانتقال من حكم إلى آخر . وإنه لمن دواعي العجب الشديد أن بقي واحد من المكسيكيين فيها ، ولعل أحداً منهم لم يبق إلا الذين اضطرتهم الظروف القاهرة إلى البقاء .

وقد كان من حسن حظ السنيورة مورينو أن عقود ملكيتها للأراضي الواقعة في قلب الوادي ، أقوى من عقود ملكيتها للأراضي الواقعة في الشرق والغرب ، التي كانت يوماًما ملكا لإرساليات سان فرناندو و بونا فنتورا . وبعد الانتهاء من كل الادعاءات والادعاءات المضادة ، والالتماسات والمطالب والتقويمات ، ظل في حوزة السنيورة من الأراضي ما يبدو للوافد الجديد إلى المنطقة أنها ضيعة كبيرة وإن ظلت في رأي السنيورة الغاضبة ضيعة صغيرة . وفوق هذا فقد كانت تعلن دائماً أنها لا تستطيع أن تضمن ملكية شبر من هذه

www.ibtesama.com

الأراضى الباقية . كانت تقول إن حكومة الولايات المتحدة قد ترسل فى أى يوم لجنة أراض جديدة لفحص مستندات ملكيتها أولا ، ثم انتزاع ما تراه منها بعد ذلك . فاللص يبقى لصا دائماً . وليس هناك من يستطيع أن يأمن على نفسه تحت حكم الأمريكيين ، وليس هناك من يستطيع أن يعرف ماذا قد يحدث فى أى يوم . وهكذا ، عاماً بعد عام ، أخذت خطوط الحزن والاستياء والقلق والعداء تزداد عمقاً فى وجه السنيورة الذى كانت ترتسم عليه الشيخوخة بسرعة بالغة .

ولشد ما أسعد قلبها أن رأت المقاولين ينشئون طريقاً عبر الوادى ، يمتد وراء منزلها بدلا من أن يجرى أمامه . وقد قالت عندئذ :

— حسناً ، ليمضوا إلى حيث ألقت وراء مطابخنا دون أن تقع عين أحدهم على الأبواب الأمامية لبيوتنا المفتوحة فقط لأصدقائنا الزائرين .

ولم تخف سعادتهـا لهذا السبب يوماً ، فـكلما رأت عربات ومركبات الأمريكيين البغيضة تمر بذلك الطريق ، امتلأت نفسها بالسعادة وهى تشعر أن بيتها يوليهم ظهره . وكانت تتمنى لو استطاعت دائما أن تفعل هذا أيضا . إلا أنها كلما اضطرت – للمجاملة أو للعمل —أن تواجه هؤلاء الأمريكيين ، فحسبها أن يظل البيت القديم بموقفه الذى ينم عن الاحتقار — مشيحا بوجهه عنهم .

وكان ثمة إحساس آخر بالبهجة يملأ نفسها — عقب إنشاء ذلك الطريق مباشرة — وهو إحساس امتزجت فيه مشاعر التعصب الدينى بالتعصب العنصرى ، امتزاجا ربما جعل أى كاهن يعجز عن وصف تصرفاتها فى هذا الشأن . هل هى فى جانب الرذيلة أم الفضيلة . ذلك أنها أصدرت أوامرها بإقامة

www.ibtesama.com

صليب خشبي كبير على كل قمة تل من التلال الصغيرة المستديرة المتناثرة فى الوادى ، حتى لم يعد يرى على مدى البصر من بينها تل واحد يخلو من رمز عقيدتها .

وكانت تقول فى هذا الشأن :

— حتى يرى هؤلاء المراطقة ، عند مرورهم ، أنهم فى ممتلكات سيدة كاثوليكية متعصبة ، وحتى يتذكر المؤمنون أن عليهم إقامة الصلاة والابتهال .

وما أكثر المعجزات التى وقعت وأدت إلى تحول أقسى وألحد الناس إلى الدين المسيحى بمجرد النظر إلى الصليب المبارك .

وهناك ، فى الصيف وفى الشتاء ، فى المطر وفى الصفاء ، ظلت هذه الأذرع المبسوطة بصمتها ووقارها حتى غدت من معالم الطريق أمام كثير من المسافرين — بلا دليل — الذين قيل لهم إن طريقهم يمتد عند أول منحنى ، يمينا أو شمالا بعد مرورهم على آخر صليب من صلبان السنيورة مورينو التى لا يمكن أن يخطىء رؤيتها . ومن ذا يستطيع أن يزعم أن هذه الصلبان لم تحمل — فى بعض الأحيان وعلى حين فجأة — رسالة الإيمان إلى قلوب بعض المسافرين الخاوية . وهكذا حققت النصف الدينى من أهداف السنيورة . حقا لقـــد توقف الكثير من المسافرين ورسموا علامته على صدورهم عند رؤيتهم لأول صليب ، فى تلك الأماكن الموحشة ، قائما إلى السماء ، مثيرا فى النفس الشعور المفاجىء بالراحة ، وإذا أدوا صلاة قصيرة عند هذه الرؤية ، أفلا يكون هذا أفضل !

وكان البيت مبنيا بالطوب ، خفيضا ، له شرفة واسعة تدور حوله ثلاثة جوانب من الفناء الداخلى ، وشرفة أخرى أكثر اتساعا تمتد على طول الواجهة

www.ibtesama.com

التى تطل على الجهة الجنوبية ، وكانت هذه الشرفات ، ولا سيما الداخلية منها ، تعتبر بمثابة غرفات إضافية للبيت ، ذلك أن معظم المقيمين فيه كانوا يقضون حياتهم بها ، إذ لم يكن بينهم من يقيم بداخل البيت إلا للضرورة . فأمام أبواب ونوافذ المطابخ كانت تجرى كل شئون الطهو ، فيما عدا الطهو نفسه ، وفيها كان الأطفال ينامون ويغتسلون ويجلسون فى التراب ، ويلعبون . وفيها كانت النسوة يؤدين الصلاة ويختلسن لحظات من النوم ، ويغزلن خيوط التطريز والوشى . وفيها كانت العجوز جوانيتا تقشر الفول وتلقى بالقشور على الأرضية الآجر ، حتى إذا جاء المساء كانت أكوام القشور ترتفع أحيانا حولها ، كما ترتفع أكوام التبن إبان درس القمح . وفى هذه الشرفات أيضا كان الرعاة يستريحون، ويدخنون، ويدربون كلابهم، والشباب من الجنسين يتبادلون الحب ، والعجائز لهن غطيط فى النوم ، وكانت الدكك الخشبية الممتدة على طول هذه الشرفات قد تآكلت وصقلت حتى صار لها بريق القماش اللامع ، وكذلك تكسرت أرضيتها الآجر ، وانخفضت فى بعض الأماكن صانعة حفرات تمتلىء أحيانا بماء المطر الغزير ، وتغدو عندئذ ملاعب تملأ نفوس الأطفال بالبهجة ، ومشارب للكلاب والقطط والدواجن التى كانت تلتقط الحب حولها ، وترتشف قطرات الماء منها .

وكانت الشرفة المسقوفة الممتدة على واجهة البيت مكانا ممتعا . ويبدو كأنها لم تكن تقل عن ثمانين قدما طولا ، لأن خمسة أبواب لخمس غرفات كانت تفضى إليها ، وكانت الغرفتان فى أقصى الجانب الغربى قد أضيفتا إلى البيت حديثا وارتفعتا عن سائر الغرفات بأربع درجات مما جعل نهاية الشرفة تبدو كأنها الروشن[1]. وهنا كانت السنيورة تنبت أزهارها فى أوعية فخارية ضخمة ، حمراء

(١) نوع من الشرفات المكشوفة .

www.ibtesama.com

مصنوعة بأيدى الهنود الحمر التابعين لإرسالية سان لويس أو بيسبو . وكانت هذه الأوعية تقوم فى صفوف متلاصقة بجوار الجدران ، وفيها كانت تنمو دائما أزهار الجرونيه والقرنفل وأزهار المسك الذهبية الأوراق . وكانت السنيورة قدورثت الشغف بالمسك عن أمها ، وقد بلغ من قوة شغفها به أن كانت تدهش لنفسها أحيانا ، وبينما كانت جالسة ذات يوم بالروشن مع الأب سالفيرديرا ، تناولت بضع زهرات وقدمتها إليه قائلة :

ـ إننى لا أدرى السر ؟ ولكن يبدو لى أننى لو مت لأعاد شذاه إلى الحياة .

فأجاب الكاهن المسن قائلا :

ـ إن حب هذا العطر يجرى فى دمائك يا سيدتى . فعند ما زرت بيت أبيك لآخر مرة فى مدينة سيفيل ، استدعتنى أمك إلى غرفتها حيث رأيت تحت نافذتها روشنا حجريا مليئا بأزهار المسك التى كان لشذاها من القوة ما جعلنى أشعر بالدوار ، ولكنها قالت لى إن عطر المسك يشفيها من الأمراض ، وإنها بدونه ، لا تشعر بالصحة الجيدة . وكنت أنت يومذاك طفلة .

فهتفت السنيوره قائلة :

ـ نعم ، ولكننى أذكر ذلك الروشن الحجرى . أذكر أنى كنت أرفع إلى النافذة حيث أرى ذلك المزهر الملىء بتلك الأزهار الذهبية الأوراق ، إلا أننى لم أكن أعرف ما هى : ما أعجب هذا !

فرد الأب سالفيرديرا قائلا :

ـ لا داعى للعجب يا ابنتى ، بل العجب لو أنك لم ترثى هذا الشغف بعطر

الملك بعد أن أرضعته لك أمك مع لبنها ، وعلى الأمهات أن يزددن معرفة بهذه الحقيقة .

وإن ثمة أنواعا شتى من النباتات والكروم المتسلقة عدا الجرونيه والقرنفل النامية فى الأوانى الفخارية الكبيرة ، بعضها يصعد من الأرض ويدور حول أعمدة الشرفة ، وبعضها ينمو فى أوعية ضخمة معلقة بالحبال فى سقف الشرفة ، أو موضوعة على رفوف مثبتة بالجدران . وكانت هذه الأوعية من الحجارة الرمادية ، مجوفة ومصقولة ولامعة من الداخل والخارج ، وكانت أيضا مصنوعة بأيدى الهنود منذ أحقاب وأحقاب لا يعرف مداها إلا الله ، ولم يكن لدى هؤلاء العمال الصابرين من أدوات التجويف والصقل غير الحجارة .

وبين هذه الكروم كانت تغرد ، من الصباح إلى المساء ، شراشر وبلابل السنيورة المعلقة فى أقفاصها . وكان لديها ستة أزواج من كل نوع ، وكل زوج ينتمى إلى جيل مختلف ، وكلها من تربية السنيورة ، ولم يحدث أن خلت أقفاصها قط من زوج حديث القفص ، وكان الأهالى فيما بين بوناڤتورا ومونتيرى يتنافسون فى الحصول على زوج من البلابل أو الشراشر التى تقتنيها السنيورة مورينو .

وكانت الأراضى الواقعة بين النهر والشرفة ، المطلة عليه ، عبارة عن حديقة وبساتين وبرتقال ولوز . وكانت بساتين البرتقال تبدو دائما خضراء مرصعة بأزهارها البيضاء ومثقلة بثمارها الذهبية ، وكانت الحديقة دائما موشاة بالزهر ، صيفا وشتاء ، أما بساتين اللوز بأزهارها ذات الكؤوس القرمزية وأوراقها البيضاء فكانت تبدو فى بواكير الربيع ، من التلال الواقعة على الضفة الأخرى من النهر ، كأنها سحب وردية انسدلت على الشمس فى ساعة الشروق ، وتشابكت بأغصان الشجر ، وعلى كلا الجانبين كانت تمتد بساتين أخرى للخوخ

www.ibtesama.com

والمشمش ، والكمثرى والتفاح والرمان ، وفيما يلى هذا كله كانت تمتد حقول الكرم ، أى لم يكن هناك شىء يراه الإنسان من الشرفة الجنوبية لبيت السنيورة إلا الخضرة والأزهار والثمار على مدار السنة .

وكان ثمة ممر واسع ممتد باستقامة ، مظلل بسياج تخللته ألوان النباتات المتسلقة بحيث لم يعد يبين شىء من قوائمه الخشبية ، ومؤد فورا من درجات الشرفة ، عبر الحديقة الوسطى ، إلى النبع الصغير الواقع فى أسفلها ، وعبر هذا النهر ، وتحت عشرات من الأشجار القديمة الظليلة ، كان ثمة مغاسل من الحجارة المنبسطة الواسعة تغسل عليها ملابس الأسرة . وهكذا لم يكن ثمة مجال للخادمات للتسكع أو التهاون فى العمل وهن يؤدينه تحت أنظار السنيورة الجالسة فى الجانب الأعلى من الحديقة . ولو أنهن علمن أية صورة جميلة يرسمنها للعين وهن راكعات على العشب ، رافعات الملابس المتقاطر منها الماء ، داعكاتها أماما وخلفا على المغاسل الحجرية ، باسطاتها حينا ، ثم عاصراتها حينا ، ناثرات الماء بعضهن فى وجوه بعض . . لو أنهن علمن هذا كله ، لرضين بالقيام بهذه العملية ليلا ونهارا فى كل يوم ، لأنه كان هناك دائما من يتفرج عليهن من جانب الحديقة المرتفع ، ذلك أنه لا يكاد يمر يوم دون أن تستقبل السنيورة بعض الزائرين . إذ كانت لا تزال شخصية لها مكانتها ، كما أن بيتها كان مثابة لاستراحة المسافرين عبر الوادى ، وأيا كان الزائر ، فقد كان يجلس طيلة الوقت مع السنيورة فى الشرفة المشمسة إذا لم يكن طاعما أو نائما أو متجولا فى الحديقة ، وفى الشتاء كانت الأيام الباردة قليلة جدا . أما فى الصيف فقد كانت حرارة النهار ترغم السنيورة وزائريها على البقاء بالداخل ، وكان بالشرفة ثلاثة مقاعد من خشب السنديان المحفور ، ودكة من نفس النوع والخشب ، عهد بها إلى السنيورة من الرئيس المسن

www.ibtesama.com

لإرسالية سان لويس راى إبان احتلال الجنود الأمريكيين للارسالية عقب استسلام كاليفورنيا .

وكان رئيس الإرسالية الذى فجع من التصرفات الشائنة للجنود الذين أقاموا فى عقر الكنيسة واتخذوا - على سبيل التسلية - من عيون تماثيل القديسين وأنوفهم أهدافا لرصاص غداراتهم - قد تسلل حاملا ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد أخرى ، كل مايستطيع حمله من الكنيسة مخفيا فى باطن الأرض الأشياء الثمينة بعد لفها فى أمشاج القطن ، وحاملا بعضها إلى كوخه الصغير ، حتى استطاع فى النهاية جمع حمولة مركبات من هذه الكنوز المقدسة . ثم أخذ بعد ذلك ، مع الحرص الشديد ، فى نقلها - قليلا فى كل مرة - فى قاع عربات تحت أكوام من التبن أو القش إلى بيت السنيورة التى اعتبرت هذه الثقة شرفا كبيرا ، والتى تسلمت كل شىء كأمانة مقدسة ، ترد إلى الكنائس بعد أن تتحرر الإرساليات من نير الاحتلال ، وكان الأمل فى ذاك كبيرا لدى جميع الكاثوليكيين . وهكذا أصبح فى كل غرفة من غرفات بيت السنيورة لوحة أو تمثال لقديس أو للعذراء . أما مذبح الكنيسة القائمة فى وسط الحديقة ، فقد كان محاطا بصفوف رائعة لتماثيل القديسين والحواريين التى كانت تطل على المراسم الدينية الفاخرة لإرسالية سان لويس راى فى عهد الأب ليرى ، كما ظلت تطل الآن على المراسم الدينية البسيطة التى تقيمها أسرة السنيورة فى عهد انكماش الضيعة . و إذا كان هذا التمثال قد فقد عينا ، أو ذاك قد فقد ذراعا ، أو الألوان الزاهية لكسوة هذا أو ذاك من التماثيل قد حالت ألوانها ، فإن هذا كله لم يترك فى النفس إلا مزيدا من التأثير الروحى عندما كانت السنيورة تركع أمامها وعيناها مليئتان بدموع الاستنكار وهى تتذكر أيدى أولئك المراطقة الذين تسببوا فى هذه

www.ibtesama.com

التشوهات . حتى الأكاليل التى كانت موضوعة على رءوس التماثيل فى أثناء وجودها فى آخر احتفال دينى بالإرسالية ، نقلت معها على يدى رئيسها الورع ، ، وأعادت السنيورة كلا منها إلى مكانها من التمثال وهى ترى أنها لاتكاد تقل قدسية عن صاحب التمثال نفسه .

وكانت هذه الكنيسة الصغيرة أعز على السنيورة من بيتها ، وكان الجنرال قد شيدها فى العام التالى لزواجهما ، وقد تم فيها تعميد أبنائها الأربعة ، وفى ثراها دفنوا جميعا - فيما عدا ابنها الوسيم فيليب - عندما كانوا أطفالا . وفى أيام الجنرال ، أى عندما كانت الضيعة فى ذروة مجدها ، والمقيمون فيها من الهنود الحمر مئات ومئات ، كانت تأتى أيام آحاد يبدو فيها للرائى أنه ينظر إلى مشهد من مشاهد إرسالية كبيرة ، إذ كانت الكنيسة تمتلىء بالراكعين من الرجال والنساء والذين لايجدون مكانا بداخلها ، كانوا يركعون فى ممرات الحديقة بخارجها ، والأب سالفيرديرا ، بملابسه الفاخرة يتقدم ببطء — عند اقتراب المراسم من النهاية - نحو المذبح ، فى حين يفسح له الراكعون المتكتلون طريقاً لمروره وهم يتطلعون فى رجاء إلى بركاته . بينما تقدم له النسوة المطايا من الفاكهة والزهر ، رافعات بأيديهن الأطفال عسى أن يضع يديه على رؤوسهم ، ولم يكن هناك أحد — غير الأب سالفيرديرا — قد قام بالطقوس الدينية بكنيسة آل مورينو ، أو سمع اعترافاتهم . وكان واحداً من الفرنسيسكان القليلين الذين بقوا فى المنطقة . وقد بلغ من حب واحترام أولئك الذين تأثروا به ، أنهم كانوا يفضلون الانتظار الأشهر الطوال بلا طقوس دينية ، على أن يعترفوا بخطاياهم أو يفضوا بمتاعبهم لشخص آخر ، وبسبب هذا التعلق الشديد بمذهب الفرنسيسكان من جانب الهنود الحمر ، والأسر المكسيكية بالمنطقة ، داخلت

www.ibtesama.com

الغيرة من هذا المذهب — وهذا طبيعي — نفوس الرهبان الآخرين ، ومن ثم أصبح مركز رهبان الفرنسيسكان القليلين الباقين ، لايحسدون عليه . بل لقد أشيع أنه صدرت الأوامر لمنعهم من ممارسة شعائرهم فى طول المنطقة وعرضها ، وأن عليهم أن يقصروا جهودهم على أتباعهم فى سانتابربارا وسانتا إينيز . وعندما ذكر شيء من هذا القبيل أمام السنيورة موريتو ، اضطرمت وجنتاها بحمرة الغضب ، وهتفت قائلة بلا تفكير :

— إذا حدث هذا يوماً ، فسوف أحرق كنيستى .

ومن حسن الحظ لم يسمع هذه العبارة الهوجاء غير ابنها فيليب ، كما أنها لم تلبث أن عادت إلى صوابها وقالت :

— لقد تسرعت فى الحديث يابنى ، والواجب أن نطيع دائماً تعليمات الكنيسة ، على أن الآباء الفرنسيسكان غير مسئولين أمام أحد إلا رئيس مذهبهم . وليس فى هذه البلاد من له سلطة منعهم من الانتقال وممارسة شعائرهم مع كل من يشاءون . أما بشأن قساوسة المذهب الكاتالانى الذين أقبلوا إلى هذه المنطقة ، فأنا لا أستطيع احتمالهم ، فليس بينهم واحد إلا والشر يجرى فى دمائه .

والواقع أنه كان للسنيورة العذر لتعصبها الشديد لمذهب الفرنسيسكان ، فمنذ نعومة أظافرها وهى معتادة رؤية الرداء الرمادى وقلنسوته اللذين كانا يرنوان لكل ما تعلمته من أشياء مقدسة وعزيزة . وكان الأب سالفيرديرا نفسه قد جاء إلى مونتيرى من المكسيك على نفس السفينة التى حملت أباها ليكون حاكما على منطقة سانتابربارا . وكان عمها الحبيب ، الشقيق الأكبر لأبيها ، فى نفس الوقت مديراً لإرسالية سانتابربارا ، ومن ثم انقسمت أيام شبابها إلى قسمين

www.ibtesama.com

متساويين تقريبا : قسم شاهد مباهج الحياة الصاخبة المثيرة فى قصر الحاكم ، والقسم الآخر اختلط بالعبادة والشعائر الدينية فى الإرسالية ، وكانت فى ذلك الحين مشهورة بأنها أجمل فتاة فى المنطقة كلها ، ومن ثم كانت موضع إعجاب وحب رجال الجيش ، ورجال البحرية ، ورجال الكنيسة على السواء ، وكان الجميع من فرط الإعجاب يشربون نخب اسمها فى المنطقة الواقعة بين مونتيرى وسان دييجو ، وعندما استطاع أخيرا أن يظفر بحبها فيليب مورينو الذى كان من أشهر قواد الجيش المكسيكى : أقيمت لزواجهما احتفالات لم تشهد البلاد مثلها فى الروعة والأبهة . وكان البرج الأيمن لكنيسة سانتابربارا قد تم بناؤه يومذاك ، ومن ثم اتخذت الترتيبات الخاصة ليكون الاحتفال بتدشينه مع احتفالات زواجها ، وأن تقام مأدبة الزواج فى الردهة الطويلة الواقعة خارج بناية الإرسالية . وإلى هذه الاحتفالات التى استمرت ثلاثة أيام دعى جميع المقيمين فى المنطقة من بعيد أو من قريب ، حيث مدت الموائد لهم بلا استثناء ، وحيث أخذوا فى الغناء والرقص والأكل والشرب وكل ألوان المباهج والمسرات. وكانت ثمة فى ذلك الحين شوارع طويلة تقوم على جوانبها منازل الهنود ، وتمتد شرقا من الإرسالية . وأمام كل بيت أقيمت خيمة من الأغصان الخضراء ، وقد دعى إلى هذه الاحتفالات جميع الهنود فى المنطقة مع جميع القساوسة من الإرساليات الأخرى ، وجاء الهنود فى جماعات ، يرددون الأغانى ويحملون الهدايا . وعند ظهورهم ، استقبلهم هنود سانتابربارا وهم يرددون الأغانى أيضا ويحملون الهدايا وينثرون البذور على الأرض رمزا للحفاوة والترحاب ، وكانت السنيورة الشابة وعريسها بملابسهما الفاخرة موضع أنظار الجميع الذين كانوا يحيونهما ، حيثما ظهرا ، بنثار من البذور والقمح والأزهار . وفى اليوم الثالث ، وهما لا يزالان فى ملابسهما الفاخرة و يحملان

www.ibtesama.com

الشموع المضاءة ، سار مع الرهبان فى موكب أخذ يدور حول البرج بضع دورات. وكان الرهبان ينشدون وهم ينثرون العطور والماء المقدس على الجدران ، حتى بدا لجميع الناظرين أن هذه الحفلة إنما هى تدشين مبارك لبدء الحياة الزوجية لهذين العروسين ، وللبرج الجديد فى آن واحد . وبعد هذا كله ساروا فى موكب رسمى مكون من عدد كبير من ضباط وأركان حرب الجنرال ، ومن اثنين من الآباء الفرنسيسكان ، إلى مدينة مونتيرى . وكان الموكب يتوقف عند كل إرسالية حيث يلقى من الاستقبال والحفاوة الشىء الكثير .

وكان الجنرال مورينو موضع حب الجيش والكنيسة فى وقت واحد .ومن ثم كان من العوامل المهدئة فى كثير من الاصطدامات التى كانت تقع بين القوى العسكرية والقوى الدينية ، باعتباره واحدا من أخلص الناس للقوتين . وكان الهنود يعرفون هذا الاسم جيدا بعد أن سمعوه يردد كثيرا فى احتفالات صلاة الشكر التى كانت تقام فى الكنائس الكاثوليكية . وذلك بعد أن يكون قد قام بأعمال جليلة لرهبان هـــذه الإرسالية سواء فى المكسيك أو فى مونتيرى . أما وقد أصبح زوجا لابنـــة ذلك القائد المشهور ، وابنة أخى رئيس إرسالية سانتابربارا ، فقد زاد ذلك من قوة ارتباطه بهاتين القوتين الكبيرتين التى تتوقف عليهما أهم مصالح المنطقة .

ولما وصل الموكب إلى مقر إرسالية سان لويس أوبسبو ، خرج جميع أهاليها الهنود وفى مقدمتهم الرئيس لاستقبال العروسين ، وفيما كان هذان يقتربان من باب الإرسالية ، أخذ الأهالى الهنود يزدادون اقترابا منهما ، وتحلقوا حولهما ،

ثم إذا ببعضهم يمسك برأس جواد الجنرال و يوقفه ، ثم تآزر عشرون رجلا قويا وحملوه — مرغما — على محفة ، وصعدوا به السلالم ، وعبروا الردهة إلى غرفة الرئيس . وكان الموقف فى ذاته يدعو إلى الشعور بالحرج ، ولكن الجنرال تقبله بصدر رحب . وقد هتف قائلا وهو يضحك للرئيس مارنيفيز الذى حاول أن يهدىء الهنود و يبعدهم عن الجنرال :

— دعهم وشأنهم إذا كان هذا يرضيهم .. دعهم يفعلوا ما يريدون إذا كان فى هذا ما يرضى هؤلاء المساكين .

وفى صباح رحيلهما ، و بعد أن بذل رئيس الإرسالية كل ما فى وسعه للحفاوة بهما ، أصدر أمره بجمع كل ما فى الإرسالية من دواجن لتكون موضع استعراض الضيفين الكبيرين ، واستغرق هذا العرض نحو ساعة امتزجت فيها أنغام الموسيقى مع مختلف أصوات الدواجن ، وفرقعة السياط ، وصياح الأهالى الهنود الذين كانوا ينظمون صفوفها ، وقد بدأ أولا بالديكة الرومية ، ثم الديكة الهندية ، ثم الدجاج الأبيض ، ثم الأسود ، ثم الأصفر ، ثم البط . . وفى نهاية الطابور الطويل للأوز ، كان ثمة ست أوزات أو نحو ذلك قد أخذت تتواثب وتحاول الطيران وترسل من مناقيرها فحيح الاستنكار لهذا الوضع الشائن الذى تعرضت له . وكان الهنود قد أمضوا الليل كله فى عمل شاق وهم يمسكون بالدواجن و يصنفونها و ينظمون صفوفها و يحرسونها ويمكن القول بلا مبالغة أنه لم يحدث أن شاهدت سواحل المحيط الباسيفيكى منظرا أطرف من هذا . وقد كاد الجنرال وعروسه أن يموتا من فرط الضحك ، بل لقد كان الجنرال ينفجر ضاحكا كلما تحدث عن هذا المنظر فيما بعد .

www.ibtesama.com

أما فى مونتيرى نفسها ، فقد كان الاستقبال أعظم ما يكون فخامة وبهاء . ففى قصر الحاكم ، وفى بناية الإرسالية ، وعلى ظهور السفن الإسبانية والروسية والمكسيكية الراسية فى الميناء ، أقيمت الولائم وحفلات الرقص والغناء ومصارعة الثيران وكل ما تعرفه البلاد من ألوان الحفاوة والترحاب ، تكريما للعروس الجميلة الجذابة . وقد اجتمعت الحسناوات على طول الساحل ابتداء من سان ديجو حتى مونتيرى للاشتراك فى هذه الحفلات ، ولكن لم يكن بينهن من تضاهى العروس جمالا . وكانت تلك بدء حياة السنيورة الزوجية وهى فى العشرين من عمرها . ولكن لو أن أحدا تأملها عن قرب ، لاستطاع أن يرى وراء الابتسامة الهائلة ، والعيون الضاحكة والصوت المتهدج بالسرور نظرات تنم عن التفكير ، والحنان ، واللهفة ، بل والحماسة أحيانا . وكانت تلك النظرات تعكس المزايا الكامنة فيها والتى لم تكن قد نضجت بعد ، والتى جملت منها ، مع مرور الأيام التى شدت عودها ، والأحداث العاصفة التى تكاثفت حولها ، زميلة قوية تليق لروح زوجها العسكرية ، وتابعة مخلصة شديدة التعلق بالكنيسة . وقد ظلت دائما مرفوعة الرأس ، ثابتة الجنان خلال الحروب ، والهزائم ، والثورات والأزمات ، وبين الإسبان والمكسيكيين ، ورجال الجيش والدين والمدنيين ، وكل ما زاد عليها أنها ازدادت ، ببساطة ، أكثر فخرا بإسبانيتها وبانتمائها إلى آل موربنو ، كما زاد تعصبها للكاثوليكية ، وتعلقها بالمذهب الفرنسيسكانى .

وفى ذروة عمليات تخريب ونهب الإرساليات بناء على القوانين العلمانية[1] كانت هى فى ذروة نشاطها وحماستها .. كانت تقوم ، أكثر من مرة ، بالسفر

---

(١) القوانين التى تطالب بالتحول من الدين إلى الدنيا .

www.ibtesama.com

بمفردها ، حتى لو كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر ، إلى مونتيرى لحث رئيس الإرساليات على للزيد من المقاومة ومطالبة السلطات الحكومية بالتدخل لحماية ممتلكات الكنيسة ويرجع الفضل إلى نشاطها هذا فى إصدار الحاكم ميكاتورينا أوامره الحاسمة بإعادة كل الإرساليات الواقعة جنوبى سان لويس أوبسبو إلى حظيرة الكنيسة . ولكن هذا الأمر أدى إلى ضياع مستقبل ميكاتورينا السياسى ، كما أصيب الجنرال مورينو بجراح خطيرة فى إحدى المناوشات التى أدت إلى طرد ميكاتورينا من البلاد .

وأخذت السنيورة ، فى صمت وشعور عميق بالمهانة ، تمرض زوجها وتعيد إليه صحته ، مصممة على ألا تحشر نفسها فى شئون هذه البلاد التعسة ، والكنيسة الأكثر تعاسة. وهكذا أخذت ، عاما ، بعد عام تشهد انهيار الإرساليات الواحدة بعد الأخرى ، وذوبان ممتلكاتها ومقتنياتها - كما يذوب الندى أمام الشمس - فى أيدى الخونة من الحكام والسياسيين ، دون أن تستطيع الكنيسة أن تفعل شيئا لصد هذا الجشع الرهيب ، أما الآباء الفرنسيسكان ، فقد طردوا من البلاد أو تركوا ليموتوا جوعا فى مراكزهم القصية ، واضطرت هى للخضوع لما أسمته - رغما عنها - إرادة الله التى قضت بأن يحل هذا كله بالكنيسة . وفى شىء من الاستسلام الممزوج بالحيرة أخذت تنتظر ما سوف تأتى به الأيام من مزيد من العذاب ، حتى يصل إلى مداه العقاب الذى تقرر - لأسباب خفية - أن يتحمله المؤمنون، ولكن حينما أعقب ما حل بالكنيسة من كوارث ؛ تلك الكوارث التى حلت ببلادها فى الحرب ، واقتراب الخطر الداهم ، الذى لا مفر منه ؛ أى خضوع بلادها للناطقين باللغة الإنجليزية ، اندلعت النيران التى كانت خافتة فى

www.ibtesama.com

نفس السنيورة ، وشدت بيدين ثابتتين السيف إلى « ستزة » زوجها العسكرية ، وودعته إلى القتال بعيون خالية من الدموع . ولم يكن يحز فى نفسها إلا شىء واحد ، وهو أنها ليست أما لأبناء صالحين للقتال .

وكانت تقول المرة بعد الأخرى لابنها فيليب الصبى بصوت لم يستطع أن ينساه أبدا .

ـ ليتك كنت رجلا حتى تستطيع أن تحارب هؤلاء الغرباء أيضا .

وكانت السنيورة ترى أن الأمريكيين هم أسوأ شعوب الأرض طرا . إذ كانت تحتقرهم فى طفولتها وصباها وهى تراهم ينتقلون من مركز إلى آخر للتجارة . وقد ظلت طيلة حياتها وهى تحمل لهم هذا الاحتقار . ولم يكن يخطر ببالها قط أن بلادها ستهبط يوما إلى هذا المستوى وتحارب جماعة من البدالين . ولم يداخلها الشك فى بادىء الأمر بأن المكسيكيين سوف ينتصرون فى المعركة .

وكانت تهتف قائلة

ـ ماذا ؟ أيمكن لهؤلاء التجار أن يهزمونا ، نحن الذين ظفرنا باستقلالنا من الإسبان ! هذا مستحيل .

وعندما حمل إليها زوجها جثة هامدة ، بعد مصرعه فى آخر معركة شنتها القوات المكسيكية ، قالت بصوت بارد كالثلج :

ـ لقد آثر أن يموت على أن يضطر لرؤية بلاده خاضعة لأعدائه .

وقد كاد الخوف يداخلها حين رأت أن هذه الذكرة ـ بعد أن سيطرت على عقلها ـ قتلت الحزن فى قلبها؛ إذ كانت تؤمن أنها لاتستطيع الحياة إذا مات

www.ibtesama.com

زوجها ، ولكنها وجدت نفسها سعيدة - إلى حد ما بموته - سعيدة لأنه أعفى من معرفة ومشاهدة ما حدث . وحتى إحساسها الرقيق الذى كان يصوره لها حيا فى السماء ، مع القديسين والأولياء ، كان كثيراً ما يتحول إلى تساؤل عنيف عما إذا كانت روحه تمتلىء بالاستنكار - حتى وهو فى السماء - بسبب مايجرى فى البلاد التى ضحى بنفسه من أجلها .

ومن هذه المشاعر العنيفة ، نمت الطبيعة الثانية للسنيورة مورينو ، طبيعتها التى جعلتها تبدو أمام الذين يرونها وهى فى الستين من عمرها ، ساكتة ، متحفظة حازمة لاتلين . أما الشابة الجذابة الرقيقة التى كانت ترقص وتضحك مع الضباط ، وتبتهل وتعترف للرهبان ، منذ أربعين عاما ، فلم يبق منها غير آثار ضئيلة فى هذه السيدة العجوز ذات الصوت الخافت والشعر الأبيض ، والوجه العبوس الذى لا يعرف الضحك، السيدة التى استهدفت - عن طريق ابنها وكبير رعاتها كذلك - إتاحة الفرصة أمام جماعة من الهنود ليعترفوا بخطاياهم بين يدى الراهب الفرنسيسكانى فى كنيسة آل مورينو .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

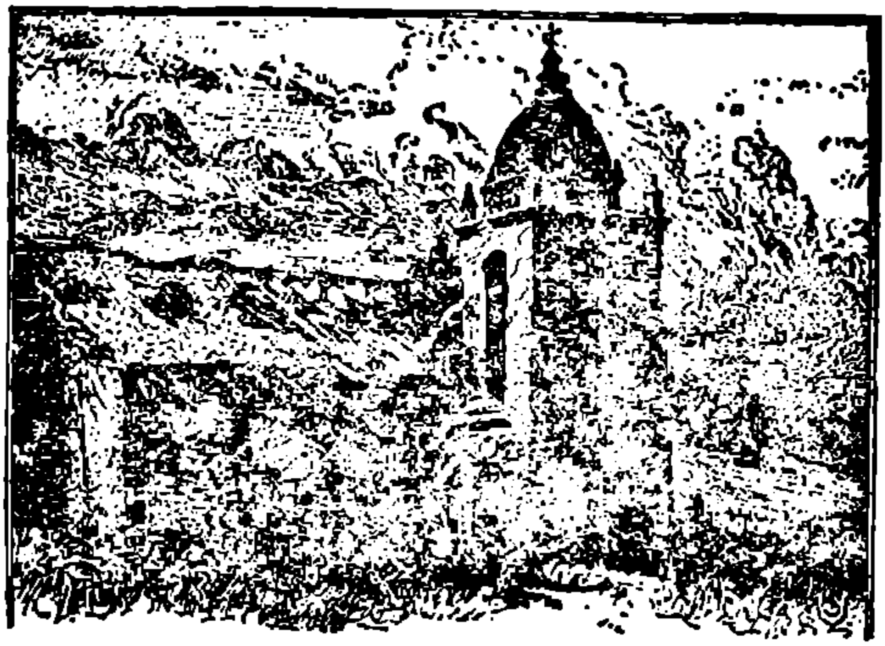

(٣)

لم يكن جوان كانيتو والسنيور فيليب هما فقط من بين أفراد أسرة موربنو اللذان يتلهفان على عملية جز أصواف الغنم ، فقد كانت هناك أيضاً رامونا .

ورامونا هذه كانت - فى نظر الجميع بوجه عام — شخصية أهم بكثير جداً حتى من شخصية السنيورة نفسها ، لقد كانت السنيورة شخصية هامة فى الماضى ، أما رامونا فهى الشخصية الهامة فى الحاضر . فإذا كان هناك عين تستطيع أن ترى ماينطوى عليه وجه السنيورة الرزين الشاحب الجميل الملىء بالظلال ، فإن هناك مائة عين تلتمع بالبهجة واللهفة لمجرد النظرة العابرة إلى وجه رامونا ، وكان الجميع ابتداء من رعاة الغنم والماشية والخدم والأطفال إلى الكلاب والدواجن كلها تحب النظر إلى رامونا . كانوا كلهم يحبونها فيما عدا السنيورة . لم تكن السنيورة تحبها ولم يحدث أن أحبتها يوماً ، ولم يكن فى مقدورها أن

www.ibtesama.com

تحبها . ومع ذلك فقد ظلت بالنسبة للفتاة ـ منذ طفولتها ـ بمثابة الأم ، ولم يحدث قط ، طيلة السنوات الست عشرة من عمرها أن عاملتها بفظاظة . لقد وعدت أن تكون أما لها ، واستطاعت بكل مافى أعماق نفسها من قوة وحزم أن تفى بهذا الوعد . وإذا كان الوفاء بهذا الوعد قد أدى إلى انحراف فى المشاعر ، فإن الذنب فى هذا لم يكن ذنب السنيورة .

إنها ، أى السنيورة ، لم تخبر أحداً قط بقصة رامونا ، ولهذا فقد ظلت الفتاة فى نظر الذين يعرفون السنيورة لغزاً ، إنهم لم يعرفوا ألبتة ، ولم يجرؤ أحد منهم بدافع الفضول أن يسأل السيورة مورينو من هما والدا رامونا ، وهل هما على قيد الحياة أم فى عداد الأموات ، أو لماذا تعيش رامونا ـ وهى لاتحمل اسم مورينو ـ فى بيت السنيورة كابنة متبناة ويهتم بأمرها كل الاهتمام الشاب المحبوب فيليب ، ولكن كان هناك فى المنطقة قليل من النساء والرجال الذين وخط الشيب شعورهم ، يمكنهم أن يخبروك بقصة رامونا العجيبة ، إلا أن بدايتها كانت ترجع إلى أكثر من نصف قرن ، وقد حدث فى هذه الفترة الشىء الكثير . ومن ثم فإنهم قلما يفكرون فى الطفلة نفسها ؛ إذ كان حسبهم أن يروها فى رعاية السنيورة ، كما أن شئون الجيل المنصرم لم تكن تهم كثيراً شباب الجيل النامى ، لأن هؤلاء الشباب سوف يواجهون من أحداث الحياة مافيه الكفاية ، ومن ثم فما جدوى أن تنقل إليهم أحداث الحياة المنصرمة ؟ ومع هذا فإن قصة رامونا لم تكن بالقصة التى تنسى ، وإنما كانت تردد بين الحين والآخر فى ليالى الصيف أو تحت الكروم فى الأصائل ، وكان الشبان والفتيات ينصتون إليها بلهفة واستمتاع .

كانت للسنيورة أخت كبرى ، أخت فى سن الحب والزواج ، وكانت

www.ibtesama.com

السنيورة لما تزل طفلة لاهية ، وكانت هذه الأخت الكبرى مخطوبة للزواج من شاب اسكتلندى يدعى أنجوس فايل ، وكانت على جانب كبير من الجمال بحيث أحبها أنجوس حبا جنونيا منذ رآها لأول مرة وهى واقفة فى مدخل قصر الحاكم . ولعل هذا هو العذر الوحيد الذى يمكن أن يبرر به فعلة رامونا جوانزاجا ، إذ لم يكن فى مقدور أحد ، ولو كان من أشد الحاملين عليها ، أن ينكر أنها ظلت فى بادىء الأمر ، ولشهور عديدة ، تخبر أنجوس أنها لا تحبه ولا تستطيع أن تتزوجه ، وأنها لم تعده بالزواج إلا بعد أن ظل يتوسل إليها بكل مالديه من قوة وإلحاح ، وبعد ذلك مباشرة رحلت إلى مونتيرى وأبحر أنجوس إلى سان بلاس . وكان فى ذلك الوقت يمتلك أكبر خط ملاحى للتجارة على الساحل ، وكانت أغلى الأشياء ، كالمصنوعات الحفرية ، والأخشاب الثمينة ، واللآلىء ، والجواهر التى تأتى إلى البلاد ، إنما تحمل إلى سفنه . وكان مجرد وصول إحدى هذه السفن إلى ميناء ما يعتبر حدثا فى ذاته . وكان أنجوس نفسه الطيب المنبت فى اسكتلندا ، المهذب البارع فى فنون الملاحة ، يلقى كل حفاوة وترحيب من أرق البيوت حينما ألقت سفنه مراسيها على طول الساحل من مونتيرى إلى سان ديجو .

وكانت السنيورة رامونا جونزاجا قد أبحرت إلى مونتيرى فى نفس اليوم والساعة التى أبحر فيها أنجوس إلى سان بلاس . وقد وقف كل منهما على سطح سفينته يلوح للآخر مودعا ، فى حين كانت إحدى السفينتين تبحر إلى الجنوب ، والأخرى إلى الشمال . ومما يذكر فيما بعد أن الذين كانوا مع السنيورة فى سفينتها رأوها تتوقف عن التلويح وتستدير بظهرها إلى سفينة حبيبها قبل أن تغيب بمدة

www.ibtesama.com

طويلة. أما رجال سفينة أنجوس « سان جوزيه » فقد قالوا إنه ظل واقفا بلا حراك متجه النظر نحو الشمال حتى أسدل الليل ستاره ، فلم يعد يرى الأفق البعيد الذى اختفت فيه ، منذ مدة طويلة ، سفينة مونتيرى .

وكان المفروض أن تكون رحلته هذه هى آخر رحلة له. وقد قام بها فقط لأن دواعى الشرف حتمت عليه ذلك . وكذلك واسى نفسه بالتفكير فى أنه سيعود إلى عروسه ، وإلى البيت الذى سيقيمه لها ، محملا بكنوز من كل صنف ، لا يستطيع أحد غيره أن يحسن اختيارها . وكان طيلة الأسابيع العديدة التى استغرقتها الرحلة ، يجلس وهو يرنو إلى الأمواج حالما ، تاركا خياله يجتر على مناظر الجواهر والأقمشة الحريرية ، المطرزة والموشاة التى تتناسب تماما مع جمال وجه زوجته وقوامها . وعندما يعجز فى النهاية عن احتمال ما تثيره هذه الصور الخيالية من حرارة فى دمائه ، كان ينهض ويذرع سطح السفينة ذهاباً وإياباً بخطوات تزداد سرعة حتى تبدو فى النهاية كأنها خطوات إنسان يطير من الفزع ، وفى خلال هذا كله ، كان رجاله يسمعونه وهو يردد لنفسه فى همس « رامونا .. رامونا » . نعم كان أنجوس مجنونا بحبها منذ أن رآها حتى آخر لحظة من العمر . بل لقد كان ثمة كثيرون يعتقدون أنه لابد فاقد عقله تماما إذا حدث وأصبحت زوجته فعلا وأنه ما كان ليتردد فى قتلها أو قتل نفسه كما اعتاد أن يفعل مجانين الحب . ولكن هذا لم يحدث قط . فبعد ثمانية أشهر ، أى عندما وصلت السفينة « سان جوزيه » إلى ميناء سانتا بر بارا ، وثب أنجوس ثايل إلى الشاطىء لاهث الأنفاس ، وإذا بثانى رجل يستقبله واحد من الحاقدين عليه ، فقال له وهو يبتسم بخبث فى وجهه :

www.ibtesama.com

— مهلا ، مهلا ، لقد تأخرت عن حفلة الزفاف فإن حبيبتك الشابة الجميلة ابنة آل بونزاجا تزوجت هنا أمس من ضابط شاب من حامية قصر حاكم مونتيري .

وترنح أنجوس ، ثم وجه لكمة قوية إلى وجه الرجل ، وسقط على الأرض والزبد يخرج من فمه . ولكنه سرعان ما أفاق من غشيته بعد أن حمل إلى إحدى الخيام ثم تخلص بقوة عارمة من أيدى الممسكين به ، وانطلق خارجا ، عارى الرأس ، فى الطريق إلى قصر الحاكم ، وهناك عند البوابة ، أوقفه أحد الحراس الذين يعرفونه ، فقال له أنجوس :

— أحقا ما حدث ؟

فرد الرجل ، قائلا فيما بعد إن ركبتيه كانتا ترتعدان من منظر الاسكتلندى خوفا من أن يقضى عليه أنجوس بضربة ، بسبب هذه الإجابة :

— نعم يا سيدى .

ولكن أنجوس ، بدلا من هذا ، انفجر فى ضحك عصبى ، واستدار عائدا مترنح الخطوات وهو يغنى ويضحك .

وكل ما عرف عنه بعد ذلك أنه شوهد فى إحدى الحانات الرخيصة ملقى على الأرض فاقد الوعى من فرط السكر ، وظل ينحدر يوما بعد يوم ، حتى أصبح من المناظر المألوفة فى سانتا بربارا ، منظر أنجوس قابل وهو يتمايل من السكر عربيدا ، متسكعا شديد الخطر ، مما جعل ذوى التفكير السطحى يقولون :

ـ أنظروا إلى الذى نجت السنيورة منه !! لقد كانت على حق فى عدم زواجها من هذا السكير البائس !

www.ibtesama.com

وفى الأوقات القليلة التى كان يفيق فيها من السكر إلى حد ما ، كان يبيع كل ما يمتلك ـ السفينة بعد الأخرى ، بأبخس ثمن ، ثم يبعثر ما يحصل عليه فى الشراب أو فيما هو أسوأ منه ، ولم يحدث قط أن رأى حبيبته ، ولم يسع هو إلى ذلك . أما هى فكانت تتخذ ـ من فرط خوفها ـ كل وسيلة لاجتنابه ، ثم سرعان ما عادت مع زوجها إلى مونتيرى .

واختفى أنجوس أخيرا ، و بعد حين وردت الأنباء من لوس أنجليس أنه كان بها ، وأنه رحل عنها إلى إرسالية سان جابرييل ، حيث ظل مقيما مع الهنود الحمر ، وبعد سنوات أخرى وردت أنباء أدعى لإثارة العجب ، قائلة إنه تزوج أرملة هندية ذات أبناء عديدين ، وأن زواجه بها تم شرعا على يدى كاهن كنيسة إرسالية جابرييل ، وأن هذا كان آخر ما سمعته رامونا جونزاجا الغادرة عن حبيبها ، ولكن حدث ذات يوم ، بعد عشرين عاما من زواجها ، أن ظهر أنجوس فجأة أمامها . أما كيف تمكن من الدخول إلى بيتها ، فهذا ما لم يعرفه أحد ، إلا أنه وقف أمامها حاملا بين يديه طفلة جميلة ، نائمة ، و بعد أن انتصب بكل جسمه الفارع القوام ، نظر إليها فى حزم بعينين زرقاوين كالصلب ، ثم قال :

ـ سنيورة أورتينا . لقد ارتكبت فى حقى ذات مرة خطأ جسيما . لقد أذنبت ، وقد عاقبك الله بحرمانك من الأبناء . وكذلك أخطأت أنا ، وأذنبت وعاقبنى الله بمنحى هذه الطفلة . وأنا أطلب منك ، مرة أخرى ، أن تسدى إلى فضلا بأن تأخذى طفلتى هذه وتربيها كما ينبغى أن تربى طفلة لك .. أو لى .

وكانت الدموع تنحدر على وجنتى السنيورة أورتينا . إذ كان الله

قد أوقع عليها حقا ألوانا من العقاب أكثر مما عرف أنجوس ، وكان حرمانها من الأبناء ـ رغم كل مافيه من مرارة ـ أهون أنواع هذا العقاب . وقد نهضت دون أن تلفظ بكلمة ، ومدت ذراعيها للطفلة التي وضعها الأب بينهما ، والتي ظلت حتى ذلك الحين نائمة هادئة ، وقالت متلعثمة :

ـ لست أدري هل .. هل سيقبل زوجي ـ أن ـ

فقاطعها أنجوس قائلا :

ـ إن الأب سالفيرديرا سيأمره بذلك . لقد قابلته اليوم .

فقالت السنيورة وقد أشرق وجهها :

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فأنا أرجو أن أحقق ما تريد .

ثم غمرها ارتباك شديد ، ونظرت إلى الطفلة ، وقالت متسائلة :

ـ ولكن ماذا عن أمها .

واضطرم وجه أنجوس بحمرة قانية ؛ ولعله أدرك وهو يواجه هذه السيدة الجميلة الرقيقة التي أحبها ، كيف ضيع بكل حماقة حياته . وبحركة سريعة قوية التعبير مد يده ، وقال :

ـ لا عليك . إن لها أبناء كثيرين من جنسها . أما هذه فإنها مني .. ابنتي .. ابنتي الوحيدة وأنا أتمنى أن تكون ابنتك ، وإلا فسوف تأخذها الكنيسة .

وكان قلب رامونا أورتينا يهفو إلى الطفلة مع كل لحظة شعرت فيها بجسمها

www.ibtesama.com

الرقيق الدافىء بين ذراعيها ، وعند ما سمعت هذه الكلمات ، أدنت وجهها وقبلت خدها قائلة :

ـ لا .. لا . لن تأخذها الكنيسة ، لسوف أحبها كما لو كانت ابنتى .

واختلج وجه أنجوس ڤايل ، و بدأت تنبعث من مرقدها مشاعر خمدت منذ أمد بعيد. و بعد أن رنا طو يلا إلى الوجه الحزين المتغير الذى كان يوما جميلا محبوبا، انفجر قائلا رغما عنه :

ـ إن ما طرأ عليك من تغيير جعلنى لا أكاد أعرفك .

فابتسمت فى وداعة ، و بدون أدنى استياء ، ثم قالت هامسة :

ـ لا عجب فى هذا ، إننى لا أكاد أعرف نفسى ، لقد عاملتنى الحياة بقسوة وكذلك أنت .. تغيرت كثيرا جدا يا أنجوس .

ونطقت اسمه فى مزيج من التردد والابتهال ، وما كاد أنجوس يسمع هذه النبرات الأليفة ، التى حرم من سماعها كل هذه المدة ، حتى تحطم قلبه فطمر وجهه بين كفيه ، وأخذ ينتحب قائلا :

ـ أوه .. رامونا .. سامحينى ، إننى لم آت بالطفلة إليك بدافع الحب فقط . وإنما رغبة فى الانتقام أيضا . ولكننى الآن نادم على هذا . هل أنت واثقة بأنك تريدينها . إذا لم تكونى ، فإنى مستعد لاستردادها .

فأجابت السنيورة أورتينا قائلة :

ـ لا لا ، أبدا ، ما دمت على قيد الحياة . إننى أشعر فعلا ، الآن ،

www.ibtesama.com

أنها نعمة من الله . واسوف تظل بهجة حياتى إذا لم يعترض زوجى على بقائها .
هل عمدتها ؟ وأغضى أنجوس بعينيه ، وأحس بسهام من الخوف تخترق نفسه
وهو يقول متلعثما :

- قبل أن أفكر فى المجىء بها إليك ، فكرت فى أن أهبها للكنيسة .
وقد عمدتها باسم . .

وصمت برهة كأنما عجز لسانه عن النطق ، ثم عاد يقول :

- هل يمكن أن تستنتجى أى اسم تحمله ياسيدتى ؟

فأدركت السنيورة مايعنى وقالت :

- اسمى !

فحنى أنجوس رأسه وقال بعد أن استرد هدوءه :

- إنه الاسم الوحيد الذى أنطق به بلهجة الحب . ولهذا أطلقته على ابنتى .

فقالت السنيورة :

- هذا جميل .

ثم خيم عليهما صمت تام ، وراح كل منهما يتأمل وجه الآخر فى رقة
ودهشة . ثم إذا هما ، بحافز مشترك ، يتقاربان ، و إذا أنجوس يمد ذراعيه بكل
مافيه من قوة الحب واليأس ، ثم ينحنى و يقبل اليدين اللتين كانتا تحملان طفلته
النائمة ، وقال بصوت باك وهو ينطلق خارجا :

www.ibtesama.com

— ليباركك الله ياراموناً ، وداعا .. لن تريني بعد ذلك أبداً .

و بعد لحظة أخرى ، عاد وظهر فى مدخل الغرفة ليقول فقط بصوت خفيض :

— لاتنزعجى إذا بقيت الطفلة نائمة ساعات أخرى ، فقد أعطيتها منوماً قوى المفعول ، ولـكن لاضرر فيه .

و بعد أن تبادل الحبيبان نظرة طويلة متلـكئة ، افترقا إلى الأبد ، بعد هذا اللقاء العجيب الذى أعقب ذلك الفراق الأعجب منه . و بدا أن ر بع القرن الذى فصل بينهما لم يكن فى تلك اللحظات إلا يوماً واحداً . لقد أحس أنجوس فى أعماق قلبه أن حبه القوى العنيف قد عاد إليه ، بعد أن بعث من مرقده نابضاً بالحياة ، دون أن يتغير فى طبيعته شىء . أما رامونا ، فلم يكن الأمر هكذا معها . لم يكن فى قلبها حب مات ثم بعث حيا ، لأنها لم تـكن قد أحبت أنجوس فايل يوما . ولـكنها أدركت بعد هـذه السنوات الطوال التى عاشتها محطمة القلب ، محرومة من الحب صابرة على سوء المعاملة ، أى حب عظيم ضيعته فى شبابها ، وهفا إليه قلبها الآن .. وهكذا انتقمت الأقدار لأنجوس .

وعندما عاد فرانسيس أورتينا فى ساعة متأخرة تلك الليلة ، مترنحا نصفه سكران ودخل إلى غرفة زوجته ، أفاق فوراً من سكره أمام المنظر الذى طالعه . لقد رأى زوجته راكعة بجوار مهد رقدت فيه طفلة جميلة باسمة فى نومها .

و بادر قائلا :

— ماهذا بحق الشيطان ؟

www.ibtesama.com

ثم تذكر لجأة . وأردف يقول مغمغماً :

ـ آه .. الفأرة الهندية ؟ فهمت .. أتمنى لك السعادة ياسنيورة أورتينا مع ابنتك الأولى .

و بنظرة ساخرة ، وبابتسامة شريرة قاسية ، سار مترنحا بعد أن ركل — عند مروره — المهد بقدمه فى عنف .

ولم تجرح هذه السخرية القاسية إحساس السنيورة ، ذلك لأنها لم تعد منذ أمد بعيد تحس بالألم النفسى العميق ، إذا وجه إليها زوجها كلماته القاسية إلا أنها أدركت بغريزة الأمومة الجديدة الخطر الذى يتهدد الصغيرة رامونا منذ ذلك اليوم ، ومن ثم حرصت على تربيتها فى جناحها الخاص ، حتى لا يثير منظرها فى قلب الزوج الغضب والقسوة .

وكانت السنيورة رامونا ، حتى ذلك الحين ، وبقدر ما تستطيع ، قد أخفت عن أسرتها بؤس حياتها الزوجية . على أن أخلاق أورتينا كانت معروفة ، وأنباء عربدته على كل لسان فى كل ميناء بالبلاد . أما عن الزوجة نفسها ، فلم يسمع أحد مجرد عبارة واحدة من الشكوى ، لقد كادت دماء آل جونزاجا تجرى فى عروقها ، ومن ثم كانت تعرف كيف تتحمل المحنة فى سكون . أما الآن فقد وجدت ما يبرر الإفضاء بما فى نفسها لأختها ، ذلك لأنها كانت تعرف بوضوح أن حياتها لن تطول .

فأى مصير ينتظر الطفلة ، إذا تركت بعدها تحت رحمة أورتينا ، إن مصيرها

www.ibtesama.com

في هذه الحالة واضح تماما . وما أطول الساعات الحزينة المليئة بالارتباك التى كانت تمضيها السيدة الوحيدة مع الطفلة الصغيرة الضاحكة بين ذراعيها ، محاولة عبثا أن تتنبأ بما سيكون عليه مستقبلها . ولم يكن احتمال موتها قريبا قد خطر ببالها يوم أن قبلت القيام على رعايتها .

وقبل أن تبلغ رامونا الصغيرة العام الأول من عمرها ، كان والدها أنجوس فايل قد مات . وحمل نبأ وفاته إلى السنيورة أورتينا رسول هندى من إرسالية سانت جابرييل . وحمل معه أيضاً صندوقا ورسالة كان أنجوس قد سلمهما له قبل وفاته بيوم ، وكان الصندوق يحتوى على مجوهرات ثمينة يرجع طرازها إلى ربع قرن سابق ، وكانت نفس المجوهرات التى اشتراها أنجوس لعروسه ، وكان قد احتفظ بها دون غيرها من كل ثروته ، وحتى عندما انحدر إلى أسفل درك ، كانت عاطفته لرامونا تأبى عليه أن يتصرف فيها ، أما الرسالة ، فلم يكن فيها غير هذه الكلمات « أرسل إليك كل ما أمتلكه لابنتى ، وكنت أنوى أن أحملها إليك بنفسى هذا العام وأقبل يديك ويدى ابنتى مرة أخرى ، ولكننى أحتضر . وداعا » .

ولما أصبحت هذه المجوهرات فى حوزة السنيورة أورتينا ، لم تهدأ نفسا حتى أقنعت أختها السنيورة مورينو بحملها إلى مونتيرى ، ووضع الصندوق أمانة مقدسة لديها ، وكذلك ظفرت منها بوعد أكيد مؤداه أن تقوم بتبنى الطفلة رامونا عند وفاة السنيورة أورتينا . ولولا تدخل الأب سالفيرديرا بنفوذه ، لما قبلت السنيورة مورينو قطع هذا الوعد على نفسها ، ذلك لأنها لم تكن راغبة فى أن تكون لها علاقات خاصة بأى مخلوق تجرى فى عروقه دماء مختلطة ، وقد قالت فى هذا الشأن :

www.ibtesama.com

« لو أن الفتاة هندية خالصة ، لكان هذا أفضل ، إننى لا أحب هذه الدماء المختلطة . إنها تحتوى دائما على أسوأ الخصال ، لا أحسنها » .

ولكن السنيورة أورتينا اطمأنت بعد أن ظفرت بهذا الوعد ، لأنها كانت تعلم تماماً أن أختها لا تكذب ولا تتهرب من وعد قطعته على نفسها . وهذا يعنى أن مستقبل الصغيرة رامونا قد أصبح آمناً ، وكانت هذه الصغيرة هى البهجة الوحيدة خلال السنوات البائسة التى عاشتها السنيورة أورتينا بعد ذلك لأن زوجها كان قد خلع الباقى من نقاب الحياء وراح يجاهر بعلاقاته الشائنة مع النساء أمامها ، معرضاً إياها للإهانات دون أية مراعاة لعجزها الناشىء عن سوء حالتها الصحية ، وكانت هذه الإهانات أكبر من أن تحتملها سيدة تجرى فى عروقها دماء آل جونزاجا . ومن ثم قررت السنيورة أن تلزم جناحها الخاص ، وأن تمتنع عن مجرد الحديث مع زوجها ، ثم أرسلت مرة أخرى تستدعى أختها ، لتموت هذه المرة بين يديها ، ولكنها قبل وفاتها سلمت أختها كل مقتنياتها الثمينة من جواهر وحرائر وملابس وأقمشة فاخرة موشاة لتكون أمانة لديها ، ولكيلا تقع بين يدى المرأة التى كانت السنيورة تعرف أنها ستحل محلها بمجرد الانتهاء من مراسم الجناز .

وأخذت السنيورة مورينو الحزينة بكل حذر ، كأنها اللص ، تهرب هذه المقتنيات والملابس كلها من بيت أختها إلى بيتها ، وكانت هذه المقتنيات والملابس جديرة بأميرة موفورة الثراء ، ذلك أن آل أورتينا كانوا معتادين إغراق النساء اللاتى يحطمون قلوبهن بأغلى العطايا والهدايا . ولا يكفون أبداً عن مطالبتهن بالظهور فى أحسن مظهر رغم ما تمتلىء به قلوبهن من آلام وأحزان .

www.ibtesama.com

وبعد ساعة من انتهاء مراسم الجناز ، ودعت السنيورة مورينو زوج أختها الراحلة بعبارات رسمية باردة ، وتناولت يد الصغيرة رامونا ذات الأربعة أعوام وغادرت المنزل ، ثم أبحرت فى بكور اليوم التالى إلى بيتها .

ولما اكتشف أورتينا أن كل مقتنيات زوجته الثمينة قد اختفت ، استبد به الغضب الشديد ، وأرسل على جناح السرعة ، رسولا يحمل رسالة مهينة للسنيورة مورينو يطالبها فيها برد هذه المقتنيات . وردت هذه السنيورة بنسخة من مفكرة زوجته التى تحمل تعليماتها لأختها ، والتى تعهد إليها فيها بكل هذه المقتنيات لتنتقل فيما بعد إلى رامونا ، وكذلك أرسلت إليه نسخة من خطاب للأب سالفيرديرا . وما كاد أورتينا يقرأ هذا الخطاب حتى أصيب بحالة انهيار عصبى استمرت يوماً أو يومين ، وأثارت أشد القلق فى نفوس أصدقائه الفاسدين الذين خشوا أن يفقدوا صاحبهم . إلا أنه لم يلبث أن تخلص من تأثير هذا الخطاب ، أيا كان أمره ، وعاد إلى سابق عهده من الانغماس فى الملذات . والجرى فى الطريق السريع إلى الشيطان . لقد كان فى مقدور الأب سالفيرديرا أن يعظه ، ولكنه لم يستطع إنقاذه .

وكان هذا هو سر رامونا ، فلا عجب أن أخفت السنيورة مورينو قصتها عن الجميع ، ولا عجب ، أيضاً ، أنها لهذا السبب لم تحب الطفلة قط ؛ إذ كانت أمانة مرتبطة برباط وثيق بذكريات لم يكن فيها من البداية إلى النهاية غير المرارة والمذلة والآلام .

وأما ما تعلمه رامونا عن هذا كله ، فقد كان سراً فى أعماق صدرها ؛ ذلك أن دماءها الهندية كان فيها من الكبرياء والتحفظ بقدر ما كان فى دماء

www.ibtesama.com

أشد آل جونزاجا تعالياً وأنفة ، وقد حــــدث أن قالت ذات يوم وهى طفلة للسنيورة مورينو :

— لماذا أعطتنى أمى ، ياسيدتى ، للسنيورة أورتينا !

وتسرعت السنيورة فى الإجابة بعد أن فوجئت بهذا السؤال :

— ليس لأمك شأن بهذا . و إنما هى رغبة أبيك .

فقالت الطفلة مستطردة :

— وهل كانت أمى متوفاة ؟

وأدركت السنيورة خطأها بعد فوات الأوان ، فقالت :

— لا أدرى ، فإننى لم أرها .

ورغم ما كان فى هذه الإجابة من حقيقة ، فإنها لم تخل من روح الكذب.

وتابعت رامونا أسئلتها بإلحاح قائلة :

— هل حدث أن رأت السنيورة أورتينا أمى ؟

فأجابت السنيورة ببرود وقد أحست بآلام الجرح القديم لمجرد سماع هذه الأسئلة البريئة :

— لا . . أبداً .

وأحست رامونا ببرودة الإجابة ، فصمتت برهة ، وقد اكتسى وجهها بظلال الحزن وتندت عيناها بالدموع ، وأخيراً قالت :

— أتمنى لو أعرف أن أمى ماتت .

www.ibtesama.com

فسألتها السنيورة قائلة :

- لماذا ؟

- لأنها لو لم تكن متوفاة لأحببت أن أسألها لماذا لا تريد أن أبقى معها .

ونفذت هذه الإجابة الرقيقة الوادعة كالسهم إلى ضمير السنيورة التى أخذت الطفلة بين ذراعيها وقالت :

- من الذى تحدث إليك عن هذه الأشياء يا رامونا ؟

- جوان كان .

فسألتها السنيورة وقد التمعت فى عينيها نظرة لا تحمل أى خير لجوان كانيتو :

- وماذا قال لك ؟

فأجابت الطفلة ببطء وكأنما تستجمع كل ذكرياتها عن الموضوع :

- إنه لم يقل شيئاً لى ، وإنما للويجو ، وقد سمعته . . سمعته مرتين :

قال إن أمى لم تكن طيبة ، وكذلك أبى كان شريراً .

وانحدرت الدموع على وجنتى الطفلة .

وتغلبت روح الإنصاف فى قلب السنيورة على طبيعة الحنان فى تلك اللحظة . فأخذت تناغى الطفلة اليتيمة بحنان لم تشعر بمثله من قبل ، ثم قالت بحرارة نفذت إلى أعماق ذاكرة الطفلة :

- لا ينبغى يا رامونا أن تصدق أقوالا كهذه . . إن جوان رجل شرير

www.ibtesama.com

لتحدثه بهذه الأقوال ، فهو لم ير قط أباك أو أمك ، ومن ثم فلا يستطيع أن يعرف شيئاً عنهما ، أما أنا فقد عرفت أباك جيداً ، ولم يكن رجلا شريراً . كان صديقاً لى وللسنيورة أورتينا ، وهذا ما دعاه لأن يضمك فى رعايتها ، لأنها كانت بلا أبناء ، فى حين كان لأمك أبناء كثيرون .

فقالت رامونا ، وقد طابت نفساً لهذا الضوء الجديد الذى سلط على الموقف ، والذى جعلها ـ أى الطفلة ـ تشعر أنها لم تكن فى أول الأمر دخيلة على حياة السنيورة مورينو ، وإنما على حياة السنيورة أورتينا :

ـ أوه ! وهل كانت السنيورة أورتينا فى حاجة شديدة إلى ابنة صغيرة ؟

فقالت السنيورة بمرارة وحماسة :

ـ نعم .. كل الحاجة ، لقد ظلت حزينة أعواما طوالا لحرمانها من الأبناء ..

وخيم الصمت مرة أخرى برهة وجيزة ، كانت الطفلة خلالها تحاول بغرائزها الصغيرة التى لم تكن تميز بعد بين الصواب والخطأ ، والتى كانت تبذل جهدها لمحاولة ربط الأسباب بالمسببات ، ثم إذا هى تهز أعماق السنيورة قائلة بصوت هامس :

ـ لماذا لم يسلمنى أبى إليك أولا ؟ هل كان يعلم أنك فى غير حاجة إلى ابنة ؟

www.ibtesama.com

وانعقد لسان السنيورة برهة ، ثم استردت نفسها وقالت :

— لقد كانت صداقة أبيك للسنيورة أورتينا أقوى من صداقته لى . . لأنى لم أكن يومذاك غير شابة صغيرة السن .

فاستطردت الطفلة تقول متابعة نفس خط الاستفسار والتساؤل دون أن تلقى بالا لإجابة السنيورة :

— طبعا لم يكن بك حاجة إلى أية ابنة ما دام ابنك فيليب معك ، والابن أفضل من الابنة ، وإن كان بعض الناس يحبون أن يكون لديهم الاثنان .

ثم رمقت السنيورة بعين فاحصة لترى تأثير هذا فيها .

ولكن السنيورة كانت قد شعرت بالملل والقلق بسبب هذا الحديث . ومن ثم ما كاد اسم فيليب يذكر حتى أحست رغما عنها بذلك العجز عن حب رامونا ينفذ إلى عقلها ، فقالت فى حزم :

— رامونا .. ما دمت طفلة صغيرة ، فلن تستطيعى أن تفهمى شيئاً من هذا كله . وعندما تكبرين سأخبرك بكل ما أعرفه عن أبويك — وهو قليل جداً . لقد مات والدك وأنت فى الثانية من عمرك ، وكل ما عليك الآن أن تكونى طفلة طيبة وأن تؤدى صلواتك ، وعندما يأتى الأب سالفيرديرا سيسر بك ، ولكنه لن يسر إذا ألقيت مثل هذه الأسئلة المزعجة . لا تتحدثى إلى مرة أخرى عن شىء من هذا ، وعندما يحين الوقت المناسب ، فسوف أخبرك بنفسى .

www.ibtesama.com

حدث هذا عندما كانت رامونا فى العاشرة . وقد بلغت الآن السادسة عشرة دون أن توجه للسنيورة سؤالا واحداً عن ذلك الموضوع المحرم ، وإنما ظلت دائماً طفلة طيبة ، تؤدى صلواتها ، وتبهج قلب الأب سالفيرديرا كلما رآها ، وكلما ازداد تعلقاً بها عاما بعد عام . إلا أن الوقت المناسب لم يكن قد حان بعد لتخبرها السنيورة بالمزيد عن أبويها ، وقلما كان يمر صباح دون أن تقول رامونا لنفسها « ربما تخبرنى اليوم » ، ولكنها لم تكن تطلب من السنيورة هذا . ذلك أن كل كلمة من ذلك الحديث كانت لا تزال حية فى ذهنها ، وكأنما قيلت بالأمس فقط . بل وليس من المبالغة إذا قلنا إنها كانت تزداد إحساساً فى كل يوم من أيام السنوات التسع التالية على هذا الحديث بأنها كانت على حق فى سؤالها للسنيورة « هل كان أبى يعرف أنك لم تكونى بحاجة إلى ابنة ؟

ولو كان لرامونا طبيعة أقل رقة وعذوبة ، لامتلأت نفسها بالمرارة أو القسوة بسبب هذا الإحساس ، ولكن لم تكن هذه طبيعة رامونا . إنها لم تردد هذا السؤال بصوت مسموع حتى لنفسها ، وإنما قبلت الوضع كما يقبل المشوهون الألم والوحدة الناتجين عن تشويههما بنفس راضية أسمى من الاستسلام ، الذى هو بدوره أسمى من الثورة والتمرد .

لم يكن فى مقدور أحد أن يعرف من وجه رامونا ، أو من تصرفاتها ، أو من سلوكها العادى أنها تحمل فى قلبها حزنا أو هما . كان وجهها مشرقا ، ونبرات المرح فى صوتها . ولم يحدث قط أن رأت مخلوقا ، أيا كان مركزه ، دون أن تحييه ببشر ومرح . وقد ظلت على هذا النحو دائما . وكانت قد مكثت

www.ibtesama.com

عامين للدراسة فى دير القلب المقدس بلوس أنجليس حيث تحملت السنيورة أعظم النفقات فى أسوأ الأيام التى مرت بمزرعة مورينو . وهناك ، فى الدير ، ظفرت بحب جميع الراهبات اللاتى كن يسمينها « الطفلة المباركة » ، وقد علمنها كل فنون الوشى والتطريز الرقيقة ، ومبادىء الرسم بالفحم والزيت التى كن يعرفنها ، وكذلك علمنها ما يكفى لأن يجعلها متحمسة للشعر والقصة . أما الدراسات العميقة التى تستلزم تفكيراً عميقا فلم يكن لها مجال معها ، لأنها كانت فتاة ذات طبيعة هادئة بسيطة مرحة ، شديدة الرقة . وكأنها نبع صاف يجرى فى ضوء الشمس — طبيعة أبعد ما تكون عن طبيعة السنيورة الغامضة العمق ، المليئة بالعواطف والتيارات .

وكانت رامونا تحس بطبيعة السنيورة هذه إحساسا غامضا . وفى بعض الأحيان كان قلبها يمتلىء بالعطف والرثاء الحزين للسنيورة ، دون أن تجرؤ على إظهار هذا الشعور أمامها . وإنما كانت تعبر عنه بمزيد من البراعة . وببذل كل جهد لأداء واجباتها فى البيت بقدر المستطاع . وكان لهذا الوفاء الرقيق أثره فى نفس السنيورة مورينو دون أن تفطن إلى مصدره ، ودون أن يكون سببا لمزيد من تقديرها لرامونا أو مزيد من الحب لها .

ولكن كان هناك شخص لم تكن تضيع معه نظرة واحدة ، ولا تصرف واحد ولا ابتسامة واحدة من هذه الطبيعة الرقيقة ، وكان هذا الشخص هو فيليب الذى ظل يعجب يوماً بعد يوم لموقف أمه الجامد من الفتاة . ولم يكن هناك أحد غيره يعرف إلى أى حد تمسك أمه عن حب رامونا ، إذ كان هو فقط الذى يدرك الدلائل التى تنم عن حب أمه لأى إنسان . إلا أنه تعلم منذ

www.ibtesama.com

الصغر أن من أهم الأسباب التى تثير غضب أمه ، الإشارة إلى أنها لاتعامل رامونا كما تعامله . ومن ثم فقد تعلم قبل أن يصبح شاباً بمدة طويلة ، كيف يعتاد على الاحتفاظ لنفسه بمعظم أفكاره ومشاعره نحو أخته ورفيقة صباه الصغيرة . وكانت هذه ظاهرة خطيرة أدت فى النهاية إلى نضج الثمار المرة التى كان على السنيورة أن تقطفها فيما يلى من أعوام !

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٤)

لقد استغرق مجىء الأب سافيرديرا وقتا أطول مما كانت تتوقع السنيورة مورينو ، ذلك لأن الرجل الهرم كان قد ازداد وهنا خلال العام الذى لم تره فيه، ومن ثم لم يكن فى وسعه أن يقطع فى اليوم غير مرحلة قصيرة دون أن يشعر بالتعب والإرهاق . ولم يكن جسمه فقط هو الذى تخاذل ، وإنما قلبه أيضاً . وغدت الأميال التى كانت تبدو قصيرة وهو يقطعها غارقا فى أفكاره وتأملاته السعيدة ، مسافات لانهاية لها وهو يمضى غارقا فى الأفكار الحزينة ، الخاوف من انهيار المزيد من الإرساليات ، وفقدان ممتلكاتها الواسعة ، وازدياد موجة الإلحاد فى البلاد . لقد كان القرار الأخير الذى اتخذته حكومة الولايات المتحدة بشأن ممتلكات الإرساليات ضربة عنيفة له ، ذلك أنه كان يؤمن بعمق أن يوم استرداد الكنيسة لهذه الممتلكات آت لاريب فيه . وفى خلال الابتهالات

www.ibtesama.com

الطويلة التى كان يقوم بها وهو فى مقره بدير الفرنسكان فى سانتا بربارا ، حيث كان يظل راكعاً على الأرضية الحجرية للكنيسة مبتهلا بلا انقطاع من منتصف الليل إلى الفجر — فى خلال هذه الفترات كانت تطوف به الرؤى التى تطمئنه بأن كل ممتلكات الكنيسة سوف تعود إليها ، وتعيد لها كل بهائها وفخامتها ، وأن الهنود التابعين لها سوف يبلغون فى العدد مرة أخرى عشرات الآلاف .

ورغم مضى مدة طويلة من تأكد كل إنسان أن هذا فى حكم المستحيل ، فقد ظل يردد حديث هذه الرؤى بكل إيمان المجانز ، ويعلن أنها ستتحقق حتما ، وأن الشك فى صدقها يعتبر خطيئة . ولكن عندما أخذ عاماً بعد عام يتنقل فى طول البلاد وعرضها ، مشاهداً مبانى الإرسالية بعد الأخرى تنهار إلى خرائب ، وأراضيها تنتزع منها ، وتباع المرة بعد الأخرى حتى تنتهى إلى أيدى ملاك جشعين ، والهنود الذين دانوا بالمسيحية يختفون ويطاردون إلى براريهم الأصلية ، وآخر آثار أعمال مذهبه النبيلة تتلاشى بسرعة ـ عندما رأى هذا كله ، أخذت شجاعته تهتز ، وإيمانه فى صدق هذه الرؤى ينطفىء . وكذلك التغييرات التى طرأت على تقاليد وملابس رهبان مذهبه سببت له المزيد من الآلام ، إذ كان هو فرنسكانيا على نفس طراز الراهب فرانسيس المؤسس المذهب . ومن ثم كان يبدو له من الخطيئة انتعال حذاء بدلا من النعل أو وضع النقود فى كيس من أجل السفر ، وأهم من هذا كله ، ترك الرداء الرمادى وقلنسوته ، وارتداء ثوب فاخر من قطعة واحدة . إن ارتداء الملابس المريحة ـ وهناك الكثيرون جداً محرومون منها ـ كان يعتبر فى نظره خطيئة يستحق مرتكبها العقاب السريع

www.ibtesama.com

الرادع ، وعبثاً حاول إخوته ، المرة بعد الأخرى ،أن يزوروه بثوب صوف فاخر ، إذ كان يتصـدق به ، فى كل مرة ، على أول فقير يلتقى به . أما الطعام ، فقد كان من المحتمل أن تخلو الخزائن منه ، وأن يموت الرهبان جوعا لو لم يمدوا إلى إخفائه عن الأب سالڤـيرديرا الذى ما كان ليتردد فى توزيعـه عن آخره على الفقراء . وهكذا كان يقترب بسرعة نحو منظر ذلك الإنسـان البائس الذى طال عمره فأصبح يعيش فى غير زمنه ، ويفكر بعقلية متخلفة عن العصر الذى يعيش فيه . مثل هذا الإنسان مضطر لأن يعيش فى وحشة تامة ، وفى عزلة مريرة ، يعانى ، وهـذا هو الأمر ، من الحرمان من الأصدقاء .

بمثل هذه الخواطر كان الأب سالڤيرديرا يقترب من بيت الـسنيورة مورينو فى ساعة متأخرة من أصيل يوم من أيام الصيف اللطيفة التى تشهد مثلها كثيرا كاليفورنيا الجنوبية فى فصول الربيع وكانت أزهار اللوز قد تفتحت ، وثماره قد تسـاقطت ، وكذلك المشمش ، والخوخ ، والـكمثرى ، وقد اكتست جميع بساتين هذه الفاكهة بظلال خضراء رقيقة بلغ من شفافيتها أن كادت تقترب من اللون الرمادى . وكانت الأغصان الصغيرة ذات لون أخضر خفيف واضح ، وخمائل شجر البرتقال خضراء لامعة كأنها شجر الغار . وكانت التـلال القائمة على جانبى الوادى مكسـوة بالزرع والزهر ـ مواكب من نبات خفيض مزدهر ، بلغ من اقترابه للأرض أن أخذت أطرافه تتلامس وتتعانق بعضها مع بعض . وكذلك كان العشب الآخر ـ الذى بدا كأنه ريش على طيور جميلة ـ يتلامس ويتعانق ويتشكل بمختلف الألوان .

وكانت المنحنيات والمنعطفات والمنخفضات والمرتفعات التى لا حصر لها ،

www.ibtesama.com

والتى ترصع تلال الشواطىء على الساحل فى كاليفورنيا الجنوبية ، تضاعفت من تأثير هذا الجمال الأخضر فى الربيع . والواقع أنه لم يكن لها فى الطبيعة مثيـل إلا جمال ألوان المظاءات « المحالى » فى ضوء الشمس ، أو ألوان الريش على عنق طاووس .

وقد توقف الأب سالفيرديرا مرات عديدة ليتأمل هـذه اللوحة الجميلة . وكانت الأزهار عزيزة دائماً على القديس فرانسيس نفسه . ولا يجد بأساً فى اتخاذ جميع أنواع الزخارف منها . كان بعضها فى صف واحد مع إخوته وأخواته .. مع الشمس والقمر والنجوم – وكل شىء جميل يسبح بحمد الله .

ومما كان يثير فى النفس الأسى ، رؤية الأب سالفيرديرا المسن يستأنف سيره البطىء ، بعـد أن يمتع روحه بالمنظر الجميل والهواء العاطر . وهو يتنهد فى حزن ويغضى بعينيه إلى الأرض ، ذلك أنه كلما شعر بجمال هـذه الأرض ، ازداد شعوراً بالحزن على ضياعها من الكنيسة – ووقوعها فى أيدى دخلاء ينعمون بثمارها ، وينشرون فيها تقاليد جديدة ، وقوانين جديدة ، وعلى طول الطريق الساحلى من سانتا بربارا ، كان يرى فى كل « استراحة » دلائل جديدة على ما طرأ على البلاد – مزارع منشأة ، ومدناً نامية ، والأمريكان يتدفقون إلى كل مكان ليقطفوا ثمار ممتلكاتهم الجديدة .. وكان هذا كله هو الذى جعل رحلته مثقلة بالأسى ، وملأ نفسه إحساساً وهو يقترب من ضيعة السنيورة مورينو ، بأنه آت إلى آخر معقل من معاقل الكاثوليكية فى البلاد .

ولما غدا على مسافة ميلين من البيت ، انعطف من الطريق العام إلى ممر ضيق – كان يتذكره – يخترق التلال ويوفر ثلث المسافة تقريبا . وكان قد

www.ibtesama.com

مضى عليه أكثر من عام منذ سار فى هذا الممر الذى بدا له عندئذ مهملا مضيع المعالم بما نما فيه من نبات الخردل البرية . ومن ثم قال لنفسه : « لا أظن أنه كان فى مقدور أحد أن يسير فى هذا الممر هذه السنة » .

وكان كلما تقدم رأى نبات الخردل يزداد كثافة ، ونبات الخردل البرى فى كاليفورنيا يشبه ما جاء فى العهد الجديد من أن طيور السماء فى مقدورها أن تستريح على أغصانه . وكانت أعواده وهو ينبت من الأرض رفيعة بحيث يمكن لعشرات منها أن تنبت فى رقعة لا تزيد مساحتها على بوصة مربعة ، ثم تنبثق الأعواد عالية مستقيمة إلى ارتفاع خمس أو عشر أو عشرين قدما متفرعة إلى مئات من الوريقات الريشية الناعمة المتشابكة مع مئات أخرى من الأفنان المحيطة بها ، حتى تصبح ستاراً متماسكا كالمخرمات « الدانتللا » ، ثم تنبثق منه بعد ذلك أزهار صفراء أكثر رقة ونعومة . وكانت هذه الأزهار - لكثرتها - تكسو الأعواد بحيث تبدو للرائى من مسافة قريبة كأنها سحب من الزهر تسبح فى الهواء ، وفى أحيان أخرى كانت تبدو كأنها تبر الذهب - ومع سماء زرقاء صافية فوقها ووراءها كانت فى كثير من الأحيان تبدو كأنها عاصفة ثلجية ذهبية اللون . وكان هذا النبات طاغياً يثير القلق ، بل والرعب فى قلوب المزارعين . إنه ينتشر فى حقل كامل خلال موسم زراعى واحد .. وهو إذا غزا حقلا . فلن يجلو عنه ، لأن النبتة الواحدة فى العام ، تغدو فى العام التالى ملايين . ومع ذلك فقد كان من المستحيل أن يتمنى أحد أن تخلو البلاد منه ، لأن منظره الذهبى للعين لا يقل جمالا عن الإحساس بسبائك الذهب فى الجيب .

وسرعان ما وجد الأب سالڤيردبرا نفسه فى داخل دغل كثيف من هذه

الأغصان الرقيقة المرتفعة فوق رأسه ، وقد بلغ من تشابكها أنه راح يتقدم ببطء شديد وهو يحاول إفساح طريقه منها وكأنما هو يحل عقد خيوط حريرية متشابكة. والواقع أنه كان فى تيه من نوع عجيب طريف . ولولا أنه كان متعجلا للوصول إلى نهاية الرحلة ، لاستمتع بشق طريقه هذا داخل ذلك الدغل الذهبى ، وفجأة سمع نبرات خافتة من الغناء ، فتوقف ـ ينصت . وكان صوتاً نسائياً يقترب منه رويداً من الاتجاه الذى كان يسير نحوه . وفى بعض الأحيان كان الغناء ينقطع فجأة ثم يستأنف مرة أخرى وكأنما يتوقف برهة وجيزة كما يتوقف الحديث عند السؤال والإجابة . ولما مد الأب بصره خلال أزهار الخردل ، رأى أعواد الأزهار تتمايل وتنحنى وسمع صريرها كأنما هى تتكسر . ومن ثم بدا له أن شخصاً ما يدخل الممر من الجهة المقابلة ، ثم يقع فى شبكة ذلك الدغل العاطر كما حدث له . وأخذت الأنغام تزداد وضوحا وإن ظلت خافتة عذبة كأنها نغمات بلبل فى شفق الغروب ، وازدادت أعواد الخردل تمايلا . ثم إذا بخطوات خفيفة تصل إلى أذنى الأب سالفيرديرا وتجعله يتوقف وكأنه فى حلم . وبعد لحظة ازداد الصوت وضوحا فى أذنه وهو يردد هذه الكلمات العذبة لأنشودة القديس فرانسيس الخالدة المعروفة باسم « أنشودة الشمس » :

« حمداً لك يارب على كل مخلوقاتك ، ولا سيما أختنا الشمس التى تضىء النهار ، والتى تحمل الجمال والبهاء منك إلينا .. »

وهتف الأب قائلا ، وقد أشرق وجهه النحيل بالبهجة :

— رامونا .. الطفلة المباركة .

وفيما هو ينطق بهذه الكلمات ، تبدى له وجهها فى إطار من الأزهار

www.ibtesama.com

المترنحة وهى تفرقها بيديها فى رفق يميناً ويساراً . ثم إذا هى تنفذ من الفتحات الصغيرة التى صنعتها بخطوات تجمع بين البطء والرقص . ورغم أن الأب سالفيرديرا كان قد تجاوز الثمانين من عمره فإن دماءه لم تكن قد شاخت بحيث لا تجرى حارة فى عروقه أمام هذا المنظر ، لأن الميت فقط هو الذى لا ينفعل أمام منظر كهذا ؛ ذلك أن جمال رامونا كان قد بلغ الذروة وهو يبدو فى هذا الإطار من الذهب المتمايل ، وكان لونها الخمرى يزيد بشرتها جمالا فوق جمال ، وكان شعرها كشعر أمها الهندية ، غزيرا فاحما . ولكن عينيها كانتا كعينى أبيها – فولاذية الزرقة . وكان لابد لك أن تقترب جداً من رامونا لكى ترى أن عينيها زرقاوان ، لأن شعر حاجبيها الأسود الأثيث ، وأهدابها السوداء الطويلة كانت تخفى زرقة عينيها من بعيد وتجعلهما تبدوان كأنهما فى سواد الليل . وفى اللحظة التى رأى فيها الأب سالفيرديرا رامونا ، رأته هى أيضاً وهتفت فى ابتهاج قائلة :

ـ آه .. أبى ! كنت أعلم أنك ستأتى عن طريق هذا الممر ، وقد أحسست أنك قريب .

ثم وثبت نحوه، وركعت أمامه ، وحنت رأسها لتتلقى بركاته . ووضع هو يديه على جبينها فى صمت ، لأنه لم يكن من السهل عليه أن يتحدث إليها فى تلك اللحظة ، ذلك لأنها بدت فى نظر الراهب الشيخ الورع ، وهى تقفز نحوه من بين سحب الأزهار الذهبية ، وضوء الشمس ينسكب على شعرها الناعم ، ووجهها مشرق ، وعيناها تلمعان ، كأنها أقرب إلى طيف ملاك أو قديس منها إلى عذراء من دم ولحم ، طالما حملها بين ذراعيه عندما كانت طفلة .

www.ibtesama.com

قالت وهى تنهض :

ـ آه .. لشد ما انتظرنا .. وطال انتظارنا لك يا أبى ، حتى بدأنا نخشى أن تكون مريضا. لقد أرسلنا ندعو حلاق الغنم ، وسوف يصلون الليلة ، وهذا ما أكد لى الشعور بأنك ستحضر . كنت أعرف أن السيدة العذراء ستأتى بك فى الوقت المناسب لتقيم القداس فى الكنيسة فى أول صباح .

وابتسم الراهب فى شىء من الأسى وقال :

ـ لو كان هنا الكثيرون ممن لهم إيمانك لسار كل شىء فى هذه البلاد على ما يرام .

ـ أجل يا أبى ، كل شىء على ما يرام . لقد كان فيليب مريضا بالحمى ، ولكنه الآن ، ومنذ عشرة أيام ، ينتظر حضورك على أحر من الجمر .

وقد كادت رامونا تقول الحقيقة المجردة ، وهى : « ينتظر جز أصواف الغنم على أحر من الجمر » ولكنها تمالكت نفسها فى الوقت المناسب .

وقال الأب :

وكيف حال السنيورة ؟

ـ بخير .

قالتها رامونا برقة ، ولكن بلهجة متغيرة قليلة جـــدا بحيث لم يكن فى

www.ibtesama.com

المستطاع أن يفطن إليها أحد ، إلا أن الشخص القوى الملاحظة كان فى مقدوره أن يحس دائما باختلاف لهجة الفتاة كلما تحدثت عن السنيورة موريتو .

وعادت هى تقول بحنان وقد رأت بعين لماحة محبة مدى ضعف الرجل العجوز وهو يسير ، كما رأته لأول مرة ممسكا بعكازته يستعين بها على المشى :

— وأنت يا أبى . . هل أنت بخير ؟ لابد أنك متعب جدا بعد هذا السفر الطويل على قدميك .

فأجاب قائلا :

— أجل يا رامونا . . إننى متعب ، وإن الشيخوخة قد أخذت تقهرنى ، ولا أظن أنى سأرى هذا المكان أكثر من مرات معدودة .

فهتفت رامونا قائلة :

— . . لاتقل هذا يا أبى ! إنك تستطيع أن تركب عندما يجهدك السير كثيرا . لقد قالت السنيورة ذاك اليوم إنها تتمنى لو سمحت لها بإعطائك جوادا وإنه لا ينبغى أن تقطع هذه المسافات الطويلة على قدميك — إنك تعلم أن لدينا مئات الجياد .

ثم أردفت قائلة حين رأته يهز رأسه ببطء :

— وان يضيرنا إذا نقص منها جواد واحد .

— لا . . ليس هذا ما يهمنى . إننى لا أستطيع أن أرفض أية هبة من السنيورة .

www.ibtesama.com

ولـكن من قواعد مذهبنا أن نسافر على الأقدام . علينا ألا نقيم للبدن وزنا . انظرى إلى رئيسنا المحبوب فى هذه البلاد ، الأب جو نيبرو عندما كان يسير ، وقد تجاوز الثمانين ، من سان ديجو إلى مونتيرى ، رغم إصابة ساقيه بقرحات لو كانت فى ساق رجل آخر للزم الفراش حتى تلتئم . إنه لتقليد ذميم أن يقوم الرهبان بأداء رسالاتهم الدينية بوسائل مريحة . إننى حقا لا أستطيع أن أسير بسرعة ، ولـكن على أن أسير بقدر ما أستطيع من جهد .

وكانا ، وهما يتبادلان الحديث على هذا النحو ، يسيران قدما ، ورامونا إلى الأمام قليلا ، تفسح الطريق ، وتمسك بأعواد نبات الخردل ليتبعها الأب ، فلما خرجا من ذلك الدغل ، هتفت ضاحكة :

— ها هو ذا فيليب ، فى المزرعة . لقد أخبرته أنى قادمة لاستقبالك ، فسخر منى ، وسوف يرى الآن أنى كنت على صواب .

وحين سمع فيليب الأصوات ، التفت مدهوشا ، ورأى رامونا والراهب يقتربان ، ومن ثم ألقى من يده بالمنجل الذى كان يقطع به الأعشاب ، وأسرع لاستقبالهما ، ثم ركع أمام الراهب ليتلقى بركاته ، كما فعلت رامونا .

وفيما كان هكذا راكعا ، والهواء يعبث بخصلات شعره ، وعيناه العسليتان الواسعتان مرفوعتان إلى وجه الأب فى خشوع رقيق ، ووجهه ينم عن حفاوة الاستقبال ، قالت راموتا لنفسها ، كما سبق أن قالت مئات المرات منذ شبت عن طور الطفولة : « ما أجمل فيليب ! لا عجب أن تحبه السنيورة كل هذا الحب ، فلو أنى كنت فى مثل جماله ، لأحبتنى أكثر » .

ولعله لم تكن هناك فتاة لا تدرك روعة جمالها ، كما كان الأمر مع راموتا ،

فقد كانت ترجع كل ماتتلقاه من إعجاب، سواء بالنظر أو باللفظ ، إلى العطف أو المجاملة ، أو كان وجهها ، كما تراه فى المرآة ، لا يعجبها ، وكانت تقارن بين حواجبها المستقيمة السميكة ، وحواجب فيليب المقوسة المرسومة الرقيقة ، ثم تجد أنها ، أى حواجبها ، قبيحة الشكل . وكانت أمارات الهدوء الرقيق التى تكسو وجهها تبدو لها أمارات تنم عن الغباء . ومن ثم كانت تقول لنفسها كلما رأت كيف تتغير الأمارات على وجه فيليب بسرعة متوالية :

— إن فيليب بادى الذكاء . وليس هناك أحد مثله .

وعندما كانت عيناه العسليتان تتركزان عليها ، كما كان يحدث كثيراً ، فى نظرات طويلة متساكنة ، كانت هى ترد عليها بالنظر إلى أعماقهما فى شىء من التركيز والثبات والذهول الذى طالما حير فيليب إلى حد كبير ، وكانت هذه النظرة ذاتها — لا شىء آخر — هى التى عقدت لسان فيليب عامين ، وجعلت من المستحيل عليه أن يقول لراموتا شيئا من هذه الألفاظ الجميلة التى كان قلبه ممتلئا بها منذ أن وعى الحياة . لقد قال لها وهو صبى بلا تردد و بلا وعى ، أما وهو رجل فقد وجد نفسه فجأة خائفا ، وكان دائما يتساءل : « ترى فيم هى تفكر كلما حدقت فى عينى ؟ » ولو أنه عرف أنها ببساطة كانت فى العادة تقول لنفسها عندئذ : « ما أجمل عينيه العسليتين عن عينى الزرقاوين ؟ وكم أتمنى لو كانت عيناى فى لون عينيه ؟ » لو أنه علم هذا ، لربما أدرك مدى الآلام التى كان يمكنه أن يتجنبها لو أنه عرف أن الفتاة التى تنظر إلى رجل على هذا النحو ، فإنه يكون من الصعب عليها أن تنظر إليه كحبيب . ولكنه لم يستطع من فرط حبه لها أن يرى هذا ، وإنما كان يرى فقط ما يثير حيرته وارتباكه .

www.ibtesama.com

وفيما كانوا يقتربون من البيت ، رأت رامونا مرجريتا واقفة عند بوابة الحديقة وكانت تمسك بشيء أبيض بين يديها ، وتنظر إليه وهي تبكي بحرقة . ولما رأت رامونا ، وثبت نحوها في لهفة ، ثم تراجعت مرة أخرى وهي تشير إليها في صمت وحزن . وكان سمتها العام ينم عن البؤس والتوسل ، وكانت مرجريتا ، دون الخادمات جميعاً ، أقربهن إلى قلب رامونا ، إذ على الرغم من تقاربهما في العمر ،فقد كانت مرجريتا هي التي تولت القيام على خدمة رامونا . وهكذا لعبتا معا ، وكبرتا معا ، وبلغتا مرحلة الأنوثة معا ، وأصبحتا الآن أقرب ما تكونان إلى صديقتين منهما إلى سيدة وخادمة ، وإن لم تحاول مرجريتا أن تستغل هذه العلاقة أو تنسى أن تنادى رامونا دون لقب السنيورة .

وقالت رامونا للراهب :

— معذرة يا أبي ، إني أرى مرجريتا في حالة انزعاج ، لسوف أدع فيليب ليصحبك إلى البيت ، ثم أعود إليك في خلال لحظات .

وبعد أن قبلت يده ، انطلقت تطير — أكثر مما تجرى — عبر الحقول إلى مدخل الحديقة . وقبل أن تصل إليها ، كانت مرجريتا قد سقطت على الأرض وأخفت وجهها بين يديها ، في حين ألقيت عند قدميها قطعة من القماش انقطنى المكرمشة الملوثة بالطين .

وهتفت رامونا قائلة باللغة الإسبانية الحبيبة إليها :

— ماهذا ؟ ماذا حدث يا حبيبتى مرجريتا ؟

وأجابت مرجريتا بأن رفعت إحدى يديها المبللتين بالدموع ،

www.ibtesama.com

وأشارت فى يأس إلى قطعة القماش المكمشة . وعقدت شهقات البكاء لسانها ، وعادت مرة أخرى تخفى وجهها بين يديها .

وانحنت رامونا ، وتناولت طرف قطعة القماش . ثم إذا بصيحة استياء تند عن شفتيها ، وإذا مرجريتا تقول لاهثة الأنفاس وقد تضاعفت شهقات بكائها:

— أجل ياسيدتى . لقد تمزقت تماماً ولا يمكن إصلاحها ، وسوف تحتاج إليها للقداس غداً صباحاً . وعندما رأيت الأب آتيا بجانبك ، ابتهلت للعذراء متمنية الموت ، لأن السنيورة لن تغفر لى هذا أبداً .

وكان المنظر فى الواقع مثيراً للأسى ، ذلك أن الكساء التطلى الأبيض الخاص بالمذبح ؛ الكساء الذى صنعته السنيورة بيديها وجعلته قطعة فنية رائعة من المخرمات على الطراز المكسيكى ، وذلك بانتزاع خيوط معينة ، ثم رتق الباقى بزخارف رائعة الجمال .. هذا الغطاء الذى كان دائماً يكسو المذبح منذ أن وعت رامونا ومرجريتا الحياة ، كان ملقى على الأرض ممزقاً ملوثاً كأنما جره شىء فوق نتوءات موحلة .

وبسطته رامونا فى سكون وانزعاج شديد . وأمسكت به قائلة فى همس وهى ترنو برعب نحو البيت :

— من الذى فعل هذا به ؟

فأجابت الفتاة باكية :

— هذا هو أسوأ مافى الأمر ياسيدتى — نعم .. ولولا هذا لما فزعت

www.ibtesama.com

هكذا . لو أن ماحدث كان بطريقة أخرى ، لأمكن للسنيورة أن تغفر لى . ولكنها لن تغفر لى الآن أبداً . إننى أفضل الموت على أن أسوق إليها الخبر .

ثم راحت ترتعد من رأسها إلى قدميها . .

وقالت لها رامونا بحزم :

ــ كفى بكاء وأخبرينى بما حدث . إن الغطاء ليس فى حالة ميئوس منها، فإن فى مقدورى أن أصلح أمره .

فهتفت مرجريتا قائلة وهى ترفع وجهها للمرة الأولى :

ــ ليباركك القديسون . أيمكنك حقاً أن تصلحى أمره ياسيدتى ؟ إذا أصلحته فسوف أركع أمامك بقية حياتى .

وضحكت رامونا رغما عنها وقالت بمرح جعل مرجريتا تضحك أيضا رغم دموعها ، ولا غرو فقد كانتا فى ميعة الصبا :

ــ إنك تخدميننى أحسن وأنت على قدميك .

وعادت مرجريتا تقول مرة أخرى بصوت ملىء بالألم ، وقد بدأت دموعها تنحدر مرة ثانية :

ــ ليس هناك وقت ، إذ يجب أن يغسل ويكوى الليلة ، لأن القداس سيقام فى صباح الغد ، وعلى أن أساعد على إعداد العشاء ، لا سيما أن أنيتا وروزا مريضتان كما تعلمين ، وماريا فى إجازة لمدة أسبوع . وقد قالت السنيورة

www.ibtesama.com

إنه إذا جاء الأب الليلة ، فيجب أن أساعد أمى ، وأن أقوم على خدمتكم فى أثناء تناول العشاء . إن إصلاح الغطاء لا يمكن أن يتم . لقد كنت أنوى أن أقوم بكيه الآن - ولكننى وجدته هكذا - فى حقل الخرشوف . وكان الكلب اللعين كابيتان يلعب به بين أشواك بذور الخرشوف المتخلفة من العام الماضى .

وهتفت رامونا قائلة :

— فى حقل الخرشوف ؟ كيف وصل إلى هذا المكان بحق السماء ؟ !

— هذا ما كنت أعنيه بقولى إن السنيورة لن تغفر لى ماحدث أبداً ، فقد أمرتنى ألا أنشر شيئاً على السياج هناك ليجف . ولو أنى فقط غسلته عندما أمرتنى بذلك أولا — أى منذ يومين ، لما حدث شىء من هذا . ولكننى لم أتذكره إلا بعد ظهر اليوم . ولم يكن فى الفناء شمس لتجفيفه ، وأنت تعلمين كيف تنسكب أشعتها فى هذا الوقت على حقل الخرشوف ، ومن ثم وضعت قطعة قماش سميكة على السياج حتى لاتمزق أطرافه الكساء الرقيق . ولم أتركه أكثر من نصف ساعة كنت خلالها أتحدث مع لويجو ، ولم تكن هناك رياح قوية ، ولهذا أعتقد أن القديسين هم الذين ألقوا به على الأرض لكى أنال عقابى على عدم طاعتى .

وكانت رامونا فى خلال هذا تبسط بيدها فى رفق الأجزاء الممزقة فى الكساء ، ثم قالت :

— إن الأمر ليس بالسوء الذى حسبناه . ولولاضيق الوقت لأمكن إصلاحه بسهولة ، ولكننى سأصلحه على خير ما أستطيع ، بحيث لايبين أمره غداً . وبعد

www.ibtesama.com

أن يرحل الأب ، يمكننى أن أصلحه على مهل ، وأجعله كما لو كان جديداً . وأظن أن فى مقدورى إصلاحه وغسله قبل أن تغيب الشمس .

ثم أردفت قائلة وهى تتطلع الى الشمس :

ــ أوه ، لايزال أمامنا نحو ثلاث ساعات قبل الغروب . نعم أستطيع أن أصلحه ، عليك الآن أن تضعى المكواة على النار لكى تحمى ، ولكى أقوم بكيه بمجرد أن يجف قليلا . وسوف ترين أنه سيبدو غداً كما لو لم يحدث له شىء .

وقالت مرجريتا وقد هدأت واطمأنت و إن كان الفزع لم يزايلها :

ــ وهل ستعرف السنيورة ماحدث ؟

وركزت رامونا نظراتها على وجه مرجريتا ، ثم قالت بلهجة حادة .

ــ إنك لن تشعرى بالرضا إذا نحن خدعناها ، أليس كذلك ؟

فقالت الفتاة متوسلة .

ــ آه ... إنه لن يبين أمره بعد أن يصلح ياسيدتى .

فقالت رامونا دون أن تبتسم :

ــ سوف أخبرها بنفسى بعد أن أسوى كل شىء .

فقالت مرجريتا بلهجة تنم عن القلق :

ــ أوه ، إنك لاتعرفين ياسيدتى معنى استياء السنيورة منى !

www.ibtesama.com

فردت راموناقائلة وهى تنصرف بسرعة نحو غرفتها والكساء مطوى تحت ذراعها :

— ليس هناك أسوأ من شعور الإنسان بالاستياء من نفسه .

ومن حسن حظ مرجريتا، لم تلتق رامونا بأحد وهى فى طريقها إلى غرفتها؛ إذ كانت السنيورة فى استقبال الأب سالفيرديرا عند أسفل درجات الشرفة ، ثم لم تلبث أن انفردت به فى إحدى الغرفات ، إذ كان لديها الكثير مما تقوله له—الكثير مما أرادت أن تتلقى من أجله العون والنصيحة ، والكثير مما أرادت أن تعرفه منه عن شئون الكنيسة والحالة فى البلاد بوجه عام .

وكان فيليب قد ذهب يبحث عن چوان كانيتو ، وايرى هل أعد كل شيء لبدء عملية جز أصواف الغنم فى اليوم التالى ، إذا وصل الحلاقون فى الموعد ، وقد كان كل شيء معدا لكى يصلوا فى مساء اليوم نفسه . هذا ما خطر لفيليب لأنه كان قد طلب — بصفة خاصة — من الرسول أن يبذل كل جهده للإسراع وأن يقنع الهنود بأن الحالة مستعجلة ، وأنه لا داعى لإضاعة الوقت فى الطريق .

وقد كان تنازلا كبيراً من السنيورة حين سمحت بإرسال الرسول قبل أن تعرف على وجه اليقين تحركات الأب يوماً بعد يوم . ولكن عندما أخذت الأيام تمر تباعا دون أن تتلقى أية أنباء عن الأب ، رأت أن عملية جز أصواف الغنم لم تعد تحتمل مزيداً من التأخير ، أو تأخيرها « إلى الأبد » ، كما قال چوان كانيتو . فلعل أن يسقط الأب مريضا ، وفى هذه الحالة قد تمر الأسابيع قبل أن تسمع عنه شيئا ، لأن وسائل الاتصال كانت ضئيلة بين الأماكن النائية التى يتنقل بينها. ومن ثم أرسل الرسول لاستدعاء جماعة الحلاقين من تيمكيولا،

www.ibtesama.com

وأذعنت السنيورة للأمر الواقع وهى تبتهل فى الصباح وفى المساء وفى أثناء النهار أن يصل الأب قبل وصول المنود . فلما رأته آتيا فى ممر الحديقة معتمداً على ذراع ابنها فيليب ، فى أصيل نفس اليوم الذى كان محتملا أن يصل فى مسائه المنود ، شعرت — دون عجب — بمزيج من البهجة لرؤية صديقها وراعيها القديم ، ومن النشوة الروحية الظافرة لأن القديسين استجابوا لدعواتها .

وكان المطبخ مايئاً بالحركة والضجيج ، وذلك أن وصول أى ضيف إلى البيت كان سبباً لمزيد من النشاط فى المطبخ ، حتى لو كان الضيف هو الأب سالڤبرديرا الذى لم يهمه يوما أن يعرف أفى الحساء قطع لحم أم لا ، كما اعتادت مارثا أن تقول ، وكما كان يبدو لها أن هـــذا أقصى إهمال لمطالب الجسد ، وكانت تعلق على هذا بقولها : « حتى إذا كان يرفض أطايب الطعام ، فعليه أن يرى على الأقل »ولكن إحساسها بكرامتها وكرامة البيت كان يدفعها دائماً إلى تقديم أحسن ما لديها من اللحوم ، وإلى الاهتمام المفاجىء بحجم ولون القرنبيط الذى يوضع فى وعاء اللحم ، وإلى إهمال أى إناء ملىء بالرز إذا عرفت أن مرجريتا وضعت فيه بصلة بدلا من اثنتين .

وكانت دائما تقول لها :

— ألم أقل لك المرة بعد الأخرى إن الرز المطهو للأب يجب أن تكون فيه بصلتان . إنه الطبق الذى يفضله ، وهذا من دواعى الأسف ، لأنه رغم شيخوخته ، لن يستفيد كثيراً منه . إن اللحم البقرى هو الذى يمكن أن يفيده .

وكانت غرفة الطعام تقع فى الجانب الآخر من الفناء ، فى مواجهة المطبخ

www.ibtesama.com

ومن ثم كان هناك موكب لاينقطع من صغار الخدم الذين يروحون ويجيئون بين المكانين. وكان أكبر أمل للخادم الصغير أن يسمح له بحمل الأطباق عند إعداد المائدة فى أى وقت . ولكن عندما يكون فى هذا العمل فرصة اختلاس النظر من باب غرفة الطعام المفتوح على الشرفة ، إلى الغرباء والضيوف ، فإن تنافسهم على القيام بهذا العمل يغدو بلا حدود . وكانت مرجريتا المكينة - الموزعة بين مخاوفها الخاصة وبين مضاعفة الأعباء عليها فى المطبخ وفى إعداد المائدة وفى الإشراف على صغار الخدم وكبح جماحهم - تكاد تفقد صوابها . ولكن هذا على أية حال لم يمنعها من أن تجد الوقت الكافى لالتقاط شمعة . وقدة من المطبخ والإسراع بها ووضعها أمام تمثال القديس فرانسس أوف بولا فى غرفتها ، والهمس بدعوات خاطفة لكى يعود كساء المذبح إلى ما كان عليه . وقبل أن تغرب الشمس استطاعت أن تختطف لحظات ، فى مرات كثيرة ، لكى تلقى بنفسها عند قدمى التمثال وتهمهم بتوسلاتها الحفاء المرة بعد الأخرى . والواقع أننا نعتقد أن من الحماقة أن يبتهل أحد لكى يعود كساء من المخرمات ، الممزق، إلى حالته الطبيعية ، ولكن من العسير أن نعرف مدى صحة الاحتمالات فى إمكان تحقيق أمل كهذا ، أو الأمل فى سقوط المطر أو فى عودة مريض إلى الصحة . وكما اعتاد المثل الروسى أن يقول : إن الناس حين يبتهلون إلى الله ، إنما يطلبون منه أن يجعل اثنين اثنين لايساويان أربعة ، ولكن الذى لايعرف الابتهال إلى الله ، يكون مسكينا على كل حال . وقد كان مجرد تفكير مرجريتا فى الشمعة المضاءة عند قدمى القديس فرانسس ، هو الحافز لها على احتمال كل أعبائها وآلامها فى ذلك الأصيل والمساء .

وأخيراً تم إعداد العشاء -- طبق كبير من شرائح لحم البقر والقرنبيط فى

www.ibtesama.com

وسط المائدة ووعاء من الحساء الثمين بقطع من اللحم والفلفل الأحمر ، وطبقان من الفخار ممتلئان تماما : أحدهما بالرز المطهو بالبصل ، والآخر بالفول الذى يحبه جميع المكسيكيين ، وآنية زجاجية مليئة بالكمثرى المطهوة ، وأخرى بالسفرجل المحفوظ ، وثالثة بهلامية العنب ، وطبق كبير ملىء بالكعك المسكر من كل نوع وحجم ، ثم إبريق فضى من الشاى الساخن الذى كانت رائحته العطرة لا مثيل لها لأى شاى آخر فى أنحاء كاليفورنيا ، والذى كانت السنيورة تحبه وتفخر به .

وقالت السنيورة فى دهشة واستياء حين دخلت غرفة الطعام :

— أين رامونا ؟ اذهبى يامرجريتا وأخبريها أننا فى انتظارها .

ومضت مرجريتا فى طريقها إلى الباب وهى ترتعد وقد اضطرم وجهها ، هامسة لنفسها فى ابتهال :

— أوه . ماذا سيحدث الآن ، أيها القديس فرانسس . كن فى عوننا هذه المرة .

وفجأة قال لها فيليب :

— انتظرى . لا تستدعى السنيوريتا رامونا .

ثم التفت إلى أمه وأردف قائلا :

— إن رامونا لا تستطيع أن تأتى . إنها لبست فى البيت ، فإن عليها واجبا ينبغى أن تؤديه استعدادا للغد .

www.ibtesama.com

ثم أرسل إلى أمه نظرة لها دلالتها ، وأضاف قائلا :

ــ إننا لن ننتظرها .

واتخذت السنيورة مكانها فى رأس المائدة بطريقة آلية وهى أشد ما تكون دهشة وحيرة ، ثم قالت :

ــ ولكن ...

وأدرك فيليب خطر الأسئلة التى ستتوالى ، فقاطعها قائلا :

ــ لقد تحدثت معها منذ برهة ، وأدركت أن من المستحيل عليها أن تأتى ..

ثم التفت إلى الأب سالفيرديرا ، وراح يشغله بالحديث ، تاركا السنيورة الحيرة تحتمل فضولها الذى حاولت إخفاءه بقدر ماتستطيع .

وأرسلت مرجريتا إلى فيليب نظرة شكر عميقة ، لم يلحظها ، وما كان ليفهم معناها حتى لو رآها ؛ ذلك لأن رامونا لم تكن قد أفضت إليه بتفاصيل الكارثة و إنما استدعته فى حذر حين رأته تحت نافذتها وقالت له :

ــ عزيزى فيليب ، هل تستطيع أن تعفينى من حضور العشاء معكم ، لقد حدث شىء خطير لكساء المذبح ، وعلى أن أصلحه ، وأغسله ، والوقت ضيق ، لا تدعهم يستدعوننى ، لسوف أذهب إلى النبع حيث لن يجدنى أحد . ولسوف تستاء والدتك منى .

وكان هذا التحذير الحكيم من رامونا ، هو إنقاذ كل شىء فيما يتعلق بكساء للذبح ، ذلك أنه تبين لها أن التمزقات فيه لم تكن بالخطورة التى تصورتها . وقد استطاعت ، قبل مغيب الشمس ، أن ترتقها ببراعة ، وفيما كانت أشعتها

www.ibtesama.com

الغاربة تتسلل بين الأشجار عند مدخل الحديقة ، أسرعت رامونا إلى النبع ، وركعت على العشب وأخذت تغسل الكساء .

وكان شعورها بالقلق ، وقيامها بهذا العمل فى سرعة ، قد جعلا وجهها يضطرم بحمرة قانية ، وفيما هى تجرى نحو النبع ، سقط مشطها ، وتهدل شعرها حتى وسطها ، فتوقفت برهة لتلتقط المشط وتدسه فى جيبها ، وعادت تعدو وهى تخشى أن ينسدل الظلام ، فلا تحسن غسل الكساء ، وكان عليها أن تكون شديدة الحذر فى تنظيفه حتى لا يتمزق مرة أخرى .

وانحنت على حجر الغسيل وشعرها مشعث ، وأكمامها مشبكة فى كتفيها ، ووجهها متوهج بلهفة الفراغ من العمل ، وراحت تغسل الكساء وتنظفه وهى تفحصه بين الحين والآخر خشية أن يصاب بتمزق جديد .

وأخذت الأشعة الغاربة تحيطها بهالة من النور ، واشتمل المكان كله بالضوء الوردى ، وارتسم على وجهها لون من الجمال الشفاف ، وفجأة أثار انتباهها صوت ، فرفعت رأسها لترى شخوصا مغبرة سوداء تبدو فى الأفق الأحمر هابطة إلى الوادى . وكانت جماعة الحلاقين الهنود وراتهم يستديرون يساراً و يذهبون إلى مرابط الغنم والخيام . ولكن كان ثمة واحد منهم لم تره رامونا ؛ ذلك أنه ظل واقفاً برهة غير وجيزة وراء إحدى الأشجار على مسافة يسيرة من حيث كانت رامونا راكعة ، وكان الشاب أليساندرو بن بابلو اسيسى ، رئيس جماعة الحلاقين . وفيما كان يتقدم رجاله ببطء شعر بضوء كأنه ينعكس من مرآة مواجهة للشمس ، ينفذ إلى عينيه ، وكان الضوء منعكسا من شعاع أحمر فوق سطح النبع اللامع ، فلما نظر إليه ، رأى فى نفس الوقت رامونا .

www.ibtesama.com

وتوقف كما تفعل الوحوش البرية عندما تسمع أصواتا غريبة فى الغابة ، و بعد أن رنا برهة، ابتعد مسرعا عن رجاله الذين ظلوا سائرين فى طريقهم دون أن يشعروا باختفائه . وشرع يقترب فى حذر ، و بخطوات قليلة ليختبىء وراء الشجرة العجوز ليتمكن — دون أن يراه أحد — من النظر إلى هذه الرؤية الجميلة — أو هكذا بدت له .

وفيما هو يحدق ، بدا كأن صوابه يطيش منه ، وإذا هو يهتف بصوت مسموع ، و بلا وعى :

— يا للسماء ! ماذا عساى أفعل ؟!

www.ibtesama.com

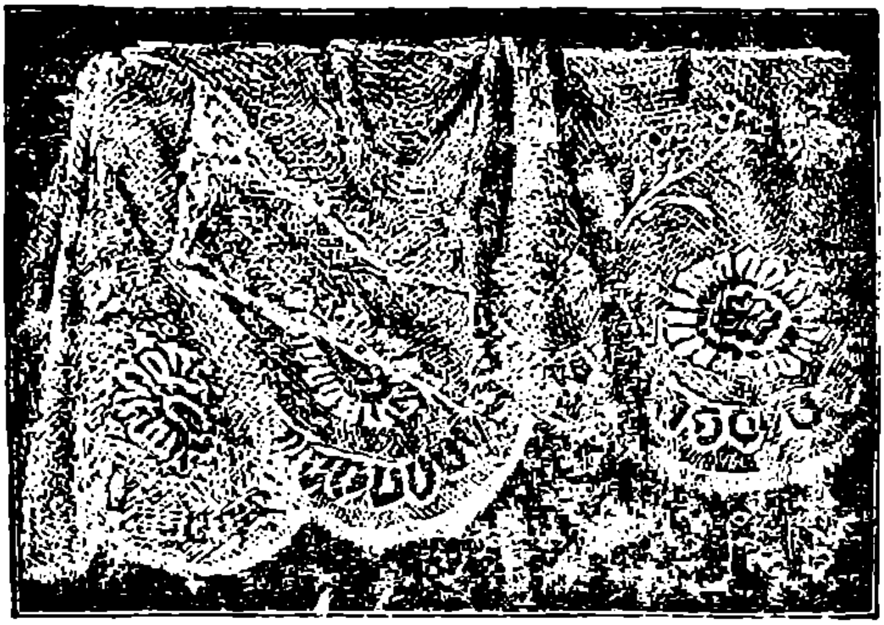

(٥)

كانت الغرفة التى اعتاد أن ينام فيها الأب ساﭬيرديرا عندما ينزل ضيفاً على السنيورة مورينو هى الغرفة الجنوبية الشرقية من البيت . وكانت لها نافذة تطل على الجهة الجنوبية ، وأخرى على الجهة الشرقية . ومن ثم فعندما تتسلل أولى طلائع الفجر ، كانت هذه النافذة الشرقية تبدو وكأنها متوهجة بالضوء الأحمر . وكان الأب يترقب دائماً هذه اللحظة بعد أن يكون قد أمضى ساعات طويلة من الليل فى العبادة والتهجد . وعندما يلمس أول شعاع من الشمس تلك النافذة ، كان يفتح مصراعيها ، ويقف فيها عارى الرأس ، مترنماً بأنشودة « مشرق الشمس » التى اعتاد أن يرددها كل أفراد الأسرة المكسيكية المتمسكة بالدين . وكان ذلك تقليدا حميداً لم ينقرض بعد تماماً . فعندما يسفر أول ضوء للفجر ، كان أكبر أفراد الأسرة سنا ينهض ويترنم بإحدى الأناشيد المعروفة لدى أفراد الأسرة ، وكان على كل من يسمعها داخل البيت أن ينهض فوراً ،

www.ibtesama.com

أو يجلس فى فراشه على الأقل ، ثم يشترك فى الغناء . وهكذا لا يلبث أفراد الأسرة جميعاً أن يرددوا الأغنية الجماعية ، و إذا الأنغام البهيجة تتدفق من البيت كأنها أغاريد الأطيار فى الحقول عند الفجر . وكانت هذه الأناشيد موجهة فى العادة إلى السيدة العذراء ، أو إلى قديس ذلك اليوم ، وكانت النغمات عذبة بسيطة دائماً .

وفى ذلك الصباح ، كان هناك شخص آخر يرقب مطلع الفجر غير الأب سالفيرديرا . إنه اليساندرو الذى ظل يهيم على وجهه منذ منتصف الليل فى قلق وحيرة ، ثم جلس أخيراً تحت أشجار الصفصاف بجوار النبع ، فى نفس المكان الذى شاهد فيه رامونا فى الليلة السابقة . وتذكر تقاليد الإنشاد للشروق عندما كان هو وجماعته فى ضيافة السنيورة فى العام السابق ، حيث تصادف أن علم أن الأب سالفيرديرا ينام فى الغرفة الجنوبية الشرقية . وكذلك كان فى مقدوره أن يرى الأفق الشرقى الخفيض الذى كان مضاء بخط من طلائع الفجر . وكانت السماء فى لون العنبر ، و بعض النجوم لا تزال تلمع بخفوت فى أفقها الشمالى ، وكان الصمت مخيماً على السكون ، وعلى الجملة كانت إحدى اللحظات النادرة التى يمكن للإنسان فيها أن يدرك بغير مشقة دوران الأرض الهادىء حول نفسها فى الفضاء . ولم يكن اليساندرو يعرف شيئا من هذا ، إذ لم يكن من المستطاع إقناعه بأن الأرض تدور . وإنما كان يحسب أن الشمس هى التى ترتفع ، والأرض ساكنة ، وهو إيمان له من العمق وقوة الأثر كإيمان أولئك الذين كانوا يعبدون الشمس قبل أن يعرفوا أنها ثابتة منذ أمد بعيد . وعلى الجملة لا يمكن للفلكى الخاشع بكل ما يعرف عن رياضيات الأجرام السماوية ، أن يشعر بمتعة أكبر من متعة الإنسان البسيط الجاهل أمام منظر هذا الفجر المشرق .

www.ibtesama.com

وتحولت عيناه من خط الأفق الذى كان الضوء فيه يزداد ببطء إلى نوافذ البيت التى كانت غارقة فى الظلام ، وقال لنفسه :

— فى أية غرفة تنام ، هل ستفتح نافذتها حين تبدأ الأنشودة ؟ هل هى فى هذا الجانب من البيت ؟ ترى من تكون ؟ إنها لم تكن هنا فى العالم الماضى ، هل رأى القديسون مخلوقاً أجمل منها ؟ !

وأخيراً انسكبت أشعة الشمس بكاملها على الحقول ، فوثب اليساندرو واقفا فى نفس اللحظة التى فتح فيها الأب سالفيرديرا مصراعى نافذته الجنوبية، وأطل منها وقلنسوته ملقاة على ظهره ، وخصلات شعره الرمادى الخفيف متهدلة ، ثم بدأ بصوت ضعيف لا يخلو من العذوبة فى الغناء :

أوه . . أيتها الملكة الجميلة . . ياأميرة السماء .

وقبل أن يفرغ من الكلمة الأخيرة ، إذا بأصوات ستة أشخاص يشتركون معه فى الإنشاد ، السنيورة فى غرفتها بالطرف الغربى من الشرفة ، ووراء أحواض الأزهار ،وفيليب من الغرفة المجاورة لها ، وراموناً من غرفتها الثالثة ، ومرجريتا وبقية الخادمات اللاتى قد نهضن من النوم فى الأجنحة الأخرى من البيت . . ولما ارتفعت الأصوات بالغناء ، استيقظت الطيور المغردة المعلقة فى أقفاصها من سقف الشرفة ، وكانت أسقف الشرفة مليئة بأعواد من القش التى تملأ قلوب هذه الطيور بالسعادة حين تقيم منها أوكارها . أما العصافير البرية فكان عددها على السقف مئات بعد مئات أليفة كأفراخ الدجاج ، صقصقتها العالية الجميلة تشبه النغمات الصادرة من مجموعة قيثارات .

* * *

www.ibtesama.com

أيها المفردون فى الفجر .. من السماء العالية .

إن الناس من جميع الأقطار . . يسعدهم أن يغردوا أيضاً .

* * *

واستمرت الأنشودة ، والطيور ترجع وتعزز نغماتها ، والرجال بأصواتهم يشتركون فى ترديدها – جوان ولويجو وعشرات آخرون كانوا يتقدمون ببطء من مرابط الأغنام ، وكانت الأنشودة محبوبة ومعروفة للجميع :

تعالوا أيها الخاطئون ..

تعالوا وسوف ننشد جميعاً .

الأغانى الحنون . .

لملاذنا الأمين . .

وكان هذا المقطع يردده الجميع بعد كل خمسة أبيات من الأنشودة . وكان اليساندرو أيضاً يعرف هذه الأنشودة جيداً ذلك أن أباه ، الرئيس بابلو كان كبير للمنشدين فى إرسالية سان لويس راى إبان سنوات مجدها ، وكان قد أحضر معه كثيراً من هذه الأناشيد الدينية القديمة . وكان بعضها قد كتبها بخط يده على رقائق من الجلد . ولم يكن الوالد يحسن الغناء فحسب ، وإنما كان بارعاً أيضاً فى العزف على الكمان . ولم يكن فى جميع الإرساليات فرقة تحسن العزف على الآلات الوترية كالفرقة الخاصة بإرسالية سان لويس راى . ذلك أن الأب بيرى كان مشغوفاً بالموسيقى ، ولم يكن يضن بأى جهد فى تدريب المنشدين الجدد الذين فى رعايته ، والذين يبدون مواهب خاصة فى هذا المجال . وكان الرئيس

www.ibtesama.com

بابلو بعد انهيار الإرسالية ،قد استقر فى تيميكيولا ، مع جماعة صغيرة من الهنود، حيث بذل كل ما يستطيع من جهد للمحافظة على الطقوس الدينية . وهكذا كانت للوسيقى المنبعثة من كنيسة هنود تيميكيولا الصغيرة مثار عجب و إعجاب كل من يسمعها .

وورث اليساندرو مواهب أبيه وعشقه للموسيقى ، وحفظ عن ظهر قلب كل أناشيد الإرسالية . وكانت هذه الأنشودة :

« أيتها الملكة الجميلة ، يا أميرة السماء » من الأناشيد الأثيرة لديه ، ومن ثم لم يستطع أن يمنع نفسه من الاشتراك فى ترديدها وهو يسمع المقطع منها ينشد بعد الآخر .

ولما ارتفعت أولى نبرات هذا الصوت الرخيم ، توقفت رامونا برهة عن الغناء من فرط الدهشة ، ثم فتحت نافذتها، ونظرت فى لهفة إلى كل اتجاه لترى من يكون هذا المنشد ، ورآها اليساندرو ، وأمعن فى الإنشاد .

وقالت رامونا لنفسها وهى تتراجع برأسها وتستأنف الإنشاد :

ـــ ترى من يكون هذا ؟ هل أنا حالمة ؟ !

وفى المقطع التالى الذى يردد جماعياً ،سمعت مرة أخرى نبرات ذلك الصوت الرخيم العريض . وبدت لها كأنها تسبح تحت جميع النبرات الأخرى ،ثم تحملها كما تحمل الموجة الكبيرة زورقا . ولم تكن رامونا قد سمعت من قبل صوتا كهذا .

www.ibtesama.com

لقد كان لفيليب صوت جميل ، وكانت تحب أن تغنى معه ، وأن تسمعه ، ولكن هذا - هذا الصوت .. كأنه آت من عالم آخر . وأحست رامونا كأن كل نبرة من هذا الصوت كانت تنفذ إلى أعماقها وتثير فيه من انفعال النشوة ما يكاد يبلغ حد الألم . ولما انتهت الأنشودة ، أخذت تنصت بلهفة ، آملة أن يبدأ الأب سالفيرديرا أنشودة ثانية كما اعتاد أن يفعل . ولكنه لم يفعل هذا الصباح لأن ثمة أعمالا كثيرة كان ينبغى أداؤها. ولهذا كان كل شخص متعجلا فى طريقه إلى العمل . ومن ثم أغلقت النوافذ ، وفتحت الأبواب ، وارتفعت الأصوات من كل اتجاه آمرة أو سائلة ، أو مجيبة ، وازدادت الشمس ارتفاعاً ، وراحت تسكب ضوءها لينير أمام الناس طريق العمل اليومى

وهرعت مرجريتا وفتحت باب الكنيسة ، وشكرت فى أعماق نفسها القديس فرانس ، والسنيوريتا رامونا حين رأت الكساء الأبيض الناصع فى مكانه من المذبح يبدو على الأقل من بعيد وكأنه جديد .

وكان الهنود والرعاة والعمال من كل نوع يتوافدون نحو الكنيسة .

وكانت السنيورة بأحسن منديل حرير أسود لديها ، يحيط برأسها ، وأطرافه مرسلة على جانبى وجهها بحيث بدت كراهبة آشورية ، تهبط درجات الشرفة وبجانبها فيليب . وكان الأب سالفيرديرا قد دخل الكنيسة قبل أن تظهر رامونا أو يتحرك اليساندرو ، من مكانه تحت شجرة الصفصاف .

ولما خرجت رامونا من الباب ، كانت تحمل بين يديها إناء فضيا عاليا يحتوى على نبات السرخس ، وكانت قد أمضت أياما عديدة فى جمعها والاحتفاظ بها

www.ibtesama.com

لأنها ـ أى النباتات ـ صعبة المنال ؛ إذ كانت تنبت فى مكان معين من خور جبلى يبعد عن المزرعة أميالا عديدة .

وفيما هى تخطو من الشرفة إلى الأرض ، أخذ اليساندرو يتقدم ببطء فى ممر الحديقة متجها إليها . ولما تلقت نظراته ، وجدت نفسها تفكر دون أن تعرف السبب ، قائلة : « لابد أن هذا هو المندى الذى غنى » . وحين استدارت يمينا ودخلت الكنيسة : تبعها اليساندرو مسرعا ، وركع على الأرضية الحجرية القريبة من باب الكنيسة ، وذلك لكى يبقى قريبا حين تخرج ، وفيما هو ينظر من خلال الباب، رآها تنساب إلى المدرج ، وتضع إناء السرخس على منصة القراءة، ثم تركع بجوار فيليب أمام المذبح . والتفت فيليب نحوها مبتسما فى رفق ، مرسلا إليها نظرة تنم عن التفاهم المتبادل فى أمر ما .

وقال اليساندرو لنفسه وهو يحس بألم مفاجىء يعتريه :

« آه . . لقد تزوج السنيور فيليب . . وهى زوجته » .

ولم يحاول هو أن يعرف سبب إحساسه بهذا الألم الفاجىء ، بل لم يكن يعرف معناه ؛ ذلك لأنه كان فى الحادية والعشرين من عمره ، ولم يكن يفكر كثيرا فى النساء ، وإنما كان بارد العاطفة نحوهن ، نفورا منهن ـ أو هكذا كان مواطنوه فى قرية تيميكيولا يقولون . وكان السر فى هذا يرجع — فى نظرهم — إلى تعلمه القراءة ، وهى ظاهرة سيئة : إن الرئيس بابلو لم يحسن إلى ابنه قط حين حاول أن يجعل منه رجلا أبيض ، ولو أن الرهبان بقوا ، والحياة فى الإرسالية

www.ibtesama.com

ظلت كما كانت ، لأمكن لاليساندرو أن يعمل معهم كما عمل أبوه من قبل . وكان بابلو الساعد الأيمن للأب بيرى فى الإرسالية . كان يقوم بإحصاء الماشية ، ويدفع الأجور ، و يتعامل بآلاف الدولارات الذهبية فى كل شهر ، ولكن هذا كان فى « الأيام الجيدة » والحالة الآن مختلفة ، فالأمريكيون لا يسمحون للهندى بالقيام بأى عمل غير الحرث والزرع ورعى الماشية ، وليس الرجل بحاجة إلى القراءة والكتابة ليقوم بهذه الأعمال .

وحتى بابلو ، كان الشك أحيانا يخامره فيما إذا كان قد أحسن إلى ابنه حين علمه كل مايعلمه هو . وكان بابلو — كهندى حكيم بعيد النظر — قد أدرك الخطر المحدق بأبناء جنسه من كل اتجاه . وكان الأب بيرى ، قبل مغادرته البلاد ، قد قال له :

— بابلو . . إن قومك سوف يساقون إلى المذبح كالأغنام إلا إذا جمعت بينهم ، حاول دائما أن تشد بعضهم إلى بعض برباط وثيق ، كتلهم ، واجعلهم يعملون ، واحرص دائما على السلام مع البيض ، فإن هذه هى فرصتك الوحيدة .

و بذل بابلو كل جهد ممكن ليتبع نصيحة الأب بيرى بإخلاص . ومن ثم جعل من نفسه ، أمام قومه ، مثلا للكفاح المضنى ، والعمل الدائم فى الحقل والمحافظة على الماشية . وأنشأ كنيسة فى قريته ، وحافظ على ممارسة الطقوس الدينية فيها . وكلما وقع شغب ، أو تهديد بالشغب ، مع البيض ، راح ينتقل من بيت إلى بيت يحث قومه ، ويقنعهم أو يأمرهم بالمحافظة على السلام . وعندما حدث ذات مرة تمرد لبعض القبائل الهندية فى الجنوب ، و بدا للجميع خلال بضعة أيام

www.ibtesama.com

أن حربا هندية سوف تنشب ، أمرع ونقل جماعته رجالا ونساء وأطفالا وكل مايمتلكون من ماشية ومتاع ، إلى لوس انجليس حيث عسكر فيها أياما عديدة حتى يعرف الجميع أنه فى جانب البيض إذا أصبح الموقف خطيرا .

ولكن أعماله الحميدة هذه لم تلق الجزاء الحسن ؛ إذ لاحظ أنه كلما ازداد اختلاط قومه بالجنس الأبيض يوما بعد يوم ، كانت المكاسب دائما للبيض ، والخسائر للهنود ، ولهذا بدأت مخاوفه تزداد . وكان المكسيكى ، صاحب وادى تيميكيولا وصديق الأب بيرى والرئيس بابلو ، قد عاد إلى المكسيك مشمئزا من الحالة فى كاليفورنيا ، ثم وردت الأنباء بأنه يلازم فراشه فى حالة احتضار . وكان وعد هـذا الرجل لبابلو بأن يعيش هو وقومه آمنين فى الوادى هو كل مايمتلكه بابلو من حق فى البلاد . والواقع أن بابلو لم يكن فى حاجة إلى أكثر من هذا الوعد فى الوقت الذى ظفر به . وكانت حدود الأراضى الهندية قد تم تخطيطها وسجلت على « الخارطة » . ولم يحدث قط أن حنث مالك مكسيكى بوعده مع أسرة هندية أو قرية هندية بعد اتفاق كهذا .

ولكن بابلو سمع شائعات أزعجته مؤداها أن مثل هذه الوعود وما ترتب عليها من حدود لن يكون لها قيمة ولن تمنع أحداً من تسجيل عقود شرائه للأرض . وكان له من الذكاء مايكفى لأن يرى أن هذا كله — إذا صح — معناه الدمار لقومه . وقد أفضى بكل هذه المخاوف والمزعجات لابنه اليساندرو ، وكثيرا ماأمضى الاثنان معا ساعات طويلة مليئة بالقلق وهما يسيران ذهابا وجيئة فى القرية أو جالسين أمام بيتهما يتناقشان فيما ينبغى أن يفعلاه . وكانت هذه

www.ibtesama.com

المناقشات تنتهى دائما بزفرة عميقة و يقول الوالد « يجب أن ننتظر ، فليس فى وسعنا أن نفعل شيئا » .

فلا عجب إذا بدا اليساندرو فى نظر شباب ونساء القرية الأكثر جهلا وسطحية تفكير ، بارد الإحساس نفورا . والواقع أنه كان قد شاخ قبل الأوان ، وكان يحمل فى قلبه أعباء لايعرفون عنها شيئا . ومادام محصول القمح قد صح ، وتجنبت الأرض الجفاف ، ونمت الجياد والأغنام بالمراعى الخصبة فى وفرة على الجبال ، فإن المنودفى تيميكيولا يشعرون بالبهجة ، و يذهبون إلى أعمالهم البسيطة يوما بعد يوم ، و يتسلون بالألعاب عند الغروب ، ويستغرقون فى النوم ليلا . ولكن اليساندرو وأباه كانا أبعد نظرا . وكان هذا هو السبب الأساسى الذى جعل اليساندرو لا يفكر فى النساء تفكيرا قائما على الحب — هذا مع التعليم القليل الذى تلقاه أقاما سدا رفيعا — لم يكن يحس به — بينه و بين عذارى القرية . فإذا حدث أن شعر نحو إحداهن بميل سريع مفاجىء يثير الحرارة فى دمائه فإنه لايلبث — دون أن يدرى السبب — أن يتحرر منه . أما فى حالات الرقص أو اللعب ، أو الأحاديث الودية ، أو الرحلات إلى الجبال بعد جمع المحصول أو البحث عن الكلأ ، فإنه يكون رفيقا ممتازا لهن ، ويكن رفيقات ممتازات له ولكنه لم يفكر قط فى أن يتخذ من إحداهن زوجة . لقد كانت آفاق المستقبل أمامه مفعمة بأفكار لم يكن فيها مجال لتهاويم الحب . كانت مفعمة بأمل واحد ، و بخوف واحد : الأمل فى أن يصبح جديرا بخلافة أبيه ، لأن أباه كان قد أصبح شيخا طاعنا واهن الجسم ، والخوف من أن يكون النفى والدمار فى انتظارهم جميعا .

www.ibtesama.com

فى مثل هذه الأمور كان يفكر وهو يسير بمفرده ، فى مقدمة رجاله ، فى الليلة الماضية ، عندما شاهد رامونا راكعة عند النبع . ومنذ تلك اللحظة حتى وقته الحاضر خيل إلى اليساندرو أنه لابد قد وقعت معجزة عجيبة له . لقد تلاشت من نفسه الآمال والآلام جميعاً ، وحل مكانها وجه ، وفاض قلبه إلى حد أدهشه وحيره بإحساسات غريبة من العجب الغامض والألم والبهجة وما لا يدرى أيضا . فلو أنه كان ما يسمى بالإنسان المتحضر ، لأمكنه أن يعرف فوراً ، ولكان فى مقدوره أن يحلل وأن يزن وأن يتأمل أحاسيسه هذه على مهل . ولكنه لم يكن إنسانا متحضرا ، وإنما اعتاد فقط أن يعتمد فى وضعه هذا على انفعالاته وغرائزه البسيطة البدائية . ولو كانت رامونا فتاة من بنى جنسه ، لانجذب إليها انجذاب الحديد إلى المغنطيس . أما الآن ، فإذا كان قد تمادى فى التفكير فيها على هذا النحو ، فإنها قد أضحت ، فى نظره ، بعيدة بعد نجمة الصباح التى جلس فى ضوئها فى ذلك الصباح يرقب ويأمل أن يراها فى نافذتها . إلا أنه على أية حال ، لم يصل فى تفكيره عنها إلى هذا الحد . فحتى هذا كان مستحيلا بالنسبة إليه . ومن ثم اكتفى بالركوع على الأرضية الصخرية خارج باب الكنيسة مرددا بطريقة آلية الصلوات مع الآخرين، منتظرا ظهورها مرة أخرى . ومع أن الشك لم يعد يخامره الآن فى أنها زوجة السنيور فيليب ، إلا أنه ظل راغبا فى البقاء راكعا عسى أن يراها مرة أخرى . لقد انحصرت آفاق آماله ، ومخاوفه ، وأهدافه فى هذا النطاق وحسب ـ أى فى مجرد نظرة واحدة أخرى إليها ، حتى لو كان متحضرا لما أمكنه أن يقدس امرأة أكثر من هذا . وبدا له أن صلاة القداس لن تنتهى . ونسى فى قرب نهايتها أن يشارك فى الغناء ، وفى آخر فقرة من الأنشودة ، تذكر نفسه فجأة ، وسرعان ما ارتفع صوته الصافى الرخيم ، كما

www.ibtesama.com

كان من قبل ، وكأنه الموجة البحرية التي تحمل زورقا . .

وسمعت رامونا النبرات الأولى ، وامتلأ قلبها بنفس الانفعال . وكان حب الموسيقى يجرى فى دمائها مثل اليساندرو . وفيما هى تنهض من ركوعها ، همست قائلة لفيليب :

— فيليب ! أتعرف أى هندى هذا الذى له ذلك الصوت الرائع ؟ إننى لم أسمع قط صوتا مثله من قبل .

فأجاب فيليب قائلا :

— أوه . . إنه اليساندرو ، ابن العجوز بابلو . إنه شاب ممتاز . ألم تسمعى غناءه منذ عامين ؟

فقالت رامونا :

— إننى لم أكن هنا . . هل نسيت ؟

— آ — نعم كنت غائبة ، لقد نسيت . حسنا . لقد كان هنا . لقد جعلوه رئيساً لجماعة حلاق الغنم ، رغم أنه كان فى العشرين من عمره فقط ، وقد استطاع أن يسوس الرجال ببراعة ، ويكفى أنهم ادخروا كل أجورهم تقريباً ليحملوها إلى بيوتهم ، ولم أسمع عن شىء كهذا من قبل ، وكان الأب سالفيرديرا هنا أيضاً ، ولعل بعض السبب كان يرجع إلى هذا ، ولكننى أعتقد أن نفوذ اليساندرو كان السبب الأكبر فى هذا السلوك . وهو بارع فى العزف على الكمان وأرجو أن يكون قد أحضرها معه لأنه يحسن عزف موسيقى سان لويس راى القديمة ، وكان أبوه رئيس الفرقة الموسيقية فى الإرسالية .

والتمعت عينا رامونا بالبهجة وقالت .

www.ibtesama.com

— هل تسر والدتك بسماع عزفه ؟

فأومأ فيليب برأسه قائلا :

— سوف ندعوه للعزف فى الشرفة هذه الليلة . .

وفيما كان هذا الهمس المتبادل مستمراً ، خلت الكنيسة من المصلين ، وهرع الجنود والمكسيكيون ليستعدوا لعمل اليوم . وتلكأ اليساندرو عندالباب فترة طول مدة ممكنة حتى سمع چوان كانيتو يقول له بحدة وهو يلتفت إليه :

— ماذا تفعل عندك يا اليساندرو ، هلم أسرع واجمع رجالك للعمل . فبعد أن انتظرنا كل هذا الوقت لجز الأصواف ، يجب أن نفرغ من هذه العملية بأسرع مما نستطيع ، هل أحضرت معك أبرع الحلاقين ؟

فأجاب اليساندرو قائلا :

— أجل . إن كل واحد منهم يستطيع أن يحلق مائة شاة فى اليوم ، حسب المعدل ؛ إذ لا يوجد فى كل منطقة سان دييجو فرقة حلاق أغنام مثل فرقتى ، وكذلك نحن لا نملأ ظهور الغنم بالجراح . ولسوف ترى كيف أننا لن نصيب واحدة منها بجرح واحد .

فرد چوان قائلا :

— مهلا ، إن الحلاق الذى يجرح شاة لا يعتبر حلاقا . لقد جززت أصواف آلاف الغنم فى زمنى دون أن ألوث مقصى بقطرة دم . ولكن المكسيكيين مشهورون دائما بأنهم أبرع حلاق غنم .

www.ibtesama.com

وقال اليساندرو في روح طيبة لا تنم عن الاستياء حين سمع چوان وهو يضغط على كلمة « المكسيكيين » :

— ونحن الهنود أيضاً . أما الأمريكيون ، فقد رأيت ذات يوم أحدهم وهو يعمل . إنه المدعو لوماكس المقيم بالقرب من تيميكيولا . وأقسم يا چوان إنني حسبته يسلخ الأغنام وليس يجز أصوافها . وكانت الحيوانات المسكينة تنجو من يده وهي تعرج والدماء تتقاطر منها .

ولم يستطع چوان في تلك اللحظة أن يجد ما يرد به على هذه الإجابة الرقيقة التي حاول بها اليساندرو أن يفترض مساواة الهنود بالمكسيكيين في براعتهم في فن جز أصواف الغنم . ومن ثم أصدر صوتاً ينم عن الاستهانة ، ثم انصرف بعيداً مسرعاً بحيث لم ير الابتسامة التي ارتسمت على وجه اليساندرو والتي كان من الممكن أن تزيد شعوره بالاستياء .

وامتلأت مرابط جز الأغنام بالحركة والنشاط . وكانت هذه المرابط تشبه إلى حدما ، البيوت الصيفية — هيا كل أبنية ضيقة ، طويلة .. طولها ستون قدما وعرضها ثلاثون ، لها أسقف وأعمدة ، وليس لها جدران . وكانت الأسقف تعتمد على دعائم خشبية متباعدة بنسب معينة لحمل السقف وكان السقف عبارة عن كتل خشبية مستطيلة تعتمد على الدعائم . وقد امتلأت ثلاثة جوانب من هذه المرابط بالأغنام والحملان .

وعلى مسافة بضع قصبات ، قامت الخيام التي يطهى فيها طعام الهنود ، والتي يتناولون فيها طعامهم . وكانت هذه الخيام مثابات مؤقتة ، مسقوفة فقط بأغصان الصفصاف التي لا تزال عليها أوراقها . وبجوار هذه كان الهنود قد أقاموا

www.ibtesama.com

معسكرهم ، كوخين أو ثلاثة من الأغصان الخضراء . ولـكن الجنود ، في معظم الأحيان كانوا يكتفون بالنوم على الأرض بعد أن يلتفوا بالبطاطين . وكانت الرياح نشيطة ، ومن ثم أخذت تدير الأجنحة ذات الألوان البهيجة لطاحونة الهواء التي كانت تنزح المـاء إلى خزان كبير في أدنى النبع ، بقوة وسرعة ، مما جعل الرذاذ يتطاير على الرجال المتزاحمين حوله ، يبلاون و يشحذون أسلحتهم ، ويشعرون بالبهجة والمرح وهم يتزاحمون ويدفع بعضهم بعضاً إلى مصدر الرذاذ .

وكان ثم هيكل مرتفع مربع الدعائم يقوم بجوار مرابط الجز . وفيه ربط من الأركان الأربعة كيس ضخم معد للامتلاء بالأصواف المحلوقة، وبجوار دعائم الهيكل الخشبي كان ثمة كومة كبيرة من الأكياس التي رمقها جوان بضحكة خفيفة وهو يقول لفيليب :

— لسوف نملأ أكثر من هذه الأكياس قبل أن تغيب الشمس .

وكان جوان يبدو في ذروة السعادة في أثناء عملية جز الأغنام . ذلك أنه كان يشعر أن في هذه العملية مكافأته الحسنة بعد عام طويل من أعمال رتيبة مملة . وهكذا كان أجمل منظر يمكن أن يسعده ، هو منظر ذلك الصف الطويل من الأكياس الضخمة المليئة بأصواف الغنم ، والمربوطة ، والمميزة بعلامة آل مورينو ، والمعدة للنقل إلى المنازل ، وكان يقول لنفسه في هذه الحالة :

— هذا شيء له قيمته ، ولن تعاني الأسرة الآن من أزمة في الصوف .

وإذا كان محصول الصوف في عام ما جيداً ، ظل جوان سعيداً طيلة الشهور

www.ibtesama.com

السنة التالية ، أما إذا كان رديئا ، فإنه يتحول إلى الورع فوراً خلال الشهور الستة الباقية ملتمسا من القديسين أن يعوضوا الخسارة ، وأن يضاعفوا كمية الصوف على ظهور الغنم .

وعلى إحدى الدعامات الخشبية للمربط ، كان ثمة سلم من الحبال اعتاد فيليب بخفة البهلوان ، أن يصعد عليه إلى السطح ليتخذ مكانه ، وليستعد لتلقى الأصواف ودسها فى الكيس بنفس السرعة التى يقذف بها إليه من أسفل . أما لويجو فقد اتخذ مكانه فى وسط المربط وهو يحمل على صدره كيسا من الجلد للمتلىء بقطع من النقود ، قيمة كل منها خمسة سنتات . ويجرى الحلاقون الثلاثون إلى أقرب مربط ، ويجذب كل منهم شاة الى مكان العمل ثم يضعها فى لمح البصر بين ركبتيه ، ثابتة مستسلمة ، ثم يعمل فيها مقصه الحاد . وهكذا بدأت عملية الجز ولم يعد هناك مجال للراحة ، ولا لحظة واحدة تكف فيها الأغنام عن الثغاء ، أو لا يصدر فيها صرير المقصات وهى تعمل أو وهى تشحذ ، أولا تتطاير فيها الأصواف الى السقف حيث تتكدس فى الأكياس ، لم يكن هناك لحظة واحدة بلا عمل من شروق الشمس حتى الغروب ، إلا ساعة للراحة عند الظهيرة حتى يتم جز أصواف الثمانية آلاف شاة وحمل وخروف فى مراعى السنيورة مورينو . وكان المنظر فى الواقع مثيرا ، فبجرد أن تحلق الشاة ، يجرى الحلاق بالصوف الى لويجو ، ويضعه على منضدة أمامه ، ويأخذ منه قطعة نقود من فئة خمسة سنتات ، ويلقيها فى جيبه ، ثم يسرع إلى شاة أخرى ، وفى أقل من خمس دقائق يكون قد تلقى قطعة نقود أخرى ، وكانت الأغنام المحلوقة تنطلق ، بعد أن تتحرر ، إلى مربط آخر ، وهى مذهولة مما جرى لها بعد أن تحس بخفة فى وزنها لا تقل عن ثلاثة أو خمسة أرطال ، وتظل الشاة تجرى فى

www.ibtesama.com

حيرة وأخيراً تنطلق بكل قواها فى مرح وسعادة .

وكان العمل شاقا فى الواقع ، مثيراً للعرق ، ذلك أن غبار الصوف ، مع الغبار الصاعد من ضرب حوافر الأغنام على الأرض ، كان يملأ الجو ، وكلما ارتفعت الشمس عالية فى السماء ، ازداد العرق انسياباً من وجوه الرجال ، ولم يلبث فيليب أن أدرك ، وهو واقف فى ظل السقف ، أنه لم يسترد صحته تماماً بعد الحمى . ولولا كبرياؤه وحديث جوان عنه لترك مكانه للرجل الهرم قبل أن تحل الظهيرة بزمن طويل . ولكنه كان مصراً على الصمود ، فاستمر يعمل رغم احتقان وجهه وشعوره بالألم فى رأسه ، وكان المعتاد عندما يمتلئ الكيس إلى النصف أن يقفز إليه المكدس ، ويتواثب فيه حتى يضغط الصوف بعضه إلى بعض بقدر الإمكان . ولما أخذ فيليب يقوم بهذه العملية ، شعر أنه تجاوز حد الاحتمال حقا ، إذ ما كادت سحب الغبار الأولى المزعجة ترتفع وتلف رأسه وتملأ حلقه ، حتى شعر فجأة بالدوار ، وقال لجوان بصوت خافت :

— جوان . . إننى مريض .

ثم سقط على الصوف مغشياً عليه ، وأرسل جوان صيحة استياء ، أعقبتها ضجة عالية من كل جانب حين أدرك الجميع ما حدث ، وكان رأس فيليب متراخيا على حافة الكيس ، وأخذ جوان يبذل جهداً لكى يتمكن من حمله إلى الخارج بلا جدوى . وأسرع الرجال — الواحد بعد الآخر — يصعدون السلم الحبال إلى السقف حيث وقفوا عاجزين عن القيام بشىء ، وإن كان كل منهم قد أخذ يقترح هذا الحل أو ذاك ، وكان لويجو فقط هو الذى هداه تفكيره للإسراع إلى البيت فى طلب العون . وهناك وجد السنيورة غائبة ، إذ ذهبت مع

www.ibtesama.com

الأب سافيردبرا لزيارة صديق يقع منزله على مسيرة نصف يوم . ولكن رامونا كانت هناك ، ومن ثم اختطفت كل ما يمكن أن تجده من أدوات تدشه وانطلقت عائدة مع لوبجو ، يتبعهما كل خدم المنزل ، وكلهم يتحدثون ، و يتأوهون ويقدمون الاقتراحات و يلوحون و يضربون الكف بالكف ، مما جعل الأمر يزداد ، فى نظر الرائى ،سوءاً فوق سوء .

ولما وصلت رامونا إلى مكان العمل ، نظرت إلى أعلى السقف مدهوشة وقالت :

— أين هو ؟

وفى اللحظة التالية ، رأت رأسه بين يدى چوان كانيتو مرفوعاً فوق حافة الكيس ، ومن ثم هتفت مرة أخرى فى تأوه :

— أوه .. كيف يمكن إخراجه من هذا المأزق ؟

وتقدم اليساندرو قائلا :

— سوف أخرجه أنا يا سنيورة . فأنا قوى لاتخافى لسوف آتى به سالما .

ثم قذف بنفسه إلى السلم الحبلى ، وهبط منه ، وأسرع إلى المعسكر ثم عاد حاملا مجموعة بطاطين . وأسرع إلى السقف مرة أخرى ، وربط البطاطين بعضها ببعض بقوة ، ثم لفها من الوسط حول خصره وألقى بأطرافها إلى رجاله طالباً منهم أن يمسكوا بقوة . وكان يتحدث إلى رجاله باللغة الهندية ومن ثم لم تفهم رامونا شيئاً مما كان ينوى أن يفعله فى أول الأمر . ولكنها حين رأت الهنود

www.ibtesama.com

يتراجعون قليلا عن حافة السقف وهم يمسكون بأطراف البطاطين بقوة بينما تقدم اليساندرو إلى إحدى الدعائم الدقيقة التى تعلق منها أحد أطراف الكيس ، أدركت ماينوى أن يفعله ، وكتمت أنفاسها فى ترقب . ورغم أن اليساندرو كان أثقل وزناً من فيليب وأطول قامة ، فقد بدا لرامونا أنه لا يوجد الرجل الذى يستطيع أن يحمل آخر ، ولو كان أخف منه ، عبر هذه الدعامة الدقيقة . وأشاحت رامونا بوجهها وأغمضت عينيها خلال فترة السكون التى أعقبت هذا المنظر . ورغم أن الفترة لم تستغرق غير لحظات قليلة ، إلا أنها بدت لها زمناً بلا نهاية قبل أن تسمع همهمة البهجة التى أنبأتها بأن عملية الإنقاذ تمت بنجاح ، فنظرت إلى أعلى ورأت فيليب راقداً على السقف مغشياً عليه ، ووجهه شاحباً ، وعينيه مغمضتين . وإزاء هذا المنظر عاد الخدم مرة أخرى يبكون ويولولون قائلين : « إنه ميت . . إنه ميت . . »

وتسمرت رامونا فى مكانها ، مركزة نظراتها على فيليب وقد اعتقدت هى أيضاً أنه مات . ولكن أفكارها كانت تدور حول السنيورة .

وصاح چوان كانيتو الذى دس يده تحت قميص فيليب :

— لا . . إنه لم يمت ، وإنما هو مغشى عليه فقط .

وعندئذ أخذت الدموع الأولى تنحدر على وجه رامونا . ونظرت فى رهبة إلى السلم الحبلى الذى كان اليساندرو يجرى عليه صاعداً هابطاً كأنه يجرى على الأرض ثم قالت وهى تنتقل بنظراتها من وجه إلى وجه :

— لو كان فى مقدورى فقط أن أصعد ! أظن أن هذا ممكن .

www.ibtesama.com

ثم وضعت قدمها على أول درجة من السلم .

وصاح جوان كانيتو حين لمحها :

— يا للعذراء المقدسة ! سنيوريتا .. سنيوريتا ! لا تحاولى هذا . إن الأمر ليس سهلا على رجل . إنك ستقعين على أم رأسك ، وهو يسترد صوابه بسرعة .

وسمع اليساندرو هذه العبارة رغم حالة الارتباك والفزع السائدة على المكان « سنيوريتا » أى « آنستى » ، إذن فإن رامونا ليست زوجة لفيليب أو لأى رجل آخر . وتذكر اليساندرو أنه ناداها بكلمة سنيورة ، أى سيدة ، ومع ذلك لم يبد عليها أنها دهشت ، وأخيراً تقدم رجاله وانحنى أمامها قائلا :

— سنيوريتا .

ويبدو أن شيئاً ما فى نبرات صوته لفت انتباه رامونا وجعلها تجفل . ولاشك أن هذه الكلمة البسيطة لم يكن لها كل هـــذا التأثير . وعاد اليساندرو يقول :

— سنيوريتا . . إن الأمر لم يكن عسيراً لحمل السنيور فيليب من مكانه والهبوط به على السلم ، لقد كان بين ذراعى فى خفة أحد هذه الحملان ، ولسوف أذهب به إلى البيت بمجرد أن يسترد صوابه ، ومن الأفضل له أن يبقى هنا حتى يفيق . واسوف يعود إلى حالته الطبيعية بسرعة . لقد كانت حرارة الجو هى السبب .

www.ibtesama.com

ولما رأى أن أمارات الحزن والقلق لم تزايل وجه السنيوريتا ، استطرد يقول بصوت أكثر حرارة :

— ألا تثق السنيورة بقدرتى على حمله سالما إلى البيت ؟

فقالت رامونا وهى تبتسم قليلا من خلال دموعها :

— نعم ، سوف أثق بك ، إنك اليساندرو . . أليس كذلك ؟

فأجاب قائلا بدهشة بالغة :

— نعم . . إننى اليساندرو . .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٦)

إن البداية السيئة لم تنته بنهاية حسنة فى عملية جز أصواف أغنام السنيورة مورينو هذا العام . ولو أن إنسانا غبى المزاج ، متعصبا ضـــد مذهب الرومان الكاثوليك — وهو المذهب الذى تؤمن به السنيورة — لوجد فيما جرى من أحداث سببا لاعتقاده بأن السنيورة عوقبت على وقف كل أعمال المزرعة فى انتظار وصول راهب مسن . ولكن السنيورة الورعة ، نظرت إلى ما حدث من الناحية الأخرى وامتلأ قلبها بالشكر لأن الأب سالفيرديرا كان بجانبها يواسيها ويخفف عنها خلال هذه المحنة التى مرّت بها .

ولم تكن الشمس قد بلغت سمت الظهيرة فى ذلك اليوم الأول عندما سقط فيليب مغشيا عليه فى كيس الصوف ، وكان الوقت بعد الظهيرة بقليل من اليوم الثالث عندما سقط جوان كانيتو — الذى كان يشعر بسعادة خفية لأنه حل محل

www.ibtesama.com

خيليب فى عملية تكدس الصوف — من دعامة السقف الأفقية إلى الأرض وكسر ساقه اليمنى كسرا خطيراً بالقرب من الركبة . ولم يكن من المحتمل أن تلتئم عظام جوان بسبب كبر سنه . أى أنه لن يكون فى مقدوره بعد ذلك إلا أن يعرج على عكازين ويجر ساقه المهيضة جرا . وكانت تلك ضربة قاصمة للرجل المسن ، لم يكن فى مقدوره أن يستسلم لها . وهكذا تزعزع إيمانه فى القديسين ، وأغرق نفسه فى خضم من الهرطقة والعتاب لهم ، ما كان من المحتمل أن يملأ قلب السنيورة بالفزع لو أنهـا عرفت أن مثل هذا التجديف يحدث تحت سقف بيتها .

وكان جوان يصيح قائلا :

— كم من مرة عبرت تلك الدعامة فى زمنى . وكانت الشياطين وحدها هى التى تستطيع أن تجعل قدمى تنزلق. ثم هناك الصندوق الكامل من الشموع الذى دفعت ثمنه من جيبى ، والذى أوقدته أمام تمثال القديس فرانسس فى الكنيسة من أجل عملية جز الأصواف هذه بالذات . ولعله يجلس فى الظلام على طول المدى ، فهذا لايهمنى ، فإنه فى نظرى ليس قديسا ! إذا ماهى فائدتهم إذا كانوا لايجنبوننا الأذى عندما ندفع الثمن لهم . إننى لن أدفع شيئاً بعد ذلك ، وإنى لأعتقد أن الأمريكيين الذين يضحكون منا ، على حق . وكان المسكين جوان ، بسبب آلام ساقه العنيفة التى تحرمه من النوم ، يظل يسخط ويسب ويتذمر من الصباح للمساء ، ومن المساء للصباح ، وكانت مرجريتا تقول إن العناية به تجعل السيدة العذراء نفسها تفقد صبرها . إذ لم يكن هناك ما يسره ، مهما تفعل ، كما أن لسانه لم يكن ليهدأ لحظة. وكانت من ناحيتها تعتقد أن الأمر لابد كما قال —

www.ibtesama.com

أى أن الشياطين هم الذين قذفوه من فوق الدعامة ، وإن للقديسين عذرهم حين تركوه هكذا لمصيره . وهكذا أخذت بذور الشك والنفور تنمو فى نفوس الخدم جميعاً نحوه . وكانت أحاديثه المستهترة ، مع مانقله مرجريتا عنه ، سبباً فى اعتقاد الجميع بأن كارثة خفية قد وقعت لجوان ، وأن الشيطان استطاع أن يتقمصه ، وكانت هذه محنة أخرى لم يكن ثمة بد من أن يتحملها الرجل المسن فوق محنة ساقه المكسورة . ولم يكن ثمة مايعزيه عن مصابه إلاحضور زملائه من الخدم رجالا ونساء ، للجلوس بجواره ، والتحدث معه ، وإخباره بكل مايجرى فى المزرعة ، ولكن عندما بدأوا ينحسرون الواحد بعد الآخر ، ثم يمتنعون تماماً عن زيارته ، كان الأمر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ، فراح يدير وجهه إلى الحائط ، ويلتزم الصمت والكف عن التذمر ، ولايتحدث مع أحد إلا للضرورة القصوى .

وأفزعت هذه الظاهرة مرجريتا أكثر من الظواهر الأخرى ؛ إذ خطر لها بالتأكيد أن عوامل الفزع الرهيب ، والندم ، التى يشعر بها الإنسان الذى باع نفسه للشيطان، قد تملكته ، ومن ثم أخذت يداها ترتعدان كلما راحت تؤدى له الخدمات الضرورية كل يوم . وكان الطبيب المستدعى من فنتورا لتجبير ساقه قد ذكر أنه محتاج للرقاد ثلاثة أشهر ، وللعناية به خلالها على هذا النحو ، وقد تنهدت مرجريتا حين سمعت هذا وقالت فى ضيق :

— ثلاثة أشهر ! أخشى أن أموت أو أفقد عقلى قبل نهاية هذه المدة .

وكانت السنيورة مشغولة بحالة فيليب ، بحيث لم تهتم كثيراً بأمر جوان .

www.ibtesama.com

ذلك أن إغماءة فيليب كانت بداية لنكسة عنيفة للحمى ولرقاده فى الفراش يتقلب و يهذى دائماً عن الصوف ، وكان يقول :

— اقذفوا بها .. أسرع .. أسرع .. إنها أصواف جيدة . ! خمسة أرطال أخرى و يصبح لدينا طن كامل فى هذه الأكياس يا چوان ! يا كابتن اليساندرو بالأسماء ؟ ما أشد حرارة الشمس على رأسى !

وكان قد ذكر اسم اليساندرو عدة مرات ، وبلهفة ، مما جعل الأب سالڤيرديرا ينصح باحضار اليساندرو إلى الغرفة ليرى ما إذا كان فى ذهن فيليب شيء يريد أن يقوله له . ولكن عندما وقف اليساندرو بجوار الفراش ، أرسل إليه فيليب نظرات جوفاء . كما كان يفعل مع الآخرين ، وهو ، مع هذا ، لا يزال يردد :

« اليساندرو .. اليساندرو »

وقالت رامونا باكية :

— أعتقد أنه ربما يريد أن يعزف له اليساندرو على الكمان . لقد كان يحدثنى عن براعة اليساندرو فى العزف ، وقال لى إنه سيدعوه فى المساء إلى الشرفة ليعزف لنا .

وقال الأب سالڤيرديرا :

— لا بأس من المحاولة . هل أحضرت معك الكمان يا اليساندرو ؟

فأجاب اليساندرو قائلا :

www.ibtesama.com

— لا ، للأسف ، لم أحضرها .

فقالت رامونا :

— ربما تتحسن حالته لو أنك غنيت ، لقد كان يتحدث عن صوتك أيضاً.

وقالت السنيورة :

— حاول .. حاول ، غن شيئاً بصوت خفيض ناعم .

وسار اليساندرو إلى النافذة ، وبعد أن فكر برهة ؛ بدأ يترنم بأحد الأناشيد الدينية .

وما كادت النغمات الأولى تنساب فى جو الغرفة حتى هدأ فيليب فجأة . وقد بدا بوضوح أنه ينصت وعلى وجهه المحموم أمارات الابتهاج . واستدار بوجهه على جانب الوسادة ، ووضع يده تحت خده ، وأغمض عينيه ، وأخذ الثلاثة يراقبونه وهم يتبادلون نظرات الدهشة .

وقال الأب سالفيرديرا :

— إنها لمعجزة ، وسوف ينام .

وهمست راموونا ·

— وهذا ما يحتاج إليه .

www.ibtesama.com

ولم تقل السنيورة شيئاً ، وإنما طمرت وجهها فى مفرش السرير هنيهة ، ثم رفعته ورنت إلى اليساندرو وكأنها تبتهل إلى قديس ، وكان هو أيضاً قد لاحظ التغيير الذى طرأ على فيليب ، فأخذ يخفض صوته فى الغناء تدريجياً حتى لاح كأن النغمات تأتى من بعيد ، خفيضة .. خفيضة وأكثر بطئاً . وأخيراً توقفت ، وكأنها لفظت أنفاسها ، وتلاشت فى الأفق البعيد .. وفتح فيليب عينيه عندما توقفت ، ومن ثم قالت السنيورة فى ابتهال و بصوت زاخر بالقلق .

— أوه .. استمر .. استمر .. لا تتوقف .

وكرر اليساندرو الغناء فى هدوء وبطء وتوتر عصبى .. وتهدج صوته ، وبدا جو الغرفة خانقاً رغم النافذة المفتوحة ، وخامره شىء كالفزع وهو يرى فيليب يستغرق تدريجياً فى النوم على نغمات صوته . ذلك لأنه لم يكن فى حياة اليساندرو البرية من التجارب ما يتيح له القدرة على فهم ظاهرة كهذه . وأخذت أنفاس فيليب تبطؤ تدريجياً فى رقة وانتظام ، ثم سرعان ما راح فى نوم عميق ، وتوقف الغناء وفيليب لا يريم .

وهمس اليساندرو قائلا :

— هل أستطيع أن أنصرف ؟ .

وأجابت السنيورة قائلة فى ضيق :

— لا لا .. قد يستيقظ فى أية لحظة .

ولاح على اليساندرو الاضطراب ؛ ولكنه حنى رأسه فى خضوع ، و بقى

www.ibtesama.com

فى مكانه واقفاً بجوار النافذة ، وكان الأب سالفيدريرا راكعا عند أحد جانبى السرير ، والسنيورة عند الجانب الآخر ، وراموونا عند نهايته ، والجميع يصلون . وبلغ من فرط السكون المخيم على الغرفة أن حسيس حبات المسبحة وهى تنساب الواحدة بعد الأخرى كان يرن كصوت مرتفع . وكان ثمة تمثال للعذراء المباركة فى فجوة الجدار القائم عند رأس السرير ، وفى الجانب المقابل ، كانت هناك صورة للقديسة باربارا وأمام كل منهما كانت الشموع موقدة . وأخذت الذبالات الطويلة تذوى وتخمد ثم تنبثق بالضوء مرة أخرى عندما تسقط أطرافها فى الشمع المذاب ، وكانت نظرات السنيورة مركزة على تمثال العذراء بينما كان الأب مغمضاً عينيه . أما راموونا فكانت ترنو إلى فيليب والدموع تنحدر على وجهها وهى تحرك حبات مسبحتها بلا وعى .

وقال اليساندرو لنفسه :

— لاشك أنها خطيبته ، وأن القديسين لن يتركوه يموت .

وأخذ هو أيضا يصلى . ولكن الموقف كان أقسى من أن يحتمله ، ومن ثم وضع يده على قاعدة النافذة الخفيضة ، وتقوس فوقها وهمس قائلا لراموونا التى استدارت برأسها إلى الصوت :

— إننى لن أنصرف ياسنيوريتا ، ولكنى سأبقى بالقرب من هنا ، تحت النافذة إذا استيقظ .

وما إن غدا فى الهواء الطلق حتى تنفس بعمق ، وتلفت حوله محلقا مدهوشا

www.ibtesama.com

كإنسان يسترد صوابه بعد إغماءة . ثم ألقى بنفسه على الأرض ، تحت النافذة ورقد متطلعا إلى السماء ودنا الكلب كابيتان نحوه ، وأرسل عواء خافتا ، ثم تمدد بطول جسمه بجواره ، وكان الكلب يعرف كأى فرد فى البيت ، أن هناك خطرا ، وأن هناك ألما وعذابا .

ومرت ساعة ، ثم أخرى . . وثالثة دون أن يند صوت عن غرفة فيليب . ونهض اليساندرو ، وألقى نظرة إلى داخل الغرفة من النافذة ، ورأى أن الأب والسنيورة لم يغيرا وضعيهما . . . وكانت شفاههما لاتزال تتحرك بالصلاة . أما رامونا فقد غلبها التعب على أمرها ، فتحولت من الركوع إلى الجلوس ، معتمدة برأسها على قائمة السرير ، ثم راحت فى سبات . وكان وجهها منتفخا شاحبا من فرط البكاء ، وتحت عينيها من الأمارات الواضحة ماينم عن مدى إرهاقها، إذ بقيت ثلاثة أيام وثلاث ليال بلا راحة تقريبا ، لفرط ما كان عليها أن تقوم به ، فبين مرض فيليب وإصابة چوان كان ، لم تكن تمر دقيقة دون شىء يجب أن يعمل أو مشكلة محيرة يجب أن تحل ، وفوق هذا كله ، ومع هذا كله ، الحزن الرهيب ، وكانت رامونا تكاد تنسحق من فرط الحزن كلما فكرت فى احتمال موت فيليب . إنها لم تكن تعرف إلى أى مدى امتزجت حياتها بحياته، حتى رأته راقدا يهذى ، وقد حسبته لعدم خبرتها يحتضر . أما الآن فإن قلبها لينفطر عند تفكيرها فى الحياة بدونه، ومن ثم كانت تقول لنفسها : «عندما يدفن ؛ سوف أطلب من الأب سالفيرديرا أن يأخذنى معه . فإنى لن أستطيع أبدا أن أعيش هنا بمفردى » دون أن تدرك لحظة أن كلمة « بمفردى »

www.ibtesama.com

تبدو غريبة وهى تخطر ببالها رغم علاقاتها الأخرى ؛ ذلك أنه لم يكن للسنيورة موضع فى خيالاتها عن المستقبل الذى كان يملأ قلبها بالفزع . وإن رامونا ، فى الواقع ، كانت تشعر بالوحدة دائما فى حضور السنيورة .

وظل اليساندرو واقفا عند النافذة عاقدا ذراعيه على صدره ، معتمدا بجذعه إلى قاعدتها ، مركزاً نظراته على وجه رامونا وقوامها ، وكانت تبدو عندئذ أجمل ما تكون فى عينى عاشق ، ولكنها كانت تبدو فى عينى اليساندرو أجمل من صورة القديسة بربارا المعلقة على الجدار وراءها ، وكان بغريزة العاشق قد قرأ الأفكار التى سطرت على وجهها خلال الأيام الثلاثة السابقة . وقد قال لنفسه .. سوف تموت إذا مات ، مادامت ثلاثة أيام من مرضه قد جعلتها تبدو هكذا ، وألقى اليساندرو بنفسه على الأرض مرة أخرى ، ولم يدر هل مضى عليه يوم أو ساعة وهو فى رقدته تلك حتى سمع صوت الأب سالفيرديرا ينطق باسمه . فوثب ليرى الراهب العجوز عند النافذة يقول والدموع تجرى على وجنتيه :

— حمداً لله .. لسوف تتحسن حالة السنيور فيليب ، لأن العرق قد تفصد من جسمه وهو لا يزال مستغرقا فى النوم الآن ، ولكنه حين يصحو سوف يسترد صوابه ، لقد انكسرت حدة الحمى ، ولكننا لا ندرى يا اليساندرو كيف نستغنى عنك ، ألا يمكن أن تجعل رجالك يرحلون ، وتتخلف أنت هنا ، إن السنيورة تحب أن تأخذ مكان جوان حتى يشفى وسوف تعطيك نفس الأجر الذى كان يأخذه . أليس هذا شيئاً جميلا فى نظرك يا اليساندرو ؟ إنك لا تستطيع أن تتأكد من حصولك على مثل هذا الأجر فى الأشهر الثلاثة القادمة ، أليس كذلك يا اليساندرو ؟

وفيما كان الأب يتحدث ، كان صدر اليساندرو نهبا لصراع عنيف . ولم يكن يعرف أسماء هذه النوازع التى كانت تتصارع فى صدره ، وتكاد تمزقه لفرط تنافرها إلى اتجاهين ؛ أحدهما يقول : « امكث » ، والآخر يقول : « اذهب » ولم يكن يعرف أى واحد منهما الذى يقول له : « إن بقاءك هنا خطر ، ومن الأضمن لك أن تهرب » ولكنه ، على أية حال ، كان يشعر أنه لا يستطيع أن يفعل هذا أو ذاك .

وأخيراً قال :

- هناك عملية جز أصواف أخرى يا أبى ، فى مزرعة أورتيجا ، وقد وعدتهم هناك بالذهاب إليهم بمجرد الفراغ من عملى هنا ، وأعتقد أن من حقهم أن نفى بالوعد بعد أن انتظرونا كل هذه المدة ، وإن النكث بالوعد لا يليق يا أبى .

وتراخت عضلات وجه الأب سالفيرديرا وقال :

— لا يا بنى بالتأكيد ، ولكن . . ألا يمكن لأحد آخر أن يرأس الفريق بدلا منك ؟

وعندما سمعت رامونا هذه الكلمة ، تقدمت إلى النافذة ، وأطلت منها وهمست قائلة للأب :

— هل تتحدث مع اليساندرو ليبقى ؟ دعنى أحدثه أنا ، إذ لا ينبغى أن يرحل.
وانطلقت بسرعة فى الردهة ، وعبرت الشرفة ، وهبطت الدرجات وأصبحت فى لحظة بجوار اليساندرو ، متطلعة إلى وجهه فى ابتهال :

— إننا لا نستطيع أن ندعك تمضى يا اليساندرو . سوف يدفع السنيورا جر

من يذهب مع فريق الحلاقين بدلا منك . إننا نريد أن تبقى هنا فى مكان جوان حتى يشفى ، لا تقل إنك لا تستطيع البقاء ، فإن فيايب قد يحتاج إلى أن تغنى له مرة أخرى ، فماذا نفعل عندئذ ! ألا يمكن أن تبقى ؟ .

فقال اليساندرو بوقار :

— نعم ، يمكننى أن أبقى . ولسوف أبقى أى مدة تريدين .

وصاحت رامونا قائلة :

— أوه ، شكراً لك يا اليساندرو ، لقد أحسنت ببقائك . ولسوف ترى السنيورة كيف تعوضك .

ثم انطلقت عائدة إلى البيت ، وكان اليساندرو يقول :

— إن المسألة لا شأن لها بالأجر يا سنيوريتا .

ولكنها كانت قد اختفت قبل أن تسمعه ، ومن ثم استدار وهو يحس بالمهانة قائلا للأب سالفيرديرا :

— إننى لا أريد أن تظن السنيورة أن المال هو الذى أبقانى . إننى لن أترك جماعتى من أجل المال ، وإنما لأساعدهم ، ماداموا فى حاجة إلى يا أبى .

فقال الراهب الذى كان يعرف اليساندرو منذ كان صبيا يلعب فى ردهات إرسالية سانت لويس راى ، وموضع عطف ورعاية الرهبان فيها :

— نعم ، نعم ياولدى . إننى أفهم هذا . وإن هذا لفضل منك ، ولن تغفل

www.ibtesama.com

السنيورة عن هذا . إن المال لا يمكن أن يشترى شيئاً كهذا . إنهم حقا فى محنة كبيرة الآن ، لا سيما وأن البيت ليس فيه غير سيدتين ، وأنا لا بد لى أن أرحل قريباً ، إلى الشمال مرة أخرى .

وسأله اليساندرو قائلا :

— هل من المؤكد أن تتحسن صحة السنيور فيليب ؟ .

فأجاب الأب سالفيرديرا قائلا :

— أعتقد هذا ، فإن النكسات تكون أقسى عادة من المرض نفسه . لكننى لم أر فى حياتى إنسانا مات منها بعد أن يتصبب العرق من جسمه ويستغرق فى النوم. ولاشك أنه سيبقى فى فراشه أياما عديدة ، إن هناك كثيراً من الأعمال التى تحتاج إلى من يشرف عليها ، وإنه لمن سوء الحظ أن يصاب جوان كانيتو أيضاً فى هذا الوقت ، لقد سمعت أنه فى أسوأ حالاته النفسية ، ولا يكف عن التجديف بلا رادع .

فقال اليساندرو :

— نعم ، إنه يفعل هذا ، وهو يقسم إن القديسين سلموه للشياطين لكى يدفعوا به من فوق الدعامة ، وإنه من ثم لن يتعامل معهم بعد اليوم ، وقد طلبت منه أن يكون على حذر ،وإلا فقد يتعرض لما هو أسوأ إذا لم يصلح من أحاديثه عنهم .

وتنهد الراهب بعمق، وهما يسيران جنبا إلى جنب ، ثم قال :

— إن هذه علامة القيامة ، فإن المجدفين الآن فى الطرق العامة ، وقد فسد

www.ibtesama.com

الناس . ألا يزال والدك يمارس الطقوس الدينية فى الكنيسة ، وهل يزوركم غالباً قسيس فى القرية ؟

فأجاب اليساندرو قائلا :

— مرتين فى هذا العام ، وأحيانا يأتى أحدهم لصلاة الجناز إذا كان لدينا من المال ما يكفى لإقامة قداس ، ولكن أبى يجعل الكنيسة مفتوحة فى أيام الآحاد ، فنرتل ما نعرفه من أناشيد القداس ، و كثيراً ما يأتى أهل القرية للصلاة .

فهمهم الأب سالفيرديرا متوجعا قائلا ، دون أن يحفل بالعبارات الأخيرة من الحديث :

— نعم ، نعم . . دائما من أجل المال . . دائما من أجل المال ! يالاعار ! ولولا الخوف من أن أكون دخيلا ، لذهبت بنفسى إلى تيميكيولا كل ثلاثة أشهر ، ولكننى لا أستطيع ، فإن القساوسة لا يحبون مذهبنا .

فهتف اليساندرو قائلا :

— أوه ، لو أنك تأتى يا أبى ! إذن لجعلت والدى جد سعيد . إنه كثيرا ما يتحدث إلى عن الفرق بين ما يسمعه من أحاديث فى الكنيسة الآن ، وما كان يسمعه فى الإرسالية قديما . إنه حزين جدا يا أبى ، وفى أشد الجزع بشأن مصير القرية ، إنهم يقولون إن الأمريكيين حين يشترون أراضى المكسيكيين يطردون الهنود كما لو كانوا كلابا . إنهم يقولون إنه ليس لنا حق فى أراضينا ، فهل تعتقد

www.ibtesama.com

أن فى مقدورهم أن يفعلوا هذا يا أبى فى حين نقيم نحن فيها دائما ، وأصحابها قد وعدوا بعدم انتزاعها منا أبدا .

وظل الأب سالفيرديرا صامتا فترة طويلة قبل أن يجيب ، وأخذ اليساندرو ، يتأمل وجهه فى قلق ، وبدا على الأب أنه متردد فى اختيار الكلمات التى تحمل المعانى التى فى ذهنه ، وأخيرا قال :

— هل تلقى والدك إخطارا فى أى وقت منذ استولى الأمريكيون على البلاد ، إخطارا للمثول بين يدى المحكمة أو لتقديم أية مستندات على ملكية الأرض ؟ .

فأجاب اليساندرو قائلا :

— لا يا أبى .

فاستطرد الراهب قائلا :

— لابد أن يكون ثمة إخطار أو دعوة من هذا النوع ، بقدر ما أفهم قوانينهم قبل إمكانهم اتخاذ أية خطوة لطرد الهنود من المنطقة . لابد أن يتم هذا حسب القانون ، بأمر من المحكمة . فإذا لم يوجه إليكم إخطار كهذا ، فأنتم فى أمان .

فقال اليساندرو ملحا :

— ولكن يا أبى ، كيف يمكن أن يوجد قانون ينتزع منا الأراضى التى وهبها لنا إلى الأبد السنيور فالديز ؟

www.ibtesama.com

— هل أعطاكم أية مستندات تثبت هذه الهبة ؟

— لا ، ولكنها مرسومة بالمداد الأحمر على الخارطة . مرسومة بيدجوزيه راميريز من سكان لوس أنجليس عندما رسموا حدود ممتلكات السنيور ڤالديز . لقد كان لديهم الكثير من الأدوات النحاسية والخشبية للقياس بها ، وسلسلة طويلة ثقيلة جدا ساعدتهم فى حملها . وقد رأيت بنفسى الحدود المرسومة على الخارطة إذ كانوا جميعا ينامون فى بيت أبى : السنيور ڤالديز ، والسنيور راميريز ، والرجل الذى كان يقوم بالقياس ، كان قد استأجر أحد رجالنا ليحمل له أدواته ، ولكننى كنت أقوم بالمعاونة لأنى أردت أن أرى كيف تتم هذه العملية رغم أنى لم أستطع أن أفهم شيئا . وقد قال لى جوزيه إن على الإنسان أن يدرس سنوات عديدة حتى يتعلم شيئا كهذا . وكان يبدو لى أن طريقتنا فى استعمال الأحجار لتحديد الممتلكات أفضل ، ولكننى أعرف أن الحدود كلها رسمت على الخارطة لأنها كانت بالمداد الأحمر ، وقد فهمها أبى أيضا ، وكذلك أشار إليها بالأصابع جوزيه راميريز والسنيور ڤالديز قائلين : « كل هذه المنطقة هى أراضيك دائما ياپابلو » إننى لا أظن أن أبى على حق فى خوفه . أليس كذلك ؟

فقال الأب سالڤيرديرا بحذر :

— هذا ما أرجوه . ولكن منذ رأيت كيف انتزعت جميع الأراضى المملوكة للإرساليات ، لم يعد لى ثقة بالأمريكيين . أعتقد أنهم سيأخذون كل ما يستطيعون ، ولقد أصيبت الكنيسة بخسائر جسيمة على أيديهم .

www.ibtesama.com

فأجاب اليساندرو قائلا :

— هذا ما يقوله أبى ، إنه يقول : « انظر إلى إرسالية سانت لويس ! لم يبق لها غير الحديقة والبستان من كل أراضيها الواسعة التى كانت مراعى لثلاثين ألف رأس من الغنم » فإذا كانت الكنيسة ورعاتها قد عجزوا عن الاحتفاظ بأملاكهم ، فهل نستطيع نحن الهنود ! هذا مايقوله أبى .

فقال الراهب وهو يتجه إلى باب غرفة چوان كانيتو الذى كان مشوقا لرؤية وجه الأب سالفيرديرا ، وخائفا منه فى ذات الوقت :

— إننا جميعا عاجزون فى أيديهم ياأليساندرو . إنهم يمتلكون البلاد ، وفى مقدورهم أن يصدروا من القوانين مايشاءون ، وليس فى وسعنا إلا أن نقول :

« لتكن مشيئة الله » .

ثم رسم علامة الصليب على صدره فى خشوع ، وهو يكرر العبارة الأخيرة مرتين .

وفعل اليساندرو نفس الشىء بإحساس صادق من الخشوع والرهبة ، ذلك لأنه كان ممتلىء القلب بتقديس الرهبان وكل تعاليمهم . إلا أنه قال لنفسه وهو يمضى نحو مربط جز أصواف الغنم :

« ولكن . . كيف تكون مشيئة الله أن يقع هذا الظلم الذى لايتفق

www.ibtesama.com

ـ فى نظرى ـ مع جلال الله . ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا دون مشيئة الله !

إن الإنسان ليس بحاجة إلى العلم لكى يرى ما فى هذه الخواطر من منطق . فإن أجيالاً من المظلومين والمسلوبين قبل اليساندرو ، كانوا يواجهون هذه المشكلة بطريقة من الطرق .

وفى مربط جز الأصواف ، وجد اليساندرو رجاله فى حالة اضطراب وضيق نفسى ، ذلك أن عملية الجز كانت انتهت فى الساعة العاشرة صباحا ، فلماذا لم يتخذوا وجهتهم إلى مزرعة أورتيجا ؟ لقد انتظروا طيلة اليوم ، والشمس قد اقتربت من سمت الغروب دون أن يفعلوا شيئا ؟ وأسوأ من هذا أنهم لم يجدوا كفايتهم من الطعام ، وهذا ما أثار ضيقهم ولا عجب . وكان چوان كانيتو ـ الاقتصادى ـ قد عرف أن المهمة سوف تنتهى فى العاشرة صباحا ، وأنهم سوف يرحلون قبل الظهر ،ومن ثم أصدر أمره بألا يذبح لهم غير حملين فى اليوم السابق ، وهكذا نفد اللحم . وكانت ماردا ، بناء على تعليمات ضمنية من چوان ، قد اقتصرت على طهو الطعام اللازم للأسرة فقط . ومن ثم واجه الحلاقون المساكين يوما تعسا لاسيما حين جاءتهم الأنباء بأن رئيسهم اليساندرو ملقى بوجهه على الأرض عند نافذة السنيور فيليب ، وأنه على غير استعداد لأن يتحدث إليه أحد .

ورغم أن الفرصة لم تكن ملائمة لكى يعلن لرجاله عن عزمه على التخلف عنهم ، إلا أنه صارحهم بالأمر فى كلمات قليلة ، ثم شغلهم ، بلباقة ، عن لومه بالاستغراق فى عملية انتخاب رئيس لهم بدلا منه طيلة ما تبقى من الموسم .

www.ibtesama.com

وكانوا قد قالوا له فى احتجاج عندما أخبرهم بالأمر :

— حسنا جداً .. إن رئيسنا هذا العام سيكون رئيسنا فى العام القادم أيضا.

وكان اليساندرو يعرف أن التخلى عن الرئاسة ليس بالأمر السهل ، ومن ثم قال :

— إذن افعلوا ماتشاءون ، فإن الأمر لدى سواء . ولسوف أتخلف هنا لأن الأب سالفيرديرا يريد هذا .

وهنا ارتفعت همهمة الارتباك من الجميع بعد أن هدأت نفوسهم :

— أوه . إذا كان الأب يريد هذا ، فالأمر عندئذ يختلف . نعم .. إن وجه الموضوع يتغير تماماً .

كانوا جميعاً متمسكين بالمذهب الكاثوليكى، كل فرد فى قرية تيميكيولا . ومن ثم لم يكن ليخطر ببال أحدهم قط أن يخالف أوامر الأب . ولكن عندما علموا أن اليساندرو سيتخلف عنهم حتى تشفى ساق چوان كانيتو عادوا مرة أخرى إلى الاحتجاج - إن هذا غير ممكن - إن هذه الفترة هى الصيف كله - ولابد لاليساندرو أن يحضر الاحتفال بعيد مولد القديس چوان فى منتصف الصيف - ولن تكون لهذا الاحتفال بهجته إذا لم يكن اليساندرو موجودا ! ماذا خطر بباله ؟ لاشك أنه نسى هذا الاحتفال عندما وعد بالبقاء المدة التى تريدها السنيوريتا . إن اليساندرو لا يذكر شيئاً إلا صوت السنيوريتا رامونا فى أثناء حديثها معه. ولو كان لديه فى هذا الصيف مائة ارتباط و إرتباط لنسيها كلها ولكن عندما تذكر الاحتفال الدينى فى منتصف الصيف لم يسعه إلا أن يشعر بالاستياء ، لأن

www.ibtesama.com

أباه فى هذا الوقت لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدون مساعدته. إن هذا الاحتفال قد يؤمه فى بعض الأحيان ألف هندى ، والرجل الأبيض يستغل هذه الفرصة فيبيع المشروبات الكحولية لهم ، مثيرا كل ألوان الشغب والاضطراب ، نعم . لا بد أن يكون اليساندرو فى تيميكيولا إبان هذا الاحتفال ، لابد من هذا .

— لسوف أتمكن من العودة إلى القرية عندئذ . وإذا لم أفرغ من مهمتى هنا ، فسوف أحضر للاشتراك فى الاحتفال على الأقل . اطمئنوا من هذه الناحية .

ولم تستغرق عملية انتخاب رئيس جديد فترة طويلة . ذلك لأنه لم يكن فى الواقع غير رجل واحد فى الفريق كله يصلح لهذا المنصب . ذلك هو فرناندو الهرم الوحيد فى الفريق ، أما الباقون فكانوا جميعا شبابا أقل من الثلاثين ، أو فتية ، وكان فرناندو رئيسا للفريق سنوات عديدة ولكنه استؤذن ، منذ عامين ، لكى يتخلى عن هذا المنصب لأليساندرو وكان قد بلغ منه الكبر ، ولم يكن يحب أن يسهر النصف الأول من الليل جالسا أو قائما ليتأكد بأن الحلاقين لا يقامرون بأجورهم فى لعب الورق . وكان يفضل أن يلتف ببطانيته عند الغروب ، ويستغرق فى النوم حتى فجر اليوم التالى ، إلا أنه لم يعترض على عودته إلى هذا المنصب مرة أخرى مادام الأمر لن يستغرق أكثر من أسابيع معدودة ، وإن اليساندرو على حق فى بقائه — كل الحق ، هكذا قال فرناندو. وكان لقوله الأثر الكبير فى نفوس الفريق .

لقد ذكرتم أن السنيورة مورينو كانت دائما صديقة لهم ، وأنها قالت إنه مادام فى مراعيها شاة تجز ، فلن يجزها إلا حلاقون من تيميكيولا . ومن ثم

www.ibtesama.com

فإن من الجحود الآن ألا يفعلوا كل ما فى وسعهم لمساعدتها فى محنتها .

وطويت البطاطين ، وجمعت السروج ، واقتيدت الجياد إلى المرابط عندما رؤيت رامونا ومرجريتا مقبلتين بأقصى سرعة من البيت .

وهتفت رامونا بأنفاس لاهثة :

— اليساندرو . . اليساندرو . . لقد سمعت الآن فقط أن رجالك لم يتناولوا وجبة الظهر اليوم ، لشد ما أشعر بالخجل . ولكنك تعلم أنه لولا حالة المرض فى البيت ، ماحدث شىء من هــذا . لقد ظننا جميعا أنكم راحلون فى الصباح . والآن لابد أن يتناولوا عشاء طيبا قبل الرحيل . إنه يطهى الآن . . دعهم ينتظروا .

وترجم الرجال الذين فهموا حديث رامونا ما قالته باللغة الإسبانية للذين لايفهمونها وهكذا ارتفعت من شفاه الجميع عبارات الشكر للسنيوريتا . وكانوا جميعا على استعداد للانتظار ، لأن رغبتهم فى الإسراع إلى مراعى أورتيجا لم تلبث أن تلاشت من أذهانهم . ولكن اليساندرو فقط هو الذى تردد قائلا لرجاله :

— إن الرحلة إلى أورتيجا تستغرق ست ساعات كاملة . ولسوف تصلون فى ساعة متأخرة إذا لم تبدأوا فى الرحيل الآن .

فقالت رامونا :

— لسوف يكون العشاء معدا فى خلال ساعة . أرجوك أن تجعلهم

www.ibtesama.com

ينتظرون ، إن ساعة واحدة لن تضير .

فابتسم اليساندرو قائلا :

— إن الأمر سيستغرق نحو ساعتين ياسنيوريتا قبل أن يبدأوا فى الرحيل . ولكن ، ليكن ماتريدين ياسنيوريتا ، وشكرا على اهتمامك بهم .

فقالت رامونا :

— أوه ، إننى لم أفعل هذا . إنها مرجريتا التى جاءت وأخبرتنى . لقد عرفت أننا سنشعر بالخجل إذا رحل الحلاقون ببطون خاوية . بل أخشى أن يكونوا جائعين جداً الآن .

ثم أردفت قائلة بأسى :

— لا شك أنه أمر مزعج أن يقضى الإنسان يوما كاملا بلا طعام . لقد تناولوا فطورهم بعد شروق الشمس مباشرة .. أليس كذلك ؟

فأجاب اليساندرو قائلا :

— أجل ياسنيوريتا . ولكنها ليست بالمدة الطويلة ، وفى وسع الإنسان أن يقضى يوماً كاملا بلا طعام . وقد حدث هذا لى كثيراً .

فهتفت رامونا قائلة :

— كثيراً ؟ ولكن لماذا ؟

ثم راجعت نفسها وقالت مفكرة :

www.ibtesama.com

— ياله من سؤال أهوج ! أيمكن أن يكونوا فقراء إلى هذا الحد ؟

ولكي تجنب اليساندرو الإجابة ، انطلقت مسرعة إلى البيت وهي تقول لمرجريتا :

— هلم يامرجريتا .. يجب أن نمضي لنساعد على إعداد العشاء .

فقال اليساندرو وهو يعجب من جرأته :

— هل تسمح لي السنيوريتا بالمعاونة أيضاً إذا كان ثمة مايمكن أن أقوم به ؟

فهتفت رامونا قائلة :

— أوه ، لا .. لا ، ولكن . هناك مايمكن أن تقوم به فعلا . يمكنك أن تساعدني على حمل الطعام إلى الخيام ، لأن لدينا عجزا في الأيدي العاملة الآن ، بسبب إصابة چوان ، وذهاب لويجو إلى فنتورا لاستدعاء الطبيب . تستطيع أنت وبعض رجالك أن تحملوا الطعام إلى الباقين . سوف أدعوكم عندما يتم إعداده .

وجلس الرجال في حالة استرخاء وراحوا يدخنون ويضحكون ويتبادلون الحديث . وأخذ اليساندرو يروح جيئة وذهابا من المطبخ إلى الخيام . وكان في مقدوره أن يسمع صلصلة الأطباق ورنين الملاعق وهسيس الشواء وانسكاب الماء . وبدأت الروائح الشهية تنساب .

ولاح له أن ماردا قد أزمعت أن تعوض الرجال عن حرمانهم من وجبة الغداء . وكذلك سمع چوان كانيتو من فراشه ، وشم مايجرى في المطبخ ، فدمدم قائلا :

www.ibtesama.com

ـــ ليأخذنى الشيطان إذا لم تكن هذه العجوز الخرفة ماردا منهمكة فى إعداد الوليمة لهؤلاء الهنود الوحوش . إننى أشم رائحة طهو اللحم الضأن والبصل والفلفل والبطاطس وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله . كل هذا لأولئك المتسولين الذين يحمدون الله لو ظفروا فى قريتهم بكسرة من الخبز أو بوعاء من الشوفان المسلوق . حسنا ! إن عليهم أن يقولوا إنهم تناولوا أطايب الطعام فى مزرعة مور بنو ، وفى هذا عزاء . ترى هل ستفكر مرجريتا فى أنى جدير بتذوق هذا الحساء ؟

ثم رفع عقيرته وناداها ، إلا أنها لم تسمع ، لأنها كانت مستغرقة فى عملها بالمطبخ ، وكانت قد نفضت يديها منه فى تلك الليلة بعد أن حملت إليه فى الغروب وعاء من حساء الخضر كان الطبيب قد أمر أن يكون طعامه الوحيد مدة أسبوعين . وعدا هذا كانت مرجريتا مشغولة الفكر فى تلك الليلة ، لأنها كانت تكن بعض الحب لاليساندرو الوسيم الذى راقصها عندما كان فى المزرعة فى العام السابق ، وسكب فى أذنيها كلمات حلوة فى كثير من الأمسيات والليالى ، كما قد يفعل أى شاب ، ولكن ماذا دهاه فى هذه السنة وقد بدا لها أنه حين ينظر إليها فكأنما لا يراها ، أو كأنما يتطلع إلى الأفق وراءها ـــ إنها لا تدرى ، ولعل مرض السنيور فيليب والحالة النفسية المضطربة التى تشيع فى جو البيت قد أذهلته عن كل شىء . أما الآن فإنه سيبقى ، وإن بقاءه سوف يتيح لها فرصة من المتعة لو أن السنيور فيليب تتحسن صحته ، وهذا ما يبدو لها الآن . وفيما كانت مرجريتا تنطلق هنا وهناك وفى كل مكان ، أخذت تلقى نظراتها على الشاب الطويل الذى كان يروح ويجىء خارج المطبخ .

ولم يرها اليساندرو ، بل لم يكن يرى شيئا ، وإنما كان ينظر إلى غروب

www.ibtesama.com

الشمس ، وينصت لأن رامونا قالت له : « لسوف أدعوك عندما نعد كل شيء » ولكنها لم تفعل ، وإنما طلبت من مرجريتا أن تدعوه .

ــ أسرعى يا مرجريتا . لقد أعد كل شيء ، وانظرى أين اليساندرو ، استدعيه لكى يأتى ويأخذ هذه الأشياء .

وهكذا كان صوت مرجريتا ، لا رامونا الذى استدعاه :

ــ اليساندرو . . اليساندرو . . إن العشاء جاهز .

ولكنها كانت رامونا هى التى رآها اليساندرو عندما وصل إلى باب المطبخ ، واقفة حاملة بين ذراعيها إناء ضخما من الحساء المتصاعد منه البخار ، والذى كانت تتحاب له شفتا المسكين جوان . وكانت هى رامونا التى قالت له وهى تضع الإناء بين ذراعيه :

ــ كن على حذر يا اليساندرو ، إن الإناء ملىء جداً ، ولسوف ينسكب الدهن إذا لم تكن حريصاً ، إنك لم تتعود خدمة المائدة .

ثم ابتسمت وهى تركز نظراتها فى عينية ابتسامة خاطفة رقيقة جعلت الإناء يوشك أن يسقط عند قدميها بكل مافيه من دهن وحساء ولحم .

وأخذ الرجال يأكلون بسرعة ونهم ! ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة أخرى حين بدأوا ، وهم سعداء راضون متخمون ، يمتطون صهوات الجياد ويشرعون فى الرحيل . وفى آخر لحظة استدعى اليساندرو أحدهم « جوزيه » وقال له على انفراد :

— أى الجوادين أسرع . . جوادك أم فرس أنطونيو ؟

فبادر چوزيه قائلا :

— جوادى . إنه أسرع كثيرا من فرس أنطونيو ، وأنا على استعداد للتسابق معه فى أى يوم .

وكان اليساندرو يعرف هذا جيدا قبل أن يسأل . ولكنه كان قد بدأ يتعلم أشياء كثيرة فى تلك الآونة ، ومنها بعض اللباقة . وكان يريد رجلا ينطلق بأقصى سرعة إلى تيميكيولا ثم يعود . كان يعرف أن جواد چوزيه أسرع من الريح ! وكان يعرف أيضا أن ثمة منافسة دائمة بينه و بين أنطونيو بشأن سرعة جواد كل منهما ، ولهذا فقد عرف ، بعد أن اختار چوزيه ، كيف يجعله ينطلق بجواده فى أقصى سرعة ممكنة ! .

و بعد أن همس فى أذن چوزيه بضع كلمات ، قال :

— هل تذهب ؟ لسوف أعوضك عن الوقت الضائع ، سأدفع لك كل ما كنت ستتقاضاه من عملية جز الصوف .

فقال چوزيه منتشياً :

— سوف أذهب ، ولسوف ترانى عائداً فى غروب الغد .

— ألا يمكن أن تأتى قبل هذا . كنت أظنك ستأتى فى الظهيرة .

فقال چوزيه :

— حسناً ، لسوف أعود فى الظهيرة إذن . إن فى مقدور الجواد أن يفعل هذا .

www.ibtesama.com

وقال اليساندرو :

ـــ كن على حذر شديد .

ورد چوزيه قائلا :

ـــ هذا ما سأفعله .

ثم اسكز الجواد بركبتيه فى عنف ، وانطلق به نحو الغرب .

وقال اليساندرو وهو يتقدم نحو فرناندو :

ـــ لقد أرسلت چوزيه فى مهمة إلى تيميكيولا ، وسوف يعود إلى هنا غداً ظهرا ، ثم يلحق بكم فى أورتيجا فى صباح اليوم التالى .

فقال فرناندو :

ـــ يعود غداً ! هذا إذا لم يقتل جواده .

فقال اليساندرو فى اكتئاب :

ـــ هذا ماقاله .

وعندئذ قال أنطونيو وهو يعتلى صهوة فرسه الصغيرة .

ـــ وما أسهل هذا . إن فى مقدورى أن أقطع الرحلة ذهابا وإياباً فى وقت أقل على هذه الفرس التى لا يمكن لجواد چوزيه أن يجاريها . فلماذا لم ترسلنى أنا يااليساندرو ؟

فقال اليساندرو :

ـــ أحقا فرسك أسرع من جواد چوزيه ؟ ليتنى إذن أرسلتك . لسوف أرسلك فى المرة التالية .

www.ibtesama.com

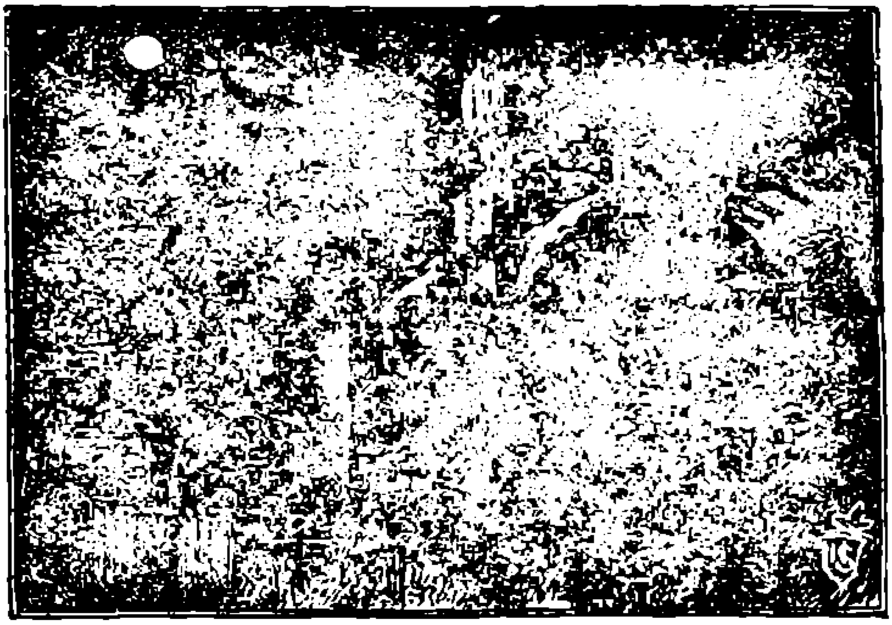

(٧)

كان مما يثير العجب رؤية كيف استطاع اليساندرو أن يملأ مكانه فى بيت آل مورينو وكأنه فرد منهم ، وكيف أمكنه أن يحل كثيرا من المشكلات ، وأن ييسر كثيراً من الأمور . ومن حسن الحظ أن چوان الهرم كان يحبه دائماً، ومن ثم خامره إحساس عميق بالراحة حين علم ببقائه ، ولم يكن هذا الإحساس بالراحة خاليا تماماً من الأنانية ، ربما لأن چوان كان منذ إصابته يخشى أن يفقد عمله إلى الأبد ، وكان هناك مكسيكى بمرفه يدبر للحصول على هذا المنصب ، وقد تباهى ذات مرة ، علانا فى إحدى الحفلات التى كان يراقص فيها أنيتا ، بأنه ينوى أن يكون كبير الرعاة فى مزرعة السنيورة مورينو بمجرد أن يزاح چوان الهرم من الطريق ، ولو أن چوان رأى هذا الرجل يحل محله ، لفقد عقله .

ولكن اليساندرو المهذب ، لم يكن غير هندى — وما كان ليخطر ببال

www.ibtesama.com

السنيورة طبعاً أن تضع هنديا فى منصب خطير كهذا بصفة دائمة ـ أى إن ما حدث كان تماماً كما تمنى جوان ، وهكذا ارتبط منذ البداية بوشائج المودة العميقة مع اليساندرو ، فكان يبقيه معه فى الغرفة بالساعات ويزوده بمئات من التوجيهات والتفسيرات المطولة جداً عن شئون العمل ، ولو أنه عرف الحقيقة لدهش حين يعرف أن اليساندرو كان يعلم هذا كله أحسن منه بكثير .

ذلك أن والد اليساندرو كان يشرف على رعى قطعان الماشية والأغنام لإرسالية سان لويس راى لمدة عشرين عاما ، ولم يكن يدانيه فى البراعة إلا القليل . وكان هو نفسه يمتلك من الأغنام مثلما تمتلك السنيورة مورينو . ولكن جوان لم يكن يعرف هذه الحقيقة كما أنه لم يكن يعرف أيضاً أن لاليساندرو -- بصفته ابن الرئيس بابلو — مركزا خاصاً به له وقاره ونفوذه . إن الهندى فى نظر جوان هو هندى فقط .. لا أكثر ، أما سلوك اليساندرو المهذب ، وتصرفاته الهادئة ، فلم تكن فى نظر جوان أكثر من مزايا يتمتع بها الشاب باعتباره طفلا ينحدر من أصول هندية . ولو قيل لجوان إن السنيور فيليب نفسه لم يتلق على يدى أمه السنيورة من آداب السلوك وشرف المعاملة وحسن التصرف أكثر مما تلقى اليساندرو على يدى أبيه ، لحلق بعينيه من فرط الدهشة .

حقاً ان هناك اختلافاً فى المستوى بين السنيورة ووالد اليساندرو ، ولكن المزايا كلها لم تكن فى جانب فيليب وحده . إن هناك أشياء كثيرة يعرفها فيليب ، ويجهلها اليساندرو جهلا تاماً . ولكن هناك أيضاً أشياء كثيرة يستطيع اليساندرو أن يلقنها لفيليب . وإذا تعلق الأمر بمسائل الروح والشرف ، فإن كفة اليساندرو ترجح إلى حد كبير . لقد كان فيليب رجلا واسع الأفق ، شريفا ،

www.ibtesama.com

كما ينبغي أن يكون الرجل ، ولكن الظروف والفرص قد تؤثر عليه أكثر مما تفعل مع اليساندرو . إن اليساندرو لايكذب ، ولكن فيليب قد يكذب ، و إن اليساندرو كان بطبيعته مفعم النفس بالتقوى والميل الغريزى إلى الدين ، بينما درب فيليب ليكون كاثوليكيا طيبا . ولكن الاثنين كانا شابين ينفردان بنقاء الذهن، وصفاء القلب ، وكرم النفس ، وقد شاءت لهما الأقدار بهذه المصادفة العجيبة التى جمعت بينهما أن يرتبط كل منهما نحو الآخر برباط وثيق ، فبعد اليوم الذى هدأت فيه بما يشبه المعجزة حالة هذيان فيليب بسبب غناء اليساندرو ، لم تعد إليه هذه الحالة قط . وعندما استيقظ فى غضون الليل بعد استغراقه لأول مرة فى نوم طويل ، كان قد استعاد صوابه كما تنبأ الأب سالفيرديرا وتعرف كل من فى البيت ، وراح يلقى أسئلته التقليدية ، ولكن ذهنه الذى اضطرب من فرط حرارة الحمى لم يسترد طبيعته كاملة ، ومن ثم كان يشرد أحيانا ولا سيما عندما يفيق من النوم فوراً . ومن العجيب أنه كان دائما ، فى هذه الحالات ، ينادى اليساندرو ، وكان يبدو دائما أنه يهفو إلى سماع غنائه . وكان يذكر كيف غنى له اليساندرو فى الليلة الأولى ، فيقول :

— إننى لم أكن فاقد الصواب تماما كما ظننتم جميعا ! لقد كنت أعرف الكثير جدا مما قلت ، ولكن لم يكن فى وسعى أن أمنع نفسى من قوله ، وقد سمعت رامونا وهى تطلب من اليساندرو أن يغنى . ولما بدأ ، أذكر أنه خيل لى أن السيدة العذراء هبطت إلى ووضعت يدها على جبينى المحموم فبرد .

وفى اليوم التالى لرحيل جماعة الحلاقين ، رأى اليساندرو رامونا فى الشرفة، فذهب إلى أسفل الدرجات وقال لها :

— سنيوريتا .. هل يحب السنيور فيليب أن أعزف له على الكمان هذه الليلة.

فقالت رامونا متعجبة :

— عجبا !! كان من التى حصلت عليها ؟.

— كانى أنا ياسنيوريتا .

— كانك ! ظننت أنك قلت إنك لم تحضرها معك .

— نعم ياسنيوريتا، هذا صحيح ، ولكننى أرسلت أمس من أحضرها إلى. وهى الآن هنا .

فهتفت رامونا قائلة :

— وهل ذهب الرسول إلى تيميكيولا وعاد ؟

— نعم ياسنيوريتا . إن جيادنا قوية وسريعة ، وتستطيع أن تقطع مائة ميل فى اليوم بلا مشقة . إن چوزيه هو الذى أحضرها ، وقد رحل إلى أورتيجا ولعله وصل إليها الآن .

وتألقت عينا رامونا قائلة :

— كنت أتمنى لو شكرته . كان يجب أن تخبرنى ، وكان يجب أن تدفع له الأجر .

— لقد دفعت أنا أجره ياسنيوريتا ، لأنه ذهب فى مهمة خاصة بى .

قال اليساندرو هذا فى لهجة خفيفة تنم عن كبرياء جريحة كان ينبغى أن تلحظها رامونا ولكنها لم تفعل ، ومن ثم استمرت فى إيلام قلب عاشقها :

www.ibtesama.com

— ولكنك أرسلته من أجلنا ، ولعل السنيورة كانت تفضل لو أنها دفعت هي أجره .

— لقد دفع الأجر ياسنيوريتا ، وهو لاشيء . وإذا أراد السيور فيليب أن يسمع الكمان ، فإني على استعداد للعزف .

ثم انصرف عنها ببطء .

وأخذت رامونا تشيعه بنظراتها وهي تراه ، لأول مرة ، على أنه ليس هنديا — وهي نظرة لم تكن في الواقع بحاجة إليها ، لأن لون بشرته لم يكن أقل بياضا بدرجة واحدة من لون بشرة فيليب ، ولكن قوة الشعور بالانتماء إلى جنس معين جعلتها تنسى هذه الحقيقة حتى هذه اللحظة ، ومن ثم قالت لنفسها :

— ما أجمل انتصاب قامته ومشيته .

وبعد أن تأملته بإمعان أكثر ، استطردت تقول لنفسها :

— إنه يسير في هيئة السيد . إنه لم يسر بما عرضته من دفع أجر الرسول . وإنما أراد أن يقدم هذه الخدمة للعزيز فيليب . لسوف أقول هذا لفيليب ، وسوف نقدم إليه إحدى الهدايا عند رحيله .

وسمعت صوت مرجريتا الضاحك وهي تقول لها بهذه الكلفة المرفوعة بينهمـــا :

— أليس رائعاً ياسنيوريتا ؟ أوه . . أليس رائعا ؟ إنك لاتعرفين كيف يحسن الرقص. لقد كنت أراقصه كل ليلة في العام الماضي . إن في قدميه جناحين رغم طول قامته وكبر جسمه .

www.ibtesama.com

وكان صوت الفتاة مفعما بالعاطفة التي أثارت في نفس رامونا إحساسا مفاجئا بالاستياء دون أن تعرف السبب . ومن ثم قالت لها ، وهي تبتعد قليلا عنها ، بصوت لم يسبق أن تحدثت به إليها من قبل :

— ليس من اللائق أن تتحدثي هكذا عن الشبان . لسوف تستاء السنيورة لو سمعتك .

ثم انصرفت مسرعة ، تاركة مرجريتا المسكينة ذاهلة ، وكأنما أصابها أحد بلكمة قوية على أذنها .

ونظرت إلى قوام رامونا المنصرفة ، ثم إلى قوام اليساندرو ، وكانت قد سمعتهما يتبادلان الحديث قبل وصولها بقليل . ورغم دهشتها البالغة ، وحيرتها التامة ، فقد وقفت متسمرة في مكانها لحظات عديدة ، تفكر وأخيرا هزت رأسها وانطلقت وهي تحاول أن تطرد من ذهنها حديث رامونا الخشن لها قائلة لنفسها: « لابد أن اليساندرو أغضب السنيوريتا حتى جعلها تتحدث إلى هكذا » .

ولكن هذا الحديث لم يطرد من ذهن مرجريتا بهذه البساطة ، وإنما ظل يعاودها مرات عديدة في ذلك اليوم ، ويزيد من حيرتها ودهشتها دون أن تهتدى إلى السر . وكان في الواقع بذرة صغيرة ما كانت لتحلم بمعرفة اسمها ، إلا أنها سقطت في تربة تصلح لإنمائها يوما ؛ تربة خصبة لإنماء بذرة مرة . وعندما تزدهر ، فسوف تجد رامونا أمامها غريمة شديدة العداء لها .

www.ibtesama.com

ومضت رامونا إلى غرفة فيليب دون أن تشعر إطلاقا بما يدور فى قلب مرجريتا أوفى قلبها هى . وكان فيليب نائما ، والسنيورة جالسة بجواره ، كما سبق أن جلست أياما وليالى بوجهها المربد النحيل الذى كان يزداد نحولا كل يوم . وحتى شعرها كان يبدو أكثر بياضا إن أمكن هذا . وكان صوتها قد صار أجوف من فرط الإعياء والحزن . وهمست رامونا قائلة :

— عزيزتى السنيورة ، اذهبى إلى الخارج بضع لحظات فى أثناء نومه ، ودعينى أرعاه - يكفى أن تتمشى فى الممر أمام الشرفة . إن الشمس لا تزال هناك مضيئة دافئة . وإذا لم تنعمى بالهواء الطلق فسوف تسوء صحتك .

فهزت السنيورة رأسها قائلة :

— إن مكانى هنا ، ولن أبرحه . ولست بحاجة إلى الهواء الطلق .

وكانت تتحدث بصوت جاف ، وبلهجة حادة . ذلك أن السنيورة مورينو كانت تكره المواساة ، فلا تحب أن يواسيها أحد ، أو أن تواسى أحداً .

وكانت فى يد رامونا زهرة ذهبية الأوراق ، وكانت هذه الأزهار قد تكاثرت وألقت ظلالها على الشرفة ، وبدت وهى مدلاة من سقفها كأنها أهداب كثيفة لشراريب ذهبية . وكانت الزهرة التى يؤثرها فيليب على غيرها . ومن ثم انحنت رامونا ووضعتها على الفراش بجوار رأسه قائلة :

— سوف يسر من رؤيتها عندما يستيقظ .

ولكن السنيورة أخذتها وقذفت بها بعيداً فى الغرفة ، وقالت ببرود :

www.ibtesama.com

ــ أبعديها . . إن الأزهار كالسم فى غرفة المريض . ألم أقل لك هذا ؟

فأجابت رامونا بخضوع :

ــ لا يا سنيورة !

ثم نظرت رغما عنها إلى إناء ملىء بزهر المسك كانت السنيورة تحتفظ به على نضد بجوار وسادة فيليب .

وقالت السنيورة وهى ترى نظرة الفتاة :

ــ إن أزهار المسك شىء آخر . . إنها دواء . . إنها منعشة .

وكانت رامونا تعرف أن فيليب يكره زهر المسك ، ولكن لم تكن لديها الجرأة لأن تقول هذا . وكثيراً ما قال لها إنه يكره شذى هذه الأزهار . ولكن حيام أمه بها جعل من الحتم أن تمتلىء الشرفة والبيت بها . وكانت رامونا تكرهها أيضا . وفى بعض الأحيان كان عطرها يجعل الفتاة يغشى عليها . ولكن لم يكن فى مقدورها أو مقدور فيليب أن يصارحا السنيورة بذلك . وإذا فعلا ، فإن السنيورة تؤكد لها أن هذا كله مجرد وهم .

وقالت رامونا فى النهاية بصوت رقيق :

ــ هل أبقى !

ــ كما تشائين .

وكان وجود رامونا فى الغرفة يثير فى نفسها إحساسا لم تحاول أن تكشف عنه

www.ibtesama.com

حتى لنفسها. ولو أنها فعلت ، لامتلأ قلبها بالرعب . إنها لم تكن تجرؤ على أن تقول لنفسها بصراحة :

ــ لماذا تكون هذه الفتاة قوية موفورة الصحة ، فى حين يرقد ابنى فيليب مريضا ممرضاً للموت ، إننى لا أطيق النظر إليها . من تكون حتى يرعاها القديسون هكذا !

كان هذا أو شىء قريب منه ، ما يجيش فى صدرها كلما دخلت راموناالغرفة ، وخاصة كلما عاونت فى تمريض فيليب . وكانت السنيورة تتمنى ، لوكان هذا ممكنا ، أن تقوم بمفردها على خدمة ولدها . بل إن دموع رامونا فى بعض الأحيان كانت توتر أعصابها « ماذا تعرف عن حب فيليب ؟ إنه لا شىء بالنسبة لها » .

هكذا كانت تفكر ، دون أن تفطن أو تذكر أو ترى ــ للعجب ــ مدى وهن الحب القائم على رباط الدم ، بالنسبة لقوة الحب الذى يمتلىء به القلب .

ولو أن السنيورة ، بمشاعرها النارية ، عرفت شيئاً يسيرا جدا من الحقيقة عن الفرق بين مكانتها ومكانة رامونا فى قلب فيليب ، لما ترددت لحظة فى قتل نفسها فوراً ، أو فى ذبح رامونا . ولكن لم يكن فى الإمكان أن تعرف السنيورة شيئا من هذه الحقيقة ، ولم يكن فى الإمكان أن يطرأ ببالها خاطر كهذا . بل لو أن هاتفا من السماء أخبرها بذلك ، لما سمعته . والواقع أنه من حسن حظنا أن تكثف إلى هذا الحد الحجب التى تقوم بيننا و بين مشاعر أقرب الناس إلينا ، وأشدهم ارتباطا بأعمالنا اليومية .

وعند غروب ذلك اليوم ، عاد فيليب إلى الحمى والتوتر مرة أخرى ، وكان

www.ibtesama.com

قد نام فترات طيلة اليوم ، إلا أنه لم يكن نوما منعشا . ومن ثم قال :

ـــ أرسلوا فى استدعاء اليساندرو . . دعوه يأتى ليغنى لى .

وقالت رامونا :

ـــ إن كانه معه الآن ، ويمكنه أن يعزف عليها إذا كنت تتفضل هذا .

ثم ذكرت ما قاله لها اليساندرو عن الرسول الذى بعث به إلى تيميكيولا حيث ظل يركض بجواده ليلة ونصف يوم ليعود بالمكمان . ثم قالت :

ـــ وأردت أن أدفع له أجر الرسول ، وكنت أعرف طبعاً أن والدتك سترغب فى مكافأته . ولكن يبدو لى أن اليساندرو استاء من هذا ، إذ أجابنى بأن الرسول نال أجره ، وليس فى الأمر شىء .

وقال فيليب :

ـــ ما كان فى مقدورك أن تنالى منه أكثر من هذا . يالله-كين ! إن لاليساندرو من الكبرياء ما لإبليس نفسه ! إنك تعرفين أن أباه كان ولا يزال رئيس جماعته ، بل إن نفوذه يمتد ويشمل جماعات أخرى عديدة . وهو الآن برتبة « جنرال » التى اقتبس الهنود اسمها من الأمريكيين . أما فيما مضى ، فكان يسمى « الرئيس أو الزعيم » . وكان بابلو حتى رحيل الأب بيرى من إرسالية سانت لويس راى ، مشرفا على قطعان الغنم ، والمساعد الأيمن للأب ، وصراف الأجور . وكان الأب بيرى يأتمنه على كل شىء ، لقد سمعت أنه كان يترك فى

www.ibtesama.com

عهدة بابلو صناديق مليئة بالقطع الذهبية ، بلا عدد . ليدفع منها أجور الهنود . وفى مقدور بابلو أن يقرأ ويكتب ، وحالته ميسورة ، ولديه من الأغنام مثلما لدينا كما يبدو لى .

فهتفت رامونا قائلة :

ـــ ماذا ! إنهم يبدون جميعا كما لو كانوا جد فقراء .

فأجاب فيليب :

ـــ أوه ، حسنا ، وإنهم لكذلك إذا قارناهم بأنفسنا . ولكنهم من ناحية ـ يتشاركون فى كل شىء . وإن بابلو المسن يطعم ويعول نصف القرية كما يقال . ومادام لديه شىء ، فإنه لا يستطيع أن يرى هنديا واحداً يعانى من الجوع .

فهتفت رامونا بحماسة قائلة :

ـــ يالكرم ! أظن أنهم أحسن حالا منا .

ـــ وهذا ما أظنه أيضاً . وهذا ما أقوله دائماً . إن الهنود هم أشد الناس كرما فى العالم . ولا شك أنهم تلقوا جانبا من هذا الكرم عنا ، ولكنهم كانوا هكذا عندما جاء الرهبان إلى هنا لأول مرة . ويمكنك أن تسألى الأب سالفيرديرا عن هذا يوما . لقد قرأ كل مذكرات الأب جوينبير والأب كريسبى ، وهو يقول إن من أروع المناظر رؤية هؤلاء الهمج وهم يقدمون الطعام إلى كل لاجىء إليهم .

وارتفع صوت السنيورة قائلة من باب الغرفة فى عتاب إلى رامونا :

ـــ فيليب ! إنك تتحدث أكثر مما ينبغى .

www.ibtesama.com

ولو أنها قالت لرامونا : « انظرى إلى أى حد أنت لا تؤتمنين على رعاية فيليب ! ومن ثم لا عجب إذا أنا لم أغادر الغرفة إلا للضرورة » لما كان فى نظرة عتابها أوضح من هذا المعنى ، وفهمت رامونا هذا ، وشعرت ، فى قلق ، أنها جديرة بهذا العتاب . ومن ثم قالت بوداعة :

— أوه ، هل آلمتك ياعزيزى فيليب ، إنه كان يتحدث حقا يا سنيورة ، ولكن لمدة لحظات قليلة ، و بصوت خافت .

وقال فيليب :

— اذهبى واستدعى اليساندرو يارامونا ؟ أرجوك. دعيه يحضر معه الكمان ، فإنى أعتقد أنى سأنام إذا سمعته يعزف عليها .

وبحثت رامونا طويلا عن اليساندرو . إن كل شخص رآه منذ لحظات ، لكن أحدا منهم لايعرف أين هو الآن . لقد بحثت رامونا عنه ، بلا جدوى فى كل مكان — فى المطابخ ، وفى مرابط الأغنام ، وفى مزرعة الكروم ، وفى البستان والحديقة ، وفى غرفة چوان كانيتو . وأخيراً عندما وقفت فى أسفل درجات الشرفة ومدت بصرها عبر الحديقة ، خيل إليها أنها ترى شخصا يتحرك تحت أشجار الصفصاف بجوار أحجار المغسل ، وقالت لنفسها :

— أيمكن أن يكون هناك ؟ وماذا تراه يفعل ؟ ومن ذا الذى معه ؟

ثم انحدرت فى الممر هاتفة :

— اليساندرو .. اليساندرو !

وما كاد اليساندرو يسمع اسمه حتى وثب من جانب رفيقته ، وقبل أن

www.ibtesama.com

تكرر رامونا النداء ، كان واقفا أمامها يقول :

— هأنذا ياسنيوريتا ! هل يريدنى السنيور فيليب ؟ إن كان معى هنا ، لأنى توقعت أن يرغب فى أن أعزف له هذا المساء .

فأجابت رامونا قائلة :

— نعم ! إنه يريد أن يسمعك ؟ وقد بحثت عنك فى كل مكان .

وكانت وهى تتحدث ، تمد بصرها ، بلا وعى ، إلى ما وراء النبع لترى من تكون تلك التى راحت تسير ببطء على ضفته . ولما لم يكن ثمة ما يغيب عن قوة ملاحظة اليساندرو فيما يتعلق برامونا ، فقد قال على الفور :

— إنها مرجريتا ! هل تريدها السنوريتا ، هل أسرع وآتى بها ؟

وقالت رامونا وهى تشعر مرة أخرى بالاستياء دون أن تدرى لماذا ، بل ودون أن تعرف أنها مستاءة :

— لا .. إننى لم أكن أبحث عنها .. ماذا تراها تفعل هناك ؟

فقال اليساندرو ببراءة :

— إنها تغسل .

وقالت رامونا لنفسها بحدة :

— تغسل فى هذا الوقت ؟ لا شك أنها تصطنع هذا . يجب أن أحسن مراقبتها لأن السنيورة لن تسمح قط بمثل هذا .

www.ibtesama.com

وفيما هى تعود إلى البيت بجانب اليساندرو ، أخذت تفكر فيما ينبغى أن تفعل ، هل تتحدث مع مرجريتا فى هذا الوضوع صباحا ، أم لا ؟

وكانت مرجريتا فى نفس الوقت غارقة بدورها فى تأملات لا تسر . وكانت تقول لنفسها وهى تغسل ميدعتها :

— يجب أن أفرغ الآن من هذا . ياللإزعاج ! إننى ما كدت أتحدث معه حتى جاءت تدعوه وقد انطلق هو ، كالسهم ، عند سماعه أول كلمة من ندائها إننى أحب أن أعرف ماذا دهاه حتى تغير هكذا . لو استطعت فقط أن أنفرد به نصف ساعة كاملا ، لأمكننى أن أعرف الحقيقة . ولكن عينيه لا تريانى . . لا ترياننى ! إننى أعرف أنه هندى ، ولكن ماذا يهمنى ! إنه أجمل ألف مرة من السنيور فيليب . وقد قال جوان جوزيه فى ذلك اليوم إنه سيغدو أحسن جدا من جوان المسن فى رياسته للرعاة لو أن السنيور فيليب فطن إلى هذا ، وكيف لا يفطن إلى هذه الحقيقة مادام اليساندرو سيبقى معنا طوال الصيف .

وقبل أن تفرغ مرجريتا من غسل ميدعتها ، كانت قد أقامت بخيالها قصرا شامخا فى الهواء فتخيلت أنها زوجة لاليساندرو ، تعيش معه فى منزل جميل ، وأبناؤهما يلعبون فى الشمس وراء حقل الخرشوف لأنها ستظل تعمل فى خدمة السنيورة .

ثم أضافت قائلة وأفكارها تمتد فى تردد إلى جانب آخر :

— ولعل السنيوريتا تتزوج فيليب ، لأنه يعبد الأرض التى تسير عليها . وأى شخص ، ولو كان أعشى ، لأمكنه أن يرى هذه الحقيقة . ولكن لعل

www.ibtesama.com

أمه السنيورة لن تسمح له بهذا . وعلى كل حال لا بد للسنيور فيليب أن يتزوج ، و ... و ...

وكانت تصورات مرجريتا صبيانية بريئة ، قائمة على تمنيات حلوة لا يمكن لأية عذراء أن تخجل منها ، إلا أنها كانت مجرد خيالات وأمانى لم يخطر ببال المسكينة أنها قد تفيق منها يوما على صوت الحقيقة الصلبة !

وفى اليوم التالى ، شرعت كل من مرجريتا وراموننا تقوم بعملها اليومى وفى أعماق قلبها أهداف خاصة ، فقد قررت مرجريتا أنها بكل وسيلة ممكنة سوف تظفر باليساندرو على انفراد لتطيل الحديث معه قبل أن ينصرم اليوم . وكانت تقول لنفسها وهى تتذكر بعض الرقصات وأحاديث الوداع فى السنة الماضية:

— إننى أعرف أنه كان يحبنى فى العام الماضى . ولا شك أن كثرة أعبائه هى التى جعلته لا يهتم بأمرى هذا العام ، لا سيما وأن الكل يطلبه : جوان كانيتو يستدعيه ليثرثر معه بشأن الغنم ، والسنيور فيليب يدعوه ليعزف له على الكمان حتى ينام ، هذا عدا رعايته للغنم . ولكننى سوف أنتهز الفرصة ، أو أعدها ، قبل أن تغرب شمس اليوم . ولو استطعت أن أنفرد به نصف ساعة ، فلن يخيفنى شيء بعد ذلك ، فأنا أعرف كيف أعامل الرجال .

قالت مرجريتا الواثقة بنفسها هذا ، وكانت فى الواقع — إن شئنا الحقيقة — تعرف الشيء الكثير عن فن معاملة الرجال ، وفى مقدورها أن تعتمد على هذا بلا مراء أمام أية فتاة من سنها فى المنطقة ، إذا تساوت الظروف والأحوال .

www.ibtesama.com

ولنكتف بهذا عن أهداف مرجريتا فى بداية يوم شاءت الأقدار أن يكون يوما حافلا بالأحداث بالنسبة لها .

أما هدف رامونا فلم يكن أقل وضوحاً ، فقد قررت ، بعد شيء من التفكير ، ألا تخبر السنيورة عن رؤيتها لمرجريتا فى الليلة الماضية مع اليساندرو تحت أشجار الصفصاف ، ولكنها أزمعت أن تراقبها بإمعان لترى هل هناك مزيد من الدلائل التى تشير إلى أنها تحاول اصطناع الفرص للالتقاء به .

لقد قررت أن تتخذ هذا الطريق ، لأنها ، فى رأيها ، تحب مرجريتا ، ولا تريد أن تعرضها لغضب السنيورة ، وهو غضب لن تستطيع المسكينة أن تواجهه . كما أنها شعرت بالرغبة فى عدم إتاحة الفرصة لكى تنظر السنيورة إلى اليساندرو نظرة خالية من التقدير « ولا ذنب له فى الواقع » ، هكذا راحت تفكر « إذا راحت الفتاة تطارده وتتحرر معه . ولا شك أنها رأته تحت أشجار الصفصاف ، فذهبت للقائه ، متظاهرة بأنها تغسل شيئا . لأنه لم يحدث قط أن يذهب أحد لغسل شيء فى مثل هذا الوقت ، ولابد أنه أدرك هذا ، لأنه ليس غبيا . وهو كما يبدو لى ليس بالشاب الذى يعبث مع الفتيات إنه كما يلوح لى ، مشغول الفكر دائماً مثل الأب سالفيرديرا . ولو رأيت شيئاً على مرجريتا اليوم ، فلابد أن أتحدث معها برفق وبحزم فى وقت واحد ، وأطلب منها أن تكون أكثر حذراً فى تصرفاتها » .

ثم راحت أفكار رامونا ، كما فعلت العذراء الأخرى ، تتركز حول اليساندرو وتنحرف قليلا عن هذا المجرى ، فترق وتتجه إلى الخيال ، وتدور ،

www.ibtesama.com

للعجب ، حول نفس المعانى التى دارت فى أفكار مرجريتا :

« إننى لم أر أجمل من عينى اليساندرو ، لا عجب إذا تهافتت عليه الفتيات حتى أنا أشعر بالاضطراب عندما يركز نظراته علىّ . إن فيهما شيئا يشبه ما فى عينى القديس من الوقار والرقة ، إننى واثقة بأنه إنسان طيب .

وهكذا بدأ اليوم ، ولكن إذا حدث أن انطلق فى الوادى ، فى ذلك اليوم ، مارد للشر ، يهدف إلى إشاعة الاضطراب فى علاقات البشر ، لوجد كل شىء معداً لتحقيق أهدافه . فقبل أن تبلغ الساعة العاشرة صباحا ، حتى رأت رامونا وهى جالسة تطرز فى الشرفة ، مستترة وراء أعواد الكرمة ، اليساندرو سائراً وفى يده سكين التشذيب ، نحو حقل الخرشوف فى شرق الحديقة ، الملاصق لبستان اللوز . وقالت لنفسها : « ترى ماذا يريد أن يعمل هناك ؟ إنه لا يسعى إلى قطع أغصان الصفصاف » .

وراحت تتبعه بنظراتها حتى اختفى وراء الشجر .

ولم تكن رامونا هى الوحيدة التى رأت هذا ، وإنما رأته أيضا مرجريتا وهى تطل من النافذة الشرقية لغرفة الأب سالفيرديرا ، ثم قالت : «هذه هى فرصتى» ، ووضعت قلنسوتها البيضاء بطريقة مغرية على رأسها ، وتسللت حول ركن البيت ، ثم انطلقت تعدو فى الاتجاه الذى غاب فيه اليساندرو . وبلغ صوت خطواتها مسامع رامونا التى رفعت عينيها وأدركت الموقف كله فى لحظة . إنه لم يكن هناك عمل أو شىء يمكن أن تؤديه مرجريتا هناك . والتهبت وجنتا رامونا بالاستياء والاستنكار ، ولكنها طامنت من مشاعرها قائلة « آه . . لعل السنيورة أرسلتها

لتستدعى اليساندرو » ثم نهضت وذهبت إلى غرفة فيليب ونظرت فى داخلها حيث رأت السنيورة جالسة بجوار سرير فيليب ، مغمضة العينين ، وكان فيليب غافيا . وفتحت السنيورة عينيها ، ونظرت فى تساؤل إلى رامونا التى قالت :

— هل تعرفين أين مرجريتا ؟

فأجابت السنيورة قائلة فى همس :

— إنها فى غرفة الأب سالفيرديرا ، أو ربما فى المطبخ تساعد ماردا — لقد طلبت منها أن تساعد ماردا هذا الصباح .

وأومأت رامونا برأسها ، وعادت إلى الشرفة ، وجلست تفكر فيما ينبغى أن تفعل ، ثم نهضت مرة أخرى وذهبت إلى غرفة الأب سالفيرديرا ونظرت فيها حيث وجدتها لا تزال غير مرتبة . أى إن مرجريتا تركت عملها دون أن تتمه ، وازداد احمرار وجه رامونا ، وهى تخمن كل شىء تخمينا دقيقا يثير العجب .

وقالت لنفسها : « لقد رأته من هذه النافذة وجرت وراءه . إن هذا لخجل ، سوف أذهب وأعيدها وأجعلها تعلم أنى رأيت كل شىء . لقد حان الوقت لوضع حد لهذا » .

ولكن عندما عادت رامونا إلى الشرفة ، توقفت ، ثم جلست مرة أخرى ، وقد بدا لها أن التجسس مسألة تثير اشمئزازها .

— سوف أنتظر هنا حتى تأتى .

قالت هذا ، وتناولت قطعة التطريز ، ولكنها لم تستطع أن تعمل فيها . وظلت جالسة مع مرور اللحظات ، وعيناها مركزتان على بستان اللوز حيث

www.ibtesama.com

اختنق فيه اليساندرو أولاً ، ثم مرجريتا ثانيا . ولم تستطع فى النهاية أن تتحمل أكثر مما فعلت ، فقد بدا لها أن وقتا طويلا قد مر فعلا ، وإن لم يكن فى الواقع وقتا طويلا - ربما نصف ساعة أو نحو ذلك . إلا أنه كان كافيا لتقطع مرجريتا شوطاً طويلا فى الحديث مع اليساندرو ، كما حسبت ، لولا أن الأمور تطورت فجأة إلى ذروة الحرج ، حينما فوجىء الاثنان برامونا واقفة فى مدخل البستان تقول بصوت حازم :

— مرجريتا ! إنهم يريدونك فى البيت .

وكان الموقف فى الواقع محرجا للجميع .

وكانت الصورة التى رأتها رامونا عندما وصلت إلى بوابة البستان هى : اليساندرو واقفاً وظهره إلى السياج ، ويده اليمنى مسترخية بجانبه ، ممسكة بسكين التشذيب ، ويده اليسرى فى يد مرجريتا التى كانت واقفة بالقرب منه ، تنظر إلى وجهه بمزيج من الحب والشغف والإغراء ، ومما زاد الأمر سوءاً أن اليساندرو انتزع يده بسرعة من يد مرجريتا حين لمح رامونا ، وحاول أن يتراجع عنها ، وهو ينظر إليها ، حتى فى غضبه ، نظرة تنم - كما لاحظت رامونا بوضوح - عن النفور والتقزز . وإذا كانت رامونا قد رأت هذه النظرة ، فلا شك أن مرجريتا قد أحست بها كالسكين ، باعتبار أنها المرأة التى ينفر منها حبيبها أمام امرأة أخرى . ولكن الموقف كله لم يستغرق أكثر من لمح البصر ، وإن مجرد وصفه بالكلمات قد استغرق أضعاف الوقت الذى تم فيه وقبل أن يدرك اليساندرو ماذا حدث ، كانت رامونا ومرجريتا تغيبان عنه تحت ظلال ممر

www.ibtesama.com

الحديقة ، وكانت رامونا تسير في المقدمة صامتة ، متكبرة ، ومرجريتا تتبعها في سخط وتقطيب ، ومختلف النوازع تعصف في قلبها .

لقد استغرق الموقف لمحة البصر ، ولكنه كشف الحقيقة لمرجريتا ، ولاليساندرو أيضا ، ولقد قال لنفسه :

ـ يا إلهى ! .. إن السنيوريتا تحسبنى أطارح هذه الفتاة الحب . لتأخذها الشياطين . لقد نظرت السنيوريتا إلى كما لو كنت كلبا . كيف يمكنها أن تظن أن هناك رجلا يستطيع أن يحب فتاة أخرى بعد أن يراها هى ! وأنا لن أستطيع أبداً ، أبداً ، أن أصارحها بهذا ! أوه .. إن هذا فوق احتمال البشر .

وفى سورة الغضب ، قذف اليساندرو بسكين التشذيب فى الهواء بعنف ، ثم سقطت مغمدة إلى المقبض فى إحدى أشجار الزيتون . وتمنى لو أنه مات . وخطر له أن يهرب من المزرعة ، إذ كيف يستطيع بعد ذلك أن يواجه السنيوريتا !

وقال :

ــ اللعنة على هذه الفتاة !

وراح يكرر هذه اللعنة على مرجريتا فى عجز اليائس ، ويتوعدها فى نفسه ، دون أن يكون للفتاة أى ذنب .

أما مرجريتا ، فقد كان الألم فى قلبها أكثر وضوحا وتركيزا ، ذلك لأنها كانت قد رأت رامونا قبل أن يراها اليساندرو بلحظة خاطفة ، ولم تحاول أن تترك

www.ibtesama.com

يد الشاب ، لأنه لم يخطر ببالها قط أنه سيحدث أى شىء أكثر من بعض الارتباك بسبب رؤيتها وهى واقفة معه — وكانت تنوىء أن تخبر السنيوريتا بكل شىء عندما تزداد العلاقة قوة بينها و بين اليساندرو . ولكنها ، فى اللحظة التالية ، رأت فى عينيه نظرة — أوه . . إنها لن تستطيع أبدا أن تنسى هذه النظرة ـ ولن تستطيع أن تعيش لكى ترى رجلا آخر ينظر إليها هكذا ـ ! لقد بدا لها أن كل دماء جسمه اندفعت إلى وجهه عندما رأى رامونا ، ثم انتزع يده من يدها ، لأن مرجريتا هى التى كانت قد أخذت يده لا هو ـ انتزع يده ودفع بها بعيدا عنه حتى كادت تسقط . كل هذا كان من الممكن أن يحتمل لو أن الأمر كان مقتصراً على مجرد خوفه من رؤية السنيوريتا له فى هذا الوضع . ولكن مرجريتا أدركت ما هو أخطر من هذا بكثير . إن أمارات الألم ، والخجل ، والابتهال ، والعبادة التى ارتسمت على وجه اليساندرو عند رؤيته لرامونا ، كانت كسهام من نار نفذت إلى أعماق مرجريتا . لقد عرفت الآن سره أكثر مما يعرف هو . ولكنها فى سورة غضبها المفاجىء لم تتبين الفارق الكبير بينها و بين رامونا ، أو بين رامونا واليساندرو . لقد أعمتها سورة الغيرة عن كل الفوارق بينهم . وهكذا انفلت زمام أعصابها منها ، فقالت لرامونا بصوت ملىء بالتحدى والاستهانة :

— هل تريد السنيوريتا شيئاً منى ؟

فاستدارت رامونا إليها بسرعة ، وركزت نظراتها عليها قائلة :

— لقد رأيتك وأنت تذهبين إلى البستان ، وأنا أعرف لماذا ذهبت

يامرجريتا ! أعرف أنك كنت عند النبع مع اليساندرو فى الليلة الماضية . وكل ما أريد أن أقوله لك هو أنى لو رأيت مزيدا من هذا فسوف أخبر السنيورة .

فقالت مرجريتا فى سخط :

ــ وأى ضرر فى هذا ؟ إننى لا أعرف ماذا تقصد السنيوريتا ؟

فردت رامونا عليها قائلة :

ــ إنك تعرفين جيدا يا مرجريتا . . تعرفين أن السنيورة لا تسمح بشىء من هذا . وعليك أن تكونى على حذر فيما تفعلين .

وعندئذ افترقت الاثنتان : فعادت رامونا إلى الشرفة وإلى قطعة التطريز ، وعادت مرجريتا إلى عملها المهمل ، فرتبت غرفة نوم الأب سالفيرديرا . ولكن قلب كل منهما كان ثائرا تعسا . ولعل قلب مرجريتا كان يزداد ثورة وتعسا لو أنها سمعت الكلمات التى قيلت فى الشرفة بعد ذلك بقليل .

ذلك أن اليساندرو بعد أن أفاق من ثورة غضبه على مرجريتا وعلى الأقدار ، استطاع أن يقنع نفسه بأنه مادام فى خدمة السنيورة والسنيوريتا ، فإن عليه أن يقدم تفسيراً للموقف المحرج الذى شوهد فيه . ورغم أنه لم يكن يعرف على وجه التحديد ماذا سيقول . . إلا أن هذه الفكرة ما إن طرأت بباله حتى انطلق مسرعا نحو البيت ، آملا أن يجد رامونا فى الشرفة التى يعرف أنها تقضى فيها كل أوقاتها عندما لا تكون مع السنيور فيليب .

ولما رآنه رامونا مقبلا ، أغضت بعينيها ، وانشغلت بالتطريز ، غير راغبة فى النظر إليه .

وتوقفت خطواته ، وأدركت هى أنه واقف فى أسفل درجات الشرفة ، ولم تنظر إليه آملة أنها بهذا ستجعله يمضى فى سبيله . ويبدو أنها لم تكن تعرف طبع المنود ، وطبع العاشقين . ومن ثم فإنها لم تلبث أن رفعت عينيها حين لم تعد قادرة على احتمال الصمت المخيم ، وفوجئت برؤية وجه اليساندرو الذى كان يتطلع إليهـا بحرية كل هذه الفترة ، وقد ارتسمت عليه كل ما فى القلب العاشق من عاطفة ملتهبة ، وكأنه مرآة مقعرة تجمع أشعة الشمس وتعكسها ملتهبة ، ووثبت رامونا واقفة بعد أن ندت ، رغما عنها ، صيحة خافتة من شفتيها .

— آه .. هل أخفتك ياسنيوريتا ؟ أرجو أن تغفرى لى . لقد وقفت هنا مدة طويلة لأتحدث إليك .. أريد أن أقول . .

وفجأة اكتشف اليساندرو أنه لا يدرى ماذا يريد أن يقول . إلا أنه عاد يقول :

— سنيوريتا ، إننى لا أقبل أبداً أن أكون غير وفىّ لك وللسنيورة .

فقالت رامونا :

— إننى أصدقك يا اليساندرو . ولا داعى لأن تقول أكثر من هذا .

وعندئذ سطع وجه اليساندرو بالبهجة ، لأنه لم يكن يأمل فى هذا . وقد شعر

www.ibtesama.com

ثا أكثر مما سمع ، أن رامونا تفهمه . ولأول مرة يحس علاقة خاصة بينه وبينها . وأخيراً ردد هذه العبارة الموجزة الشائعة بين قومه .

— حسنا .. حسنا !

ثم أومأ برأسه فى احترام ، وانصرف مبتعداً . وسمعت مرجريتا التى كانت مشغولة بترتيب غرفة الأب سالفيرديرا ، صوته ، فأسرعت لترى إلى من كان يتحدث ، وعندئذ سمعت هذه الكلمات الأخيرة . ولما اختلست النظر من وراء الستار ، رأت وجهه وهو ينطق بهذه الكلمات ، كما رأت الأمارات التى ارتسمت على وجه رامونا أيضا حين كانت تنصت إليه .

وقبضت مرجريتا يديها ، وازدهرت فى أعماق نفسها بذرة الحقد ، وأصبح لرامونا عدو لدود .

وقالت الفتاة لنفسها بمرارة :

— آه .. ولكننى سعيدة ، لأن الأب سالفيرديرا قد رحل ، وإلا لاعترفت له بما فى نفسى ، رغما عن كل شىء . ولن أضطر للاعتراف إلا بعد عام ، وفى هذه المدة يمكن أن تحدث أشياء كثيرة .

أشياء كثيرة حقا !

www.ibtesama.com

(٨)

وأخذ فيليب يسترد صحته ببطء . وكانت النكسة حقا — كما قال الأب سالفيرديرا — أسوأ من الإصابة الأولى . ومن ثم ظل راقداً فى فراشه يوماً بعد يوم ، وهو يتحسن ببطء شديد . إنه لم يكن يتألم ، ولكن كان فى حالة من الضعف البالغ الذى كان أقسى عليه من الألم نفسه . وكان اليساندرو يستدعى كل يوم تقريبا ليعزف له أو يغنى . وقد بدا أن هـذا هو الشىء الوحيد الذى يخرجه من حالة الركود التى يعيش فيها ، وفى بعض الأحيان كان يتحدث مع اليساندرو فى شئون المزرعة . وكان يبدو لمدة لحظات وكأنه استرد حالته الطبيعية ، إلا أنه لا يلبث أن يتهاوى ضعفا ، فيغمض عينيه ويقول :

— سوف أتحدث معك فى فرصة أخرى عن هذه الأشياء . إننى سأنام الآن ، أرجو أن تغنى .

www.ibtesama.com

ولما رأت السنيورة ابتهاج فيليب بوجود اليساندرو ، أخذت تميل إليه بدورها ، ولا سيما حين لاحظت اتزانه وتحفظه والواقع أنه لم يكن هناك طريق أقرب إلى قلب السنيورة ، سواء للرجل أو للمرأة ، من طريق الإقلال في الحديث والتحفظ والاتزان . كانت بغريزتها تحب كل ماتنطوى عليه النفس البشرية من سكون ، وقوة ، وغموض . ومن ثم كانت تزداد ثقة باليساندرو واطمئنانا إليه كلما لاحظت تصرفاته . ومن حسن حظ جوان كانيتو أنه لم يعرف ماذا كان يدور بذهن سيدته . ولو أنه عرف ، لأخذته حمى الخوف والجزع ، ولنشأ بينه وبين اليساندرو صراع شديد . ولكن الأمر كان بالعكس ، أى إن جوان كان ينتهز كل فرصة ليمتدح اليساندرو أمام السنيورة ، وهو لا يدرك حقيقة الموقف ، وإنما يأمل فقط أن ذلك المكسيكى الذى كان يخشاه ، قد لا يعرف شيئا عن إصابته ، فلا يظهر ويطالب بمنصبه . ومن ثم كان لا يكف عن امتداح الولد — كما يسمى اليساندرو — كلما أقبلت السنيورة لزيارته فى غرفته .

كان يقول ويكرر القول :

— حقا يا سنيورة ، إننى لأتعجب أشد العجب من أين له كل هذه الخبرة وهو فى هذه السن ! إنه فى شئون الرعى كالرجل الهرم الخبير . إنه يعرف أكثر من أى راع لدى ـ أكثر جداً . ولا تقتصر خبرته على رعى الغنم فحسب ، وإنما يعرف الشىء الكثير عن رعى الماشية أيضا . لقد لجأ إليه جوان جوزيه أكثر من مرة ليحصل منه على دواء للماشية ، لا يعرف سره كل هذا مع

التواضع والأدب . إنني لم أكن أعرف أن هناك هنوداً على هذا المستوى .
ولا شك أنهم غير كثيرين .

وكانت السنيورة تجيب بذهن شارد :

— لا .. لا أظن . إن أباه رجل موفور الخبرة والذكاء . وقد أحسن تربية ابنه .

وكان جوان يستطرد في التغني بمزايا اليساندرو :

— ليس هناك شيء يتردد في القيام به ، إنه بارع في استخدام الآلات وكأنه تعلم حرفة النجارة . لقد صنع لي جبيرة جديدة لساق ، فأراحتها وكأنها البلسم للجرح . إنه ولد طيب .. ولد طيب .

وكانت هذه الأقوال كلها تترسب في ذهن السنيورة ، فكانت تراقب اليساندرو بإمعان يزداد يوماً بعد يوم ، حتى أصبح الشيء الذي كان جوان كانيتو يخشاه ، والذي أراد أن يتقيه باستخدام اليساندرو مؤقتاً ، يوشك أن يقع . ذلك أن أفكار السنيورة أخذت تختمر في أنه ليس هناك أفضل من استخدام هذا الشاب القوي المهذب النشيط بصفة دائمة . ولم يخطر ببالها أن الرجل الهندي ، دما ولحما وتقليداً ، قد يتردد في أن يؤجر نفسه لخدمة الغير — ولو كان هذا الغير آل مورينو — بصفة دائمة . إلا أنها لم تتعجل في اتخاذ أية خطوة في هذا السبيل . فإن في الوقت متسعا قبل أن تشفى ساق جوان ، وإن عليها أن تدرس الشاب الهندي بمزيد من الإمعان . وفي خلال هذا ، فإن عليها

www.ibtesama.com

أن تدفع فيليب إلى التفكير فى هذا الأمر ، ثم اقتراحه . ومن ثم قالت له — لفيليب — ذات يوم :

— ما أجمل صوت اليساندرو يافيليب ؟ لا شك أننا سنفتقده عندما يرحل ، أليس كذلك ؟

ففوجىء فيليب وهتف قائلا :

— أهو راحل ؟

— لا . لا . ليس الآن . لقد وافق أن يبقى حتى تشفى ساق جوان ، ولكن هذا لن يستغرق أكثر من ستة أسابيع من اليوم ، أو ثمانية على الأكثر . لقد نسيت كيف مرق الوقت فى أثناء رقادك يا ولدى .

قال فيليب وهو يتنهد :

— نعم . نعم . . هل مر شهر حقاً !

واستطردت السنيورة تقول :

— إن جوان كانيتو يقول لى إن الشاب على براعة وخبرة تفوقان حداثة سنه . يقول إنه بارع فى رعى الماشية ، كبراعته فى رعى الغنم — بل أبرع من أى راع فى مزرعتنا . وهو يبدو لى هادئا جداً ، ومؤدبا . والواقع أننى لم أر فى حياتى هنديا مهذب السلوك على هذا النحو .

فقال فيليب :

— أوه ، إن أباه بابلو هكذا . وهذا طبيعى بعد أن عاش كل هذه المدة.

www.ibtesama.com

مع الأب بيرى ، وقد رأيت هنودا آخرين كثيرين على هذا النحو من أدب السلوك . إنه شيء طبيعي فيهم .

وقالت السنيورة :

ـــ إنني لا أطيق التفكير في رحيل اليساندرو عنا . ولكنك لن تفتقده إلا عند ما تسترد كامل صحتك .. أليس كذلك ؟

فقال فيليب في خجل صبياني ناشيء من ضعفه :

ـــ لا ، بل سوف أفتقده أيضاً ، وإني أحب أن يبقى بجواري ، إنه أفضل عشر مرات من أي عامل لدينا . ولكنني لا أعتقد أن المال وحده يكفي لإبقائه في المزرعة .

فسألته السنيورة بصوت ينم عن الدهشة :

ـــ هل تفكر في استخدامه بصفة دائمة ! إنني لا أشك أن هذا في مقدورك لو أردت . إنهم جميعاً فقراء ، كما أعتقد ، وما كان ليعمل مع حلاقي الغنم لو لم يكن فقيراً .

فقال فيليب نافد الصبر :

ـ لا .. ليس الأمر هكذا . إنك لا تفهمينهم ، لأنك لم تعيشي بينهم فترة طويلة . إن لهم من الشعور بالكرامة مثل مالنا .. بعضهم على الأقل ، أمثال الشيخ بابلو ، إنهم يجزون أصواف الغنم من أجل الربح ، تماما كما أبيع أنا

www.ibtesama.com

الصوف . وليس هناك فرق كبير ، إن رجال اليساندرو يطيعونه ، وجميع الرجال في القرية يطيعون بابلو تماما ، كما يطيعني الرجال هنا .

ثم ضحك فيليب وأردف قائلا :

ـ بل وأكثر إن شئت الحقيقة . إنك لا تستطيعين أن تفهمي هذا الوضع يا أماه ، ولكنها الحقيقة . إنني است واثقا بأنني أستطيع أن أقدم من المال إلى اليساندرو ما يغريه على البقاء في خدمتي .

فاختلجت فتحتا أنف السنيورة ازدراء وقالت :

ـ لا . . إنني لا أفهم هذا بكل تأكيد . أي شيء يجعل هؤلاء السادة الكبار في القرية فخورين متكبرين ؟ أسلافهم ، أسلافهم الهمج والعرايا الذين كانوا هكذا منذ أقل من مائة عام ! بل لقد كان من المحتمل أن يبقوا همجا عرايا حتى اليوم لو لم نأت إليهم لنعلمهم ونمدنهم ـ إن هؤلاء الهنود لا يصلحون لشيء إلا للخدمة ، هذا هو كل ما كان الرهبان يأملون أن يجعلوهم ـ أن يجعلوا منهم كاثوليكيين طيبين عاملين في الحقول . ولكن هناك بعض الاستثناءات بطبيعة الحال ، واليساندرو واحد منها . ولكني أعتقد أنه ، أيا كان مركزه ، سوف يبتهج وينتهز الفرصة ليظفر بمنصب جوان كانيتو لو عرضت عليه نفس الأجر .

فقال فيليب :

ـ حسنا . . سوف أفكر في هذا الأمر ، وليس أحب إلى من أن يبقى

www.ibtesama.com

معنا هنا . إننى شخصيا أحبه . وسوف أفكر فى هذا الأمر .

وكان هذا كل ما أرادته السنيورة فى ذلك الوقت .

وتصادف أن دخلت رامونا الغرفة فى أثناء هذا الحديث ، فلما سمعت اسم اليساندرو ، جلست عند النافذة ، وراحت تطل منها ، وهى ترهف السمع . وكان ذلك الشهر قد ترك أثره الكبير فى قلب كل من اليساندرو ورامونا ، وإن كانا لا يعرفان هذه الحقيقة - وقد بلغ من هذا الأثر أن رامونا كانت تحس بالثقة فى اليساندرو دون أن تفكر فى أنه هندى - وإنما أصبح فى تفكيرها مكسيكياً مثل فيليب تماما ، وفوق هذا كانت تعترف لنفسها ، كما فعلت مرجريتا - كلما رأت الشابين معا - أن اليساندرو أجمل بكثير من فيليب . ورغم أنها لم تكن تحب أن تعترف لنفسها بهذه الحقيقة ، إلا أنها لم تستطع أن تنكرها . وكثيراً ما كانت تقول لنفسها :

- لشد ما أتمنى لو كان فيليب فى طول اليساندرو وقوته . ولست أدرى لماذا لا يكون كذلك . ترى هل تعرف السنيورة إلى أى حد يبدو اليساندرو جميلا ؟

ولما قال فيليب إنه لا يعتقد أن فى مقدوره إغراء اليساندرو على البقاء فى خدمته بالمال فتحت رامونا فمها فجأة ، كأنما تريد أن تقول شيئا ، ثم غيرت رأيها وآثرت الصمت ؛ إذ تذكرت أن السنيورة كانت أحيانا تستاء من تدخلها فى الحديث بينها و بين ابنها .

ورأى فيليب هذه الحركة ، ولكنه آثر أن يرجىء سؤال رامونا عما أرادت أن تقول إلى ما بعد انصراف والدته . ومن ثم قال بمجرد انصراف السنيورة :

www.ibtesama.com

ـ ماذا كنت تريدين أن تقولى يارامونا ؟

واضطرم وجه رامونا ، لأنها قررت ألا تقول شيئا .

وألح فيليب قائلا :

ــ أخبرينى يا رامونا ، لقد كنت تريدين أن تقولى شيئا بشأن بقاء اليساندرو هنا ، إننى أعرف هذا .

ولم تجب رامونا ، ولأول مرة تشعر أمام فيليب بالارتباك ، ومن ثم عاد يقول :

ــ ألا تميلين إلى اليساندرو ؟

وهنا أجابت بحرارة مفاجئة :

ــ لا . . ليس هذا . إننى أميل إليه جدا .

ثم توقفت . وقال فيليب :

ــ حسنا ! ماذا إذن ؟ هل سمعت شيئاً ضد بقائه ؟

ـ لا . . لا . . لا . إن الجميع هنا يعلمون أنه باق حتى تشفى ساق چوان . ولكنك قلت إنك لا تعتقد أنك تستطيع إغراءه بالمال ليبقى .

فقال فيليب مستفسرا :

ـ نعم ، هذا رأيى ، فما رأيك أنت ؟

فأجابت رامونا بتردد :

ـ أعتقد أنه يجب أن يبقى . هذا ما أردت أن أقوله .

www.ibtesama.com

ــ وما الذى جعلك تعتقدين هذا ؟ .

فقالت رامونا وهى تزداد ترددا :

ـ لا أدرى .

وكانت تشعر بالأسف بعد أن قالت هذا ، لأن فيليب أخذ ينظر إليها متعجبا ، إذ كانت تلك أول مرة تبدو فيها رامونا مترددة ، مرتابة ، على غير طبيعتها ، ومن ثم ومضت فى ذهن فيليب خواطر قد تكون أبعد شىء عن الغيرة أو الشك ، و إن كانت شبيهة بهما ، ومضت فى ذهنه بسرعة و بلا وعى منه . ولو أنه أدرك حقيقة هذه الخواطر ، لدهش . إذ كيف يغار من حلاق غنم هندى ! مستحيل . ومع ذلك فإن هذه الومضات السريعة تركت فى ذهنه أثرها ، وجعلته لاينسى هذا الحديث . وكان مؤكدا بعد هذا أن فيليب قرر أن يمعن فى مراقبة رامونا أكثر مما كان يفعل ، وأن يزن كلماتها وحركاتها ، فإذا لاحظ أنها تغيرت أبسط تغيير ، فسوف يزيد من مراقبته لها . وهكذا كانت الشباك تنغلق حول رامونا ـ ثلاثة مراقبين يعدون عليها حركاتها : اليساندرو بحبه الخالص، ومرجريتا بكراهيتها وغيرتها ، وفيليب بحبه وحيرته . السنيورة فقط هى التى لم تكن تلاحظها ، ولو أنها فعلت ، لتغيرت الأحوال إلى حد كبير ، لأن السنيورة كانت قوية الملاحظة ، قلما تخطىء فى فهم نوازع الغير النفسية ، قلما تنخدع ، ولكن هذه المواهب كلها لم تكن مركزة على رامونا ؛ ذلك أن الفتاة كانت ـ للعجب ـ خارج نطاق اهتمامات السنيورة الأساسية . إنها لاتتردد فى تزويد الابنة التى عهدت بها إليها أختها بالمأوى ، وبالطعام ، وبالملابس ، وبكل احتياجاتها العادية بقدر ماتستطيع ، أما العلاقة الشخصية ، أو حنان الأمومة ، أو حتى الاهتمام

بتعرفها ، فلا ! لم يكن لدى السنيورة شيئا من هذا لتقدمه للفتاة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهل ثمة ملام عليها ؟ ماذا كان في وسعها أن تفعل ؟ فمنذ أعوام بعيدة نفض الأب سالفيرديرا يديه من الموضوع ، إذ كانت السنيورة تقول له دائما وفي كبرياء وزهو :

— هل هناك المزيد مما أستطيع أن أقدمه للطفلة ؟ هل ينقصها شيء ، أو هل تفتقد هي شيئا ؟

ولم يكن يسع سالفيرديرا إلا أن يقول مشيرا إلى الواجب الذي أهملته :

— إنك لا تحبينها يا ابنتي .

وكانت السنيورة تجيب بصدق وصراحة :

— لا . . إنني لا أحبها ، ولا أستطيع . إن الإنسان لا يستطيع أن يحب رغما عنه .

وكان الأب يقول بحزن :

— هذه هي الحقيقة . ولكن من الممكن تنمية الحب في النفس .

وكانت السنيورة تجيب بإصرار :

— نعم ، إذا كان له أساس . ولكنه في هذه الحالة بلا أساس . إنني لن أحب رامونا يوما لولا رغبتك ، ولولا رغبتي في تجنيب أختي الحزن ، لما قبلت

www.ibtesama.com

أن أتعهدها ، ولكنني لن أتخلى أبدا عن واجبي نحوها .

ولم يكن ثمة جدوى . تماما كما لو قلت لشخص ما ، اقفز إلى البحر ، إذا كان من المستحيل تحويل قلب السنيورة إلى أي اتجاه لا تريده . وكل ما كان في وسع الأب سالفيدريا أن يفعله هو أن يزيد من حبه لرامونا ، وهذا ما كان يفعله بحرارة وإخلاص يزدادان عاما بعد عام ، ولا عجب لأنه لم تكن هناك فتاة ، ألطف وأعذب من رامونا التي عاشت هذه الأعوام كلها في بيت آل مورينو ، وحيدة ، إلا من رعاية فيليب .

والآن أصبح لرامونا ثلاثة مراقبين . ولو كان هناك رابع ، على أن تكون هي هذا الرابع لكان من المحتمل أن تتغير الأحوال . ولكن كيف يمكن لرامونا أن تراقب نفسها ؟ وكيف يمكنها أن تعرف ؟ إنها لم تر الحياة خارج مزرعة السنيورة مورينو إلا مدة عامين أمضتهما في دير الراهبات ، وكان فيليب هو الشاب الوحيد الذي عرفته ـ فيليب أخوها منذ كانت في الخامسة من عمرها .

ولم تكن الحياة في بيت السنيورة مورينو موفورة المرح . وكان فيليب حين يسعى إلى شيء من البهجة والمرح ، يضطر إلى السفر مسافة يوم أو يومين أو ثلاثة ليجد بغيته ، وكان يفعل هذا كلما أراد. أما رامونا فلم تذهب قط ،وكم مرة تمنت لو سافرت إلى سانتا بربارا ، أو مونتري أو لوس أنجليس ، ولكنها لم تكن تجد الشجاعة الكافية لكي تستأذن السنيورة في السفر معها إلى إحدى هذه الأماكن . وكان قد مضى عليها الآن منذ غادرت مدرسة الدير ثلاثة أعوام ، ومع هذا كانت متذكرة كل شيء ،وكأنما غادرت الدير في اليوم السابق بعد أن

www.ibtesama.com

ودعت الراهبات بالدموع والقبلات . وكانت القصص العاطفية والحكايات والأشعار التي قرأتها هناك من الطراز البريء العتيق الذي حافظ على مشاعرها الصبيانية كما كانت من قبل ، وكان هذا الشعور الصبياني مع طبيعتها المتفائلة ، من الأسباب التي أدت إلى قناعتها بالحياة في المزرعة . إنها تطعم الأطيار ، وتعنى بالأزهار ، وترتب كل شيء في الكنيسة الصغيرة ، وتساعد في أعمال البيت الخفيفة ، وتشتغل بالتطريز ، وتغني ، وتصلي إرضاء للأب سالفيرديرا ، كما أمرتها السنيورة أن تفعل منذ ثمان سنوات .

وبنفس الظروف المتماثلة ، عاشت هي واليساندرو متحررين من التفكير في الحب وفي الزواج ، هو بالحياة في الظل ، وهي بالحياة في النور ، هو بقلبه وأفكاره المفعمة بالحيرة والخوف ، وهي بقلبها وأفكارها المليئة بأطياف النور ، وببساطة الأعمال ، وبمباهج الطفولة خارج البيت .

ولما أخذت الأيام تمر ، وفيليب لا يزال ملازماً الفراش ، قرر اليساندرو أن يقوم بعمل حاسم . ففي كل مرة يدخل فيها غرفة فيليب ليعزف على الكمان أو ليغني ، كان يحس بثقل الهواء ، ومن ثم كان يحس بالضيق حين يقضي فيها ساعة أو نحو ذلك . ورغم اتساع الغرفة ووجود نافذتين وباب كلها مفتوحة دائماً ، فإن جوها كان يبدو لاليساندرو خانقا .

وقد قال لجوان ذات يوم :

— لسوف أمرض مثل السنيور فيليب إذا كان على أن أبقى في هذه الغرفة. والسرير شيء مضعف للجسم ، كفيل بتحطيم أقوى الرجال ، هل تعتقد أنهم

www.ibtesama.com

يغضبون منى إذا طلبت منهم أن أخرج السنيور فيليب إلى الشرفة ،وأضعه على سرير من صنع يدى ! إننى أراهن بحياتى على أن أجعله يسترد صحتــه فى أسبــوع .

ورد چوان قائلا :

ـــ ولو أنك نجحت فى هذا ، لما بخلت السنيورة عليك بنصف المزرعة إذا طلبت هذا منها .

ولما رأى الدماء القانية تصعد إلى وجه الشاب عند سماعه لهذه الكلمات ، أسرع يقول :

ـــ لاتكن سريع التأثر .إننى لم أقصد أنك ستطالبها بمكافأة على خدمتك، وإنما أنا أشير فقط إلى السعادة التى ستغمر قلب السنيورة عندما ترى فيليب قوياً معافى ، إننى أفكر دائما فى أن فيليب إذا لم يشف من مرضه ، فإن السنيورة سوف تموت بعده ، إنها لا تعيش إلا من أجله . وعندئذ من ذا سيرث المزرعة ! هذا مالا أستطيع أن أعرفه .

فسأله اليساندرو قائلا :

ـــ ألن تكون السنيوريتا ؟

فأرسل چوان ضحكة قبيحة وقال :

ـــ ها ها .. إن السنيورة لم تسمعك ! يميناً إن ما سوف تناله السنيوريتا

www.ibtesama.com

من آل مورينو قد لا يكفيها طعاما . اسمع يا اليساندرو ! إذا كتمت السر فسوف أخبرك بقصة السنيوريتا . إنها ليست من آل مورينو، ولا تمت إليهم بأية صلات من القربى .

وقال اليساندرو :

— نعم . لقد قالت مرجريتا إن السنيوريتا رامونا ليست إلا ربيبة للسنيورة مورينو .

فقال جوان مردداً في ازدراء :

— ربيبتها ؟ ! إن هناك شيئا ما في قصة حياتها لا أعرفه ، ولم أستطع أن أهتدى إلى سره ، لأننى حين كنت في مونتيرى ، رأيت بيت آل أورتينا مغلقا ، ومن ثم عجزت عن التحدث مع أى شخص فيه ، ولكننى أعرف المهم .. أعرف أن السنيورة أورتينا كانت أول من تعهد الطفلة ، وكانت هناك فضيحة تدور حول مولدها .

ولولا ضعف نظر جوان بسبب الشيخوخة ، لأمكنه أن يرى على وجه اليساندرو من الغضب ما كان كفيلا بأن يجعله يدقق في اختيار كلماته . إلا أنه استطرد يقول :

— بعد مواراة السنيورة أورتينا الثرى ، عادت أختها السنيورة مورينو ومعها هذه الطفلة . وأستطيع أن أؤكد لك ياولدى أننى كثيرا ما رأيت السنيورة تنظر إليها وكأنما تتمنى أن تراها ميتة . وهذا شىء معيب ، لأننى لم أر في حياتى طفلة

www.ibtesama.com

ألطف وأكثر وداعة من السنيوريتا ، ولكن الدم المخلوط يظل مخلوطا ، ويظل سببا فى إثارة الشعور بالمرارة فى الأسرة . وإن ما أعرفه هو أن أمها كانت هندية. لقد سمعت السنيورة تقول هذا عندما كنت فى الكنيسة وراء تمثال القديس يوسف الكبير ، وكانت تتحدث مع الأب سالفيرديرا قائلة : « لو لم تكن دماء هذه الطفلة مخلوطة ، لكان الأمر مختلفا . إننى لا أحب هذا الخلط فى النسب مع الهنود » .

ولو كان اليساندرو متحضرا ، لوثب من فرط الدهشة عند سماعه كلمة « هندية » ، ولكنه ، وهو اليساندرو بذاته ، ظل متسمرا فى مكانه أكثر مما كان ، ثم قال بصوت خفيض :

— كيف عرفت أن الأم هى التى كانت هندية ؟

وعاد جوان يضحك بخبث ويقول :

— ها ! إن لها وجه آل أورتينا . وقد كان السنيور أورتينا أكبر زئر للنساء فى المنطقة الساحلية كلها . وما كانت هناك سيدة محترمة تقبل أن توجه إليه كلمة من أجل زوجته .

وقال اليساندرو وأنفاسه تزداد لهثا فى كل لحظة الآن :

— ولكن ألم تقل إن الطفلة كانت فى رعاية السنيورة أورتينا ؟

وكان جوان الغبى مستغرقا فى متعة الثرثرة ، فلم يلاحظ ما كان يبدو على وجه اليساندرو ، ومن ثم استطرد يقول :

www.ibtesama.com

— نعم . . نعم . . هذا ما قلت ، أمها كانت كالقديسة . ولكن الله وحده يعلم ماذا كان فى وسعها أن تفعل لو أنها تعهدت جميع أبناء زوجها غير الشرعيين . . إن كنيسة بأكلها ما كانت لتتسع لهم . ولكن هناك حديثا عن رجل جاء بهذه الطفلة حيث تركها فى غرفة السنيورة أورتينا . ولما كانت المسكينة بلا أبناء ، فقد أحبت الطفلة من النظرة الأولى وأخذتها فى رعايتها إلى النهاية . وأراهن أنها بذلت جهدا كبيراً لتقنع أختها السنيورة مورينو لترعى الطفلة بعد وفاتها . ولولا رغبة السنيورة مورينو فى إغاظة السنيورة أورتينا لآثرت أن ترى الطفلة ميتة .

وسأله اليساندرو قائلا بصعوبة :

— ألم تكن تعاملها برفق ؟

واستنكرت كبرياء جوان كانيتو هذا السؤال ، فقال بترفع :

— أتظن أن السنيورة تقسو على أحد يظله سقفها ؟ لقد ظلت تعامل السنيوريتا رامونا فى كل شىء مثل السنيور فيليب . وأعتقد أن هذه المعاملة كانت بناء على وعد قطعته السنيورة مورينو لأختها ، هذا ما سمعت .

وسأل اليساندرو :

— وهل تعرف السنيوريتا هذا كله ؟

ورسم جوان كانيتو علامة الصليب على صدره وهتف قائلا :

— لتنقذنا السماء ! لا . إننى لن أنسى ما حييت ما جرى لى عندما تحدثت

www.ibtesama.com

عن أم الطفلة وهى لا تزال صغيرة ، وعلى مسمع منها دون أن أعرف . وذهبت إلى السنيورة وسألتها عن أمها قائلة إنها سمعتنى أقول إن أمها كانت امرأة رديئة . وهذا ما قلته فعلا . وقد جاءت السنيورة إلى وقالت : « جوان كانيتو، لقد مكثت فى خدمتنا أعواما عديدة ، ولكن إذا سمعتك تتحدث بشىء عن السنيوريتا رامونا أو عما يتعلق بها ، سواء فى هذا المكان أو فى أى مكان آخر ، فإن هذا يعنى انتهاء خدمتك لنا » .

وأردف جوان قائلا لاليساندرو فى قلق :

— وأرجو يا اليساندرو ألا تخذلنى الآن ! إن لسانى يجمح بالثرثرة الآن ، وأنا راقد على هذا السرير الملعون ، بعد أن كنت موفور النشاط .

فقال اليساندرو ،وهو ينصرف عنه ببطء :

— لا . لن أذكر شيئا مما قلت ، يمكنك أن تتأكد من هذا .

وهتف جوان قائلا :

— انتظر . . انتظر . . ماذا عن مشروعك فى صنع سرير للسنيور فيليب بالشرفة ؟ هل ستصنعه من جلود الماشية ؟

فقال اليساندرو عائدا :

— آه . . نسيت . نعم . . هذا ما كان فى نيتى . فإن للجلود مزايا كثيرة. عندما تشد وتلين ، كان أبى يقول إن هذا النوع من الأسرة هو النوع الوحيد

www.ibtesama.com

الذى كان الرهبان يستعملونه فى عهد الإرساليات . وأنا شخصيا أوثر النوم على الأرض ، ولكن أبى ينام على سرير من الجلد ، ويقول إنه يشعر فيه بالراحة التامة . أتعتقد أن من الممكن أن أتحدث فى هذا الشأن مع السنيورة .

فقال چوان :

ـ تحدث أولا مع السنيور فيليب . وسوف يكون له ما يريد . إنه يحكم هذا المكان من أوله إلى آخره ، مع أنه كان يجلس على ركبتى بالأمس القريب . وما أسرع ما يوضع الرجل العجوز على الرف يا اليساندرو .

فقال اليساندرو برفق :

ـ لا يا چوان كانيتو . . ليس الأمر كما تقول . فإن أبى أكبر سنا منك بكثير ، وهو لا يزال يحكمنا جميعا بنفس الحزم والقوة . وأنا شخصيا أطيعه كما لو أننى مازلت صبيا .

وقال چوان لنفسه :

ـ وما أنت إلا صبى حتى الآن !

ثم أردف قائلا بصوت مسموع :

ـ ولكن العجائز هنا لا ينالون مثل هذا الاحترام .

فقال اليساندرو :

ـ هذا لا ينبغى . لقد تعلمنا شيئا غير هذا . إن فى قريتنا رجلا مسنا

www.ibtesama.com

جدا أكبر سنا من أبى بكثير ، وكان من قبل يحمل الملاط عند بناء إرسالية سان دبجو . ولست أدرى منذ كم سنة كان هذا ، لأنه تجاوز المائة بكثير . وهو الآن أعمى ، صبيانى السلوك والتفكير ، ولا يستطيع للشى ، إلا أنه موضع رعاية الجميع ، ونحن نحمله على سواعدنا إلى كل مجلس للمشورة ليجلس بجوار أبى . وهو أحيانا يتحدث بحماقة شديدة . ولكن أبى لا يدع أحداً يقاطعه وهو يقول إن إغضاب المسنين يجلب النحس ، لأننا جميعا سوف نغدو مسنين .

فقال چوان بحزن :

— نعم ، نعم . . لا بد أن نبلغ الشيخوخة يوما ، وقد بدأت أرى أنها لم تعد بعيدة على .

فحملق اليساندرو فى دهشة إلى چوان الذى بدا كأنه يجهل حقيقة عمره ، كما جهل حقيقة عمر اليساندرو فى الوقت نفسه ، ثم قال مفكرا « أيها المرم ، ماذا تظن نفسك إذن اليوم ؟ » إلا أنه قال بصوت مسموع متحدثا عن السرير المصنوع من الجلد :

— إننى قد لا أتحدث إلى السنيور فيليب فى وقت قريب ، لأنه عادة لا يستدعينى لأعزف أو أغنى إلا حين يشعر بالرغبة فى النوم ، ولكننى أشعر بالحزن يثقل قلبى كلما رأيته يذوى يوما بعد يوم بسبب حرمانه من الشمس والهواء الطلق ، كما أرى ، يا چوان .

فقال له چوان :

— اطلب هذا من السنيوريتا إذن . إنها تستطيع أن تتحدث إليه فى

www.ibtesama.com

أى وقت • ولم يجب اليساندرو ، ولم يدر لماذا لم يرتح إلى هذا الاقتراح ـ اقتراح التحدث مع راموناً عما يريده لمصلحة فيليب ! إنه لا يدرى إلا أنه لا يريد أن يتحدث معها فى هذا الشأن . ومن ثم قال :

ـــ لسوف أتحدث إلى السنيورة •

وشاء الحظ أن تقف السنيورة فى تلك اللحظة بالباب ، بعد أن جاءت لتسأل عن حالة جوان الصحية •

وسرتها جداً فكرة صنع سرير من الجلد لفيليب ، لأنها كانت فى شبابها قد سمعت الشىء الكثير عن مزايا هذه الأسرة ، ونامت على واحد منها • ومن ثم قالت :

ـــ نعم . إنها جيدة • وسوف نجرب واحداً منها . وبالأمس فقط كان السنيور فيليب يشكو من السرير الذى ينام عليه ، رغم أنه كان فى أيام صحته ، أحسن سرير فى نظره ، لقد اشتراه بثمن مرتفع ، ولكننى شخصيا لا أطيق النوم عليه ، إذ يخيل لى أنه يوشك أن يقذف بى كلما رقدت فوقه . إنه سرير خادع ، مثل كل هذه المخترعات الأمريكية التى جاءوا بها إلى البلاد • إلا أن السنيور فيليب كان يراه فخما . أما الآن فإنه يتململ عليه ويقول : إنه ـ أى السرير ـ يريد أن يقذف به •

وابتسم اليساندرو ، رغم توقيره للسنيورة ، وقال :

ـــ لقد نمت ذات يوم على سرير كهذا ،وقلت لأبى إنه مثل الجواد البرى

الجوح ، الذى يستعد دائما ليقذف بالراكب على الأرض ، وقد خطر لى أن القديسين هم الذين اخترعوا هذا السرير حتى لا ينام الناس كثيراً .

وقال جوان :

ـ إن لدينا كومة من الجلود المشدودة ، ولكنها ليست شديدة الجفاف . وكان على جوان جوزيه أن يرسل بها إلى السوق اليوم . فلنحتجز جلداً منها لا يكون شديد الجفاف .

فقال اليساندرو :

ـ إن الجلد الجديد يكون أفضل مادام خالياً من الرطوبة . هل أصنع السرير ياسنيورة ؟ وهل تسمح لى السنيورة بوضعه فى الشرفة ؟ لقد كنت أتحدث مع جوان الآن فيما إذا كان من الممكن أن أتجرأ وأطلب منك أن تسمحى لى بإخراج السنيور فيليب إلى الهواء الطلق . إننا نحس بالاختناق والموت لو مكثنا بين جدران أربعة كما مكث السنيور فيليب . هل يعيش الإنسان فى ظلمة كهذه إلا إذا كان فى حالة الاحتضار !

فترددت السنيورة وقد بدا أنها لا تميل كثيراً إلى رأى اليساندرو .

وأخيراً قالت :

ـ أيبقى فى الشرفة ليلا ونهاراً ! لاشك أن النوم فيها ليلا مضر !

فقال اليساندرو بحماسة .

www.ibtesama.com

ـــ بل هذا هو أفضل شىء . إننى أرجو من السنيورة أن تجرب هذا، فإذا لم تتحسن صحة السنيور فيليب إلى حد كبير بعد الليلة الأولى ، فيمكنك أن تعتبرينى كاذباً .

فقالت السنيورة بتلطف :

ـــ لا .. مخطئا فقط.

وكانت تحس بميلها يزداد إلى هذا الشاب ، بسبب وفائه ، كما تظن ، لابنها فيليب ، وكثيراً ما قالت لنفسها :

ـــ عندما أموت وأترك فيليب ، فإن من الخير له أن يكون معه خادم كهذا .

وعادت تقول لاليساندرو :

ـــ حسنا يا اليساندرو . اصنع السرير وسوف نجربه فورا .

وكان الوقت بعد الظهيرة مباشرة ، وكانت الشمس لا تزال عالية فى الجانب الغربى عندما رأت رامونا ، وهى جالسة تطرز كالمعتاد فى الشرفة ، اليساندرو مقبلا ، ومن ورائه رجلان يحملان السرير الجلدى . ومن ثم قالت :

ـــ ما هذا ؟ أهذا اختراع جديد لاليساندرو ؟ ولكن لأى غرض ؟

فقال اليساندرو وهو يصعد الدرجات بسرعة وخفة :

ـــ سرير للسنيور فيليب ياسنيوريتا . لقد أذنت السنيورة بوضعه هنا فى

www.ibtesama.com

الشرفة ، وسوف ينام عليه السنيور فيليب ليلا ونهارا ، وسوف يبدو الأمر فى نظرك كالمعجزة حين ترين كيف يسترد قواه . إن الغرفة المكتومة هى التى تضعفه الآن . إنه لم يعد مريضا .

فقالت رامونا :

— أعتقد أن هذا صحيح يا اليساندرو ، وقد كنت أفكر فى هذا الشىء نفسه . لأن رأسى يتصدع حين أمكث فى الغرفة نحو ساعة ، فإذا جئت إلى هنا ، تحسنت حالتى ، ولكن فى الليل يا اليساندرو ؟ ألا يضار من النوم فى هواء الليل ؟

فقال اليساندرو ببساطة :

— لماذا ياسنيوريتا ؟

ولم يسع رامونا إلا أن تقول :

— لا أدرى . هكذا كنت أسمع دائما .

فقال اليساندرو :

— إن قومى لايرون هذا . ونحن نفضل النوم فى هواء الليل مالم يكن الجو باردا . إنه لشىء جميل ياسنيوريتا ، حين ينظر الإنسان إلى السماء ليلا .

وهتفت رامونا قائلة :

— أعتقد أن الأمر كما تقول ، إننى لم أفكر فى هذا ، وإنى لأحب أن أفعل هـــذا .

www.ibtesama.com

واشتغل اليساندرو ، ووجهه مطرق ، فى إعداد السرير بالجانب الظليل من الشرفة . ولو كان وجهه مرفوعا ، لرأت رامونا عليه ما يجعلها تفاجأ أكثر من مفاجأتها قبل أيام قليلة سابقة ، بعد الذى حدث مع مرجريتا ، ذلك أن ذهن اليساندرو كان طيلة اليوم ، مسرحا لمواكب من الأفكار المضطربة ، غامضة ولكنها مركزة . ولو تحولت هذه الأفكار إلى كلمات ، لما خرجت من هذا النطاق « إن فى عروق السنيوريتا دماء هندية ! » .

ولكن اليساندرو لم يحول هذه الأفكار إلى كلمات . وإنما راح يعمل فى إقامة الأعمدة لسرير السنيور فيليب ، فهو يدقدق ، ويشد ، وينسق الجلد ، مثبتا كل مسمار ، ضاربا كل طرقة بقوة مفعمة بالنشوة ، وكأنما امتلأ الفضاء حوله بأراض جديدة ، وسماوات جديدة .

ولما سمع رامونا تقول فجأة بصوتها الصبيانى المتحمس :

— لابد أن صحته تتحسن . إننى لم أفكر فى هذا . اشد ما أتمنى أن أجربه !

أخذت تلك الأفكار الغامضة المتزاحمة طوال اليوم ، مع إحساسه بالنشوة والقوة المفاجئة ، تمتزج فى رؤية حلوة أمام عينى اليساندرو - برؤية السماوات فوقه ، وهو ورامونا ينظران إليها .

ولكنه قال فقط حين رفع رأسه :

— هذا ، هو السرير ياسنيوريتا . إنه الآن ثابت . ولو سمح لى السنيور فيليب بحمله إليه ، فسوف يستغرق فى النوم كما لم يفعل منذ أن مرض .

www.ibtesama.com

وانطلقت رامونا بلهفة إلى غرفة فيليب حيث هتفت له :

ـ إن السرير معد فى الشرفة . هل يأتى اليساندرو و يحملك إليه ؟

وفوجىء فيليب ، ونظرت السنيورة إليها بمزيج من الرفق والاستياء الرقيق الذى كان يؤلم الفتاة الحساسة أكثر من الغضب ، وقالت :

ـ إننى لم أتحدث بعد إلى فيليب فى هذا الشأن يارامونا . كنت أظن أن اليساندرو سوف يخبرنى بنفسه عندما يتم إعداد السرير . إننى آسفة لدخولى المفاجىء هذا . إن فيليب لا يزال ضعيفا جدا كما ترين .

فقال فيليب بصبر نافد :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ .

وما إن عرف الأمر ، حتى أصبح كالطفل فى لهفته إلى الانتقال ، وقال :

ـ هذا ما أنا محتاج إليه فعلا . إن هذا السرير اللعين يخضخض كل عظمة فى جسمى . ولشدما تلهفت إلى الشمس أكثر من لهفة الظامىء إلى الماء . ليباركك الله يا اليساندرو .

ثم استطرد يقول حين رأى اليساندرو بالباب :

ـ تعال يا اليساندرو واحملنى بذراعيك هاتين الطويلتين ، بسرعة ، إننى أحس منذ الآن بتحسن فى صحتى .

www.ibtesama.com

وحمله اليساندرو كما لو كان طفلا ، كان فى الواقع قد خف وزنه كثيرا بحيث كان فى مقدور رجل أقل قوة من اليساندرو أن يحمله .

وانطلقت رامونا فى المقدمة ، وهى تحس بمزيج من الألم والخجل ، تحمل الوسائد والبطاطين . ولما بدأت تعد بها السرير ، أخذتها السيورة منها قائلة وهى تنحيها :

— لسوف أعد السرير بنفسى .

وكان هذا التصرف بسيطا ، تعودته رامونا ، وفى الظروف العادية لم يكن ليثير فى نفسها ألما تعجز عن إخفائه . ولكن أعصاب الفتاة كانت فى تلك اللحظة شديدة التوتر ، وكانت قد بذلت جهدا عنيفا لتمنع نفسها من البكاء عند النهرة الأولى ، أما هذه الثانية فكانت أقوى مما تتحمل ، ومن ثم انصرفت بعيدا والدموع تنحدر على وجهها .

ورأى اليساندرو دموعها .. وكذلك فيليب .

وكان المنظر - رغم قسوته - لايثير الدهشة فى رأى فيليب ، فقد كان يعرف كيف تؤلم أمه رامونا دائما . وكل ما قاله لنفسه ، وهو فى هذه الحالة من الضعف هو « ياللأسف ! من المحزن أن أمى لاتحب راموناً » .

أما بالنسبة لاليساندرو ، فكان المنظر فوق ما يحتمل ، ومن ثم ارتعد جسمه وهو ينحنى ليضع فيليب على السرير ، مما جعل هذا يقول له وهو ينظر إليه فى ابتسام وإشفاق :

www.ibtesama.com

— أما زلت ثقيل الجسم يا اليساندرو ؟

فقال اليساندرو بلا حذر ، وهو لايزال يرتعد وعيناه تتبعان رامونا :

— لا ياسنيور فيليب .

وفى اللحظة التالية ، تلاقت نظرات الشابين . وأغضى اليساندرو بعينيه أولا . أما فيليب فقد ظل يحملق فى وجه اليساندرو . وأخيرا قال :

— آه . . !

ثم أغمض عينيه وتراخى برأسه على الوسائد .

وقالت السنيورة التى لم تلحظ شيئا :

— هل أنت مستريح ؟

فقال فيليب :

— هذه أول مرة أشعر فيها بالراحة يا أماه . انتظر يا اليساندرو ، أريد أن أتحدث إليك بمجرد أن أستريح . إن عملية الانتقال أجهدتنى كثيرا . انتظر .

فقال اليساندرو وهو يجلس على درجات الشرفة :

— أجل يا سنيور .

وقالت السنيورة :

-- إذا كنت ستبقى ، فسوف أمضى أنا لأشرف على بعض الأشياء التى تحتاج إلى اهتمامى . إننى أشعر دائما بالاطمئنان عندما تكون بجوار السنيور

www.ibtesama.com

فيليب . هل ستبقى حتى أعود ؟

فقال اليساندرو بنفس البرود الذى عاملت به راموناً :

— أجل ياسنيورة .

وكان قد أصبح ، فى قرارة نفسه ، لا يعتبر نفسه فى خدمة السنيورة بل كان فى الواقع يفكر جديا فى تلك اللحظة ، فيما إذا كان من الممكن أن يرحل قبل المدة التى وافق على بقائها .

ومرت فترة طويلة قبل أن يفتح فيليب عينيه ، وكان اليساندرو يحسبه نائما .

وتحدث فيليب أخيرا بعد أن ظل يرقب وجه اليساندرو مدة غير وجيزة .

— اليساندرو .

ووثب اليساندرو واقفا ،وأسرع إلى سرير فيليب دون أن يعرف ماذا سيسمع بعد ذلك . وإنما كان يشعر أن فيليب عرف خبيئة نفسه من نظرة واحدة ، وكان مستعدا لمواجهة أى موقف .

وقال فيليب :

— اليساندرو . . كانت أمى تحدثنى عن احتمال بقائك معنا دائما . إن جوان كانيتو قد صار الآن عجوزا ، وسوف يعيش بعد ذلك معتمدا على عكازتين . . مسكين ! ونحن فى أشد الحاجة إلى رجل يحسن رعى الغنم و يشرف على العمل فى المزرعة بوجه عام .

www.ibtesama.com

وكان وهو يتحدث يراقب وجه اليساندرو بإمعان ، ومن ثم رأى أمارات كثيرة سريعة تطوف به وأولها الدهشة . وقد أساء فيليب فهم هذه الدهشة فقال :

— كنت أعرف أنك مندهش ، وقد ذكرت لأمى أنك لم تبق معنا إلا لأننا فى شدة .

وحنى اليساندرو رأسه شاكرا وهو يحس بالرضا لاعتراف فيليب بفضله وأخيرا قال :

— أجل ياسنيور . هذه هى الحقيقة . لقد قلت للأب سالفيرديرا إننى سأبقى ، لا من أجل المال . إلا أننى وأبى فى أشد الحاجة إلى كل مال نتكسبه لأن قومنا جد فقراء ياسنيور ، ولست أدرى هل سيوافق أبى على أن أقبل هذا المركز الذى تعرضه علىّ أم لا يا سنيور . لسوف أعرض الأمر عليه ، وسأنزل على رغبته .

فقال فيليب :

— إذن فأنت راغب فى قبوله .

— نعم ياسنيور إذا طلب أبى منى أن أقبله .

وكان ينظر إلى فيليب بثبات ووقار ، ثم أضاف قائلا بعد برهة صمت :

— إذا كنت واثقا ياسنيور فيليب من أنك تريدنى ، فسوف يكون من دواعى سرورى أن أكون عونا لك .

www.ibtesama.com

ومع ذلك كان اليساندرو ، منذ لحظات فقط ، يفكر جديا فى احتمال تركه خدمة السنيورة موريتو فورا . ولكن هذا التقلب لم يكن مجرد نزوة ، أو نتيجة حافز عاطفى قائم على الرغبة للبقاء بجوار رامونا ، وإنما كان نتيجة إحساس مفاجىء بأن السنيور فيليب سيكون صديقا له .

ولم يكن اليساندرو مخطئا .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

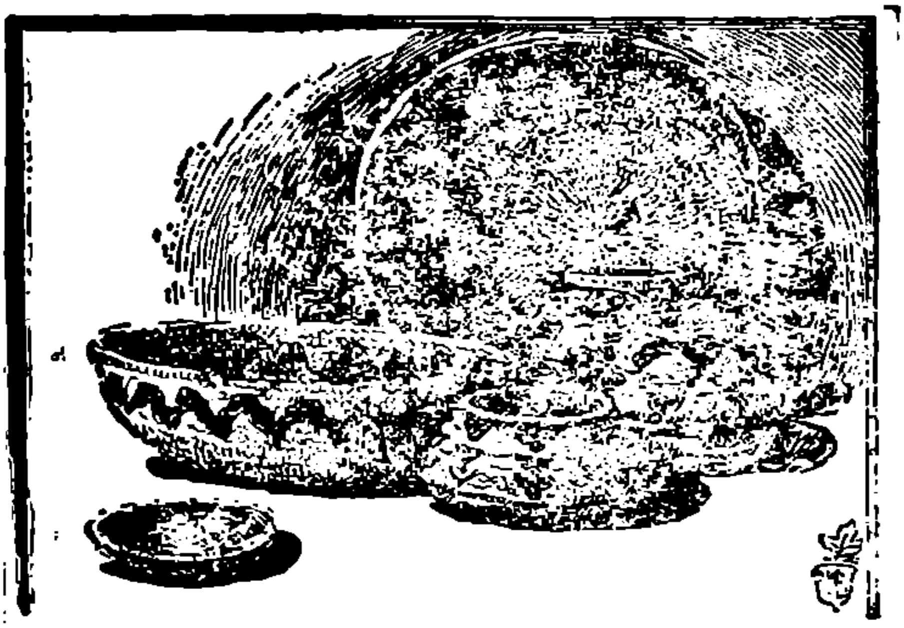

(٩)

عندما عادت السنيورة إلى الشرفة ، وجدت فيليب مستغرقا فى النوم ، واليساندرو واقفا فى نهاية السرير ، يراقبه وقد عقد ذراعيه على صدره . وفيما هى تقترب ، ارتد إلى صدر اليساندرو نفس إحساس الكراهية الذى خامره لأول مرة بسبب حديثها الغليظ مع رامونا وأطرق بعينيه ، وانتظر أن تطلب منه الانصراف .

وقالت السنيورة :

— يمكنك أن تنصرف الآن يا اليساندرو . سوف أجلس أنا هنا . هل أنت متأكد تماما بأنه لا خوف على السنيور فيليب من النوم هنا طيلة الليل ؟

فقال اليساندرو وهو يستدير لينصرف دون أن يرفع عينيه إليها :

— إنه سيشفى فى خلال ليال معدودة .

www.ibtesama.com

وتوقف اليساندرو حين سمعها تقول له :

— مهلا ، لا أظن أننا نستطيع أن نتركه نائماً هنا بمفرده طيلة الليل !

وكان اليساندرو قد فكر فى هذا ، وتذكر أنه لو نام على أرضية الشرفة بجوار سرير السنيور فيليب فسوف يكون راقدا تحت نافذة السنيوريتا فى نفس الوقت . ومن ثم أجاب قائلا :

— لا ياسنيورة ، لسوف أرقد هنا بجوازه . هذا مافكرت فيه إذا أذنت .

فقالت السنيورة بصوت رقيق كان من المؤكد أن يدهش رامونا المسكينة التى كانت لا تزال عندئذ جالسة بمفردها فى الغرفة حزينة السمت ؛ إذ لم يخطر ببالها أن فى مقدور السنيورة أن تتحدث بمثل هذه الرقة إلا لابنها فيليب :

— شكراً يا اليساندرو . شكراً . إنك عطوف . ولسوف آمر بإعداد فراش لك .

فهتف اليساندرو قائلا :

— أوه ، لا ... أرجو من السنيورة أن تعفينى ، فإنى لا أستطيع أن أنام على سرير . كل ما أريده قطعة من الجلد مثل التى ينام عليها السنيور فيليب ، و بطانية . إننى لا أستطيع أن أنام على أى سرير .

وقالت السنيورة لنفسها :

« آه بالتأكيد ! كيف فاتنى هذا ! كيف جعلنى هذا الفتى أنسى أنه هندى ! »

www.ibtesama.com

وأردفت قائلة له :

ـ ولكن أرضية الشرفة أصلب من الأرض العادية .

ـ لا يا سنيورة ، إنهما سواء ، وأنا الليلة لن أنام ، وإنما سأراقب السنيور فيليب ، خشية أن تهب الرياح ، أو أن يستيقظ ويطلب شيئا .

فقالت السنيورة :

ـ لسوف أراقبه أنا حتى منتصف الليل ، لأنى أحب أن أطمئن على راحته فى النوم فى هذه الفترة الأولى

وكانت الليلة من أهدأ ليالى الصيف ، ساكنة كأنما لا يوجد على ظهر الأرض مخلوق . وكان القمر بدرا ، يسكب ضوءه على الحديقة ، وعلى الواجهة البيضاء للكنيسة الصغيرة القائمة بين الشجر . ورأت رامونا ، من نافذة غرفتها ، اليساندرو وهو يروح ويجىء فى الشرفة ، وكانت قد شاهدته وهو يبسط الجلد بجوار سرير فيليب ، كما شاهدت السنيورة وهى تتخذ مكانها على المقعد الكبير الوثير . ثم تساءلت : هل سيقوم الاثنان بالمراقبة ؟ ولماذا لا تسمح لها السنيورة قط بمراقبة فيليب ! ومن ثم قالت لنفسها بحزن :

« إننى بلا فائدة لأى شخص » .

ولم تجرؤ على الخروج والاستفسار عن الترتيبات التى ينبغى اتخاذها لقضاء الليل . ففى العشاء كانت السنيورة قد تحدثت معها بنفس الصوت البارد النفور الذى يثير فيها الإحساس بالخوف والاضطراب . ولم تكن طيلة ذلك اليوم قد

www.ibtesama.com

رأت فيليب مرة واحدة على انفراد . وقد كانت مرجريتا ، فى الأيام السابقة - أوه ما أبعد هذه الأيام السابقة كما يبدو الآن - من أهم الأسباب التى تملأ قلب رامونا بالراحة والهدوء ، ولكن مرجريتا الآن مستاءة ، وصامتة ، ولا تقبل على رامونا إلا للضرورة ، وفى بعض الأحيان كانت توجه إليها نظرات تجعل رامونا ترتعد وتقول لنفسها :

- إنها تكرهنى . لقد أصبحت تكرهنى منذ ذلك الصباح .

وكان ذلك اليوم من الأيام الحزينة المملة فى حياة رامونا ، وفيما كانت جالسة إلى النافذة ، ومعتمدة برأسها إلى مصراعها ، ترنو إلى اليساندرو وهو يروح ويجىء فى الشرفة أحست لأول مرة دون أى شعور بالنفور أو أى محاولة لإخفاء الحقيقة عن نفسها ، بأنها سعيدة بحب اليساندرو لها . ولكنها لم تتجاوز فى إحساسها أو فى تفكيرها هذا المدى ، لأن عقلها لم يكن كعقل مرجريتا الملىء بأوهام العلاقات المتحررة مع الرجال . ولكنها كانت تحس بوضوح ، وفى سعادة رقيقة ، بحب اليساندرو لها ، وكانت تحس بوضوح ، وفى رفق بقوة هذا الحب . هكذا كان شعورها وهى جالسة إلى نافذتها فى تلك الليلة ، ترنو إلى الحديقة السابحة فى ضوء القمر ، وحتى بعد أن آوت إلى الفراش ، ظلت تسمع وقع هذه الخطوات البطيئة الرقيقة فى ممر الحديقة ، وكان آخر ما فكرت فيه ، قبل أن تستغرق فى النوم ، أنها سعيدة بحب اليساندرو لها .

كان القمر قد غاب منذ وقت طويل ، وكانت الحديقة ، وواجهة الكنيسة والأشجار والكروم قد اتشحت بستار كثيف من الظلام ، عندما استيقظت رامونا ، وجلست فى فراشها وأرهفت السمع . كان كل شىء ساكنا فيما عدا

www.ibtesama.com

حسيس أنفاس فيليب الخافتة الرتيبة التى كانت تصل إليها عبر النافذة ، و بعد أن أنصتت إليها لحظات قليلة ، نهضت فى سكون من فراشها وتسللت إلى النافذة ، وأزاحت الستائر وأطلت إلى الخارج وهى تعتقد أن أحداً لا يسمعها ، ولكن أذن اليساندرو المرهفة سمعت حركتها ، فوثب واقفا ، ونظر إلى النافذة وقال هامسا :

— إننى هنا ياسنيوريتا . هل تريدين شيئا .

فردت هامسة :

— هل نام طيلة الليل هكذا ! ؟

— نعم يا سنيوريتا . إنه لم يتحرك مرة واحدة .

— ما أجمل هذا . . ما أجمله !

ثم تسمرت فى مكانها ، وكانت تريد أن تتحدث مرة أخرى إلى اليساندرو ، وأن تسمعه مرة أخرى وهو يتحدث ، ولكنها لم تجد ما تقوله . وأخيراً تنهدت .

وتقدم اليساندرو بخطوة سريعة نحو النافذة وقال هامساً :

— ليباركك القديسون ياسنيوريتا .

فتمتمت رامونا قائلة :

— شكراً لك يا أليساندرو .

ثم انسابت إلى فراشها ، ولكنها لم تنم . وكان الفجر وشيكا . وما كادت خيوطه الأولى تتسلل إلى السكون ، حتى سمعت نافذة السنيورة وهى تفتح .

وقالت رامونا لنفسها :

www.ibtesama.com

— إنها بالتأكيد لن ترتل أنشودة الصباح وتوقظ فيليب .

ثم وثبت مرة أخرى إلى النافذة لتنصت . وبعد أن سمعت كلمات قليلة خافتة متبادلة بين السنيورة واليساندرو ، إذا بالنافذة تغلق مرة أخرى ويسود السكون.

وقالت رامونا لنفسها :

— خطر لى أن قلبها لن يطاوعها على إيقاظه ، وأنا واثقة أن العذراء لن ترضى عن ترتيلنا أنشودة الصباح . ولكننى سأصلى لها بدلا من ذلك .

ثم ركعت عند رأس سريرها ، وأخذت تردد صلواتها بصوت هامس . ولو كان ثمة عنكبوت يسير فى غرفة رامونا ، لسمعته أذن اليساندرو العاشق الساهر خارج النافذة . ومن ثم نهض بقامته الطويلة من أرضية الشرفة ، واستدار نحو نافذة رامونا ، وكانت ظلمة الليل قد تحولت إلى شفق ، مما جعل شخصه يبين ، إلا أن رامونا أحست به قبل أن تراه ، فتوقفت عن الصلاة ، ولكن اليساندرو كان واثقا من سماعه لصوتها . ومن ثم قال لها هامسا ووجهه جد قريب من الستائر :

— هل قالت السنيوريتا شيئا ؟

وجفلت رامونا ، وسقطت من يدها المسبحة التى أحدثت صريرا على أرضية الغرفة الخشبية ، إلا أنها قالت وهى ترتعد دون أن تدرى لماذا :

— لا ، لا يا اليساندرو . إننى لم أقل شيئا .

وأدرك اليساندرو ، من صرير المسبحة على الأرضية ، حقيقة الموقف ، فقال لنفسه فى أسف وخجل :

www.ibtesama.com

— لقد كانت تصلى .

ثم أردف قائلا لها فى همس :

— اغفرى لى ، فقد ظننتك تنادينى .

ثم عاد إلى الطرف الخارجى للشرفة ، وجلس على سياجها ، لأنه لم يعد راغباً فى الرقاد بعد ذلك . وظلت رامونا راكعة وهى ترنو إلى النافذة ، وكان فى مقدورها أن ترى من خلال الستائر الرقيقة ، ضوء الفجر وهو يقترب رويداً فى انسياب ، حتى استطاعت فى النهاية أن ترى اليساندرو بوضوح . وظلت فى ركوعها ترنو إليه ، غافلة عن كل شىء . وبقيت المسبحة على الأرضية منسية . حقا إن رامونا لن تتم صلاتها فى ذلك اليوم ، ولكن قلبها كان مفعماً بالشكر والرضا ، وكان هذا الإحساس وحده خيراً من كل صلاة تقرأ من كتاب للعذراء.

وارتفعت الشمس ، وملأت الطيور المغردة جو الشرفة بالبهجة قبل أن يفتح فيليب عينيه ، وكانت السنيورة قد ترددت عليه كثيراً و نظرت إليه فى قلق دون أن يتحرك . وكانت رامونا قد تسللت إلى الشرفة ، وأرسلت إلى اليساندرو نظرة مع ابتسامة خاطفة ، ثم انحنت على فراش فيليب ، ممسكة أنفاسها ، فى حين ظل فى نومه بلا حراك . ومن ثم قالت هامسة :

— هل ينبغى أن ينام كل هذا الوقت ؟

فأجاب اليساندرو قائلا :

— حتى الظهيرة . وعندما يصحو ، سوف ترين من سمته بأنه غدا رجلا آخر .

www.ibtesama.com

وكان حقا ما قال اليساندرو ، فعندما فتح فيليب عينيه وتلفت حوله ، أرسل ضحكة كلها الابتهاج ، حتى إذا لمح اليساندرو عند الدرجات ، ناداه بصوت أقوى من أى صوت كان له منذ مرض .

— اليساندرو ، إنك طبيب عالى ، لماذا لم يفكر فى هذا ذلك الطبيب الأحمق الآتى من فنتورا ! لولاك يا اليساندرو لكنت بعد أيام أخرى فى العالم الآخر ، رغم كل ما لديه من علم . والآن إلى بالفطور ، فإنى جائع . لقد نسيت معنى الطعام للمعدة الخاوية .. إلى بالكثير منه .. بالكثير .

ثم أردف قائلا واليساندرو يجرى نحو المطبخ :

— دعهم يأتوا بكل ما لديهم من طعام .

ولما رأت السنيورة فيليب منتصباً فى سريره ، متألق العينين ، مورد الوجه قوى الصوت ، مقبلا على الطعام كما كان من قبل ، تسمرت فى منتصف الشرفة برهة، ثم استدارت إلى اليساندرو وقالت بصوت مختنق من فرط التأثر :

— أسأل الله أن يكافئك .

ثم اختفت بسرعة إلى غرفتها . ولما خرجت ، كانت عيناها محمرتين .

وقد ظلت طوال اليوم تقوم بعملها وتتحدث برقة بالغة ، بل أكثر مما كان ينتظر منها . وحتى رامونا ، كانت تتحدث إليها فى غير توتر أو نفور ، ذلك أنها أحست كأنما هى امرأة بعثت من القبر .

وبعد ذلك ، بدأ الجميع يعيشون حياة جديدة ، وأصبح سرير فيليب

www.ibtesama.com

بالشرفة ، مناط كل شيء ، ورجاء كل شخص . فكان الخدم يأتون إلى ممر الحديقة بجوار الشرفة ، وينظرون إليه ، ويعربون عن تمنياتهم له بالشفاء ، وجوان كانيتو . عندما استطاع أن يطلع ، لأول مرة على العكازتين القويتين ، اللتين صنعهما له اليساندرو من الخشب الصلب ، أخذ يجر نفسه طيلة المسافة حول البيت ، ليلقى نظرة على فيليب ، ويتبادل معه كلمة . وكانت السنيورة تجلس هناك ، على مقعدها الكبير الوثير ، وتبدو كالتمثال ، بعصابة رأسها الحريرية السوداء المشدودة فى خط مستقيم على جبينها ، و بعينيها السوداوين ، المحملقتين عبر فيليب ، إلى الأفق الجنوبى البعيد . وكانت رامونا تعيش فى الشرفة أيضا ، جالسة بكتاب أو بقطعة تطريز ، على حشية أو على الأرضية ، فى ركن أو عند طرف سرير فيليب ، ساكنة دائما ، حريصة دائما ـ ودون أن يلحظ أحد ـ على أن تتخذ لنفسها مكانا تستطيع منه أن ترى فيليب ، دون أن تقع نظراتها على مقعد السنيورة ، حتى لو لم تكن السنيورة جالسة فيه .

وإلى الشرفة أيضا كان اليساندرو يأتى مرات عديدة فى اليوم ـ أحيانا يستدعى ، وأحيانا من تلقاء نفسه وكان فى كل حالة موضع الحفاوة والترحاب . وحين يعزف أو يغنى ، كان يجلس على أعلى درجة من الدرجات المؤدية إلى الحديقة . وكان له أيضا سره ، الذى يعتقد أن أحداً غيره لا يعرفه ، فيما يتعلق باختيار مكان جلوسه . كان يجلس دائما ، عند وجود رامونا فى الشرفة ، فى الموضع الذى يستطيع منه أن يملأ عينيه بالنظر إليها . ولكن سره لم يكن مقصوراً عليه فقط . كان فيليب يعرفه . ولم يكن ثمة شيء يغيب عن ملاحظة فيليب فى تلك الفترة . ولو أن قنبلة انفجرت عند أقدام الأشخاص الداخلين فى هذه الدائرة وهم

www.ibtesama.com

السنيورة ورامونا واليساندرو ، لما اندهشوا كما يمكن أن يندهشوا لو عرفوا الأفكار التى كانت تدور فى ذهن فيليب الآن ، من يوم إلى يوم ، وهو راقد فى سكون ينظر إليهم جميعا .

كان من المحتمل أن يمتلىء قلب فيليب بالغيرة الضارية لوكان فى موفور قوته وصحته عندما اكتشف فجأة حب اليساندرو لرامونا ؛ واحتمال حب رامونا له . ولكنه حين اكتشف هذه الحقيقة كان متهالكا ، ضعيفا ، يعتقد أنه لن يلبث أن يموت ، لأنه لم يكن يظن أن من الممكن أن يسترد الإنسان صحته وقوته بعد أن يبلغ به الضعف هذا المدى . وكان تفكيره فى رامونا يمتد جنبا إلى جنب مع هواجسه عن احتمال موته . ماذا سيحدث لها عندما يموت ؟ إنه يعرف تماما أن قلب الفتاة سينفطر حزنا عليه ، وأنها لن تستطيع أن تعيش بمفردها مع أمه . إن فيليب يحمل لأمه أعظم الحب ، ولكنه يدرك حقيقة مشاعرها نحو رامونا .

إن ضعف فيليب جعله ، كما يحدث عادة فى المرض الطويل ، أقدر على التفكير بصفاء ، وأبعد نظرا فى رؤيته للأمور . إن رامونا لم تعد تحيره ، إنه لم يعد يتساءل عن معنى نظراتها الطويلة المركزة إلى عينيه . لقد عرف الحقيقة . . عرف أنها تحبه كأخت ، وأنها لن تستطيع أن تحبه إلا بهذه الصفة . وتعجب فى نفسه لأن هذه الحقيقة لم تعد تؤلمه ، وإنما أثارت فى نفسه إحساسا رقيقا حزينا نحوها . لاشك أن هذا كله راجع ، كما خطر له ، إلى أنه سيموت فى وقت قريب . ولم يلبث أن بدأ يخامر نفسه إحساس جديد بطبيعة الحب الذى يحمله لرامونا ؛ بدأ يعود إلى حبه الأخوى الذى طالما شعر به نحوها وهما طفلان ، والذى لم تتغير طبيعته إلا عندما بلغا معا مرحلة الشباب . ولعل مما يثير العجب ذلك الإحساس

www.ibtesama.com

بالسكينة الذى غمر قلب فيليب عندما اتضح هذا كله له ، واستقر فى ذهنه . ولا شك أنه كان أكثر جزعا وخوفا على مصير أمه أكثر لما يظن ، ولعله كان جزعا أيضا كلما فكر فى الظروف التى أحاطت بمولد رامونا . ولكن هذا كله زال الآن . إن رامونا أخته ، وهو أخوها . فماذا ينبغى أن يفعل فى الموقف العصيب الذى يقترب الآن ؟ كيف يستطيع أن يساعد رامونا على خير وجه ؟ كيف يستطيع أن يساعد كلا منهما والساندرو على خير وجه ؟ لقد أمضى فيليب ساعات طويلة وهو يفكر ويدبر ويضع الخطط من أجلهما ، قبل فترة طويلة من تفكير اليساندرو فى احتمال زواجه من رامونا ، وقبل فترة طويلة من تفكير رامونا فى احتمال زواجها من اليساندرو . ولأول مرة يحس بعجزه عن التنبؤ بما سيكون عليه موقف أمه فى هذه الحالة . . كل ما يعرفه على وجه اليقين أن أمه لا يهمها فى قليل أو كثير سعادة رامونا أو صالحها . إنها ما كانت لتهتم لو أن رامونا خرجت فى اللحظة التالية من البيت لتتزوج أى صعلوك شريد . ولكن رامونا كانت ربيبة السنيورة أورتينا ، وهى تحمل اسم أورتينا ، وعاشت هنا كربيبة لآل مورينو . فهل تقبل السنيورة ، فى هذه الحالة ، أن تزوجها من شاب هندى ؟

إن فيليب يشك فى هذا . وكلما أمعن التفكير ، ازداد شكا . وكلما زاد من مراقبته للاثنين ، أدرك أن الموقف لا بد أن يحسم بسرعة ، لأنه قد يتبلور فى أية ساعة . وراح يضع الخطة بعد الأخرى لتأجيل الأزمة ، وليمد أمه لمواجهتها . ولكن فيليب لم يكن بطبيعته واسع الخيال ، وكان فى ذات الوقت واهن الجسم وأخذت الأيام تمر تباعا ، والحياة تزداد عذوبة فى الشرفة . وكانت رامونا تجلس إليه كثيرا ، وكانت تبدو أكثر رقة ، وأقل حزنا ، مما اعتاد أن يراها من قبل . وكان اليساندرو دائما تحت الطلب ، مستعدا لأداء أية خدمة سواء فى الحقل أو

www.ibtesama.com

البيت . وكانت موسيقاه متعة ، وقوته ووفاؤه نعمة ، ووجوده بينهم موضع الحفاوة دائما . ومن ثم كان فيليب يقول لنفسه :

- لو أن أمي فقط تدرك هذا . إن أفضل شيء لنا جميعا أن يبقى اليساندرو هنا مديراً للمزرعة ، ثم يتزوج راموناً . آه .. لعلها تدرك هذه الحقيقة قبل أن ينصرم الصيف .

وأخذ الجو الصيفي المعتدل الجميل يرفرف على الوادي ، فتحول الشمش إلى ذهب وتنضر الخوخ ، وامتلأت حبات العنب بالعصير فبدت كأنها حبات من الزبرجد المدلاة تحت أعراش الكروم ، واتخذت الحديقة لونا غامقا ، وتساقطت الورود ، ولكن كانت هناك الزنابق البيضاء ، وزهور البرتقال ، والقرنفل والجرومية في الأصص ، والمسك - أوه .. بعطره الفواح . لقد كان دائما كالسحر . السحر الذي يجعل فيليب عاجزا عن الاعتراف بأنه يكرهه ، رغم وجوده في الشرفة على مدار العام . ولكن النحل كان يهيم به ، والطيور الفريدة ، وأيضا الفراشات التي كان الجو مليئاً بها . وأصبحت الشرفة أكثر هدوءا بعد أن بلغ الصيف ذروته . وهدأت العصافير في أوكارها ، وكذلك الأطيار الفريدة ، وكانت السنيورة تقضي الساعات كل يوم ، بلا ملل ، وهي تطعم أمهاتها ، وامتدت أعواد الكروم إلى مداها ، وبلغت في الكثافة ذراها ، بحيث لم تعد هناك حاجة إلى تلك البطانية البهيجة الألوان التي كان اليساندرو قد ثبتها في أول يوم لتحجب الشمس عن رأس فيليب .

فما هو الفرق بين اليوم والغد في بقعة كهذه ؟ لقد ظل فيليب يقول لنفسه :

- سوف أتحدث مع أمي غداً . .

www.ibtesama.com

ويأتى الغد ، ويتلوه غد وغد ، ولكن فيليب لا يتحدث مع أمه بشأن رامونا واليساندرو .

وفى تلك الأيام الحلوة التى شهدتها الشرفة ، كان هناك رقيب آخر لا يفطن إليه فيليب . إنها مرجريتا . ذلك أنها كانت تراقب دائما حركات وسكنات كل من اليساندرو ورامونا فى أثناء قيامها بالعمل فى داخل البيت وفى خارجه ، وكانت فى انتظار الفرصة المناسبة . أما نوع الانتقام الذى تريده لها ، فلم تكن هى تعرفه . لم يكن هناك ما يدعوها لأن تدبره . وإنما كانت تنتظر أن يقع تلقائيا . وكانت واثقة بأن هذا الانتقام سوف يقع فى ذات ساعة ، من ذات يوم .

ولكن غضبها كان يتجاوز كل حد كلما رأتهم جميعاً فى الشرفة ، كما اعتادت أن تراهم كثيراً ، ينصتون إلى عزف اليساندرو على الكمان ، أو إلى غنائه الذى كان يؤديه ببساطة وحرية وكأنه فرد من أفراد الأسرة .

وكانت تقول لنفسها وهى تضغط على أسنانها :

— كفرد من أفراد الأسرة ؟ أهكذا عشنا حتى رأينا رئيس الرعاة يجالس سيدات البيت ويجلس بينهن كأنه ضيف عزيز ، حسنا ! سنرى . . سنرى إلام ينتهى هذا كله ؟

ولم تكن تدرى أى الاثنين تكره أشد : اليساندرو ، أم رامونا .

إنها منذ ذلك الذى حدث فى حقل الخرشوف ، لم تتحدث قط إلى اليساندرو كما كانت تتجنب رؤيته بقدر ما تستطيع . وكان اليساندرو آسفا من أجلها فى أول الأمر ، وقد حاول أن يكون ودودا معها . وقد قال لنفسه بمجرد أن تأكد

أن هـذا الحدث لم يترك فى نفس رامونا أثرا : « لاينبغى أن يكون الإنسان خشنا مع فتاة » وندم أشد الندم على دفعه مرجريتا بعيدا عنه ، وانتزاعه يده من يدها بعد أن قبل فى أول الأمر أن يتركها تأخذ يده فى يدها . ولكن سورة الغضب فى نفس مرجريتا لم تهدأ . لأنها كانت تدرك بوضوح المعنى الكامن وراء تودد اليساندرو ، وكانت تقول فى سخط ومرارة وهى تتذكر اللهجة المليئة بالخشوع التى ينطق بها اسم رامونا :

«دعه يتودد إلى السنيوريتا ، إنها تحبه دون أن يدرى هذا الأحمق. إنها على استعداد لأن تلقى بنفسها بين ذراعيه قبل مضى وقت طويل إذا استمرت الحال على هذا المنوال ــ ها ها . . لاينبغى أن تتحدثى هكذا عن الشبان يامرجريتا ؟ آه . . لم أكن أعرف بمذاك حقيقة مشاعرها . أراهن أنها لن تلومنى مرة أخرى ، هنا أو فى أى مكان . عليها اللعنة ؟ ماذا تريد من اليساندرو إلا أن تدير رأسه ، ثم تأمره بالابتعاد عنها ؟ »

وإنصافا لمرجريتا نقول إنها لم تكن تظن إطلاقا أن من الممكن زواج رامونا باليساندرو. كان الأمر لايعدو فى نظرها مجرد حب ينتهى بالغدر ، أو علاقة غرام لاتعدو نزوة عابرة كالتى قد تقوم بينها وبين أى واحد من الرعاة . كان أقصى ما يمتد إليه خيالها الغاضب فيما يتعلق بحب رامونا لاليساندرو . كان الأمر ، من وجهة نظرها ، غير مستبعد من هذه الناحية . أما الزواج ؟! إن من الممكن التساؤل هل تبدو فكرته فى نظر مرجريتا أعجب وأغرب مما تبدو فى نظر السنيورة ؟

وكانت مرجريتا تكاد تعرف كل ما يجرى بين اليساندرو ورامونا ، ذلك

www.ibtesama.com

لأنها كانت كالطيف ، هنا وهناك ، وفى كل مكان ، فى كل ساعة،وعيناها ترنوان — كما قالت لها أمها ذات مرة — فى كل اتجاه . وقد ازدادت تحركاتها سرعة ، بعد هذا الهدف الجديد والحافز الجديد ، وصارت ترى وتسمع أكثر مما كانت تفعل من قبل . والواقع أنه لم تكن غير ساعات قليلة هى التى لاتعرف فيها أين يكون اليساندرو ورامونا ، وكذلك كانت معظم المقابلات التى تتم بينهما إما أن تراها و إما أن تخمن مضمونها .

ولم يكن هذا كله مثارا للعجب فى بيت تسير الحياة فيه رتيبة بسيطة مثل بيت السنيورة ،ومع ذلك كانت مرجريتا تبذل الكثير من الجهد ،وتحرص على الانتباه واليقظة الدائمة.وحتى فيليب ، الذى كان يحسب أنه يراقب كل شىء من مكانه فى الشرفة، والذى كان على علاقة مودة مع رامونا ، لماتمالك نفسه من الدهشة البالغة لو سمع كل ما يمكن أن تقوله له مرجريتا ، وكانت رامونا نفسها قد أخبرته فى الأيام الأولى ، بالشىء الكثير ، فى براءة وسذاجة — أخبرته بأن اليساندرو حين رآها تحاول أن تنثر المـــاء لتنعش نبات السرخس الذى كانت تجمل به الكنيسة الصغيرة استعدادا لمقدم الأب سالفيرديرا ، قال : «أوه ، سنيوريتا ،إن هذا النبات قد مات ، فلا داعى للتعب ، لسوف آتيك بأعواد أخرى ناضرة » ثم كيف رأت فى اليوم التالى عند باب الكنيسة ، كومة من نبات السرخس لم يسبق أن رأت لها مثيلا من قبل : أعواداً طويلة كأنها ريشات نعام ، تبلغ ستا أو ثمانى أقدام ، والشعيرات ناعمة كجدائل عذراء والأعواد ذهبية وفضية وأطول مرتين من أية أعواد أخرى لنبات السرخس . فلا عجب أن بدت الكنيسة جميلة ، كأنها حديقة معلقة ، بعد أن وضعت هذه الأعواد فى الآنيات وحول حاملات الشموع .

www.ibtesama.com

وكان اليساندرو أيضا هو الذى جمع تيجان بذور الخرشوف المختلفة من العام الماضى أو التى نجت من وطء الماشية لها ؛ ثم أحضرها إليها قائلا فى خجل إنها قد تكون أجمل من الأزهار المصنوعة من الورق . وقد قال إن قومه يصنعون منها الأكاليل . و كانت فى الواقع أجمل من أية أزهار مصنوعة من الورق ؛ إذ أنها أقراص كبيرة مكونة من خيوط ناعمة كالحرير ، تحيط بها ما يشبه الهالة المصنوعة من أطراف مدببة لامعة كالساتان ، عاجية اللون . ومن دواعى العجب الشديد أن أحداً لايلتفت إليها وهى ملقاة على الأرض . ولقد صنعت منها إكليلا كبيرا وضعته حول رأس تمثال القديس جوزيف ، كما وضعت باقة منها فى يد تمثال العذراء . ولما رأت السنيورة هذا ، ندت عنها غمغمة دهشة وقالت إن هذه الأزهار كأنها مصنوعة من الحرير والساتان .

وكذلك أحضر لها اليساندرو سلالا من صنع أيدى النساء الهنديات فى بالا ، وواحدة جاء بها من الشمال ، من منطقة تيولار — وكانت مصنوعة من ريش بهيج الألوان منسوج مع شرائح البوص ، أحمر اللون وأصفر فى صفوف متخالفة محيطة بالسلة ، حتى بدت كأنها كلها مصنوعة من ريش الطيور ذات الألوان البهيجة .

وكذلك أحضر اليساندرو إناء من الحجر ، أسود اللون مصقولا ، عثر به وحمله صديق له طيلة المسافة من جزيرة كاتالينا . وبدا فى الأسابيع القليلة الأولى أنه لايكاد يمضى يوم دون أن يقدم اليساندرو لها مايعرب عن اهتمامه بها وتفكيره فيها وولائه لها . وكثيرا ماتحدثت رامونا أيضا عما كان يقوله اليساندرو لها — حكايات عن أيام الإرسالية التى سمعها من أبيه ، وقصص القديسين والآباء الرواد ،

www.ibtesama.com

الذين كانوا أقرب إلى القديسين منهم إلى الرجال ، ومنهم — كما قال اليساندرو — الأب جونيبيرو الذى أسس أول إرسالية ، وصديقه الأب كريسبى . وكان جد اليساندرو قد سافر مع الأب كريسبى كخادم له . وقد شاهد بعينيه كثيرا من المعجزات التى قام بها الأب كريسبى . وكان هناك قدح اعتاد أن يشرب فيه الأب سائل الشيكولاتة كل صباح — قدح جميل يحمل فى صندوق ، وكان هو الشىء الوحيد الذى ينم عن الترف فى حياة الأب . وفى ذات صباح ، انكسر القدح ، وأصيب الجميع بالجزع واليأس ، ولكن الأب قال : « لاعليكم ، لاعليكم لسوف أعيده إلى ما كان عليه » ثم تناول بيديه قطعتى القدح ، وضغطهما إلى بعض ، وتمتم بالصلوات عليها ، وإذا القدح يعود إلى حالته الطبيعية ، ويظل مستعملا طيلة الرحلة كما كان من قبل .

أما الآن ، فإن رامونا لم تعد تتحدث عن اليساندرو قط من تلقاء نفسها ، وإذا وجه فيليب أحيانا بعض الأسئلة عنه ، بلباقة ، أو ألمح إليه ، أجابت بإيجاز ، دون أن تستطرد فى الحديث عنه إطلاقا . ولاحظ فيليب شيئا آخر . . لاحظ أنها لم تعد قط تنظر إلى اليساندرو . فإذا كان يتحدث مع آخرين ، حرصت على أن تغضى بعينيها إلى الأرض . وإذا تحدث إليها ؛ نظرت إليه بسرعة ، ثم أغضت بعينيها . وقد لاحظ اليساندرو هذا ، وابتهج له ، لأنه فهم الحقيقة ، وكان يعرف كيف تنظر إليه بإحساس مختلف تماما فى اللحظات القليلة التى ينفردان فيهامعا . وكان يظن ، بابتهاج ، أنه وحده الذى يعرف هذا . ولكنه كان مخطئا لأن مرجريتا كانت تعرف أيضا ، إذ أنها رأت هذه النظرات أكثر من مرة .

وقد حدث أكثر من مرة أنه وجد رامونا تحت أشجار الصفصاف عند

www.ibtesama.com

النبع ، فوقف يتحدث معها هناك . وكانت المرة الأولى التى التقيا فيها على هـذا النحو ، مجرد مصادفة . وبعد ذلك انتفى عنصر المصادفة تماما ، ذلك لأن اليساندرو كان يذهب دائما إلى تلك البقعة آملا أن يرى رامونا . أما هى فكانت تذهب يدفعها شعور غامض ، لا حيلة لها فيه ، إلى تلك البقعة ، فإذا لم تجده بها ، فحسبها أن تجد فيها ذكرى أول لقاء تم بينهما . وكانت بقعة جميلة ، رطيبة ظليلة حتى فى ساعة الظهيرة ، كما أن الماء الجارى كان لخريره نغم لموسيقى . وكثيرا ما كانت رامونا تركع هناك ، تغسل منديلا أو قطعة مخرمات . فإذا رآها اليساندرو ، عجز عن تمالك نفسه للبقاء بعيدا . وفى تلك اللحظات كانت ترتد إليه بوضوح شديد صورة رؤيته لها أول مرة فى غروب ذلك اليوم الأول ، ذلك أنه حسبها ، فى اللحظة الأولى وفى ضوء الشمس الغاربة ، أنها لاتكاد تكون من البشر . ولا يعنى هذا أنه لا يراها الآن أقل من قديسة ، ولكن ، آه . . ما أشد يقينه الآن بآدميتها ! لقد ذهب بمفرده ، فى الظلام ، إلى تلك البقعة مرات عديدة ، ورقد على العشب ووضع يديه فى الماء الجارى ، وداعبه حالما ، مداعبا بطريقة الهنود الشاعرية ، أفكارا كهذه « إلى أين ذهبت القطرات التى مرت هنا ، تحت يديها ! هذه القطرات لن تجد أبدا مثيلا لها فى البحر — ولكننى أحب هذا الماء » .

ورأته مرجريتا راقدا على هذا النحو ، وكانت تقول لنفسها ، دون أن يخطر ببالها شىء من هذا الإحساس الشاعرى الرقيق الذى كان يجيش فى صدره : «آه . . إنه يأمل أن تحضر السنيوريتا إليه . إنه مكان جميل للقاء سيدة بحبيبها — مغسل الثياب ! إن مياه النبع كلها أيتها السنيوريتا رامونا لن تكفى لتطهيرك فى نظر السنيورة ، لو أنها جاءت ورأتك هكذا مع رئيس الرعاة ، تتبذلين — آه . . لو أمكن فقط أن يحدث هذا ، لمت راضية » وكلما زادت مرجريتا

من رقابتهما ، زاد أملها فى أن هذا قد يحدث فعلا . وكانت رامونا تلتقى باليساندرو تحت أشجار الصفصاف أكثر من لقائها به فى أى مكان آخر . وقد لاحظت مرجريتا بخبث شديد ، أن أحاديثهما كانت تزداد طولا فى كل مرة ، وأنهما كانا يفترقان على مضض ، فكثيراً ما كانا يتأخران إلى قرب موعد العشاء ، وكانت مرجريتا تحوم عندئذ بالقرب من السنيورة ، آملة أن تأمرها باستدعاء السنيوريتا للعشاء .

« آه لو أننى فاجأتهما وقلت لها كما قالت لى : إنهم يريدونك فى البيت» إذن لامتلأ قلبى بالسعادة ، لأنى سأقول هذه العبارة بحدة أقسى من لذعة السوط على وجهيهما . ولكن الوقت سيأتى.. سيأتى الوقت الذى أفاجئهما فيه وهى ناعمة بهذا اللقاء ! وسوف أنتظر ! سوف أنتظر ! وسوف يأتى الوقت » .

www.ibtesama.com

(١٠)

وجاء الوقت . . ولما جاء ، حدث لراموونا أسوأ مما كانت تمتد إليه آمال مرجريتا الشريرة وتصوراتها . ولكن لم يكن لها يد فيما حدث ، وإنما كانت يد السنيورة .

فمنذ استرد فيليب صحته بحيث أصبح قادراً على ارتداء ملابسه ، والجلوس على مقعد فى الشرفة ، والتمشى قليلا حول البيت أو فى الحديقة ، عادت السنيورة بعد أن اطمأنت عليه ، إلى سابق عادتها فى السير بمفردها مسافات طويلة بالمنطقة . وقد صدق خدمها فى قولهم إنه لا توجد بقعة عشب واحدة فى المزرعة كلها لم تطأها قدما السنيورة . كانت تعرف كل شبر فى مزرعتها . وكانت تتجول فيها الآن لغرض معين . كانت تفكر فى اهتمام ، فيما إذا كان ممكناً أن تبيع لآل أورتيجا جزءاً من المراعى التى يتمنون شراءها لاتصالها بمراعيهم ..

www.ibtesama.com

وكان ذلك المرعى أبعد عن بيت السنيورة مما كانت تظن . ومن ثم أخذ من وقتها فى الوصول إليه أكثر مما قدرت وهكذا . كانت الشمس توشك على الغروب فى ذلك اليوم الخطير ، عندما انحرفت ، وهى مسرعة فى طريق العودة إلى البيت ، نحو الممر القصير الذى التقى فيه الأب سالفيرديرا براموونا فى الربيع . ولم يكن ثمة مشقة الآن فى السير بين أعواد الخردل بعد أن جفت ووطئت بحوافر الماشية . ورغم سرعة السنيورة فى السير ، فقد وصلت إلى أشجار الصفصاف فى شفق الغروب . وبلغ من غبشة المساء ، أنها لم تستطع أن ترى شيئاً وهى تسير بخفة تند عن الأسماع ، حتى وجدت نفسها فجأة وجها لوجه مع شاب وفتاة واقفين متعانقين فتوقفت ، ثم تراجعت قليلا ، وهتفت فى دهشة ، ورأت فى نفس اللحظة وجهى الحبيبين اللذين تسمرا فى مكانهما مفترقين يحملقان فى وجهها صامتين .

ومن العجيب أن رامونا هى التى بدأت الحديث . لقد أخرسها الخوف على نفسها ، أما الخوف على اليساندرو فقد حل عقدة لسانها وجعلها تقول :

— السنيورة .

فهتفت السنيورة قائلة :

— اخرسى أيتها المخلوقة الفاجرة ! حذار أن تلفظى بكلمة ، وهيا إلى غرفتك .. ولم تتحرك رامونا ، واستدارت السنيورة إلى اليساندرو وبدأت تقول :

— أما أنت .. أنت .

www.ibtesama.com

ثم صمتت وكادت تستطرد قائلة « أنت مطرود من الخدمة فوراً » ولكنها تمالكت نفسها فى الوقت المناسب وقالت :

— سوف تسأل عن هذا التصرف أمام السنيور فيليب . اغرب عن وجهى .

وللمرة الأولى فى حياة السنيورة ، تصيح وهى تفقد زمام أعصابها وتضرب الأرض بقدمها :

— اغرب عن وجهى .

ولم يتحرك اليساندرو ، وإنما التفت إلى رامونا بنظرات متسائلة ، وكان قد أزمع ألا يغامر بشىء دون إذن منها . ولم يكن يعرف كيف ستحسن التصرف فى هذه المحنة الرهيبة .

وقالت رامونا بهدوء وهى لاتزال محدقة النظر الى وجه السنيورة :

— انصرف يااليساندرو .

وقبل أن تفرغ من عبارتها ، كان اليساندرو قد انصرف .

وكان ثبات رامونا ، وانتظار اليساندرو لأوامرها دون أى اهتمام بالسنيورة ، أكثر مما تطيق ، ومن ثم اندلعت فى نفسها سورة من الغضب لم يسبق لها مثيل منذ أيام صباها . ولما فتحت رامونا فمها لتحدثها ، إذا بالسنيورة ترتكب عملا مخجلا ، فتصفع الفتاة على فمها بكل قسوة ، قائلة لها وهى تمسك بذراعها وتدفعها أمامها فى ممر الحديقة :

www.ibtesama.com

— لاتوجهى إلى أى حديث .

وقالت راموونا بنفس الصوت الهادىء :

— إنك تؤلمين ذراعى ياسنيورة ، ولا داعى لأن تمسكى بى،لأنى سأمضى معك ، واست خائفة .

أهذه رامونا ؟ إن السنيورة ، وقد شعرت بالخجل ، تطلق ذراعها وتحملق فى وجهها ورأت حتى فى شفق المساء ، أمارات شفافة من السكينة والهدوء ، ترين على وجه الفتاة ، مقرونة بسمات من الحزم الذى لم يخطر ببال أحد أنه من صفاتها . وقالت السنيورة لنفسها وهى لاتزال ترتعد من فرط الغضب « ما معنى هذا ؟ هذه الفتاة ؟ هذه المنافقة ؟ » ثم عادت وأمسكت بذراعها .

ولم تحاول رامونا فى هذه المرة أن تقاوم ، وإنما تركت السنيورة تقودها كأسيرة ، وتدفع بها إلى غرفتها ، وتصفق عليها الباب بعنف ، وتغلقه من الخارج بالمفتاح .

ورأت مرجريتا هذا كله . وكانت منذ ساعة تعرف أن رامونا واليساندرو يجتمعان تحت شجر الصفصاف ، وكانت تتحرق شوقا لعودة السنيورة من تجوالها ، وقد ذهبت أكثر من مرة إلى فيليب وسألته فى اهتمام مصطنع إن كان جائعا ، وهل يريد أن يتناول العشاء مع السنيوريتا .

وكان فيليب يقول لها، وقد حدث أن عرف هو أيضا،أين راموناواليساندرو:
— لا لا .. سأنتظر عودة السنيورة .

www.ibtesama.com

وكان يعرف أيضا أين ذهبت أمه ، وأنها سوف تعود فى ساعة متأخرة من النهار . ولكن لم يخطر بباله قط أنها ستعود عن طريق أشجار الصفصاف عند النبع . لأنه لو عرف هذا ، لسعى إلى استدعاء رامونا .

ولما رأت مرجريتا السنيورة الشاحبة الغاضبة تدفع رامونا إلى الغرفة ، وتغلق الباب من الخارج وتضع المفتاح فى جيبها ، ألقت بطرف وشاحها على رأسها ، وانطلقت إلى الشرفة الخلفية وقد استبد بها إحساس من الندم . وتذكرت كم من المرات عاونتها رامونا وحمتها من غضب السنيورة ، وقالت لنفسها وهى تتذكر حادث كساء المذبح : « ياسيدتى العذراء ماذا سيحدث لها » ولم تكن مرجريتا تدرك أن الأمر سيبلغ هذا المدى . كل ما كانت تتوقعه أن تتعرض رامونا لحلة من اللوم والتوبيخ بسبب علاقتها باليساندرو ، أما الآن ، فإن الأمر يبدو لها كما لو أن السنيورة تنوى ذبحها .

وقالت مرجريتا لنفسها متذكرة :

« إنها دائماً تكره السنيوريتا . ولكنها لن تدعها تموت جوعاً على كل حال . إننى لن أسمح بمثل هذا . ولكن لابد أن السنيورة رأت شيئاً خطيراً مما جعلها تأتى برامونا على هذا النحو » .

وهنا تغلبت مشاعر الغيرة فى قلب مرجريتا على إحساسها بالعطف ، فعادت تقول لنفسها :

« هذا ما تستحقه . نعم .. هذا ماتستحقه بسبب عبثها مع شاب شريف مثل اليساندرو يصلح لأن يكون زوجاً طيباً لأية فتاة » .

www.ibtesama.com

وهكذا تلاشى الندم القصـــير الأمد من قلب مرجريتا ، وارتد إليه الشعور بالعداء .

وكان من المفارقات العجيبة نظرة كل من مرجريتا والسنيورة إلى الموقف : إذ كانت السنيورة تنظر إليه من أعلى ، ومرجريتا تنظر إليه من أسفل ، وكل منهما واثقة ، كل الثقة ، أن ماحدث ليس إلا شيئاً يجلب العار . أى إن السيدة والخادم كانتا متساويتين فى العجز عن تخمين حقيقة الموقف ، أو تصديق هذه الحقيقة إذا عرفتاها .

وشاء سوء الحظ ، أو ربما حسن الحظ ، أن يرى فيليب أيضاً ما حدث فى ممر الحديقة . إذ أنه حين سمع لغط الأصوات ، نظر من نافذته ، وكاد يشك فى حواسه حين رأى أمه تجر رامونا بعنف من ذراعها ، ورامونا تبدو هادئة وإن كانت للعجب شاحبة الوجه ، فى حين كانت سورة الغضب قد حسرت الدماء كلها عن وجه أمه . وأدرك فيليب حقيقة الموقف ، وضرب جبينه بيده وتأوه قائلا :

« ما أغبانى إذ تركتها تتعرض لهذه المفاجأة ! لابد أنها فاجأتهما . إنها الآن لن تغفر ... لن تغفر أبدا » ثم ألقى بنفسه على فراشه ، وراح يفكر فيما ينبغى أن يفعل ، وبعد لحظات سمع أمه تناديه وهى لاتزال منفعلة ، وظل صامتا وهو واثق أنها سوف تبحث عنه فى غرفته . فلما أقبلت ورأته على الفراش ، أسرعت إليه قائلة :

— فيليب .. ياعزيزى .. هل أنت مريض ؟

فأجاب بصوت واهن :

— لا يا أماه ، ولكنني متعب بعض الشيء هذه الليلة .

ولما انحنت عليه في جزع وقلق ، لف ذراعيه حول عنقها وقال بحرارة وهو يقبلها :

— أماه . ماذا يمكن أن أفعل بدونك ؟

ونزلت هذه الكلمات العذبة الحبيبة كالبلسم على الجرح ، فهدأت نفس السنيورة أكثر من أي شيء آخر ، إذ ماذا يهمها مادام معها ابنها هذا الحبيب المحبوب ؟ إنها لن تتحدث إليه الآن ما دام متعبا فيما يتعلق بذلك التصرف المخجل المزعج الذي صدر من اليساندرو ويمكن الانتظار إلى الغد . وسوف ترسل إليه عشاءه في غرفته ، ولعله لا يفطن إلى غياب رامونا . ومن ثم قالت له :

— سوف أرسل العشاء إليك هنا يا فيليب . لا يجب أن تجهد نفسك . لقد كنت تتمشى أكثر من اللازم . استرح .

وبعد أن قبلته بحنان ، ذهبت إلى غرفة الطعام حيث كانت مرجريتا وهي واقفة على أهبة الاستعداد تحاول عبثا أن تعرف ، ما إذا كان قد حدث شيء ! ولكن عندما دخلت السنيورة بوجه هادىء ، وقالت بصوتها العادي «مرجريتا! يمكنك أن تحملي العشاء إلى السنيور فيليب في غرفته لأنه راقد يستريح ، ولن يغادرها الآن ، لأنه يشعر بالتعب» — عندما حدث هذا ، خيل إلى مرجريتا أنها تعيش في حلم مزعج . ألم تر بعينيها كيف كانت السنيورة في نصف الساعة الأخير ترتعد من فرط الغضب ، وتدفع السنيوريتا رامونا إلى غرفتها وتغلق عليها

www.ibtesama.com

الباب بالمفتاح من الخارج ؟ لقد بلغ من فرط شعور مرجريتا بالحيرة أنها تسمرت فى مكانها ، وأخذت تحملق فى وجه السنيورة بفم مفتوح .

وسألتها السنيورة بصوت حاد جعل الفتاة تقفز من مكانها :

— إلى أى شىء تحملقين هكذا ؟

— لاشىء . لاشىء ياسنيورة ، والسنيوريتا ؟ هل ستحضر للعشاء ؟ هل أستدعيها ؟

ورمقتها السنيورة متسائلة : هل رأت شيئاً ؟ هل يمكن أن تكون قد رأت شيئا ؟ لقد استردت السنيورة مورينو طبيعتها مرة أخرى . فما دامت راموتا تعيش تحت سقف بيتهـــا ، فلن يكون للخدم أى حق فى معاملتها بغير احترام أو أن يعرفوا شيئاً ، مهما قالت هى لها ، أو فعلت بها ، وأخيراً قالت ببرود :

— إن السنوريتا ليست على مايرام . إنها فى غرفتها ، وسوف أحمل لها الطعام بنفسى بعد قليل إذا أرادت . لاداعى لإزعاجها .

ثم عادت إلى فيليب .

وضحكت مرجريتا لنفسها ، وشرعت فى رفع ما أعدته على المائدة منذ ساعتين قصيرتين . ولكن ما أخطر الأحداث التى وقعت فى خلال هاتين الساعتين القصيرتين .

www.ibtesama.com

وقالت مرجريتا الحاقدة لنفسها :

ـــ أعتقد أن السنيوريتا لن تكون لها شهية لتناول العشاء الليلة.. وكذلك السنيور اليساندرو ، لشد ماأحب أن أعرف كيف حاله الآن .

ولكنها لم تستطع إرضاء فضولها ، لأن اليساندرو لم يأت إلى المطبخ . وكان آخر الرعاة قد حضر للأكل وانصرف ، وتجاوزت الساعة التاسعة دون أن يأتى اليساندرو . وتسللت مرجريتا بحذر إلى الخارج ، وراحت تبحث عنه فى الأماكن التى اعتاد أن يرتادها . ولكنها عبثا حاولت وقد كادت فى أثناء بحثها أن تحتك بالمكان الذى يختبىء فيه بحيث ظن أنها ستعثر عليه ، وفتح فمه ليتحدث إليها ، ولكنه ، لحسن حظه ، تمالك نفسه ، وانصرفت بعيداً عنه .

وكان اليساندرو مختبئاً وراء خميلة الجروميه عند باب الكنيسة الصغيرة ، جالساً على الأرض وركبتاه مرفوعتان إلى ذقنه ، ونظراته لاتفارق نافذة غرفة رامونا . وكان ينوى أن يبقى هكذا طيلة الليل ، فإذا احتاجت رامونا إليه ، فسوف تفتح نافذتها وتدعوه ، أو تخرج منها وتسير فى ممر الحديقة إلى أشجار الصفصاف ، وفى كلتا الحالتين سيمكنه أن يراها من مخبئه هـــذا المختار ، وكان مشحونا بالانفعالات المتضاربة ، فهو حيناً يكاد يفقد عقله من فرط السعادة ، وحينا يشعر بالألم يعتصر قلبه خوفا وجزعا ، إن رامونا تحبه ، هكذا قالت له . قالت إنها على استعداد للرحيل معه لتكون زوجة له ، ولم تكد هذه الكلمات الحلوة تند عن شفتيها حتى فاجأتهما السنيورة فى تلك اللحظة المشئومة . وكان كلما استعاد هذا الموقف فى ذاكرته خامره إحساس متساو من البهجة والجزع .

www.ibtesama.com

ماذا تنوى هذه السنيورة الرهيبة أن تفعله ؟ لماذا وجهت إليه وإلى رامونا كل هذه النظرات التى تنم عن الازدراء ؟ وما دامت تعتقد أن السنيوريتا نصف هندية ، فلماذا ترى أن من الفظاعة زواجها من شاب هندى ؟ ولم يخطر ببال اليساندرو أن السنيورة يمكن أن تفكر فى شىء آخر حين رأتهما فى تلك الحالة ، متعانقين ، ومرة أخرى ماذا فى مقدوره أن يقدم لرامونا ؟ هل تستطيع أن تعيش فى البيت الذى لابد أن يعيش هو فيه ؟ أن تحيا حياة نساء تيميكيولا ؟ لا ؟ إن عليه ، من أجلها ، أن يهجر قومه ، وعليه أن يرحل إلى إحـــدى المدن ، وعليه أن يبحث عن شىء ، أى شىء ، يكسب منه مالا ' واعتصره الألم وهو يصور لنفسه منظر رامونا حين تعانى الفاقة معه . وكلما أمعن التفكير فى المستقبل على هذا الضوء ، تلاشت البهجة من قلبه ، ونمـا الخوف مكانها . إن آماله لم تصل إلى التفكير فى أنها ستغدو زوجته يوما ، ولهذا لم يفكر فى تفاصيل حياته المادية معها . لقد ظل يحبها والآمال والأحلام الغامضة تداعب خياله فقط. أما الآن ، فقد تغير كل شىء فى لحظة واحدة ، فى لحظة واحدة تحدث هو ، وتحدثت هى ، ولم يعد فى الإمكان الرجوع إلى الحالة التى كانا عليها قبل هذا الحديث . وأكثر من هذا لف ذراعيه حولها ، وأحس برأسها على كتفه ، وقبلها نعم . إنه هو ، اليساندرو ، قبل السنيوريتا رامونا ، وكانت سعيدة بقبلته . وقد ردتها بقبلة على شفتيه ، وهذا مالا تفعله فتاة إلا مع الرجل الذى سيتزوجها ـ معه هو اليساندرو ، فلا عجب أن دار رأسه وهو جالس فى سكون الليل نهباً للحيرة والخوف والعجز — لقد انتزع الحب منه عند أول قبلة — انتزع الحب منه وصدر الأمر إليه ، من الإنسانة التى من حقها أن تأمره بالرحيل . فماذا فى وسع شاب هندى أن يفعل أمام سيدة من آل مورينو ؟

www.ibtesama.com

هل يمكن أن يساعده فيليب ، آه . . إن هناك فيليب ، وإن اليساندرو ليؤمن بصداقة فيليب له ، إيمانا غريزيا ، كغريزة الطير الذي يهاجر من بلد إلى بلد ليضع البيض ، ولكن هل يستطيع فيليب أن يؤثر في السنيورة ، هذه السنيورة الرهيبة ، ترى أى مصير في انتظارهما .

في لحظات الغرق ، يرى الإنسان ، كما يقال ، شريط حياته كلها ، هكذا الأمر كان مع اليساندرو في هذه اللحظة التي بلغ فيها حبه الذروة ، لقد أخذت تمرق بذهنه في وضوح ساطع ، صور علاقته براموناً . . كل كلمة . . كل نأمة . . منذ عرفها لأول مرة .

لقد تذكر لهجة حديثها ، والدهشة التي كانت في اللهجة ، حين قالت له عند سقوط فيليب في كيس الصوف « إنك اليساندرو .. أليس كذلك ؟ » ثم سمع بذاكرته ، مرة أخرى ، ابتهالاتها الهامسة في الليلة الأولى التي قضاها فيليب بالشرفة . وتذكر حزنها الرقيق عندما علمت أن رجاله لم يتناولوا طعام الغداء ، وجزعها الشديد لمجرد تذكيرها في أن إنساناً ما أمضى سحابة نهاره بلا طعام . وقال لنفسه : « يا إلهي ! هل يمكن أن نجد دائماً ما نأكله كل يوم إذا جاءت معي ؟ » وعند هذا الخاطر شعر بالاستعداد لأن يهرب منها إلى الأبد . ثم تذكر نظراتها وكلماتها قبل ذلك ببضع ساعات . عندما قال لها ، لأول مرة ، إنه يحبها. وعاد الأمل إلي قلبه عندما تذكر قولها له : « إنني أعرف أنك تحبني يا اليساندرو. وأنا سعيدة بذلك ». ثم رفعت إلى عينيه عينين ممتلئتين بكل ما يمكن أن تمتلىء به عينا المرأة من حب الرجل . ولما لف ذراعيه حولها ، اقتربت منه بإرادتها ،

www.ibtesama.com

ووضعت إحدى يديها على كتفه ، واستدارت بوجهها إلى وجهه . آه ، ماذا يهم بعد ذلك ، إن هـذا هو العالم كله . وما دامت تحبه هكذا ، فلن يوجد الشيء الذى يشقيه . لسوف يكفيها حبه لها . . أما حبها له ، فهو فى نظره أثمن من مملكة .

وكانت هذه هى الحقيقة رغم أن السنيورة أو مرجريتا ما كانت لتصدقها . الحقيقة على أن تلك هى أولى كلمات الحب التى تبادلها اليساندرو وراموna ، وأول عناق تبادلاه ، وأول لحظة تحررا فيها من التحفظ والخجل . لقد حدث هذا كله ، شأن أول حديث حب بين عاشقين ، وأول عناق ، على غير انتظار ، وبلا أى تمهيد ، تماما كما تتفتح الزهرة فى لحظة ، وكان اليساندرو يخبر رامونا بالحديث الذى دار بينه وبين فيليب بشأن بقائه فى المزرعة ، ويسألها عما إذا كانت تعرف شيئاً عن هذا الموضوع ، وقد قالت عندئذ :

— نعم . سمعت السنيورة تتحدث فى هذا الشأن مع فيليب منذ أيام .

فسألها اليساندرو بسرعة :

— وهل كانت ضد هذه الفكرة ؟

— لا أظن ، ولكننى غير متأكدة . إذ ليس من السهل أن يتأكد الإنسان من رغبات السنيورة إلا فيما بعد . كان الاقتراح من جانب فيليب .

ولم يستطع اليساندرو أن يفهم حديث رامونا عن الصعوبة فى فهم نوايا السنيورة ، ومن ثم قال :

— إننى لا أفهم يا سنيوريتا ماذا تعنين بقولك « إلا فيما بعد » ؟

ـــ أقصد أن السنيورة لا تقول لأحــد إنها تنوى أن تفعل شيئاً ، وإنما هى تترك تقرير الأمور لفيليب أو للأب سالفيرديرا . ولـكننى أعتقد أن كل شىء يتم حسب رغبتها رغم هذا كله ، إن السنيورة رائعة يا اليساندرو ، ألا ترى هـذا ؟

فأجاب اليساندرو مراوغا :

ـــ إنها تحب السنيور فيليب أشد الحب .

ـــ أوه ، نعم . إنك لا تستطيع أن تعرف كم تحبه . إنها لا تحب أى مخلوق آخر سواه . إنه يمتص كل حبها ، بحيث لم يعد فيه بقية لأحد آخر . فإذا مات ، فسوف تموت هى أيضاً . وهـذا سر حبها إياك ، إنها تعتقد أنك أنقذت حياة فيليب ، وهذا من بين الأسباب .

وابتسمت رامونا وهى تنظر فى ثقـة إلى اليساندرو الذى ابتسم بدوره ، لا زهوا ، وإنما شكراً على سرور السنيوريتا لـكونه موضع التقدير من السنيورة ، وقال أخيراً :

ـــ إننى لا أظن أنها تحبنى ، ولست أدرى لماذا . ولـكننى أعتقد أنها لا تحب أحداً فى هذه الدنيا . إنها ليست كأى إنسان أعرفه يا سنيوريتا .

فقالت رامونا مفـكرة :

ـــ لا . . إنها ليست كأى إنسان . وإننى أخشاها يا اليساندرو .. أخشاها دائماً منذ كنت طفلة صغيرة . وكنت أعتقد أنها تـكرهنى ، ولـكننى أعرف الآن أنها لا تهتم بأمرى ما ابتعدت عن طريقها .

www.ibtesama.com

وفيما كانت رامونا تنطق هذه الكلمات ، كانت نظراتها مركزة على الماء الجارى عند قدميها ، ولو أنها رفعت عينيها لرأت فى الأمارات التى تنم عليها نظراته وهو ينصت ، أن لحظة المكاشفة بالحب التى كانت تقترب ، تزداد عندئذ اقترابا بأقصى سرعة . ولكنها لم ترفع عينيها ، وإنما استطردت تقول وهى لا تدرى إلى أى حد تجعل المكاشفة بالحب تبدو عسيرة أمام اليساندرو :

— كم من مرة جئت فيها إلى هذا النبع ليلا ، ونظرت إليه ، وتمنيت لو أنه كان كبيراً كالنهر فأستطيع أن ألقى بنفسى فيه ليحملنى تياره إلى البحر ، جثة هامدة . ولكن الانتحار — كما يقول الأب سالفيرديرا — خطيئة رهيبة . فإذا أسفر الصباح فى اليوم التالى ، وغردت الأطيار أحسست بالسعادة لأننى لم أفعل هذا . هل شعرت يوما بمثل هذه التعاسة يا اليساندرو ؟

فرد اليساندرو قائلا :

— لا يا سنيوريتا . أبداً . وإنه لعار كبير ، فى رأى قومى ، أن يقتل المرء نفسه . وأعتقد أننى لا أستطيع أن أفعل هذا قط . وإنه لمن الحزن جداً أن تكونى غير سعيدة . هل تشعرين دائماً بالشقاء ؟ هل من المحتم أن تبقى هنا دائماً ؟

فقالت رامونا بضحكتها الصغيرة المشرقة :

— أوه ، ولكننى لست دائماً غير سعيدة . بل إننى فى الواقع سعيدة بصفة عامة . وإن الأب سالفيرديرا يقول إن الإنسان يظل سعيداً دائماً مادام لا يرتكب إحدى الخطايا ، وإن من الخطايا ألا يسعد المرء فى كل ساعة من اليوم

www.ibtesama.com

بالشمس ، و بالسماء ، و بالعمل الذى ينبغى أن يؤديه هنا . . وما أكثره .

ثم مرت بوجهها سحابة خفيفة وهى تستطرد قائلة :

— أعتقد أنى سأبقى هنا دائما ، لأنه لا يوجد لى مأوى فى مكان آخر ، فأنت تعرف أنى ربيبة أخت السنيورة ، ولما ماتت الأخت وأنا صغيرة ، تكرمت السنيورة ورعتنى . والأب سالفيرديرا يقول إنه لا يجب أن أجحد فضل السنيورة على ، ولا أن أحاول هذا يوما .

ونظر اليساندرو إليها بإمعان وتذكر كل ما حدثه به المسن چوان كانيتو عن مولد هذه الطفلة ، وتمنى لو صاح قائلا : « أوه يا حبيبتى ، لقد جعلوك شريدة فى بلادك . إنهم يحتقرونك ، لأن دماء قومى فى عروقك . تعالى إلى . . تعالى إلى لأحيطك بحبى » .

ولكنه لم يجرؤ أن يقول هذا و كيف يجرؤ ! ؟

وبدا كأن شيئاً غريبا قد أطلق لسان رامونا فى تلك الليلة ، إذ لم يحدث قط أنها تحدثت إلى اليساندرو عن تاريخ حياتها أو عن متاعبها ، إلا أنها استطردت قائلة :

— إن أسوأ شىء يا اليساندرو هو أنها لا تريد أن تقول لى من هى أمى . وأنا لا أدرى شيئا عنها أو ما إذا كانت على قيد الحياة أم لا . وقد سألت السنيورة عنها ذات مرة ولكنها أمرتنى ألا أسأل مرة أخرى ، وقالت إنها سوف تخبرنى بنفسها فى الوقت المناسب . ولكنها لم تفعل .

www.ibtesama.com

ورفرف السر على شفتى اليساندرو . ولم تدر رامونا إلى أى حد كانت فى تلك اللحظة قريبة منه ، حبيبة إليه ، مناطا لثقته . ماذا يمكن أن يحدث لو أنه أخبرها بالحقيقة ؟ لو أخبرها بالحقيقة فجأة ، هل ستنفر منه ، أم تزداد قربا إليه ؟

وسألها قائلا :

— ألم تسأليها مرة أخرى ؟

فنظرت إليه رامونا بدهشة وقالت بسرعة :

— لا يستطيع أحد أن يعصى أوامر السنيورة .

فهتف اليساندرو قائلا :

— إننى أستطيع .

— إنك قد تظن هذا . ولكنك حين تحاول ، تجد نفسك عاجزاً . إلا أننى سألت الأب سالفيرديرا ذات مرة .

فقال اليساندرو بأنفاس مكتومة :

— وماذا قال ؟

فقالت رامونا بحزن :

— نفس الشىء . . قال لا ينبغى أن أسأل ، لأنى لم أبلغ بعد المرحلة المناسبة من العمر . وعندما تأتى هذه المرحلة ، سوف أعرف كل شىء .

www.ibtesama.com

ولست أدرى ماذا يقصدون بهذا ، فما رأيك يا اليساندرو !

— إنى لا أعرف غير أساليب التفكير فى قومى ياسنيوريتا . فإن كثيراً مما يفعله قومك ولا سيما هؤلاء الأمريكيون ، يبدو غريباً على . وأنا لا أعرف ماذا يقصدون لعلهم لا يعرفون من هى أمك .

فقالت رامونا بصوت خفيض كأنما الكلمات تنتزع منها انتزاعا :

— إنى واثقة أنهم يعرفون . ولكن دعنا نتحدث عن شىء آخر يااليساندرو . عن أشياء لا تثير الحزن ، وإنما تثير البهجة . . عن إقامتك هنا دائما .

فقال اليساندرو :

— هل أنت واثقة ياسنيوريتا أن إقامتى هنا تثير البهجة !

فقالت رامونا ببراءة ولكن مع تهدج خفيف فى صوتها لم يند عن أذن اليساندرو :

— إنك تعرف أن هذا يهمنى . ولست أدرى ماذا كان فى وسعنا أن نفعل بدونك . إن فيليب يقول إنه لن يدعك ترحل .

وتوهج وجه اليساندرو وقال :

— إن الأمر يتوقف على رأى أبى يا سنيوريتا ، لقد جاءنى منه رسول أمس ، فحملته رسالة أخبره فيها باقتراح السنيور فيليب ، وسألته الرأى ، إن أبى رجل كهل جداً ياسنيوريتا ، ولست أدرى كيف يستطيع الاستغناء عنى ،

www.ibtesama.com

فإننى ابنه الوحيد ، وقد ماتت أمى منذ أمد بعيد ونحن نعيش بمفردنا فى البيت ، وهو من ثم يشعر بالوحشة حين أكون بعيداً عنه ، إلا أنه يحب أن أظفر بالمرتب المعروض علىَّ ، ولهذا أرجو أن يفضل بقائى هنا على العودة إليه ، فإن هناك مشروعات كثيرة نريد أن نؤديها للقرية ، لأن معظم قومى فقراء ، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً أكثر مما يتيح لهم طعام يوم بيوم ، وأبى يريد أن يرام أحسن حالا قبل أن يموت ،أما وقد غدا الأمريكيون يتوافدون حولنا من كل جانب ، فإن عوامل الخوف والقلق لا تزايله لحظة ، إنه يريد أن يقيم سياجا ضخما حول أراضينا لتحديدها . ولكن سكان القرية لا يجدون الوقت الكافى لإقامة هذا السياج ، لأنهم فى أشد الحاجة إلى وقتهم للعمل من أجل أنفسهم وعائلاتهم . إن الهنود يمرون بأوقات عصيبة يا سنيوريتا . هل سبق أن زرت تيميكيولا ؟

— لا . . أهى مدينة كبيرة ؟

وتنهد اليساندرو قائلا :

— يا عزيزتى السنيوريتا . . إنها ليست مدينة كبيرة ، وإنما هى مجرد قرية صغيرة لا يزيد عدد بيوتها على عشرين ، و بعضها مقام بالبوص والطين . وهناك كنيسة ومدفن . وقد أقمنا سياجا حول المدفن فى العام الماضى ، لأن أبى قال إننا يجب أن نقيمه قبل أن نقيم السياج الكبير حول أراضى القرية .

وسألته رامونا قائلة :

— وكم عدد سكان القرية ؟

www.ibtesama.com

— حوالى مائتين عندما يكونون جميعا بها ، ولكن كثيرا منهم يكونون بعيدا عنها معظم الوقت إذ لابد لهم أن يرحلوا للبحث عن العمل . إنهم يعملون لحساب المزارعين ، أو يشتغلون فى ردم البرك والمستنقعات ، أو يرعون الماشية . وبعضهم يأخذون معهم زوجاتهم وأبناءهم . ولست أعتقد أن السنيوريتا رأت قوما أكثر فقرا منهم .

— لا . . بل رأيت يا اليساندرو فى سانت بربارا . هناك أشخاص كثيرون فقراء . وقد اعتادت الراهبات أن يعطينهم الطعام فى كل أسبوع .

— هنود ؟

فاحمر وجه رامونا وقالت :

— نعم . . بعضهم . ولكنهم ليسوا مثل قومك يا اليساندرو ، إنهم مختلفون جداً . بؤساء ، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ولا يبدو أن لديهم أى طموح .

— هذه هى المشكلة . مع الكثيرين منهم ، ومع قوم أبى أيضاً . إنهم يقولون ، ما جدوى التعليم ؟ وإن أبى ليشعر باليأس من إصلاح أمرهم ، لأنهم يكرهون العلم . إن أبى يزودهم بالكثير منه ، ولكنهم لايتقبلونه . إن فى قريتنا رجلا واحداً فقط ، غيرى وغير أبى ، هو الذى يستطيع القراءة والكتابة ياسنيوريتا . ومع ذلك فإن أبى يرجوهم دائما أن يأتوا إلى بيته ليتعلموا منه . ولكنهم يقولون إن الوقت لا يتوافر لهم . والواقع أن هذه هى الحقيقة ياسنيوريتا ومن هذا ترين أن لكل إنسان متاعبه .

www.ibtesama.com

وكانت رامونا تنصت بوجه حزين ؛ إذ وجدت أن هذا كله جديد عليها . ولم تكن هي ، أو اليساندرو ، حتى تلك الليلة ، قد تبادلا الحديث عن شئونهما الخاصة .

وقالت أخيرا :

— آه . . ولكن هذه متاعب ضخمة لا تقاس بجانبها متاعبي الخاصة . إنني أتمنى لو استطعت أن أفعل شيئاً لقومك يا اليساندرو . لو أن القرية قريبة ، لأمكنني أن أعلمهم .. ألا ترى هذا .. لأمكنني أن أعلمهم القراءة . إن السنيورة تقول دائما إن تعليم الجهلة ، والفقراء من أسمى الأعمال التي يستطيع أن يقوم بها الإنسان ، إنني أتمنى لو أستطيع أن أعلم قومك . ألديك أقارب آخرون في القرية غير أبيك ، هل هناك شخص ما تحبه يا اليساندرو ؟

وكان اليساندرو مستغرقا في أفكاره عن قومه ، بحيث لم يفطن إلى تردد رامونا في النطق بالسؤال الأخير . وأخيرا قال :

— نعم .. إنني أحبهم جميعاً ياسنيوريتا . إن قوم أبي جميعاً إخوة وأخوات لي . وإني لشقي من أجلهم دائما .

وفي خلال هذه المحادثة كلها ، كان ثمة تفكير خفي يتردد في ذهن رامونا ويثير قلقها ، إذ كلما أمعن اليساندرو في الحديث عن أبيه وقومه ، ازدادت شعوراً بأنه مرتبط بقريته ارتباطاً لا فكاك منه ، وازدادت خوفاً من أن يرفض أبوه بقاءه أية فترة من الوقت . ولما فكرت في احتمال رحيله ، انقبض قلبها . ومن ثم تقدمت خطوة مفاجئة نحوه وقالت بسرعة :

www.ibtesama.com

— اليساندرو .. إننى أخشى ألا يوافق والدك على بقائك هنا ؟

فقال بحزن :

— وهذا ما أخشاه أيضا .

— و إذا لم يوافق ، فلن تبقى طبعاً ؟

— وكيف أستطيع أن أبقى يا سنيوريتا ؟

— نعم .. هذا لا يليق .

وعندئذ امتلأت بالدموع عيناها .

وتغيرت الدنيا كلها فى نظر اليساندرو عند رؤيته لهذه الدموع ، فهتف قائلا :

— سنيوريتا . سنيوريتا رامونا . إن الدموع فى عينيك ! أوه ، إذن لن تغضبى إذا قلت إننى أحبك .

وارتعد اليساندرو من الفزع ، ومن السعادة ، بعد أن نطق بهذه الكلمات .

ولم تستطع حواسه المضطربة أن تجعله يصدق الكلمات السريعة الحازمة التى قالتها رامونا بعد ذلك فى همس :

— إننى أعرف أنك تحبنى يا اليساندرو ، و إنى سعيدة بذلك .

نعم .. هذا ما قالت السنيوريتا رامونا . وعندما قال متلعثما :

— ولكن أنت يا سنيوريتا . . إنك لا . . لا يمكن أن . .

إذا بها تقاطعه قائلة بنفس الصوت الهامس الحازم :

www.ibtesama.com

— أجل يا اليساندرو . . إننى أحبك .

وعندئذ اف ذراعيه حولها وقبلها وقال بصوت متهدج :

— أوه . . سنيوريتا ؟ هل تعنين أنك على استعداد للرحيل معى ، وأنك لى ، أوه . . ليس هذا ما تعنيه يا حبيبتى السنيوريتا .

وكان يغمرها بقبلاته وهو يعلم أنها لا تعنى هذا حقا . ولكن رامونا كانت تقول له هامسة :

— بل هذا ما أعنيه يا اليساندرو . ولسوف أذهب معك .

ثم تعلقت به بيديها ، وراحت تقبله وهى تردد قائلة :

— نعم ، سأذهب معك ، لأنى أحبك .

وفى تلك اللحظة نفسها فاجأتهما السنيورة بهتاف الدهشة ، حيث وقفت على مسافة ذراع منهما ، فنظرت إليهما بعينيها الرهيبتين الزاخرتين بالاستنكار .

يالها من ذكرى سعيدة امتلأ بها قلب اليساندرو وهو قابع فى الظلام يترقب... على أن سحر انفعالاته لم يبلد حواسه ، ومن ثم راح ، كالغزال المتسلل فى الغابة ، يرهف السمع إلى كل صوت فى البيت ، ولما تكاثفت الظلمة ، دهش حين لم يجد ، كما لاح له ، أى ضوء فى البيت . كانت غرفة السنيورة مظلمة ، وكذلك غرفة السنيوريتا . وضوء خفيف فى غرفة المائدة لم يلبث أن انطفأ — يبدو أنه لن يكون ثمة عشاء فيها هذه الليلة . أما الضوء الوحيد فكان ينساب من عقب باب غرفة فيليب ويزحف إلى الشرفة . وسمع اليساندرو أصواتا تتحدث بحذر

www.ibtesama.com

يبدو أنها أصوات السنيورة وفيليب ، أما رامونا ، فلا شيء ، ولا صوت ، وراح في لهفة يركز نظراته على نافذتها . كانت مفتوحة ، ولكن الستائر مسدلة بإحكام ، فلا حركة . . ولا نأمة ! ترى أين هي ، وماذا حدث لحبيبته ؟ إن عوامل الحذر التام ، والصبر الكامل التي تسري في دمائه كهندي ، هي فقط التي منعته من التسلل إلى نافذتها . ولكنه لن يعرض أحداً للخطر إذا هو تصرف على مسئوليته . لسوف ينتظر ، حتى لو أسفر الصباح ، أو حتى يرى إشارة من حبيبته . وليس من شك في أن السنيور فيليب سوف يأوي بعد قليل إلى سريره في الشرفة ، وعندئذ يستطيع الحديث معه . وفي منتصف الليل تقريبا ، فتح أخيراً باب غرفة السنيور فيليب وخرج مع أمه وهما لا يزالان يتبادلان الحديث همسا . . ورقد فيليب في سريره ، وانحنت أمه وقبلته وودعته ثم انصرفت إلى غرفتها .

وكان قد مضى عندئذ وقت طويل منذ أن كف اليساندرو عن النوم في الشرفة بجوار سرير فيليب ، إذ كانت صحة فيليب قد تحسنت ، ولم يعد في حاجة إلى هذا . ولكن فيليب كان واثقا أنه سيأتي هذه الليلة ، ومن ثم لم يدهش حين سمع ، بعد لحظات قليلة من انصراف والدته صوتا خافتا ينساب إليه من خلال أعواد الكرمة يقول :

— سنيور فيليب !

وقال فيليب هامسا :

— اخفض صوتك يا اليساندرو . ولا تقل شيئا . غداً في بكور الصباح سوف أراك وراء مرابط الغنم . إن الحديث هنا الآن ينطوي على خطر .

www.ibtesama.com

فقال اليساندرو بصوت كالحسيس :

— أين السنيوريتا ؟

فرد فيليب قائلا :

— فى غرفتها .

— فى حالة جيدة ؟ !

— أجل .

وكان فيليب يأمل أن يكون صادقا . وكان هذا كل ماعناه اليساندروليشعر بالراحة طيلة رقابته فى الليل . لا . . ليس هذا فقط . لقد شعر بالراحة أيضا وهو يسمع زوجا من يمام الغاب ، كانا يتناجيان بين الحين والآخر بهاتين الكلمتين الحبيبتين : « أحبك . . أحبك . . »

وقال لنفسه :

« هكذا تبدو رامونا . عذبة كاليمامة . وعندما تصبح زوجة لى ، فسوف يسميها قومى « ماجيل » — أو يمامة الغاب » .

www.ibtesama.com

(١١)

عندما حيت السنيورة ابنها فيليب تحية المساء ، لم تأو إلى فراشها . فبعد أن أغلقت عليها باب غرفتها ، جلست تفكر فيما ينبغى أن تفعل بشأن رامونا . لقد كان الأمر شاقا عليها جداً حين بذلت جهدها لكى تخفى ما يدور فى ذهنها عن فيليب فى أثناء حديثها الطويل معه طيلة المساء . ولكن فيليب كان لا يزال قلقا متوتر الأعصاب ومن ثم قررت ألا تفسد عليه نومه فى تلك الليلة ، بالحديث عن أشياء غير مرضية ، وفوق هذا لم تكن قد قررت بعد ماذا يمكن أن تفعل بشأن اليساندرو . فإذا كانت رامونا ستبعد إلى دير الراهبات ، حسب الفكرة الوحيدة التى خطرت ببال السنيورة عندئذ ، فلن يكون هناك داع لطرد اليساندرو من العمل . وكانت السنيورة على غير استعداد للاستغناء عن خدماته ، رغم استعدادها فى ساعة غضبها المفاجىء لطرده فوراً . وفيما هى تمعن التفكير ، بدأ

www.ibtesama.com

الموقف كله يتضح فى ذهنها .. وما أسهل أن تنتظم الأمور فى مجرى واحد بالنسبة لشخص يفكر ويدبر دون أن يحسب أى حساب للعوامل الإنسانية التى لا يستطيع السيطرة عليها .

ينبغى أن ترسل رامونا ، مجللة بالعار ، إلى دير الراهبات لتبقى خادمة فيه مدى حياتها ، و بذلك تنفض السنيورة يديها منها إلى الأبد . وحتى الأب سالفيرديرا لن يوافق على أن تظل مثل هذه المخلوقة الخاطئة تحت سقف بيتها وأن تعليمات أختها المكتوبة قد شملت احتمال حدوث مثل هذا الموقف . ومن ثم ذهبت السنيورة إلى درج سرى فى الجدار وراء تمثال بالحجم الطبيعى للقديسة كاترين ، وتناولت منه صندوقا حديديا يعلوه الصدأ من فرط القدم ، ووضعته على السرير وأدارت مفتاحه فى القفل بصعوبة . إذ كانت قد مضت سنوات عديدة لم تفتح فيها السنيورة هذا الصندوق . ولم يكن هناك أحد غيرها يعرف عن وجوده شيئا . وقد حلت مناسبات كثيرة فى تاريخ آل مورينو ، كان من الممكن فيها أن تجنب محتويات الصندوق الثمينة أفراد الأسرة الكثير من المحن والأزمات . ولكن السنيورة لم تفكر فى لمس هذا الكنز وكأنما يحرسه القديسون بسيوف من نار . وهكذا تألق من داخل الصندوق ، حتى فى ضوء الشمعة الوحيدة بالغرفة لألاء اليواقيت والزمرد واللؤلؤ والألماس الحر ، ولوت السنيورة شفتها وهى تنظر إلى هذا كله وقالت : « جواهر جميلة حقا لمخلوقة كهذه ، حسنا . . كنت أعرف من البداية أننا لن نلقى على يديها خيرا . . لقد حققت بغرائزها كل ما كان منتظراً من أصلها الوضيع المحتد ، الدنىء ، وأعتقد أن من حقى أن أحمد الله على أن ابنى الطاهر لم يقع ضحية لها ! »

www.ibtesama.com

وأخذت السنيورة تقرأ التعليمات المكتوبة بخط يد أختها :

« يكون هذا الكنز من نصيب ابنتى راموناأورتينا عند زواجها ، إذا تزوجت بموافقتك من شخص كفء لها ، فإذا حدث منها ما يحط من قدرها فى نظر الناس ، وهو مالا أتوقعه فيجب أن تحول هذه الجواهر وكل مقتنياتى إلى ممتلكات الكنيسة » .

وقالت السنيورة لنفسها بحرارة :

«ولكنها لم تذكر ماذا ينبغى أن أفعل مع الفتاة نفسها فى مثل هذه الحالة؟ ولكن الكنيسة هى مصيرها . فليس هناك مكان آخر يمكن أن ينقذها من هاوية العار التى تردت فيها ، وإنى لأذكر أن أختى قالت إن آنجوس كان ينوى أن يهب الطفلة للكنيسة . ليته ، بحق السماء ، فعل هذا ،أو تركها لأمها » .

ونهضت السنيورة ، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وسقطت الورقة المكتوبة بخط يد أختها عند قدميها . وفيما هى تتمشى ، أخذت أطراف ثوبها تحرك الورقة هنا وهناك فانحنت والتقطتها ، وأعادت قراءتها بمزيد من المرارة . وقالت لنفسها دون أن ترق مشاعرها لذكرى حب أختها للطفلة « يحط من قدرها !! » نعم .. إن هذا الوصف ، على رقته ، ينطبق على رامونا الآن . لقد استقر كل شىء الآن . وإن السنيورة سوف تتنهد بارتياح عندما ترحل رامونا عن البيت . إنها عندئذ ستعيش مع فيليب فى سلام ، وسوف يتزوج فيليب يوما . ترى هل توجد الفتاة التى لها من الجمال والخلق ما يجعلها جديرة بالزواج من فيليب ،

www.ibtesama.com

ولـكن لابد أن يتزوج ، وسوف يمتلىء البيت ببهجة بأصوات أطفاله ، وسوف تغدو رامونا فى عالم النسيان .

ولم تـكن السنيورة تعرف مدى تأخر الوقت فى تلك الليلة ، ومن ثم قالت لنفسها : « سوف أخبرها الليلة . لن أضيع وقتا فى إخبارها الآن من هى أمها » .

وتذكرت السنيورة فجأة فى تلك اللحظة — رغم اشتداد غضبها — أن رامونا لم تتناول عشاءها ، فذهبت إلى المطبخ ، وتناولت إناء من اللبن وبعض الخبز ، وحملتهما إلى غرفة رامونا بعد أن فتحت الباب برفق ، حتى لا يسمعها فيليب ، وانسابت بحذر ولم تسمع فى الغرفة صوتا ، ولم تر لرامونا أثرا حتى بعد أن رفعت ذبالة السراج عالية ، وكان السرير خاليا ونظرت إلى النافذة ، فوجدتها مفتوحة . واستبد بها الفزع الممزوج بموجة جديدة من الغضب . وقالت لنفسها ، « لقد هربت مع اليساندرو ، فيا لهول العار ! » وفيما هى واقفة بلا حراك سمعت حسيس أنفاس خافتة منتظمة فى الجانب الآخر من السرير ، فعبرت الغرفة بسرعة ، ورأت منظرا كان كفيلا بإذابة أى قلب مصنوع من الجليد ، ولـكن قلب السنيورة كان من الحجر بالنسبة لرامونا ، فهناك على الأرض ، كانت رامونا راقدة ورأسها على وسادة عند قدمى تمثال العذراء القائم فى ركن الغرفة . وكانت يدها اليسرى تحت خدها ، وذراعها اليمنى محيطا بقاعدة التمثال . وكانت مستغرقة فى النوم . ووجهها مبلل بالدموع ، وسمتها العام ينم بشكل وضوح على أنها لائذة بالعذراء الطاهرة . وكانت هذه الفكرة قد اختمرت بذهن الفتاة رغم آلامها وفزعها ، حين وجدت النوم يغلبها على أمرها ، ومن ثم قالت لنفسها : « إنها

لن تستطيع أن تؤذيني وأنا لائذة بالعذراء ، والنافذة مفتوحة بحيث يسمعني فيليب إذا استغثت ، واليساندرو ساهر على » ثم استغرقت في النوم وعلى شفتيها دعاء.

والواقع أن قرب فيليب من المكان - لا العذراء - هو الذى أنقذها من اليقظة وسماع الحكم الرهيب، وظلت السنيورة واقفة برهة تنظر إليها وإلى النافذة المفتوحة ، ثم إذا هي تلحظ - بموجة جديدة من الغضب والشك - مالم تلحظه من قبل ، تلحظ أن اليساندرو كان في مقدوره أن يدخل الغرفة عن طريق هذه النافذة ، عندما كان ينام في الشرفة بجوار فيليب . ومن ثم قالت لنفسها : « يالك من مخلوقة فاضحة ، أوتستطيعين أيضاً أن تنامى ، أحسنت إذ أديت صلواتك للعذراء ، لو أن العذراء تسمع صلوات أمثالك » . ثم استدارت لتنصرف بعد أن وضعت على منضدة ، إناء اللبن والخبز . ولكن الشعور بالإنصاف الممتزج بغضها الشديد جعلها تعود وترفع الغطاء من فوق السرير ، وتبسطه على رامونا بعناية فتغطيها من رأسها إلى قدميها . ثم غادرت الغرفة وأغلقت بابها من الخارج مرة أخرى .

وسمع فيليب ، وأدرك كل شيء وهو في فراشه دون أن يصدر صوتا . ولكنه قال لنفسه : « حمدا لله . إن الفتاة للسكينة مستغرقة في النوم ، وإن أمي العطوف أبت أن تتحدث إليها حتى لا توقظني . ترى ماذا سيحدث لنا جميعا غـــدا ؟ » .

وأخذ فيليب يتقلب في فراشه ، وما كادت تمضى عليه لحظات ، كما خيل إليه ، في نوم مضطرب ، حتى فتحت نافذة غرفة أمه ، وسمع المقطع الأول من أنشودة الصباح . وسرعان ما اشتركت رامونا في الترتيل وقد بدا بوضوح

www.ibtesama.com

أنها استيقظت وأعدت نفسها لهذا . وما كادت نبرات صوتها الأولى تصل إلى أذنى اليساندرو حتى اشترك بدوره ، حتى مرجريتا التى استيقظت قبل ساعة ، والتى كانت تتجسس وتسترق السمع وتختلس النظر ، وقلبها ممزق بين الخوف والغيرة ، لم تتأخر عن الاشتراك فى ترتيل الأنشودة ، وأخذ فيليب يغنى أيضاً بطلاقة ، وانسابت نغمات الأنشودة عذبة ، رائقة ، وكأنما تنطلق من قلوب ليس فيها غير السكينة والوئام ، بدلا من الضغينة والخصام ، وكانت رامونا واليساندرو أعلى وأعذب الجميع صوتا ..

وكان اليساندرو يقول لنفسه :

— حمداً لله .. ها هو ذا صوت يمامتى .

وكانت رامونا تقول لنفسها :

— هاهو ذا اليساندرو قريب ـ ساهر على طول الليل . إننى سعيدة بحبه .

وقالت السنيورة لنفسها :

— من ذا يصدق أن الاثنين يغنيان هكذا ؟ ربما لم يبلغ الأمر بينهما هذا الحد من السوء !

وما إن انتهت الأنشودة ، حتى أسرع اليساندرو إلى ماوراء مربط الأغنام حيث قال فيليب إنه سيلتقى به هناك ، وأخذت الدقائق تمر عليه كالسنين حتى أقبل فيليب .

www.ibtesama.com

أما رامونا ، فقد اطمأن بالها إلى حد كبير ، عندما استيقظت ووجدت الغطاء عليها واللبن والخبز بجوارها ، إذ لا شك أن السنيورة هي التي فعلت هذا لأنها سمعتها في الليلة الماضية وهي تغلق الباب بالمفتاح من الخارج ، وتجذبه من القفل عنوة . وكذلك عرفت رامونا أن حجزها داخل غرفتها على هذا النحو ، لا يعرف بأمره أحد إلا السنيورة التي اعتادت ألا تدع للخدم فرصة الثرثرة بما يجرى بين أفراد الأسرة . وتناولت الخبز واللبن ، شاكرة ، لأنها كانت تشعر بالجوع . وبعد أن رتبت غرفتها ، وأدت صلواتها ، جلست تنتظر ولكنها لم تستطع أن تتخيل ماذا ينتظرها . والواقع أنها لم تحاول أن تفكر كثيراً في هذا الموضوع ، لأنها أحست عندئذ أنها أصبحت في منطقة ليس للسنيورة سلطة عليها . إنها لم تعد تخشى إلا القليل ، لأن فيليب لن يسمح بأن يؤذيها أحد ، كما أنها سوف ترحل بعد قليل مع اليساندرو . آه .. ما أجمل السكينة والشعور بالحرية عند هذا التفكير ! إن إشراق وجهها بهذه الانفعالات الوليدة كان أول ما رأته السنيورة حين فتحت الباب وأخذت ترمق رامونا وهي تدخل الغرفة ببطء .. ببطء شديد . إن هذا الهدوء الذى بدا على وجه رامونا أغضب السنيورة ، كما سبق أن أغضبها من قبل ، عندما أخذت تدفعها في ممر الحديقة ، لقد بدا لها أنه لون من التحدى ، ومن ثم غيرت لهجة صوتها عندما بدأت تتكلم .

قالت بصوت مفعم بالاحتقار والإهانة وهي تجلس مواجهة لرامونا في الجانب الأقصى من الغرفة :

— بماذا يمكن أن تدافعي عن نفسك .

www.ibtesama.com

وبنظرة لا تقل ثباتا عن نظرة السنيورة ، قالت رامونا ببطء بنفس الصوت الهادىء الذى حاولت به أمس أن تهدىء من ثائرة السنيورة مرتين :

— سيدتى ، لقد حاولت أن أخبرك أمس بكل شىء ، ولكنك أبيت أن تنصتى إلى . ولو أنك أنصت لما استبد بك كل هذا الغضب ، فلا أنا ولا اليساندرو ارتكبنا خطأ أو شيئا نخجل منه . إننا متحابان ، وسوف نتزوج ونرحل . وإنى لأشكرك ياسيدتى على كل ما قمت به نحوى ، وأنا واثقة أنك ستكونين أسعد حالا بكثير عندما أرحل .

ونظرت رامونا بأسى لا أثر فيه للسخط إلى وجه السنيورة القاتم المنقبض ، ثم استطردت تقول دون أن تقاطعها السنيورة :

— لقد أحسنت إلى حد كبير معاملتى رغم أنك لم تحبينى يوما . وشكراً لك على اللبن والخبز اللذين أحضرتهما ليلة أمس . ولعلى أستطيع أن أرحل مع اليساندرو اليوم ، فأنا لا أعرف ماذا ينوى أن يفعل ؛ ذلك لأننا لم نتحدث بشأن الزواج إلا لحظة قصيرة قبل أن تفاجئينا .

وكان وجه السنيورة مسرحا لشتى الانفعالات المتضاربة فى أثناء هذه اللحظات القليلة التى استغرقتها كلمات رامونا ، لقد وقفت فى أول الأمر مذهولة من فرط الدهشة ، ولكنها بعد أن هدأت نفسا حين علمت أن العلاقة بين الحبيبين لا تنطوى على العار كما ظنت ، غمرتها موجة جديدة من الغضب ، لعلها أشد عنفا من الموجة الأولى إن أمكن هذا . وكانت غضبا خالصا مريرا ليس فيه احتقار بالغ ، وقد صاحت من ثم قائلة :

www.ibtesama.com

— زواج ! تتزوجين من هذا الهندى ! مستحيل ؟ هل جننت ؟ إننى لن أسمح بشىء من هذا أبدا .

فنظرت رامونا إليها بلهفة قائلة :

— إننى لم أعص لك أمرا قط يا سيدتى ، ولكن الأمر هنا مختلف عن كل شىء ، وأنت لست أمى ، وقد وعدت اليساندرو بالزواج .

وقالت السنيورة ببرود وقد خدعتها رقة الفتاة :

— لا ، إننى لست أمك ، ولكننى أقوم مقامها ، إنك ربيبة أختى ، وقد عهدت بك إلى . ولن تستطيعى أن تتزوجى بغير إذن منى ، وأنا أمنعك من الحديث مرة أخرى عن الزواج بهندى .

وجاءت اللحظة التى تعرف فيها السنيورة مورينو ، لدهشتها البالغة ، من أى معدن صلب صنعت هذه الفتاة — هذه الفتاة التى عاشت معها أربعة عشر عاما ، وديعة ، هادئة ، باسمة لا تشكو من وحدتها — هذه الفتاة وثبت فجأة وأسرعت حتى وقفت فى مواجهة السنيورة التى أجفلت من سرعة حركة الفتاة ، ومن نظراتها أيضاً .

وقالت رامونا بصوت أكثر ثباتا وارتفاعا :

— سنيورة مورينو ، يمكنك أن تمنعينى كما تشائين ، ولكن العالم كله لن يستطيع أن يمنعنى من الزواج باليساندرو . إننى أحبه ، ووعدته بالزواج . وسوف أحافظ على وعدى .

www.ibtesama.com

ووقفت الفتاة منتصبة وذراعاها مشدودتان بجانبها ، ورأسها مرفوع ونظراتها إلى السنيورة مفعمة بالكبرياء والتحدى .

وكانت تلك أول مرة تحس فيها بالتحرر الكامل من قيود خفية ، وإذا هى تشعر كأنها تطير بأجنحة فى الهواء ، وقد سقط عنها فزعها من السنيورة كما يسقط الرداء .

وأصدرت السنيورة صوتاً ينم عن الاحتقار وهى تنظر إلى الفتاة فى شىء من العجب رغم إحساسها بالغضب ، وكان عجبها لما ظنته ثورة لا أساس لها .

ومن ثم قالت بهدوء :

— إنك تتحدثين بحماقة ، ألا تعرفين أن فى مقدورى أن أغلق عليك باب الدير غداً إذا شئت .

— لا .. إنك لا تستطيعين .

فقالت السنيورة باحتقار :

— ومن الذى يمنعنى ؟

فردت رامونا بكبرياء :

— اليساندرو .

فسخرت السنيورة قائلة :

— اليساندرو ؟ اليساندرو هذا المتسول الهندى الذى يمكن لخدمى أن

www.ibtesama.com

يطلقوا عليه الكلاب لو أمرتهم بذلك ها .. ها .

وزاد حديث السنيورة الساخر من ثورة رامونا فقالت بصوت مرتفع :

— إنك لن تجرئى أبدا . إن فيليب لن يسمح بهذا .

وكان رد رامونا هذا خاليا من الحكمة تماما ، إذ جعل السنيورة تقول بصوت حاد :

— فيليب ! كيف تجرئين على النطق باسمه ، لم يعد له شأن بك منذ هذه اللحظة ! إننى سأمنعه من مجرد الحديث إليك ، ولا شك أنه لن يرغب فى رؤيتك أبدا عندما يعرف الحقيقة .

فردت رامونا قائلة بشىء من التلطف :

— إنك مخطئة يا سنيورة . إن فيليب صديق اليساندرو — و ... و

وترددت برهة قبل أن تتم عبارتها قائلة :

— وصديق أنا أيضا .

وصاحت السنيورة قائلة :

— أها ! ولهذا فإن السنيوريتا تظن أنها صاحبة السلطة فى بيت آل مورينو . حسنا سنرى .. سنرى .. اتبعينى يا سنيوريتا رامونا .

www.ibtesama.com

وفتحت الباب على مصراعيه ، وخرجت من الغرفة وهى ملتفتة خلفها قائلة بصوت حاد عندما رأت رامونا مترددة :

— اتبعينى .

وتبعتها رامونا عبر الممر المؤدى إلى غرفة الطعام ، ثم إلى الشرفة ، ومنها إلى غرفة السنيورة التى كانت تسير بخطوات سريعة منفعلة لا تمت بصلة لخطواتها الهادئة المختالة العادية . أما رامونا فكانت تسير بخطوات أبطأ كثيراً من خطواتها المعتادة ، ورأسها مطرق إلى الأرض ، وفيما هما يجتازان باب غرفة الطعام ، أرسلت مرجريتا الواقفة بداخلها نظرة سريعة إلى رامونا ، مفعمة بالشماتة والحقد .

وقالت رامونا لنفسها وهى تشعر برعدة من الخوف لم تستطع السنيورة بكل تهديداتها أن تثير فيها مثيلا لها :

— سوف تساعد السنيورة فى كل شىء ضدى .

وأغلقت السنيورة نوافذ غرفتها المفتوحة ، وأسدلت الستائر عليها بإحكام ثم أغلقت الباب ، ورامونا ترقب باهتمام كل حركاتها .

وقالت السنيورة مشيرة إلى مقعد بالقرب من النافذة :

— اجلسى على هذا المقعد .

وقالت رامونا وقد استبد بها إحساس من الخوف العصبى :

www.ibtesama.com

— إننى أفضل الوقوف يا سنيورة .

وقالت السنيورة بصوت أجش :

— افعلى ما آمرك به .

وأطاعتها رامونا . وكان المقعد خفيضا واسعا وثيرا ، غاصت فيه ، وقد بدا لها أنها ستفقد صوابها ، فتراخت برأسها إلى الوراء ، وأغمضت عينيها وأحست بالغرفة تدور بها ، ولكنها أفاقت على رائحة النشادر الذى قربت السنيورة زجاجته من أنفها ، ثم سمعتها تقول بصوت زاخر بالسخرية اللاذعة :

— يبدو أن السنيوريتا لم تعد بنفس القوة التى كانت عليها منذ لحظات .

وحاولت رامونا ، بالتفكير المنطقى ، أن تزيل مخاوف نفسها : يقينا لا يمكن أن ينالها أى ضرر فى هذه الغرفة وهى على مسمع من البيت كله . ولكن إحساساً غامضاً من الخوف استبد بها رغم هذا . وقد ازداد هذا الخوف إلى حد الفزع عندما رأت السنيورة بابتسامة رهيبة ، تدير تمثال القديسة كاترين عن مكانه قليلا ، ثم تكشف عن باب فى الجدار له مفتاح حديدى كبير ، أخذت تديره فى القفل ، وكانت قد سمعت عن أشخاص دفنوا أحياء فى خزانات سرية بالجدران حتى ماتوا جوعا . وأخذت بعينين جاحظتين ترقب السنيورة الغافلة عن فزع الفتاة وإن كانت تطيله وتركزه بحركاتها — عندما أخذت أولا صندوقا حديديا ووضعته على النضد «الطاولة» ، ثم ركعت واستخرجت من جوف الخزانة السرية صندوقا آخر كبيراً مكسوا بالجلد ، وراحت تجره على أرضية الغرفة فى صرير مزعج ، حتى وضعته أمام رامونا . وكانت فى خلال هذا كله لم تنبس

www.ibtesama.com

بكلمة ، وإنما أخذت أمارات القسوة على وجهها تزداد فى كل لحظة . ويبدو أن الأبالسة قد تقمصوا جسم السنيورة مورينو فى هذا الصباح بلا أدنى شك . ولو أن أى إنسان ، أشجع قلبا من رامونا ، وجد نفسه منفردا فى غرفة مغلقة مع امرأة كهذه ، لامتلأ قلبه بالفزع .

وأخيراً أغلقت الباب ، وأعادت التمثال إلى مكانه ، وتنفست رامونا فى ارتياح وقد تأكد لها أنها ، على الأقل ، لن تدفن حية فى تلك الخزانة السرية ونظرت فى تساؤل إلى الصندوقين بينما بدأت السنيورة تقول وهى تسحب مقعدا وتجلس عليه بجوار الطاولة التى تحمل الصندوق الحديدى :

— سنيوريتا رامونا أورتيغا ! سوف أشرح لك الآن لماذا لن تستطيعى الزواج من المندى اليساندرو .

ولما سمعت رامونا هذه الكلمات ، وهذا الاسم ، عادت إلى طبيعتها . . لا طبيعتها القديمة ، وإنما طبيعتها الجديدة باعتبارها خطيبة اليساندرو . إن مجرد النطق باسمه حتى على لسان عدو لها ، ملأ قلبها بالقوة ، وطرد الفزع منه . ورفعت وجهها ، أولا إلى السنيورة ، ثم إلى أقرب نافذة . . إنها شابة وقوية ، وفى مقدورها إذا ساءت الأمور أن تقفز من النافذة ، وتفر بحياتها ، مستغيثة باليساندرو . وقالت بصوت لا يقل فى التحدى والامتهان عن صوت السنيورة نفسها :

— سوف أتزوج المندى اليساندرو يا سنيورة مورينو .

ولم تحفل السنيورة بهذه الكلمات ، إلا بقولها :

www.ibtesama.com

ــ لا تقاطعينى . فلدى الكثير مما أريد أن أقول .

ثم فتحت الصندوق ، وأخذت تخرج منه ألوانا وألوانا من الجواهر ، وكانت الورقة المكتوبة فى قاعه ، وقد تناولتها السنيورة قائلة :

ــ أترين هذه الورقة ؟

ولما حنت رامونا رأسها ، أردفت السنيورة قائلة :

ــ إنها مكتوبة بخط أختى ، السنيورة أورتينا ، التى كفلتك وخلعت عليك اسمها ، وهذه هى تعليماتها الأخيرة إلى فيما يتعلق بمقتنياتها التى تركتها لك .

وانفرجت شفتا رامونا ، وانحنت إلى الأمام مكبوتة الأنفاس ، تنصت وقد أخذت السنيورة تقرأ العبارات الواحدة بعد الأخرى . وعاد الألم المكبوت فى نفسها ، والتساؤل ، والخوف الذى استبد بها فى طفولتها وصباها بشأن مولدها يغمرها من جديد ، وهى تنصت إنصات المرء الذى يسمع الحكم بالبراءة أو الإعدام . ولم تعد تذكر اليساندرو ، ولم تعد تنظر إلى الجواهر ، وإنما تعلقت عيناها بوجه السنيورة التى قالت بحزم بعد أن فرغت من القراءة :

ــ أترين الآن أن أختى قد تركت لى الحرية الكاملة فى التصرف بكل ما يخصك ؟

وصاحت رامونا قائلة :

ــ ولكنها لم تقل من هى أمى ؟ أهذا كل ما جاء فى الورقة ؟

www.ibtesama.com

وذهلت السنيورة . ترى هل تصطنع الفتاة هذا الاهتمام ؟ ألا يهمها أن تفقد هذه الجواهر التى تعتبر ثروة لا بأس بها ؟ وأخيرا قالت باحتقار :

ـــ من هى أمك ؟ ليس هناك ما يدعو لكتابة هذا فى الورقة ، فإن الجميع يعرفون أن أمك هندية .

وندت عن شفتى رامونا صيحة خافتة عند سماعها كلمة « هندية » .

وأخطأت السنيورة فهم هذه الصيحة ، فقالت :

ـــ نعم . هندية عادية وضيعة . وقد قلت لأختى عندما كفلتك إن الدماء الهندية فى عروقك سوف تغلب عليك يوما . وقد صدق حدسى الآن .

واضطرم وجه رامونا ، وبرقت عيناها ، وقالت وهى تقفز واقفة :

ـــ أجل يا سنيورة مورينو . إن الدم الهندى فى عروق قد ظهر الآن . لقد أدركت أشياء كثيرة لم أكن أدركها من قبل . ألأننى هندية كنت دائما تكرهيننى ؟

فقاطعتها السنيورة قائلة :

ـــ إنك لست هندية ، ولم أكرهك قط .

ولم تحفل بها رامونا ، وإنما استمرت تقول فى قوة متزايدة :

ـــ وما دمت هندية ، فلماذا تعارضين فى زواجى من اليساندرو ؟ أوه ، إننى سعيدة بكونى هندية . إننى واحدة من قومه . ولسوف يسعده هذا .

www.ibtesama.com

وكانت الكلمات تتدفق من فمها كالطوفان ، ومن فرط اهتياجها كانت تقترب رويدا من السنيورة وهى تقول :

— إنك امرأة قاسية . إننى لم أكن أعرف هذا من قبل ، أما الآن ، فقد عرفت . وما دمت تعلمين أننى هندية ، فما كان لك أن تعامليني بهذه القسوة كما فعلت ليلة أمس حين رأيتني مع اليساندرو . إنك كنت تكرهينني دائما . هل أمى على قيد الحياة ؟ وأين هى ؟ أخبريني . لسوف أذهب إليها اليوم ! أخبريني . لسوف يسعدها أن تعلم أن اليساندرو يحبنى .

وقالت السنيورة بنظرة قاسية ، وبصوت أشد قسوة :

— إننى لا أعرف من هى أمك . وهل هى على قيد الحياة أم لا . لا يوجد أحد يعرف شيئاً عنها ، كانت امرأة حقيرة وضيعة عندما تزوجها أبوك . كان فاقد الصواب ، كما هو شأنك الآن فى رغبتك الزواج باليساندرو .

فقالت رامونا بلهجة تأكيد :

— إذن فقد تزوجها ! كيف عرفت هذا يا سنيورة موريلو ؟

فقالت السنيورة فى ضيق وقد ساءها أن تجد الفتاة فى هذه الحقيقة بعض العزاء :

— هكذا قال لأختى .

— ما هو اسمه ؟

فقالت السنيورة آليا :

www.ibtesama.com

- فابل .. أنجوس فابل .

ووجدت نفسها متوترة الأعصاب بشكل عجيب أمام لهفة الفتاة العارمة، ومن ثم أخذت تتململ وقد انقلب الوضع ضدها دون أن تعرف كيف . وبدت رامونا كعملاقة أمامها ، مسيطرة على الموقف وهى تقذف بالسؤال بعد السؤال فى حرارة وانفعال ، وأخيراً التفتت السنيورة نحو الصندوق الأكبر وفتحته ، وتناولت منه ، بيد مرتعدة ، أثوابا وأردية لم تر النور منذ سنوات : مطارف وأوشحة من الحرير الدمشقى ، ومخرمات رقيقة ، وملابس من الستان والمخمل ، وفيما كانت السنيورة تقذف بها على المقاعد ، الواحدة بعد الأخرى ، تكونت كومة من الأقمشة الحريرية اللامعة الفاخرة . وأخذت رامونا ترمقها بنظرات حالمة ، ثم قالت وهى ترفع ثوبا من المخرمات الثمينة ، وتتأمله فى الضوء بإعجاب :

- هل كانت أمى السنيورة أورتينا ترتدى هذا كله ؟

ومرة أخرى أساءت السنيورة فهمها ، وحسبت أن فى مقدورها إغراء الفتاة التى أظهرت إعجابها الشديد بهذه الملابس الفاخرة ، ومن ثم قالت بصوت أقل حدة وبرودة عن ذى قبل : - كل هذه لك يارامونا ، وعليك أن تفهمى أنك ستنالينها عند زواجك إذا تزوجت من الشخص اللائق ، وبرضاى. هل فهمت ما قرأته عليك ؟

ولم تجب الفتاة . . وكانت قد تناولت من ركن فى قاع الصندوق الحديدى منديلا معقودا من جوانبه على شىء ، فقالت السنيورة :

— إنها لآلىء أرسلها أبوك مع غيرها إلى أختى عند موته .

ولمعت عينا الفتاة ، وأخذت تفك عقد المنديل المحكمة .. وكان قديما . ولما وصلت إلى آخر عقدة وتحسست حبات اللؤلؤ ، قالت :

— إذن فهذه ملك أبى ؟

— نعم .

قالتها السنيورة باحتقار ، وقد خطر لها أنها فطنت إلى شىء وضيع جديد فى لهجة الفتاة . وظنت أنها ستطالب ، قانونا ، بمقتنيات أبيها ، وقد أردفت قائلة وهى تدفع نحوها كل الجواهر الأخرى :

— نعم .. إنها ملك أبيك .. كل هذه اليواقيت والألماسات .

وفرغت رامونا من العقدة الأخيرة ، ورفعت المنديل بحرص فوق الجواهر الأخرى ، وانسابت منه رائحة عطرية قديمة ، وتساقطت منه اللآلىء على اليواقيت ، يمينا ويسارا ، وقد جعل بياضها الناصع لون اليواقيت يزداد احمرارا .

وبحركة سريعة حازمة ، دست المنديل فى صدرها قائلة :

— يسعدنى أنى وجدت شيئا كان لأبى أما الجواهر ، فيمكنك ياسنيورة ، أن تهبيها للكنيسة إذا وافقك الأب سالفيرديرا على هذا . أما أنا ، فسوف أتزوج اليساندرو .

وعادت ، ويدها لا تزال داخل صدرها حيث دست المنديل ، واتخذت

www.ibtesama.com

مكانها على المقعد الواسع الوثير .

الأب سالفيرديرا .. لقد نفذ الاسم إلى أعماق السنيورة كسن الحربة .

ونم شعورها المفاجىء بالانفعال الشديد عند ذكر هذا الاسم ، على أنها لم تحاول قط أن تسأل نفسها مرة واحدة ، فى أثناء سورتها طيلة الساعات العشرين السابقة ، ماذا سيقول الأب سالفيرديرا ، أو بماذا سيأمر ، فى هذه المحنة ؟ ويبدو أن غضبها الشديد المفاجىء على رامونا ، قد أنساها مشاعرها الدينية ، وما ينبغى أن تغفل من هذه الزاوية . ولما فطنت إلى هذه الحقيقة ، أحست بالفزع الحقيق ، وتلعثمت قائلة :

ـــ الأب سالفيرديرا ؟ لاشأن له بهذا .

ولكن رامونا لحت التغيير الذى طرأ على وجه السنيورة عند ذكر الاسم ، فاستغلت هذه الفرصة قائلة بجرأة :

ـــ إن للأب سالفيرديرا شأناً كبيراً فى كل شىء . إنه يعرف اليساندرو ، ولن يمنعنى من زواجه ، وإذا منعنى . .

وتوقفت رامونا عن الحديث وقد فزعت هى أيضاً عندما فتحت لنفسها باب هذا الاحتمال ، احتمال عصيان الأب سالفيرديرا .

وقالت السنيورة وهى ترمقها بإمعان :

ـــ وإذا منعك ؟ هل تعصينه ؟

ـــ نعم . سأتزوج اليساندرو .

www.ibtesama.com

فردت السنيورة قائلة بتهكم :

ـــ لسوف أخبر الأب سالفيرديرا بقولك هذا حتى يعفى نفسه من مهانة عصيانك لأوامره .

وارتعدت شفتا رامونا ، وامتلأت عيناها بدموع لم تستطع السنيورة أن تغيرها بكل سخريتها السابقة . ذلك أن الفتاة كانت تحب الراهب أشد الحب منذ وعت الحياة . وكان يهمها أن ترضيه أكثر جدا من اهتمامها بإرضاء السنيورة . إن استياءه منها يحزنها ، أما استياء السنيورة فيفزعها .

وعقدت يديها وقالت بابتهال :

ـــ أوه ، سيدتى .. الرحمة .. لا تقولى هذا للأب .

فردت السنيورة قائلة ببرود :

ـــ إن من واجبى أن أقول للأب كل مايجرى فى بيتى . وسوف يوافقنى على أنك ستستحقين أشد العقاب إذا أصررت على هذا العصيان . لسوف أخبره بكل شىء .

ثم بدأت تعيد الجواهر إلى الصندوق . وقالت رامونا فى إلحاح :

ـــ لا تخبريه أنت بكل شىء ، فسوف أخبره أنا ..

فهتفت السنيورة قائلة بقسوة جعلت رامونا ترتعد :

ـــ اسوف أحرص على عدم رؤيتك له .

www.ibtesama.com

ثم أردفت قائلة وهى تطوى أحد الأثواب الحريرية الثمينة .

ـــ سأتيح لك فرصة أخيرة إذا أطعتنى .. هل تعدين بأن تقطعى كل صلة بذلك المنتدى ؟

فقالت رامونا :

ـــ لا .. أبدا .. أبدا .

فصاحت السنيورة :

ـــ إذن تحملى النتيجة . والآن اذهبى إلى غرفتك .. انتظرى .. إننى أمنعك من التحدث بشىء من هذا إلى السنيور فيليب . هل تسمعين ؟

وأحنت رامونا رأسها وقالت :

ـــ نعم .

وانسابت من الغرفة ، وأغلقت وراءها الباب ، و بدلا من أن تمضى إلى غرفتها ، مرقت كالطريد هابطة درجات الشرفة ، وعبرت الحديقة وهى تنادى بصوت خافت ؟

ـــ فيليب .. فيليب .. أين أنت يا فيليب ؟

www.ibtesama.com

(١٢)

كان مربط الأغنام الصغير ، يقع وراء حقل الخرشوف ، على المنحدر الجنوبى المشمس الذى أغرى مرجريتا – لسوء حظها – على نشر كساء المذبح ذات يوم ليجف . وكان هذا المنحدر شبيها بشرفة كبيرة ، يقع مربط الأغنام فى أسفلها ، بعيداً عن مرمى الأنظار فى البيت . وكان هذا هو السبب الذى من أجله اختاره فيليب كمكان آمن يتحدث فيه مع اليساندرو .

ولما وصلت راموِنا إلى نهاية الممر الظليل فى الحديقة ، تلفتت يميناً ويسارا ، دون أن ترى أحداً على مدى البصر . وكانت عندما دخلت غرفة السنيورة قبل ساعة ، قد لمحت من النافذة شخصا ما ، أحست أنه فيليب ، ينحرف من الممر يسارا ، فى الطريق إلى مربط الأغنام . وتوقفت برهة فى تردد ، ومدت بصرها إلى نهاية الممر ، وتمتمت لنفسها بصوت مرتفع « لو أن السماء تخبرنى أين هو

www.ibtesama.com

الآن ؟ » . وأخذت ترتعد وهى واقفة ، خوفا من أن يفاجئها صـوت السنيورة حين تنادى عليها فى أية لحظة ، ولـكن الحظ كان فى جانب رامونا هذه المرة ؛ إذ ما كادت تفرغ من دعائها حتى رأت فيليب مقبلا ببطء من ناحية النبـع ، فطارت إليه قائلة :

ـــ فيليب . . فيليب . .

فقاطعها فيليب قائلا :

ـــ أجل يا عزيزتى ، إنى أعرف كل شىء . • أخبرنى اليساندرو .

ـــ لقد أمرتنى ألا أتحدث معك يا فيليب ، ولـكننى لم أستطع . فـماذا سـنفعل ؟ وأين اليساندرو ؟

فهتف فيليب بصوت كله الفزع .

ـ هل أمرتك أمى بعدم الحديث معى ؟ أوه ، لماذا يا رامونا عصيت أمرها ؟

لو أنها رأتنا نتحـدث ، لازدادت غضبا واستياء . أسرعى إلى غرفتك ، واتركى كل شىء لى ، وسوف أبذل كل ما أستطيع من جهد .

فقالت رامونا وهى تفرك يديها فى حزن .

ـــ ولـكن يا فيليب !

www.ibtesama.com

— إنني أعرف . . إنني أعرف ، ولكن لا ينبغي أن تزيدي أمي غضبا . إنني لا أدري ماذا ستفعل حتى أتحدث معها . عودي إلى غرفتك . ألم تطلب منك أن تبقى فيها ؟

فقالت رامونا بصوت بال :

ـ أجل ، ولكنني لا أستطيع ، أوه ، فيليب ، إنني خائفة ، ساعدنا . هل تظن أنك تستطيع مساعدتنا ؟ إنك لن تدعها تسجنني في الدير ، أليس كذلك يافيليب ، أين أليساندرو ؟ لماذا لا أرحل معه في هذه اللحظة ؟ أين هو ؟ دعنا نرحل الآن ياعزيزي فيليب .

وقال فيليب بأنفاس لاهثة وقد اكتسى وجهه بفزع رهيب :

— تسجنك في دير ؟ هل قالت هذا ؟ أسرعي إلى غرفتك يا عزيزتي رامونا دعيني أتحدث إليها ، ولكن أسرعي . . أتوسل إليك . إنني لن أستطيع أن أفعل شيئا لكما إذا رأتني أتحدث معك الآن .

ثم استدار وسار مسرعا إلى أدنى المنحدر .

وأحست رامونا أنها حقا وحيدة في الحياة . كيف تستطيع العودة إلى ذلك البيت ؟ ولكنها عادت تصعد في ممر الحديقة مرة أخرى ، وذهنها مشغول بعثات الخطط المتهورة للهرب ، أين . . أين اليساندرو ؟ لماذا لم يأت لإنقاذها ؟ وتخاذل قلبها ، ولم تستطع إلا أن تتهالك على فراشها حين دخلت غرفتها ، واستسلمت لنوبة عصبية من البكاء . ولو أنها عرفت أن اليساندرو كان منذ

www.ibtesama.com

نصف ساعة يركض بجواده فى الطريق الى تيميكيولا ، مبتعدا عنها فى كل دقيقة ، لاستبد بها اليأس الحقيقى .

وكان هذا ما أشار به عليه فيليب بعد أن سمع القصة كاملة ، وكان اليساندرو قد أعطاه صورة واضحة مركزة عن وجه السنيورة وصوتها حين أمرته أن يغرب عن وجهها ، بحيث امتلأ قلب فيليب بالجزع . إنه لم يعرف قط أن صورة الغضب استبدت بأمه يوما على هذا النحو . ولم يستطع أن يفهم سر هذا الغضب العارم ، وكان كلما أطال الحديث مع اليساندرو ، ازداد يقينا بأن من الأفضل أن يبتعد عن عينيها حتى تنحسر موجة الغضب وقد قال له :

— وسأقول لها إنى أرسلتك حتى لا تشعر بأنك ارتكبت خطأ آخر برحيلك المفاجىء . عد بعد أربعة أيام ، وسوف تجد الأمور قد استقرت فيما يجب أن تفعل .

وكان من العسير جدا على اليساندرو أن يمضى دون أن يرى رامونا ، إلا أنه لم يكن فى حاجة الى صيحة الدهشة من فيليب لكى يقتنع بأن من الحماقة محاولة رؤيتها . لقد هداه تفكيره إلى أن هذا فى حكم المستحيل .

وقال المسكين فى لهفة لفيليب وهو يحدق فى عينيه كأنما يريد أن يقرأ دخيلة نفسه :

— ولكنك ستخبرها بكل شىء ياسنيور فيليب ؟ سوف تخبرها أننى ذاهب من أجلها .

وقال فيليب وهو يصافح اليساندرو مصافحة الند للند :

— سوف أفعل بالتأكيد يا اليساندرو .. ويمكنك أن تثق بأنى سأبذل كل ماق وسعى من جهد لأجلكما .

فقال اليساندرو بوقار وقد تم تهدج صوته على مبلغ تأثره :

— ليباركك الله يا سنيور فيليب .

وقال فيليب لنفسه وهو يرقب اليساندرو فى أثناء اعتلائه صهوة جواده الذى كان مسرجا بالقرب من مربط الأغنام طيلة الليل :

«شاب نبيل . إننى لا أجد بين كل أصدقائى من هو أكثر رجولة وصراحة منه فى موقفه من هذه الأحداث كلها . ولهذا لست أعجب من حب رامونا له . إنه شاب نبيل ، ولكن ماذا يمكن أن نفعل ، ماذا يمكن أن نفعل ؟ !

واستبدت الحيرة البالغة بفيليب . ذلك أنه لم يحدث قط أن تأزمت الأمور بينه وبين أمه إلى هذا الحد . ولكنه يشعر أن هذا ماسوف يحدث بعد قليل . ويبدو أنه لم يكن يدرك مدى سلطانه على أمه، ومن ثم كان الشك يخامره فى قدرته على التأثير فى تصرفاتها . وكان التهديد بسجن رامونا بين جدران دير قد أفزعه أكثر مما يريد أن يعترف بينه وبين نفسه . ترى ألديها القدرة على تنفيذ هذا التهديد ؟ إن فيليب لايدرى ، ولكنه يؤمن بأنه لابد أن تكون قادرة على هذا وإلا لما نطقت بالتهديد . وأحس فيليب بأشد النفور والاستنكار لما فى هذا التصرف من ظلم . ومن ثم قال لنفسه :

«وكأنما ارتكبت الفتاة المسكينة خطيئة لا تغتفر عندما أحبت اليساندرو» .

www.ibtesama.com

ولسوف أساعدها على الهرب معه إذا ساءت الأمور . ما الذى يجعل أمى تتخذ هذا الموقف ؟»

وظل فيليب يروح ويجىء حتى ارتفعت الشمس فى السماء ، وحتى ذكرته حرارتها الشديدة بوجوب الالتجاء إلى ظل . ومن ثم ألقى بنفسه راقدا تحت أشجار الصفصاف ؛ إذ كان يخشى العودة إلى البيت . وكان نفوره الغريزى من المنازعات ، ورغبته فى تأجيل الموقف ، جعلاه يتلكأ فى مكانه الساعة بعد الأخرى . وكان كلما فكر فى الأمر ، ازداد عجزا عن الاهتداء إلى الطريقة التى يفاتح بها أمه فى الموضوع ، وازداد شكا فى جدوى الحديث معها بوجه عام . وفجأة سمع من يناديه باسمه . وكانت مرجريتا هى التى أرسلت لتدعوه إلى طعام الغداء ومن ثم هتف وهو يقفز واقفا :

— ياالسماء ، هل حان موعد الغداء ؟

وقالت مرجريتا وهى ترمقه بإمعان :

— أجل ياسنيور .

وكانت قد رأته وهو يتحدث مع اليساندرو ، ورأت اليساندرو وهو ينطلق بجواده فى طريق النهر ، وكذلك أدركت الشىء الكثير من وجهى السنيورة ، والسنيوريتا وهما تعبران معا غرفة الطعام بعد الإفطار . ومن ثم كان فى مقدورها أن تعرف على وجه التحديد ، تقريبا ، كل ماحدث خلال الساعات العشرين الأخيرة للشخصيات الرئيسية فى هذه المأساة التى بدأت هكذا على حين غرة ببيت آل مورينو . ورغم أنه كان من المفروض ألا تعرف شيئا ، إلا أنها كانت

www.ibtesama.com

فى الواقع تعرف كل شىء تقريبا . فلا عجب أن استبدت بها الانفعالات المختلفة وهى تترقب ماذا سيحدث بعد ذلك .

وخيم الصمت وتوتر الأعصاب على طعام الغداء الذى لم تشترك فيه رامونا بحجة أنها لاتزال مريضة ، وكان فيليب يبدو مرتبكا وعلى غير مألوف عادته . والتزمت السنيورة الصمت والحيرة الغاضبة تملأ نفسها ، وقد قالت لنفسها حين ألقت أول نظرة على وجه فيليب :

«لقد تحدثت إليه رامونا . . ولكن كيف ، ومتى فعلت هذا ؟»

ذلك لأنها ، بعد لحظات قليلة من انصراف الفتاة عنها ، تبعتها إلى غرفتها حيث وجدتها هناك ، فأغلقت عليها الباب من الخارج ، وجلست فى الشرفة بالقرب من نافذة الفتاة طيلة ساعات الصباح إلى الظهيرة . إذن كيف ومتى وأين استطاعت أن تتصل بفيليب ؟ وكلما فكرت السنيورة فى هذا ، ازدادت غضبا وحيرة ، إذ كانت ترى أن عصيان أحد لها أهون كثيرا من خداعها . وها قد وضح أن شيئا ما قد حدث تحت أنفها دون أن تجد له تفسيرا رغم أنه موجه ضدها . وقد فاض غضبها حتى أصبح موجها إلى فيليب أيضا بعد أن أضرمه رد رامونا وهى تتحداها قائلة :

« إن فيليب لن يسمح لك بهذا » فماذا فعل فيليب أو قال حتى يجعل هذه الفتاة تؤمن بأنه سيقف فى جانبها وجانب اليساندرو ؟ هل بلغ الأمر هذا الحد الذى يجعل السنيورة مورينو موضع التحدى فى بيتها من الأطفال والخدم .

www.ibtesama.com

وبصوت حاد ينم عن الاستياء الشديد ، قالت لفيليب وهى تنهض عن المائدة :

— أريد ياولدى أن أتحدث إليك فى غرفتى إذا كان لديك متسع من الوقت .

فقال فيليب وقد شعر بالارتياح الشديد لأن أمه اتخذت الخطوة الأولى التى التى لم يجرؤ على اتخاذها هو :

— بالتأكيد يا أمى .

وتقدم نحوها بسرعة ، وحاول أن يلف ذراعه حول خصرها كما اعتاد أن يفعل فى لحظات الحنان المتبادل . ولكنها دفعته عنها برفق ، ثم راجعت نفسها ، وأخذت ذراعه فى ذراعها واعتمدت عليه بثقلها وهى تسير بجانبه قائلة :

— هذه هى الطريقة الأنسب يا ولدى ، إذ يجب أن يزداد اعتمادى عليك مع مرور السنين . إن الشيخوخة تسرى فى جسمى بسرعة الآن . ألا ترانى تغيرت كثيرا يا فيليب فى العام الأخير ؟

فقال فيليب :

— لا يا أمى الحبيبة ! إننى فى الحقيقة لا أرى أى تغيير طرأ عليك فى الأعوام العشرة الأخيرة .

وكان صادقا فى هذا ، لأن عينيه لم تكونا تلحظان التغير الواضح الذى يبدو للآخرين ولاعجب فى هذا ، لأن الوجه الذى يراه هو ، دون غيره ، كان يشرق دائما بالعاطفة ، ويسطع بالحب ، كلما استدار إليه .

www.ibtesama.com

وتنهدت السنيورة بعمق وهى تجيب :

ـــ لابد أن هذا يرجع إلى حبك لى يافيليب ، فأنا نفسى أرى التغير يوماً بعد يوم وأرى المتاعب تترك من الأثر على مالم تكن تتركه وأنا فى سن الشباب وحتى فى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، بدا لى أنى كبرت بشكل مزعج .

وتطلعت إلى وجه فيليب وهى تجلس على المقعد الواسع الوثير الذى تعرضت فيه رامونا للإغماء قبل ذلك بساعات قليلة . وظل فيليب واقفاً أمامها ينظر بوجه حان إلى ملامحها دون أن يقول شيئاً . واستمرت هى تقول بصوت يزداد صلابة :

ـــ أرى أن رامونا قد أخبرتك بكل شىء .

وسعد فيليب بهذا السؤال الذى جعله يقول وهو آمن من الكذب :

ـــ لايا أماه ، إنها ليست رامونا ، وإنما اليساندرو هو الذى أخبرنى بكل شىء فى بكور هذا الصباح .

وكان قد أسرع فى الإجابة ليحول مجرى الحديث عن رامونا بقدر الإمكان وقد أردف قائلا :

ـــ جاء وتحدث إلى ليلة أمس بعد أن أويت إلى سريرى ، فطلبت منه أن يرجىء الحديث إلى الصباح حيث أستطيع أن أسمع منه كل ما يريد أن يقول .

وقالت السنيورة بارتياح :

ـــ آه .

www.ibtesama.com

ولما سكت فيليب ، أردفت قائلة :

— وماذا قال لك ؟

— أخبرنى بكل ماحدث .

وشاعت السخرية فى نبرات السنيورة وهى تقول :

— آه هل تعتقد أنه قال لك كل شىء ؟

— قال إنك أمرته أن يغرب عن وجهك ، وأن هذا يعنى ضرورة رحيله ، فطلبت منه أن يرحل فوراً ، إذ ظننت أنك تفضلين ألا تريه مرة أخرى .

وتتنهد السنيورة مرة أخرى وقد دهشت واغتبطت ، لأن فيليب آزرها فى موقفها فوراً ولكنها أسفت لرحيل اليساندرو . ومن ثم قالت :

— إننى لا أدرى هل كان من الأفضل أن تطرده فوراً أم لا . لقد قلت له إن عليه أن يتلقى الأمر منك . وكنت أظن أنك ستجد الوسيلة التى يمكن بها استبقاءه فى خدمتنا .

وحملق فيليب مدهوشا وهو لا يصدق أذنيه ؟ إن هذا لا يتفق مع سورة الغضب الشديد الذى كان يتوقعه ؟ هل يمكن أن تكون رامونا واهمة .

ولم يستطع من فرط دهشته ، أن يزن كلمات أمه بحذر ، ولم يحاول أن يفكر فيها بإمعان أو يتأكد من أن استبقاء اليساندرو فى الخدمة قد لا ينطوى حتما على الرغبة فى إرضاء رامونا ومن ثم هتف قائلا فى ابتهاج وبكل ما أثارته بارقة الأمل من حماسة ولهفة :

www.ibtesama.com

— آه . . يا أمى العزيزة . لو حدث هذا ، لتم كل شىء على ما يرام .

ودون أن يلاحظ الأمارات التى بدت على وجه أمه ، ودون أن يتوقف ليلتقط أنفاسه ، انطلق يفضى بكل مادار فى فكره وإحساسه عن هذا الموضوع :

— هذا تماما ما كنت أرجوه منذ أن رأيت الحب ينمو بينه و بين رامونا. إنه شاب ممتاز ، وأحسن يد عاملة استخدمناها فى المزرعة . إن العمال جميعاً يحبونه ، ومن ثم فهو خير من يصلح لرئاستهم ولو أنا عهدنا إليه بالإشراف على المزرعة كلها ، فلن يكون هناك اعتراض على زواجه برامونا ، لأن هذا سيتيح لهما رغد العيش معنا .

وهتفت السنيورة بصوت هبط على أذنى فيليب كأنه آت من عالم آخر . . أجوف . . غريب :

— كفى !

وتوقف عن الحديث ، وقد ندت عنه غمغمة اندهاش ، وكانت السنيورة عندما بدأ يتحدث ، قد أغضت ببصرها إلى الأرض كعادتها عندما تريد أن تركز انتباهها . ولما رفعت عينيها الآن وركزتهما على فيليب ، أخذت ترمقه بنظرة لم يستطع ، بكل مشاعر البنوة الكامنة فيه ، أن يحتملها بلا امتعاض ، إذ كانت تنظر إليه باحتقار يشبه الاحتقار الذى رمقت به راموناً من قبل . واربد وجه فيليب قائلا :

— لماذا تنظرين إلى هكذا يا أماه ؟ ماذا فعلت ؟

www.ibtesama.com

ولوحت السنيورة بيدها فى تعاظم وقالت :

ـ كفى ! لا تزد فى القول . إننى أريد أن أفكر بضع لحظات .

ثم عادت وركزت نظراتها على الأرض .

وأخذ فيليب يدرس ملامحها وقد بدأ ينمو فى قلبه ببطء إحساس بالتمرد لم يكن يظن أنه قادر على الشعور به من قبل . ولأول مرة أدرك مدى الفزع الذى أثارته أمه فى قلب فتاة مثل رامونا . ومن ثم قال لنفسه :

« يا للصغيرة المسكينة ، إننى مندهش كيف لم تمت إذا كانت أمى قد نظرت إليها كما فعلت معى الآن » .

وفى تلك اللحظات كان ثمة عاصفة تتجمع فى صدر السنيورة . وكان أعنف ما فيها سورة من الغضب ضد رامونا . ففضلا عن كل شىء آخر ، فإن الفتاة كانت السبب ، أو على الأقل ، المناسبة التى جعلت فيليب لأول مرة فى حياته يثير غضبها إلى هذا الحد الرهيب .

وقالت لنفسها بمرارة :

«وكأنما لا يكفى ما عانيته بسببها ، فتأتى الآن وتفسد ما بينى و بين فيليب» .

ولكن لم يكن هناك ما يمكن أن يفسد العلاقة بين الأم والابن طويلا . وكما يتدفق تيار الحمم على جانب البركان ، لكى يتدفق وراءه تيار آخر ، كذلك تدفق حبها لابنها وراء تدفق غضبها عليه ، مباشرة .

www.ibtesama.com

ولما رفعت عينيها، كانت مليئة بدموع نفذ منظرها إلى قلب فيليب . وأخذت هذه الدموع تنحدر على وجنتيها وهى تحملق فيه قائلة بصوت متهدج :

— سامحنى يا ولدى . ما كنت أظن أن هناك شيئاً يجعلنى غاضبة منك إلى هذا الحد . إن هذه الفتاة الفاجرة تسىء إلينا كثيرا ، ولهذا يجب أن ترحل عن البيت .

واضطرب قلب فيليب وهو يدرك أن رامونا لم تكن واهمة . وأحس بخجل مرير وهو يسمع كلمات أمه . إلا أن دموعها اطفت مشاعره وجعلته يقول لها فى صوت ملىء بالرقة والتوسل :

— إننى لا أدرى يا أماه لماذا تقولين عن رامونا إنها فاجرة ، فليس فى حبها لا ليساندرو ما يعيب .

فهتفت الأم قائلة :

— لقد وجدتها بين ذراعيه .

— إننى أعرف . وقد أخبرنى اليساندرو إنه كان يقول لها فى تلك اللحظة إنه يحبها ، وقالت له إنها تحبه وتوافق على الزواج منه عندما فاجأتهما .

فقالت الأم :

— هه ! أتظن أن ذلك الهندى كان يجرؤ على توجيه كلمة حب واحدة إلى السنيوريتا رامونا أورتينا لو لم تتصرف معه بلا حياء ؟ إننى لأعجب كيف نجرأ على الحديث معها بشأن الزواج إلا إذا كان هناك سر . .

www.ibtesama.com

ولم يسع فيليب إلا يهتف مستنكراً :

— أوه . أماه . . أماه .

وأدرك في لحظة خاطفة ، الصورة الرهيبة التي تـكمن في ذهن أمه عن الموقف كله ، وأحس بقلبه يغوص بين ضلوعه وهو يردد بصوت مشحون بالدلالة :

— أوه . أماه . . أماه :

واستمرت الأم تقول :

— نعم ، هذا رأيي ، إنني لا أرى أي سبب يمنعه من التردد في أن يتخذها لنفسه زوجة بنفس البساطة التي يتخذ بها الهندي زوجة من أي فتـاة هندية مثله .

فقال فيليب :

— إن اليساندرو لا يمكن أن يتخذ من أية فتاة زوجة بمثل هذه البساطة ، إلا إذا أمكن أن أفعل أنا هذا . . إنك تظلمينه . .

وتمنى لو أردف قائلا : « وتظلمين رامونا أيضاً » . ولـكنه خشي أن يزداد الأمر سوءاً بدفاعه عنها في تلك اللحظة .

وقالت السنيورة :

— لا . . إنني لا أظلم اليساندرو . بل إنني أعتقد أن رجالا قليلين جداً هم الذين يمكنهم أن يحسنوا التصرف في مثل هذا الموقف المغرى . كما فعل

www.ibtesama.com

اليساندرو . إننى لا أعتبره مسئولا عما حدث .. إن الخطأ كله فى جانب رامونا.

ونفد صبر فيليب . إذ لم يكن يعرف ، حتى هذه اللحظة ، كيف ملأت قلبه هذه الفتاة التقية الرقيقة التى أحبها كأخت فى صغره ، وكاد يحبها كامرأة فى شبابه . إنه لم يعد يستطيع أن يلتزم الصمت لحظة أخرى وهو يسمع هذا التعريض بشرفها ؟ ولهذا قال بصوت جعل السنيورة تنظر إليه بدهشة .

— أماه إننى لاأدرى كيف أمتنع عن إغضابك ، ولكننى لا بد أن أتكلم . إننى لاأستطيع أن أحتمل أقوالك هذه عن رامونا . لقد رأيت منذ وقت طويل أن اليساندرو يقدس الأرض التى تسير عليها وإن رامونا لاتصلح أن تكون امرأة إذا هى لم تر هذا أيضا . لقد رأت حبه ، وأحست به ، وأحبته بكل كيانها ، كما أتمنى أن تحبنى ذات يوم امرأة أخرى . وإذا وجدت من تحبنى كما تحب رامونا اليساندرو فسوف أكون سعيداً مدى الحياة ، والواجب فى رأيى أن يتزوجها ، وأرى من الواجب استبقاء اليساندرو هنا ، حتى يستطيعا الحياة معنا . ولست أرى أى ضرر وأى عيب فى هذا ، وإنما هو الوضع الطبيعى للأمور . وأنت تعرفين يا أماه أن رامونا لاتنتمى حقا لأسرتنا ، لأنها كما تعلمين نصف هندية .

وقاطعته بغمغمة ساخرة ، ولكنه أسرع يقول مستطردا ، لأنه وجد الشجاعة أخيراً لأن يقول مايريد ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، خوفا من أن تتحدث أمه إذا هو توقف ، وكان يشعر بالفزع مقدما مما قد تقول :

— لقد فكرت كثيراً فى مستقبل رامونا ياأماه . وأنت تعلمين أن كثيرا

www.ibtesama.com

جداً من الرجال يرفضون الزواج منها لأنها نصف هندية . وأنت نفسك ما كنت لتوافقين على زواجى منها لو طلبت هذا .

ومرة أخرى ندت عن السنيورة غمغمة فيها من الفزع أكثر مما فيها من السخرية . ولكن فيليب استمر يقول :

— لا .. إنك ما كنت لتوافقين طبعا . وكنت أعرف هذا دائما ولولا هذا ، لأمكن أن أقع فى حبها ، لأننى لم أر على سطح الأرض فتاة أجمل ولا أرق منها .

وكان فيليب قد بلغ من الشجاعة حد التهور . وما دام قد اشتبك فى الحرب فلا بد أن يستغل كل أسلحته ، فإذا لم يجد واحد منها ، استخدم الآخر :

— إنك لم تحبيها أبداً .. بل لا أظن أنك ملت مجرد ميل إليها .. وإنى لأذكر منذ كنت طفلا ، كيف كنت أشد عطفا على منها ، ولم أستطع أن أفهم السر فى هذا . وأنت الآن غير منصفة لها ، وقد راقبتها طوال الصيف ، ورأيتها مع اليساندرو دائماً . وأنت نفسك تعرفين أنه كان دائماً معنا فى الشرفة ، ليلا ونهارا وكأنه أحد أفراد الأسرة . وقد رأيتهما فى كل لحظة وأنا راقد مريض ، ولعلك فعلت هذا أيضا ، ولم أر قط أن اليساندرو قال أو فعل شيئاً يمكن الا أفعله أنا لو كنت فى مكانه . ولا أعتقد أن رامونا قالت أو فعلت شيئاً لا ينبغى أن تفعله أو تقوله أى أخت لى ، لو كان لى أخت .

وهنا سكت فيليب بعد أن قام بهجومه كأى قائد شاب متحمس يلقى بكل

www.ibtesama.com

قواته فى المعركة دون أن يحتفظ باحتياطى للطوارىء . ولم تكن هذه هى الوسيلة التى تكتسب بها المعارك .

وسكت مبهور الأنفاس ، بعد أن تحدث بهذه السرعة ، ولم يكن فى الواقع قد استرد كامل قواه ، بعد تلك النوبة الطويلة من الحمى .. ونظرت السنيورة إليه فى تساؤل وقالت بصوت هادىء :

ـ أنك لاتعتقد أن رامونا فعلت شيئاً لاترضى لأختك أن تفعله ، فهل ترضى أن تتزوج أختك من اليساندرو ؟

إن السنيورة مورينو لبارعة ؟ فقد استطاعت ، فى أثناء حديثه ، أن تدرك أشياء لم يكن فى وسعها أن تنفذها ! أشياء لم يكن من حسن السياسة أن تحاول القيام بها . فلا شىء ، فى رأيها ، يمكن أن يعوضها عن عداء فيليب لها . لاشىء يمكن أن يجرحها بقسوة مثل إحساسه نحوها بالسخط والاستياء .. لاشىء يمكن أن ينال منها مثل شعوره بأنها تريد أن تتحداه أو تحطم أهدافه . ومن ثم فإن غضبها الهائل لم يلبث أن تهاوى وخشع أمام قوة إرادتها فى مثل هذه الظروف . وإنها لن تسمح بتبادل الكلمات العنيفة مع ابنها . سوف تجعله يؤمن بأنه الذى يوجه سياسة بيت مورينو حتى فى هذه الأزمة .

ولم يجب فيليب. وهو يشعر أن سؤالها قد أصاب صميم الهدف . وكررت السؤال مرة أخرى ، عن عمد ، ولكن بصوت أكثر رقة وتلطفا . لقد استردت السنيورة حالتها التى كانت عليها قبل أن تفاجىء اليساندرو ورامونا

www.ibtesama.com

عند النبع . والآن ؛ ماأعدل السؤال وأقربه إلى المنطق وهى تكرره ببطء ، وبأمارات فى عينيها تنم عن تقديرها ووزنها للأمور :

— هل ترضى أن تتزوج أختك من اليساندرو؟

وشعر فيليب بالارتباك ، وأدرك الغاية التى تريد أن تدفعه إليها . ولكن لم يسعه إلا أن يجيب قائلا :

— لا يا أماه .. إننى لا أرضى ، ولكن ..

فقاطعته أمه قائلة :

— دعك من « لكن » الآن ، لأننا لم نصل إليها بعد .

ثم ابتسمت فى وجهه ابتسامة كلها الحب والحنان ، ولكنها ملأت نفسه بالفزع :

— إنك طبعا لن ترد إلا بإجابة واحدة عن سؤالى . فلو كانت لك أخت لآثرت أن تراها ميتة على أن تراها زوجة لواحد من هؤلاء الجنود .

وفتح فيليب فمه بلهفة ليقول :

— لا .. ليس هذا ما أعنى .

ولكن أمه هتفت تقاطعه :

— انتظر ياعزيزى . لنبحث كل موضوع على حدة . إننى أرى الآن مدى

www.ibtesama.com

مايمتلىء به قلبك من الحب . وأنا لم أشعر قط بالفخر بك كما شعرت الآن وأنا أنصت إلى دفاعك البليغ عن رامونا ، ولعلك تكون على صواب ، وأنا على خطأ ، بشأن سلوكها وأخلاقها إننا لن نناقش هذه المسألة الآن .

وهنا أدركت السنيورة ذلك الشيء الذى لا يمكنها أن تفعله ، ومن ثم استطردت تقول :

— إننا لن نناقش هذه المسألة الآن ، لأنها لا تتعلق بالموضوع الأساسى . إن واجبنا نحو رامونا ، فى مسألة كهذه ، لا يدور حول جدارتها أو تفاهتها . ولكن المهم هو هل يصح أن تسمح لها أن تفعل شيئاً لاترضى أن تفعله أختك .

وسكتت السنيورة وقد لاحظت ، فى غبطة خفية ، مابدا على وجه فيليب من ارتباك وتعاسة . ثم استطردت تقول بصوت أشد رقة :

— إنك لاتقر هذا ياولدى ؟ أليس كذلك ؟

ثم أخذت تنتظر إجابته . وقال فيليب مستكرها :

— لا يا أماه . لا أظن .. ولكن .

وقاطعته أمه لأنها لم تكن تريد أن يقول فى تلك الآونة شيئاً أكثر من الرد على أسئلتها ، فقالت :

— كنت واثقة بأنك لن تجيب بغير هذا . وبديهى أنه ليس من الصواب

www.ibtesama.com

أن تجعل رامونا تفعل شيئاً تأباه عليها لو أنها كانت من دمنا ولحمنا . هكذا كنت أرى واجبي نحوها دائماً ؛ فقد كانت أختي تريد أن تنشئها كما لو كانت ابنة حقيقية لها . ولذلك خلعت عليها اسمها . ولما ماتت أختي تحولت جميع حقوقها وواجباتها نحو الفتاة إلى أنا . و إنك لاتعتقد أن خالتك يمكن أن توافق على زواج ربيبتها من شاب هندى لو أنها كانت على قيد الحياة . . أليس كذلك ؟

ومرة أخرى انتظرت السنيورة إجابة فيليب ، ومرة أخرى سمعت الإجابة المقتضبة وهو يقول :

— لا . . لاأظن أنها كانت توافق .

— حسنا جداً . . إن هذا يضاعف مسئوليتنا نحوها ، إذ ليس علينا فقط ألا نسمح لرامونا بارتكاب شيء نراه عارا على واحدة من دمنا ولحمنا ، و إنما علينا ألا نخون الأمانة التى وضعها بين أيدينا الشخص الوحيد الذى من حقه التصرف فيها . أليس الأمر كذلك ؟

فقال فيليب المسكين :

— أجل يا أماه .

ورأى خيوط الشبكة تتجمع حوله ، وكان يحس بوجود ثغرة فى حديث أمه المنطق ، ولكنه لم يكن يعرف أين هى ، بل إنه هو نفسه لم يكن يدركها بوضوح بسبب اضطراب تفكيره . شيئاً واحدا كان يراه بجلاء ، وهو أنه لابد

www.ibtesama.com

لرامونا ، برغم كل ما قيل وما حدث بأن تتزوج اليساندرو ولكن هذا الزواج كما يبدو بوضوح ، لن يتم أبداً بموافقة أمه ولا بموافقتي الفعلية أيضا ، بعد أن أوضحت أمي الأمر على هذا النحو . «إنني لا أدري كيف سيتم ، ولكنني وعدت اليساندرو ببذل كل ما في وسعي من أجله . اللعنة على الحظ ، لشد ما أتمنى لو أنه لم يضع قدمه في هذا المكان» هكذا قال فيليب لنفسه بلا منطق ، و إنما بإحساس من التعب والحيرة .

واستطردت السنيورة تقول :

— سوف أشتد في لوم نفسي دائما لأنني عجزت عن رؤية ما كان يجرى هنا . وقد مكث اليساندرو معنا ، كما قلت ، مدة طويلة هنا منذ مرضك . . مكث بغنائه ، وبموسيقاه ، وبهذا الشيء أو ذاك ، ولكنني أستطيع القول عن صدق ، إنني لم أفكر قط في احتمال وقوع هذا الخطر ، أي في أن رامونا ستنظر إليه ، كحبيب ، أكثر من نظرتها إلى رجل مثل چوان كانيتو أولويجو ، أو أي واحد من الرعاة أو العمال ، إنني أشعر بندم لا يوصف . ولست أدري ماذا يمكننا أن نفعل بعد الذي حدث .

وقال فيليب متعجلا :

— هذا هو المهم . . هذا هو المهم يا أماه . . أترين — أترين أن الوقت قد فات ؟

واستمرت السنيورة في حديثها وكأن فيليب لم يقل شيئا :

www.ibtesama.com

— أعتقد أنك سوف تأسى كثيراً عند افتراقك عن اليساندرو ، كما أنك خططت على نفسك عهداً لاستخدامه فى المزرعة إذا وافق . و بديهى أنه ليس من اللائق أن تبقى رامونا هنا ، بعد كل ما حدث ، فتراه أمامها دائماً . ومن ثم يجب أن تستبعد ولو لمدة قصيرة حتى تتغلب على هذه العاطفة الغريبة التى تظن أنها تحملها له . إنها لن تدوم ، لأن مثل هذه العواطف المفاجئة لا تدوم أبدا .

وأردفت السنيورة قائلة بمكر :

— ما رأيك يا فيليب لو أننا أرسلناها إلى مدرسة الدير لمدة قصيرة . . لقد كانت سعيدة جدا هناك .

وتمادت السنيورة فى حديثها أكثر مما يستطيع فيليب أن يتحمل ، ومن ثم أفلت من يد الشاب زمام أعصابه ، و إذا هو يتحدث بنفس الجرأة التى بدأ بها حديثه الأول ، متذرعا بوجه رامونا وصوتها عندما لاذت به فى الحديقة قائلة : « أوه فيليب ، إنك لن تسمح بأن أسجن فى الدير ، أليس كذلك ؟ »

وقال لأمه هاتفا :

— أماه . . إنك لن تفعلى هذا أبدا . . إنك لن تسجنى الفتاة المسكينة فى الدير !

ورفعت السنيورة حاجبها فى دهشة وقالت :

— من تحدث عن سجنها ؟ لقد كانت رامونا فى مدرسة الدير من قبل . و يمكنها أن تعود إليها . . إنها لم تكبر بعد على مرحلة التعليم . إن تغيير الجو والاهتمامات هو خير ما يساعد فتاة فى مثل هذه الظروف على النسيان . هل

www.ibtesama.com

يمكنك أن تفكر فى حل أفضل من هذا يا ولدى ؟ ما هو رأيك ؟

وللمرة الثالثة سكتت السنيورة فى انتظار إجابته .

وكانت وقفات السنيورة هذه ، مع أسئلتها المباشرة ، تشبه العنكبوت حين يتراجع قليلا عن ضحيته التى وقعت فى حبائله ولكنها لا تزال تظن أنها طليقة . إنه ، أى العنكبوت ، يستريح قليلا من نسج الفخ حولها ليراقبها وهى تتخبط . وكانت هذه الأسئلة البارعة التى تقوم على الافتراض ، وتؤخذ على أنها الحل الطبيعى للمشكلة ، بينما المشكلة لا تزال بعيداً عن الحل . . هذه الأسئلة كانت دائما من أهم الأسلحة التى فى جعبة السنيورة . وقلما كانت تخيب .

وصاح فيليب فى النهاية :

– رأيى . رأيى ؟ هذا هو رأيى .. لندع رامونا تتزوج اليساندرو . إننى لا أستطيع إلا أن أتفق معك بشأن واجبنا نحوها . وإنك لعلى حق فى هذا . ولكن المسألة ، كما تصفينها أصبحت شديدة التعقيد بالنسبة إلينا .

وقالت السنيورة فى تنهد :

– نعم .. إنها شديدة التعقيد باعتبارك رب الأسرة . ولست أدرى كيف ستواجهها .

فقال فيليب بنفس الجرأة :

– إننى لا أنوى أن أواجهها . إننى لا أريد أن يكون لى بها أى شأن من

www.ibtesama.com

البداية إلى النهاية لتذهب معه إذا كانت تريد .

فسألته السنيورة برفق :

— بدون موافقتنا ؟

— نعم ، بدون موافقتنا إذا لم يكن بد . ولست أرى ، كما ذكرت أنت ، كيف يمكن أن نتحمل نحن أية مسئولية بشأن زواجها من اليساندرو . ولكن دعيها بحق السماء ترحل .. إنها سترحل حتما . إنك لا تدرين قط مدى حبها لاليساندرو أو حب اليساندرو لها .. دعيها ترحل .

فسألته السنيورة باهتمام :

— أتعتقد حقا أنها قد تهرب معه إذا لزم الأمر .. تهرب وتتزوجه برغم رفضنا الموافقة على هذا الزواج ؟

— نعم .

— إذن فمن رأيك أن الحل الوحيد أمامنا أن ننفض أيدينا من الموضوع كله ، ونترك لها الحرية لتتزوج بمن تشاء .

فقال فيليب وهو يحس بالراحة تنساب إلى قلبه مع كلماته :

— نعم ، هذا هو رأيي يا أماه . إننا لن نستطيع أن نمنعهما ، ولا جدوى من المحاولة . هل نخبرهما بأن في مقدورهما أن يفعلا ما يشاءان .

وقالت السنيورة :

www.ibtesama.com

— إن اليساندرو سيتركنا عندئذ بطبيعة الحال ؛ إذ ليس من الممكن أن يبقيا هنا !

فقال فيليب بقلق :

— انى لا أرى ما يمنعهما من البقاء .

— لسوف تعرف السبب لو فكرت لحظة . إن بقاءهما معنا دليل قوى على موافقتنا ، فهل ترى أن هذا ممكن ؟

فأغمض فيليب عينيه وقال :

— إذن أعتقد أنهما لايستطيعان الزواج هنا .

— وماذا يمكننا أن نفعل غير هذا مادمنا لانوافق بقلوبنا على هذا الزواج يا ولدى ؟!

فقال فيليب وهو يضرب جبينه بيده :

— هذا صحيح يا أماه . . إذن علينا أن نرغمهما على الهرب !

فقالت بفتور :

— أوه ، لا . إذا كانا سيرحلان ، فليرحلا بإرادتهما . ونحن نرجو ألا يفعلا شيئا ينم عن الحماقة والخطأ . لأنهما لوفعلا هذا ، فسوف نتهم دائما ، كما أظن ، بأننا أهملنا فى واجب منعهما . ولكن إذا كنت ترى أن هذا ليس من الحكمة فى شىء ، أو أنه لا جدوى من المحاولة ، فليس هناك ، فى رأيى ، ما يمكن أن نفعله .

www.ibtesama.com

ولم يجب فيليب ، وإنما شعر بأنه انهزم ، وأنه خذل صديقه اليساندرو وأخته رامونا، كأنما أوقعت به شبكة من الظروف والتعقيدات في موقف زائف، إنه لم يعد يرى ماذا يمكن أن يطلب من أمه أكثر مما فعل ، وكذلك لم يعد يرى أن في مقدوره أن يقدم لاليساندرو ورامونا أقل من السعي لزواجهما ، ومن ثم شعر بالغضب وبالإرهاق ، والحيرة .

وقالت السنيورة برفق وهي تدرس ملامح وجهه :

— يبدو لي ياعزيزي فيليب أنك غير راض . وهذا في الواقع هو الموقف الطبيعي في مثل هذه الظروف التعسة . ولكن هل يمكنك أن تفكر في حل آخر مناسب .

فقال فيليب بمرارة :

— لا . إنني لا أستطيع . وهذا أسوأ ما في الأمر . إن المسألة كلها تبدو كأننا نطرد رامونا من البيت .

فهتفت السنيورة قائلة :

— فيليب . . فيليب . ما أظلمك لنفسك ! إنك تعرف أنك لن تستطيع أن تفعل هذا . إنك تعرف أنها تقيم هنا دائما كما لو كانت ابنة لنا ، وسوف تبقى هكذا دائما إذا أرادت . أما إذا اختارت أن تدير لنا ظهرها وترحل ، فهل هذا ذنبنا ؟ لاتدع عطفك على هذه الفتاة الضالة يعميك عن إنصاف نفسك أو إنصافي ! نطرد رامونا من البيت ؟ إنك تعرف أني وعدت أختي بتربيتها

www.ibtesama.com

كابنة لى . وكنت أشعر دائما أن ابنى سوف يتلقى هذه الأمانة منى بعد موتى . لسوف تبقى رامونا فى بيت مورينو ما دامت تريد هذا . ومن ثم فليس من الإنصاف أن تقول إننا نطردها .

وطفرت الدموع فى عينى السنيورة .

وصاح فيليب التعس :

ـــ سامحينى يا أمى العزيزة لأنى أثقل عليك بعد كل ما تحملت من أعباء. والواقع أن هذه المأساة قد أفقدتنى القدرة على وزن الأمور كما ينبغى . إننى لم أعد أرى أى شىء على حقيقته . لقد تحملت يا أمى العزيزة العبء كله وحدك . وليت فى مقدورنا أن نزيحه عنك لتستريحى .

فأجابت السنيورة قائلة :

ـــ أشكرك على مواساتك لى ياولدى فيليب . ولولاك أنت لانهرت تحت أعبائى ومتاعبى الكثيرة منذ أمد بعيد . ولكن هذا الذى حدث ، يعتبر من أشدها ثقلا . فأنا أشعر أننى و بيتى معرضان للعار . و إذن فلابد من الخضوع للأمر الواقع . ولكن كما قلت يافيليب أتمنى أن نزيح هذا العبء ونستريح . ولعل من الأوفق أن نستدعى رامونا ونخبرها بما استقر عليه رأينا ولاشك أنها فى أشد حالات القلق . لسوف نستقبلها هنا .

وكان فيليب يؤثر جداً لو استطاع أن يرى رامونا بمفرده ، و إذ كان لا يعرف كيف ينفذ هذا ، فقد وافق على اقتراح أمه .

www.ibtesama.com

وفتحت السنيورة الباب ، وسارت ببطء فى الممر ، ثم فتحت قفل بابه راموناوقالت :

— هل تسمحين ياراموناً بالحضور إلى غرفتى ؟ إن لدىّ ولدى فيليب ما نريد أن نقوله لك .

وتبعتها رامونا مثقلة القلب وهى تحس أن ثمة شيئاً لا خير فيه فى انتظارها. ومن ثم كانت تقول لنفسها « لقد جعلت السنيورة ابنها يفكر بعقليتها . أوه .. ماذا سيجرى لى ؟ »

وأرسلت نظرة تنم عن العتاب والتوسل إلى فيليب الذى ابتسم لها بطريقة طمأنتها . على أن هذا الاطمئنان لم يدم طويلا حين بدأت السنيورة الحديث بقولها :

— سنيوريتا رامونا أورتيغا .

وسرت الرعدة فى جسم فيليب الذى لم يكن يعلم أن فى مقدور أمه أن تتحدث بمثل هذه اللهجة ، لقد لاح له أن هذه الكلمات قد فتحت هاوية بين رامونا وبقية العالم ، ذلك أن تلك الكلمات كانت باردة وسمجة ، كما لو كانت السنيورة تتحدث إلى شخص غريب .

— سنيوريتا رامونا أورتيغا . لقد تناقشت مع ابنى فيما ينبغى أن نفعل إزاء هذا الموقف المؤلم المهين الذى وضعتنا فيه بسبب علاقتك بذلك الهندى اليساندرو. وإنك لتعلمين طبعاً — أو يجب أن تعلمى — أن من المستحيل علينا إطلاقاً أن نوافق على زواج كهذا . لأننا لو فعلنا هذا لخنا الأمانة ، ولجلبنا العار على بيتنا .

وشحب وجه رامونا وزاغت نظراتها ، وفتحت فمها لتتكلم ، ولكن

www.ibtesama.com

الكلمات توقفت فى حلقها . ولما نظرت إلى فيليب ورأته مطرقاً بعينيه إلى الأرض وقد اكتسى وجهه بغضب الارتباك ، امتلأ قلبها باليأس . لقد تخلى فيليب عن قضيتها ! أوه ، أين .. أين اليساندرو . وأرسلت صيحة خافتة وهى تعقد كفيها ، وحزت الصيحة فى قلب فيليب ، وبدأ يدرك ، وهو يرى آلام رامونا ، أنها أحب إليه جداً مما كان يظن ، ولم يكن الأمر ، فى ظروف كهذه ، يحتاج إلا إلى شىء قليل ليعود فيليب إلى حبها كامرأة مرة أخرى ، لقد أحس عندئذ أنه يريد أن يقفز إليها ، و يأخذها بين ذراعيه و يتحدى أمه ، ولكنه بذل كل جهده ليبقى صامتاً على أمل أن تفهم رامونا موقفه الحقيقى فيما بعد .

ولكن صيحة رامونا لم تؤثر فى صوت السنيورة البارد وهى تستطرد قائلة دون أن يبدو عليها أنها سمعت شيئاً :

ــ لقد أخبرنى ابنى أنه لا جدوى من محاولة منع هذا الزواج ، أى إنك سترحلين مع ذلك الرجل على كل حال وأعتقد أنه محق فى رأيه هذا بعد أن أخبرتنى بنفسك أن الأب سالفيرديرا لو منعك عن هذا الزواج لما أطعته . وطبعاً إذا كان هذا هو إصرارك ، فلا حيلة لنا فى الأمر . وحتى لو وضعتك فى حراسة الكنيسة ، وهذا ما كانت تفعله بالتأكيد أختى التى تبنتك لو أنها على قيد الحياة ، لأمكنك أن تهربى بوسيلة ما . وبهذا تزيدين العار الذى جلبته على بيتنا. ويرى فيليب أن الأمر لا يستحق بذل المحاولة لإعادة الصواب إلى عقلك ، ومن ثم فلن نفعل شيئا، وأحب أن أؤكد لك أن ابنى ، كرب للأسرة ، وأنا كممثلة لأختى ، نعتبرك فرداً فى أسرتنا ، ومادام لنا بيت ، فهو بيتك ، كما كان دائماً . فإذا رأيت أن ترحلى وأن تجلبى العار على نفسك وعلينا بالزواج من هندى ، فلا حيلة لنا فى هذا .

www.ibtesama.com

وسكتت السنيورة، ولم تقل راموناشيتا ، وإنما أخذت تركز نظراتها على وجه السنيورة كأنما تريد أن تنفذ إلى أعماق نفسها . وكانت الفتاة قد بدأت تدرك طبيعة السنيورة على حقيقتها ؛ ذلك أن غرائزها ، وقوة إدراكها كانت قد شحذت بالحب .

وسألتها السنيورة قائلة :

— هل لديك ماتقولينه لى أو لابنى ؟

وأجابت رامونا قائلة :

— لا ياسنيورة . إننى لاأجد ماأقول أكثر مما قلت فى هذا الصباح .

ثم أضافت قائلة :

— نعم . . هناك ماأريد أن أقول . فلعلى لن أستطيع أن أتحدث إليك مرة أخرى قبل أن أرحل .

إنى أشكرك مرة أخرى على إيوائك لى كل هذه السنين . وأنت أيضا يافيليب .

ثم استدارت بوجهها نحوه وقد أطلت من عينيها الدامعتين كل ماتحمله فى قلبها من حب مكبوت ، ومن حزن ، وأردفت قائلة :

— وأنت أيضا ياعزيزى فيليب . لقد كنت دائما شفيقا بى . وسوف أحبك مادمت على قيد الحياة .

www.ibtesama.com

ومدت يديها إليه ، وتناولهما وهم بالكلام ، ولكن السنيورة قاطعته لأنها لم تكن تريد أن تقوم مثل هذه العواطف العائلية بين ابنها ورامونا . ومن ثم قالت :

— هل نفهم أنك راحلة الآن ؟ هل فى نيتك الرحيل فوراً ؟

فقالت رامونا متلعثمة :

— إننى لا أعرف ياسنيورة ، فأنا لم أر بعد اليساندرو ، وأنا لم أسمع .

ثم التفتت فى حزن إلى فيليب الذى قال عفواً :

— لقد رحل اليساندرو .

وصرخت رامونا :

— رحل ؟ لا . لم يرحل يا فيليب !

فرد فيليب قائلا :

— لمدة أربعة أيام فقط.. إلى تيميكيولا .لقد خطر لى أنه من الأفضل له أن يبتعد يوما أو يومين ، ولسوف يعود فورا . وربما يصل بعد غد .

وسألت رامونا هاتفة :

— وهل أراد أن يذهب ، ولماذا ذهب ولماذا لم تدعنى أذهب معه.. لماذا ؟ لماذا ذهب ؟

فقالت السنيورة وقد ضاقت بالموقف وبالعطف الذى رأته فى عينى ابنها على الفتاة .

www.ibtesama.com

— لقد ذهب لأن ابنى طلب منه هذا. لقد رأى ، وله الحق ، أنى لا أحتمل رؤيته فى الوقت الحاضر . ولهذا طلب منه أن يبتعد ، وقد أطاعه اليساندرو.

واستدارت رامونا ، كحيوان جريح فى مأزق ، عن فيليب إلى السنيورة ، وهتفت قائلة وهى ترفع يدها اليمنى والعزيمة تطل من عينيها رغم الدموع المنحدرة منهما :

— إنك قاسية ، وسوف يعاقبك الله .

ودون أن تنتظر لترى أثر كلماتها ، ودون أن تعيد النظر إلى فيليب ، غادرت الغرفة بسرعة .

وقالت السنيورة :

— أترى . . إنها تتحدانا .

وقال فيليب :

— إنها فى حالة يأس . وإنى لآسف إذ أبعدت اليساندرو عن المكان .

— لا يا بنى . لقد كنت حكيما كعادتك دائما . فمن المحتمل أن تعود إلى صوابها بعد أن تفكر فى الأمر على انفراد وهدوء بضعة أيام .

فصاح فيليب :

— إنك لا تعنين أن تسجنيها فى غرفتها يا أماه ؟ أليس كذلك ؟

فنظرت السنيورة إليه فى عجب وقالت :

— أترى أن هذا ما يجب أن نفعله ، ألم تقل إن كل ما فى وسعنا أن نفعله

www.ibtesama.com

حو ألا نتدخل في شئونها ؟ أن ننفض أيدينا ، بقدر ما نستطيع ، من كل المسئولية نحوها .

فقال فيليب مرتبكا :

— نعم ، نعم ، هذا ماقلته ، ولكن يا أمي . . .

وتوقف لأنه لم يعرف ماذا يريد أن يقول . ونظرت أمه إليه برفق وقد ارتسمت على وجهها أمارات القلق والتساؤل ، وقالت :

— ماذا تريد أن تقول ياعزيزي فيليب ، ألديك ما تريد أن تقوله أو تفعله ؟

فقال فيليب :

— ماذا تنوين أن تفعلي يا أماه ، يلوح لي أنني لا أفهم ماذا تنوين أن تفعلي ؟

— لا شيء يا فيليب . لقد أقنعتني تماما أنه لا جدوى من كل مجهود نبذله ولهذا فلن أفعل شيئاً .

— إذن فما دامت راموننا هنا ، فيجب أن يبقى كل شيء على ما كان عليه؟

فابتسمت السنيورة بحزن وقالت :

— أتعتقد أن هذا ممكن يا عزيزي فيليب ، فتاة تعلن عن إصرارها على عصيانك وعصياني ، بل وعصيان الأب سالفيرديرا أيضاً — فتاة سوف تجاب

www.ibtesama.com

العار على اسم موريتو ، واسم أورتيتا . . هل يمكن أن نحمل لها نفس شعورنا السابق تماما ؟

فقال فيليب فى ضيق :

— لا . . طبعا لا . . ولكننى أعنى أن كل المظاهر يجب أن تبقى على ما كانت عليه .

— أظن هذا . أليس هذا هو رأيك ؟ إذن يجب فى رأيى أن نحاول العمل به . أليس كذلك ؟

وغمغم فيليب متأوها :

— أجل . . إذا أمكننا !

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

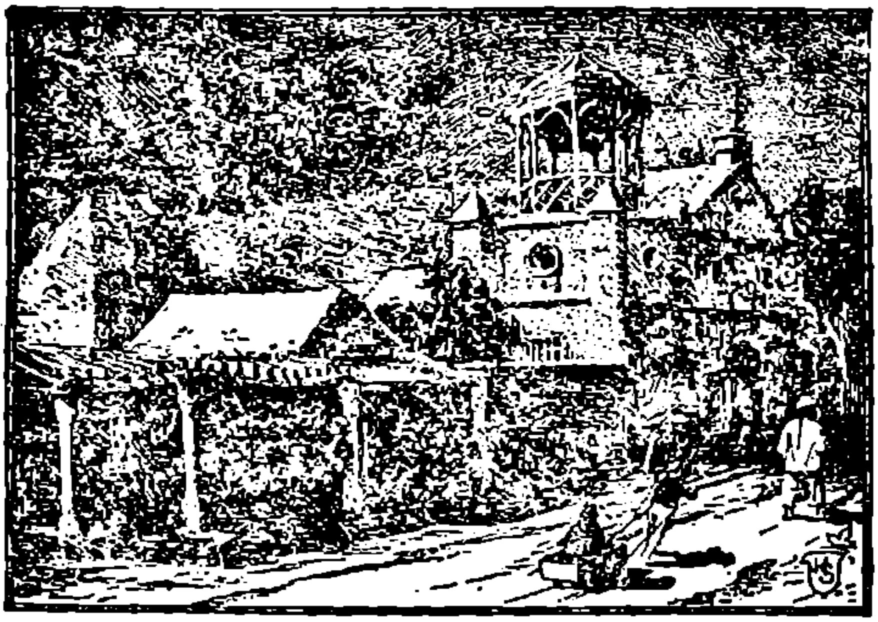

(١٣)

لم يحدث قط أن خذلت السنيورة مورينو فى أمر ما كما حدث لها فى أمر راموناوالساندرو فكانت تشعر بالضيق كلما فكرت فى حديثها مع فيليب ، وكلما تذكرت كيف انتهت النتيجة إلى غير ما كانت تريد فى أول الأمر ، أى إرسال رامونا إلى الدير ، وإبقاء الساندرو مشرفاً على المزرعة وتحويل جواهر آل أورتينا إلى الكنيسة . كان هذا كله ما أرادت أن يتم ، ولكن الذى حدث بدلا من هذا ، أن الساندرو لن يبقى مشرفاً على المزرعة ، وأن رامونا لن تذهب إلى الدير ، وإنما ستتزوج الساندرو ، وسيرتحل الاثنان معاً - أما جواهر أورتينا فسوف يتقرر مصيرها فيما بعد . سوف تترك النظر فى أمرها للأب سالڤيرديرا ، ذلك أن السنيورة لم تستطع ، رغم جرأتها أن تتحمل مسئولية النظر فى أمر هذه الجواهر بمفردها .

www.ibtesama.com

ولـكن المهم فى هذا الأمر هو ألا يستشار فيليب بشأنها . إنه لم يعرف شيئاً عنها قط . ولا داعى لأن يعرف الآن . وإن فيليب بميله الشديد إلى جانب رامونا لا يستطيع أن يكون منصفاً فى أمر كهذا . إنه سيرى أن من المؤكد — بدافع من الشهامة الزائفة - أن لرامونا الحق فى امتلاكها ، بل ليس من المستبعد أن يكون للأب سالفيرديرا هذا الشعور نفسه . فإذا حدث هذا ، فلا بد لها أن تخضع ، وإن كان هذا الخضوع سيكون أقسى عليها من كل شىء آخر . وإن السنيورة لتكاد أن تكون مستعدة لإخفاء الأمر كله عن الأب سالفيرديرا لو لم يكن موجوداً فى ساعة احتضار السنيورة أورتينا ، وعالما بكل التفاصيل الخاصة بشأن ابنتها للتبناة . وعلى أية حال ، فإن الأب سالفيرديرا ان يعود إلى المزرعة قبل مضى عام تقريباً ، وهى لن تغامر ، فى خلال هذه المدة ، بالكتابة إليه عن هذا الموضوع ، إن الكنز سيظل بأمان وراء تمثال سانت كاترين كما ظل هكذا طيلة السنوات الأربع عشرة الماضية ، أى ينبغى أن يبقى فى مخبئه هناك ، وعندما ترحل رامونا مع اليساندرو ، سوف تكتب هى — السنيورة — للأب سالفيرديرا لتخبره بما حدث من وجهة نظرها ، وتطلب منه أن يؤجل النظر فى كل شىء بعد ذلك إلى حين يلتقيان .

وهكذا أخذت تدبر وتفكر ، وتنسج خيوط المستقبل فى ذهنها الذى لا يكل حتى خففت عن نفسها بعض ما أصابها من خذلان .

ليس هناك من هو أبرع فى الدفاع عن نفسه مثل الكبرياء المهيضة . فإن لذلك وسائل نابغة فى إقالة العثرات — وسائل تجعله يشعر بمرارة الهزيمة بقسوة إذا عجز فى النهاية عن اكتساب بعض الغنائم . والأخطر من هذه الوسائل النابغة

www.ibtesama.com

للتعويض ، قدرتها على خداع نفسها . وهى فى هذه الناحية تتجاوز حد الغرور آلاف المرات . إن الغرور المهيض يعترف بالحقيقة حين يصاب بهزيمة قاتلة ، ولا يجد بأساً فى السير خارج الميدان ، مترنحاً ، بائساً ، بلا مكابرة أو ادعاء . أما الكبرياء فإنها تظل رافعة علم التحدى إلى النهاية . وكلما هزمت فى ميدان ، عادت بنفس السرعة إلى نشر علمه فى ميدان آخر ، دون أن تعترف قط بأن فى هذا الميدان الآخر شرفاً أقل مما كان فى الميدان الأول ، أو فى الميدان الثالث شرفاً أقل مما كان فى الميدان الثانى ، وهكذا حتى تخر الكبرياء صريعة . والواقع أنه ليس من المستبعد أن يشعر المرء بالإعجاب بمثل هذا النوع من الكبرياء وأن أصحاب هذه الكبرياء ليكونون على جانب كبير من القسوة ضد كل من تحدثه نفسه بالوقوف فى طريقهم ، ولكنهم لا يترددون فى القسوة على أنفسهم بنفس الدرجة إذا تطلبت كبرياؤهم هذا . وكم من آمال ضائعة استطاعت مثل هذه الكبرياء أن تحملها إلى الهدف عندما تكون جميع الحوافز قد ماتت فى صدور الناس ، وكم من تيجان استردها هذا اللون من الكبرياء ، بعد أن يئس أصحابها من استردادها .

وقبل أن تنتهى فترة ما بعد الظهر ، كانت السنيورة قد رسمت خطتها ، وحددت خطوط المستقبل ، وأعادت كل شىء إلى ما كان عليه . وهكذا هدأت آلام شعورها بالهزيمة ، واستردت هدوءها النفسى ، وعادت إلى مشاغلها العادية كما كانت من قبل . إنها « لن » تفعل شيئاً فيما يختص برامونا . ولكنها فقط هى التى تعرف معنى هذا ، وكل ما ينطوى عليه من مرارة . وتمنت لو أن فيليب « لا » يفعل شيئاً أيضاً . ولكن عقلها كان غير مطمئن إلى تصرفات

www.ibtesama.com

فيليب فى هذا الشأن ، لقد استطاعت حقاً ، وبلا رحمة ، أن توقعه فى فخ كلماتها ، خطوة بعـــد خطوة ، حتى دفعت به إلى الموقف الذى أرادت أن يتخذه . أى حتى أصبح متحداً معها فى موقف واحد وفى اتخاذ سلوك واحد .
ومع هذا فإنها لم تخدع نفسها عن حقيقة شعوره بالنسبة الموضوع كله . إنه يحب رامونا ، ويعز اليساندرو . فإذا استثنينا مسألة كبرياء الأسرة ، وهى المسألة التى ما كان يفكر فيها لو لم تبرزها هى له ، والتى لابد أن تذكره بهـا دائماً حتى لا ينساها ـ إذا استثنينا هذه المسألة ، لآثر أن تتزوج رامونا اليساندرو وتبقى معه فى هذه المزرعة ، وكان هـذا كله هو مادار بذهن فيليب بعد أن خرج عن دائرة تأثير أمه . ومع ذلك فإنها لا تنوى أن تتحدث معه فى هـذا الموضوع مرة أخرى أو تسمح له بالحديث فيه معها . إن خير الوسائل لتحقيق أهدافها هى أن تجمد الاتفاق الذى انتهيا إليـه ، أى عدم « تدخلهما » فى الموضوع بعد ذلك ، على أساس أن هذا الحديث المؤلم لا ينبغى أن يدور بينهما مرة أخرى ، وعليهما من ثم أن ينتظرا فى صمت وصبر ، ما سوف تفعله رامونا وأن يتحملا كل عار ، وكل ألم تجلبهما ، باختيارها ، على الأسرة التى آوتها منذ طفولتها حتى الآن .

وأخذت تفاصيل هذا « الشىء » الذى لا تنوى أن تفعله ، يرتب وينسق ببطء فى ذهنها ، لا ينبغى أن يحدث أى تغيير ظاهرى فى مكانة رامونا بالبيت . إن من حقها أن تروح وتغدو فى حرية كاملة ، وبلا أية رقابة على حركاتها . إن من حقها أن تأكل وتنام وتنهض وتجلس معها كما كان الأمر من قبل . لن تكون هناك كلمة أو تصرف يجعل فيليب العطوف الحساس يعمل على إغراء رامونا بالرحيل عن المكان . ومع هذا كله يجب أن تجعل رامونا تحس فى كل

www.ibtesama.com

لحظة من كل ساعة أنها تحمل العار على رأسها ، وأنها معهم ولكن ليست معهم ، وأنها مادامت قد اختارت موقفا معينا ، فعليها أن تحتمل كل النتائج المترتبة عليه . ولكن كيف يمكن أن يتم هذا ؟ إن السنيورة لا تذكر التفاصيل بكلمات ، وإنما تعرف الوسيلة فى ذات نفسها أتم المعرفة . وهذا هو الشىء الوحيد الذى سيعيد إلى الفتاة صوابها ، إن أمكن أن يعود . والأمل فى هذا لا يزال قائما . هكذا كانت السنيورة تظن غافلة عن طبيعة رامونا ، أو عمق حبها لاليساندرو بحيث يحتمل أن تدرك رامونا ، بعد هذه المعاملة ، مدى ما ارتكبته من خطأ ، وما سوف ترتكبه إذا تمسكت بموقفها ، فإذا أدركت هذا ، واعترفت بخطئها ، وصرفت النظر عن الزواج ـ وهنا أحست السنيورة بالرقة فى تفكيرها عندما وصلت إلى هذه المرحلة ، إذا خضعت رامونا وعادت إلى مكانتها الطبيعية كفرد فى أسرة مورينو ، فإن السنيورة ستعفو عنها ، ولن تفعل بها شيئا آخر ، لسوف تأخذها لرؤية لوس أنجليس ، ومدينة مونتيرى ، وسوف تريها العالم أكثر من القليل مما رأت ، وليس من المستبعد أن ينتهى الأمر بهذا كله إلى زواجها من شاب يرضاه الجميع لها ، ولسوف يرى فيليب نفسه أنها لا تميل إلى ظلم رامونا ، ما دامت الفتاة تتصرف كما ينبغى .

ولشد ما كانت دهشة رامونا عندما دخلت السنيورة غرفتها قبيل العشاء وسألتها بصوت طبيعى عن القديد الذى كان موضوعا ليجف فى الشرفة ، بحيث لم تستطع أن تخفى هذه الدهشة من نبرات صوتها أو من نظراتها .

وأدركت السنيورة هذا فوراً ، ولكنها تجاهلت واستمرت فى حديثها عن القديد وعن حرارة الشمس ، وعن وجوب تقليب عناقيد العنب ، الخ .

www.ibtesama.com

بنفس اللهجة التى كانت تتحدث بها مع الفتاة قبل أسبوع . كان هذا على الأقل، ما خطر ببال رامونا فى أول الأمر ، ولكنها لم تلبث قبل أن تفرغ السنيورة من حديثها أن فطنت من لهجتها ومن نظراتها إلى الأسلحة التى سوف تستخدم ضدها. وهكذا تحولت دهشتها المقرونة بالشكر ، والتى أحست بها فى أول الأمر، إلى إحساس مرير بالبؤس قبل أن ينتهى الحديث ، ومن ثم قالت لنفسها : «هذه هى الوسيلة التى تنوى أن تحطمنى وتخضعنى بها كما تظن ! ولكنها لن تستطيع. إننى قادرة على احتمال كل شىء لمدة أربعة أيام . وعندما يأتى اليساندرو ، سوف أرتحل معه فوراً » ونم وجه رامونا عما يدور بنفسها . ورأته السنيورة ، وزادت من صلابة إرادتها ، إنها الحرب إذن ، ولا أمل فى التسليم . حسناً جداً . لقد اختارت الفتاة موقفها .

وكانت مرجريتا عندئذ أكثر أفراد البيت دهشة وحيرة . لقد سمعت بعض المناقشة التى دارت بين فيليب والسنيورة ورامونا عندما غلبها الفضول على الحذر ، فتسللت إلى الباب وأرهفت السمع . وقد كاد أمرها فى الواقع ينكشف لو لم تتظاهر بكنس الممر عندما فتحت رامونا الباب بقوة وخرجت بعد ردها النهائى على السنيورة ، الرد الذى سمعته مرجريتا بوضوح : « إن الله سيعاقبك ».

وقالت مرجريتا لنفسها : «يا للعذراء المقدسة !» كيف تجرؤ أن تقول هذا للسنيورة . وفى اللحظة التالية مرقت رامونا بجوارها ، حتى دون أن تراها . ولكن نظرات السنيورة المتيقظة التى تبعت بها رامونا ، وقعت عليها، وأثارت فى نفسها الشك مما جعلها تقول :

— ما الذى جعلك تكنسين الممر فى مثل هذه الساعة يا مرجريتا ؟

ولا شك أنه الشيطان نفسه هو الذى أوحى إلى مرجريتا لكى تكذب قائلة فى الحال :

— كان على أن أجهز فطوراً مبكراً لاليساندرو قبل أن يرحل مسرعاً . ولم تكن أمى قد استيقظت ، ولهذا أعددته بنفسى .

وبينما كانت مرجريتا تقول هذا ، أخذ فيليب يركز نظراته عليها ، فشحب وجهها ، وأدرك فيليب كذبها . وكان قد رآها وهى تختلس النظر من وراء أشجار الصفصاف فى أثناء حديثه مع اليساندرو عند مربط الأغنام ، وكان قد رأى اليساندرو يتوقف عندها ويتبادل معها كلمات قليلة قبل أن يمضى فى طريقه، ولم تستغرق المحادثة غير لحظة ، لكن اليساندرو بعدها جواده ، وانطلق راكضاً فى طريق الوادى . وهكذا لم يكن هناك إفطار أعدته مرجريتا لاليساندرو أو لغيره فى هذا الصباح ، إذن فما هو الدافع لمرجريتا على الكذب .

ولكن شواغل فيليب الذهنية كانت أخطر بكثير من أن يهتم بأمر مرجريتا أو تصرفاتها . لا شك أنها قالت أى شىء خطر ببالها لتنجو من غضب السنيورة الوشيك ، ولكن نبرات صوتها كانت تنم عن شىء من الحقد على اليساندرو . وكانت الغيرة الخفية الممزوجة بالكراهية قد بدأت تنمو فى نفوس الخدم نحوه أخيراً ، بعد أن نثرت مرجريتا بذورها ورعتها بأقوالها القاسية عن مكانته الكبيرة بين افراد الأسرة .

ولكن لم يكن هناك مجال للحملة على اليساندرو فى أثناء مرض فيليب

www.ibtesama.com

وشدة حاجته إلى موسيقى الشاب الهندى ليهدأ نفسه وينام . إذ كان طبيعيا أن يروح اليساندرو ويجىء كأى طبيب ، ولكن ، لماذا تستمر هذه المعاملة الخاصة له بعد أن تم شفاء فيليب ؟ لقد سرت همهمة السخط والاستياء أكثر من مرة فى الشرفة الشمالية عندما كان العمال والخدم جميعا يجتمعون فى المساء ويبقى اليساندرو بعيداً ورنين موسيقاه يأتى مـــن الشرفة الجنوبية التى تجتمع فيها الأسرة .

وكان چوان كانيتو يقول متذمراً

— ولماذا لا نستمتع نحن أيضا بالموسيقى بين الحين والآخر ؟ ولكن يبدو أن كان الشاب لا يصلح للعزف إلا فى ذاك الجانب من المنزل .

وكانت مرجريتا ترد قائلة :

— ها . إننا أقل شأنا من أن يعزف لنا ، إن المثل القائل « الخادم كسيده » مثل لطيف ، ولكنه لا يطابق أحياناً ، ويبدو أن هناك أشياء أخرى كثيرة تحدث فى تلك الشرفة غير العزف على الكمان . وتلوى مرجريتا شفتيها بطريقة تنم عن الغموض ومعرفة الأسرار ، مما يجعل السامعين يعطرونها بالأسئلة التى لا ترد عليها بطبيعة الحال ، لأنها كانت تدرك تماما أنها لا تستطيع أن تعرض بشرف رامونا ، أو أن تقول كلمة واحدة ضدها ، ذلك أن كل رجل وامرأة من العمال والخدم ، كان يحب الفتاة ويحترمها منذ أن جاءت إليهم طفلة تحبو ! كانوا يدللونها طفلة ويقدســـونها الآن فتاة . وكان كل واحد منهم

www.ibtesama.com

قد تلقى يوما ما بعض خدماتها ، إذ كانت تمرضهم ، وتروح عنهم ، وتتذكر أعياد ميلادهم ، ولهذا لم تخبر مرجريتا أحداً بما تعرف أو تشك . إلا أنها ، وقد بلغ من فزع الأم العجوز ماردا من كلمات ابنتها ما جعلها تخيف مرجريتا وتدفعها إلى القسم بألا تبوح بشيء من هذا ، أيا كانت الظروف إلى أى فرد فى البيت وكانت ماردا لا تصدق شيئا مما قالته لها مرجريتا ، إنها لم تستطع أن تصدق ، ولهذا آمنت بأن غيرة مرجريتا هى التى صورت لها هذا كله .

ومن ثم قالت لها فى معرض الحديث :

— وسوف تطردك السنيورة من هنا ، وتطردنى أنا أيضاً رغم السنين الطوال التى أمضيتها ، حين تعرف أنك تشهرين بسمعة السنيوريتا ، ومع هندى أيضا ؟ لابد أنك مجنونة يا مرجريتا ؟

ولما أسرعت مرجريتا إليها ، فى انتصار لتقول لها إنها رأت السنيورة تجر السنيوريتا رامونا فى ممر الحديقة وتلقى بها فى غرفتها وتغلق الباب عليها ، لأنها فاجأتها مع اليساندرو عند المغسل ، رسمت ماردا أولا علامة الصليب على صدرها بطريقة آلية حين سمعت القصة ، ثم عركت أذنى مرجريتا لأنها تحدثت بهذا إليها .

— سوف أقطع رقبتك إذا قلت هذا مرة أخرى بصوت مسموع ! ماذا دهى السنيورة ؟ لقد عشت هنا أربعين عاما ولم أرها يوما ترفع يدها على مخلوق . إنك لاشك مجنونة ياابنتى .

قالت ماردا هذا وهى تتلفت حولها فى الغرفة بفزع ورعب .

www.ibtesama.com

وردت مرجريتا قائلة قبل أن ترتد عائدة إلى غرفة الطعام :

— لسوف ترين بنفسك ما إذا كنت مجنونة أم لا !

و بعد أن أغلق باب غرفة الطعام ، وتظاهر الآكلون ، فى أسى ، أنهم يأكلون ، تسللت ماردا بنفسها فى حذر إلى باب غرفة السنيوريتا رامونا وأخذت ترهف السمع ، وهنا سمعت رامونا وهى تبكى بحرقة ومن صميم قلبها . ومن ثم أدركت أن ما قالته مرجريتا لابد أن يكون صدقا ، و إن كانت بطبيعتها الوفية لا تدرى ماذا يمكن أن تظن . أيمكن أن تفضح السنيوريتا نفسها هكذا ؟ لا . مستحيل . إن الأمر ليس كذلك ، مهما يكن ما حدث ، لابد أن هناك خطأ كبيراً على نحو ما . وركعت إلى ثقب الباب ، وراحت تنادى على رامونا بحذر قائلة : «أوه . ماذا حدث ياحبيبتى» ؟ ولكن رامونا لم تسمعها . وكان الخطر محدقا بماردا إذا استمرت فى مكانها ، ومن ثم أسرعت إلى المطبخ بقدر ما تستطيع أن تحملها ساقاها المصابتان بالروماتزم ، دون أن تعرف الحقيقة ، ولكنها أحست بالغضب على ابنتها دون أن تعرف لماذا . وفى اليوم التالى أخذت ترقب الأحداث بنفسها ولم يسعها إلا أن تدرك أن ابنتها كانت على حق فى كل ما ذكرت ، إذ كان رحيل اليساندرو المفاجىء دليلا قويا على صدق هذه الأقوال ، ولكن لم يكن بين الرجال من يعرف السر . لقد دهش چوان كانيتو ولويجو لسفر اليساندرو المفاجىء دون أن يترك وراءه كلمة أو رسالة . كل ما حدث أن فيليب قال لچوان بلا اهتمام بعد طعام الإفطار : «عليك أن تشرف على شئون المزرعة لمدة أيام قليلة ياچوان ، لأن اليساندرو سافر إلى تيميكيولا» .

www.ibtesama.com

وقالت مرجريتا فى تهكم حين تردد هذا على سمعها :

— لمدة أيام قليلة ؟ ما أسهل هذا القول ؟ أراهن برأسى إذا شوهد اليساندرو هنا مرة أخرى . أقسم إنه عزف آخر نغماته فى الشرفة الجنوبية .

ولكن عندما سمعت السنيورة وهى تقول للسنيوريتا رامونا فى أثناء مرورها بباب غرفتها فى وقت العشاء من ذلك اليوم الحافل بالأحداث « هل أنت مستعدة للعشاء يارامونا » وعندما شوهدت رامونا تخرج وتسير بجوار السنيورة إلى غرفة الطعام — صامتة طبعاً — ولا عجب من هذا ، لأن السنيوريتا تكون صامتة دائماً فى حضور السنيورة . عندما شاهدت ماردا هذا حين وقوفها فى الفناء متظاهرة بإطعام الدجاج وإن كانت عينها على الممر ، أحست بالراحة وقالت لنفسها : « لاشك أن الأمر كله مجرد خلاف . والخلافات تقع بين أفراد الأسرة أحياناً . ولا شأن لنا بهذا . لقد انتهى كل شىء على خير » .

وعندما رأت مرجريتا وهى فى غرفة الطعام ، الجميع قادمين كالمعتاد : السنيورة وفيليب ورامونا دون أن يبدو — حتى فى عينها الفاحصة — أى تغيير على وجوههم ، استبدت بها دهشة لم تحس بمثلها منذ أيام عديدة ، وبدأت تظن مرة أخرى — كما اعتادت أن تفعل منذ بدأت المأساة — بأنها لا بد قد حلمت بمعظم ما تتذكره .

ولكن المظاهر خادعة ، والعين لا ترى عادة إلا القليل . فإذا أخذنا فى الاعتبار تركيب العين المعقد ، ورقتها فى أداء رسالتها ، أدركنا أن ما تراه عادة يبدو أبعد ما يكون عن الحقيقة . ونحن نزهى بأنفسنا بابتكار الأمثال المقارنة

www.ibtesama.com

فى مسألة الرؤية والعمى ، فتقول مثلا : « أعمى كالخفاش » فى حين يمكن القول بلا مبالغة ، إنه لا يوجد فى المملكة الحيوانية خفاش أو أى حيوان أكثر عمى فى محيط ظروفه وعلاقاته من معظم المخلوقات البشرية فى محيط أسرهم . إن الأعصاب تتوتر وتهدأ ، والقلوب تتحطم وتشفى ، والقوة تضعف وتتخاذل وتوشك أن تنهار كل يوم ، دون أن يلاحظ أقرب الناس شيئاً من هذا .

وقبل أن يحل مساء اليوم التالى لهذا الاضطراب الذى انفجر كالزوبعة فى بيت آل مورينو الهادىء ، كان كل شىء قد عاد إلى وضعه الطبيعى ، بحيث قد يلتمس العذر لأى مراقب أقوى ملاحظة وأحد ذكاء من مرجريتا ، إذا ارتاب فى حدوث أية كارثة لأى واحد من أفراد الأسرة . لقد أخذ السنيور فيليب يتمشى كعادته ويدخن السجائر أو يرقد نعسان فى سريره بالشرفة . وراحت السنيورة فى جولاتها التفتيشية تطعم الطيور ، وتتحدث إلى الجميع بصوتها الهادئ ، وتجلس فى مقعدها الوثير ، عاقدة يديها ، رانية إلى الجهة الجنوبية من السماء . وشغلت رامونا نفسها بأعمالها العادية ، فكنست الكنيسة الصغيرة ، ووضعت أزهاراً ناضرة أمام جميع صور وتماثيل العذراء ، ثم جلست إلى قطعة تطريزها . وكانت تعمل منذ مدة طويلة فى تطريز كساء جديد للمذبح ، لكى تقدمه هدية للسنيورة . وكان قد أوشك أن يتم . وفيما هى ترفع الإطار ، وتتأمل خطوط الوشى على الكساء ، ندت عنها زفرة حرى . لقد ظلت تحس بالاهتمام الممزوج باليأس طيلة الأشهر التى تطرزه فيها ، وتقول لنفسها : « إنها لن تحفل كثيراً به رغم جماله ، لأننى أنا التى طرزته . ولكن الأب سالفيرديرا سيبتهج حين يراه » .

www.ibtesama.com

وها هى ذى الآن تقول لنفسها وهى تنسج وتطرز الخيوط الدقيقة الرقيقة :

« إنها لن تسمح أبداً باستعماله للمذبح . ترى هل يمكن بوسيلة ما أن أرسله إلى الأب سافيرديرا فى سانتا بربارا ؟ إننى أعنى أن أقدمه إليه . ولسوف أسأل اليساندرو فى هذا . فأنا واثقة أن السنيورة لن تستعمله . ومن العار أن أتركه هنا ، لسوف آخذه معى » .

ولكنها ، وهى تفكر فى هذا ، كانت هادئة السمات بعد أن ران على وجهها لون رائع من السكينة والاستسلام « أربعة أيام فقط . أربعة أيام فقط .. إننى أستطيع أن أحتمل أى شىء لمدة أربعة أيام » كانت هذه الكلمات تروح وتغدو فى ذهنها كمقاطع الأغنية حين تتردد فى ذهن الإنسان دون أن يستطيع التخلص منها . وكانت ترى فيليب ينظر إليها فى قلق ، ولكنها اعتادت أن تجيب عليه بابتسامة رقيقة . وكان الواضح أن السنيورة لم تكن تنوى أن تسمح لهما بالحديث على انفراد ، ولكن لم يكن لهذا أهمية كبيرة . لأنه بعد كل ما حدث ، لم يعد ثمة ما يقال . لم يكن لديها ما تقوله لفيليب بعد أن عرف كل شىء . وقد أحسن صنعا ، كما رأى ، فى إرساله اليساندرو بعيداً حتى تهدأ سورة غضب السنيورة .

وكانت رامونا قد رأت — بعد أن تغلبت على شعورها بالاستياء حين علمت برحيل اليساندرو — أن فيليب أحسن صنعا . إذ لا شك أن اليساندرو سوف يعود مستعدا لأخذها . ولسوف تذهب معه حتى إذا لم تعرف أين أو كيف سيمضى بها ، بل لعلها لن تودع السنيورة . ولكنها كانت تتساءل : كيف سيتم هذا ؟ ومتى سيجد اليساندرو كاهنا يعقد زواجهما بعد أن يرتحلا ؟ لا شك أنه أمر فظيع أن تغادر البيت على هذا النحو ، بلا زواج ، وبلا ملابس زفاف ،

www.ibtesama.com

وبلا أصدقاء — إنما رحيل بغير زواج للبحث عن بيت كاهن يؤدى لهما مراسم الزواج . وقالت رامونا لنفسها : « ولكن ليست هذه غلطتى، وإنما هى غلطتها. إنها تدفعنى إلى هذا ، فإذا كان فى هذا خطأ ، فالوزر عليها . إن الأب سالفيرديرا ما كان ليتردد فى الحضور ، بكل سرور ، ليعقد زواجى لو أنها أرسلت إليه . ولشد ما أتمنى لو ذهبنا إليه ، اليساندرو وأنا . ولعلنا نستطيع . إنى لست خائفة أن أسافر كل هذه المسافة ، لأنها لن تستغرق أكثر من يومين » .

وكانت رامونا كلما فكرت فى هذا ، ازدادت يقينا بأن ذلك هو الوضع الطبيعى « لسوف يكون فى جانبنا .. أنا أعرف هذا . وهو يحب اليساندرو. ويحبنى » .

وكان عجيبا ألا تحمل الفتاة من الحقد على السنيورة إلا الشىء القليل . وما أقل ما كانت تفكر فيها . إن قلبها كان مليئا باليساندرو وبمستقبلهما ، كما أنه لم يكن من عادة رامونا أن تفكر كثيراً فى السنيورة ، وذلك لأنها كانت منذ طفولتها تحتمل فتور السنيورة ، وجفاءها كأمر طبيعى ، وهى الآن تحتمل ظلمها ومعارضتها كجزء من هذا الأمر الطبيعى الذى لا حيلة فى إمكان تغييره .

وفى خلال هذه الساعات المليئة بحشود من الأحزان والمخاوف والذكريات والترقب التى تجيش فى قلب رامونا ، لم يكن يبدو على وجهها للناظر إليها ، إلا الهدوء والسكينة ، وهى جالسة فى الشرفة تعمل فى تطريز كساء المذبح . وحتى فيليب خدع بهذه السكينة ، وتساءل عما يجيش تحتها . ترى هل تنم هذه السكينة عن حدوث ذلك التغيير الذى تعتقد أن من الممكن حدوثه ، أى « عودة الفتاة إلى صوابها » ، وحتى فيليب لم يكن يعرف صلابة المعدن الذى صيغت منه طبيعة

www.ibtesama.com

الفتاة . وكذلك لم يكن يدرك مدى قوة الرباط الذى يشد بينها وبين اليساندرو . بل إنه فى الواقع يتساءل أحيانا عن مدى قوة هذا الرباط . لقد رأى بنفسه الجانب الأكبر من اختلاط أحدهما بالآخر . وفى خلال هذا لم ير قط أى شىء ينم عن الحب المتبادل . لم ير هذه اللحظات المثيرة التى يعتقد أنها ضرورية لنمو الحب فى قلب اثنين . وكان هذا من الأخطاء الشائعة التى يرتكبها أولئك الذين لا يعرفون الحب الحقيقى الخالد . فالعاشق المكبل بقيود الحب الحقيقى الخالد ، يعرف أنها لم تصنع فى يوم وليلة ، وإنما هى حبال الصلب القوية التى تعلق فيها القنطرة فوق المجارى المائية الواسعة . إن هذه الحبال ليست مجرد أعمدة أو قضبان ضخمة قد تبدو للرائى أقوى وأمتن ، وإنما هى حشود من أرق وأمتن الأسلاك .. كل سلك منها رفيع رقيق بحيث يصلح لأن يكون سلكا لطائرة ورقية يلعب بها الصبية ! ولكن تجميع هذه الأسلاك بمئات الآلاف ، ولفها بعضها على بعض يجعل منها هذه الحبال الفولاذية المتينة التى لا تتهاوى من مكانها تحت ضغط أى ثقل أو أية حركة مرور بين مدينتين ، إلا إذا تهاوت الأرض الصلبة تحت ثقل وحركة مرور من هذا النوع — مثل هذه الحبال الفولاذية لا تنفصم .

بل إن رامونا نفسها لتجد من العسير عليها أن تعرف كيف أحبت اليساندرو كل هذا الحب أو كيف بدأ ، وعلى أى شىء نما . إن حبها لم يكن نتيجة تقديس مفاجىء كما شعر هو نحوها . وإنما كان ، فى البداية ، استجابة رقيقة ، ثم صار الآن فى مثل قوة حبه وثباته . وكانت كلمات السنيورة الغليظة بمثابة الهواء الذى يزيد النار اشتعالا ، ومعرفتها المفاجئة بأنها نصف هندية بمثابة الحلم الجميل الذى حققته الأيام .. بمثابة الطريق الذى يريد لها القدر أن تسير فيه .

www.ibtesama.com

إنها لترتعد بالبهجة كلما فكرت فى السعادة التى ستملأ قلب اليساندرو حين يعلم هذه الحقيقة: السعادة .. والدهشة . وراحت تتخيل على مئات الصور ، للمكان والوقت والعبارات التى تخبره فيها بهذا النبأ . إنها لن ترضى إلا بالوسيلة التى تكون أكثر من غيرها فى إسعاده وإسعاد نفسها حين تخبره بهذه الحقيقة . سوف تخبره بمجرد أن تراه .. ستكون هذه الكلمات هى تحيتها له . لا ! سوف يكون هناك الشىء الكثير من الاضطراب والارتباك عندئذ ! سوف تنتظر حتى يبتعدا .. حتى ينفردا فى البرارى ، وعندئذ تلتفت إليه وتقول له « اليساندرو .. إن قومى هم قومك » أو ربما تنتظر ، وتحتفظ بالسر حتى يصلا إلى تيميكيولا ، وتبدأ حياتهما هناك ، وعندئذ يدهش اليساندرو حين يراها تستجيب بسرعة لكل مظاهر الحياة فى القرية الهندية ، فإذا أعرب عن دهشته ، قالت له بهدوء « ولكننى أيضا هندية يااليساندرو » .

إنها أحلام عجيبة لعروس حزينة .. ولكنها جعلت قلب رامونا يخفق بالسعادة وهى تعيش فيها .

www.ibtesama.com

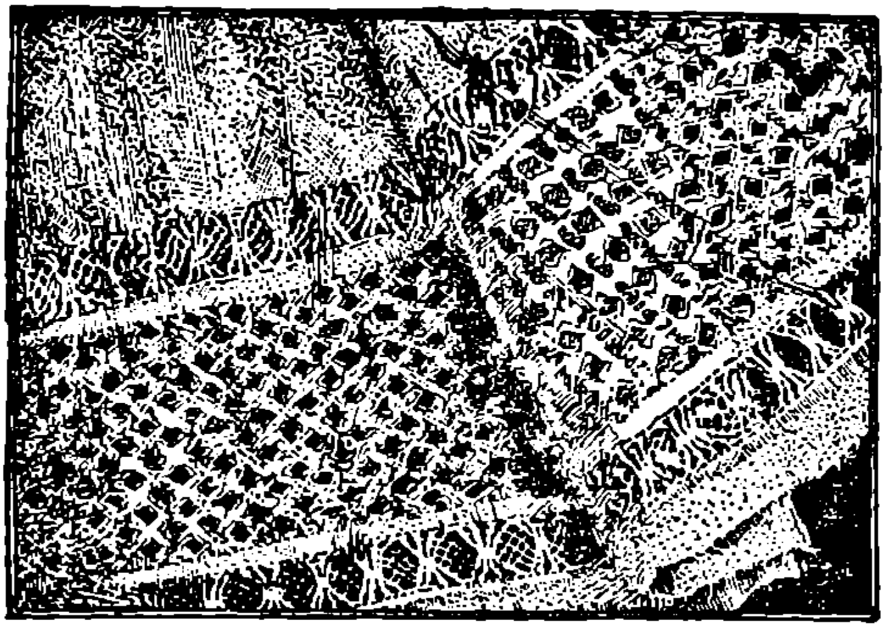

(١٤)

ومضى اليوم الأول ، واقترب مساء اليوم التالى ، دون أن يتبادل فيليب ورامونا كلمة واحدة إلا فى حضور السنيورة . وإنه لشىء رائع للنظر تلك الوسائل المختلفة — على قسوتها — التى لجأت إليها السنيورة لتحقق هذا الهدف . والعجيب أن فيليب كان أشد من رامونا قلقا بسبب هذا السلوك . فقد كان لرامونا أحلامها ، أما هو ، فلم يكن له شىء إلا الإحساس بالقلق ووخز الضمير ، لأنه لم يقم نحوها بما كان يرجوه . ولا شك أنه كان يبدو فى نظرها غادراً. كان هذا ، مع تساؤله الدائم عن سر هدوئها ، قد جعل فيليب فى حالة عنيفة من توتر الأعصاب ، لم تغفل عنها أمه . مما جعلها تضاعف من يقظتها فى المراقبة.

وخطر لفيليب أنه قد يستطيع التحدث مع رامونا فى الليل ، عن طريق نافذتها . ولكن حرارة شهر أغسطس كانت من الشدة بحيث جعلت جميع النوافذ مفتوحة ، وكذلك كانت السنيورة لا تغفل عن الرقابة. فلو حدث وسمعته

www.ibtesama.com

يتحدث سرا مع رامونا ، فلا شك أن الأمور ستزداد سوءا . ومع ذلك فقد قرر أن يحاول . ولكن ما كاد وقع خطواته يسمع على الشرفة حتى جاء صوت السنيورة من نافذتها وهى تقول :

« ماذا بك ياولدى ؟ هل أنت مريض ؟ هل أستطيع أن أقوم لك بشىء؟ »

إنها لم تنم على الإطلاق . وإن فيليب ليحتاج إلى مزيد من الشجاعة ليقوم بالمحاولة مرة أخرى . ورقد فى سريره بالشرفة طيلة مابعد العصر وهو يتململ بسبب فشله فى تحقيق غرضه . وكانت رامونا جالسة عند أسفل السرير تقوم بالغرزات الأخيرة فى كساء المذبح الذى قارب الانتهاء . وكانت السنيورة جالسة نعسانة فى مقعدها الوثير ، ورأسها إلى الوراء . وكان الجو حارا مليئاً بالغبار الذى ظلت الرياح الجنوبية تحمله طيلة اليوم ، مما جعل الجميع يتهالكون فى أماكنهم مجهدين بسببه .

ولما أغمضت السنيورة عينيها ، ومضت بذهن فيليب فكرة طارئة ، فتناول مفكرته التى يحتفظ فيها بحساباته ، وبدأ يكتب بسرعة . ولما رفع رأسه والتقت عيناه بعينى رامونا ، أشار لها بأنه يكتب من أجلها . ونظرت هى فى خوف إلى السنيورة ، فرأتها نائمة . وأخيراً طوى فيليب الورقة ، ونهض ، وسار إلى نافذة رامونا ، بينما أخذت هى ترقبه فى جزع ، ولكن وقع خطوات فيليب أيقظ السنيورة التى انتصبت فى مقعدها وحلقت حولها فى سمت الإنسان الذى نام ، وهو يرجو ألا يكون قد نام حقا . ثم قالت : « هل نمت ؟ »

قال فيليب الذى كان معتمداً بظهره إلى نافذة رامونا ويداه خلفه :

— نمت لحظة واحدة يا أماه .

www.ibtesama.com

ثم تمطى وتثاءب فى كسل وأردف قائلا :

— إن هذا الحر لا يطاق .

ومضى متمهلا وهبط درجات الشرفة إلى ممر الحديقة ، وجلس على مقعد حجرى تحت السقف الأخضر الظليل للممر .

وكانت الرسالة قد سقطت فى غرفة رامونا وتوترت أعصاب الفتاة خشية أن تعجز عن التقاطها دون أن يراها أحد . كيف تكون الحال لو أن السنيورة دخلت الغرفة أولا . إنها لا تكاد تجرؤ على النظر إليها . ولكن الحظ ليس دائما فى جانب الطغاة ؛ إذ لم تلبث السنيورة أن استغرقت فى النوم بعد أن اطمأنت إلى أن فيليب صار بعيداً عن رامونا ، وما كادت عيناها تغمضان ، حتى نهضت الفتاة لتمضى . وفتحت السنيورة عينيها ، ورأت رامونا وهى تعبر الشرفة إلى الباب . إذن فهى فى طريقها إلى داخل البيت ـ حسنا . إنها تزداد بعدا عن فيليب .

وقالت السنيورة لها :

— هل أنت ذاهبة إلى غرفتك يا رامونا ؟

فقالت الفتاة فى فزع :

— نعم . هل تريدين أن أبقى فى الشرفة ؟

وأغمضت السنيورة عينيها وقالت :

— لا .

www.ibtesama.com

وبعد لحظة، كانت الرسالة بين يدى رامونا التى أخذت تقرأ فيها ما كتبه فيليب :

« عزيزتى رامونا : إننى فى أشد حالات القلق لعجزى عن التحدث معك على انفراد ! ألا من وسيلة إلى هذا ؟ أريد أن أشرح لك بعض الأمور لأننى أخشى أن تسيء فهم موقفى . لا تحزنى ، لسوف يعود اليساندرو فى موعده ، وأريد أن أساعدك بقدر الإمكان ، ولكننى لا أستطيع كثيراً كاترين . لن يكون هناك من يمنعك من الذهاب إلى حيث تريدين ، ولكننى أتمنى ياعزيزتى ألا تفارقينا ».

ومزقت رامونا الرسالة ودستها فى صدرها لكى تتخلص منها فيما بعد . ولما نظرت من النافذة ورأت السنيورة مستغرقة فى النوم ، تجرأت وكتبت الرد وهى لا تدرى كيف ستتاح لها الفرصة لتسليمه إلى فيليب . ولكنها كتبت تقول « أشكرك ياعزيزى فيليب ، لا تقلق ، إننى لست حزينة ، وأنا مدركة كل شيء . ولكن يجب أن أرحل بمجرد وصول اليساندرو » .

وبعد أن أخفت هذه الرسالة أيضاً فى صدرها ، عادت إلى الشرفة. ونهض فيليب وسار نحو الدرجات ، وفجأة تشجعت رامونا ، وانحنت ووضعت الرسالة على درجة السلم الثانية ، ومرة أخرى فتحت السنيورة عينيها المجهدتين ، وكانت لم تنم أكثر من خمس دقائق ، ولكنها رأت رامونا جالسة مرة أخرى إلى قطعة التطريز ، وفيليب عائداً إلى الشرفة وهو يومىء برأسه باسما إلى أمه ويضع إصبعه على فمه. إن كل شيء على ما يرام، ونعست السنيورة مرة أخرى. ولكن هذه السنة من النوم كلفتها أكثر مما كانت تظن . ذلك أن هذا التبادل السرى

للمعلومات بين فيليب وراموا ، وهذا الإحساس المشترك بالتضامن ضدها ، والخوف منها ، كان خطوة لا يمكن الرجوع فيها ، خطوة لا يمكن التهاون فى دلالتها . وإن الطغاة ، كبارا أو صغارا ، معرضون دائما لاحتمالات كهذه ، لأن ينسوا مثل هذه اللحظات التى قد تنتهى بأكبر النتائج ما داموا يعيشون فى ظروف وأوضاع زائفة . إن الطغيان يمكن أن يصنع الكذابين والمخادعين من أطهر الناس وأنقاهم نفسا . وإن هذا ليحدث أكثر مما يظن دارسو الطبيعة البشرية . وعندما يحدث هذا من الملوك والأباطرة ، فإن العالم كله يصيح بالعطف والشفقة على المتآمرين الذين يراهم أشد براءة من الطغاة الذين دفعوهم إلى التآمر ضدهم .

حقا إن الفتاة لم تشعر يوما بالدفء فى حضور السنيورة ، ولكن كانت هناك درجات عديدة تفرق بين البرودة التى شعرت بها راموا فى حياتها السابقة ، وحياتها الآن . ولولا حياتها الجديدة ، وحبها الجديد ، وآمالها وهى تفكر فى اليساندرو ، لما أمكنها أن تحتمل هذه الحياة يوما واحدا .

وحل اليوم الرابع . . وبدا لها أنه أطول من الأيام الثلاثة الأخرى بشكل عجيب . لقد ظلت راموا طيلة اليوم وهى تترقب وترهف السمع ، وكذلك فيليب ، لأنه ، وهو يعرف مدى لهفة اليساندرو ، كان يتوقع حضوره فى الليلة السابقة . لأن الجواد الذى ركبه كان من الجياد السريعة ، وكان فى مقدوره أن يقطع المسافة فى نصف الوقت اللازم . ولكن فيليب فكر فى أنه لابد أن يكون ثمة أشياء كثيرة ينبغى أن يقوم بها اليساندرو فى تيميكيولا قبل أن يعود ، إذ لا شك أنه

www.ibtesama.com

سيأتى وهو مستعد لأخذ رامونا والعودة بها، فى حالة ما إذا كان هذا هو الحل الوحيد للمشكلة . وبدأ فيليب يشعر بالتعاسة وهو يتخيل المستقبل الذى ينتظر رامونا . لقد ذهب إلى تيميكيولا أكثر من مرة ، ويعرف ما عليه القرية من فقر . وإن مجرد التفكير فى إقامة رامونا بها ليفزعه . وإن شابا رقيقا لا يعرف من الحب إلا سطحياته ، مثل فيليب ، لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن لفتاة نشأت مثل رامونا ، أن تحتمل لمدة يوم واحد الحياة بصفتها زوجة لعامل فقير . إنه لا يستطيع أن يدرك إلى أى حد يمكن للحب أن يجعل الإنسان قادرا على احتمال مثل هذا اللون من الحياة . لقد كان على فيليب أن يتعلم الشىء الكثير من الحب . وجاء الليل ، ولم يجىء اليساندرو . وظلت رامونا جالسة ترقب أشجار الصفصاف حتى تكاثف الليل . ولما لم تعد تستطيع الرؤية شرعت ترهف السمع وأخذت السنيورة التى كانت تلاحظ كل شىء ، ترهف السمع أيضا . ورغم القلق الذى ملأ نفسها فيما يتعلق بالمرحلة التالية ، فإنها لم تستطع أن تنطق بكلمة . لم يكن ثمة شىء يمكن أن يجعلها تتحدث عن الخط الذى رسمته لسلوكها . وكان القمر فى تلك الليلة بدرا ، وقد تسللت أولى أشعته على التلال ، وانسكبت على الحديقة وواجهة الكنيسة البيضاء ، تماما كما حدث فى الليلة التى ظل فيها اليساندرو ساهرا عليها ، مع فيليب فى الشرفة . ووضعت رامونا وجهها على زجاج نافذة غرفتها وأخذت ترنو إلى الحديقة . وكلما رأت لمحة غصن يتحرك ، حسبته رجلا يأتى . وظلت ترى هذا السراب المرة بعد الأخرى . ومرة بعد أخرى تهدأ النسمات وتسكن الأغصان فلا تتحرك . ولما أوشك الفجر أن ينبلج ، زحفت بقلب مجهد حزين إلى فراشها ، لا لتنام ، ولكن لتترقب وتنصت بعينين ملهوفتين.

www.ibtesama.com

واسعتين . ولم يخطر ببالها قط أن اليساندرو قد يتأخر عن موعده الذى ذكره فيليب . لقد صدقت هذا ببساطتها الصبيانية ، كما اعتادت أن تصدق كل شيء فى حياتها . أما وقد تأخر عن المجيء ، فإن فزعا رهيبا استبد بها وجعلها تكرر القول لنفسها : « هل سيأتى ؟ لقد أبعدوه ! ولعل كبرياءه تمنعه من العودة » . ولكن إيمانها به يرتد إليها ، فتعود وتقول لنفسها : « إنه لن . . لن يتخلى عنى أبدا . إنه يعرف أن ليس لى فى العالم سواه ! إنه يعرف كيف أحبه » وتسترد هدوءها ، وتذكر نفسها أن كثيرا من العوائق ربما منعته من الحضور فى الموعد المحدد . ولكنها مع هذا كله ، كانت تشعر بالحزن يملأ قلبها . وكان منظر شرودها ، عند الإفطار ، يثير الحزن فى قلب الجماد . وأحس فيليب بالألم وهو يدرك مشاعرها ، وكان هو أيضا شديد القلق . ولمحت السنيورة على وجهه ما يجيش بنفسه ؛ وشعرت بالاستياء منه . إن للفتاة أن تذوى وتشقى إذا لم يعد حبيبها ، ولكن لماذا يزعج فيليب نفسه ؟ وكرهت السنيورة هذا من ابنها . إن لهذا القلق دلالة سيئة . وقد يؤدى الأمر إلى مزيد من الاضطراب . والواقع أن ثمة اضطرابا كان فى طريقه الى بيت السنيورة أكثر مما خطر ببالها .

ومر يوم آخر ، وليلة .. ثم يوم .. وآخر .. وتم أسبوع كامل منذ أن وثب اليساندرو على جواده وصافح فيليب قائلا : «قل للسنيوريتا ، وتأكد أنها سوف تفهم لماذا رحلت . وفى خلال أربعة أيام سأعود » .

ومر أسبوع دون أن يأتى . وأخذ الثلاثة المترقبون يتأملون وجوه بعضهم بعضا ، كل منهم يحاول أن يعرف ماذا يدور بذهن الآخر .

وبدأت رامونا تذوى ، ويرتسم الإرهاق على وجهها . إنها لم تكن تنام

www.ibtesama.com

إلا قليلا ، واستبدت بها فكرة خطيرة .. وهى أن اليساندرو لابد قد مات .
وفى اليوم السادس ، واليوم السابع ، كانت قد سارت فى طريق النهر الذى لابد أن يأتى منه ، ثم إلى المراعى ، ثم تنعطف إلى الطريق العام ، ومع كل خطوة تمد عينيها الدامعتين إلى الأفق البعيد — إلى الأفق القاسى ، الصامت ، الحزين ، وكانت تعود ، بعد انسدال الليل ، أشد شحوبا وإرهاقا مما ذهبت . وحتى مرجريتا كانت ترثى لها وهى تجلس إلى مائدة العشاء ، صامتة ، تتظاهر بالأكل ، ولا تشرب إلا كوب اللبن ، بعد الكوب ، فى ظمأ شديد . ولكن السنيورة لم ترحمها ، وإنما رأت أن أفضل شىء يمكن أن يحدث ، هو ألا يجىء الهندى إطلاقا . سوف تسترد رامونا نفسها بعد فترة وجيزة ، حقا إن خيبة الأمل شىء رهيب ، ولكن الأيام كفيلة بعلاجها . وكانت تعجب لأن الفتاة لم تتمسك بكبريائها حتى لا تكشف لأحد عن بؤسها . إنها نفسها لتؤثر الموت على أن تبدو بوجه مكتئب كهذا ، يراه كل من فى البيت ، ويصبح مثارا للأقاويل .

وفى صباح اليوم الثامن ، اعترضت رامونا ، من فرط اليأس ، طريق فيليب وهو يهبط درجات الشرفة ، وكانت السنيورة فى الحديقة ، وقد رأتهما . ولكن رامونا لم تحفل ، وإنما هتفت قائلة :

— أوه فيليب . لابد . . أن أتحدث معك . . هل تظن أن اليساندرو مات ؟ وإلا فماذا يمنعه عن الحضور ؟

وكانت شفتاها جافتين ، وصوتها متهدجا ، ووجهها مضطرما ، مما جعل فيليب يعتقد أنها ستصاب بحمى مخية إذا مرت عليها أيام أخرى كهذه . ونظر إليها فى حنان وقال :

www.ibtesama.com

— لا . . لا ياعزيزتى ، لا تظنى هذا .. إن آلاف الأشياء قد تمنعه .

— لا . . إن آلاف الأشياء لا يمكن أن تمنعه . إننى أعرف أنه مات . ألا تستطيع أن ترسل رسولا يافيليب ليرى ماذا حدث ؟

وسمعت السنيورة هذه الكلمات وهى تقترب منهما . ونظرت إلى فيليب وقالت له غير حافلة برامونا وكأنها غير موجودة على مرمى السمع والبصر :

— يبدو لى أن هذا لا يتفق مع الكرامة . فما رأيك يافيليب ؟ إذا كنت ترى هذا ، فيمكننا أن نستغنى عن أحد العمال بعد جمع العنب .

وسارت رامونا بعيدا ، وكانت تعلم أن جمع العنب لن يتم قبل مضى أسبوع ، لأن كثيرا من الكروم لم تكن بعد قد امتدت إليها يد أحد من العمال ، الذين كانوا جميعا مشغولين إلى حد كبير يقطفون العنب ، و يعصرونه فى أوعية كبيرة ، و يفرغون العصير فيما يشبه القرب المصنوعة من الجلود ، ومعلقة من دعائم خشبية فى الظلة القائمة عند أشجار الصفصاف . وكانت رعاية هذه الخمر الفيئة تحتاج إلى شخص واحد ، وهو جوان كانيتو الذى كان يحب القيام بهذا العمل ، ولأغراض خاصة كان يحب القيام به بمفرده ، ولما كان بسبب ساقه المكسورة عاجزا عن الاشتراك فى عملية عصره ، فقد تخصص فى عملية رقابة العصير ، ومن ثم كان يقول لنفسه وهو يستجم تحت الظلة ، ويدخن التبغ ، و يستنشق عبير الخمر :

« ما من شر إلا وفيه جانب من الخير » .

www.ibtesama.com

ولما اختفت رامونا داخل البيت اقتربت السنيورة من فيليب ، وقالت له وهي تضع يدها على ذراعه مشيرة برأسها إلى الجهة التي اختفت فيها رامونا :

— إن حالتها تبدو سيئة يا فيليب ولا أدرى ماذا يمكن أن نفعل . إننا لا نستطيع بالتأكيد أن نرسل في استدعاء حبيب لا نريد لها أن تتزوجه . أليس كذلك ؟ إن الأمر جد محير . وإن سوء الحظ يواجهنا من كل جانب . فما رأيك يا ولدى ؟

وكانت للسنيورة وسيلة بارعة ، شيطانية ، تستطيع بها ، عن طريق عبارة واحدة أو سؤال واحد ، أن تبذر في ذهن شخص ما الفكرة المعينة التي تريد أن تجعله يظن أنه هو فكر فيها .

وأجاب فيليب بغضب :

— لا ، طبعا . . إنني لا أستطيع أن أرسل لاستدعائه ، إلا إذا أرسلنا له لكي يتزوجها . إنني أتمنى لو أنه لم يضع قدمه يوما في مزرعتنا . إنني لا أدرى بالتأكيد ماذا يمكن أن نفعل . إن حالة رامونا تفزعني . وأعتقد أنها تموت .

فقالت السنيورة برفق :

— إنني لا أستطيع أن أتمنى لو أن اليساندرو لم يضع قدمه في مزرعتنا ، لأنني أدين له بالفضل في إنقاذ حياتك ياولدى . ولاذنب له في تصرفات رامونا . وليس ثمة ما يدعوك للخوف من موتها . إنها قد تمرض . ولكن الناس لا يموتون من حب كحبها لاليساندرو .

www.ibtesama.com

فقال فيليب فى ضيق :

— إذن من أى نوع من الحب يموتون يا أماه ؟

فنظرت السنيورة إليه بعتاب وقالت :

« إنهم عادة لا يموتون من أى حب . ولكن من المؤكد أنهم لا يموتون من حب مفاجىء لشخص أقل منهم فى كل شىء : فى المركز ، وفى التعليم ، وفى كل الأشياء الهامة لتوافق الأذواق ولانسجام الحياة » .

وكانت السنيورة تتحدث بهدوء ، و بلا أى انفعال ، وكأنها تتحدث عن شىء مجرد . وأحيانا ، عندما تتحدث هكذا ، كان فيليب يعتقد للحظة ، أنها على حق تماما ، وأن من العار على رامونا أن تحب شخصا مثل اليساندرو . والواقع أنه لا يمارى أحد فى وجود هذه الهوة ، التى تتحدث عنها ، أفليس من شك فى أن اليساندرو أقل من رامونا مركزا وتعليما وفى كل المظاهر الأخرى من الحياة . أما من ناحية طبيعة النفس ، ونبل الروح ، فلا . إن اليساندرو ليس فى هذه الناحية أقل من أى رجل — وكذلك فى القدرة على الحب — بل إن فيليب ليتساءل أحيانا عما إذا كان هناك من يبلغ قدرة اليساندرو على الحب ! لقد خطرت له هذه الفكرة أكثر من مرة عندما كان يدرس خفية، وهو راقد فى فراش المرض، الأمارات التى كانت تبدو على وجه اليساندرو حين ينظر إلى رامونا ، ولكن هذا كله لا يغير شيئا من حالة الارتباك التى نشأت من هذه المحنة ، ومن الموقف العصيب الذى يقفه هو وأمه الآن . أيوفد رسولا ليسأل لماذا لم يعد اليساندرو ؟ إن فيليب لا يستطيع أن يفعل هذا حتى لو كان حب اليساندرو معلنا ومعترفا به من الجميع ، يجب أن تكون رامونا أكبر كبرياء .

ويجب أن تعرف هذا من تلقاء نفسها . وقد قال لها شيئا من هذا عندما رآها مرة أخرى فى نفس اليوم . وكان رقيقا بقدر الإمكان فى حديثه معها ، بل لقد بلغ من ترفقه أنها لم تفهم ما يعنيه فى أول الأمر ، وكيف يمكن أن تفهم شيئا غريبا كهذا لا يتناسب مع قوة حبها ..!

ولما فهمت ، قالت ببطء وهى تركز عينيها على فيليب بنظرات لم يستطع أن يستشف ما وراءها :

— أتعنى أنه لا يليق أن ترسل أحداً ليعرف ما إذا كان اليساندرو قد مات أم لا ، لأن هذا يبدو كأنى أريد أن أتزوجه سواء أيرغب فى ذلك أم لا يرغب !

— نعم ياعزيزتى . . شىء كهذا ، وإن كان تعبيرك قاسيا بعض الشىء .

فألحت رامونا قائلة :

— أى إن حبه ليس صادقا ، هذا ما تعنيه ؟

واعترف فيليب بهذا رغما عنه .

وعندئذ قالت رامونا ببطء أشد بعد أن صمتت برهة :

— إذا كان هذا شعورك ، فيحسن ألا نتحدث عن اليساندرو مرة أخرى . وإنى لأعتقد أن من المحتمل أنك تعلم ، كما أعلم أنا ، أن الموت هو الشىء الوحيد الذى يمنعه من العودة . شكراً ياعزيزى فيليب .

ولم تعد ، بعد ذلك ، تتحدث معه عن اليساندرو .

ومر أسبوع آخر . وانتهت عملية قطف العنب وتحويله إلى خمر ، وتساءلت

www.ibtesama.com

السنيورة فى نفسها عما إذا كانت رامونا سوف تطلب مرة أخرى إيفاد رسول إلى تيميكيولا ؟ وحتى السنيورة نفسها كادت تلين وهى ترى وجه الفتاة الشاحب المضنى كلما جلست ساكنة ، ويداها معقودتان فى حجرها ، ونظراتها مركزة على أشجار الصفصاف ، وكساء المذبح - بعد أن تم - مطوى ومحفوظ فى مكان ما . إنه لن يوضع قط فى كنيسة مورينو ، و إذا سيهدى ، هكذا قررت رامونا ، للأب سالفيرديرا . لقد قررت أن تذهب إليه . و إذا كان هو ، على ضعفه ، قد استطاع أن يقطع المسافة بين سانتا بربارا والمزرعة ، فلا شك أنها أقدر على ذلك . إنها لن تضل الطريق ، لأن الطرق ليست كثيرة ، و يمكنها أن تسأل . وإن الدير الذى كان مجرد التفكير فيه عندما هددتها به السنيورة منذ أسبوعين يفزعها ، قد أصبح الآن ملاذاً سماويا ، الملاذ الوحيد الذى تهفو إليه . وهى تعرف أن هناك مدرسة لليتامى ملحقة بدير القديس جوان بوتستا وسوف تطلب من الأب أن يدعها تلتحق بها حيث تقضى عمرها كله فى الصلاة وفى تعليم الفتيات اليتيمات . وكانت تجلس الساعة بعد الأخرى وهى تدير هذه الفكرة فى ذهنها ، وتعيش فيها بخيالها ، بحيث أحست أنها عاشت فعلا سنوات عديدة فوق عمرها ، أحست أنها بلغت منتصف العمر ، ورأت بخيالها موكب الراهبات ذاهبات إلى فصول المدرسة ، ممسكات بأيدى الأطفال اليتامى ، وهى تسير بين اثنين من هؤلاء الأطفال وقد تغضن وجهها ، وابيض شعرها . وملأت هذه الصورة قلبها بالسكينة والسلام . ولسوف تبدأ فى رحلتها - بعد أن تسترد بعض قواها ، فى طريقها إلى الأب سالفيرديرا ، لأنها أضعف الآن من أن تبدأ الرحلة - إن ساقيها لترتعدان إذا هى سارت حتى نهاية الحديقة . و إن اليساندرو قد مات . . ليس فى هذا شك . وهو قد دفن فى تلك المقبرة المسورة التى حدثها

www.ibtesama.com

عنها . وإنه ليخطر لها أحياناً أن تحاول الذهاب إلى قريته لترى قبره ، وربما لترى أباه ، وإذا كان اليساندرو قد أخبره عنها ، فلاشك أن الرجل العجوز سوف يسعد بلقائها . ومن يدرى ، فربما تكون رسالتها فى الحياة هناك ، بين قوم اليساندرو . ولكن هذا يبدو عسيراً . وليس لديها الشجاعة للقيام بهذه المحاولة . إن المأوى والراحة النفسية هما كل ما تريد - مع أنغام الصلاة فى الكنيسة ، وبركات الأب سالفيرديرا كل يوم . نعم . . إن الدير هو الأفضل .

كانت تظن أنها جد واثقة من موت اليساندرو . ولكنها فى الواقع لم تكن كذلك ، لأنها ظلت تترقب وترهف السمع . وفى كل يوم ، كانت تسير فى طريق النهر ، ثم تجلس حتى شفق الغروب . وحل أخيرا اليوم الذى عجزت فيه عن الذهاب بعد أن خذلتها قواها ، فرقدت طيلة اليوم فى فراشها . وقد أجابت على السنيورة التى سألتها ببرود هل هى مريضة :

— لا يا سنيورة ، إننى لا أعتقد أننى مريضة . فأنا لا أشعر بألم . وإنما لا أستطيع النهوض فقط . وسوف تتحسن صحتى غدا .

- لسوف أرسل إليك حساء وبعض الدواء .

وأرسلت الاثنين مع مرجريتا التى زالت من نفسها كل آثار الحقد والغيرة حين رأت وجه رامونا على الوسادة ، إذ بدا لها عندئذ أكثر هزالا وشحوباً مما كان وهى جالسة . ومن ثم هتفت الفتاة بصوت ملىء بالحزن العميق :

— أوه . . سنيوريتا . . سنيوريتا ! هل ستموتين ؟ سامحينى .. سامحينى .

www.ibtesama.com

فقالت رامونا وهى تنهض على مرفقها وتنظر بعطف إلى الفتاة آخذة منها الحساء :

— ليس هناك ما أسامحك عليه يامرجريتا . إننى لا أدرى لماذا تطالبين منى أن أسامحك ! .

وألقت مرجريتا بنفسها راكعة بجوار السرير وقالت منفجرة بالبكاء :

— أوه ولكنك تعرفين ياسنيوريتا .. إنك تعرفين . أرجوك أن تسامحينى !

— لا .. إننى لاأعرف شيئا ، وإذا كنت تعرفين أنت ، فإنى أسامحك . وأنا لست فى طريقى إلى الموت يامرجريتا .

ثم أردفت قائلة بعد برهة صمت :

— وإنما أنا فى طريقى إلى الرحيل .

وأحست بغريزتها أنها تستطيع الآن أن تثق بمرجريتا . لأنها وقد مات اليساندرو لم تعد عدواً لها . ولعلها تستطيع مساعدتها . ومن ثم قالت :

— سوف أرحل يا مرجريتا بمجرد أن أسترد بعض قوتى . سوف ألتحق بالدير ، ولكن السنيورة لا تعرف هذا ، فلا تخبريها .

فهمست مرجريتا قائلة :

— لا ياسنيوريتا .

وقالت لنفسها « إنها سترحل حقاً ، ولكن إلى السماء »

وعادت تقول بصوت مسموع :

www.ibtesama.com

— لا يا سنيوريتا . لن أخبر أحداً ، ولسوف أفعل كل ما تريدين منى أن أفعله .

— شكراً لك ياعزيزتى مرجريتا • كنت أعتقد هذا .

ثم رقدت على الوسادة ، وأغمضت عينيها ، وقد بدت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، مما جعل الدموع تنحدر من عينى مرجريتا أسرع مما كانت ، ومن ثم هرعت إلى أمها باكية تقول :

— أماه .. أماه .. إن السنيوريتا مريضة وتوشك على الموت ، وأنا واثقة أنها ستموت . وهى ملازمة الفراش الآن ، ووجهها شاحب مثل وجه فيليب عندما كان فى أسوأ حالات مرضه بالحمى .

وقالت العجوز ماردا التى كانت قد لاحظت هذا منذ أيام :

— أجل . لقد ذوت فى هذا الأسبوع الأخير كالمريض بالحمى • • لقد رأيت هذا • ولابد أنها تقتل نفسها جوعا .

— نعم حقا • • إنها لم تأكل شيئا منذ عشرة أيام • • منذ ذلك اليوم •

ثم تبادلت مع أمها نظرات تنم عن أنه لا داعى لتحديد اليوم •

واستطردت مرجريتا تقول :

— إن جوان كانيتو يقول إن اليساندرو لن يرى هنا مرة أخرى أبدا .

وقالت ماردا بحرارة :

— ليرحمها القديسون إذن ، إذا كان هذا هو السبب . لقد قلبت هذه

www.ibtesama.com

الفكرة فى رأسى حتى لم أعد أفكر فى شىء آخر . ولكن الواضح أن لاليساندرو دخلا فى كل ماحدث .

وقالت مرجريتا وقد ارتد إليها إحساسها السابق لحظة :

— أستطيع أن أذكر السبب . ولكن ليس لدى ما أقوله أكثر مما قلت . بعد أن رقدت السنيوريتا فى الفراش بوجه شاحب هزيل . إن مجرد النظر إليها يملأ القلب حزنا . وإنى على استعداد لأن أركع أمامها ندما على ما قلت عنها ، وأمام تمثال القديس فرانسيس أيضا . إنها ستلحق به قبل مضى وقت طويل . إننى أعرف هذا .

وقالت العجوز ماردا الأكثر حكمة :

— لا . إنها ليست شديدة السقم كما تظنين . إنها شابة ، وإن علتها فى القلب فقط . هذا كل ما فى الأمر . وقد حدث لى هذا . وهكذا الناس جميعا عندما يكونون فى مرحلة الشباب .

فردت مرجريتا قائلة :

— إننى شابة ، ولكن لم يحدث لى شىء كهذا .

فقالت ماردا بلهجة لها دلالتها :

— إن الطريق لا يزال أمامك طويلا . وقد سمعت فى شبابى هذا المثل « من الحماقة أن تزهى حين تقطع أول مرحلة فى الطريق » .

ولم تكن ماردا تحب ابنتها الحب كله ؛ لأن طبيعتيهما كانتا متناقضتين . ذلك أن الصفات التى كانت لوالد مرجريتا ، والتى طالما أشقت حياة ماردا الزوجية ، ظلت تنمو وتزدهر فى مرجريتا يوما بعد يوم ، مقيمة بين الأم والابنة

www.ibtesama.com

حاجزا لا يستطيع حتى الحب الأموى أن يجتازه. وكان هذا التنافر بطبيعة الحال، يؤدى دائما إلى أن تسلك الأم سلوكا تراه مرجريتا بعيداً عن الإنصاف والمنطق. ومن ثم قالت لنفسها :

« إنها دائما تحمل على ، مهما فعلت . ولكن هناك شيئا واحداً ، وهو أننى لن أخبرها أبداً بما أخبرتنى به السنيوريتا .. حتى ترحل » .

وفجأة ومض فى ذهن مرجريتا شك معين ، فجلست أمام باب المطبخ وراحت تقلبه فى ذهنها . ماذا لو أن السنيوريتا لم تكن تعنى الذهاب إلى الدير، وإنما إلى اليساندرو ؟ لا .. إن هذا غير معقول ، فلو أنها أرادت ذلك ، لذهبت معه منذ البداية . وليس هناك إنسان يدبر خطة للهرب مع حبيبه يبدو فى هذه الحالة التى تبدو السنيوريتا عليها الآن. وطردت مرجريتا هذا الخاطر من ذهنها، ولكنه ترك وراءه بعض الأثر . أى إنها ستكون أكثر يقظة فى المراقبة بعد أن خطر لها هذا الشك ، وإن عودة حبها إلى سيدتها لم يكن بالقوة التى تجعلها تقاوم إحساسها بالغيرة ، إذا كان هناك ما يدعو إلى اشتعال الغيرة فى قلبها الملتهب مرة أخرى . ورغم أنها لم تكن صادرة فى حب اليساندرو ، إلا أنها أحبته إلى حد الشعور بالاستياء الشديد كلما تذكرت هيامه براموناً ، أما وقد بدت السنيوريتا الآن مهجورة شقية ، مريضة ، فإنها لم تعد تحس نحوها إلا بالعطف والرثاء . ولكن إذا عاد اليساندرو إلى المسرح مرة أخرى ، فسوف يعود كل شىء إلى ما كان عليه — إلى العداء القديم . وهكذا اعتمدت رامونا على حليف مشكوك فى ولائه ، قد يكون فى النهاية أضرى من الخصم فى عدائه .

كان الوقت فى ساعة الغروب من اليوم الثامن عشر منذ رحيل اليساندرو

www.ibtesama.com

وكانت رامونا قد ظلت راقدة فى فراشها أربعة أيام بلا حراك تقريبا . وقد أخذت هى نفسها تعتقد أنها سوف تموت وبدا لها ذهنها خاليا من كل تفكير ، بل إنها لم تحس بالأسى على موت اليساندرو . ولاحت هى كأنها شىء هامد ، جسما وروحا . ولكن هذا الهمود ، كان الدواء الذى تلجأ إليه الطبيعة لفرض الراحة على الجسم والروح . و بمثل هذا الدواء الطبيعى ، تستطيع أجسامنا عادة ، أن تتغلب على الأزمات والمحن التى لو أمعنا فى الصراع معها ، لقضت علينا .

وفيما كانت رامونا راقدة فى شبه إغماء ، فلا هى يقظى ، ولا هى نائمة ، فى ذلك المساء ، إذا بإحساس مفاجىء يخامرها بقوة — إحساس لم ينبعث عن صوت أو عن رؤية . . فقد كانت بمفردها ، وكان البيت ساكنا كالقبر ، وكان الهدوء فى شفق الغروب من شهر سبتمبر الدافىء يخيم على كل شىء فى الخارج . وجلست فى فراشها مرهقة الأعصاب يتنازعها الجزع — والسرور — والدهشة — والحياة . ماذا حدث ؟ إنها لا تسمع صوتا ، ولا ترى شيئا . و إن بقايا النهار لتنحسر بسرعة أمام سواد الليل وليس فى الجو نسمة واحدة . و بدأت حواسها الخائرة وقدرتها على التمييز تصحو تدريجيا من سباتها ، وتلفتت حولها فى الغرفة . . حتى الجدران بدت لها كأنها تنتعش ، وعقدت يديها ، ووثبت من الفراش هاتفة :

— إن اليساندرو لم يمت .

وراحت تضحك بعصبية وتكرر القول :

— إن اليساندرو لم يمت . . إنه لم يمت . . إنه فى مكان ما قريب .

www.ibtesama.com

وارتدت ملابسها بأيد مرتعدة ، وتسللت خارجة من البيت . وبعد لحظات دهشت حين وجدت نفسها على أحسن حال . إنها لا ترتعش ، وإنها لتسير بخطوات ثابتة على الأرض . وقالت لنفسها وهى تسرع فى ممر الحديقة :

« إنها المعجزة . . لقد شفيت . إن اليساندرو قريب منى »

وقد بلغ من قوة إحساسها بهذا أنها وصلت إلى أشجار الصفصاف حيث وجدت المكان خاليا ، ساكنا تماما كما كان يوم جلست فيه يائسة محطمة القلب ، كسيرة النفس . وهتفت قائلة « لا . . ليس هنا » واستبد بها خوف مفاجىء جعلها تقول : « هل أنا مجنونة ؟ أهكذا يفقد الناس عقولهم عندما يمرون بمحنة كالتى مررت بها ؟ »

ولكن الدماء الشابة القوية كانت تجرى سريعة فى عروقها . لا . . ليس هذا جنونا ، وإنما هى قوة جديدة مبعوثة . إحساس قوى عميق . . إلهام . . إن اليساندرو قريب .

وسارت بسرعة فى طريق النهر ، وكلما أمعنت فى السير ، ازدادت إحساساً بقرب اليساندرو منها وكانت على استعداد ، وهى فى هذه الحالة ، أن تسير وتسير حتى تصل إلى تيميكيولا نفسها ، واثقة بأنها ، مع كل خطوة ، تزداد اقترابا من اليساندرو .

ولما اقتربت من الخميلة الثانية لأشجار الصفصاف ، التى تبعد عن الأولى نحو ربع ميل ، رأت طيف رجل واقفا معتمدا على إحدى الأشجار . وتوقفت فجأة . لا يمكن أن يكون اليساندرو . إن اليساندرو ما كان ليتوقف لحظة بعد أن

www.ibtesama.com

اقترب هكذا من البيت الذى سيجدها فيه . وخافت أن تستمر فى السير ، فمن الخطر أن تلتقى برجل غريب فى بقعة موحشة كهذه . وكان الشخص واقفا فى سكون تام . . وقد بلغ من سكونه أنها ظنت ، وهى تحملق نحوه فى شفق الغروب ، أن ما تراه مجرد خداع للنظر . وتقدمت خطوات قليلة مترددة ثم توقفت . ولما فعلت هذا ، تقدم ذلك الشخص خطوات أيضا ، وتوقف . ولما خرج من ظلال الخميلة ، بدا لها أنه فى طول قامة اليساندرو . وتقدمت بخطوات سريعة ، ثم توقفت مرة أخرى فجأة ، ما معنى هذا ؟ لا يمكن أن يكون اليساندرو ، وأخذت تفرك يديها فى ألم ولهفة ، وألح عليها شعور لا يقاوم ، بالتقدم ، ولكن الخوف منعها ، وبعد أن ظلت واقفة مترددة بضع لحظات استدارت فى طريق العودة ، وهى تقول لنفسها « يجب ألا أغامر بلقاء رجل غريب هنا . إذا كان اليساندرو ، فلابد أنه سيأتى » .

ولكن قدميها رفضتا التحرك فى الاتجاه المضاد ، وأخذت تسير ببطء شديد ، ثم استدارت لتجد الرجل قد عاد مرة أخرى إلى مكانه الأول ، وراح يعتمد على الشجرة .

وقالت لنفسها :

« لعله رسول منه . . رسول طلب إليه ألا يذهب إلى البيت حتى تغيب الشمس » وقررت أمراً فى النهاية ، وأسرعت نحو الرجل وهى تكاد تجرى . وبعد لحظات أمست قريبة منه بحيث أمكنها أن ترى بوضوح ، نعم . . إنه هو . . اليساندرو . إنه لم يرها ، لأن وجهه كان مستديرا عنها قليلا ، وكان

www.ibtesama.com

معتمداً برأسه على الشجرة . إذن لابد أنه مريض . وطارت رامونا إليه . و بعد لحظة سمع اليساندرو خطواتها ، فاستدار بوجهه ، ورآها ، ووثب نحوها ، هاتفاً ، وسقط كل منهما بين ذراعى الآخر قبل أن يرى أحـــدهما وجه صاحبه . وتحدثت رامونا أولا وهى تنتزع نفسها برفق من ذراعيه وتنظر إلى وجهه هاتفة :

— اليساندرو . .

ولـكن النظرة الأولى إلى وجهه جعلتها تصرخ : أهذا هو اليساندرو . . ؟ هذا الشاب الأخرس المرهق ، « المبدول » الذى كان يوجه إليها نظرات جوفاء مليئة بالحزن ولا أثر فيها للبهجة !

وصاحت رامونا :

— يا إلهى . . ! لقد كنت مريضاً . إنك مريض ! ماذا بك يا اليساندرو ؟

ومسح اليساندرو بيده على جبينه أولا كأنما يريد أن يستجمع أفكاره قبل أن يتحدث ، كل هذا وهو يركز نظراته على رامونا بذلك السمت المعذب ، ممسكاً بيديها بين يديه المرتعشتين . وأخيراً قال :

— سنيوريتا . . يا حبيبتى . .

ثم توقف كأنما يرفض لسانه أن يتكلم . وهذا الصوت ! هـذا الصوت الحاد الجاف . . صوت من ؟ إنه ليس صوت اليساندرو .

وعاد يقول :

— يا حبيبتى . . إننى لم أستطع أن أمضى قبل أن أرى وجهك . ولـكن

عندما جئت هنا لم أجرؤ على الاقتراب من البيت . ولو لم تأتى ، لرحلت دون أن أراك» . وسمعت رامونا هذه الكلمات بفزع شديد ! ماذا يعنى ! وأوحى منظرها بخاطر جديد فى ذهن اليساندرو جعله يقول :

— ما هذا يا سنيوريتا ، ألم تسمعيني . . ألم تعرف ماذا حدث ؟

— لا يا حبيبى .. لم أسمع شيئاً منذ رحيلك ، وقد تأكدت لمدة عشرة أيام أنك ميت . ولكن شيئاً ما ألهمنى هذه الليلة أنك قريب ، فجئت لألقاك .

وما إن نطقت رامونا بالكلمات الأولى من حديثها ، وفيها كلمة « حبيبى » حتى طوقها اليساندرو بذراعيه مرة أخرى وهو يرتعد من فرط الانفعال ، ثم همس قائلا :

— ياسنيوريتا .. يا سنيوريتا .. كيف أخبرك .. كيف أخبرك ؟.

— عن أى شىء تخبرنى ؟ إننى لم أعد أخشى شيئاً بعد أن حضرت ، وبعد أن ثبت لى أنك لم تمت كما ظننت .

ولكن اليساندرو لم يقل شيئاً ، وقد بدا له أن من المستحيل أن يتكلم . وأخيراً هتف وهو يضمها بقوة إلى صدره :

— يا أحب سنيوريتا .. إننى أشعر كأنى سأموت حين أخبرك . لقد أصبحت شريداً بلا مأوى . . ومات أبى ، وطرد أهل قريتى من بلدتهم . . وما أنا الآن إلا متسول يا سنيوريتا . . مثل هؤلاء الذين كنت تطعمينهم وترثين لحالهم فى دير لوس أنجليس .

وفيما هو ينطق بالعبارات الأخيرة ، ترنح ، ثم اعتمد إلى الشجرة وقال :

— إننى واهن الجسم يا سنيوريتا ، لأننا نكاد نموت جوعاً .

www.ibtesama.com

ولم يطمئن إلى ما بدا على وجه رامونا الواضح فى شفق الغروب ، واستطاع أن يقرأ عليه أمارات الفزع الشديد ، وقد أخطأ فى فهم معناها ، ومن ثم استطرد قائلا :

— إننى جئت فقط لأراك مرة أخرى . وسوف أمضى الآن . ولتبارك السماء يا سنيوريتا دائما . . ولا شك أن العذراء المقدسة هى التى أرسلتك الليلة إلى . وما كنت أظن أنى سأراك مرة أخرى ، أبدا ، لو لم تأتى الليلة .

وكانت رامونا قد أخفت وجهها فى صدره وهو يتحدث ، فلما سكت ، رفعت عينيها إليه قائلة :

— هل تعنى يا اليساندرو أنك تركتنى لأعتقد أنك ميت ؟ !

وقال هو :

— لقد ظننت أن أخبار قريتى قد بلغتكم ، وأنك عرفت أنى أصبحت بلا مأوى ، ولهذا لم أستطع أن آتى إليك لأذكرك بما قلت . أوه .. سنيوريتا .. ما أقل ما كنت سأقدمه إليك من قبل ! وما كنت لأجرؤ على الظن أن فى مقدورك أن ترحلى معى . ولكننى أحببتك حبا جعلنى أعتقد أن فى إمكانى أن أفعل أشياء كثيرة . ولكن . .

ثم أخفت صوته وقال بلهجة فيها نبرات السخط :

— ولكن السماء كما أعتقد هى التى عاقبتنى هكذا ، لأنى كنت أنوى أن أترك قومى ، وآخذ كل ما أمتلك لنفسى ولك .

ثم تأوه قائلا :

www.ibtesama.com

— أما الآن . . فإنهم لم يتركوا لى شيئاً .

وهتفت رامونا قائلة وهى ترتعد بالفزع :

— من ؟ هل نشبت معركة ؟ هل مات أبوك ؟ !

— لا . . لم تنشب معركة . . وقد كان يمكن أن تنشب لو ترك الأمر لى. ولكن أبى توسل إلى الا أقاوم . قال إن المقاومة سوف تزيد الأمور سوءا فى النهاية . وكذلك رجانى شريف المنطقة أن أدع المسألة تمر بسلام، وأن أساعده على تهدئة الموقف ، وكان يشعر بأشد الأسى لأنه مضطر إلى تنفيذ القانون . وكان هو نفسه المستر روثساكر من سان دييجو . وكثيرا ماعملنا فى مزارعه . وهو يعرفنا جميعاً . ألا تذكرين ياسنيوريتا ؟ لقد حدثتك عنه كثيرا ، وعن عدالته وعطفه علينا . وكانت له أكبر مزارع للقمح فى وادى كاجون ، وكثيراً ماحصدنا له أميالا بعد أميال . وقد قال إنه كان يؤثر الموت على تنفيذ القانون ، ولكنه سيضطر إلى إطلاق النار علينا إذا قاومنا . وكان معه عشرون رجلا ، لأن الجميع كانوا يتوقعون مقاومتنا . وهذا أمر طبيعى ازاء طرد سكان قرية بأكملها . . برجالها ونسائها وأطفالها من بيوتهم، وتشريدهم كالثعالب . ولو كان المنفذ رجلا آخر غير المستر روثساكر ، لأطلقت النار عليه وقتلته فوراً ورحبت بحكم الإعدام . ولكننى كنت أعلم أنه ما دام هو يرى أنه لا بد من خروجنا ، فلا حيلة لنا فى ذلك :

وقاطعته رامونا قائلة :

— ولكن يا اليساندرو . . إننى لا أفهم . من الذى جعل المستر روثساكر يفعل هذا . من الذى يمتلك الأراضى الآن ؟

www.ibtesama.com

فقال اليساندرو بصوت ملىء بالغضب والاحتقار :

— إنى لا أعرف من هم . إنهم أمريكيون — ثمانية أو عشرة . اجتمعوا معا واستصدروا أمراً بانتزاع الملكية منا من محكمة سان فرانسيسكو . هذه ما قاله لنا المستر روناكر . . قال إنه القانون ، ولا حيلة لأحد أمام قوة القانون .

وقالت رامونا :

— أوه ! هذه هى الطريقة التى انتزع بها الأمريكيون كثيراً من أراضى السنيورة مورينو . وقد صدرت الأحكام كلها من سان فرانسيسكو . وقد قررت هذه الأحكام أن أميالا وأميالا من الأراضى التى كان يمتلكها زوجها الجنرال ليست ملكا لها على الإطلاق ، وإنما هى ملك لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

وهتف اليساندرو قائلا :

— إنهم عصابة من اللصوص والنصابين . . كل واحد منهم . إنهم سيسرقون كل قطعة أرض فى المنطقة ، ولعل من الخير لنا أن نلقى بأنفسنا فى البحر ونتركهم يأخذون أراضينا . وكان أبى يقول لى هذا منذ أعوام ، كان يتوقع حدوثه دائما . ولكننى لم أصدقه . . لم أكن أصدق أن الناس على مثل هذا الشر . ولكنه كان على صواب . وإنى لسعيد الآن بموته ، بل إن موته هو الشىء الذى أحمد الله عليه الآن . وقد لاح لى ذات يوم أن صحته سوف تتحسن ، فابتهلت للعذراء ألا تتحسن صحته . لم أكن أريد له أن يعيش . لقد فقد صوابه بعد أن أخرجوه من بيته . وكان هذا قبل أن أعود بقليل ، ووجدته على الأرض

www.ibtesama.com

خارج البيت . وقيل لى إنها الشمس التى خبلته . ولكن لا . . وإنما هو قلبه الحطم فى صدره . لقد رفض أن يترك بيته . ولكن الأمريكيين جاءوا وحملوه وأخرجوه عنوة وألقوا به على الأرض وقذفوا وراءه بكل ما كان يمتلك من أثاث . ولما رآهم يفعلون هـــذا ، وضع يديه على رأسه وهتف « اليساندرو . اليساندرو » ولم أكن هناك . . ويقولون يا سنيوريتا إن صوته كان كفيلا بأن يجعل الموتى يسمعون . ولم يستطع أحد أن يمنعه إذ ظل طوال النهار والليل وهو ينادى . يا إلهى إننى لاأدرى كيف لم أمت عندما قالوا لى هذا يا سنيوريتا. وعندما وصلت ، كان بعضهم قد أقام خيمة صغيرة من البوص على رأسه ليحميه من الشمس ، ولم يعد ينادى على ، وإنما فى طلب الماء . وهذا ما جعلهم يظنون أن الشمس هى التى خبلته . وقد بذل الجميع كل ما فى وسعهم ولكن الظروف الرهيبة التى عاش فيها لم تتح لهم فرصة عمل الكثير من أجله . إذ كان رجال الشريف متعجلين فى تنفيذ القانون ، فلم يتيحوا لأحد أية فرصة لعمل شىء . قالوا إن على سكان القرية أن يرحلوا فى خلال يومين على الأكثر . وهكذا راح كل واحد يجرى هنا وهناك ، والجميع يخرجون أمتعتهم ويكومونها فى العراء . وقد أخذ السكان أسقف منازلهم أيضا ، لأنها مصنوعة من البوص ، ويمكن استخدامها مرة أخرى . أوه . . أرجوك ياسنيوريتا ، لا تطلبى منى أن أخبرك بالمزيد ، فإن الحديث عن هذا كالموت . . لا أستطيع .

وكانت رامونا تبكى بمرارة. ولم تدر ماذا يمكن أن تقول ، وما هو الحب أمام كارثة كهذه . ماذا يمكن أن تقدمه لرجل يعانى مثل هذه المحنة .

وقال اليساندرو فى أسى :

www.ibtesama.com

— لا تبكى يا سنيوريتا . إن الدموع تقتل النفس ، ولا تفيد أحدا .

وقالت رامونا وهى تزيد من عناق يديها على عنقه :

— كم يوما عاشها والدك بعد هذا ؟ .

وكانا عندئذ قد جلسا على الأرض ، ورامونا مرفرفة على اليساندرو كأنها هى القوية التى تحمى الضعيف ، وكانت قد أخذت رأسه على صدرها وراحت تهدهده كأنما هى زوجته منذ أعوام . ولم يكن هناك مايمكن أن ينم عن ضعفه وسوء حاله من الطريقة التى كان يتقبل بها هدهدة رامونا له ، ولو حدث هذا من قبل ، لتلقى هذه اللمسات الحانية بسعادة لا توصف . وكان يميل برأسه على صدرها وهو يجيب قائلا :

— لقد مات منذ أربعة أيام فقط ، ثم انتظرت حتى واريته التراب ، وعدت إليك مسرعا بقدر ما أستطيع . لقد كان الجواد المسكين أضعف جسما منى . أما جوادى الخاص فقد أخذه الأمريكيون .

فهتفت رامونا قائلة فى استنكار شديد :

— أخذوا جوادك ؟ أهذا بحكم القانون أيضاً ؟

— هكذا قال المستر روثساكر . قال إن القاضى حكم بانتزاع ما يكفى من الماشية والخيول لتغطية نفقات إجراءات المحكمة فى سان فرانسيسكو . وأعتقد أنهم لم يقوموا الماشية بسعرها الحقيقى ، قائلين إن أسعارها منخفضة فى الأيام الأخيرة . وهكذا لم يكن فى القرية ما يكفى من الماشية ، فاضطررنا إلى أن

www.ibtesama.com

نعطيهم جيادنا . ولم أكن هناك يوم ساقوا الماشية ، وإلا لأطلقت رصاصة على « بنيتو » قبل أن يركبه أحد الأمريكيين . وإنما كنت في باسانجا مع أبي . ولم يكن على استعداد لأن يتحرك خطوة إلا من أجلي ، وهكذا مضيت به إلى هناك ، حيث سقط مريضا ، وحيث بقيت بجانبه كل لحظة . ولم يكن يعرفني ، ولا يعرف شيئا مما حدث . وقد أقمت له كوخا من البوص ، وأرقدته على الأرض حتى مات . ولما واريته الثرى ، أحسست بالرضا .

فقالت رامونا :

ـــ في تيميكيولا ؟

فصاح قائلا بحدة :

ـــ في تيميكيولا ؟ إنك لا تفهمين كما يبدو ياسنيوريتا . إنه لم يعد لنا في تيميكيولا أي حق ، حتى في المدافن المليئة بموتانا . وقد حذرنا المستر روثاكر بألا نتسكع هناك ، لأن الرجال القادمين كانوا ، كما قال ، غلاظ القلوب ، لا يترددون في قتل أي هندي يرونه يطأ أرضهم .

ـــ أرضهم ! ؟

فقال اليساندرو :

ـــ نعم ، أرضهم ، إنها الآن أرضهم بحكم القانون . إن لديهم الآن كل المستندات التي تثبت ملكيتهم وهذا ما كان أبي يقوله دائما . وليت السنيور فالديز قد أعطاه مستندا بالملكية . ولكنهم لم يكونوا يفعلون هذا قديما .

www.ibtesama.com

لم يكن مع أحد مستندات ملكية. والقانون الأمريكى لا يعترف بغير هذا.

فصاحت رامونا قائلة:

— إنه قانون لصوص.

— نعم .. وسفاحين أيضاً. ألم يمت أبى كما لو كانوا قد أطلقوا عليه الرصاص! هذا هو رأيى. وهناك چوزيه.. أوه .. هل تذكرين چوزيه ياسيبوريتا؟ إنه الذى أحضر لى الكمان. ولكن ياحبيبتى .. إننى أقتلك بهذا الحديث، ولهذا فلن أزيد.

فصاحت رامونا بأنفاس لاهثة:

— لا لا ياأليساندرو.. أخبرنى بكل شىء.. يجب أن أشاركك فى أحزانك كلها. ماذا عن چوزيه؟

— لسوف يتمزق قلبك أمى إذا سمعت مأساة چوزيه ياسيبوريتا. كان قد تزوج منذ عام، وكان بيته أحسن بيت فى القرية بعد بيت أبى. كان ثانى بيت فى القرية له سقف من القرميد، وكان له مخزن للمحصولات، وذلك الجواد الفاخر، وبعض الثيران، وقطيع من الغنم. وكان فى القرية عندما جاء الشريف، ولكن عددا كبيرا من الرجال كانوا بعيدين عنها يقطفون العنب ويحولونه إلى خمر، وهذا ما جعل الأمر أشد سوءا. وكان چوزيه فى القرية لأن زوجته وضعت طفلا منذ أسابيع قليلة، وكان الطفل يبدو سقيما، ولا تبشر حالته بأنه سيعيش، ولهذا بقى چوزيه بجانبه. وكان هو أول من رأى الشريف يدخل القرية راكبا جواده ومن ورائه رجاله المسلحون. وأدرك چوزيه كل شىء لأنه كثيراً ما تحدث معى

www.ibtesama.com

ومع أبى فى هذا الموضوع ، ومن ثم أدرك أن ساعة الكارثة قد حانت ، وفقد صوابه فى الحال ، وسقط على الأرض والزبد يخرج من شدقيه . وكان قد أصيب بنوبة كهذه من قبل ، وقال الطبيب : إنه سيموت إذا أصيب بمثلها . ولكنه لم يمت ، وحمله بعضهم ، وتحسنت حاله ، وقال المستر روثسا كر إن چوزيه كان أنشط أهل القرية فى تنفيذ الأمر فى اليوم الأول ، وكان معظم الرجال قد رفضوا أن يتحركوا من أماكنهم . وإنما ظلوا جالسين على الأرض مع نسائهم، حاجبين وجوههم بأيديهم حتى لا يروا ما يحدث . ولكن چوزيه راح يعمل ، وكان أول شىء فعله أن أخذ كان أبى وأسرع به إلى متجر مسز هارتسل وطلب منها أن تخفيه من أجلنا . وكان چوزيه يعلم أن الكان يساوى مبلغا كبيرا ، ولكنه أصيب بنوبة أخرى قبيل الظهر اليوم التالى ومات فيها . مات داخل بيته وهو يحمل بعض المتاع إلى الخارج. ولما رأت كارمينا — زوجته — أنه مات ، التزمت الصمت، وجاءت تترنح أماما وخلفا والطفل الوليد بين ذراعيها ، ثم رحلت إلى باسانجا حين أخذت أبى إليها . . وكان موكبا حزينا .

وسألته رامونا قائلة :

— وأين باسانجا ؟

— على مسافة ثلاثة أميال من تيميكيولا ، وهى محلة صغيرة فى خور جبلى، وقد طلبت من قومى أن نرحل إليها ، لأن الأرض هناك ليست ملكا لأحد ، ولعلنا نجد فيها معاشنا ، ولكن أسوأ ما فى الأمر أن الماء ينقصها .

فهتفت رامونا قائلة :

— ليس بها ماء !!

— ليس بها ماء جار .. هناك جدول صغير . وقد حفر فوى بجواره بئرا بمجرد استقرارهم هناك وهكذا يوجد ماء للشرب فقط . وقد كادت كارمينا تسقط إعياء ، فحملت الطفل عنها وأنا أقود أبى .. ولكن الطفل بكى ، فاستردته منى ، وكنت أظن أنه لن يعيش يوما آخر . ولكنه عاش حتى صباح يوم وفاة أبى ، إذ جاءت كارمينا ، قبل ساعات من وفاة أبى ، تحمل الطفل بين ذراعيها ملفوفا فى وشاح ، ثم جلست بجوارى على الأرض ولم تتكلم . ولما سألتها « كيف حال الصغير ؟ » رفعت طرف الوشاح لأراه ، ميتا . وعندئذ قلت « حسنا يا كارمينا .. ! إن أبى يحتضر أيضا ، وسوف ندفنهما معا » وهكذا جلست بجوارى طيلة النهار ، وفى المساء ساعدتنى على حفر القبر. وقد أردت أن أضع الطفل على صدر أبى ، ولكنها أصرت على أن يكون له قبره الصغير ، ثم حفرته بنفسها ولم تقل شيئا بعد ذلك . وإنما ظلت جالسة بجوار قبر ابنها حتى بدأت رحلتى إلى هنا وقد صنعت صليبين من أغصان الشجر ووضعتهما على القبرين ، وهكذا بدأت أول مقبرة لنا فى تلك المنطقة ، مقبرة فيها أبى ، وفيها طفل صغير . وإنه لمن حسن الحظ أن يموت الطفل الصغير جدا والمسن جدا .. أما أنا ، فما كان فى مقدورى أن أموت كما يبدو لى .

وقالت رامونا وهى تشهق :

— وأين دفنوا جوزيه ؟

— فى تيميكيولا . لقد جعل المستر روتسا كر اثنين من رجالنا يحفران قبرا لجوزيه فى المقبرة القديمة ، ولكننى أعتقد أن كارمينا سوف تتسلل ذات ليلة

www.ibtesama.com

وتأتى بجثته ، وربما فعلت هذا بنفسى . ولكن الظلام كثيف ياسنيوريتا ، وإنى لا أكاد أرى عينيك وأعتقد أنه لاينبغى أن تمكثى أكثر من هذا . هل يمكن أن أصحبك حتى النبع دون أن يرانى أحد ؟ لتباركك السماء ياحبيبتى على حضورك ، وما كنت أظن أنى سأقدر على الحياة يوما آخر لو لم أر وجهك .

ووثب اليساندرو واقفا ، وظل ينتظر نهوض رامونا . ولكنها بقيت فى مكانها لا تريم .. كانت فى حالة سيئة جدا .. وكان قلبها يخفق برغبة واحدة ـ الذهاب مع اليساندرو . ولم يكن فى ذهن اليساندرو كما بدا لها فكرة أبعد من هذه ! هل يمكن أن تعرض رغبتها للذهاب معه ؟ هل يمكن أن تقاسم وتضع على عاتقه عبئا أثقل مما يحتمل ؟ وإذا كان متسولا ، كما يقول الآن ، فهل ستساعده بذهابها معه أم تشقى حياته أكثر ؟ إنها تحس بالقوة والمقدرة ، وإنها لم تفزع يوما من العمل . وإذا كانت لا تعرف معنى الفاقة ، فإنها لا تخشاها على كل حال .

وأخيرا قالت بصوت أدهشه :

ـ اليساندرو !

ـ نعم ياسنيوريتا !

ـ إنك لم تنادنى مرة واحدة باسمى المجرد .. رامونا .

ـ لا أستطيع ياسنيوريتا .

ـ لماذا ؟

ـ لا أدرى .. فأنا أحيانا أفكر فيك باسمك رامونا .

www.ibtesama.com

ثم أردف بصوت خافت :

— ولكن ليس كثيرا . وكلما فكرت فيك ، فإنما أفعل هذا عادة وأنا أدعوك باسم آخر لا تعرفينه .

— ما هو ؟

— اسم هندى . . يا أحب الناس إلى . . اسم طائر تشبهينه . . يمامة الغاب واسمها بلغة لوزينو « ماجيل » . هذا هو الاسم الذى قدرت أن يناديك به قومى، لو أنك جئت لتقيمى بيننا . إنه اسم جميل ياسنيوريتا ، وهو يناسبك .

وكان اليساندرو لا يزال واقفا عندما نهضت رامونا ووضعت يديها على صدره ، ورأسها على يديها وقالت :

— اليساندرو .. لدى ما أريد أن أقوله لك .. إننى هندية ، وأنا أنتمى إلى قومك .

ولما صمت اليساندرو ، قالت له :

— إنك مدهوش ، وقد ظننت أنك ستفرح !

— إن فرحتى بهذا شعرت بها منذ مدة طويلة . . لقد كنت أعرف هذا السر .

— كيف ؟ ومع ذلك لم تخبرنى به يا اليساندرو قط .

— لم أستطع . لقد علمت به من چوان كانيتو .

وقالت رامونا مفكرة :

www.ibtesama.com

— چوان كانيتو ؟ وكيف أمكنه أن يعرف •

ثم راحت بكلمات قليلة سريعة تخبر اليساندرو بما ذكرته لها السنيورة ه. ثم قالت :

— هل هذا ما قاله لك چوان كانيتو ؟

فتلعثم اليساندرو قائلا :

— نعم •• فيما عدا اسم أبيك •

— ومن قال لك عنه إنه أبي ؟

وصمت اليساندرو • وقالت رامونا :

— لا يهم ، إنه كان مخطئاً . والسنيورة طبعاً أعرف منه بالحقيقة . كان أبي صديقاً لهـــا ولأختها السنيورة أورتيغا التي سلمتني إليها . ولـكنني أعتقد يا اليساندرو أنني أنتمي إلى أمي أكثر مما أنتمي إلى أبي •

فأجاب اليساندرو بحنان :

— نعم •• نعم ياسنيوريتا • فبعد أن عرفت هذه الحقيقة ، أدركت كيف كنت أرى في وجهك ما أراه في وجوه قومي .

— ألست سعيداً بهذا يا اليساندرو ؟

— أجل يا سنيوريتا .

وماذا يمكن أن تقوله رامونا بعد هذا ؟ وفجأة خفق قلبها ، ثم إذا هي تندفع

www.ibtesama.com

بلا تمهيد ، وبلا تدبير ، بل وتكاد بلا وعى ، وتلقى بنفسها على صدر اليساندرو حانقة :

— أوه . . اليساندرو ! خذنى معك . . خذنى معك . . إننى أفضل الموت على أن تتركنى مرة أخرى .

www.ibtesama.com

(١٥)

كانت إجابة اليساندرو الأولى على صيحة رامونا هذه ، أن زاد من ضغط ذراعيه حولها ، وراح يضمها إليه أكثر فأكثر حتى كادت تشعر بالألم . وكان فى مقدورها أن تسمع خفقات قلبه ، إلا أنه ظل صامتا . وبعد أن أرخى ذراعيه ، تناول يدها ووضعها على جبهته فى خشوع ، وقال بصوت متهدج مرتعد بحيث لم تستطع أن تفهم كلماته إلا بصعوبة :

— إن سنيورتى تعرف أن حياتى ملك لها ، ويمكنها أن تطلب منى اقتحام النار أو السقوط فى البحر ، وما كان هذا أو ذاك ليخيفنى ، وإنما يملؤنى بالسعادة من أجلها . ولكننى لا أستطيع أن آخذ حياة السنيوريتا وأذروها هباء ! إنها رقيقة .. إنها ستموت .. لأنها لا تستطيع أن تتخذ من الأرض فراشا ،

www.ibtesama.com

ولاتجد طعاما تأكله . إن سنيورتى لاتعرف ماذا تقول .

وكان صوته الجاد ، وحديثه بصيغة الغائب ، كأنما هو يتحدث عنها ، لا معها ، أو كأنما يفكر بصوت مسموع مبتهلا إلى الله ، أكثر مما يتحدث إليها ليهدىء من نفسه ، ويقوى عزيمته ، لم يمنع رامونا من القول :

— إننى قوية ، وأستطيع أن أعمل أيضاً يا اليساندرو . إنك لاتعرف فإن فى إمكاننا أن نعمل معا . إننى لست خائفة من النوم على الأرض . وإن الله سوف يرزقنا بالطعام .

— هذا ماخطر لى ياسنيورتى حتى الآن . فعندما رحلت عن هناك فى ذاك الصباح فكرت فى هذا كما قلت الآن . أى إذا لم تكونى خائفة ، فلن أكون خائفا أيضاً ، وإننا سنجد على الأقل مايسد رمقنا دائماً . وإن فى مقدورى ألا أجعلك تعانين قسوة الحياة . ولكن القديسين ياسنيوريتا غير راضين عنا . إنهم لم يعودوا يبتهلون من أجلنا . لقد تخلوا عنا كما قال أبى . إن هؤلاء الأمريكيين سيقضون علينا . إنهم ، كما أعلم ، لن يلبثوا حتى يبدأوا فى إطلاق النار علينا ، وتسميمنا ، حتى يطردونا من البلاد ، كما يفعلون مع الأرانب والقوارض . ولن يكون هذا كله أسوأ مما فعلوا بنا . ألا ترين ياسنيوريتا أن الموت أفضل مما أنا عليه الآن ؟

وكانت كل كلمة ينطق بها ، إنما تضاعف من إصرار رامونا على مشاركته حظه من الحياة ، ومن ثم قاطعته قائلة :

www.ibtesama.com

— اليساندرو . إن هنــــاك رجالا كثيرين فى قومك لهم زوجات . أليس كذلك ؟

فقال اليساندرو فى تعجب :

— أجل ياسنيوريتا .

— هل تخلت زوجاتهم عنهم بعد أن حلت هذه الكارثة ؟

فقال وهو لايزال متعجبا :

— لا يا سنيوريتا ؟ كيف يمكن هذا ؟

— إنهن سيبقين معهم ، ويساعدنهم على اكتساب الرزق ، ويحاولن إسعادهم . . أليس كذلك؟

فقال اليساندرو وقد بدأ يدرك الهدف المنشود من وراء هذه الأسئلة :

— نعم ياسنيوريتا .

وكانت رامونا تحذو ، بذلك ، حذو السنيورة مورينو ، فى تضييق نطاق المجال الذى توجه فيه أسئلتها . وقد استطردت تقول :

— وهل النساء فى قومك يحببن أزواجهن كثيراً ؟

— كثيراً جداً ياسنيوريتا .

ومرت فترة صمت . وكان الليل قد تكاثف عندئذ ، ولم يعد فى مقدور اليساندرو أن يرى الانفعالات المختلفة التى كانت ترتسم بسرعة على وجه

www.ibtesama.com

رامونا . بل إن عنقها كان يتغير لونه من فرط الانفعال وهى تلق بسؤالها الأخير :

— هل ترى أن أية واحدة منهن تحب زوجها أكثر مما أحبك يا اليساندرو ؟

وعادت ذراعا اليساندرو تطوقانها قبل أن تفرغ من كلماتها . أوليست هذه الكلمات كافية لأن تعيد الحياة إلى الرجل الميت ! إنها تكاد تفعل هذا .. ولكنها لم تكن كافية لأن تحول حب اليساندرو إلى أنانية . ومن ثم التزم الصمت . فقالت هى :

— أنت تعرف أنه لاتوجد واحدة على هذا النحو .

وصاح اليساندرو وهو يرفع ذراعيه فى انفعال شديد :

— أوه .. إن هذا الكثير ..

ثم عاد وضمها إليه ، وقال بألفاظ متدفقة وأنفاس لاهثة :

— سنيورتى .. إنك تحملينى إلى أبواب الجنة . ولكننى لاأجرؤ على الدخول . فأنا أعرف أنك ستموتين إذا عشت حياة كحياتنا . دعينى أرحل يا أعز سنيوريتا ! دعينى أرحل ! كان خيرا لك لو أنك لم ترينى قط .

— أتعرف ماذا كنت سأفعل يا اليساندرو لو لم تأت ؟ كنت سأفر من بيت السنيورة ، وأمشى طوال الطريق إلى سانت باربارا .. إلى الأب

www.ibtesama.com

سالفيرديرا وأطلب منه أن يلحقنى بدير سان چوان بوتستا ، وهذا ما سأفعله إذا تركتنى .

فصاح اليساندرو باهتياج شديد :

— لا لا ياسنيوريتا .. ياسنيورتى .. لن تفعلى هذا ؟ أتعيش سنيورتى الجميلة فى الدير ؟

— نعم ، سأفعل هـــذا إذا لم تدعنى أمضى معك .. سأفعله من الغد .

واستطاعت كلماتها أن تنفذ إلى أعماق نفس اليساندرو بالإقناع . ومن ثم أدرك أنها سوف تفعل ما تقول . ومع هذا فقد رد قائلا :

— حتى هذا لن يكون أسوأ ياسنيوريتا من أن تعيشى مطاردة كوحش الغاب . وهذا ماسوف يحدث لك إذا جئت معى .

— عندما ظننتك ميتا يا اليساندرو ، لم يكن الدير يبدو لى رهيبا على الإطلاق . لقد خطر لى أنه سيكون لى مقرا لسكينة نفسى ، وإنى سأفعل الخير بقدر ماأستطيع للأطفال . أما إذا عرفت أنك حى ، فما كنت لأشعر بالسكينة قط . اليساندرو ، إنى أوثر الموت على الابتعاد عنك .. أوه .. اليساندرو . . خذنى معك .

وهزم اليساندرو ، وقال بوقار :

— سوف آخذك معى يا أحب سنيوريتا .

www.ibtesama.com

ولكن صوته لم يكن ينم عن بهجة الحبيب ، وكان يرن فى السمع أجوف أيضا ، وهو يردف قائلا :

— سوف آخذك ، ولعل القديسين يرعونك حتى بعد أن تخلوا عنى وعن قومى .

— إن قومك هم قومى ياحبيبى ، والقديسون لا يتخلون عن الذين لا يتخلون عنهم . ولسوف نسعد بحياتنا على طول مداها يا اليساندرو . .

قالت رامونا هذا وهى تضع رأسها على صدره فى صمت خاشع لمدة دقيقة كأنما تسجل على نفسها عهدا .

ولعل فيليب قد أحسن قولا حين قال إنه سيكون سعيد الحظ لو وجد امرأة تحبه كما تحب رامونا اليساندرو .

ولما رفعت رأسها ، قالت بوداعة بعد أن غدت متأكدة من تحقيق أملها :

— إذن سوف تأخذ معك حبيبتك رامونا يا اليساندرو ؟

— سوف آخذك معى حتى آخر لحظة من حياتى .

وضمها إلى صدره ، وحنى رأسه على رأسها ، ولكن كانت ثمة دموع فى عينيه ، ولم تكن دموع الفرح ، أما فى نفسه ، فقد قال كما سبق أن قال فى لحظة نشوته حين رأى رامونا لأول مرة منحنية على النبع تحت أشجار الصفصاف :

« يا إلهى . . ماذا عساى أفعل ؟! »

www.ibtesama.com

ولم يكن من السهل أن يقرر خير وسائل التصرف الآن . لقد رغب اليساندرو أن يمضى ، بجرأة ، إلى البيت ، و يقابل السنيور فيليب ، بل والسنيورة موريتو إذا لزم الأمر . ولكن رامونا ارتعدت لمجرد الحديث فى هذا الأمر ، وقد هتفت قائلة :

— إنك لا تعرف السنيورة يا اليساندرو ، و إلا لما فكرت فى هذا قط . لقد كانت رهيبة طوال الوقت ، و إنها لتكرهنى إلى أحد استعدادها لقتلى لو أمكنها ذلك . إنها تتظاهر بأنها لن تعرقل رحيلى معك ، ولكننى أعتقد أنها ، فى آخر لحظة ، سوف تفضل أن تلقى بى فى بئر فناء البيت على أن ترانى راحلة معك .

— إننى لن أسمح لها أبدا ، بإيذائك ، وكذلك السنيور فيليب .

فردت رامونا قائلة :

— إنها تدير فيليب حول إصبعها كما لو كان قطعة شمع لينة . إنها تجعله يتردد بين مائة فكرة فى لحظة واحدة ، ولا حيلة له فى هذا . أوه ! أعتقد أنها متحالفة مع الأبالسة يا اليساندرو ! حذار أن تقترب من البيت ، ولسوف آتى إليك بمجرد أن ينام الجميع . وعندئذ نرحل فورا .

وتغلب فزع رامونا على رأى اليساندرو، فوافق على انتظارها فى نفس البقعة الواقفين فيها ، وقبل أن تمضى ، استدارت مرتين لتعانقه قائلة :

— أوه اليساندرو ! عدنى ألا تتحرك من هذا المكان حتى أعود إليك .

www.ibtesama.com

— سوف أكون هنا عندما تعودين .

— لن أغيب غير ساعتين ، أو ثلاث ساعات على الأكثر . . والساعة الآن لابد أن تكون التاسعة .

ولم تلاحظ أن اليساندرو قد راغ من الوعد بألا يترك المكان ، لأنه لم يكن في وسعه أن يقطع على نفسه وعداً كهذا ، ذلك لأنه كان يريد أن يقوم بشيء استعداداً لهذا الهرب للفاجيء مع رامونا . فبسبب براءتها ، واستغراق أفكارها في اليساندرو والحب ، لم يبد أنها قدرت ، قط ، كيف ستقوم بهذه الرحلة الطويلة . وتذكر اليساندرو كيف ركض بجواده إلى تيميكيولا ، منذ ثمانية عشر يوما ، وتخيل كيف كان ينوى أن يعود بجواده السريع الأصيل ، بنيتو ، ومعه فرس أنطونيو الفريدة لتركبها رامونا . كان هذا منذ ثمانية عشر يوما قصيرة خلت ! وفيما كان في طريقه إلى تيميكيولا والأحلام العذبة تراوده ، رأى أنطونيو يقبل نحوه كالريح على فرسه الأصيلة التي كانت تلهث من فرط الإرهاق وأنفاسها تنطلق كأنها البخار المندفع من منافذ قاطرة ، وقطرات الدماء تنثال من جانبي جسمها ، لأن أنطونيو لم يرحمها من موالاة اللكز بمهمازيه طوال الطريق. ولما رآه أنطونيو ، صاح بأسى ، ووثب عن الفرس ، وأسرع نحوه قفزا وأخبره لاهث الأنفاس ، بما حدث . ولا يستطيع اليساندرو أن يتذكر هذه الكلمات ، ولكنه يتذكر أنه جز على أسنانه ، وأرخى من يده عنان جواده ووضع رأسه بين أذنى بنيتو ، وهمس له . ولم يتوقف بنيتو قط و إنما ظل يركض طيلة اليوم حتى وصل إلى تيميكيولا . وهناك رأى اليساندرو البيوت المخربة ، والمركبات المشحونة ، وأهل القرية يجرون هنا وهناك ، والأطفال والنساء يولولن ، وأطلعوه على المكان الذى كان يجلس فيه أبوه على الأرض تحت

www.ibtesama.com

الظلة . ووثب اليساندرو من فوق بنيتو ، وتركه يمضى . . وكانت تلك آخر مرة يراه فيها . كل هـذا حدث منذ ثمانية عشر يوما فقط . وها هو ذا الآن تحت أشجار الصفصاف . . فى نفس المكان الذى توقف فيـه لأول مرة قبل أن يصل إلى بيت آل مورينو ، والذى رأى منـه رامونا لأول مرة وكان الظلام كثيفا ، وقد كانت رامونا هنا بين ذراعيه .. له .. وقد ذهبت الآن وهى مصرة على أن ترحل معه بعد أن تعود .. إلى أين ؟ ! ليس له فى هذا العالم الواسع بيت يمكن أن يأخذها إليه . وهذا الحيوان المسكين الذى ركبه من تيميكيولا .. هل لديه من القوة ما يكفى لأن يحملها ؟ إن اليساندرو يشك فى هذا . إنه نفسه قد سار على قدميه نصف المسافة رحمة بالحيوان الضعيف . ومع ذلك فقد كانت ثمة مراع خضراء على طول الطريق ، ولكن الجواد لم يستطع أن يسترد بسرعة قواه لطول ما عاناه من الجوع ، ذلك أن العشب فى خور باسانجا ، حيث لجأ هو وقومه ، كان جافا محترقا من فرط حرارة الشمس ، وقد عانت الجياد الجوع لهذا السبب إلى حد أن مات بعضها . ولكن اليساندرو حتى وهو يطوق رامونا بذراعيه ، كان قد أدار فى ذهنه مشروعا لم يجرؤ على إخبار رامونا به . فإذا كان « بابا » جواد رامونا لا يزال فى المربط ، فإن فى مقدور اليساندرو أن يستدرجه بسهولة ، وليست هذه فى رأيه خطيئة حتى لو كانت كذلك ، فلا حيلة له فى تجنبها . إذ لا بد أن يكون للسنيوريتا جواد ، وقد كان « بابا » جوادها دائما . . جوادها الذى ظل يتبعها ، كالكلب ، منذ أن عرف الركض .

والواقع أن رامونا فقط هى التى روضته وأطعمته السكر والشهد ، ورغم نفوره من الجميع ، فقد كان فى مقدور رامونا أن تقوده بشعرة حريرية واحدة

www.ibtesama.com

من معرفته . وكذلك استطاع اليساندرو أن يكتسب محبته تماما ، لأنه كان يشعر بسعادة بالغة ، فى أثناء إقامته فى موسم الصيف ـ حين يربت على عنقه ويمسح عليه عندما يعجز عن رؤية رامونا . وهكذا عرفه « بابا » وأحبه بعد سيدته الشابة . ولو كان « بابا » فى مربطه الآن ، إذن لسار كل شىء على ما يرام وما إن ابتعدت رامونا عن المكان حتى تبعها اليساندرو مسرعا فى حذر فى داخل الممر . وأخيراً دار حول أشجار الصفصاف ، وتجنب المرتفع الذى يقع فيه حقل الخرشوف ، وتقوم تحته مرابط الأغنام ، ثم استدار واقترب من مربط الجياد من الناحية الأخرى ، ولم ير ضوءاً فى أكواخ الرعاة . إنهم نائمون لحسن الحظ . وإن اليساندرو ليعرف كيف يستغرقون عادة فى نوم عميق . فكثيراً ما كان يمر فوق أجسادهم مرتين ، وهم راقدون على الجلود فوق الأرض ، فى ذهابه إلى الخارج ، وإيابه ، عندما كان ينام معهم ـ دون أن يشعروا به . كل ما كان يرجوه ألا يطلق « بابا » صهيلا عاليا . واعتمد اليساندرو على سياج المربط وأرسل صفيراً خافتا مسموعا . وكانت الجياد كلها مجتمعة فى الطرف الأبعد من المربط . فلما صفر ، بدرت حركة خفيفة بينها ، ثم استدار أحدها وتقدم خطوة أو خطوتين نحو اليساندرو الذى قال لنفسه وهو يرسل صفيراً آخر خافتا .

ـ أعتقد أن هذا « بابا » نفسه .

وحث الجواد خطواته ، ثم توقف كأنما يخشى أن يناله السوء . وهمس اليساندرو .

ـ بابا ! !

www.ibtesama.com

وعرف الجواد اسمه كأى كلب ، وكذلك عرف صوت اليساندرو ، ولكن الحيوان العاقل أدرك بغريزته ، كما يبدو ، أن الأمر يحتاج إلى السرية والحذر . وما دام اليساندرو يهمس ، فيجب أن يهمس هو أيضاً ! ومن ثم كان صهيله أقرب شيئاً إلى الهمس وهو يعدو نحو السياج ، ويضع أنفه على وجه اليساندرو ، ويحك وجنتيه ، ويقبله ، ويهمهم متنهداً فى ارتياح .

وهمس اليساندرو قائلا وكأنه يتحدث إلى مخلوق بشرى :

— هس . . هس . . بابا . . هس .

ثم راح بحذر يرفع الأجزاء العليا من السياج ، وأدرك الجواد الموقف فى الحال . وما كاد السياج ينخفض قليلا ، حتى وثب فوقه ووقف ساكنا بجوار اليساندرو ، فى حين أعاد هذا السياج إلى ما كان عليه ، مبتسما لنفسه ، رغم شعوره العميق بالقلق ، وهو يتخيل دهشة المسن كانيتو فى الصباح عندما يتساءل عن كيفية خروج « بابا » من المربط .

ولم يستغرق هذا كله غير دقائق معدودة ، والواقع أن الحظ كان حليفا لاليساندرو أكثر مما توقع ، ومن ثم تشجع وبدأ يتساءل عما إذا كان فى مقدوره أن يأتى بالسرج أيضا ؟ وبالأعنة ، والركاب ، وما إلى هذه الأشياء المعلقة على المشاجب فى جرن مفتوح ، وهى الأشياء التى ترى عادة فى كاليفورنيا الجنوبية ، وكأنها دلالات على الأحوال الجوية ، كالنشرات الرسمية ، إنها أرضيات وسقوف ، بلا جدران . . وإنما دعائم لتحمل السقوف . . ولا شىء غير هذا فى بناء الأجران بطول كاليفورنيا الجنوبية وعرضها . ووقف اليساندرو

www.ibtesama.com

يفكر . وكلما أمعن التفكير ، ازداد رغبة فى الحصول على ذلك السرج .

— بابا . لو أنك فقط تعرف ما أريد منك ، لرقدت هنا على الأرض ، وانتظرت حتى أعود إليك بالسرج ، ولكنى لا أغامر بتركك . هلم معى يا بابا .

ومضى منحدراً من التل مرة أخرى والجواد يتبعه فى سكون . ولما بلغ أسفل المرتفع ، انطلق يعدو ويده على معرفة الجواد كما تعود ، وما هى غير لحظات حتى عاد إلى خميلة الصفصاف التى كان اليساندرو قد شد إليها جواده الأعجف . ولما شد « بابا » إلى نفس الرباط ، وضع وجهه على أنفه وقال له بصوت مسموع وهو يمسح على جيده بيده :

— حسناً يا بابا . انتظر هنا حتى تأتى السنيوريتا .

وحمحم الجواد ، وقال اليساندرو متحدثا لنفسه :

— ولماذا لا يعرف اسم السنيوريتا ، أعتقد أنه يعرفه ؟

ثم استدار وأسرع عائدا إلى المربط . . وكان يشعر بالقوة المرتدة إليه . كان يشعر كأنه قد أمسى رجلا جديدا : وكانت البهجة تملأ نفسه رغم كل ما أحاط به من أهوال . ولما وصل إلى المربط كان كل شيء لا يزال هادئاً ، الجياد لم تتحرك من أماكنها الأولى ، وألقى اليساندرو بنفسه على الأرض ، وراح يزحف من المربط إلى الجرن الذى يقع على مسافة بضع قصبات . وكان يشعر أنه يقوم بأصعب جزء من المغامرة ، ومن ثم كان يتوقف فى كل لحظة ، ويتسمر فى مكانه برهة ، ثم يستأنف الزحف ، ولما اقترب من المكان الذى اعتاد

www.ibtesama.com

أن يرى فيه سرج راءونا معلقا ، خفق قلبه بشدة حين تذكر أن الراعى لو يحو ينام أحيانا ، عندما تشتد حرارة الجو ، على أرضية الجرن . فإذا كان فى هذه الليلة هناك ، فقد ضاع كل شىء . وبعد أن تحسس المكان فى الظلام ، نهض معتمدا على دعامة السقف ، ثم لمس السرج ورفعه ، ثم انبطح على الأرض فى لمح البصر ، وراح يزحف عائدا والسرج وراءه دون أن يصدر صوتا يجعل أشد الكلاب إحساسا يشعر به .

وقال اليساندرو لنفسه وهو يفكر فى كلب الراعى، كابيتان ، بعد أن وصل سالما إلى أدنى المرتفع :

— آه يا كابيتان ، لقد غافلتك الليلة لاستغراقك فى النوم !

ثم وثب واقفا وانطلق يعدو ، حاملا السرج على كتفه . وكان السرج ثقيلا جدا بالنسبة لرجل يعانى سوء التغذية مدة طويلة ، ولكنه لم يحس بثقله لما كان يتراقص فى قلبه من البهجة والفرح . الآن يمكن للسنيوريتا أن ترحل معه فى راحة . . وإن ركوبها « بابا » بمثابة جلوس الطفل فى مهد مريح . وإذا اقتضى الأمر ، فإن فى مقدور « بابا » أن يحملهما معا دون أى إرهاق . وقد يستلزم الأمر هذا ، كما فكر اليساندرو ، وهو يركع بجوار جواده الأعجف الذى كان عندئذ قد تمدد على الأرض فى تعب شديد . وكان « بابا » فى وقفته : ينظر فى احتقار ممزوج بالدهشة ، إلى زميله هذا العجيب الجديد .

وقال اليساندرو وهو يجلس منتظرا :

— حمدا لله . . يبدو أن القديسين لن يتخلوا عن سنيورتى .

www.ibtesama.com

وأخذت الأفكار تعصف برأسه : أين ينبغى أن يذهبا أولا ؟! وما هو أفضل شىء يعملانه ؟ هل سيطاردهما أحد ؟ إذن أين يمكن أن يختفيا ؟ وأين ينبغى أن يلتمس مقرا جديدا ؟

ورأى أنه لا جدوى من التفكير فى هذا كله حتى تعود رامونا إلى جانبه، ثم يضع هذه الأسئلة أمامها . إن عليها أن تقرر . ولكن أول شىء ينبغى أن يفعلاه ، هو الذهاب فورا إلى سان ديجو ليتزوجا على يد قسيس ، وسوف يستغرق هذا ثلاثة أيام ، أو خمسة بسبب الجواد الهندى الأعجف ، ولكن ماذا سيأكلان فى أثناء الرحيل؟ آه . . إن اليساندرو يتذكر آلة كان أبيه المودعة عند هارسل . ولاشك أن المستر هارسل سوف يعطيه مالا بضمان الكمان . . وربما اشتراه . وعندئذ تذكر اليساندرو كمانه الخاص . . إنه لم يفكر فيه من قبل . لقد كان فى صندوقه على المائدة فى غرفة السنيور فيليب عندما رحل أول مرة . أيمكن هذا ؟ لا . . ليس من المحتمل أن تتذكر رامونا الكمان وتأتى به معها ؟ إذن ماذا ستأتى به ؟ إن رامونا لا ينقصها الذكاء والحكمة ، وإن اليساندرو لواثق بهذا .

ولشد ما بدت الساعات طويلة ، وهو جالس هكذا يفكر و يتخيل . وكلما رأى السحب تتكاثف فى السماء والظلام يشتد ، ازداد شكراً لله قائلا :

« لاشك أن القديسين هم أيضاً الذين جاءوا بى فى ليلة كهذه لا قمر فيها »
ثم عاد يقول لنفسه بتفكير الرجل البسيط :

« إنهم ينوون حماية السنيوريتا . . لسوف يساعدوننى فى رعايتها »

www.ibtesama.com

وكانت رامونا تخترق طريقا وعرا محفوفا بأشد العقبات . لقد بلغت غرفتها دون أن يراها أحد ، بقدر ما تعلم ، وكانت مرجريتا ـ لحسن الحظ ـ راقدة في فراشها تعاني من ألم شديد في أسنانها مما جعل أمها تقدم لها شرابا منوما قويا . وهكذا خلا الطريق من مرجريتا ، لأنها لو لم تبعد عنه ، لما أمكن لرامونا أن تخرج من البيت ، لأن مرجريتا في هذه الحالة كانت ستعرف أنها غابت نحو ساعتين، ومن ثم كانت تحرص على المزيد من المراقبة لتعرف ماذا سيحدث بعد ذلك .

دخلت رامونا البيت عن طريق الفناء الأوسط ، لأنها لم تجرؤ على دخوله من الشرفة التي كان فيليب وأمه جالسين ، بلا شك فيها ، لأن الوقت لم يكن متأخراً .

وفيما هي تدخل الغرفة ، سمعتهما يتحدثان ، فأغلقت مصراعا للنافذة حتى تجعلهما يعرفان أنها في غرفتها ، ثم ركعت أمام تمثال العذراء وراحت بصوت هامس تخبرها بكل ما تنوي أن تفعله ، وتبتهل في طلب حمايتها وتوجيهها هي واليساندرو إلى خير سبيل .

وهمست رامونا لنفسها وهي تنهض :

— إنني أعرف أنها ستحقق دعائي . . إنني واثقة من هذا .

ثم ألقت بنفسها على الفراش في انتظار نوم السنيورة وفيليب ، وكان ذهنها متيقظا صافيا ، ومن ثم كانت تعرف ماذا تريد أن تفعل على وجه التحديد .

www.ibtesama.com

ذلك لأنها كانت فكرت فى هذا كله، قبل أسبوعين عندما كانت تنتظر عودة اليساندرو ساعة بعد أخرى .

وكان اليساندرو قد أهداها، فى أوائل فصل الصيف، تحفتين، كل منهما عبارة عن شبكة كبيرة مما تستعملها النساء الهنديات فى حمل مختلف الأشياء . وكانت الشبكة مغزولة من خيوط نباتية لدائنية القوام، قوية الاحتمال كالحديد، واسعة الثقوب، ومن ثم خفيفة الحمل، تشد عند الطرفين، وتحمل بالرباط من الجنبين، ومن ثم يمكن للإنسان أن يحمل على ظهره، بسهولة نسبية، أحمالا تكون أثقل لو حملها بطريقة أخرى . وقبل أن تتذكر رامونا هاتين الشبكتين، كانت تفكر، فى حيرة، فى كيفية حمل الأشياء التى قررت أن من حقها أن تأخذها معها ـ ولم تكن غير أشياء بسيطة قليلة ضرورية : رداء مطرز، ومطارف، وكساء المذبح الجديد، و « طاقين » من الملابس . ولم يكن هذا كله بالشىء الكثير . بل إن لها الحق، فى رأيها، فى أكثر من هذا، بعد أن رأت الجواهر المودعة لدى السنيورة . وقالت لنفسها : « لسوف أخبر الأب سالفيير ديرا بكل ما أخذته، وأسأله هل هذا كثير ؟ » ولم تكن تحب أن تفكر فى أن كل هذه الملابس التى أخذتها دفع ثمنها من مال السنيورة مورينو .

وكان اليساندرو ؟ إن أى شىء تتركه وراءها، يجب أن تنساه، ولكن ما قيمة الحياة فى نظر اليساندرو بدون كمانه ؟ إن فى مقدوره، إذا ذهب إلى لوس أنجليس، أن يكتسب المال بالعزف فى الحفلات الراقصة . وإن رامونا قد رسمت فى ذهنها فعلا، وسائل كثيرة تمكنهما من اكتساب الرزق .

www.ibtesama.com

ولا بد من وجود طعام فى أثناء الرحلة : ولا بد أن يكون طعاما جيداً أيضا ، ونبيذاً لاليساندرو، وشعرت بالألم يعتصر قلبها وهى تتذكر هزال جسمه . لقد قال إنه وقومه كانوا فى حالة جوع دائم ! يا إلهى الرحيم ، أكان اليساندرو لا يجد ما يأكله ، فى حين كانت هى تجلس كل يوم إلى مائدة حافلة بالطعام ، وترى ، فى كل يوم ، الأكل الطيب يلقى للقطط والكلاب !

ومضت فترة طويلة قبل أن تأوى السنيورة إلى غرفتها . . ومضت فترة أطول قبل أن تسمع راموئا أنفاس فيليب تتردد فى رتابة وعمق مما أكد لها أنه استغرق فى النوم ، وأخيرا تجرأت على الخروج . إن الظلام كثيف ، والوقت قد تجاوز منتصف الليل ، وقالت لنفسها « أولا السكان » ثم تسللت إلى غرفة الطعام ، ومنها إلى غرفة فيليب ، وتناولت السكان ولفته فى معطف بعد آخر ووضعته فى الشبكة مع ملابسها . ثم تسللت إلى الخارج وهى تحمل الشبكة على ظهرها قائلة لنفسها فى مرح : « مثل أية هندية أصيلة » وغادرت الفناء ، ودارت حول الركن الجنوبى الشرقى من البيت ، وسارت فى الحديقة ومنها إلى أشجار الصفصاف حيث وضعت الشبكة ، وعادت إلى البيت لتأتى بالشبكة الثانية .

وكان الأمر فى هذه المرة أصعب . . إذ صممت على أن تحمل معها النبيذ والطعام الجيد ، من خبز ولحم بارد ، ولكنها لم تكن تعرف على وجه التحديد أين توجد هذه الأشياء التى كانت من اختصاص ماردا ، وكذلك لم تستطع أن تشعل عود ثقاب . ومن ثم ترددت كثيرا على المطبخ ثم غرفة المائدة ، وكذلك زجاجات ابن أفرغتها فى وعاء جلدى كان معلقا على جدار الشرفة .

وبعد أن أعدت كل شىء ، أطلت من نافذتها وأنصتت إلى أنفاس فيليب

www.ibtesama.com

وهى تقول : « كيف أرحل قبل أن أودعه ؟ كيف يمكنني هذا ؟ » ثم ظلت واقفة فى تردد ، وهى تقول لنفسها مرة أخرى :

« ياعزيزى فيليب .. لشد ما كان عطوفا على . لقد بذل كل مافى وسعه من أجلى . وأتمنى لو استطعت أن أقبله . ولكننى سأترك رسالة له ».

وتناولت قلما وورقة ، وأخذت شمعة صغيرة وأسرعت إلى غرفة المائدة ، وأضاءت الشمعة ، وركعت على الأرضية ، وراحت ، وراء الباب المغلق ، تكتب الرسالة التالية :

« عزيزى فيليب : لقد عاد اليساندرو ، وسوف أرحل معه الليلة ، وأرجوك ألا تسمح لأحد بإيذائنا إن أمكنك. ولست أدرى إلى اين سنذهب . ولكننا سنذهب ، كما أرجو ، إلى الأب سالفيرديرا ، وسوف أحبك دائما ، وشكرا ياعزيزى فيليب على عطفك ورعايتك : رامونا »

ولم تستغرق كتابة الرسالة غير دقيقة أطفأت بعدها الشمعة ، وتسللت عائدة إلى غرفتها . وكان سرير فيليب قد نقل إلى جدار الشرفة بحيث أمسى فى مقدور رامونا أن تصل إلى طرفه الأدنى من نافذتها . ومن ثم مدت ذراعها ، وألقت بالرسالة على الغطاء ، فوق قدمى فيليب . وكان من المحتمل أن تأتى السنيورة فى الصباح وترى الرسالة قبل فيليب ، ولكن لم يكن ثمة بد من ترك الرسالة رغم هذا الاحتمال .

وهمست قائلة وهى تستدير عن النافذة :

— وداعا ياعزيزى فيليب .

www.ibtesama.com

ولكن هذا التأخير كلفها غالياً ، ذلك أن كلب الحراسة ، كابيتان ، الراقد في وجاره بالطرف الآخر من الفناء ، سمع وشم شيئاً غير طبيعي يجرى في البيت ، فلما مضت رامونا إلى الخارج ، أرسل نباحاً خافتاً قصيراً وأسرع نحوها .

وقالت رامونا لنفسها : « يا إلهى .. لقد ضعت » ثم جلست على الأرض وفتحت الشبكة ، وأخرجت قطعة لحم أعطتها للكلب حين وصل إليها وأخذت تربت عنقه وتداعبه . وفيما كان يتناولها وهو يبصبص بذيله تعبيرا عن بهجته البالغة ، حملت هي الشبكة مرة أخرى وقالت وهي لا تزال تداعبه : « هلم يا كابيتان .. » وكانت تلك فرصتها الأخيرة ، فلو أنه نبح مرة أخرى ، فقد يستيقظ ، ولكن إذا سار بجانبها في هدوء ، فربما نجت . وتفصد عرق الخوف على جبينها وهى تتخذ خطواتها الأولى بحذر ، وتبعها الكلب ، وأسرعت في خطوها ، وركض الكلب بجوارها وهو يتشمم اللحم في الشبكة ، فلما وصلت إلى أشجار الصفصاف عند النبع توقفت وراحت تفكر فيما ينبغى أن تفعل . هل تعطيه قطعة لحم أخرى كبيرة وتنطلق في أثناء انشغاله بأكلها ، أم تدعه يسير بجانبها في هدوء . وقررت أن تعمل بالرأى الثانى . فحملت الشبكة الأخرى وسارت قدماً .. إنها الآن في أمان . واستدارت وتطلعت إلى البيت . إن كل شىء في سكون وظلام ، وإنها لاتكاد تستطيع أن تراه من مكانها . واكتسحتها موجة عارمة من الانفعال . لقد كان هذا هو البيت الوحيد الذى عرفته ، والذى أحست فيه بالسعادة وبالألم المرير ـ فيليب ، الأب سالفيرديرا ، الخدم ، الطيور ، الحديقة ، الكنيسة الحبيبة ، آه لو أمكنها فقط أن تبتهل مرة أخرى في هذه الكنيسة ! من ذا سيضع الأزهار الناضرة وأعواد السرخس في الكنيسة الآن ؟ إلى أى حد سيفتقدها فيليب حين يركع أمام المذبح ؟ لقد ظلت تركع بجواره

www.ibtesama.com

أربعة عشر عاما . والسنيورة ـ السنيورة القاسية الباردة . إنها الوحيدة التى ستبتهج . إنهم جميعاً سيأسفون « كلهم سيأسفون على رحيلى ـ كلهم ماعدا السنيورة . كم كنت أتمنى لو استطعت أن أودعهم جميعاً ، وأن أراهم وهم يودعوننى ويتمنون لى حظا سعيداً » هكذا كانت الفتاة الرقيقة الودود تفكر وهى تتنهد بعمق ، وتستدير عن اتجاه البيت ، وتمضى قدماً فى الطريق الذى اختارته لنفسها .

وانحنت وربتت رأس الكلب كابيتان قائلة :

ـ هل تأتى معى يا كابيتان ؟

وتواثب الكلب من فرط الابتهاج ، وأرسل نباحا خافتا ثلاث مرات ، ومن ثم قالت :

ـ حسنا . . هلم ياكابيتان . . إنهم لن يفتقدوه كثيرا لكثرة ما لديهم من كلاب ، أما أنا ، فسوف أحس دائما كأن لدى بعضاً من بيتى هذا مادام كابيتان معى .

ولما رأى اليساندرو طيف رامونا وهى تقترب ببطء من بعيد فى الظلام ، لم يتعرفها لأول وهلة وخامره إحساس بالخوف . ترى أى غريب هذا الذى يقترب فى تلك البرارى الموحشة ، وفى هذا الوقت من الليل ؟ وأسرع متراجعا بالجوادين إلى الخميلة ، وأخفى نفسه وراء شجرة ليرقب . و بعد لحظات بدا له أنه قد عرف الكلب كابيتان وهو يتواثب بجوار هذا الشبح المحنى المقترب ببطء ، لابد أن يكون هذا الشبح امرأة هندية تنوء بحمل ثقيل . . ولكن كيف يمكن لامرأة هندية أن تمتلك كلبا ممتازا مثل كابيتان ، ومد اليساندرو عينيه فى الظلام حتى رأى الشبح يلقى عنه حمله الثقيل ، ثم إذا هو يسمع الصوت العذب الخافت :

www.ibtesama.com

— اليساندرو !

ووثب كالظبي هاتفاً :

— سنيورتى ! يا سنيورتى .. أيمكن أن تكونى أنت ؟ أنت تحملين هذا العبء الثقيل ؟

وضحكت رامونا قائلة :

— أتذكر يوم أريتنى كيف تحمل المرأة الهندية الشىء الكثير على ظهرها فى هذه الشباك ! لم يخطر ببالى عندئذ أننى سأستعملها هكذا بسرعة ، ولكنها آلمت جبينى يا اليساندرو ، لا من الثقل وإنما من الرباط . وما كان فى مقدورى أن أحملها مسافة أخرى .

فقال لها وهو يلقى بالشبكتين على ظهره كأنهما ريشتان .

— لأنك لا تضعين على رأسك عصابة من الخوص .

ثم أحس عندئذ بصندوق الكمان ، فهتف قائلا :

— أهذه كانى ؟ ياحبيبتى المقدسة .. أين عثرت عليها ؟

— على المائدة فى غرفة فيليب . كنت أعرف أنك تريدها أكثر من أى شىء آخر . ولم أحضر معى إلا القليل يا اليساندرو . وقد بدا لى أن ما جمعته شيئا يسيراً ، ولكنه كان ثقيلا فى حمله . هل يمكن أن يحمله هذا الجواد المسكين ؟ إن فى مقدورنا أن نسير يا اليساندرو . وهذا هو كابيتان ، لقد استيقظ ولم يدعنى إلا أن آتى به لأسكته . هل يمكن أن يأتى معنا ؟

www.ibtesama.com

وكان الكلب يتواثب ويضع مخالبه على صدر اليساندرو ويلعق وجهه ويهمهم ويفعل كل ما يمكن أن يفعله أى كلب ليعرب عن سروره وحبه .

وضحك اليساندرو عالياً ، وقد سمعته رامونا يضحك على هذا النحو مرتين أو ثلاثاً فقط ، ومن ثم قالت فى قلق :

— لماذا تضحك يا اليساندرو ؟

— لأنى أفكر فيما سأطلعك عليه يا سنيوريتى . انظرى ..

ثم استدار نحو الخميلة وأرسل صفيرين أو ثلاثة ، وإذا بالجواد « بابا » يبرز من الخميلة إلى نهاية الوثاق ، ويبدأ فى الإعراب عن سعادته بالهمهمة حين لمح رامونا ..

وبلغ من قوة المفاجأة على رامونا أنها انفجرت باكية . ومن ثم هتف اليساندرو مأخوذاً :

— ألا يسعدك هذا ؟ أليس هذا جوادك ، إذا كنت لاترغبين فى أخذه ، فإن فى مقدورى أن أعيده إلى مكانه . إن جوادى يستطيع أن يحملك إذا سرنا ببطء . لقد ظننت أنك ستبتهجين حين تأخذين « بابا » معك ؟

وقالت رامونا باكية ورأسها على جيد « بابا » :

— أوه إنها .. إنها .. معجزة . كيف جاء إلى هنا ..

ثم هتفت قائلة حين رأت السرج لأول مرة :

— والسرج أيضاً .

وعادت تقول فى خشوع وهمس :

— اليساندرو ! هل أرسل القديسون جوادى ، هل وجدته هنا ؟

www.ibtesama.com

وكان يبدو أمام قوة إيمان رامونا أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا .

وأجاب اليساندرو بلهجة جادة :

— أعتقد أن القديسين ساعدونى فى إحضاره ، وإلا لما كان فى مقدورى أن آتى به هكذا بسهولة . لقد ناديته من جانب سياج المربط ، فجاء إلى ، ثم قفز السياج بكلمة منى ، وفعل هذا كله بسرعة وكأنه كابيتان . إنه جوادك يا رامونا ، ولا بأس من أن تأخذيه .

فقالت رامونا :

— أوه . . . نعم . . إنه الشىء الوحيد الذى أمتلكه حقا . . فقد أهدانيه فيليب عند ما كان وليدا لا يكاد يقوى على الوقوف . ولم يكن عمره يومذاك أكثر من يومين . وقد أطعمته بيدى منذ ذلك الحين كل يوم . وقد بلغ عامه الخامس الآن . آه يا جوادى العزيز . . إننا لن نفترق . . أبدا . . أبدا .

ثم أخذت رأسه بين يديها . وألصقت خدها إليه فى حب وتدليل .

وكان اليساندرو مشغولا بربط الشبكتين على جانبى السرج وهو يقول :

— إن بابا لن يحس بهذا الحمل إطلاقا . . إنهما ليستا ثقيلتين كما ظنت السنيوريتا ، لقد كان الثقل على الجبين الذى آلمه عدم وجود شىء يحميه من الرباط .

واستطرد يقول وهو يعمل فى سرعة بيدين مرتعدتين :

— يجب أن نسرع بقدر الإمكان يا حبيبتى لمدة ساعات قليلة . ثم نستريح .

www.ibtesama.com

وقبل أن يسفر الصباح سنكون فى مكان يمكننا الاختفاء فيه طيلة النهار . وسوف نمضى فقط فى أثناء الليل خشية أن يطاردنا أحد .

فقالت رامونا :

— لن يطاردنا أحد ، ولا خطر علينا ، لقد قالت السنيورة إنها لن تفعل شيئا . .

ثم كررت العبارة الأخيرة بحرارة :

— لن تفعل شيئا ، وقد جعلت فيليب يقول هذا أيضا . لقد أراد فيليب أن يساعدنا ، وكان يتمنى أن تبقى فى المزرعة معنا . ولكن كل ما استطاع أن يصل إليه ، هو ألا يفعل شيئا . المهم أنهم لن يطاردونا . بل إن السنيورة لتتمنى لو أنها لا ترى وجهى مرة أخرى . ولكن فيليب سيحزن ، إن فيليب طيب القلب يا اليساندرو .

وأعد كل شىء الآن — رامونا على جوادها ، والشبكتان تتأرجحان على جانبى السرج ، واليساندرو يسير ممسكا بمعرفة جواده المرهق ، وكان الموكب على الجملة ، حزينا رغم أنه موكب زفاف ، إلا أن قلب رامونا كان مفعما بالابتهاج .

— إننى لا أدرى سر شعورى هذا يااليساندرو . لقد كان ينبغى أن أشعر بالخوف ، ولكننى لا أشعر بهذا قط . .

ثم أردفت قائلة بلهجة تأكيد :

— ولا من أى شىء قد يحدث . أليس هذا عجيبا يا اليساندرو ؟! .

www.ibtesama.com

فقال اليساندرو بلهجة جادة وهو يضع يده على يدها فى أثناء سيره بجوارها :

— نعم ، إن هذا لعجيب ! إننى خائف ، خائف من أجلك يا سنيورتى . ولكن لقد انتهى كل شىء ، ولن يمكننا أن نعود . ولعل القديسين يعاوننا ويساعدوننى على رعايتك . لابد أنهم يحبونك ياسنيوريتا ، ولكنهم لايحبوننى أنا وقومى .

فسألته رامونا قائلة :

— ألن تنادينى يوما باسمى ؟ إننى أكره مناداتك لى باسم سنيوريتا ، لقد كانت السنيورة تنادينى هكذا عندما تكون غاضبة على .

فهتف اليساندرو قائلا :

— لن أنطق بهذه الكلمة مرة أخرى ، و بحق القديسين لن أناديك بكلمات تلك السيدة .

— ألا يمكنك أن تنادينى باسم رامونا ؟

وتردد اليساندرو ، وعجز عن أن يفهم لماذا يبدو أن من الصعب عليه أن يقول رامونا ؟ وقالت هى :

— ماهو ذلك الاسم الآخر الذى قلت إنك تردده كلما فكرت فى دائما ؟ الاسم الهندى لليمامة ؟

— ماچيل . . إنه الاسم الذى طالما فكرت به فيك منذ تلك الليلة التى

www.ibtesama.com

أمضيتها ساهرا من أجلك بعد أن قبلتني ، وكان ثمة يمامتا غاب تتناجيان في الظلام . وقد قلت لنفسي : هكذا تبدو حبيبتي يمامة الغاب ، بهديلها الخافت المذب ، أعذب صوت على وجه الأرض ويمامة الغاب وفية دائما لأليف واحد .

فلما سكت عن الحديث ، مالت رامونا نحوه وأراحت يدها على كتفه قائلة :

-- كوفاني لك يا اليساندرو .

وتوقف أيضا الجواد « بابا » وكان معتادا أن يعرف أبسط رغبات سيدته . ولكنه لم يكن يفهم هذا الوضع الجديد . إنه لم يدر قط ، ورامونا فوقه ، في حين يسير بجواره شخص آخر تحتك كتفه بكتفه ، ويريح يده على معرفته . ولو كان شخصا آخر غير اليساندرو ، لما سمح له « بابا » بهذا ، حتى في هذا الموقف . ولكن يبدو أن كل شيء على ما يرام مادامت رامونا هادئة . إنها تمد يدها وتريحها على كتف اليساندرو ، فهل يعني هذا أنها تريده أن يتوقف لحظة ؟ لقد خطر لبابا هذا ، ومن ثم توقف بناء عليه وهو يستدير برأسه يمينا وينتظر النتيجة .

كانت ذراعا اليساندرو حول رامونا ، ورأسها منحنيا على رأسه ، وشفتاها على شفتيه ، ترى ما رأى « بابا » ؟ وبخبث العذول الآدمي الغيران ، وثب بابا فجأة وفرق بين العاشقين ، وانطلق خببا والعاشقان يضحكان ، واليساندرو يجري ، والجواد المندى المسكين الأعجف يشعر بروح السباق فيحاول أن يسرع في الجري كما لم يفعل من قبل .

www.ibtesama.com

وقالت رامونا :

ــ سيكون اسمى ماجيل إذن . أليس كذلك ؟ إن له رنيناً عذباً . ولكنى افضل ماچيللا . . نادنى باسم ماچيللا . .

فقال اليساندرو :

ــ إن هذا أفضل ، لأنه لم يحمل أحد فى هذه الدنيا هذا الاسم قط . وليس من العسير على أن أناديك باسم ماچيللا . ولست أدرى لماذا كان اسم رامونا ثقيلا على لسانى دائما ؟

فقالت رامونا :

ــ لأن القدر أراد أن تناديني باسم ماچيللا . تذكر . . إننى لم أعد رامونا بعد اليوم . إنه أيضاً من الأسماء التى كانت تناديني بها السنيورة .

ثم أردفت قائلة وهى تفكر :

ــ وعزيزى فيليب أيضا . إنه لن يعرفنى باسمى الجديد . وإننى لأتمنى أن يظل يناديني باسم رامونا ـ أما أمام غيره ، فأنا الآن ماچيللا . . يمامة اليساندرو .

www.ibtesama.com

(١٦)

بعد أن بلغوا الطريق العام ، وساروا فيه حثيثاً نحو ميل ، مد اليساندرو يده فجأة ، وأمسك بمقود « بابا » وبدأ يديره المرة بعد الأخرى فى الطريق. وهو يقول :

— إننا لن نستمر فى السير فى هذا الطريق ، ولكن يجب أن نخفى آثارنا هنا ، ولسوف نرتد إلى الوراء مسافة يسيرة .

وبدأ بابا يتراجع طائعاً فى بطء وهو يتراقص كأنه يدرك الخدعة ، وكذلك تراجع الجواد الهندى متعثرا ، ثم إذا به يقفز فوق صخرة على اليمين بقيادة اليساندرو البارعة ، ويقف فى انتظار أوامر أخرى ، وتبعه بابا ثم الكلاب كابيتان ، دون أن يتركوا وراءهم آثاراً تنم على المكان الذى تركوا فيه الطريق .

www.ibtesama.com

وبعد أن جعل الجواد الهندى يجرى خببا فى دوائر تزداد اتساعا ، ويركض به من هذا الاتجاه إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا ، ثم يرتد به على الآثار السابقة - ورامونا تحذو حذوه بوداعة رغم تساؤلها الصامت عما يعنيه اليساندرو بهذا كله قال :

— أعتقد الآن أنهم لن يعرفوا أين تركنا الطريق العام . سوف يمضون قدماً وهم يرون آثارنا واضحة أمامهم ، وسوف يدفعهم تأكدهم بأننا مستمرون فى السير إلى المضى بعيداً قبل أن يفطنوا إلى اختفاء آثارنا ، وعندما يفطنون إلى هذا ، تكون الفرصة قد فاتت ليعرفوا أين انتهت آثارنا ، والآن ، أمامك ياماجيلاتى رحلة طويلة شاقة ، فهل أنت خائفة ؟

فضحكت راموناً قائلة :

— خائفة ! خائفة وأنا فوق جوادى « بابا » ومعك ؟

ولكن الرحلة كانت شاقة حقا ، فقد قرر اليساندرو أن يختبىء فى النهار داخل خور جبلى يعرفه ، يمتد منه ممر ضيق إلى تيميكيولا - ممر لا يعرفه أحد غير الهنود . فإذا وصلوا إلى هذا الخور ، فسيكونون فى مأمن من أية مطاردة محتملة . ولم يكن اليساندرو متفقا فى الرأى على الإطلاق مع راموناً بأنه لن تبذل أية جهود للحاق بهما ، إذ كان يرى بوضوح أكيد ، أن السنيورة لن تقبل هذا الوضع دون أن تسترد الجواد والكلاب على الأقل . وكان يقول لنفسه بمرارة :

— يمكنها على الأقل - إذا أرادت - أن تقول إننى سرقت أحد جيادها ..

www.ibtesama.com

سوف يصدقها الجميع . أما نحن فلن يصدقنا أحد إذا قلنا إن الجواد ملاك خاص بالسنيوريتا .

وكان مدخل الخور الجبلى يقع على مسافة ميلين فقط من الطريق العـام . ولكن السير كان فى طريق يكاد يكون مسدوداً بالأحراش و بأشجار البلوط الصغيرة التى تصنم قمها أحراشا أخرى ، ولم يكن اليساندرو قد ركب فيه قط من قبل ، ولـكنه جاء إليه ذات مرة من الجانب الآخر ، سيراً على قدميه ، وشق طريقه بين الأحراش حتى وجد نفسه ، لدهشته ، بالقرب من الطريق العـام . ومن نفس هذا الخور كان قد أحضر نبات السرخس الذى سعدت به رامونا حين زينت به الـكنيسة . وكان المـكان مليئاً بهذا النبات الذى كان يبلغ فى نموه وكثرته نباتات المنطقة الاستوائية . ولـكن الطريق كان ينحدر نحو ميل أو أكثر ، ولـكى يصل اليساندرو إليه ، يومذاك ، اضطر إلى الانزلاق على منحدر صخرى شديد الميل . وكان مدخل الخور لا يزيد على فجوة بين الصخور ، والجدول النابع منه لا يزيد على نبع صغير فى أول مجراه ، وكان هذا الماء الجارى العذب ، مع خفاء الخور وصعو بة الوصول إليه من أهم الأسباب التى دفعت اليساندرو لمحاولة الوصول إليه بأى ثمن ومهما تـكن المشقة . ولـكن هذا من الجرانيت لم يكن أشد مناعة من هذه السدود النباتية التى أخذوا يشقون طريقهم فيها باحثين عن منفذ . وكان يبدو لاليساندرو أنها ازدادت كثافة ومناعة منذ الربيع السابق . وأخيرا انحدروا فى طريقهم إلى خور جبلى جانبى صغير ، بمثابة جناح للخور الأصلى . وبعد مسيرة أمتار فيه ، اختفوا فجأة ، للناظر من أعلى ، وكأنما ابتلعتهم الأرض وبدأت تتسلل إلى السكون طلائع الفجر

الوردية ، وكانت السماء كلها من الشرق إلى الوسط تبدو كأنها مكسوة بندف من الصوف القرمزى .

وهتفت رامونا قائلة :

— أوه ، ما أجمل هذا المكان ! . إننى واثقة بأن الرحلة ليست مرهقة على الإطلاق يا اليساندرو . هل سنمكث هنا ؟

فقال اليساندرو وهو يستدير إليها بوجه ملىء بالحنان :

— ما أقل ما تعرف يمامتى الصغيرة عن الطرق الوعرة . هذه هى البداية فقط ، بل إننا لم نبتدىء بعد !

وبعد أن شد جواده إلى شجيرة ، راح يستكشف المكان حيث كان يختفى عن الأنظار بمجرد دخوله أحد الأحراش فى أى اتجاه . ولما عاد أخيرا بوجه ينم عن القلق ، قال :

— هل تسمح ماچيللا بأن أتركها هنا فترة من الوقت ؟ إن هنا طريقا ، ولكننى لن أستطيع العثور عليه إلا سيراً على الأقدام . ولن أغيب طويلا ، فإنه قريب .

وطفرت الدموع فى عينى رامونا ، إذ كان الشىء الوحيد الذى تخشاه هو أن يغيب اليساندرو عن ناظرها . وتطلع إليها بقلق ، ثم قال مؤكدا :

— يجب أن أذهب يا ماچيللا ، لأن الخطر محدق بنا هنا .

فهتفت قائلة :

— أوه ، امض يا اليساندرو . ولكن . . أوه . . لا تغب طويلا .

www.ibtesama.com

وفيما كان يختفي في الأحراش ، أخذت الأغصان الجافة تتكسر في طريقه ، ولاح لراموونا أنها عادت وحيدة في العالم مرة أخرى . ووثب كابيتان أيضا وراء اليساندرو ولم يستجب لندائهـــا ، وخيم الصمت على كل شيء وأراحت راموونا رأسها على عنق جوادها . ومرت اللحظات كأنها دقائق ، وأخيرا انسكب الضوء الأصفر في صفحة السماء ، وسرعان ما تحولت السحب الخفيفة القرمزية إلى لون الذهب ، وسمعت خطوات اليساندرو ، ثم رأت وجهه في اللحظة التالية مشرقا بالابتهاج وهو يقول :

— لقد عثرت على الممر .. ولكن يجب أن نصعد مرة أخرى من هذا المكان ، إلا أن الضوء أصبح قويا ، ولا أحب هذا .

وأخذا يحثان جواديهما ، وهما يرتعدان خوفاً ، إلى الخلاء مرة أخرى ، ثم ركضا في اتجاه الغرب نحو نصف ميل ، وهما حريصان على المضي بجوار الأحراش بقدر الإمكان ، وفجأة انحرف اليساندرو ، الذي كان في المقدمة ، إلى قلب الأحراش نفسها ، ولم يكن ثمة معالم طريق واضحة ، ولكن الأغصان كانت تنفرج وتنطبق ، ورأسه يبدو فوقها ، والجواد الهندي يمضي بشجاعة وبقدر ما يستطيع ، و «بابا» ينفر في استياء وهو يخوض هذه السدود النباتية . وكانت الأغصان الشوكية للشجيرات المتكاثفة تنخس وجنتي راموونا ، وأسوأ من هذا كانت تشتبك في نسيج الشبكتين المعلقتين على جانبي « بابا » وأخيرا اشتبكتا تماما مما جعل « بابا » يتواثب ويرفس ، وهنا واجهت اليساندرو مشكلة حقيقية ، ومن ثم ترجل ، وقطع أربطة الشبكتين ، ووضعهما على ظهر جواده وشدهما بإتقان وقال :

www.ibtesama.com

ـ لســوف أسير على قدمى ، إن الممر ليس بعيـداً ، وسوف أقود بابا فى الجانب الضيق منه .

ولم يكن الممر ضيقاً فحسب ! وإنما كان الفزع مجسما بحيث أغمضت رامونا عينيها ، لقد بدا لها أنه لا يزيد فى اتساعه على شبر ، وكان وعراً صخرياً ، يرتفع جانب منه ، والجانب الآخر هاوية تتساقط فيها الأحجار ، وتتساقط . . . وتتساقط مرسلة الصدى ، ومختفية عن الأنظار في منحدر سحيق .

وكانت الأحجار تتوالى فى السقوط مع كل خطوة للجوادين ، ولم يكن غير نباتات البوكا بأوراقها الرمحية هى القادرة فقط على الاحتفاظ بمكانها فى ذلك المنحدر العميق . وقد رأت رامونا من هذه النباتات آلافا . . وكانت سيقان زهورها ترتفع من خمس عشرة الى عشرين قدماً وتنتهى بأوعيـة بذور كثيفـة تلمع فى الشمس كأنها أقداح البللور السوداء وفى أسفل ، على بعد مئات الأقدام كانت أرضية الخور والمكسوة بالأحراش تبدو كأنها مكسوة بالطحلب الناعم ، تتخللها أشجار الجميز الضخمة الشامخة القمم . . ومن بعيد كان السهل يلمع بمنعطفات النهر ، الذى لا يعرف أحد فى العالم منابعه ، والذى لا يراه من أعلى غير عدد قليـل من الناس ، والذى كانت مياهه باعثة على الشعور بالراحة فى نفسى الهاربين هذا اليوم .

وكان اليساندرو مستبشراً ، لأن الممر لم يكن فى نظره غير لعبة طفل

ولما رأى الخطوات الأولى التى خطاها « بابا » على الممر الوعر ، أدرك لأول وهلة أنه ثابت الحوافر كأى جواد هندى ، ولاشك أنهم جميعاً سيكونون فى أتم راحة بعد ساعات قليـلة ، وكان يعرف مكاناً تحت خميلة لأشجار الجميز

www.ibtesama.com

يجرى فيه نبع من الماء الصافى البارد — بل أبرد مما يقدر الإنسان على شربه — وعشب أخضر أيضا يكفى لإطعام الجوادين يومين أو ثلاثة . وسوف تمتد أمامهما كل كاليفورنيا بعد أن يهبطا من هذا الممر المرتفع . واستدار بقلب مفعم بالسعادة لهذه الأفكار ليرى رامونا شاحبة الوجه ، مزمومة الشفتين ، خائفة النظرات . وكان قد نسى أنها لم تركب قط إلا فى الممرات والطرق الممهدة السهلة فى الوادى والسهل . وكانت شجاعتها هناك قد جعلته يظن أنها ستظل قوية الأعصاب هنا . ولكنها كانت قد ألقت بعنان « بابا » وتشبثت بمعرفته ، وجلست باضطراب على السرج ، ولولا كبرياؤها لصاحت من فرط الفزع ، إلا أنها كادت تفقد صوابها من الخوف . وتوقف اليساندرو فجأة مما جعل « بابا » الذى كان أنفه عند كتف الشاب يتوقف أيضا فجأة ، فصرخت رامونا وهى تحسب أنه تعثر فى خطوه .

ونظر اليساندرو إليها فى جزع ، وكان من المستحيل عليه أن يترجل فى ممر ضيق كهذا . وأكثر من هذا كان السير على الأقدام يحتاج إلى مزيد من قوة الأعصاب ، ومع هذا فقد لاح كأنها لم تعد قادرة على البقاء فوق السرج . ومن ثم صاح أخيرا :

— يا للسماء ! لقد كنت غبيا لأنى لم أذكر لك شيئا عن ضيق هذا الممر . ولكن لا تخافى . . فإنى أستطيع أن أجرى فيه . . وقد جريت يوما فيه وأنا أحمل على ظهرى نبات السرخس الذى أحضرته إليك .

ولهثت رامونا قائلة وقد شغلت برهة عن التفكير فى الهاوية القريبة منها :

— أحقا ؟ !

www.ibtesama.com

ثم أردفت قائلة وقد ازدادت اطمئنانا بسبب انشغالها عن الهاوية :

— أحقا ؟ إنه لأمر مفزع يا اليساندرو . . إننى لم أسمع فى حياتى بوجود ممر كهذا ، إننى أشعر كأنى أسير على حبل فى الهواء . إننى أفضل لو استطعت أن أهبط وأزحف على يدى وقدمى . هل يمكننى هذا ؟

فأجاب اليساندرو بحزن :

— لا أستطيع أن أدعك تترجلين عن جوادك فى هذا المكان يا ماجيللا ! وما أشد خوفى حين أراك تتعذبين هكذا . سوف أسير ببطء شديد . إن الأمر ليس خطيرا حقا . وقد مررنا بهذا المكان ، جميعا ، نحن فريق حلاق الغنم ، وكان فرناندو الهرم راكبا جواده طوال الطريق .

فقالت رامونا وقد أحست بالاطمئنان مع كل كلمة :

— أحقا . سوف أحاول ألا أتصرف بحماقة ، هل المسافة بعيدة يا عزيزى اليساندرو ؟

— لا يزال أمامنا مسيرة ساعة ، ولكن الممر لن يضيق أو ينحدر أكثر من هذا .

ولكن أسوأ جانب فى الرحلة كان قد مر الآن . وما هى غير فترة قصيرة حتى بلغنا قاع المنحدر وصار فى مقدور رامونا أن تضحك من مخاوفها ولكنها كانت ترتعد فزعا ، فقط ، حين تنظر إلى الخلف وترى الممر الملتوى الذى سارت فيه ، والذى بدا كأنه خيط قاتم اللون ملقى على الصخور !

www.ibtesama.com

وكان الضوء لا يزال خافتا عندما وصلا إلى قاع الخور ، لأن النهار كان يصل متأخرا إلى تلك البقعة الساحرة ، كما أن الشمس لم تكن تسكب عليها ضوءها الساطع إلا فى سمت الظهيرة ، وتلفتت رامونا حولها ، وندت عنها صيحة ابتهاج جعلت اليساندرو يقول فى غبطة :

— نعم ، عندما جئت هنا لجمع السرخس تمنيت كثيرا لو أنك كنت معى . أو ليس فى هذه المنطقة كلها أجمل من هذا ؟ .

ثم أضاف قائلا بصوت خاشع وهو يطوقها بذراعيه ويدنيها من صدره مع أول إحساس بالسعادة الحقيقية :

— هذا هو بيتنا الأول يا ماچيللا .

وهتفت رامونا قائلة :

— أتمنى لو أننا نعيش هنا دائما .

— وهل تقنع ماچيللا بهذا ؟

— جدا .

وتنهد قائلا :

— ولكن ليس هنا مايكفى من الأرض للحياة ، ولولا هذا لتمنيت البقاء فى هذا المكان حتى آخر العمر يا ماچيللا، دون أن أرى قط وجه رجل أبيض.

وكانت غرائز الحيوان الجريح المطارد قد استيقظت فى دماء اليساندرو فى تلك اللحظة وهو يردف قائلا :

www.ibtesama.com

— ولكننا لن نجد هنا طعاما يجعل فى مقدورنا أن نحيا هنا دائما .

ولكن صيحة رامونا المفعمة بالابتهاج جعلت اليساندرو يفكر ثم يقول:

— هل يمكن لماچيللا أن ترضى بالبقاء هنا ثلاثة أيام ؟ إن فى المكان عشبا يكفى الجوادين هذه المدة . وسوف نكون فى أمان تام . ولن نجد فى الطريق مثل هذا الأمن ، لأنى أعتقد ياماچيللا أن السنيورة سوف ترسل وراءنا من يعود بالجواد « بابا ».

فهتفت رامونا مأخوذة من هذا الرأى :

— « بابا » ؟ ! إنه جوادى ، ولايمكن لأحد أن يقول إنه جواد مسروق لأنى أخذته .

ولكن الشك ملأ قلبها حتى وهى تتحدث . فإن السنيورة لم تكن لتخشى القيام بأى شىء ، أو تردد أى معنى . و إن رامونا لتعرف تماماً ماذا تعنى عبارة « جواد مسروق » فى كل أنحاء المنطقة ، ونظرت فى عطف إلى اليساندرو الذى قرأ أفكارها وقال :

— أجل ياماچيللا .. لو أنها أرسلت رجالا وراء « بابا » فلا يدرى أحد ماذا يمكن أن يفعلوا ، ولن يجديك شيئاً أن تقولى إنه ملك لك . إنهم لن يصدقوك ولعلهم يقبضون علــى أيضا ، إذا طلبت السنيورة هذا ، و يضعوننى فى سجن فنتورا .

فهتفت رامونا قائلة :

www.ibtesama.com

ـــ إن طبيعتها الشريرة لن تمنعها من هذا . ولهذا يحسن ألا نتحرك من هنا يا اليساندرو لمدة أسبوع .. ألا يمكن أن نبقى هنا أسبوعاً ؟ إنها ستيأس من العثور علينا بعد مرور هذا الوقت .

ـــ أخشى ألا نستطيع البقاء هنا أسبوعاً ، فليس فى هذه البقعة ما يكفى لإطعام الجوادين ، وليس لدينا ، كما أعلم ، ما يكفى لإطعامنا . إن معى بندقيتى ، ولكننى أعتقد أننا لن نجد فى هذا الوقت صيداً كافياً .

فقالت رامونا بلهفة :

ـــ ولكننى أحضرت معى خبزاً ولحماً ، ويمكننا أن نأكل قليلا جداً كل يوم حتى تكفينا الكمية أسبوعاً .

وكانت ، كالطفل ، فى بساطتها وحماستها . ولم يكن يخطر ببالها شىء آخر غير الخوف من المطاردة . وكانت تعرف أن السنيورة لم تكن تفكر فى مطاردتها هى ، ولكن استرداد الكلاب كابيتان والجواد « بابا » تعتبر مسألة أخرى . وكلما فكرت رامونا فى هذا ، لاح لها بجلاء أن هذا هو نوع الانتقام الذى يمكن للسنيورة أن تفكر فيه . ومن المحتمل أن يحول فيليب دون هذا ، لأنه هو الذى أعطاها الجواد ، ولا شك أنه سيرى أن من العار أن يسترد هذه العطية أو ينكرها . وهكذا تركزت آمال رامونا فى فيليب .

ولو أنها فكرت فى أن تخبر اليساندرو أنها ذكرت فى رسالة وداعها لفيليب أنهما سيذهبان رأساً إلى الأب سالفيرديرا ، لأعفته وأعفت نفسها من الكثير من القلق إذ كان اليساندرو سيعرف ، على هذا الأساس ، أن الرجال الذين

www.ibtesama.com

سيطاردونهما ، سوف يمضون فى طريق النهر إلى البحر ، ثم يتجهون شمالا على طريق الساحل . ولكن لم يخطر ببال رامونا أن تذكر هذا . بل إنها فى الواقع كانت قد نسيت أمر هذه الرسالة تقريباً بعد اليوم الأول . وكان اليساندرو قد عرض عليها خطته التى مؤداها أن يذهبا عن طريق تيميكيولا إلى سان ديجو ليتزوجا على يدى الأب جاسبارا ، قسيس الأبراشية ، ثم يمضيا إلى قرية أو محلة سان باسكوالا على مسافة خمسة عشر ميلا شمالى سان ديجو . وكان زعيم تلك القرية هو ابن عم اليساندرو ، وكثيراً ماطلب منه أن يأتى ويعيش معه فيها . ولكن اليساندرو كان يرفض دائماً ، مؤمنا بأن واجبه يحتم عليه البقاء فى تيميكيولا بجوار والده . وكانت قرية أو محلة سان باسكوالا قد أنشئت بطريقة قانونية منظمة على أيدى عدد من الهنود المسيحيين الذين هاجروا من إرسالية سان لويس ، أى عند انهيارها . وكان إنشاؤها بأمر من حاكم كاليفورنيا ، وقد منحت قانونا الأراضى الواقعة فى وادى سان باسكوالا . وقد سلمت المستندات التى تثبت هذه الملكية ، بعد توقيع الحاكم عليها ، إلى الهندى الذى كان أول رئيس للمحلة ، وكان شقيقاً لوالد اليساندرو ، الرئيس بابلو. وعند موته ، انتقلت السلطة إلى ابنه سدرو ، ابن عم اليساندرو .

وقال اليساندرو فى معرض حديثه عن ابن عمه هذا :

— إن سدرو لايزال محتفظا بمستند الملكية ، معتقدا أنه سيحفظ عليه المحلة . ولعل هذا صحيح ، ولكن الأمريكيين قد بدأوا يتوافدون على رأس الوادى ، ولهذا لا أعتقد ياماجيللا أننا سنكون فى أمان تام فى أى مكان ، ولكن ربما أمكننا أن نعيش هناك فى أمان نسبى بضعة أعوام . وإن فى هذا

www.ibtesama.com

الوادى نحو مائتى هندى . والمحلة أفضل كثيرا من تيميكيولا ، وأهلها أحسن حالا من قومى . إن لديهم قطعانا فاخرة من الماشية والجياد ، وحقولا واسعة من القمح . ويقيم سدرو تحت شجرة تين هائلة يقال إنها أكبر شجرة من نوعها فى المنطقة كلها .

وهتفت رامونا قائلة :

— ولكن يا اليساندرو ، لماذا تظن أننا لن نكون فى أمان هناك مادام لدى سدرو مستند الملكية . لقد كنت أظن هذا المستند يؤمن الأهالى .

— إنى لا أدرى . قد يكون الأمر كذلك . ولكننى أشعر فى قرارة نفسى أنه لا شىء يمكن أن يضع حدا لمطامع الأمريكيين . وأعتقد أنهم لن يحفلوا كثيرا بهذا المستند .

وقالت رامونا مفكرة :

— إنهم لم يحفلوا بكل ما كان مع السنيورة من مستندات عندما استولوا على الجانب الأكبر من أراضيها ، ولكن فيليب يقول إن الحاكم المكسيكى بيوبيكو كان رجلا شريرا أعطى الناس أراضى لم تكن ملكه .

فقال اليساندرو :

— هذا هو المهم ! ألا يمكن أن يقولوا هذا عن أى حاكم ، لا سيما إذا كان قد منحنا أراضى معينة ، وإذا كانت السنيورة قد عجزت عن الاحتفاظ بأراضيها ، رغم وجود ابنها فيليب الذى يعرف القوانين ويستطيع التحدث مع الأمريكيين بلغتهم ، فهل نستطيع نحن ! إننا لا نقوى على حماية أنفسنا أكثر

www.ibtesama.com

مما تفعل الحيوانات البرية يا ماجيللا ! أوه . . لماذا . . لماذا جئت معى . . لماذا سمحت لك بالمجيء معى ؟

وكان اليساندرو ، بعد كلمات كهذه ، يلقى بنفسه على الأرض ، ويظل راقدا لحظات قليلة تعجز كلمات رامونا خلالها عن إنهاضه . وكان عجيبا من الفتاة التى لم تتعود الصعاب أو التفكير فى الخطر أن تجد نفسها غير فزعة من نوبات الجزع والكآبة الشديدة التى تعترى حبيبها . والواقع أنها لم تعد تخشى شيئا . . فبعد أن اطمأنت إلى الشيء الوحيد الذى كانت تخشاه فى الحياة ، وهو بقاء اليساندرو حيا ، وبقاؤها هى بجانبه ، لم تعد تخاف من شيء . وكان هذا يرجع ، من ناحية ، إلى قلة خبرتها ، ومن ناحية أخرى ، إلى عدم إدراكها للأشياء الحقيقية التى يصورها لها اليساندرو . على أن أهم سبب لموقفها هذا هو إخلاصها التام فى حبها ، وشجاعة روحها القوية . وهما صفتان فى طبيعتها لم تتعرضا بعد للاختبار ، صفتان لا تكاد هى تعرف اسما لهما ، ولكنهما كانتا كفيلتين بحملها بثبات عبر سنوات من الألم .

وقبل أن يخيم الظلام على يومهما الأول فى تلك المجاهل ، كان اليساندرو أعدلها سريرا من أفنان شجر البلوط الذى كان ينمو بكثرة فى تلك المنطقة ، وفوقها فرش طبقات من السرخس اللامع الناعم الذى يبلغ طوله خمسا أو ست أقدام . ولما فرغ منه كان السرير من الرقة والنعومة بحيث لا يمكن للملكة أن تزدريه ، وجلست رامونا عليه وهى تهتف :

— الآن سوف أرى كيف يشعر الإنسان حين يرقد ويرى النجوم فى السماء ؟ أتذكر يا اليساندرو الليلة التى وضعنا فيها فيليب فى سريره بالشرفة ،

www.ibtesama.com

عندما أخبرتنى عن الجمال الذى يراه الإنسان حين يرقد خارج البيت ليلا وهو يرى النجوم فى السماء .

إن اليساندرو ليذكر تلك الليلة حقا — اللحظة الأولى التى تجرأ وحلم فيها بالسنيوريتا رامونا كزوجة له . ومن ثم أجاب ببطء :

ـ أجل .. إننى أتذكرها يا ماچيللا .

ثم أردف قائلا بعد لحظة :

وكان ذلك فى اليوم الذى أخبرنى فيه كانيتو بأن والدتك هندية من قومى ، وكانت تلك هى الليلة التى تجرأت فيها لأول مرة وقلت لنفسى إنك قد تحبيننى يوما .

وقالت رامونا وهى تراه قد كف عن وضع المزيد من الأفنان :

ـ ولكن أين ستنام أنت يااليساندرو ؟ إنك لم تعد لنفسك فراشا .

وضحك اليساندرو قائلا :

ـ إننى فى غير حاجة إلى سرير . إننا نعتقد أننا ننام على حجر الأم حين نرقد على الأرض .. إنها ليست صلبة ياماچيللا .. إنها لينة وتريح الإنسان أكثر من أى سرير . ولكننى الليلة لن أنام ، وإنما سأسهر وأحرس بجوار هذه الشجرة .

ـ لماذا ، مم تخاف ؟

ـ إن الجو قد يبرد بحيث ينبغى أن أوقد النار من أجل ماچيللا . وبرودة الجو أحيانا تشتد جدا قبيل الصباح فى مثل هذا الحور ، ولهذا لن أشعر بالأمن إلا بعد أن أجلس للسهر عليك .

www.ibtesama.com

وقال هذا لا ليزعج رامونا ، و إنما كان الهدف الحقيقى من سهره أنه رأى على حافة الجدول آثارا جعلته يشعر بالقلق . و رغم أنها كانت آثارا خفيفة وقديمة كما بدت له ، إلا أنها لاحت له آثار أسد جبلى ومن ثم قرر أن يشعل نارا ، بمجرد أن يظلم الجو حتى لا يرى دخانها أحد ، وأن يحرص على بقائها مشتعلة طوال الليل وأن يظل ساهرا مترقبا والبندقية فى يده ، خشية أن يعود الوحش .

وقالت رامونا فى قلق :

— ولكنك قد تموت ياأليساندرو إذا لم تنم ، فإنك لست فى أتم صحتك .

فقال اليساندرو :

— إننى قوى الآن ياماچيلا .

وكان فى الواقع يبدو كأنه رجل جديد رغم كل مايخامره من قلق و إرهاق ، وقد استطرد يقول :

— إننى لم أعد ضعيفا . وغدا سوف أنام وتسهرين أنت .

فقالت رامونا بابتهاج :

— وهل ستنام على سرير السرخس ؟

— بل سأفضل النوم على الأرض .

فبدا الاستياء على رامونا وهى تقول :

— إن هذا لعجيب جدا . . إن هذا السرير ليس بالغ الليونة بحيث يخشى الإنسان على نفسه من تعود الترف بالنوم فيه .

ثم استطردت قائلة وهى تلقى بنفسها عليه :

www.ibtesama.com

– آه . . ما أعذبه . . ما أعذب رائحته .

– نعم . . إن فيه أغصاناً من شجر البنزون العاطر، وقد جعلت منها وسادة لماچيللا .

وكانت رامونا سعيدة رغم شعورها بالتعب ، وقد استغرقت طوال الليل فى النوم كالطفل . ولم تسمع خطوات اليساندرو ، لا ولا أزيز النار التى أوقدها . ولم تسمع نباح كابيتان الذى جعل الخور أكثر من مرة ، ورغم محاولات اليساندرو لتهدئته ، يرجع صدى نباحه الخاطف الحاد المنذر كلما سمع الخطوات المتسللة للوحوش البرية داخل الأحراش . وظلت مستغرقة فى النوم ساعة بعد أخرى . وظل اليساندرو جالسا معتمدا على جذع شجرة الجميز الضخمة ، ساهراً يحرسها ساعة بعد أخرى . وكان يخيل إليه أنه لم ير وجهها على مثل هذا الجمال من قبل وأضواء النار تتلاعب عليه . وكانت أمارات السكينة والهدوء المرتسمة عليه، فى دعة ، تفعم نفسه بالقوة ، وتهدىء من توتر أعصابه . كانت تبدو له كقديسة . ولعل السيدة العذراء قد أرسلتها ، كقديسة غوث وهدى له ولقومه . وأوغل الليل ، وتكاثفت الظلمة التى لم يكن يقطعها إلا وهج النار فى موجات متأرجحة . كانفعل الرياح مع عاصفة السحب الكثيفة فى السماء . مع تكاثف الظلام ، كان السكون يزداد ، لا تقطعه إلا حركة الجواد « بابا » ، أو الجواد الهندى أو زمجرة تحذير من الكلب كابيتان ، ثم اشتد السكون تماما ، أكثر من أى وقت مضى ،وأحس اليساندرو كأن الله نفسه معه فى الخور . وكم من ليلة فى حياته أمضاها بمفرده فى أماكن موحشة تحت قبة السماء ، يرقب الليل وهو ينصرم ، دون أن يشعر قط بما يشعر الآن . كان قلبه مفعما بالنشوة ، وبالألم

www.ibtesama.com

فى آن واحد . ترى ماذا سيحدث غدا وبعد غد ، وبعد بعد غد وطوال السنين القادمة ؟ ماذا سيحدث لهذه المحبة المحبوبة المستغرقة فى النوم آمنة مطمئنة لا يحرسها أحد غيره — غير اليساندرو الهارب المنفى الشريد ؟

وقبيل الفجر ، بدأت يمامات الغاب نجواها . وكان الخور مليئا بها . ولكن بدا لاليساندرو أن هديل كل زوجين يختلف عن هديل الأزواج الأخرى . وهكذا خيل إليه أن كل زوجين ، بعد زوجين ، كانا يتناجيان ويتناديان ، كما فعل الزوجان اللذان سمعهما فى تلك الليلة حين جلس تحت خميلة الجردونيه بجوار الكنيسة مورينو . وأن مناجاتهما لتضاعف من إحساسه بالراحة الآن . وقال لنفسه وهو يريح عينيه فى حب على وجه رامونا « ليس لكل منهما ، أيضا ، غير أليفه »

وتبلج الفجر .. وتجاوز الفجر مداه على السهول ، ولكن ضوء الصباح لم يكن قد أسفر بعد فى قاع الخور . ولكن الطيور فى أعلى أفنان شجرة الجميز استقبلت بشائر النهار بالزقزقة والتغريد ، وتساقطت نغماتها على أذن رامونا النائمة وكأنها نغمات الطيور المغردة التى اعتادتها فى شرفة البيت ، فاستيقظت فورا ، ثم جلست فى ذهول تتلفت حولها وتهتف :

— أوه .. أأسفر الصبح والظلمة لا تزال ؟ إن الطيور أقدر على رؤية السماء منا نحن يا اليساندرو .

ثم أخذت ترتل هذه الأنشودة :

«أيها المغردون فى الفجر ..

من السماء فوقنا .

ونحن الناس من كل مكان .

يسعدنا أيضا أن نغنى » .

ولم يسبق أن ترددت فى هذا المكان الجيل ، نغمات أجمل وأعذب .

وقال اليساندرو هامسا ، وصوتها يرتفع كالكروان فى الأثير الصافى :

— لاتغردى عاليا يا ماچيللى .. فقد يكون ثمة من يسمعنا من قريب !

ثم اشترك معها فى الغناء بنبرات خفيضة خافتة .

ولما أخفضت صوتها من تحذيره ، بدا كأنه ازداد جمالا وعذوبة وهى ترتل قائلة :

« هلموا أيها الخاطئون ..

هلموا وسوف نغنى

الأناشيد العذبة

للملاذ ... »

وقال اليساندرو :

— أوه ماچيللا ... ليس هناك خاطىء غيرى ، وإن ماچيللى لتبدو كإحدى حوريات سيدتنا العذراء .

ولعله يكون له العذر فى تفكيره هذا وهو يرى رامونا جالسة هناك فى الضوء المتلألىء ، ووجهها يسطع بالمقارنة إلى الجدار الرمادى المكسو بالسرخس الواقع وراءها ، وشعرها الأثيث المرسل فى خصلات حتى وسطها ، ووجنتيها

www.ibtesama.com

المضطرمتين ، ووجهها المشرق بالإيمان والخشوع ، وعينيها المرفوعتين نحو الجزء البادى من السماء فوق الخور ، حيث كان الضباب الرقيق يتحول إلى ذهب حين تلمسه الشمس التى لم يكن فى مقدورها أن تراها .

وقالت له فى همس :

— سكونا ياحبيبى ، إنها لخطيئة لو فكرت فى هذا حقا ..

« أيتها الملكة الحسناء ..

ياأميرة السماء .. »

واستمرت تغنى ، مرددة الشطرات الأولى من الأنشودة ، ثم ركعت ، ومدت إحدى يديها إلى يداليساندرو وانتقلت ، دون أى تغيير فى صوتها العذب ، إلى ابتهالات الصباح . وكانت مسبحتها ذات حبات ذهبية جميلة الصقل ، مزينة بصليب من العاج ، وكانت من التحف الثمينة النادرة المتخلفة عن مقتنيات الإرساليات فى الزمن الغابر ، وكانت ملكا للأب بيرى نفسه الذى أعطاها للأب سالفيرديرا الذى أهداها بدوره إلى « الطفلة المباركة » عند الاحتفال ببلوغها سن الحلم. وما كان فى مقدوره أن يقدم لها دليلا أعظم من هذا لينم عن مدى حبه لها وثقته بها . وقد ظلت رامونا تشعر بقلبها المحب الوفى أن هذه الهدية ليست وشيجة حب وثقة الأب سالفيرديرا فقط ، وإنما هى أيضاً رمز الحب ورعاية القديس الجديد بيرى ، لها .

وفيما هى تنطق بالكلمات الأخيرة من ابتهالاتها وقد أخذت تحرك آخر حبات المسبحة الذهبية إذا بشعاع من الشمس ينفذ إلى قاع الخور من فجوة فى الجانب الشرقى من المرتفع الصخرى ، ويسقط رأسا على المسبحة ، ويضيئها ثم

www.ibtesama.com

يعكس الضوء ، كالوميض ، من الحبات المصقولة ، إلى يدى رامونا ، ثم إلى وجه المسيح المنقوش على التمثال العاجى الصغير . وتم هذا كله فى لمحة ضوء ، واختفى ، ولكن رامونا واليساندرو رأيا فى هذه الومضة فألا طيبا .. رسالة إليهما من العذراء مباشرة . فهل كان من الممكن أن تختار رسولا أفضل من هذا ؟ العذراء الرحيمة المحبة فى السماء ، أم المسيح الذى يبتهلون إليه عن طريقها — الأم ، التى من أجلها سوف يستجيب لاستغاثتهما الأخيرة — هل كان من الممكن أن تختار رسولا أفضل أو أسرع من شعاع الشمس لتقول لهما إنها سمعت دعاءهما ، وإنها سوف تكون لهما عونا فى هذه المحنة العصيبة .

ولعله لم يكن فى العالم الواسع كله فى تلك اللحظات ، اثنان ينعمان بسعادة رائعة كالتى كانت تنسكب فى عروق هذين الاثنين المعزولين عن العالم ، وهما راكعان ، بمفردهما ، فى هــذا الخلاء ، ينظران فى رهبة وخشوع إلى حبات المسبحة المتلألئة .

www.ibtesama.com

(١٧)

قبل أن ينصرم اليوم الثانى من بقائهما فى الخور ، كان المكان قد غدا فى نظر رامونا كبيت مريح بحيث أخذت تشفق من الرحيل عنه . وليس ثمة دليل أقوى على قوة أثر الطبيعة فى نفس الإنسان رغم كل مابلغه من حضارة ومدنية ، من شوقه ولهفته إلى ذراعيها الحانيتين ، عندما يستبد به الإرهاق أو الملل ، أو حين ينال منه التعثر ، أو تقع به محنة ، إنه فى هذه الحالة ، سرعان مايتخلى عن ذلك الستار الرقيق الذى يسميه عادات ، ويلقى وراء ظهره بما هو أخطر من هذا ، أى ما يزعمه من السمو ، وما يتخيله من رقى ، وما يحس به من قيود التقاليد . وكثيراً ما قيل بلا اهتمام « إن من يحبه الله ، يموت صغيرا » ولكن هذا ليس حقيقة بمعنى الكلمة . والحقيقة هو أن من يحبه الله يجعله يحيا فى حضن

www.ibtesama.com

الطبيعة ، فإذا أغرته ملذات الحياة وهو صغير ، فليعد إليها قبل أن يبلغه الكبر ، وعندئذ سوف يموت شابا مهما بلغ من العمر بعد ذلك . إن الذى يحبه الله ، يعيش شابا إلى الأبد .

وأخذ اليساندرو ، بإحساس العاشق المرهف الممتزج بغريزة الهندى ، يرى ساعة بعد ساعة فى عينى رامونا النظرة الدالة على إحساس الإنسان بوجوده فى بيت حبيب . وكانت ترقب الظلال ، وتدرك ماتنم عليه من معان ، ثم تقول بصوت مفعم بالسرور :

— لو عشنا هنا ، فسوف تكون جدران الخور بمثابة مزولة شمسية نعرف منها الوقت .. أليس كذلك ؟ وإننى لأرى ظل شجرة اليوكا هناك قد صار أطول مما كان بالأمس فى هذا الوقت .

ثم تعود وتقول :

— إن هنا ملايين الأشياء التى تنمو بسرعة يا اليساندرو . ولم أكن أعرف أنه يوجد فى العالم أشياء كثيرة كهذه .. هل لها أسماء ؟ . لقد ذكرت لنا الراهبات بعض الأسماء . ولكنها كانت صعبة ، وقد نسيتها ، ولعلنا نسمى هذه الأشياء بأنفسنا إذا عشنا هنا .. ولسوف تكون بمثابة أقارب لنا .

ثم تردف قائلة :

— إننى على استعداد لأن أرقد هنا عاما كاملا وأنظر إلى السماء يا اليساندرو دون أن أفعل شيئاً آخر . ويبدو لى أنه لايكاد يكون فى الأمر خطيئة إذا عاش الإنسان عاما بلا عمل ، مادام يتطلع دائماً إلى السماء .

www.ibtesama.com

وفى مرة أخرى قالت :

— الآن عرفت معنى ما كان يبدو على وجهك يا اليساندرو . إنه طابع السماء ! لابد للإنسان حقا أن يكون جادا ومغتبطا .. ولكن بلا إسراف فى السعادة — حين يعيش ، وليس بينه وبين السماء شىء حتى يراه القديسون فى كل لحظة .

وقالت ذات مرة :

— إننى لأكاد أصدق أننا عشنا يومين فقط فى الخلاء يا اليساندرو . فإنه يخيل إلى أن هذا أول بيت حقيقى عشت فيه . أينبع هذا الإحساس بالسعادة من كونى هندية يا اليساندرو !

عجبا ! لقد كان حديث رامونا أكثر جداً من حديث اليساندرو ، ومع هذا لشد ما كانت تحس بالروابط التى تجمع بينهما . وكان صمته أكثر من مجرد صمت ، كان نوعا من التحفظ . ومع هذا كانت تحس أنه يرد عليها دائماً . كانت الكلمة الواحدة منه ، أو النظرة ، أبلغ لديها من أى حديث طويل يقوله لها رجل آخر .

و بعد أن فكرت فى هذا طويلا ، قالت :

— إنك تتحدث كما تتحدث الأشجار ، والصخور هناك .. وكالأزهار . دون أن تقول شيئاً .

وأسعد هذا القول قلب اليساندرو إلى حد كبير ، وجعله يقول :

www.ibtesama.com

ـــ وأنت يا ماجيللا .. عندما تقولين هذا فإنما تتحدثين بلغة قومى .. إنك مثلنا .

وأسعدت هذه الكلمات رامونا ، بدورها ، بل لقد أسعدتها أكثر من أية كلمات مديح أو حب أخرى .

ووجد اليساندرو أنه يسترد صحته بسرعة ، وكأن فى الأمر معجزة ، فزايلت وجهه أمارات الهزال ، وعادت وجنتاه إلى الامتلاء . وهناك أسطورة هندية قديمة عن حورية أحبت أميرا ، فأخذت تعود إليه المرة بعد الأخرى ، لا يراها أحد غيره ، مرفرفة فى الهواء ، مرتلة أغنيات الحب ، لكى تستدرجه بعيدا عن حاشيته من النبلاء الساخطين عليها ، الذين كانوا يسمعون غناءها ، ويستدعون السحرة لطردها أو القضاء عليها بالتعاويذ والتمائم . ونجحوا أخيرا فى إسكاتها وطردها بعيدا ، ولكن بينما كانت تختفى عن أنظار الأمير ، ألقت إليه بتفاحة ؛ تفاحة ذهبية مسحورة . ولما ذاقها ، رفض كل طعام غيرها . ومر يوم بعد يوم وليلة بعد أخرى ، وهو لا يأكل إلا هذه التفاحة الذهبية . ومع ذلك فقد ظلت الأيام تتوالى ، والتفاحة الذهبية باقية كما هى ، وكأنه لم يأكل منها شيئا . فلما جاءت الحورية مرة أخرى ، وثب الأمير إلى زورقها المسحور ، وأبحر معها ، ولم يره أهل مملكته بعد ذلك . إن هذه الأسطورة لم تكن غير رمز فقط ؛ رمز جميل على الحب والمحبين . فالطعام الذى عاش اليساندرو عليه ساعة بعد ساعة ، مستردا به قواه ، كان هذه التفاحة الذهبية المسحورة التى منحت الأمير القوة والعزم .

وقالت رامونا وهى تتأمل وجهه فى اهتمام الحبيبة :

www.ibtesama.com

— ماأسرع التحسن الكبير الذى بدا عليك يا اليساندرو ! لقد ظننت فى تلك الليلة أنك ستموت ، ولكنك الآن قد عدت قويا كما كنت تقريبا ، إن عينيك تتألقان ، ويدك لم تعد حارة ، إنه الهواء الطلق الذى شفاك كما شفى فيليب من الحمى .

فقال اليساندرو :

— لو كان الفضل فقط للهواء ، لما مرضت يا ماچيللا .. لقد عشت فى الخلاء حتى رأيتك .. لا .. ليس الفضل للهواء وحده .

ثم وجه إليها نظرة أكمل بها المعانى التى لم يقلها .

وعند غروب اليوم الثالث ، عندما رأت رامونا اليساندرو يقود الجواد « بابا » ويسرجه استعداداً للرحيل ، امتلأت عيناها بالدموع . وكان اليساندرو قد قال لها فى ساعة الظهيرة :

— الليلة ياماچيللا يجب أن نرحل .. فليس هنا من العشب مايكفى يوماً آخر . وعلينا أن نمضى والجوادان فى حالة طيبة ولست أجرؤ على أخذهما إلى ماوراء الخور ليرعيا العشب ، لأن هناك مزرعة لا تبعد غير أميال قليلة . وقد رأيت اليوم بقرة أحد الرعاة تأكل العشب بجوار « بابا » .

ولم تعترض رامونا ، لأن ضرورة الرحيل كانت واضحة . إلا أن النظرة التى ارتسمت على وجهها ملأت قلب اليساندرو بألم جديد ؟ إذ أحس هو أيضا أنه يحنفى مرة أخرى عند رحيله من هذا المكان .

www.ibtesama.com

وعندما رأى رامونا الآن ، وهو يقود الجوادين ببطء إلى أعلى، جالسة با كتئاب بجوار الشبكتين اللتين وضعت فيهما حاجاتهما الصغيرة القليلة ، أحس بالألم يعتصر قلبه من جديد . ومرة أخرى عاد يشعر بأعباء التشرد والاضطراب فى الحياة ، تحط على صدره وهو يتساءل : إلى أى مكان .. و إلى أى مصير تراه يمضى بيامته الحبيبة !!

ولكن رامونا لم تلبث أن استردت بشاشتها بمجرد أن امتطت صهوة جوادها . إذ كان « بابا » فى حالة من الابتهاج لم تستطع معها أن تشعر بالحزن ، ذلك أن الجواد كان كأنما يختال غبطة لأنه عاد مرة أخرى إلى المسير . وكذلك كان الكلب كابيتان مبتهجا أيضا ، لأنه وجد الحياة فى الخور ثقيلة رغم مافيها من ظل منعش وماء بارد . كان مشوقا إلى صحبة الغنم ، ولم يستطع أن يفهم معنى لهذا الاسترخاء ، وكانت نظرة الحيرة على وجهه قد جعلت رامونا تضحك أكثر من مرة حين يأتى ويقف بجوارها ويحرك ذيله ويركز نظراته على وجهها كأنما يقول « لماذا بحق السماء نمكث فى هذا الخور ولا نعود إلى البيت ؟ و إذا كان لا بد من البقاء هنا ، فلماذا لا نأتون بالغنم؟ ألا ترون أننى أعيش هنا بلا عمل؟» .

وقال اليساندرو لها :

ــ يجب أن نمضى طوال الليل ولا نضيع وقتا . فإن المكان الذى سنمكث فيه غدا يقع على مسافة بعيدة .

فقالت رامونا والأمل يراودها :

ــ أهو خور أيضا ؟

www.ibtesama.com

ـ لا .. ليس خورا .. ولكن فيه أشجار البلوط الجميلة . إنه المكان الذى نأتى منه بحبوب السكرن [1] فى الشتاء ، وهو يقع على تل مرتفع .

ـ وهل سنكون فى مأمن هناك ؟

ـ أعتقد هذا ، وإن كنا هنا أكثر أمنا ، لأنه لايوجد فى هذه المنطقة كلها مكان آمن كهذا بالنسبة لنا .

ـ وإلى أين سنذهب بعد ذلك ؟

ـ سنكون هناك جد قريبين من تيميكيولا .. ولابد لنا من الذهاب إلى تيميكولا ، ياعزيزتى ماجيللا يجب أن أذهب إلى متجر المستر هارسل . إنه إنسان ودود ، ولسوف يعطينى نقودا مقابل كمان أبى ، ولولا هذا لما ذهبت إلى هذا المكان مرة أخرى إطلاقا .

فقالت رامونا بتلطف :

ـ إننى أحب أن أرى هذه القرية يا اليساندرو .

فهتف قائلا :

ـ لا .. لا ياماجيللا .. لا ينبغى أن تذهبى .. إن منظر القرية رهيب .. أسقف بيوتهامنزوعة كلها ماعدابيت أبى وبيت جوزيه ، لأنهما سقفان ملوحان بالخشب ، ولهذا بقيا كما كانا . أما المنازل الأخرى جميعا فهى بلا أسقف ..

---

(١) السكرن : كلمة معربة ، ومعناها ثمار شجرة البلوط .

www.ibtesama.com

مجرد جدران وقد هدمت والدة أنطونيو بيتها ، ولست أدرى كيف استطاعت امرأة عجوز أن تجد القوة لأن تفعل هذا . ولكنهم قالوا إنها كانت كالجنية . وكانت تقول إنها لن تسمح لأى مخلوق أن يعيش مرة أخرى بين هذه الجدران ، ومن ثم أخذت كتلة خشب قوية وفتحت ثغرة واسعة فى الجدار ، ثم دفعت بمركبة أنطونيو إلى هذه الثغرة بكل قواها حتى انهار البيت . . لا ياماچيللا .. إن المنظر فظيع .

فقالت فى تردد :

— ألا تحب أن تعود لزيارة المدافن يا اليساندرو ؟

فقال بلهجة جادة :

— حاشا لله ياماچيللا . إننى أعتقد أنى حين وقفت فى هذه المدافن ، كدت أتحول إلى قاتل .. ولولاك أنت يا ماچيللا ، لقتلت رجلا أبيض بعد مغادرتى لها . أوه . . لا تتحدثى عنها . .

ثم أردف قائلا بعد برهة صمت :

— لقد امتص هذا الموقف كل قواى ياماچيللا حتى أحسست كأنى سأموت .

ولم يذكر أحدهما كلمة « تيميكيولا » مرة أخرى إلا عند غروب اليوم التالى ، حين مرورهما ببطء بين أكمتين منخفضتين ، وفجأة وصلا إلى سهل أخضر منبسط يجرى فيه جدول صغير رقراق وقف عنده الجوادان وراحا يشربان بلهفة

www.ibtesama.com

ولما نظرت رامونا إلى الأمام ، لمحت أضواء تومض من بعيد ، فهتفت قائلة وهى تشير إليها :

ـ أضواء يا اليساندرو . . أضواء .

ـ أجل يا ماچيللا . . إنها تيميكيولا . .

ثم وثب مترجلا عن جواده ، ووقف بجانبهـا ووضـع يديه على يديها ، ثم قال :

ـ كنت أفكر طيلة الطريق ، يا حبيبتى ، ماذا يمكن أن نفعل هنا . إننى لا أدرى ! فماذا ترى ماچيللا إذا كان هناك من يطاردنا ، فالملهم الآن عندالمستر هارسل ، لأن متجره هو المكان الذى يمضى إليه كل شخص فى طريقه إلى تيميكيولا أو خارج منها . ولست أجرؤ على أخذك معى إلى هناك يا ماچيللا ، ولكن لابد لى من الذهاب ، فإن المستر هارسل هو المورد الوحيد الذى أستطيع الحصول منه على مال .

وقالت رامونا بقلب خافق وهى تنظر إلى الظلام الجاثم على السهل الفسيح الذى بدا كأنه بحر واسع :

ـ يجب إذن أن أبقى فى مكان ما ، وأنتظر عودتك . هذا هو آمن شىء يا اليساندرو .

ـ هذا هو رأيى أيضاً . . ولكن . . أوه .. إننى خائف عليك ، وأنت . ألن تشعرى بالخوف ؟

www.ibtesama.com

ـ نعم إننى خائفة ، ولـكن الاختفاء أقل خطراً من غيره .

ـ إذا حدث شيء لى يا ماچيللا ، ولم أستطع العودة ، فاتركى العنان لبابا وهو يعود بك إلى البيت هو وكابيتان .

وصرخت رامونا خوفا . . لأنها لم تكن قد فـكرت فى مثل هذا الاحتمال ، فى حين فـكر اليساندرو فى كل شيء ، وقالت خائفة :

ـ ماذا يمكن أن يحدث ؟

ـ أعنى إذا كان الرجال هناك ، وأخذونى بتهمة سرقة جواد .

ـ ولـكن الجواد لن يكون معك ، فـكيف يأخذونك ؟

ـ قد لا يكون لهذا أى تأثير . . إنهم قد يأخذوننى لأخبرهم أين أخفيت الجواد .

فقالت رامونا باكية :

ـ أوه ، اليساندرو . . ماذا سنفعل !

وفى اللحظة التالية استجمعت شجاعتها وقالت :

ـ إننى أعرف ما سوف أفعل يا اليساندرو . سوف أنتظر فى المدافن . وهناك لن يأتى أحد ، ألن أكون فى مأمن هناك ؟

وقال اليساندرو متعجباً :

ـ يا لله لعذراء المقدسة ! أتنتظر ماچيللتى هناك !

ـ لماذا لا؟ إن الذين يسيئون إلينا ، ليسوا هم الموتى ، بل إنهم لو استطاعوا

www.ibtesama.com

تساعدونا . إننى لن أكون خائفة بينهم . ولسوف أنتظرك هناك يا اليساندرو ، فإذا لم تعد بعد ساعة ، فسأذهب إلى متجر المستر هارسل للبحث عنك ، فإذا كان هناك رجال من طرف السنيورة ، فسوف يعرفوننى ، ولن يستطيع أحد منهم أن يمسنى بسوء ، لأنهم يعلمون أن فيليب سوف يعاقبهم لو فعلوا . إننى لست خائفة منهم . وإذا كانت لديهم أوامر بأخذ « بابا » فليأخذوه ، ويمكننا أن نسير على الأقدام عندما يتعب جوادك .

فقال اليساندرو فى حنان وقد راعته شجاعتها :

— إن فى صدر يمامتى قلب أســـد . ولسوف نفعل كما تقول ، لأنها حكيمة عاقلة .

ثم أدار رأسى الجوادين فى اتجاه المدافن ، التى كانت محاطة بسياج من الطوب النىء ، وبوابة خشبية . ولما وصلا إليها ، قال اليساندرو :

— لقد سرق اللصوص البوابة .

فقالت رامونا :

— أية فائدة يمكن أن يجنوها منها ؟

— ليحرقوها . . إنها من الخشب ، ولكنها صغيرة جدا ، وكان يمكنهم أن يتركوها لحماية القبور من الماشية والوحوش البرية .

ولما دخلوا المدافن ، نهض منها شخص جعل رامونا تجفل ، ولكن اليساندرو قال :

www.ibtesama.com

— لا تراعى . . لابد أنه واحـــد من قومنا ، وإنى لسعيد ، لأنك لن تـكونى الآن وحيدة . إنها كارمينا ، لأن هذا الركن الواقفة فيه يضم قبر چوزيه. لسوف أتحدث إليها .

ثم ترك رامونا عند البوابة ، وتقدم ببطء وهو يقول فى صـوت خفيض بلغة اللويزيندو :

— كارمينا . أهذه أنت ؟ لا تخافى ، إننى اليسـاندرو .

وكانت كارمينا التى بلغ بها الحزن أن كادت تفقد عقلها ، قد أخذت تقضى سحابة النهار بجوار قبر وليدها فى باـانجا ، وطيلة الليل بجوار قبر زوجها فى تيميكيولا ، لأن الأمريكيين كانوا هناك ، وكانت هى تخشاهم . وبعـد حديث قصير معها ، عاد اليساندرو فى صحبتها ، وأوقفها بجوار رامونا ووضع يدها المحمومة فى يد رامونا قائلا :

— ماجيللا ، لقد أخبرتها بكل شيء ، وهى لا تعرف كلمة إسبانية واحدة ، ولـكنها سعيدة جدا ، كما تقول ، لأنك جئت معى ، واسـوف تبقى بجوارك حتى أعود .

وتلهف قلب رامونا العطوف على التخفيف من أحزان الفتاة ، ولـكن لم يـكن فى وسعها إلا أن تضغط على يدها فى صمت . وكان فى مقدورها رغم الظلام أن ترى وجنات الفتاة الغائرة ، ونظراتها الباكية الجوفاء . ولم يكن مثل هـذا الحزن فى حاجة إلى كلمات . ومن ثم كانت كارمينا تشعر فى قرارة نفسها بمدى عطف رامونا عليها . وأخـيراً قامت بحركة رقيقة كأنما تريد أن تجعل رامونا

تنحني عليها وهي فوق الجواد . فلما فعلت رامونا هذا ونظرت متسائلة في وجهها ، عادت كارمينا وجذبتها برفق من يدها ثم أشارت بالأخرى إلى الركن الذي جاءت منه ، وفهمت رامونا غرضها وقالت لنفسها : « إنها تريد أن تريني قبر زوجها ، ولعلها لا تريد أن تبتعد عنه . سوف أمضي معها » .

وترجلت عن الجواد ، وأمسكت بعنانه ، وأومأت برأسها موافقة وتبعتها ويدها لا تزال في يد كارمينا ، وكانت القبور متراكبة ، و بلا نظام ، وعلى كل كومة صليب من الخشب . وقادت كارمينا الطريق بخطوات سريعة ثابتة وكأنها تعرف كل شبر من أرض المدفن بقلبها . ولكن رامونا تعثرت أكثر من مرة وكادت تسقط . وكان الجواد « بابا » صبورا هادئا رغم غرابة الأرض التي يسير عليها . ولما بلغتا ذلك الركن ، رأت رامونا كومة جديدة من الطين على القبر الحديث العهد . وأطلقت كارمينا صيحة أسى ، وأدنت رامونا من حافة القبر ، وأشارت إليه بيدها اليمنى ، ثم وضعت كلتا يديها على قلبها ، وتطلعت في أسى إلى رامونا ، التي انفجرت باكية ، وعادت تمسك بيد كارمينا وتضعها على صدرها ، حتى تبين لها مدى حزنها . ولم تبك كارمينا ، لأنها كانت قد تجاوزت مرحلة البكاء بمدة طويلة ، وإنما أحست في تلك اللحظة بفيض من العزاء يغمر قلبها على يدي هذه الفتاة الغريبة — الفتاة التي من جنسها ، ومع ذلك فهي تختلف لفرط جمالها ورقتها . ترى هل أرسلها القديسون إلى اليساندرو من السماء ؟ هذا ما تمنت أن تقوله أو تسأل عنه . ولكنها لم تستطع إلا أن تضغط على يد رامونا المرة بعد الأخرى ، وفي بعض الأحيان كانت تضع خدها عليها .

www.ibtesama.com

وقالت رامونا لنفسها : « أليس القديسون هم الذين أوحوا إلى بالانتظار فى هذه المدافن ؟ فأى عزاء أحست به هذه للسكينة حين رأت اليساندرو ، وأى أمن أشعر به الآن فى صحبتها . يا للعذراء المقدسة ! لو أننى انتظرت هنا بمفردى لمت خوفا ، لا لأن الموتى كانوا سيؤذوننى ، وإنما بسبب هذا الظلام والسكون المدلين على السهل الواسع الفسيح .

وسرعان ما أشارت كارمينا إلى رامونا برغبتها فى العودة إلى البوابة ، ويبدو أنها أدركت بذكائها وحسن تقديرها للأمور أن اليساندرو يتوقع أن يراها هناك . ولكن كان عليهما أن يمضيا فترة طويلة مرهقة فى انتظاره .

فبعد أن تركهما وعقل جواده ، مضى بخطوات سريعة إلى متجر هارسل الذى كان على مسافة ثمن ميل تقريباً من المدافن . وكان بيته القديم يقع على مسافة قليلة نحو اليمين ، فلما اقترب منه ، لمح ضوءا فى نوافذه ، فتوقف كأنما أصيب بطلقة نارية . وهتف لنفسه : « ضوء فى بيتنا ؟ » ثم قبض كفيه بعنف وأردف يقول : « هؤلاء اللصوص الملاعين قد استقروا فيه ، فعلا » وأحس كأن دماءه تحولت إلى نار . وما كانت رامونا لتتعرف وجهه لو رأت اليساندرو فى تلك اللحظة . كان مفعما بالرغبة العارمة فى الانتقام ، وتحسس بحركة لا إرادية سكينه ، ولكنها لم تكن معه . وكان قد ترك بندقيته فى المدافن ، مستندة إلى السور . آه . . فى المدافن ، نعم ، وهناك أيضاً تنتظره رامونا . ومن ثم طرد من ذهنه كل تفكير فى الانتقام ، لأن عالمه عندئذ كان يتركز فى عمل واحد . . فى أمل واحد . . فى حب واحد . ولكنه يريد على الأقل أن يرى من هم هؤلاء

www.ibtesama.com

الساكنون فى بيت أبيه . واستقرت فى أعماقه رغبة طاغية ليرى وجوههم، ولكن لماذا يعذب نفسه على هذا النحو ؟ لماذا حقا ؟ ولكن . . لابد . أنه يريد أن يرى هذه الحياة الجديدة التى قامت على قبر حياته هو . وزحف بحذر تحت النافذة التى ينساب منها الضوء ، وأرهف السمع ، وسمع أصوات أطفال ، وصوت امرأة ، و بين الحين والآخر ، صوت رجل ، غليظاً خشناً . . هذا عدا الأصوات الأخرى التى تصدر عادة من بيت مأهول ، وبدا بوضوح أن السكان يستعدون لتناول طعام العشاء ، ورفع رأسه فى حيطة حتى بلغت عيناه مستوى قاعدة النافذة ، ثم اختلس النظر .

كانت ثمة مائدة منصوبة فى وسط الغرفة ، وحولها جلس رجل وامرأة وطفلان أصغرهما لم يكن يزيد عن وليد فى عامه الأول ، يجلس على مقعد مرتفع ويقرع المائدة بملعقة، معربا عن نفاد صبره فى انتظار الطعام . وكان الغرفة فى حالة اضطراب وفوضى بالغة . . فالأسرة مكومة على الأرضية ، وصناديق مفتوحة نصف مفرغة مما فيها ، وسروج وأعنة ملقاة فى الأركان . . مما دل على أن الأسرة وافدة منذ قريب على البيت . وكانت النافذة مفتوحة بمقدار بوصة ، لأنها ملتوية المصراع ، ولا يمكن أن تغلق بإحكام . وتذكر اليساندرو بمرارة كيف كان يرجىء إصلاح هذه النافذة يوماً بعد آخر . ولكن الفضل الآن يرجع إلى هذا الخلل فى سماعه لما يقال . وكانت المرأة تبدو هزيلة مرهقة ، لها وجه عطوف وصوت رقيق . ولكن الرجل كان له وجه وحش — وحش آدمى . ولماذا نسىء إلى ما نسميها وحوشاً ، جاعلين أسماءها دليلا على صفات خبيثة هى فى الواقع بريئة منها .

وقالت المرأة :

— يبدو أننى لن أجد فى هذا العالم راحة أبداً . متى ستأتى المركبة التالية ؟

وكان اليساندرو يعرف من الإنجليزية ما جعله يفهم حديث المرأة على نحو ما . ومن ثم أنصت فى لهفة ، وقد أجاب الزوج مدمدما :

— إننى لا أدرى . . لقد حدث انهيار جزئى فى ذلك الخور اللعين سد الطريق ، ولن تصل المركبة إلا بعد أيام عديدة . أليس لديك هنا ما يكفى ؟ بعد أن تفرغى مما لديك هنا ، يمكنك أن تتذمرى ، لأنك لم تحصلى على كل شىء .

فقالت الزوجة :

— ولكننى يا جون لا أستطيع أن أرتب شيئاً إلا إذا جاءت خزانة الملابس لأضع فيها هذه الحاجات ، وأعمدة الأسرة ولوازمها ، يبدو أنى عاجزة عن صنع شىء .

— إذن يمكنك أن تتذمرى ، وقد أخذت علما بهذا . وهذا هو الشىء الوحيد الذى تفعله المرأة على كل حال . . التذمر دائما . لقد كان هنا سرير ممتاز من جلود الماشية . ولو لم يسمح روثاكر لهؤلاء الكلاب الهنود بأخذ كل شىء معهم ، لأمكن أن نمتلك هذا السرير الآن .

ونظرت المرأة إليه فى عتاب دون أن تقول شيئاً لمدة لحظات . ثم إذا هى تقول بوجه مضطرم ، وكأنما عجزت عن كتم حديثها فى نفسها :

— حسنا ! إننى سعيدة ، لأنه سمح لأولئك البائسين بأخذ متاعهم معهم .

www.ibtesama.com

فما كان فى مقدورى أن أنام لحظة على ذلك السرير لو أنه ترك هنا . ألا يكفى سوءا أننا اغتصبنا بيوتهم على هذا النحو ؟!

فصاح الرجل قائلا :

— أوه .. يحسن أن تسكتى عن هذا الحديث الأحمق !

وكان الرجل نصف سكران .. أى فى أسوأ وأخطر حالاته . ونظرت المرأة إليه فى نفور واستنكار ، ثم استدارت نحو ولديها وأخذت تطعم الطفل الصغير ، وفى تلك اللحظة ، رفع الطفل الآخر وجهه ولمح رأس اليساندرو وصاح قائلا :

— هناك رجل . . هناك . . وراء النافذة !

وانبطح اليساندرو على الأرض ، وكتم أنفاسه . ترى هل غامر بكل شىء وجلب الخطر على نفسه وعلى رامونا لاستجابته لهذه النزوة المفاجئة المجنونة للنظر فى داخل بيته القديم ؟ وهتف الرجل السكير وهو يسب قائلا :

— لابد أنه واحد من هؤلاء الهنود الملاعين ، لقد رأيت كثيرا منهم يتسكعون حول القرية اليوم . إن علينا أن نطلق الرصاص على اثنين أو ثلاثة حتى نتخلص منهم نهائيا .

وتناول بندقيته من أحد المشاجب فوق المدفأة ، ومضى نحو الباب ممسكا بها ، ولكن المرأة هتفت قائلة :

— لا ، لا تطلق النار أيها الوالد .. وإلا جاءوا وذبحونا جميعاً ونحن نيام إذا فعلت . لا تطلق النار .

www.ibtesama.com

ثم أمسكت بكم سترته ، ولكنه دفعها بعيداً عنه وهو يسب مرة أخرى ،
واجتاز العتبة ، ووقف ينصت ويحملق فى الظلام . وخفق قلب اليساندرو
فى صدره كالطير . ولولا تفكير، فى رامونا لوثب واختطف البندقية من الرجل
وقتله . وقالت الأم بإصرار :

— لا أعتقد أيها الوالد أن هناك أحداً . . إن باد يتخيل رؤية أشياء دائماً .
ولهذا لا أعتقد أن هناك أحداً . . تعال للعشاء ، فإن الطعام سيبرد .

فقال الوحش الآدمى :

— حسنا ، لسوف أطلق عياراً ناريا فى الهواء . ليعلم الجميع أن هنا رصاصاً
و باروداً . فإذا أصبت واحداً يتسلل ، فلن يعرف من أصابه . ثم صوب بندقيته
كيفما اتفق ، وأطلق بيد مرتعدة مخمورة ، رصاصة مرقت بسلام فى الظلام .
و بعد أن أرهف السمع لحظة ، ضحك ساخراً حين لم يسمع صيحة ألم ، وقال :

— أخطأته هذه المرة .

ثم عاد إلى عشائه .

ولم يستطع اليساندرو أن يتحرك من مكانه برهة ، وراح يلعن حماقته التى
جعلته يضع نفسه فى هذا المأزق الخطير . ولماذا يجعل حبيبته الوفية تشعر بألم
لا داعى له ، وهى تنتظر عودته فى ذلك المكان الموحش المخيف ؟ وتشجع أخيراً
وراح يزحف على بطنه خطوة خطوة ، حتى إذا ابتعد عن البيت بضع قصبات
تجرأ ووثب واقفاً واندفع بسرعة بالغة إلى متجر هارسل .

وكان متجر هارسل من المتاجر الجامعة التى لا يوجد مثلها إلا فى كاليفورنيا

www.ibtesama.com

الجنوبية ، فهو متجر وفندق وحانة ، ومن ثم تجتمع فيه جميع خيوط الحياة في المنطقة كلها . فالهنود والمزارعون والرحالة من كل نوع ، يتعاملون تجاريا مع هارسل ، ويشربون الخمر في حانة هارسل . وينامون في خان هارسل . وكان المحل الوحيد من نوعه في منطقة نصف قطرها عشرون ميلا . وكان أقل المحلات سوءاً في منطقة أوسع من هذا بكثير .

ولم يكن هارسل ، وهو مفيق من الخمر ، رجلا شريرا على الإطلاق . ولكن لما لم يكن يمتنع عن الخمر بصفة دائمة، وهذا أمر طبيعي ، فإنه يتحول أحيانًا عند السكر إلى رجل شرير حقا ، وفي هذه الحالات يكون مبعث خوف للجميع : لزوجته ولأبنائه وللرحالة وللمزارعين وللجميع . وكانوا يقولون :

— إن المسألة مسألة وقت وظروف ، ولا بد لهارسل أن يقتل شخصا في يوم ما .

وكان يلوح أن هذا اليوم يقترب بسرعة . ولكن هارسل ، في حالة الإفاقة يكون طيباً ، يمكن الثقة به إلى حد ما ، مجاملا أيضاً إلى درجة تجعل الكثيرين من رواد محله يلتصقون بمقاعدهم إلى مقترب الفجر وهم ينصتون إلى أحاديثه . أما كيف رحل من موطنه بمقاطعة الألزاس بفرنسا ، إلى منطقة سان دييجو فإنه لا يخبر بنفسه أحدا بالتفاصيل . ولهذا فإن لرحلاته هذه صورا كثيرة وتدور أقوال حولها عديدة . والمهم أنه كان قد وصل إلى آخر محطة في حياته . وهنا في تيميكيولا سوف ترقد عظامه ، إذ كان يحب هذه المنطقة ، ويحب الحياة البرية فيها ، وأعجب من هذا ، يحب الهنود . وكثيرا ما كان يمتدحهم أمام المسافرين

www.ibtesama.com

الذين يعتقدون أنهم من جنس منحط ، ولكنهم ينصتون إليه ، كما يلوح ، بدافع المجاملة فقط عندما يقول كعادته دائما :

- إننى لم أخسر ريالا مع هؤلاء الهنود بعد . إنهم جميعا يتعاملون معى ، وقد تصل مبالغ التعامل مع بعضهم إلى مائة ريال ، فإذا عجز أحدهم عن الوفاء هذا العام ، وفى دينه فى العام التالى ، وإذا مات أحدهم ، أدى أقاربه دينه ، قليلا قليلا حتى يؤدى المبلغ كله فى النهاية . إنهم يسددون الديون بالقمح ، أو بالماشية ، أو بالخيل ، أو بالسلال التى تصنعها نساؤهم من نبات السمار . المهم أنهم يوفون الدين. وهم من هذه الناحية أكثر أمانة من كثير من المكسيكيين . أعنى المكسيكيين الذين يتساوون معهم فى الفاقة .

وكان فندق هارسل بناء مستطيلا خفيضا ، له أجنحة أكثر انخفاضا ، تقوم فيه غرفات نوم المسافرين والمطابخ ، والمخازن ، أما المتجر ، فكان يقوم فى بناء منفصل مشيد بالأخشاب ، ويرتفع نحو طابق ونصف طابق ، والجزء الأعلى منه يعتبر عنبراً كبيراً للنوم ، به أسرة فقط دون أية أثاثات أخرى . وقد خصص هذا العنبر لنوم المسافرين من الفقراء ، وكان هذان البناءان ، مع ستة أبنية أخرى لمختلف الأغراض ، تقوم فى ساحة كبيرة يحيط بها سور واحد أبيض اللون ، مما جعلها تبدو كأنها قرية صغيرة قائمة بذاتها رغم حالة الأرض المهملة المكونة من الرمال أو التراب أو التربة التى تنبت فيها الأعشاب البرية . وكانت ثمة نباتات قليلة جافة ، ذابلة ، تنمو فى أوان وفى علب من الصفيح حول باب الفندق . ولا يكاد الإنسان يعرف هل تقلل هذه الأزهار العجفاء من وحشة المكان أم تزيدها . إلا أنها كانت دليلا على وجود امرأة متلهفة على إحاطة نفسها وبيتها بشىء يخفف من وحشة المكان وبريته .

www.ibtesama.com

وكان ثمة ضوء شاحب كاب ينسكب من الباب الواسع للمتجر ، ونحو هذا الباب أخذ اليساندرو يقترب فى حذر . وكان المكان مليئا بالرواد الذين سمعهم يضحكون و يتحدثون . ولم يجرؤ على الدخول ومن ثم دار متسللا إلى الخلف ، ووثب فوق السياج ، ودخل المبنى الآخر ، وفتح باب المطبخ . وشعر عندئذ بالأمن ، لأن المسز هارسل كانت لاتستخدم إلا الهنود . وكان المطبخ مضاء فقط بشمعة واحدة خافتة الضوء ، وعلى الموقد كانت جميع الأوانى والقدور التى يمكن أن يحتملها ، تئز وتهدر بها بما فيها من مأكولات . و يبدو أن ثمة كميات كبيرة من الطعام كانت تعد لأولئك الرجال السامرين فى المبنى الآخر .

وجلس اليساندرو بجوار الموقد ينتظر ، وما هى غير لحظات حتى جاءت المسز هارسل مهرعة إلى عملها . ولم يكن بالشىء الجديد عليها أن ترى هنديا يجلس فى هدوء بجوار الموقد . ولم تستطع أن تعرف اليساندرو فى الضوء الخابى ، و إنما حسبته خطأ ، وهو جالس فى إطراق ، ورأسه على يديه ، الهرم رامون الذى اعتادت أن تراه فى هذا المكان يلتقط رزقه بأعمال صغيرة منوعة كالخدمة ونقل الأشياء أو أى شىء يمكنه القيام به ، ومن ثم قالت :

— أسرع يارامون وأحضر مزيدا من خشب الوقود . إن أعواد حطب القطن هذه شديدة الجفاف وتحترق بسرعة كالنفايات البالية . إننى مرهقة بالعمل جداً هذه الليلة بسبب كثرة الرواد .

ثم استدارت إلى المائدة وشرعت فى تقطيع الخبز ، ومن ثم لم تر إلى أى حد يختلف فى الطول عن رامون ذلك الشباب الذى نهض ومضى لينفذ رغبتها .

www.ibtesama.com

فلما عاد بعد لحظات قليلة حاملا ملء ذراعيه من خشب الوقود ، وهى كمية كانت تستلزم من المسن رامون الذهاب والعودة ثلاث مرات على الأقل ، قال وهو يلقى بها على رف الموقد :

— هل يكفى هذا يا مسز هارسل ؟

وندت عنها صيحة دهشة ، وسقطت السكين من يدها وهى تقول :

— عجبا ! من ؟

ولما رأت وجهه ، أشرق وجهها غبطة وأردفت قائلة :

— اليساندرو ، أهذا أنت ، لقد حسبتك فى الظلام المرم رامون . وكنت أظن أنك فى باسانجا .

فى باسانجا ؟ إذن فلم يحضر أحد من قبل السنيورة مورينو الى متجر هارسل للبحث عنه أو عن السنيوريتا رامونا . وشعر اليساندرو بقلبه يخفق سرورا فى صدره . لقد أصبح آمنا من الخطر الوحيد الذى كان يخشاه فى تلك الآونة . ولكن وجهه لم ينم عن انفعالاته وكذلك لم يرفع عينيه إليها وهو يقول :

— لقد كنت فى باسانجا حيث مات أبى ودفنته هناك .

وهتفت المرأة الشفوق وهى تقترب من اليساندرو وتضع يدها على كتفه :

— أوه .. اليساندرو ؟ هل مات ؟ لقد سمعت أنه مريض .

www.ibtesama.com

وأمسكت عن الحديث، لأنها لم تدر ماذا تقول. وكانت من فرط حزنها فى أثناء طرد الهنود أن مرضت. وقد ظلت يومين كاملين مغلقة الأبواب على نفسها، واضعة الستائر على النوافذ، حتى لاترى تلك المناظر الرهيبة، وكانت سيدة قليلة الكلام، مكسيكية الأصل، ولكن كان هناك من يقول إن فى عروقها بعض الدماء الهندية. ولم يكن هذا غير محتمل. بل لعله كان يبدو محتملا جداً وهى واقفة فى سكون بجوار اليساندرو ويدها على كتفه، ونظراتها مركزة فى حزن على وجهه. ماأشد التغيير الذى طرأ عليه، ولشد ما كانت تذكر جسمه القوى المرن وحركته للتوثبة، ورأسه الشامخ، ووجهه الوسيم، عندما رأته آخر مرة فى الربيع.

وقالت أخيراً وهى تستدير بظهرها إلى الموقد:

— لقد نأيت طوال فصل الصيف يااليساندرو!

— نعم. فى مزرعة السنيورة مورينو.

— هكذا سمعت، إنها مزرعة كبيرة رائعة.. أليس كذلك؟ هل غدا ابنها رجلا ممتازا! كان غلاما حين رأيته آخر مرة عندما مر من هنا ذات يوم بقطيع من الأغنام.

وقال اليساندرو وهو يطمر وجهه مرة أخرى بين كفيه:

— نعم.. لقد غدا رجلا الآن.

وقالت المسز هارسل لنفسها: «يا للمسكين! لاعجب أنه لايرغب فى

www.ibtesama.com

الحديث الآن . لسوف أتركه وشأنه » . ثم سكتت عن الكلام بضع لحظات .

وظل اليساندرو واقفا بجوار الموقد وقد غمره إحساس قوى بالألم . وأخيراً قال فى وهن :

ـــ يجب أن أنصرف الآن ، وأريد أن أرى المستر هارسل برهة ، ولكن يبدو أنه مشغول فى المتجر .

ـــ نعم . لقد وصل عدد كبير من رجال سان فرانسيسكو العاملين فى الشركة التى جاءت إلى هذا الوادى . لقد مر عليهم الآن يومان .. أوه اليساندرو ! .

ثم أردفت تقول وكأنما تذكرت شيئاً :

ـــ إن كانت هنا مع جيم .. أحضره چوزيه .

ـــ نعم .. أخبرنى چوزيه ، وهذا ما جاء بى إلى هنا .

فهتفت قائلة :

ـــ لسوف أسرع وآتى به إليك .

فقال اليساندرو بصوت خافت متهدج :

ـــ لا .. لا أريده . كنت أظن أن المستر هارسل قد يشتريه ، فإنى فى

www.ibtesama.com

حاجة إلى بعض المال . وهذا الكمان ليس لى ، وإنما كان لأبى وهو أحسن كثيرا من كانى . وكان أبى يقول إنه يساوى مبلغاً كبيراً لأنه قديم جداً .

فردت المسز هارسل قائلة :

— نعم ، حقا . وقد كان أحد هؤلاء الرجال ينظر إليه فى الليلة السابقة ، وأبى أن يصدق حين قال له جيم إنه من كانات الإرسالية .

وهتف اليساندرو قائلا :

— وهل يعرف هذا الرجل المزف ؟ هل يشتريه ؟

— لاأدرى ، ولكننى سأستدعى جيم .

ثم خرجت مسرعة ، وأطلت من الباب الآخر ونادت قائلة :

— جيم . . جيم . .

ولكن جيم ، للأسف ، لم يكن فى حالة صالحة للاستجابة ، إذ ما كادت تلقى على وجهه نظرة واحدة حتى تصلب محياها بأمارات الاشمئزاز والتحدى . وعادت إلى المطبخ ، وقالت باحتقار دون أن تتظاهر بشىء غير الحقيقة :

— إن جيم ثمل ، ولاجدوى من الحديث معه الليلة . انتظر حتى الصباح

وندت عن اليساندرو آهة ألم رغما عنه وهو يهتف قائلا :

— حتى الصباح ؟ لا . . لا أستطيع . يجب أن أرحل الليلة .

www.ibtesama.com

فقالت المسز هارسل بدهشة بالغة :

ـــ عجبا ! لماذا ؟

وخطر ببال اليساندرو ، برهة أن يفضى إلى المسز هارسل بكل شيء . ولكنه قرر ألا يفعل ، فكلما قل عدد الذين يعرفون سره وسر راموونا ، كان هذا أفضل . ومن ثم قال :

ـــ يجب أن أكون فى سان ديجو غداً .

ـــ هل وجدت عملا هناك ؟

ـــ نعم ، فى سان باسكوالا ، وكان ينبغى أن أكون هناك منذ ثلاثة أيام .

وفكرت المسز هارسل برهة ثم قالت :

ـــ إن جيم لايستطيع أن يفعل شيئاً الليلة . هذا مؤكد ، ويمكنك أن ترى الرجل بنفسك ، وتسأله هل يريد شراء الكمان .

وهز اليساندرو رأسه وقد استبد به شعور خفى بالاشمئزاز . إنه لايستطيع أن يواجه أحداً من هؤلاء الأمريكيين « الوافدين » إلى واديه . وفهمت المسز هارسل مايدور بنفسه .

وقالت المرأة العطوف أخيراً :

ـــ اسمع يا اليساندرو . سوف أعطيك ما تحتاج إليه من مال الليلة ،

www.ibtesama.com

فإذا قبلت ، فإن جيم يبيع السكان غداً إن كان الرجل راغبا فيه . ويمكنك أن ترد لى ماتأخذه الآن ، من الثمن . وعندما تمر بهذا الطريق مرة أخرى تستطيع أن تأخذ الباقى . وفى مقدور جيم أن يبيعه لحسابك بأعلى سعر ممكن . إنه فى حالاته الطبيعية يعتبر صديقا حميما لكم جميعا يا اليساندرو .

— أعرف هذا يامسز هارسل . وإنى لأثق به أكثر من ثقتى بأى شخص آخر بهذه المنطقة . إنه الرجل الأبيض الوحيد الذى أثق به .

وأخذت المسز هارسل تبحث فى جيب ثوبها التحتى وتخرج قطعة من النقد الذهبية الواحدة بعد الأخرى وهى تقول :

— حسنا جداً .. يبدو أن معى أكثر مما كنت أظن . لقد احتفظت بإيرادات اليوم لأنى كنت أعرف أن جيم سيكون ثملا قبل أن يخيم الليل .

وتعلقت نظرات اليساندرو بالقطع الذهبية . لشد ما كان يهفو إلى كمية كبيرة من هذه القطع الصغيرة اللامعة من أجل يمامته ! وتنهد عندما شرعت المسز هارسل تحصى القطع على المائدة قائلة :

— واحد ، اثنان . ثلاثة ، أربعة ، كل قطعة بخمسة ريالات ذهبية لامعة .

وقال اليساندرو عندما وضعت أمامه القطعة الرابعة :

— هذا أقصى ماأستطيع أن آخذه . أتاعيننى على كل هذا المبلغ !

ثم أضاف قائلا بصوت حزين :

— أنت تعرفين يامسز هارسل أنه لم يبق لى شىء الآن . ما أنا إلا متسول حتى أجد عملا أرتزق منه .

www.ibtesama.com

وطفرت الدموع إلى عينى المسز هارسل وقالت :

— ياللعار ! يا للعار يا اليساندرو ؟ هذا هو رأيى ورأى جيم منذ حدث ماحدث . و إن جيم يقول إن البركة لن تحل بأموال هؤلاء الناس أبداً . اأئتمنك ؟ نعم بكل تأكيد ، إننى وجيم نأتمنك تماما — أنت ووالدك — حتى آخر لحظة من العمر .

وقال اليساندرو وهو يعقد منديله على القطع الذهبية و يضعه فى صدره :

— إننى مسرور لموته .. ولكنه مات مقتولا يا مسز هارسل .. مقتولا كما لو أن أحدا أطلق عليه عيارا ناريا .

وقالت السيدة بحماسة :

— صدقت . هذا هو رأيى أيضاً ، ورأى جوزيه كذلك ، وهذا ما قلته يومذاك ، بل إن الرصاص نفسه ما كان ينحدر إلى هذا المستوى غير الإنسانى .

وما كادت الكلمات تند عن شفتيها حتى انفتح باب غرفة المائدة على مصراعيه ، وتدفق عشرة رجال يتقدمهم المخمور جيم ، ضاحكين متعثرين مترنحين إلى المطبخ .

— أين العشاء ؟ هات لنا عشاءنا . ماذا تفعلين مع هذا المندى هنا ؟ سوف أعلمك كيف يكون طهو لحم الخنزير .

قال جيم هذا وألقى بنفسه إلى الموقد ، ولكن بعض الرجال وراءه

www.ibtesama.com

أمسكوا به وأنقذوه . أما مسز هارسل التى لم تكن الشجاعة تنقصها ، فقد رمقت جماعة الرجال باحتقار وقالت :

ــ أيها السادة ، إذا اتخذتم أماكنكم على المائدة ، فسوف أحضر لكم طعامكم فورا . إنه مجهز .

وشعر واحد أو اثنان غير المخمورين بالخجل من نبرات صوتها ، فقادوا الباقين إلى غرفة الطعام حيث جلسوا وراحوا يدقون على المائدة ويتأرجحون على المقاعد ، ويصخبون ويضجون بالأغانى البذيئة .

وهمست للمسز هارسل وهى تمر بجوار اليساندرو الذى وقف كالتمثال وعيناه المفعمتان بالكراهية والاحتقار مركزتان على الجمع الصاخب :

ــ انصرف بأسرع ما تستطيع يا اليساندرو ، يحسن أن تمضى ، فإن أحداً لايعرف ماذا قد يفعلون بعد ذلك .

فقال بصوت خافت :

ــ ألست خائفة ؟

ــ لا .. لقد اعتدت هذا . وأستطيع دائماً أن أسيطر على جيم ، وإنه رامون قريب من هنا ـ هو والكلاب ، وإذا تطورت الأمور إلى أسوأ ، فسوف أستعين بالكلاب . والواقع أن هؤلاء الوافدين من سان فرانسيسكو هم أسوأ الناس عندما يسكرون ، ولهذا يحسن أن تبتعد عن طريقهم .

وقال اليساندرو لنفسه وهو ينطلق بسرعة عائدا إلى المداخن: «وهؤلاء هم الذين

اغتصبوا أراضينا وقتلوا أبى ، وجوزيه ، وطفل كارمينا. والأب سافيرديرا يقول إن الله رحيم . لابد أن القديسين لم يعودوا يبتهلون إليه من أجلنا » .

ولكن قلب اليساندرو كان مليئاً بمشاعر أخرى ، جعلته لايفكر كثيرا فى سوءات الماضى ، رغم مرارتها . إن الحاضر يناديه بقوة . وإنه ليضع يده فى صدره ويتلمس المنديل الناعم المعقود ، ثم يقول لنفسه: «عشرين ريالا ! إنه مبلغ ليس بالكبير . ولكنه كفيل بتوفير الطعام لرامونا ولجوادها « بابا » أياما عديدة » .

www.ibtesama.com

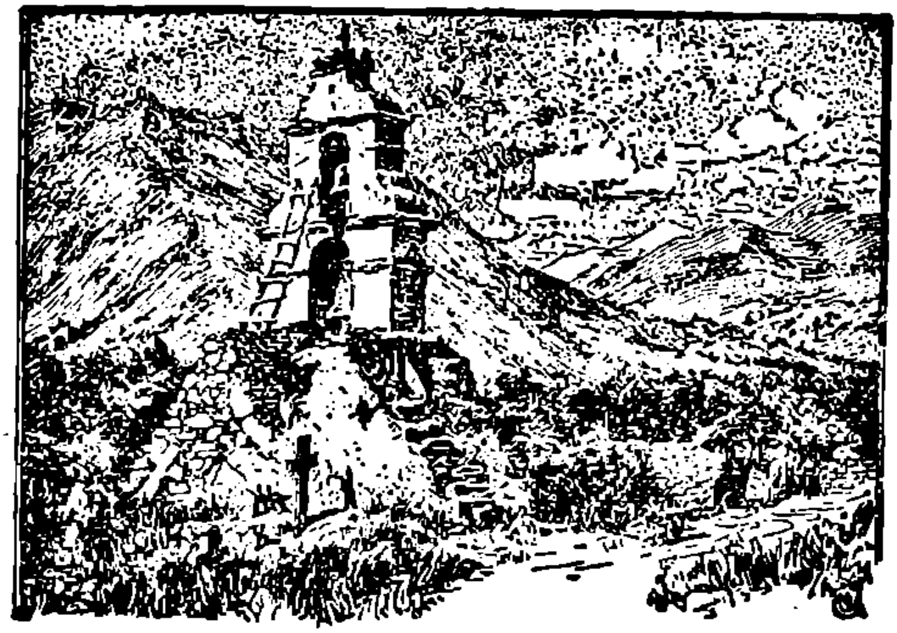

(١٨)

لولا عون كارمينا فى وجودها بجانب رامونا ، لما استطاعت هذه أن تجد الشجاعة الكافية للبقاء كل هذه الساعات الطويلة فى المدافن ، وقد حدث أنها قررت مرتين أنها لم تعد تحتمل الانتظار أكثر مما فعلت ، و بدرت منها حركة تنم عن رغبتها فى الخروج . وكان احتمال التقاء اليساندرو بمطارديه فى متجر هارسل يملأ ذهنها بالخوف عليه لحظة بعد أخرى . وكان اليساندرو قد أخطأ كثيراً فى هذا الاقتراح الذى عرضه عليها ، لأن خيالها المنفعل ظل يتمادى فى تصوير المناظر المحتمل وقوعها حتى على بعد مرمى حجر من مكان جلوسها ، عاجزة فى ظلمة منتصف الليل - اليساندرو مقبوض عليه ، مشدود الوثاق ، يعامل كلص ، بينما رامونا لا تقف بجانبه ، تدافع عنه ، وتفزع المطاردين ليطلقوا سراحه. إنها لم تعد تحتمل الموقف . إنها ستركب جوادها وتمضى إلى باب متجر هارسل

www.ibtesama.com

بكل جرأة . ولـكن عندما كانت تتحرك كأنها ستمضى قائلة لـكارمينا بالإسبانية التى لم تـكن المرأة تفهمها ، ومع ذلك كانت تحمل إليها المعنى الذى تريد أن تنقله رامونا إليها :

-- يجب أن أذهب . لقد طال الوقت جدا ، ولم أعد أستطيع الانتظار .

إذا بكارمينا تمسك يدها بمزيد من العوة وتقول بلغة سان لويز ينو التى لم تـكن رامونا تفهمها ، ومع ذلك كانت تحمل إليها المعنى الذى تريد أن تنقله كارمينا إليها .

-- أوه ياسيدتى الحبيبة ! يجب ألا تذهبي . إن الانتظار هو الأمان الوحيد لنا . وقد طلب اليساندرو أن ننتظره وسوف يأتى .

وكانت كلمة « اليساندرو » واضحة . نعم .. لقد طلب اليساندرو أن ننتظر. وإن كارمينا على حق . وإنها ستطيعها ، ولـكن المحنة رهيبة . وإنه لعجب أن تمسى رامونا ، التى طالما اعتبرت نفسها شجاعة لاتهاب شيئا مادام اليساندرو بجانبها ، جد خائفة بائسة فى اللحظة التى يغيب فيها عن نظرها . ولما سمعت وقع أولى خطواته عند عودته ، ارتعدت خوفا من أن يكون القادم شخصا آخر. وفى اللحظة التالية عرفت أنه هو ، فصاحت بابتهاج وهى تلقى بعنان « بابا » وتقفز نحوه :

-- اليساندرو . اليساندرو .

وتنهدت كارمينا برفق . وتناولت عنان « بابا » ووقفت ممسكة به ، بينما تعانق الحبيبان وهما يتناجيان بكلمات لاهثة ، ثم قالت لنفسها : «ما أشد حبهما

لاليساندرو ، ترى هل سيتركونه حيا ليبقى معها ؟ إن من الأفضل ألا يحب الإنسان » .

ولكن لم يكن ثمة حسد يجيش فى نفسها وهى ترى هذين السعيدين بالحب ، بينما تعيش هى وحيدة منعزلة . ذلك لأن قوم بابلو جميعا كانوا يحملون لاليساندرو أشد الحب ، وينتظرون اليوم الذى يتزعمهم فيه بعد أبيه . وكانوا يعرفون مدى طيبة قلبه ، ويشعرون بالفخر لزعامته عليهم .

وقال اليساندرو وهو يلقى بذراعيه حولها :

— ماجيللا ! إنك ترتعدين ! أكنت خائفة ؟ مع أنك لم تكونى بمفردك .

ونظر إلى كارمينا الواقفة بلا حراك بجوار « بابا » بينما أجابت رامونا قائـــلة :

— لا ، لم أكن بمفردى ياعزيزى اليساندرو . ولكن لشد ماطال غيابك وقد خشيت أيضا أن يكون أحد قبض عليك ؟ كما كنت تخشى أنت — هل كان هناك أحد منهم ؟

— لا ، لم يسمع أحد شيئا ، وإن كل شىء على خير مايرام . وقد حسبوا هناك أننى جئت رأسا من باسانجا .

واستطردت رامونا تقول :

— لولا كارمينا ، لركبت للبحث عنك منذ نصف ساعة ، ولكنها طلبت منى أن أنتظر .

— أطلبت منك هذا ؟ كيف فهمت حديثها ؟

— لاأدرى .. أليس هذا عجيبا ؟ كانت تتحدث بلغتكم ، ولكنى أحسست

www.ibtesama.com

أنى أفهمها ، اسألها : ألم تقل إنى يجب أن أنتظر . وإن الانتظار آمن لنا،وإنك قلت هذا ، وإنك سوف تعود سريعا .

وكرر اليساندرو هذه العبارات لكارمينا ثم سألها قائلا :

— هل قالت هذا ؟

فأجابت قائلة :

— نعم .

وقال اليساندرو لها بابتهاج :

— أرأيت إذن ؟ لقد فهمت لغتنا اللويزينو . إنها واحدة منا .

وقالت كارمينا بلهجة جادة :

— نعم . إنها واحدة منا .

ثم تناولت يد رامونا فى كلتا يديها تودعها ، وكررت القول بلهجة الذى يتنبأ بشىء رهيب :

— نعم ، واحدة منا واحدة منا يا اليساندرو .

وفيما هى ترنو إليهما فى أثناء ابتعادهما حيث غابا فى جنح الظلام فورا،عادت تكرر القول لنفسها :

— واحدة منا .. واحدة منا.لقد جاءتنى الأحزان ،وأقبلت هى لمواجهتها .

ثم رجعت إلى قبر زوجها ، وألقت بنفسها على الأرض فى انتظار الفجر .

www.ibtesama.com

وكان الطريق الطبيعى الذى سار فيه الحبيبان ، سيفضى بهما مرة أخرى إلى متجر هارسل . ولكن اليساندرو انحرف نحو الشمال ليقوم بدورة واسعة حتى يتجنب خطر لقاء أحد أو رؤية أحد له من الرجال الموجودين هناك ، وقد أدى هذا بهما إلى المكان الذى كان يقع فيه بيت أنطونيو . وهناك توقف اليساندرو وهو يضع يده على عنان الجواد « بابا » ، وقاد الجوادين بجوار ركام الجدران المنهدمة ، قائلا فى همس :

ــ هذا كان بيت أنطونيو ياماچيللا . لشد ماأتمنى لو كان كل بيت فى القرية قد تهدم مثله . لقد كانت العجوز جوانا على حق . إن الأمريكيين يقيمون الآن فى بيت أبى ياماچيللا .

واستطرد يقول وهمساته تزداد ارتفاعا من فرط الغضب :

ــ وهذا ما أطال غيبتى . كنت أختلس النظر من النافذة إليهم وهم على مائدة العشاء . وظننت أنى سأفقد عقلى ياماچيللا . ولو كانت بندقيتى معى ، لقتلتهم بها جميعا .

وندت عن رامونا صيحة أسى خافتة وهى تقول :

ــ يقيمون فى بيت أبيك ؟ أرأيتهم ؟

ــ نعم .. الرجل وزوجه وطفلاه . وقد خرج الرجل ببندقيته إلى عتبة الباب وأطلقها بعد أن حسبوا أنهم شعروا بشىء يتحرك خارج النافذة ، وظنوه هنديا ، ومن ثم أطلق الرجل بندقيته . وهذا ما أطال غيبتى .

www.ibtesama.com

وفى تلك اللحظة تعثر الجواد « بابا » فى خطوه ، وبعد مسافة يسيرة أخرى تعثر مرة أخرى ، فقالت رامونا :

— إن شيئا ما قد التف حول قدم «بابا» ياأليساندرو ، ومع ذلك يستمر فى السير .

ووثب أليساندرو من فوق جواده ، وركع يفحص ساق «بابا» ، ثم قال :

— إنه وتد .. والأنشوطة مربوطة به .. يا للعذراء المقدسة ! . ماهذا ؟

ولم تسمع رامونا بقية عبارته ، وإنما رأته يجرى بسرعة مسافة قصبتين ، و « بابا » يتبعه ، وكذلك الكلب كابيتان والجواد الهندى ، ثم إذا بها ترى جوادا رائعا أسود ، فى حجم « بابا » وأليساندرو يتحدث إليه فى همس ، ويربت بكلتا يديه على أنفه ، ليسكته كلمـــا بدأ يصهل . وما إن مضت لحظة حتى كان أليساندرو قد رفع السرج عن الجواد الهندى الأعجف وضرب به على جانبه ليطلقه بعيدا ، ثم وضع السرج على ظهر الجواد الأسود وركبه وقال والبكاء فى صوته :

— يا ماجيلاتى .. هذا بنيتو .. جوادى بنيتو . إن القديسين حقا قـــد ساعدونا الآن . آه ! ذلك الأحمق اللعين .. أيربط بنيتو فى وتد حقير كهذا يمكن للأرنب البرى أن ينتزعه؟ والآن يا ماجيلاتى، يمكننا أن نركض بسرعة... متزايدة ، ولن أشعر بالراحة حتى نخرج من هذا الوادى اللعين . وعندما نصل إلى خورسانتا مرجريتا ، فإنى أعرف طريقا هناك لايعرفه أحد من هؤلاء .

وانطلق بنيتو كالريح ، وأليساندرو نصف منبطح فوقه ، يربت على جيده ، ويهمس له ، والجواد ينخر بالفرح . والواقع أن أحدا لايستطيع أن يعرف أيهما كان أكثر سعادة : الرجل أم الجواد ، واستطاع « بابا » أن يساير بنيتو خطوا

www.ibtesama.com

بخطو ، والأرض تطير تحت حوافرها ، وكان بنيتو فى الواقع رفيقا جديرا بقوة «بابا» وسرعته . بل لم يكن بين قطعان خيول كاليفورنيا كلها جوادان فى روعة بنيتو و«بابا» . واستبد باليساندرو إحساس عنيف بالبهجة التى بلغت حد التهور بعض الشىء . حتى لقد خامر الفزع قلب رامونا وهى تراه لا يكف عن الحديث إلى بنيتو . وظلوا فى انطلاقهم نحو ساعة ، وكان كل من اليساندرو وبنيتو يعرف كل شبر من الأرض . حتى إذا هبطوا إلى أعمق مكان فى الحور ، انعطف اليساندرو فجأة نحو اليسار وبدأ يصعد مرتفعا شديد الانحدار ، وقال :

— هل تستطيعين أن تتبعينى يا ماجيللا ؟

فردت قائلة وهى تدفع جوادها وراءه :

— أتعتقد أن « بابا » لايستطيع أن يجارى بنيتو فى أى شىء ؟

ولكن «بابا» لم يكن راضيا عن الموقف ، ولولا أن بنيتو كان فى المقدمة، لأثار المتاعب لرامونا .

وصاح اليساندرو قائلا وهو يقفز فوق شجرة ملقاة :

— لم يبق من الطريق الوعر إلا القليل ياعزيزتى .

ثم توقف ليرى كيف سيجتاز «بابا» تلك العقبة ، وأخيرا صاح قائلا حين وثب « بابا » فوق الشجرة كالظبى :

— حسنا ! حسنا يا ماجيللا ، إن لدينا الآن أحسن جوادين فى المنطقة . ولسوف ترين أنهما متماثلان حين يسفر الصبح . وكثيراً ما كنت أفكر فى

www.ibtesama.com

مدى تماثلهما . إنهما يمضيان معا فى انسجام رائع .

وبعد أن صعدوا قصبات قليلة فى ذلك المرتفع الوعر ، وصلوا إلى قمة الجانب الجنوبى من الخور حيث وجدوا أنفسهم فى غابة من أشجار البلوط لا تكثر فيها النباتات القصيرة . وهنا قال اليساندرو :

— الآن أستطيع أن أمضى إلى سان ديجو خلال ممرات لايعرف عنها الرجل الأبيض شيئا . ولسوف نقترب من المدينة قبل أن يسفر الصباح .

وكان هواء البحر المشرب بملوحة المحيط قد أخذ ينساب إلى وجوههم فعلا مما جعل رامونا ترتشفه بابتهاج وهى تهتف :

— إننى أشعر بمذاق الملح فى الهواء يا اليساندرو .

— نعم ، إنه البحر . . وإن هذا الخور ليفضى إلى البحر مباشرة . وإنى لأتمنى لو استطعنا أن نسير بجوار الشاطىء يا ماجيللا . فإن المنطقة جميلة هناك ، وعندما يسكن الجو تزحف الأمواج برفق إلى الشاطىء وكأنها تداعبه ، ويمكنك عندئذ أن تسيرى بجوادك قدما وحوافره فى الماء ، والمرتفعات الصخرية الخضراء تطل عليك ، والهواء الآتى من المحيط يسكر الإنسان كالخمر .

فقالت رامونا باشتياق :

— ألا يمكنك الذهاب إلى هناك ؟ ألا نجد أمنا فى ذلك المكان ؟

فقال بلهجة الندم :

– إننى لا أجرؤ ، ليس الآن على الأقل ياماچيللا . لأن الطريق الساحلى لايخلو فى وقت ما من غادين ورائحين.

– الا يمكننا أن نأتى إليه فى وقت آخر ياأليساندرو بعد أن نتزوج وبعد أن يزول الخطر ؟

– أجل يا ماچيللا ..

وفى ذات الوقت قال مفكرا لنفسه :

« هل سيأتى الوقت الذى لا نشعر فيه بالخطر ؟ »

وكان ساحل المحيط الهادى الممتد أميالا عديدة شمالى سان دييجو عبارة عن متعرجات ومرتفعات متوالية ، تبدو كالأسوار على مداخل الأخوار ومنها تنحدر جداول كثيرة فى الطريق إلى المحيط . وكانت قيعان هذه الأخوار خضراء موفورة النبات ، كثيرة الأشجار ، ولا سيما شجر البلوط . وكل خور يبتدىء بما يشبه الفجوة فى المرتفع ، ثم يعمق ويتسع حتى يغدو فى النهاية ، عند المدخل ، شاطئا رمليا لألاء يتراوح اتساعه من ثمن إلى ربع ميل طولا . وكان الخور الذى رجا اليساندرو أن يصل إلى مدخله عند الشاطىء قبل الصباح يقع على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة سان دييجو القديمة ، ويشرف على منظر جميل من مينائها الخارجى . وعندما كان فيه آخر مرة ، وجده يكاد يكون مسدودا بخمائل من شجيرات البلوط ، ومن ثم كان يعتقد أن فى مقدورهما أن يختبئا فيه طيلة النهار بأمان ، وحين ينسدل الليل ، يمكنهما أن يدخلا سان دييجو ، ويتزوجا فى بيت قسيس المدينة ثم يواصلا الرحيل إلى سان باسكوبل فى نفس الليلة.

www.ibtesama.com

وقد قال لنفسه :

« إن فى مقدور ماچيللا ، طيلة النهار فى ذلك الخور ، أن ترى البحر ، ولـكننى لن أخبرها بهذا الآن ، إذ ربما قطعت الأشجار هناك ، ومن ثم لن نستطيع أن نـكون قريبين من البحر » .

ولما وصلا إلى المـكان ، كانت الشمس أوشكت على الشروق ، وكانت الشجيرات باقية لم تقطع . وكانت رؤوسها تبدو من أعلى كأنها أرضية صلبة من الطحلب الذى يكسو قاع الخور . أما الشفق الأحمر فـكان يكسو البحر والسماء فى آن واحد . وعندما نظرت رامونا إلى هذا الممر الأخضر الرقيق المؤدى إلى البحر الواسع ، بدا لها كأن اليساندرو قد حملها إلى أرض الأحلام ومن ثم هتفت قائلة وهى تصل إلى حيث وقف اليساندرو وتضع يدها على يده:

— ياله من عالم جميـل ! ألا ترى يا اليساندرو أن من واجبنا أن نشعر بالسعادة الـكاملة ونحن فى مكان جميل كهذا ؟ ألا ترى أن فى مقدورنا أن نرتل هنا أنشودة الصباح ؟

وتلفت اليساندرو حوله ، ووجد أنهما وحيدان فى تلك البقعة المنعشة ، وكان الفجر لم ينبلج بعد ، وإنما رأى كتلا ضخمة من الضباب الوردى تتصاعد من التلال الواقعة وراء سان ديجو وكان الضوء لا يزال مشتعلا فى الفنار القائم فى الميناء الداخلى ، إلا أنه لم يكن باقيا على مشرق الصبح غير لحظات .

وأخيراً قال :

— لا ياماچيللا .. لا ينبغى أن نبقى هنا . فبمجرد شروق الشمس ، يمكن

www.ibtesama.com

أن يرى أى رجل أو أى جواد على هذه المرتفعات الساحلية من أى مكان على مدى البصر ولهذا يجب أن نصل إلى خمائل الشجر بأسرع ما يمكننا .

وكان الملاذ الذى هرعا إليه كبيت مسقوف بسقف مرتفع متشابك من شجيرات البلوط بحيث لم يكن فى مقدور أشعة الشمس أن تنفذ منه . وكان ثمة جدول صغير من الماء لا يزال باقياً ، و بعض الأعشاب النامية على حوافيه لا تزال خضراء رغم طول فترة الجفاف . حقاً إنه طعام قليل للجوادين ، ولكنهما أقبلا عليه بشهية عارمة أثارتها صحبة كل منهما للآخر .

وقالت رامونا ضاحكة وهى ترقبهما :

— إنهما متحابان . وسوف يصبحان صديقين حميمين .

وقال اليساندرو وهو يبتسم أيضا :

— نعم ، إن الجياد ، كالرجال ، يمكن أن تتبادل الصداقة أو العداء فيما بينهما . فقد كان بنيتو لا يكاد يرى فرس أنطونيو الصفراء حتى يندفع نحوها ، وكانت تفزع من مجرد رؤيته ، كما تفزع القطة من الكلاب وكثيراً ما ضحكت منهما .

— أتعرف القسيس المقيم فى سان دييجو ؟

— إلى حد ما . كان قلما يأتى إلى تيميكيولا فى أثناء إقامتى بها ، ولكنه صديق للهنود ، وقد علمت أنه جاء مع المتطوعين من سان دييجو عندما اشتدت المعارك بين الهنود والبيض الذين كانوا فى فزع شديد ، وقد قيل يومذاك إنه لولا تدخل الأب جاسبارا لما بقى فى منطقة بالا كلها رجل أبيض . وكان أبى قد أبعد كل رجاله قبل أن تبدأ المعارك التى كان يتوقع نشوبها ، والتى لم يكن فى

www.ibtesama.com

مقدوره أن يشترك فيها ، وكان يقول إن الهنود مجانين ، وإنه لا جدوى من المقاومة ، لأنها ستنتهى بالقضاء عليهم جميعاً ، وهذا أسوأ ما فى الموضوع يا ماچيللا . . لقد كان الهنود الحقى يثيرون المعارك و يقتلون ، وماذا كان فى وسعنا أن نفعل ؟ إن الرجل الأبيض يرى أننا جميعاً سواء وقد سمعت أن الأب جاسبارا لم يذهب إلى بالا قط منذ ذلك الحين ، أما الذى يذهب إليها الآن ، فهو قسيس مدينة سان جوان ، وهو رجل شرير يأخذ الأموال من سكانها الذين يتضورون جوعاً .

فهتفت رامونا فى فزع واستنكار :

— أهو قسيس ؟ !

— نعم ، قسيس ، إنهم ليسوا جميعاً أخيار . . مثل الأب سالفيرديرا !

وقالت رامونا على غير إرادة :

— أوه ، لو كان فى مقدورنا أن نذهب إلى الأب سالفيرديرا ؟

وارتسم الأسى على وجه اليساندرو وقال :

— كنا سنتعرض هناك لخطر شديد ياماچيللا ، وكذلك ما كنت لأجد العمل المناسب لى هناك .

وسرعان ما شعرت رامونا بالندم حين رأت الأسى المرتسم على وجهه ، كيف يمكن أن تبلغ بها القسوة فتضيف مثقال ذرة من الأعباء على كاهل هذا الرجل الحبيب ، ومن ثم قالت :

— أوه . . إن هذا أحسن بكثير ، وإننى لم أكن أعنى ما قلت . والأمر

www.ibtesama.com

لا يزيد على أنى أحب الأب سالفيرديرا جداً، كما أن السنيورة لن تخبره بالحقيقة . ألا يمكن أن نرسل إليه خطابا يا اليساندور ؟

فقال اليساندرو :

— يوجد هندى من سانتا اينيز أعرفه اعتاد أن يأتى أحيانا إلى تيميكيولا ليبيع شباك الصيد ، ولست أدرى هل يذهب إلى سان ديجو أم لا ، فلو استطعت أن أتحدث معه فأنا واثق أنه من الممكن أن يذهب من سان اينيز إلى سانتا باربارا من أجلى لأنه رقد ذات مرة فى بيت أبى لمدة أسابيع كثيرة ، وكنت أقوم على تمريضه ، ومنذ ذلك الحين وهو يرجونى أن آخذ منه شبكة صيد كلما جاء إلى القرية . والمسافة بين سانتا إينيز وسانتا باربارا لا تستغرق سفر يومين .

وتنهدت رامونا قائلة

— اشد ما أغنى لو أننا نعيش الآن فى الأيام الخالية ، عندما كان للأب سالفيرديرا وأمثاله نفوذهم الروحى على المنطقة كلها . عندئذ كان يمكن أن توجد الأعمال للجميع فى الإرساليات . وقد اعتادت السنيورة أن تقول إن هـذه الإرساليات كانت كالقصور ، وإن فى كل منها كان يعمل آلاف الهنود ، آلاف وآلاف يعملون فى سعادة وسلام .

ورد اليساندرو قائلا :

— إن السنيورة لا تعرف كل ما حدث للإرساليات . وإن أبى يقول إنه كانت تحدث أشياء رهيبة عندما كان يسيطر عليها الأشرار . ولكن لم يحدث شىء من هذا فى إرسالية سان لويز راى . ذلك لأن الأب بيرى راعى الإرسالية،

www.ibtesama.com

كان بمثابة الأب لجميع الهنود . ويقول أبي إنهم ما كانوا ليترددون في إلقاء أنفسهم في النار لو أنه أمرهم بذلك . ولكن عندما اضطر للرحيل ومغادرة البلاد بعد أن تحطم قلبه وانهارت الإرسالية ، كان عليه أن يهرب ليلا ياماچيللا ، تماما كما أفعل أنا وأنت الآن . وذلك لأن الهنود لو كانوا علموا بأمر رحيله ، لثاروا جميعاً واستبقوه ، وكانت ثمة سفينة هنا في ميناء سان ديجو في طريقها للإبحار إلى المكسيك ، وكان الأب بيرى قد عقد العزم على ركوبها . وعلى نفس هذا الطريق يا ماچيللا ، مضى على جواده ليلا ، وكان أبي هو الشخص الوحيد الذى وثق به الأب وأعلمه بأمر الهرب . وقد ذهب أبي معه بعد أن ركبا أسرع جوادين ، وانطلقا طيلة الليل ، وأبى في المقدمة يحمل على جواده صندوق الأشياء المقدسة الخاصة بالمذبح ، وكان صندوقا ثقيلا جداً . وكم من مرة أخبرني أبي بهذه القصة ، وكيف وصلا إلى سان ديجو مع شروق الشمس ، وكيف وصل الأب إلى السفينة في زورق صغير ، ولما وصل إلى سطحها ، وقف أبي على الشاطىء كالتمثال ينظر إلى صديقه الحبيب ، وفجأة تعالى الصياح والضجيج ودقدقة حوافر الخيل ، وإذا بنحو ثلاثمائة هندى من الفرسان يندفعون إلى حافة الماء بعد أن جاءوا من إرسالية سان لويز راى ، وكانوا قد اكتشفوا أن الأب بيرى رحل إلى سان ديجو ليستقل السفينة منها ، ومن ثم انطلقوا على جيادهم طول الليل في أثره ، ليعودوا به . ولما أشار أبي إلى السفينة وقال لهم إن الأب قد وصل إليها ، انفجر الهنود في صيحات شقت عنان السماء ، ووثب بعضهم إلى الماء ، وسبحوا إلى السفينة وراحوا يصيحون ويتوسلون لكي يحملهم معه إلى حيث يذهب. ووقف الأب بيرى على سطح السفينة يباركهم ويودعهم والدموع تنحدر على وجهه ، واستطاع أحد الهنود أن يتسلق السفينة على الحبال والسلاسل . وقد

www.ibtesama.com

سمحوا له بالبقاء فيها والإبحار مع الأب بيرى ، و يقول أبى : إنه عاش بعد ذلك آسفاً لأنه لم يفكر فى أن يفعل مافعله ذلك الهندى . ولكنه كان كرجل فقد سمعه وبصره لفرط حزنه على رحيل الأب .

وقالت رامونا بأنفاس لاهثة من فرط الإثارة وهى تشير إلى المياه الزرقاء التى كان فى مقدورهما أن يرياها من خلال فتحة بين الأشجار :

ــ أحدث كل هذا هنا . . فى هذا الميناء ؟

ــ نعم، لقد أبحر من هنا ، تماماً ، كتلك السفينة التى تمخر الماء الآن .

قال هذا وهو يشير إلى سفينة بيضاء الشراع كانت تخرج من الميناء بسرعة إلى عرض البحر ، ولكن سفينة الأب كانت راسية فى المرساة الداخلية التى لا يمكنك أن تريها من هنا ياماچيللا، و إن الحاجزين الصخريين المرتفعين ليمتدان إلى البحر كأنهما ذراعان تمسكان بها وتحافظان عليها من فرط الحب .

وعادت رامونا تقول :

ــ ولكن .. هل كان هناك رجال أشرار حقا فى الإرساليات الأخرى يا اليساندرو ؟. إنهم ليسوا من الفرنسسكان بالتأكيد.

ــ ربما لم يكن الأشرار هم الآباء أنفسهم ، و إنما الذين كانوا مرؤوسين لهم. ولكن نفوذهم كان قوياً ياماچيللا . وعندما كان أبى يحدثنى عن قوة هذا النفوذ بدا لى أننى لم أكن لأرضى أن أكون مثله . فإنه ليس من الصواب أن يكون لرجل واحد مثل هذا النفوذ الضخم . وقد كان هناك فى إرسالية سان جابرييل واحد من هؤلاء ، هندى الجنس ، وقد وضع على رأس الآخرين . فلما هربت جماعة كاملة منهم إلى الجبال ، طاردهم وعاد يحمل قطعة من أذن كل

www.ibtesama.com

واحد منهم ، وكانت القطع منظومة فى خيط . وقد قال ضاحكا إنه سوف يعرفهم بعد ذلك بآذانهم المقطوعة . وقد قالت لى امرأة عجوز من إرسالية جابرييل ، جاءت إلى تيميكيولا إنها رأت بعينيها هذا ، وكانت تقيم يومذاك فى الإرسالية ، وكان كثير من الهنود لا يريدون أن ينتموا إلى الإرساليات ، إذ كان بعضهم يفضلون البقاء فى الغابات والحياة كما كانوا يحيون من قبل . وأنا أعتقد أن من حقهم أن يفعلوا هذا إذا أرادوا ياماچيللا ، فإنها لحماقة منهم أن يعيشوا دائماً ، كالحيوانات البرية لا يعرفون شيئاً من الحياة ، ولكن ألا ترين أن هذا من حقهم ياماچيللا !

فقالت رامونا المتدينة :

— إنه الأمر الذى يحتم التبشير بالإيمان بين جميع البشر ، وهذا ما قاله الأب سالفيرديرا عن السبب فى مجىء الفرنسسكان إلى هنا . وأعتقد أن من واجبهم أن يجعلوا الهنود يستمعون إليهم . ولكن مسألة الآذان هذه رهيبة . أتعتقد بصدق هذه القصة ياأليساندرو ؟

— كانت المرأة العجوز تضحك وهى تخبرنى بها ، وكانت تعتبرها فكاهة ، ولهذا أعتقد أنها صادقة ، أما أنا فما كنت أتردد فى قتل الرجل الذى يقطع أذنى على هذا النحو .

— هل حدثت الأب سالفيرديرا بهذه القصة ؟

— لا ياماچيللا ، إن هذا ليس من الأدب فى شىء .

وقالت رامونا فى نبرات الإنسان المطمئن :

— إننى على كل حال لا أصدق هذه القصة . لا أصدق أن أى راهب

www.ibtesama.com

فرنسسكانى يسمح بحدوث شىء كهذا .

وعاد الضوء الأحمر فى رأس الفنار يتوهج مرة أخرى ، وقد ظل على توهجه فترة ما قبل أن يفكر اليساندرو فى أن الوقت قد حان لاستئناف الرحلة . وكان الطريق الذى سيتخذه إلى سان ديجو القديمة — حيث يقيم الأب جاسبارا هو نفس الطريق العام الممتد من سان ديجو إلى سان لويز راى ، وكان من المؤكد أنهم سيلتقون بالمسافرين عليه .

على أن جواديهما السريعين انطلقا بهما فى روعة حتى بلغا المدينة فى ساعة مبكرة . وكان بيت الأب جاسبارا يقع فى نهاية بناية خفيفة مستطيلة كان لها شأنها فيما مضى ، ولكنها أصبحت مهدمة ، ولم يعد فيها غرفات معدة للسكنى إلا غرفات الأب جاسبارا . وعلى الجانب الآخر من الطريق ، وفى رقعة من الأرض المهملة المليئة بالأعشاب البرية ، قامت كنيسته الصغيرة التى كان مظهرها ينم عن الفاقة الشديدة ، وطلاؤها الأبيض متساقطاً ، وكانت مزينة برسوم بدائية و بقطع مكسرة من المرايات التى أنقذت من مبانى الإرسالية التى أصبحت الآن خراباً تماماً . وفى هذه كان ثمة مقابض من الصفيح العادى توضع فيها شموع من النوع الرخيص الخابى الضوء . وكان كل شىء متلائماً تماماً مع جو المكان — أشد الأجواء انقباضاً فى كل كاليفورنيا الجنوبية . وهنا كان المكان الذى بدأ فيه الفرنسسكانى العجوز العظيم الأب جونبيروسيرا ، عمله ، وهو ممتلىء بالتحمس والرغبة فى ضم البرارى وسكانها إلى بلاده وكنيسته . وعلى هذا الشاطىء نفسه ، وفى الأسابيع الأولى الرهيبة كان يروح و يغدو ، ممرضاً للمرضى ، ومصلياً للمحتضرين ، ودافناً للموتى بالوباء الذى كان منتشراً بين السفن المكسيكية الراسية فى الميناء . وهنا عمد أول جماعة من الهنود المتنصرين ،

www.ibtesama.com

وأقام أول إرسالية له ، وكانت الآثار الوحيدة التى بقيت من أعماله الرائعة ، ونجاحه الذى ناله بالكفاح الشديد ، هى هذه الكومة من الخرائب وبضع نخلات وشجرات زيتون قديمة . وحتى هذه سوف تزول بعد أقل من نصف قرن ، عائدة إلى صدر أمها الأرض ، التى لا تضع الشواهد على أعز وأقدس قبورها .

وكان الأب جاسبارا قد عاش فى سان دييجو سنوات عديدة ، وبرغم أنه لم يكن فرنسسكانيا ، لأنه لم يكن فى الواقع شديد الميل إليه ، إلا أنه كان شديد التأثر بالحالة التى صارت اليها ممتلكات الكنيسة . وكان فى يوم ما ذا طبيعة حماسية شاعرية ولم يكن أمامه فى الحياة إلا أن يغدو شاعرا أوجنديا أوقسيسا ، وقد شاءت الظروف أن تجعل منه قسيسا . أما الحماسة والشاعرية اللتان كانتا ستجعلان منه جنديا أو شاعرا ، فقد زادتا من قوته كقسيس . وكانت نظرة الجندى الصارمة لا تزايل وجهه قط . . لا النظرة ولا الطابع ، ومن ثم كانت عيناه السوداوان النفاذتان وشعر رأسه ولحيته الغزير الأسود ، وخطواته السريعة المرنة ، تبدو أحيانا غير متلائمة مع ردائه الكهنوتى . وكانت طبيعته الشاعرية المرهفة هى التى جعلته ينكمش داخل نفسه أكثر وأكثر ، عاما بعد عام ، كلما وجد نفسه عاجزا -- نسبيا — عن أن يفعل شيئا لمئات الهنود الذين كان يتمنى أن يراهم مجتمعين مرة أخرى ـ كما كانت الحال من قبل ، فى حظيرة الكنيسة . وكان قد قام بزيارات كثيرة لهم فى مخابئهم المتنقلة ، ذاهبا وراء الأسرة بعد الأسرة ، والجماعة بعد الجماعة ، ممن كان يعرفهم ، وكذلك كتب الرسائل الواحدة بعد الأخرى ، لمختلف أنوع المسئولين الحكوميين فى واشنطن ، وقد بذل أيضا

www.ibtesama.com

جهودا مضنية ، بلا جدوى ، لكى يظفر من المسئولين المحليين ، بشىء من الحماية والإنصاف للهنود . وقد حاول أن يدفع بالكنيسة نفسها لتعمل من أجلهم . وأخيرا غلبت عليه طبيعته الشاعرية المرهفة ، فتوقف عن بذل الجهود تعبا واستنكارا ، وهو يقول : « لافائدة . لن أقول شيئا قط ، لقد غلبت على أمرى ، ولم أعد أحتمل أكثر من هذا » ثم استقر يؤدى واجباته الكهنوتية للمكسيكيين القلائل ، والأقلية الايرلندية ، الذين تتكون منهم رعيته فى سان دييجو ، وتخلى عن بذل أى مزيد من الجهود من أجل الهنود أكثر من زيارتهم فى محلاتهم الرئيسية مرة أو مرتين فى كل عام ، ليوزع عليهم الصدقات . فإذا بلغته أنباء مظالم جديدة تقع على الهنود راح يذرع غرفته جيئة وذهابا ، وهو يشد بقوة شعر لحيته ، مغمغما بعبارات أقرب إلى التى تقال فى ثكنات الجيش منها إلى عبارات رجل دين . ولكنه لم يكن يبذل أى جهد لعمل شىء ، وإنما كان يجلس بعد أن يشعل غليونه ساعات طويلة ، محدقا إلى الماء الراكد فى الميناء المهجور ، مفكرا بحزن فى هذه المظالم التى لايستطيع منعها .

وعلى بعد خطوات من مسكنه ، كانت تقوم جدران من الآجر الجميل للكنيسة التى يحلم فى فخر برؤيتها مشيدة مليئة بالمصلين . وقد فشل أيضا فى تحقيق هذا الحلم . نعم ، لقد تلاشت أحلام الأب جاسبارا وآماله مع تلاشى أحلام سان دييجو وآمالها المرة بعد الأخرى . وقد بدا الآن أنه لاجدوى فى الواقع من بعثرة المال فى بناء كنيسة بتلك الأبراشية . ذلك أن العاطفة نحو الموتى ، أيا كانت قدسيتها ، يجب أن تخضع لمطالب الأحياء . وكان تشييد كنيسة فى تلك الأرض التى وطئها لأول مرة وعمل بها الأب جونيبرو ، من الأمور التى لم يكن الكاثوليكيون يستهينون بها . ولكن كانت هناك مطالب

www.ibtesama.com

أخرى أهم وأجدى يجب العمل من أجلها أولا . ولم يكن فى هذا خطأ ، ومع ذلك فإن منظر هذه الجدران الصامتة التى لم ترتفع غير بضع أقدام ، كان أذى فى عين الأب جاسبارا — كانت صليبا يزداد ثقلا على كاهله كلما راح يذرع شرفته جيئة وذهابا ، عاما بعد عام ، فى زمهرير الشتاء ، وفى ظلال الصيف فى ذلك الطقس الساحر .

وقال اليساندرو وهو يمضى مع رامونا إلى الساحة الساكنة :

— ماچيللا ! إن الكنيسة مضاءة ، وإن هذا لفأل حسن . لابد أن الأب جاسبارا هناك .

ثم وثب من فوق جواده ، واختلس النظر من وراء ستارة النافذة ، وهتف قائلا وهو يتراجع بسرعة :

— إنها مراسم زواج ياماچيللا . مراسم زواج ، وهذا أيضا من حسن الحظ ، فلن نكون بحاجة إلى طول انتظار .

ولما همس خادم الكنيسة للأب جاسبارا بأن هناك هنديا وهندية حضرا ليتزوجا ، قطب الأب جبينه ، فقد كان عشاؤه فى انتظاره ، وكان قد أمضى يومه كله فى الخارج ، عند بستان زيتون الإرسالية ، حيث وجد الأمور على غير مايحب . ذلك أنه وجد الرجل الهندى وزوجته اللذين استأجرهما للعناية بالأفدنة القليلة من ممتلكات الكنيسة ، قد أهملا الأرض والشجر ليهتما بأرضهما الخاصة ، ومن ثم كان الأب يشعر بالاستياء والتعب والجوع . ومن ثم كانت الأمارات التى ارتسمت على وجهه وهو يرى اليساندرو ورامونا مقبلين نحوه

www.ibtesama.com

أبعد ما تكون عن الحفاوة والترحاب. وقد صدمت رامونا — التى لم يسبق لها أن ركعت إلا أمام الأب سالفيرديرا العطوف والتى كانت تعتقد أن جميع الآباء لابد أن يلوحوا ، على الأقل ، مرحبين ـ بمنظار الوجه المتجهم الذى طالعها . ولكن وجه الأب جاسبارا لم يلبث أن تغيرت أماراته عندما وقعت نظراته الأولى على رامونا . وقال لنفسه :

« ما معنى هذا ؟ »

ثم قال بنفس السرعة التى فكر بها وهو ينظر إلى وجه رامونا ، بحدة :

— هل أنت هندية ؟

وأجابت رامونا بوداعة :

ـ نعم يا أبى .

وقال الأب جاسبارا لنفسه :

« آه . . مولدة ! وإنه لعجيب أن يرى الإنسان كيف يغلب أحد الجنسين الآخر . . ! ولكن هذه مخلوقة غير عادية » .

وبنظرة جديدة مفعمة بالعطف والاهتمام ، راح يقوم بمراسم الزواج . أما العروسان الآخران ، اللذان كانا أيرلنديين فى منتصف العمر ، فقد وقفا جانبا فى هدوء ، وعلى وجهيهما الدميمين الجامدين ، أمارات تنم عن الدهشة ، وكأنما لم يكن أحدهما يعرف أن الهنود يتزوجون فى الكنيسة أيضا .

وكان الأب جاسبارا يحتفظ بسجل الزواج فى مسكنه ، حيث كان يخفيه فى مكان مغلق بعيدا عن متناول يد مديرة بيته العجوز . وكان يتخذ هذا

www.ibtesama.com

الاحتياط لأسباب خاصة ، سرية ، ذلك لأن كثيرا من الرجال كان يهمهم أن يقطعوا أوراقا من السجل برجم تاريخ الزيجات فيها إلى عام ١٧٦٩ . وكان كثير منها قد كتبت بخط بيد الأب جونيبرو نفسه .

وفيما كانوا يغادرون الكنيسة ، والأب جاسبارا فى المقدمة ، والدروسان الايرلنديان فى خجل ، قال اليساندرو وهو لايزال ممسكا بيد رامونا :

— هل تحبين أن تركبى جوادك ياعزيزتى ؟ .. إن المسافة قصيرة جدا .

— لاياعزيزى اليساندرو ، إننى أفضل المشى .

ولف اليساندرو أعنة الجوادين على ذراعه اليسرى، وسار قدما. وسمع الأب جاسبارا السؤال والجواب ، وقال لنفسه وهو لايزال مندهشا :

« إنه يتحدث كسيد مهذب إلى سيدة مهذبة ، فما معنى هذا؟ومن هما ؟ »

وكان الأب جاسبارا كريم المحتد ، ينحدر من بيت فى إسبانيا أسمى من الناحية الاجتماعية ، من أية حياة عاشها فيه فى كاليفورنيا . وكان قلما يسمع فى أبراشيته هذه صوتا رقيقا أو حديثا رقيقا كالذى سمعه حين تحدث اليساندرو إلى رامونا . وعندما دخلا بيته ، عاد يتأملهما فى اهتمام و إمعان ، وكانت رامونا تغطى رأسها بالمطرف الأسود الذى اعتادت أن تضعه المرأة المكسيكية على رأسها . ولم يكن هناك فى وجهها وجسمها مايميزها عن غيرها فى نظر الأب جاسبارا . وفى ضوء الشمعة الخابى ـ لأن الأب جاسبارا لم يكن يسمح لنفسه بحياة مترفة ـ بدا لون بشرتها الناضر ، وزرقة عينيها ، كشىء لم يسبق للأب أن رآه . أما

اليساندرو بقوامه الطويل ، وشموخ رأسه ، فلم يكن بالشيء العجيب فى نظر الأب ، لأنه كثيرا ما رأى رجالا من الهنود على هذا السمت الرائع . ولكن صوته كان مدهشا ، وقدرته على الحديث بالإسبانية كانت شيئاً غير مألوف بين الهنود .

وقال الأب جاسبارا وهو يمسك بقلمه استعدادا لكتابة الأسماء فى السجل المغلف بالجلد الخام :

— من أين جئت ؟

فقال اليساندرو :

— من تيميكيولا يا أبى .

فسقط القلم من يد الأب جاسبارا وهتف :

— من القرية التى طرد الأمريكيون أهلها منذ عهد قريب ؟

— أجل يا أبى .

ووثب الأب جاسبارا من مقعده ، وراح — كعادته عند الانفعال الشديد — يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ثم صاح بحدة قائلا للزوجين الأيرلنديين اللذين كانا قد ذكرا له اسميهما ، ونقداه الأجر ، ولكنهما ظلا فى الغرفة لا يعرفان ماذا يفعلان بعد ذلك :

— انصرفا .. انصرفا .. لقد فرغت منكما . لقد تمت مراسم زواجكما .

ثم صاح مردفا :

www.ibtesama.com

— بالدمار الشديد ؟ ! إننى لم أر فى حياتى ظلما رهيبا كالذى حدث فى هذه الأرض المغضوب عليها .. لقد قرأت تفاصيل ماحدث فى صحيفة سان دييجو أمس فقط .

ثم توقف أمام اليساندرو وعاد يقول بحدة :

— قالت الصحيفة إن الهنود أرغموا على دفع مصروفات الحكم كلها ، وإن المأمور استولى على كل ماشيتهم مقابل هذا ، فهل هذا صحيح ؟

فأجاب اليساندرو :

— أجل يا أبى .

وعاد الأب يروح ويجىء فى الغرفة وهو يشد لحيته ويقول :

— وماذا ستفعلون ؟ وإلى أين ذهبتم ؟ لقد كان عدد الأهالى فى قريتكم مائتى نسمة حين زرتكم آخر مرة .

— لقد ذهب البعض إلى باسانجا . والبعض إلى باسكويل والباقون إلى سان برناردينو ..

وثار الأب قائلاً :

— يا إله السماء أيها الرجل ! إنك تأخذ الأمر فى هدوء الفيلسوف !

ولم يفهم اليساندرو معنى كلمة « فيلسوف » ولكنه أدرك مايقصده الأب بوجه عام ، ومن ثم قال بعناد :

www.ibtesama.com

ـــ أجل يا أبى . لقد مر الآن واحد وعشرون يوما ، ولم أكن هناك فى أول الأمر ، ومن ثم لم يكن فى مقدورى أن أفعل شيئاً .

وتعلقت رامونا بيد اليساندرو وهى تشعر بالخوف من ثورة هـــذا الأب الأسود اللحية الذى كان يندفع جيئة وذهابا وهو يطلق من شفتيه العبارات التى تنم عن سورة الغضب . وقد عاد يقول :

ـــ لسوف تدفع حكومة الولايات المتحدة الثمن غاليا إنها حكومة لصوص وقطاع طرق . لسوف ينتقم الله منهم . وسوف ترى بنفسك . سوف تحل عليهم اللعنة فى عقر دارهم. سوف يعيش أبناؤهم و بناتهم فى عزله عن رحمة الله .ولـكن لماذا أثرثر بهذه العبارات الجوفاء ! أخبرنى ياولدى باسمك واسم عروسك مرة أخرى .

وعاد يجلس إلى المائدة التى كان عليها سجل الزواج مفتوحا . و بعد أن دون اسم اليساندرو التفت إلى رامونا وقال :

ـــ وما اسمك يافتاة ؟

وتطلع اليساندرو إلى رامونا ، وكان قد ذكر فى الـكنيسـة أن اسمها ماچيللا فماذا يقول الآن ؟ ولـكن رامونا أجابت دون لحظة تردد :

ـــ ماچيللا . . ماچيللا ڤايل . هذا هو اسمى .

وكانت تنطق باسم « ڤايل » فى بطء ؛ لأنه كان جديدا على لسانها . ولم يكن قد سبق لها أن رأته مكتو با . ومن ثم تلـكأت حروفه على شفتيها مماجعل الأب يخطىء فى كتابته ، إذ كتبه من مقطعين .

www.ibtesama.com

وهكذا تمت آخر خطوة فى إخفاء « رامونا » ، وإلا فكيف يمكن لأى إنسان ، حين يبحث بعد ذلك بسنوات ، أن يعرف أن رامونا أورتينا ، هى نفسها العروس التى تزوجت باسم « ماجيللا فايل » ؟

وقال الأب جاسبارا حين رأى اليساندرو يبدأ فى فك المنديل المعقود على القطع الذهبية :

— لا لا ياولدى .. احفظ عليك مالك . إننى لن آخذ مالا من هنود تيميكيولا بل إنى أتمنى لوكان لدى الكنيسة مال لتعطيه لهم . إلى أين ستذهبان الآن؟

— إلى سان باسكويل ياأبى .

— آه .. سان باسكويل - إن رئيس القرية هناك يحمل وثيقة الملكية ، وقد أطلعنى عليها منذ عهد قريب ، وعسى أن تكون إقامتكما هناك آمنة لهذا السبب . ولكن لاتركنا إلى هذه الوثيقة . ولكن حاول أن تشترى قطعة أرض بالطريقة التى يشترى بها الرجل الأبيض . لاتأمن لشىء ياولدى .

فنظر اليساندرو فى وجه الأب بقلق وقال :

— كيف هذا يا أبى . إننى لاأعرف ؟

فأجاب الأب قائلاً :

— إن قوانينهم كثيرة جدا كأسراب سرطانات البحر على الشاطىء . وإن لها — كما يبدو لى — قدرة على الحركات الارتدادية ، تماما كسرطانات البحر ، ولكن المحامين يعرفون كيف يواجهونها . وعندما تختار قطعة الأرض التى تملك

www.ibtesama.com

ثمنها ، تعال إلىّ ، وسوف أذهب معك لأطمئن على أن أحداً لن يخدعك فى عملية الشراء ، ولـكننى نفسى فى حيرة شديدة لـكثرة وسائل خداعهم وأحابيلهم وداعاً ياولدى .. وداعاً يا ابنتى .

ثم نهض وقد عاد الإحساس بالجوع يغلب مشاعر العطف فى قلب الأب جاسبارا . ومن ثم فإنه حين جلس إلى عشائه الذى طال عليه الانتظار ، نسى تماما أمر هذين العروسين المنديين . ولـكنه بعد العشاء ، عندما جلس فى الشرفة يدخن تبغه ، عادا يتلـكآن فى مدار أفكاره .. يتلـكآن بأسلوب عجيب بحيث لم يستطع أن يتخلص بسهولة من التفكير فى أن هناك شيئاً غير عادى فى سمت تلك الفتاة ، ومن ثم قال لنفسه :

« لسوف أسمع عنها مرة أخرى يوما ما » .

وكان على حق فى هذا التفكير .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(١٩)

بعد أن غادرا بيت الأب جاسبارا ، ركب كل من اليساندرو وراموناجواده ومضيا فى الساحة الضيقة المهجورة ببطء ، وانحرفا شمالا على طريق النهر تاركين جدران بيت الحاكم القديم على يمينهما . وكان النهر ضحل الماء ، ومن ثم استطاعا اجتيازه بسهولة .

وقال اليساندرو :

— لقد رأيت ماء هذا النهر عاليا بحيث لم يكن فى مقدور أحد اجتيازه لعدة أيام. ولكن هذا كان فى فصل الربيع .

فقالت رامونا :

— إذن لقد أحسنا بعدم المجىء فى ذاك الوقت . إن الظروف قد حالفتنا

www.ibtesama.com

يا اليساندرو . الليالى المظلمة ، والمياه الضحلة .. ولـكن انظر ٠٠ لقد بزغ الهلال وأنا أقول هذا ـ ثم أشارت إلى خيط مقوس من ضوء الهلال الوليد ، كان قد لاح فى خفوت . وأردفت قائلة :

ـــ إنه ليس ساطع الضوء بحيث يضيرنا يا اليساندرو . ألا ترى أننا الآن فى أمان ؟

ـــ لست أدرى ياماچيالا إن كنا سنعرف الأمان يوما أم لا . ولـكننى أرجو هـذا . وإنى لأفـكر طوال اليوم فى أنى كنت أحمق حين ذكرت لمسز هارسل أنى ذاهب إلى باسكويل . ولـكن إذا جاء رجال يسألون عنا هناك ، فإنها لن تفهم حديثهم . وسوف تمسك لسانها . إنها سوف تمنع عنا الأذى بقدر ماتستطيع .

وكان طريقهم من سان ديجو إلى باسكويل يقع فى هضبة عالية مكسوة بالشجيرات القصيرة ، و بعد عشرة أو اثنى عشر ميلا من هذا الطريق هبطا بين ممرات صخرية ملتوية إلى وادى بوواى الضيق ، وفى هذا الوادى بذل المكسيكيون إحدى محاولاتهم الفاشلة لطرد الجيش الأمريكى من البلاد . وقد قال اليساندرو :

ـــ هنا قتل عدد من الأمريكيين فى معركة مع المكسيكيين يا ماچيالا ، وقد التقطت بنفسى نحو عشر رصاصات من هذا المكان . وكثيرا ما كنت أتطلع إليها وأفـكر فى هل يمكن أن تقوم حرب أخرى ضد الأمريكيين ؟ لوحدث هذا يوما لأطلقت هذه الرصاصات مرة أخرى إذا استطعت . هل يعتقد

www.ibtesama.com

السنيور فيليب أن قومه سوف يثورون ضدهم يوما ؟ إذا فعلوا هذا ، فسوف يجدون جميع الهنود بجانبهم الآن . ولاشك أن طردهم من البلاد سيكون رحمة من الله .

وتنهدت ماجيللا قائلة :

— أجل . ولكن ليس هناك أمل . وقد سمعت السنيورة تتحدث فى هذا الشأن مع فيليب . ليس هناك أمل . إن لديهم القوة ، والثروة الهائلة ، هكذا كانت تقول . وإن المال هو مدار تفكيرهم دائما ، ومن أجل الحصول عليه ، لايترددون فى ارتكاب أية جريمة ، حتى القتل . وإن الأنباء لتتواتر كل يوم عن قتل بعضهم بعضا من أجل الذهب . وأما المكسيكيون ، فإنهم يقتلون بعضهم بعضا بسبب الحقد فقط يا اليساندرو ، بسبب الحقد أو الغضب ، وليس من أجل المال قط .

وقال اليساندرو :

— وهذا أيضاً شأن الهنود . ليس هناك هندى يقتل هندياً آخر من أجل المال ، وإنما للثأر فقط . أما من أجل المال فلا ، أوه ياماجيللا .. إنهم كلاب !

وكان اليساندرو قلما يتحدث بمثل هذه الحرارة ، ولكن ما حدث لقومه أخيراً أشعل فى عروقه نيران الاحتقار والحقد التى ما كانت لتنطفىء يوما . ومن

www.ibtesama.com

ثم كان من المستحيل عليه أن يثق بأمريكى بعد ذلك . وكانت هذه الكلمة بمفردها ترمز فى نظره إلى الخداع والقسوة . وقالت رامونا :

ـ لا أعتقد أنهم جميعا بمثل هذا السوء يا اليساندرو . لابد أن بينهم رجالا شرفاء . ألا ترى هذا .

فصاح اليساندرو بحدة :

ـ أين هم إذن ؟ أين هؤلاء الشرفاء ، إن بين قومى رجالا أشرارا حقا ، ولكن العار يجللهم دائما وكان أبى يعاقبهم . بل أهل القرية جميعا كانوا يعاقبونهم . فإذا كان بين الأمريكيين رجال شرفاء لايخدعون ولا يقتلون ، فلماذا لم يطاردوا هؤلاء اللصوص ويعاقبوهم . ثم كيف يضعون القوانين التى تمكنهم من الاحتيال على غيرهم ؟ إنه القانون الأمريكى الذى اغتصب تيميكيولا منا وأعطاها لهؤلاء الناس . إن القانون فى جانب هؤلاء اللصوص . لايا ماجيللا ؟ إنه شعب سارق . هذا هو اسمه الحقيق . . شعب يسرق ويقتل من أجل الذهب . أليس هذا الاسم جديراً بهذا الشعب الذى يبلغ من الكثرة ماتبلغه الرمال فى قاع البحر ؟

وأجابت رامونا قائلة :

ـ هذا ما اعتادت أن تقوله السنيورة . تقول إنهم لصوص ، وإنها تتوقع فى كل يوم أن ترى المزيد منهم ومن قوانينهم ليأخذوا المزيد من أرضها ، لقد كان لها يوما ضعف ما لها من الأرض الآن .

ـ نعم .. أعرف هذا .. وقد أخبرنى به أبى . لقد كان مع الأب بيرى عندما كان الجنرال مورينو على قيد الحياة ، وكانت أراضيه تمتد إلى البحر . .

www.ibtesama.com

الأراضي التي سرنا فيها خلال الليلة التالية ياماچيللا .

— نعم . . كانت تمتد حتى البحر . . هذا ما اعتادت أن تقوله السنيورة ، حتى البحر ، أو ، البحر الجميل ، هل سيمكننا أن نراه من سان باسكوبل يا اليساندرو ؟ .

ـ لا يا ماچيللاتى . . إنه جد بعيد ، وإن سان باسكو بل فى الوادى ، وتدور حولها التلال كالجدران ولكنها أرض طيبة يا ماچيللا ، وسوف تحبينها . ولسوف أبنى هناك بيتا يا ماچيللا . ولسوف يساعدنى الأهالى هناك . . جميعاً ، هذا هو شأن قومى . وفى يومين سيكون قد تم بناؤه ، إلا أنه سيكون مكانا لا يليق بماچيللاتى .

قال اليساندرو هذا بقلب حزين . فما أعجبها من رحلة يقوم بها عروسان . ولكن رامونا لم تكن خائفة ، إذ قالت :

ـ إن المكان الذى أكون فيه معك ، أفضل عندى من أعظم القصور جمالا فى العالم إذا خلت منك يا اليساندرو .

ـ ولكن ماچيللاتى تحب الأشياء الجميلة . لقد عاشت حياتها كلها .

فضحكت رامونا بمرح وقالت :

— أوه . . ما أقل ما تعرف يا اليساندرو عن كيف تحيا الملكات ! لم يكن فى بيت السنيورة أشياء جميلة ، ولكنها كانت مريحة فقط . وإن البيت الذى ستبنيه ، أستطيع أن أجعل كل شىء فيه مريحا على هذا النحو . وإن امتلاك بيت ضخم مثل بيت السنيورة لا يجلب إلا الجهد والتعب . وقد اعتادت مرجريتا

أن تشعر بالإرهاق الشديد وهى تكنس غرفات لايقيم فيها أحد إلا تماثيل ولوحات قديسى إرسالية سان لويس راى القديمة يا اليساندرو ولشد ما أعنى لو استطعنا أن نأتى بتمثال واحد فقط ، تمثال القديس فرنسيس أو السيدة العذراء ، لنضعه فى بيتنا ! إن هذا ما أفضله على أى شىء فى العالم . وإنه لشىء جميل أن ينام الإنسان والسيدة العذراء قريبة من فراشه . إنها أحيانا تتكلم مع الإنسان فى أحلامه .

وركز اليساندرو نظرات حادة متسائلة على رامونا وهى تنطق بهذه الكلمات . لأنها حين تتكلم على هذا النحو ، كان يشعر حقا كأن مخلوقا من عالم آخر قد هبط ليقيم بجواره . وقد قال أخيرا :

— إنى لا أدرى كيف أشعر نحو القديسين بشعورك ياماچيللا . إنى خائف منهم . ولعل السبب أنهم يحبونك ، ولا يحبوننا . هذا ما أعتقده ياماچيللا . وأعتقد أيضا أنهم غير راضين عنا ، ولا يذكروننا بالخير أمام الله وهذا ما علمه لنا الآباء عن مهمة القديسين فى السماء . إنهم يبتهلون من أجلنا لله وللسيدة العذراء ، وللسيد المسيح . وإنه لمن المستحيل ، كما ترين أن يكونوا قد ابتهلوا من أجلنا ، ثم يحدث ما حدث لنا فى تيميكيولا . ولست أدرى على أى وجه أساء قومى إليهم .

فردت رامونا قائلة فى اهتمام :

— أعتقد أن الأب سالڤيرديرا سيقول إن الخوف من القديسين خطيئة يا اليساندرو . وكثيرا ما قال لى إنه من الخطيئة أيضا أن يشعر

الإنسان بالتعاسه . وهذا ما منحني كثيرا من الشعور بالبؤس لأن السنيورة لم تكن تحبني . .

ثم استطردت تقول وهي تزداد تحمسا :

ـ وحتى إذا لم يحدث للناس إلا الشر يا اليساندرو ، فهذا لا يعني أن القديسين لا يحبونهم ، لأن القديسين أنفسهم حين كانوا في هذه الدنيا ، فإننا جميعا نعرف ماعانوه من عذاب . لقد استشهدوا جميعا تقريبا . تذكر ما عانته القديسة كاترين ، والقديسة المباركة آينز ، إننا لا نستطيع أن نعرف ، عن طريق ما يحدث لنا في هذه الدنيا ، ما إذا كان القديسون يحبوننا ، أو إذا كنا سننعم برؤية السيدة العذراء .

ـ إذن كيف نعرف ؟

ـ بما نشعر به في أعماق قلوبنا يا اليساندرو ، تماما كما كنت أعرف أنا طوال الوقت عند ما لم تأت ، أنك كنت تحبني . كنت أعرف هذا بقلبي وسوف أعرفه دائما مهما حدث وحتى إذا مت ، فسوف أعرف أنك تحبني ، وكذلك ستعرف أنت أنني أحبك .

فقال اليساندرو مفكرا في كلماتها :

ـ نعم هذا حق ، ولكن ليس من المحتمل ياماجيلا أن يكون تفكيرنا عن القديس مثل تفكيرنا عن شخص نراه ونسمع صوته ، ونلمس يده .

ـ لا . . لا يحدث هذا تماما فيما يتعلق بقديس . . ولكنه ممكن الحدوث

www.ibtesama.com

مع السيدة العذراء المباركة يا اليساندرو . إننى واثقة بهذا ، و إن تمثالها فى غرفة نومى فى بيت السنيورة كان دائما بمثابة الأم لى . ومنذ طفولتى وأنا أخبرها بكل ما أفعله . وقد ساعدتنى هى فيما ينبغى أن آخذه معى عند رحيلى من البيت . لقد ذكرتنى بأشياء كثيرة كنت سأنساها . . لولاها . .

فقال اليساندرو فى رهبة وخشوع :

ـ هل سمعتها تتكلم ؟ !

فأجابت رامونا بثقة :

ـ لم أسمعها تتكلم ، ولكننى كنت أدرك ماتقوله لى دون أن تتكلم . إن إحساس الإنسان حين ينام فى غرفة معها ، يختلف عن إحساسه عند مجرد رؤيته لها فى الكنيسة . أوه . . . إننى لم أكن أشعر بغير السعادة مادامت معى فى غرفتى .

فهتف اليساندرو قائلا بتحمس دينى :

ـ إننى على استعداد للعودة لأسرقها وآتى بها إليك يا ماجيللا .

فصاحت رامونا قائلة:

ـ يا للعذراء المقدسة ! لاتنطق بمثل هذه الكلمة . إنك لتسقط ميتا لو وضعت يدك عليها. بل إنى لأخشى أن يكون مجرد التفكير فى شىء كهذا خطيئة.

فقال اليساندرو :

ـ يوجد تمثال صغير لها فى فجوة بجدار منزلنا . وقد وصل إلينا من إرسالية سان لويس راى. ولست أدرى ماذا حدث له ـ هل تركه قومى ، أم أخذوه مع حاجيات أبى إلى باسانجا. إننى لم أره هناك ، ولكننى سأبحث عنه حين أعود .

www.ibtesama.com

فصاحت راموناً قائلة :

— تعود ؟ ماذا تقول يا اليساندرو ؟ أتعود إلى باسانجا ؟ هل ستتركني يا اليساندرو ؟

وأحست رامونا بشجاعتها تخذلها عندما سمعت اليساندرو يتحدث عن تركه لها . ومن ثم تحولت فى لحظة ، فى لمحة بصر ، من فتاة آمنة مطمئنة ، مشرقة الوجه تحمل أعباء الحياة بأجنحة الأمل والإيمان ، إلى طفلة جزعة ، خائفة ، مرتاعة تبكى من فرط الهلع وتتعلق بأقرب يد إليها .

— بعد فترة ما ياعزيزتى ماچيللا . . بعد أن تألفى حياتك الجديدة يجب أن أذهب لأعود بالمركبة وبالأشياء القليلة التى تخصنا . فهناك السرير الجلدى الذى كان للأب بيرى وأعطاه لأبى . ولاشك أن ماچيللا ستحب النوم عليه ، وقد كان أبى يعتقد أنه مبارك .

— مثل السرير الذى صنعته لفيليب ؟

— نعم ، ولكن ليس فى مثل حجمه . فقد كانت الماشية فى تلك الأيام أصغر حجما مما هى الآن . ولهذا فهو ليس فى اتساع سرير السنيور فيليب . وهناك أيضا مقاعد من الإرسالية ، ثلاثة ، منها واحد رائع كالذى كان فى الشرفة ببيت السنيورة . وكانت قد أعطيت لأبى . وكتب فى للوسيقى — كتب جميلة رائعة التجليد . أوه ، أرجو ألا تكون هذه قد ضاعت ياماچيللا . ولو أن چوزيه كان حياً ، لاهتم بأمر هذا كله . ولكن الذى حدث بسبب الارتباك والفوضى أن ألقيت كل أمتعة الأهالى فى المركبات بحيث لم يكن أحد يعرف

أين متاعه من أمتعة الآخرين . على أن الأهالى يعرفون متاع أبى وكتب الموسيقى . فإذا لم يكن الأمريكيون قد سرقوها ، فسوف يكون كل شىء فى أمان . إن قومى لا يسرقون ، ولم يكن فى قريتنا كلها إلا لص واحد ، وقد أمر أبى بجلده حتى فر هاربا ولم يعد قط . وقد سمعت أنه يقيم فى سان جاكنتو ولا يزال يحترف السرقة رغم كل مانااله من جلد . وأعتقد أن السرقة إذا كانت فى الدم ، فلا شىء يبرىء صاحبها منها ياماچيللا .

فقالت ماچيللا وهى تضحك برفق ، ولكن الدموع كانت فى صوتها :

— مثل الأمريكيين ! إن الجلد لا يشفيهم .

وكان لا يزال على انبلاج الفجر ساعة حين وصلا إلى قمة التل الذى يشرف على وادى سان باسكويل وكانا قد اجتازا فى طريقهما تلين وواديين آخرين ، ولكن هذا الوادى القابع أمامهما ، كان أوسع الوديان الثلاثة ، وكانت التلال المحيطة به أقل انحدارا وارتفاعا وأخصب مرعى مما رأيا من قبل . وكانت تمتد نحو الشرق ، والشمال الشرقى سلاسل جبلية مرتفعة كانت قممها تغيب فى السحاب . وكانت السماء كلها مكسوة الصفحة بالضباب والسحب .

وقال اليساندرو :

— لو كنا فى فصل الربيع ، لأنذر هذا الجو بالمطر . ولكننى أعتقد أن الأمطار لا يمكن أن تسقط الآن .

فضحكت رامونا قائلة :

www.ibtesama.com

— لا . . ان يسقط المطر حتى نفرغ من بناء منزلنا . هل سنشيده بالآجر؟

— لا يا عزيزتى ماجيللا . . سيكون « بالبوص » أولا ، وإن جدران « البوص » تجعل البيت مريحاً فى فصل الصيف ، وقبل أن يحل الشتاء ، سأبنى بيتاً آخر بالآجر .

— أتبنى بيتين أيها المتلاف إليساندرو ؟ ! إذا كان بيت « البوص » جيداً ، فلن أسمح لك ببناء بيت آخر يا اليساندرو .

وكانت لحظات مرح رامونا تحير اليساندرو ، ذلك أنه بمزاجه المادئ ، وطبيعته الحزينة كان يفاجأ بالتغيير السريع الذى يطرأ عليها ، وكأنها تتحول فجأة إلى طائر أو مخلوق جميل يخرج من حياتها البشرية الشاحبة و يسمو فوقها .

وقال ببطء :

— إنك تتحدثين كالطيور حين تغرد يا ماجيللا . لقد أحسنت بتسميتك ماجيل . ولو أن يمامة الغاب ليس فى صوتها من البهجة مثلما فى صوتك . إنها تقول فقط بالهديل إنها تحب وتنتظر .

فقالت رامونا وهى تبسط ذراعيها نحوه :

— وهذا ما أقوله أيضاً يا اليساندرو .

وكان الجوادان يسيران ببطء جنبا إلى جنب . وقد توطدت أواصر الصداقة بينهما بحيث أصبحا يؤثران السير جنبا إلى جنب . وكان لـ « بابا » و بنيتو من الإحساس الغريزى ماجعلهما يشعران بالحب القائم بين راكبيهما ، وكان بنيتو قد عرف صوت رامونا وغدا يستجيب لها بسرور . وكان «بابا» منذ مدة طويلة قد

www.ibtesama.com

تعلم كيف يقف عندما تضع سيدته يدها على كتف اليساندرو ، ومن ثم فقد توقف الآن ، ومضت لحظة طويلة قبل أن يسمع الإذن باستئناف المسير .

وهتف اليساندرو قائلا وهو يمسك كلتا يديها بين يديه و يضمهما على وجنتيه ، ثم على عنقه ، ثم على فمه :

— ماجيللا ، ماجيللا ، لو طلب القديسون من اليساندرو أن يغدو من أجل ماجيللا شهيداً كأولئك الذين تحدثت عنهم الآن ، لأمكن لها أن تعرف إذا كان اليساندرو يحبها أم لا ؟ ولكن ماذا يستطيع اليساندرو أن يفعل الآن؟ ماذا ، نعم ، ماذا ؟ إن ماجيللا تعطى كل شيء ، واليساندرو لا يعطى شيئاً .

ثم لمس يديها بجبينه ، قبل أن يعيدهما برفق إلى جيد «بابا» .

وملأت الدموع عيني رامونا . كيف يمكنها أن تعيد إلى قلب هذا الشاب المحزون ، والعاشق المرتاب ، البهجة والاستبشار ، وأخيرا قالت وهى تشعر رغما عنها بشعوره المكتئب :

— إن في مقدور اليساندرو أن يفعل شيئاً واحداً لماجيللا . . وهو ألا يقول أبدا إنه لا يملك شيئاً يعطيه لها . لأنه حين يقول هذا ، يجعل ماجيللا كاذبة لأنها قالت إنه بالنسبة لها العالم كله — إنه العالم كله الذى تريده . فهل ماجيللا كاذبة ؟

وقال اليساندرو وهو فى نشوة ، نصفها سرور ، ونصفها ألم :

— إن ماجيللا لا تستطيع أن تكذب . إنها كالقديسين ، وإن اليساندرو ملكها .

www.ibtesama.com

ولما هبطنا إلى الوادى ، وجدنا القرية كلها فى حالة نشاط ، ذلك أن موسم قطف العنب كان قد انتهى ، وأصبح فى مقدور المرء أن يرى فى كل مكان السلال المسطحة الكبيرة ، مملوءة بالعنب الموضوع فى الشمس ليجف . وكانت النسوة العجائز والأطفال يقلبونها ، أو يطحنون حبوب ثمار البلوط فى أوان حجرية عميقة ، وغيرهم يضربون أعواد نبات اليوكا و يضعونها فى الماء لتتشرب. أما النساء الطاعنات فى السن ، فكن جالسات فى الشمس يصنعن السلال . ولم يكن ثمة رجال كثيرون فى القرية يومذاك ، إذ ذهب فريقان كبيران منهم للعمل ، فريق لجز أصواف الغنم فى موسم الخريف ، والآخر يعمل فى إقامة خزان كبير للرى بمنطقة سان برناردينو .

وكان يمكن للمرء أن يرى ، فى أنحاء مختلفة من القرية ، قطعان الماعز أو الماشية وهى تساق إلى المراعى فوق التلال . وكان بعض الرجال يعملون فى حرثه الأرض وجماعات عديدة منهم يقيمون المنازل من أعواد البوص . وقال اليساندرو:

— إن بينهم جماعة من أهل قرية تيمكيولا يبنون لأنفسهم منازل جديدة هنا . أترين هذه الأكوام من حزم البوص الأقتم لونا من غيرها ؟ إنها أسقف بيوتهم القديمة جاءوا بها من تيميكيولا . هاهو ذا بدرو قادما .

وقال هذا فى صيحة ابتهاج حين رأى رجلا راكبا جوادا فاخرا كان ينتقل من مكان إلى آخر فى القرية ، ثم إذا به ينطلق مسرعا نحوهما . وما كاد بدرو يعرف اليساندرو حتى وثب من فوق جواده وقابله اليساندرو بالمثل ، ثم انطلق كل منهما نحو الآخر ، ثم تعانقا فى صمت ، واقتربت رامونا منهما ، وقالت وهى تمد يدها :

www.ibtesama.com

— بدرو ؟ !

وحياها بدرو وهو يشعر بالابتهاج والدهشة لتحيتها هذه التى تنم عن اطمئنانها إليه ، ثم استدار إلى اليساندرو وقال له بلغتهما :

— من هى هذه الفتاة التى جئت بها والتى تعرف اسمى ؟

فقال اليساندرو بنفس اللغة :

— إنها زوجتى . لقد تزوجنا الليلة الماضية على يد الأب جاسبارا . إنها من بيت السنيورة مورينو . وسوف تقيم فى سان باسكوبل إذا كان لديكم أرض لى كما سبق أن أخبرتنى .

ولم يبد على وجه بدرو شىء من انفعالات الدهشة التى أحس بها ، إنما قال ، وأمارات الترحيب والحفـــاوة ترتسم على محياه وترن فى نبرات صوته :

— حسنا .. إن لك مكانا هنا ، وإنك على الرحب والسعة .

ولكن عندما سمع رامونا تتحدث بالإسبانية الرقيقة ، وعندما ترجم له اليساندرو حديثها قائلا : « إن ماجيل لا تعرف غير الإسبانية ، ولكنها سرعان ما ستتعلم لغتنا القومية » ارتسمت على وجهه أمارات الاضطراب ، وقال وهو يشعر بالقلق من أجل اليساندرو :

— أليست هندية إذن ؟ من أين جاءت باسم ماجيل ؟

فقال اليساندرو وهو يرسل إليه نظرة سريعة لها دلالتها :

www.ibtesama.com

— إنها هندية من ناحية الأم ، وهى تنتمى بكل عواطفها لشعبنا ، وليس لها أحد فى هذه الدنيا غيرى وهى من أحباب السيدة العذراء يابدرو. إنها سوف تساعدنا. أما اسم ماچيللا ، فقد أطلقته عليها لأنها مثل يمامة الغاب ، وهى مسرورة بترك اسمها القديم إلى الأبد ، لـكى تحمل هذا الاسم الجديد المعروف فى لغتنا.

وعلى هذا النحو بدأت رامونا حياتها الجديدة فى القرية الهندية . بدأتها بهذه المقدمة وابتسامتها . . وربما بابتسامتها على الأكثر. فحتى الأطفال لم يكونوا خائفين منها. أما النساء ، فرغم خجلهن فى بادىء الأمر بسبب مظهرها الرفيع وملابسها التى كانت من نوع وطراز لا يعرفهما إلا الطبقة العالية ، فإنهن سرعان ماتصادقن معها ، وأكثر من هذا أدركن من كل كلمة ، ومن كل نبرة ، ومن كل نظرة أنها جزء من اليساندرو ، فإذا كان اليساندرو جزءا منهن ، فهى أيضا جزء منهن . ولو أن رامونا سمعت مايقلنه عنها فيما بينهن ، لازدادت تأثراً وحبا لهن. وكن فى هذه الأحاديث يعجبن كيف أمكن لفتاة جميلة مثلها ، منتمية إلى بيت مورينو الذى يعرفنه جميعا، أن تغدو حبيبة وزوجة لاليساندرو؟ لابد أن القديسين — هكذا فكرن ببساطتهن — قد أرسلوها كبشرى طيبة للشعب الهندى. وقبل حلول المساء أقبلن يحملن ، فى محفة يدوية ، أكبر نساء القرية سنا لتراها ، ذلك أن المرأة العجوز أرادت أن ترى هذه الفتاة الجميلة الغريبة قبل أن تغيب الشمس ، لأنها ، كما قالوا ، كانت تعتقد بسبب كبر سنها ، أن صباح اليوم التالى لن يشرق عليها. وكذلك أردن أن يعرفن رأى المرأة العجوز فى رامونا ولما رآهن اليساندرو مقبلات ، فهم الموقف ، وأسرع وشرحه لرامونا ، وفيما هو يتحدث كان الموكب قد وصل ، وكانت المرأة العجوز فى محفتها العجيبة ، قد وضعت على

www.ibtesama.com

الأرض فى سكون أمام رامونا الجالسة تحت شجرة التين الضخمة التى يمتلكها بدرو . وتراجعت النسوة اللاتى حملنها ، وجلسن على بعد خطوات منها . وتحدث اليساندرو أولا ، وبكلمات قليلة أخبر المرأة العجوز بنسب رامونا ، وبزواجه منها ، وباسمها الجديد الذى أطلقه عليها ثم قال :

— أمسكى بيدها ياعزيزتى رامونا إذا لم تكونى خائفة .

ورغم أن اليد العجفاء التى امتدت إليها ، فى ترحيب ، كانت لاتكاد تنتمى إلى الأيدى البشرية ، فقد أخذتها رامونا بين يديها برفق وتوقير وهى تقول :

— قل لها يا اليساندرو على لسانى إننى أحنى رأسى للعمر الكبير فى احترام ، وإننى أرجو إذا أراد الله أن يكون لى مثل هذا العمر فى الدنيا ، وأن أكون مثلها موضع احترام الجميع ، مثلما يحترمها هؤلاء .

وأرسل اليساندرو إلى رامونا نظرة اعتراف بالجميل وهو يترجم حديثها — الذى كان متلائما تماما مع أفكار الهنود ومشاعرهم . وسرت همهمة السرور بين جماعة النسوة الجالسات عن قريب ، أما المرأة العجوز فإنها لم تجب ، وإنما ظلت ممسكة بيد رامونا ومتطلعة إلى وجهها تتأمله . واستطردت رامونا تقول :

— قل لها إننى أسألها : هل يمكن أن أقوم لها بأية خدمة ؟ أخبرها بأننى أريد أن أكون بمثابة الابنة لها إذا سمحت لى بذلك .

وقال اليساندرو لنفسه وهو يترجم حديثها إلى لغة اللويزينو : « لا شك أن السيدة العذراء هى التى توحى لماجيلا بهذه الكلمات » .

www.ibtesama.com

ومرة أخرى سرت همهمة السرور بين النسوة ، ولكن المرأة العجوز بقيت على صمتها ، أما رامونا فقد أضافت قائلة :

— وقل لها إنك ستكون بمثابة الابن لها .

وقال اليساندرو هذا . ويبدو أن المرأة العجوز كانت تنتظر أن تسمع هذه الكلمات الأخيرة ، لأنها رفعت ذراعها ، وقالت :

— حسنا ! إننى أمكما . وإن رياح الوادى سوف تحبكما . وإن العشب الأخضر سوف يرقص مرحبا بكما . وإن الابنة سوف تنظر فى وجه الأم كل يوم . والآن سأنصرف .

ثم أشارت إلى حاملاتها ، فحملنها إلى بيتها .

وترك المنظر أثرا عميقا فى نفس رامونا . وبدا لها أن أبسط تصرفات هؤلاء الناس تحمل أبلغ وأعجب المعانى ، إنها نفسها لم تكن على جانب كبير من العلم أو الثقافة وتجارب الحياة بحيث تعرف لماذا تأثرت إلى هذا الحد . . بحيث تعرف أن مثل هذه العبارات الرقيقة يكون لها أكبر الأثر فى نفوس هؤلاء الناس البدائيين حين تقال بينهم . وقد كان تأثرها ، مع هذا ، راجعا إلى أنها لم تحاول أن تحلل أو تفسر الموقف .

وقالت :

— لسوف أذهب وأراها كل يوم . ولسوف تكون لى بمثابة الأم التى لم أرها قط .

www.ibtesama.com

وقال اليساندرو :

— بل يجب أن نذهب معا كل يوم . وإن ماقلناه يعتبر عهدا قطعناه على أنفسنا أمام هؤلاء القوم ، ولا يمكن النكث به .

وكان بيت بدرو فى وسط القرية ، على مكان مرتفع بعض الشيء . وكان عبارة عن أربعة منازل طريفة الشكل ، ثلاثة منها من « البوص » ، والرابع من الآجر . وكان هذا الأخير منزلا مريحا مكونا من غرفتين مرصوفتى الأرضية ، وله سقف من القرميد ، وكان هذا يعتبر ترفا فى وادى باسكويل . وكانت شجرة التين الضخمة المشهورة فى كل أنحاء المنطقة ، تقوم فى منتصف المنحدر ، ولكن أغصانها كانت تظلل البيوت الثلاثة المبنية « بالبوص » . وعلى بعض أغصانها الخفيضة ، أقام بدرو برجا للحمام المصنوع من القش والطين ، والمكون من خلايا كثيرة ، بحيث كانت الشجرة تبدو أحيانا كأنها مرتفع لآلاف الحمائم التى تملأ جوها بالهديل . وكان هنا وهناك ، و بين المنــــازل ، سلال ضخمة مصنوعة من الأغصان الصغيرة ، كما يصنع النسر عشه ، وكانت بمثابة أجران خارجية تحفظ فيها حبوب ثمار البلوط « الاكرن » والشوفان ، والشعير والقمح ، وقد بدا لرامونا — ولها الحق — أن هذه السلال أجمل شيء رأته فى حياتها .

وقالت لاليساندرو :

— هل من الصعب صنعها يا اليساندرو ؟ أتستطيع أن تصنع مثلها ؟ إننى سأكون فى حاجة إلى عدد كبير منها .

— سيكون لك كل ما تريدين يا ماچيللا . . ولسوف نذهب معا لنحصل

www.ibtesama.com

على الأغصان الوليدة . ويمكنني القول إن في مقدوري أن أشترى بعضها من أهل القرية ، فإن صنع الواحد الكبير منها لا يستغرق أكثر من يومين .

فهتفت رامونا قائلة :

— لا .. لا تشتر إحداها . إنني أريد أن يكون كل شيء في بيتنا من صنع أيدينا .

ومرة أخرى لمست رامونا ، بهذه الكلمات ، وتراً حساساً أثار السرور في قلب اليساندرو .

وتصادف ، لحسن الحظ ، أن البيت المصنوع من « البوص » ، القريب من برج الحمام كان خاليا . ذلك لأن رامون ، شقيق بدرو ، الذي كان يقيم فيه كان قد رحل مع زوجته وطفله إلى سان برناردينو ليعمل في فصل الشتاء . وقد عرض بدرو ، بسرور بالغ ، على اليساندرو أن يقيم في هذا البيت حتى ينتهي من بناء آخر خاص به . وكان في الواقع بيتا صغيراً جداً ، رغم أنه مكون من بيتين يتصلان بممر في السقف المشترك ، وفي ممر السقف هذا كانت جوانا زوجة رامون ، تحتفظ بأوانيها وأوعيتها القليلة وموقدها الصغير ، إلا أن البيت كله بدا لرامونا كأنه بيت أطفال . ولهذا قال اليساندرو لها في خجل :

— هل يمكن لماجيلا أن تعيش في بيت صغير كهذا فترة ما ؟ إنها فترة لن تطول ، وإن في القرية بيوتا جاهزة يمكن شراؤها .

ولكن وجهه انبسط حين قالت رامونا بابتهاج :

— لسوف أكون فى غاية الراحة هنا ، وسأشعر كأننا زوجان من الحمام بين حمائم البرج القريب .

ولم يسع اليساندرو إلا أن يهتف بكلمة واحدة :

— ماجيل ! !

وكانت الكنيسة الصغيرة تقع على بعد خطوات قليلة ، وقد علق أمامها ناقوسها البرونزى العتيق الذى كان فى إرسالية سان دييجو ، بين دعامتين من الخشب . ولما قرأت رامونا تاريخ « ١٧٩٠ » على جانبه وسمعت أنه من بقايا كنيسة إرسالية سان دييجو ، خامرها إحساس بالأمن فى ظله . وقد قالت فى هذا الشأن :

— تصور يا اليساندرو كم أرسل هذا الناقوس — بلاشك — رنينه داعيا المصلين إلى قداس الأب المبارك جونبيرو نفسه ، إنه بركة للقرية ، وإنى أريد أن أعيش حيث يمكننى رؤيته دائماً . إنه سيكون بمثابة تمثال قديس فى البيت .

وكانت رامونا كلما أشارت فى حديثها إلى تماثيل القديسين ، ازدادت رغبة اليساندرو فى الحصول على واحد من أجلها ، ورغم أنه لم يقل شيئاً ، إلا أنه قرر فى ذهنه أن يفعل هذا . لقد ذهب ذات مرة مع جماعته من حلاق الغنم إلى سان فرناندو ، وهناك رأى فى إحدى غرفات أبنية الإرسالية القديمة عشرات من تماثيل القديسين مكومة فى الركن بلا نظام . وكانت كنيسة سان فرناندو متداعية الأركان ، وكل ما بقى من مقتنياتها قد ترك فى رعاية مكسيكى ليس بالغ الحذر ، وليس متدينا إلى حد قليل أو كثير ، ومن ثم لم يكن ليزعجه أن يتخلى

www.ibtesama.com

عن تمثال أو اثنين من تماثيل القديسين ، هذا مافكر فيه اليساندرو ، دون أى استهانة بهؤلاء القديسين أيضا ، بل على العكس ، لأن ما سيحدث هو تقديم أعظم الاحترام للقديس الذى سينقل تمثاله من مكان لا رعاية فيه ، إلى مكان آخر يجد فيه الرعاية والتقديس كل يوم . وآه لو لم تكن كنيسة سان فرناندو بعيدة ، وتماثيلها الخشبية ثقيلة جدا . ولكن لسوف يأتى بواحد منها على كل حال ، لأنه لابد أن يكون لماچيللا تمثالها المنشود ، وان تحول المسافة أو أية عقبة دون اليساندرو والحصول على الأشياء القليلة التى يمكن أن يقدمها لماچيللا . إلا أنه أخفى الأمر عنها لأن سرورها سيكون مضاعفا حين يفاجئها بهدية كهذه . وقد أخذ يفكر فى ابتهاج - كأى شاب عصرى - فى مدى سرورها حين تستيقظ ذات يوم وتجد تمثال القديس بجوار فراشها ، وكيف أنها ستظن ، فى أول الأمر ، أن ماحدث ليس إلا معجزة - نعم لسوف يخطر هذا ببال عزيزته ماجيللا المتدينة التى ستكون فى هذه الحالة أكثر منه إيمانا بالغيبيات رغم تفوقها عليه فى العلم والمعرفة . إن كل ما تعلمته لم يدربها على نوع من التفكير الذى تدرب عليه هو - غير المتعلم - بانفراده الدائم مع الطبيعة .

وقبل انقضاء يومين على اليساندرو فى باسكويل ، تلقى نبأ سعيدا فاق كل ما كان يأمله ، وجعله يخرج بعض الشىء من حالة التشاؤم المسيطرة عليه .

وقال بدرو :

— أنت تعرف أن لدى قطيعا من ماشية أبيك ونحو مائة من الأغنام .

وهتف اليساندرو قائلا :

www.ibtesama.com

ـــ يا للعذراء المقدسة . أتعنى ماتقول ؟ كيف حدث هذا . لقد قالوا لى إن جميع ماشيتنا وأغنامنا استولى عليها الأمريكيون .

فرد بدرو قائلاً :

ـــ نعم هذا ماحدث ، لقد أخذوا كل ما كان فى تيميكولا . ولكن والدك كان قد أرسل إلى فى الربيع يسألنى هل من الممكن أن أرعى له قطيعا مع قطعاننا فى الجبال ، لأنه يخشى أن تخذله المراعى فى تيميكيولا ، وأن الموجود منها لا يكاد يكفى حيوانات الأهالى الذين لا يستطيعون مبارحة القرية ، وهكذا أرسل القطيع نحو خمسين رأسا من الماشية ، وقد ولدت الأبقار الكثير من العجول . وكذلك أرسل قطيعا صغيرا من الأغنام ، نحو مائة رأس - كما قال رامون ـــ وقد رعت مع قطعاننا طيلة الصيف ، وترك رامون رجلا ليوالى رعايتها الآن ، وسوف يأتى بها فى الأسبوع القادم لجز أصوافها .

وكان اليساندرو قد اختفى ، قبل أن يفرغ بدرو من حديثه ، وانطلق يعدو كالظبى ، وشيعه بدرو بنظرات دهشة ، ولكن حين رآه يدخل إلى الكوخ الصغير ، أدرك حقيقة الموقف ، وارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة . وكان لم يقتنع بعد بأن زواج اليساندرو سيكون موفقا ، وقد قال لنفسه : «ماقيمة هذا العدد الضئيل من الغنم فى نظرها ؟ »

واندفع اليساندرو لاهث الأنفاس إلى غرفة رامونا وقال لها هاتفا :

ـــ ماجيللا . . ياماجيللتى . . إن لى ماشية وأغناما ، تبارك القديسون . إننا لسنا متسولين كما سبق أن قلت .

www.ibtesama.com

فقالت رامونا بتلطف :

ــ لقد أخبرتك أن الله سيطعمنا ياعزيزى اليساندرو .

فصاح قائلا وهو مدهوش من هدوئها :

ــ إنك لم تعجبي ، ولم تسألى كيف حدث هذا . أتظن ماچيللى أن الأغنام أو الماشية يمكن أن تهبط علينا من السماء ؟

ــ لا . . ليس هذا ماتراه العين ، ولكن القديسين الذين يعيشون فى السماء يمكنهم أن يفعلوا كل مايريدون على الأرض . ومن أين أتت هذه الماشية وكيف أصبحت ملكا لنا ؟

فلما أخبرها ، ارتسمت أمارات الجد على وجهها وقالت :

ــ أتذكر ليلتنا تلك عند خميلة الصفصاف عندما كدت أموت حزنا لأنك كنت ترفض أن تصحبنى ، لقد كنت ضعيف الإيمان بأننا سنجد طعامنا . وقلت لك عندئذ إن القديسين لايتخلون قط عن الذين يحبونهم و إن الله سوف يطعمنا . وحتى فى تلك اللحظة ، وأنت لاتدرى ، كانت قطعانك من الماشية والأغنام ترعى فى الجبال وفى حفظ الله ! فهل سيؤمن اليساندرو العزيز بعد هذا ؟

وألقت ذراعيها حول عنقه وقبلته :

وقال اليساندرو :

www.ibtesama.com

— صدقت . لسوف أومن بعد هذا بأن القديسين يحبون ماچيللى .

ولكنه قال لنفسه وهو يعود بخطوات أكثر بطئا إلى بدرو :

— إن ماچيللا لم ترتيميكيولا . ترى ماذا كانت تقول عن القديسين لو أنها رأت ماحدث فى القرية ، وكيف أخذ أهلها يموتون جوعا ! إن القديسين يبتهلون من أجلها فقط ، ولكنهم غاضبون على قومى .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٢٠)

مر عام ونصف عام ، وانتهت مواسم جز أصواف الغنم وعصر العنب إلى نبيذ في قرية سان باسكوبل ، ولم يعد بيت اليساندرو الجديد يبدو — بعد أن تعرض للأمطار الغزيرة — جديدا . وكان يقوم في الجانب الجنوبي من الوادي أبعد كثيراً ، كما شعرت رامونا ، عن الناقوس المبارك . ولكن لم يكن ثمة أراض كافية لزراعة الحنطة بالقرب منه . ولكن كان في مقدورها أن ترى الكنيسة الصغيرة ، ودعائم الناقوس ، بل والناقوس نفسه في الأيام الصحو ، وكان البيت صغيرا ، لايتسع لكل ماتحس به من سعادة وابتهاج كما قالت لاليساندرو حين ذهب بها إليه قائلا في حيرة : « إنه صغير ياماچيللا ، صغير جدا » وكان يتذكر بمرارة ، وهو يقول هذا ، بيت السنيورة مورينو واتساع غرفه ، وغرفة رامونا به . وقال مكررا « صغير جدا » .

وضحكت هى قائلة :

— إنه أصغر من أن يتسع لسعادتنا وبهجتنا يا اليساندرو ، ولكنه أكثر اتساعا لإقامة اثنين فقط فيه .

وكان يبدو فى نظر أهالى القرية كقصر بعد أن نسقت رامونا فيه أشياءها القليلة ، وكانت هى نفسها تشعر بالثراء وهى تتلفت حولها فى غرفتيها الصغيرتين. وكانت فيه مقاعد إرسالية سان لويس راى الثلاثة والسريران المصنوعان من الجلد الخام ، وأهم من هذا كله ، التمثال الصغير للسيدة العذراء ، لأن اليساندرو كان قد أعد فجوة فى الجدار — بين رأس السرير والنافذة الوحيدة ، وكانت الفجوة على عمق يكفى لوضع بعض الأوانى الصغيرة أمام التمثال . وقد حرصت رامونا على إنماء نبات الخيار البرى فيها ، حتى أصبحت الفجوة ، بعد ازدهار النبات ، كأنها حوض للزهر . وتحت الفجوة علقت مسبحتها الذهبية ذات التمثال الدقيق المصنوع من العاج . وكانت النساء اللائى يأتين لزيارة رامونا من القرية يطلبن أن تسمح لهن بدخول غرفة نومها للصلاة فيها ، وهكذا أصبحت كمحراب القرية كلها .

وكان ثمة شرفة واسعة ، فى اتساع شرفة بيت السنيورة تقريبا ، تمتد على طوال واجهة البيت الصغير ،وكان هذا هو الشيء الوحيد الذى طلبته رامونا ، لأنها لم تكن قادرة على الشعور بمتعة الحياة المنزلية دون وجود شرفة كهذه ، وبدون عصافير فى سقفها . ولكن العصافير لم تكن قد جاءت بعد . وعبثا حاولت رامونا إغراءها بنثر الطعام لها ، ووضع كسرات الخبز فى فجوات دعائم الشرفة . لقد أبت العصافير أن تقيم أوكارها فى هذه الفجوات ، لأنها لم تعتد

www.ibtesama.com

هذا فى سان باسكويل ، وإنما اعتادت الحياة فى الأخوار ، أما هذا الجانب من الوادى ، فلم يكن فيه من الأشجار مايغريها بالحياة فيه .

وقد قال اليساندرو :

ـــ فى عام أو عامين ، عندما تزرع أشجار الفاكهة ، سوف تأتى جماعات .

وكان اليساندرو قد استطاع بأرباحه من أول موسم لجز الأغنام ، وبثمن بعض ماشيته التى باعها ، أن يشترى كل مايحتاج إليه من آلات وأدوات زراعية ومركبة جيدة وأعنة للخيول ومحراث . وكان « بابا» وبنيتو قد حاولا فى أول الأمر أن يتمردا ـ استنكارا ـ على العمل فى الحقول ، ولكنهما لم يلبثا أن خضعا للأمر الواقع . وكانت رامونا قد تحدثت إلى « بابا » فى هذا الشأن كما لو كانت تتحدث إلى أخ لها . والواقع أنه لولا رامونا لكان هناك شك فى قدرة اليساندرو على إرغام « بابا » للعمل بالحقول . وقد قالت رامونا للجواد وهى تضع حول عنقه القطعة بعد الأخرى من الأعنة :

ـــ ياعزيزى « بابا » . . يا « بابا » اللطيف . . يجب أن تساعدنا ، لأن لدينا أعمالا كثيرة ينبغى أن نقوم بها ، وأنت بالغ القوة ، هل تحبنى يا « بابا » اللطيف ؟

وأخذت تقوده ، وهى تضع يدا على معرفته ، وخدها على وجهه بعد كل بضع خطوات ، ذهابا وجيئة فى خطوط الحرث الأولى .

ـــ يامنيورتى . . يامنيورتى الحبيبة . .

www.ibtesama.com

هكذا كان يفكر اليساندرو بمزيج من الألم والفخر وهو يجرى وراء الجواد، ممسكا بعقود الحراث متطلعا إلى وجهها الضاحك وخصلات شعرها الطائرة .

ولكن رامونا لم تستطع أن تضع يدها كالمعتاد على معرفة جوادها « بابا » فى هذا الشتاء، ذلك لأنه كان لديها عمل آخر جديد داخل البيت . ففى مهد صغير ، صنعه اليساندرو ـ تحت إشراف رامونا ـ من الأغصان المضفرة ـ مثل أجران الحبوب الموضوعة خارج البيت ـ وإن كان أحكم تضفيرا ، بيضى الشكل، مرفوعا عن الأرضية بأربع قوائم من سيقان نبات المانزانيتا الحمراء، فى هذا المهد ، وبين أنداف من الصوف الأبيض الناعم ، ومغطى ببطانية يدوية النسيج ، كان يرقد طفل رامونا البالغ من العمر ستة أشهر قويا ، جميلا ، موفور الصحة، كأى طفل يولد من أبوين يربطهما حب كبير ، وفى أحسن الظروف الصحية الممكنة . وكان هذا الطفل أنثى ، لسرور اليساندرو البالغ ، ولكن رامونا كانت ـ كأم ـ تتمنى أن يكون وليدها البكر ، اليساندرو آخر صغيرا ، ولكن إحساسها هذا لم يلبث أن تلاشى وهى ترنو ، الساعة بعد الأخرى، إلى عينى الطفلة الزرقاوين ـ وقد بلغ من عمق زرقتهما أن كل من يراهما ، كان يلاحظ لونهما هذا الجميل . وقد قال بدرو حين رآها أول مرة :

ـ عيون السماء !

وقال اليساندرو :

ـ كعينى الأم .

وعندئذ ألقى بدرو نظرة دهشة إلى عينى رامونا حيث لاحظ لأول مرة أن لونهما أزرق أيضا . ومن ثم قال :

www.ibtesama.com

— عجبا ! إنها كذلك . كيف لم ألاحظها من قبل .

ثم تساءل فى نفسه عن هذا الأب الذى ورث عينين كهاتين لطفلة ولدت من أم هندية .

« عيون السماء » انتشر هذا الاسم بسرعة بين أهالى القرية ، وإذا رامونا واليساندرو يناديانها بنفس الاسم فى غير وعى ، ولكن عندما تقرر تسميتها رسميا ، أخذا يفكران . وكانت الأنباء قد وردت إلى القرية صبيحة يوم السبت بأن الأب جاسبارا سوف يقوم بالصلاة فى الكنيسة فى اليوم التالى ، وأنه يريد أن يؤتى إليه بجميع المواليد حديثا ليقوم بتعميدهم . ومن ثم جلست رامونا ، واليساندرو ، بجوار الطفلة النائمة إلى ساعة متأخرة من الليل وهما يتناقشان فى الاسم الذى سيطلقانه على الطفلة وقد عجبت رامونا من رفض اليساندرو إطلاق اسم « ماچيللا » عليها ، إذ قال بنبرات حزينة ملأت قلب رامونا بخوف غامض :

— لا يارامونا ، لن يكون هناك قط إلا ماچيللا واحدة .

وتناقشا فى اسم « رامـــونا » واسم « ايزابيللا » واقترح اليساندرو اسم « كارميلا » الذى كانت والدته تسمى به .

وارتعدت رامونا عند ذكر هذا الاسم ، وهى تتذكر المنظر الذى رأته فى مقبرة تيميكيولا . ومن ثم قالت :

— أوه لا . لا . لا — ليس هذا الاسم ، إنه سيء الحظ .

وأنحى اليساندرو على نفسه باللوم ، لأنه نسى بسرعة علاقتها الوحيدة بهذا

www.ibtesama.com

الاسم . وأخيرا قال :

— لقد سماها الأهالى ياماچيللا على ما أظـن . . وأيا كان الاسم الذى سنطلقه عليها فى الـكنيسة ، فسوف يناديها الأهالى دائما باسم « عيون السماء » .

وقالت رامونا :

ـ إذن ليكن هذا اسمها الحقيق .

وتقرر هذا الأمر . وعندما أخذ الأب جاسبارا الطفلة الصغيرة بين يديه ، ورسم على جبينها علامة الصليب ، نطق ، بصعوبة ، مقاطع هذا الاسم باللغـة الهندية التى كانت تؤدى معنى « العيون الزرقاء » أو « عيون السماء » .

وكان الأب جاسبارا قد اعتاد ، كلما جاء إلى قرية سان باسكوبل لإقامة قداس ، أن ينام فى منزل لوماكس صاحب المتجر ومكتب البريد ، الذى كان يقع على مسافة ستة أميال من القرية ، فى وادى برناردو . ولـكن بدرو ، فى هذه المرة ، وبكل فخر ، ركب لاستقباله ، وليقول له إن ابن عمه اليساندرو الذى جاء ليعيش فى الوادى ، والذى يمتلك بيتاً جميلا من الآجر ، يرجو الأب أن يشرفه بالنزول عنده .

وأضاف بدرو إلى ذلك قوله :

— والواقع يا أبى سوف تجد من الراحة والحظوة فيه أكثر مما كنت تجد فى منزل لوماكس ، لأن زوجة ابن عمى تعرف جيداً كيف تستضيفك .

وقال الأب مفكراً :

— اليساندرو . . اليساندرو . . هل تزوج منذ مدة طويلة ؟

www.ibtesama.com

لا يا أبى . . منذ أكثر قليلا من عامين . وقد تزوجا على يديك وهما فى الطريق من تيميكيولا إلى هنا .

— نعم ، نعم . . إننى أتذكر . . لسوف أنزل عندهما .

وهكذا راح ينتظر ، باهتمام غير قليل ، أن يرى مرة أخرى هذين الزوجين اللذين تركا فى نفسه أثراً عميقاً .

وكانت رامونا شديدة الاهتمام والتحمس فى إعداد كل شىء للترحيب بالقسيس ، وقد ذكرها هذا بالأيام الخوالى ، وفيما هى مشغولة بطهو الطعام وغير ذلك من الترتيبات ، كانت دائمة التفكير فى الأب سالفيرديرا وفى احتمال سماع بعض الأنباء عنه من الأب جاسبارا . وكانت هى التى اقترحت استضافة الأب على اليساندرو الذى قال :

— ولكن أين ستنامين أنت مع الطفلة ياماجيللا إذا أعطينا غرفتنا للأب ؟ إننى أستطيع النوم على الأرضية خارج البيت ، ولكن . . أنت ؟

فردت قائلة :

— لسوف أذهب إلى بيت بدرو وأنام مع جوانا يومين ، وليس هذا بالشىء الكثير . وإنه لعار أن ينزل الأب فى منزل رجل أمريكى بينما نمتلك بيتاً جميلا كهذا .

وقلما شعر اليساندرو طوال حياته بهذا الشعور البهيج وهو يمضى مع الأب جاسبارا إلى غرفة نوم رامونا . فالجدران النظيفة البيضاء ، والسرير المرتب ،

www.ibtesama.com

ومفرش المخرمات الرقيق الموضوع على الأغطية والوسائد ، وستائره الوردية الناعمة ، والمقاعد الفاخرة المنقوشة ، ومحراب السيدة العذراء فى الجدار بحوض الأزهار والأوراق الخضراء ، والرفوف النظيفة المثبتة بالجدران ، والستائر المسدلة على النافذة — كان هذا كله من المناظر التى لم يسبق أن رآها الأب جاسبارا فى زياراته لبيوت وقرى الهنود . ولم يستطع أن يملك نفسه من التعبير عن دهشته بصوت مسموع ، فلما وقعت نظراته على المسبحة الذهبية ، قال متعجباً :

— من أين جئت بهذه .

وقال اليساندرو مزهواً :

— إنها مسبحة زوجتى ، هدية من الأب سالفيرديرا .

— آه ـ لقد مات منذ عهد قريب .

وصاح اليساندرو :

ـ مات ؟ هل مات الأب سالفيرديرا ؟ سوف تكون صدمة رهيبة . أرجوك يا أبى ألا تذكر هذا أمامها . يجب ألا تعرف هذا النبأ إلا بعد تعميد الطفلة . لأن هذا النبأ سيمتص من قلبها كل شعور بالبهجة .

وقال الأب جاسبارا وهو لا يزال يتأمل المسبحة والصليب المعلق بها :

— طبعاً ، طبعاً ، لن أقول لها شيئاً . ولكن هذا الصليب قطعة من الفن الجميل . أتعرف قيمة ما تملكه هنا ، وهذا . . أليس كساء مذبح ؟

وقال العبارة الأخيرة وهو يرفع طرف الكساء المطرز الجميل الذى كانت رامونا قد وضعته تحت تمثال السيدة العذراء تكريماً لها .

www.ibtesama.com

وقال اليساندرو :

ـ نعم يا أبى ، إنه كان فى الأصل لهذا الغرض . وقد طرزته زوجتى لتقدمه هدية إلى الأب سالفيرديرا ولكنها لم تره لتقدمه إليه . إن الدنيا سوف تظلم فى نظارها حين تسمع نبأ وفاته .

وكان الأب جاسبارا على وشك إلقاء سؤال آخر حين ظهرت رامونا بالباب ، مضطرمة الوجه بسبب الجرى ، وكانت قد حملت طفلتها إلى جوانا وتركتها هناك حتى تتفرغ لخدمة الأب و إعداد طعام العشاء له .

وقال اليساندرو هامساً :

ـ أرجوك ألا تخبرها .

ولكن الوقت كان قد فات ، إذ هتفت رامونا قائلة حين رأت المسبحة فى يد الأب :

ـ هذه يا أبى أقدس ما أمتلكه . كانت ملكا فى أول الأمر للأب بيرى رئيس إرسالية سان لويس راى ، وقد أعطاها للأب سالفيرديرا الذى أعطاها لى . أتعرف الأب سالفيرديرا ؟ كنت أرجو أن أسمع شيئاً عنه منك .

فقال الأب جاسبارا متلعثما :

ـ كنت أعرفه إلى حد ما ، ولكننى لم أره منذ مدة طويلة .

وما كانت رامونا لتعرف الحقيقة من اضطراب الأب فقط ، لأنها أرجعت هذا الاضطراب إلى عدم الاهتمام ، أو إلى كراهيته للمذهب الفرنسيسكانى ،

www.ibtesama.com

ولكنها حين نظرت فى وجه اليساندرو ، قرأت عليه الفزع والحزن ، وكان وجه اليساندرو أمامها مثل كتاب واضح المعنى دائماً ، ومن ثم قالت :

— ماذا حدث يا اليساندرو ؟ هل حدث شىء للأب سالفيرديرا . هل هو مريض ؟

وهز اليساندرو رأسه ، ولم يدر ماذا يقول . وأخذت هى تنتقل بنظراتها من وجه إلى آخر ملاحظة أمارات الارتباك والحزن المرتسمة على كل وجه ، ثم وضعت يديها على صدرها ، فى تعبير عن الحزن ، تعلمته من النساء الهنديات ، ثم صاحت بصوت كله أسى :

— إنك لاتخبرنى ! إنك لاتتكلم . . إذن فقد مات ؟ !

ثم ركعت على ركبتيها .

وقال الأب جاسبارا بصوت رقيق حان :

— نعم يا ابنتى .. لقد مات . . مات منذ شهر فى باربارا . وإنى ليحزننى أن أحمل إليك نبأ يؤلمك إلى هذا الحد . ولكن لا ينبغى أن تبكيه كثيرا ، لأنه كان واهن القوى ، ويهفو إلى الموت كما سمعت . إنه لم يكن قادرا على العمل فى أيامه الأخيرة ، ولهذا تمنى الموت .

وكانت رامونا قد طمرت وجهها بين يديها ، ومن ثم سمعت كلمات الأب كشىء مضطرب فى أذنيها ولم تسمع شيئاً بعد « منذ شهر » . وظلت صامتة ، بلا حراك ، بضع لحظات ، وأخيراً نهضت دون أن تنطق بكلمة أو تنظر إلى أحد الرجلين ، وعبرت الغرفة ، وركعت أمام تمثال العذراء . و بإحساس مشترك غادر الرجلان الغرفة معا . وقال الأب وهما يقفان خارج بابها :

www.ibtesama.com

ـــ كنت أود أن أعود إلى لوما كس لو كان الوقت يسمح ، فإني لا أحب أن أبقى هنا وزوجتك على مثل هذه الحالة من الحزن .

فقال اليساندرو :

ـــ إن هذا سيضاعف حزنها يا أبي لقد كانت مليئة بالسعادة وهي تعد كل شيء لاستضافتك . إنها قوية النفس ، وهي التي تزودني بقوة النفس دائما ، لا أنا الذي أزودها بذلك .

وقال الأب جاسبارا لنفسه بعد نصف ساعة حين رأى رامونا تقبل بوجه هادىء لتدعوهما إلى طعام العشاء :

ـــ حقا ، لقد صدق اليساندرو .

ولم يكن يدري ـ كما درى اليساندرو ـ كيف تغير هذا الوجه في نصف ساعة ؛ إذ ارتسم عليه شيء لم يره اليساندرو من قبل ، وجعله يخشى من مجرد التحدث إليها . وحين سار بجوارها ، في نفس الليلة ، ليصحبها إلى بيت فرناندو، عبر الوادي ، تجرأ وذكر اسم الأب سالفيرديرا . ولكن رامونا وضعت يدها على فمه وقالت :

ـــ لا أستطيع التحدث عنه الآن يا عزيزي ، إذ ما كنت أعتقد قط أنه سيموت قبل أن يمنحنا بركته ، لا تحدثني عنه حتى ينصرم يوم غد .

وعصر وجه رامونا الحزين قلوب جميع النسوة اللائي رأينها في صباح اليوم التالي . وقد أخذت كل منهن تحدق في وجهها مدهوشة ، ثم تستدير وتتبادل مع

www.ibtesama.com

الباقيات الحديث فى همس ، وكن جميعاً يحببنها ويحترمنها أيضاً بسبب عطفها البالغ ، واستعدادها لتعليمهن ومساعدتهن . وكانت بمثابة المبشرة فى الوادى منذ قدمت إليه ، ولا يكاد يذكر أحد أنه رأى وجهها بلا ابتسام . أما الآن ، فقد انطفأت الابتسامة منه . ومع ذلك فقد كانت تحمل طفلتها الصغيرة فى ردائها الأبيض ، استعداداً لتعميدها . وكانت الشمس ساطعة ، والناقوس يدق من نصف ساعة ، والأهالى من كل أركان الوادى يتجمعون ، والأب جاسبارا فى مسوحه الذهبية الخضراء يصلى أمام المذبح . وكان اليوم من الأيام البهيجة فى سان باسكويل ، فلماذا يركع اليساندرو وراموناً مبتعدين ، كل فى ركن ، وعلى وجه كل منهما أمارات الحزن الشديد ، بل إن أساريرها لم تنبسط حين ضحكت طفلتهما ومدت يدها لتلمس أحدهما . وأخذوا يتهامسون فيما بينهم عما حدث . وعرف أحدهم النبأ من أنطونيو صديق اليساندرو ومواطنه فى تيميكيولا ، وعندئذ ارتسم الحزن على وجوه النساء جميعاً أيضاً ، وكن جميعاً قد سمعن بالأب سالڤيرديرا ، وقد ابتهلت الكثيرات منهن أمام الصليب العاجى فى غرفة نوم رامونا وهن يعلمن أنه هدية إليها من الأب سالڤيرديرا .

وفيما كانت رامونا تغادر الكنيسة ، أقبلت عليها بعض النسوة ، وأخذن يدها ووضعنها على صدورهن دون أن يقلن شيئاً ، وكان هذا التصرف أبلغ من كل حديث يمكن أن يقال .

ولما بدأ الأب جاسبارا يستأذن للانصراف ، قالت له رامونا بشفتين مرتعدتين :

— أبى ، إذا كان هناك شيء تعرفه عن الساعات الأخيرة فى حياة الأب سالڤيرديرا ، فإنى أكون شاكرة لو أخبرتنى به .

www.ibtesama.com

فرد الأب قائلا :

— إن القليل الذى سمعته لا يبدو أنه كان ضعيفا جداً فى الأسابيع الأخيرة ، ومع ذلك فقد أصر على قضاء معظم لياليه راكعا على بلاط الكنيسة يصلى ..

فقاطعته رامونا قائلة :

— نعم ، هذا ما كان يفعله عادة .

واستطرد الأب يقول :

— وفى صباح اليوم الأخير وجده إخوانه الرهبان لا يزال راكعا على البلاط هناك ، ولكنه أضعف من أن يتحرك من مكانه ، فرفعوه وحملوه إلى غرفته ، وهناك وجدوا — لفزعهم الشديد — أن الغرفة بلا سرير ، وأنه من ثم كان ينام على البلاط . وعندئذ حملوه إلى غرفة رئيس الدير ووضعوه فى الفراش ، ولم ينطق هو بكلمة ، وعند الظهيرة لفظ أنفاسه الأخيرة .

وقالت رامونا دون أن ترفع عينيها عن الأرض :

— شكراً جزيلا يا أبى .

ثم أردفت قائلة بنفس الصوت الخافت المتهدج :

— إننى مسرورة الآن إذ علمت بموته .

وقال الأب جاسبارا لنفسه وهو يمضى فى الوادى منصرفاً :

— ما أعجب تأثير هؤلاء الفرنسسكان فى نفوس الهنود . إننى واثق تماما

www.ibtesama.com

أن أحداً لن يحزن على — هكذا — حين أموت . عجبا ! لقد كنت أنوى أن أسأل اليساندرو عن زوجته هذه من تكون ؟ فأنا لا أظن أنها هندية من تيميكيولا . اسوف أعرف الحقيقة حين أعود فى المرة التالية . من الواضح أنها تعلمت فى مكان ما . لأنها تمتاز عن بقية أهالى الوادى إلى حد كبير . فى المرة التالية سوف أعرف الحقيقة عنها بالتأكيد .

« للمرة التالية » ؟ أى تقويم يمكن أن يسجل « المرات التالية » التى لا تأتى أبداً ؟ ذلك لأنه قبل مدة طويلة من عودة الأب جاسبارا إلى وادى سان باسكويل ، كان اليساندرو وراموناً فى مكان آخر بعيد جداً ، وكان بيتهما منزلا لبعض الغرباء .

لقد بدا لراموناً ، بعد سنوات طويلة وهى تستعيد فى ذهنها شريط حياتها أن نبأ وفاة الأب سالفيرديرا كان أول مسمار فى نعش سعادتهما . فما هى غير أيام قليلة بعد ذلك حتى جاء اليساندرو ذات يوم ظهراً وعلى وجهه أمارات أفزعتها ، وبعد أن تهالك على مقعد ، أخفى وجهه بين يديه ، ورفض أن يتكلم أو يرفع عينيه حتى أوشكت راموناً أن تبكى من صمته ، وعندئذ نطق بهذه العبارة القصيرة بصوت أجوف وهو يرفع إلى راموناً وجهاً شديد الامتقاع :

« لقد بدأت المأساة »

ثم طمر وجهه فى كفيه مرة أخرى . ولكن دموع راموناً انتزعت منه فى النهاية القصة التالية :

كان بدرو ، كما بدا ، قد أجر فى العام السابق خوراً فى رأس الوادى

www.ibtesama.com

للدكتور موردنج . وكان الغرض من هذا ببساطة ، كما قال الدكتور ، أن يجعله مرتعا لتربية النحل . وهناك وضع المناحل ، وأقام كوخا للرجل الذى أرسله ليجمع العسل فى مواسمه . ولم يكن بدرو فى حاجة إلى تلك الأرض ، ومن ثم رأى أن يستفيد ببعض المال من تأجيرها . وكان قد اتخذ كل احتياط ليجعل هذه العملية سليمة قانونا ، ومن ثم ذهب إلى سان ديجو واتخذ من الأب جاسبارا مترجما له عند مقابلته للدكتور موردنج ، وتمت كتابة العقد ، وراح الدكتور يدفع الإيجار فى المواعيد المحددة ؛ ولما انتهت مدة الإيجار ذهب بدرو إلى سان ديجو ليسأل الدكتور إذا كان يريد تجديد المدة عاما آخر ، ولكن الدكتور قال له إن الأرض أصبحت ملكه ، وإنه ينوى الذهاب إليها وبناء بيت فيها للإقامة فيه .

وذهب بدرو إلى الأب جاسبارا يستنجد به ، ودارت بين الأب والدكتور موردنج مناقشة حامية ولكن بدون جدوى ، إذ قال الدكتور إن الأرض ليست ملكا لبدرو إطلاقا ، ولكنها ملك لحكومة الولايات المتحدة ، وإنه دفع ثمنها لمندوبى الحكومة فى لوس أنجليس وسوف يتسلم فى أقرب وقت وثيقة من واشنطن تثبت ملكيته لها . وذهب الأب جاسبارا مع بدرو إلى محام فى سان ديجو وأطلعه على الورقة التى لدى بدرو والتى تثبت أنه أخذ هذه الأراضى المحددة فيها طولا وعرضا من الحاكم المكسيكى القديم لكاليفورنيا لتقيم فيها قبيلة بيبلو الهندية بصفة دائمة . ولكن المحامى ضحك ساخراً من اعتقاد الأب جاسبارا فى أن لهذه الورقة أية قيمة قانونية . وقال إن هذا كان لا بأس به فى عهد انتماء المنطقة إلى المكسيك . أما الآن ، فلا قيمة لمثل هذه الوثيقة

www.ibtesama.com

لأن المنطقة بأكلها أصبحت ملكا للحكومة الأمريكية ،وإن القانون الأمريكى لا المكسيكى ، هو المطاع .

فقال بدرو :

ـ كان هذا يعنى أننا لا نمتلك أية أرض فى وادى سان باسكويل !

وقال المحامى إنه لا يعرف حقيقـة موقف الأراضى المزرعـة ، والقرى الآهلة بالسكان . إنه لا يعرف الوضع القانونى لهذا كله ، ولـكنه يعتقد أن هذا كـله من ممتلـكات الحـكومة فى واشنطن .

وقال بدرو إن الغضب بلغ من الأب جاسبارا حداً جعله يمزق رداءه عند الصدر ، و يضرب نفسه بجمع يديه ، و يتمنى لو كان جنديا ، وليس قسيسا ، حتى يستطيع أن يحارب حكومة الولايات المتحدة اللعينة . وضحك المحامى ساخراً منه ، وقال له إن واجبه فقط أن يرعى أرواح النـاس ، وأن يترك المتسولين الهنود وشأنهم . « نعم هذا ما قاله . . المتسـولين الهنود . . وهـذا ما سينتهى إليه أمرهم » .

وكان اليساندرو يسرد هذا بأنفاس لاهثة ، وعلى فترات متقطعة ، وبصوت مختنق ، وبجسم مرتعد كاد من فرط الغضب واليأس يفقد عقله .

ـ أترين يا ماچيللا . . لقد حدث ما كـنت أتوقع . ليس لنا مكان آمن فى هذه البلاد . وليس فى مقدورنا أن نفعل شيئا . ولعله كان من الأفضـل لنا أن نموت .

فقالت رامونا فى أسى :

— إن خور هذا الدكتور موردنج يقع على مسافة بعيدة جداً من الوادى. ولن يضيرنا فى شىء إذا أقام فيه ما دام لن ينضم إليه أحد .

فقال اليساندرو بحدة :

— إن ماچيللا تتكلم كاليمامة ، وليس كامرأة . هل يمكن أن يأتى واحد دون أن يأتى اثنان . إن هذه هى البداية . وغداً سوف يأتى عشرة ومعهم وثائق تثبت أن الأرض ملك لهم . ولن نستطيع أن نفعل شيئاً أكثر مما يمكن أن تفعله الوحوش البرية . بل إن هذه الوحوش أحسن حالاً منا .

ومنذ ذلك اليوم أصبح اليساندرو رجلاً آخر . لقد مات الأمل فى قلبه . وفى كل المجالس القروية — وقد غدت الآن تعقد كثيراً ولمدد طويلة — لأن الأهالى كانوا مستغرقين فى أشد القلق والحزن بسبب موضوع هذا الدكتور موردنج ، كان اليساندرو يجلس صامتاً مكتئب السمات . وكان يجيب عن كل اقتراح أيا كان بعبارة واحدة : « لا فائدة . لن نستطيع أن نفعل شيئاً » .

وقد قال لهم ذات ليلة بحرارة عند انعقاد المجلس :

— تناولوا عشاءكم الليلة ، لأنكم غداً ستموتون جوعاً .

وعندما اقترح بدرو عليه وجوب السفر إلى لوس أنجليس — حيث مقر مندوبى الحكومة ، كما قال الأب جاسبارا ، وحيث يمكنهم أن يعرفوا القوانين الجديدة الخاصة بملكية الأراضى - ضحك اليساندرو ساخراً منه وقال :

— ماذا تريد أن تعرف أيها الأخ بدرو أكثر مما نعرفه عن القوانين الأمريكية ؟ ألا يكفى أن تعلم أنهم أصدروا قانونا يقضى بانتزاع الأراضى

www.ibtesama.com

من أيدى الهنود ـ من أيدينا نحن الذين كنا نملك هذه الأراضى منذ أحقاب لا يعرف عددها أحد ، الأراضى التى تضم رفات أسلافنا ـ إنهم سيأخذونها ويعطونها لأنفسهم قائلين إنها ملك لهم . أتريد أن تذهب إلى لوس أنجليس لتسمع هذا مرة أخرى ، واترى الرجل الذى يقول لك هذا يضحك ساخراً ، كما ضحك المحامى فى سان دييجو ؟ لا . . إننى لن أذهب .

وذهب بدرو بمفرده ، وكان الأب جاسبارا قد أعطاه خطابا إلى قسيس فى لوس أنجليس ، وقد ذهب هذا القسيس معه إلى مكتب الأراضى ، وراح يترجم عنه ، فى صبر ، كل ما أراد أن يقول . وبنفس الصبر أخذ يترجم أقوال موظفى المكتب ردّا على بدرو . إنهم لم يضحكوا ، كما قال اليساندرو بمرارة ، ولم يكونوا غير آدميين ، بل شعروا بأشد العطف على هذا الرجل الذى يمثل نحو مائتين من الناس العاملين المكافحين ، المهددين بالطرد من بيوتهم ومواطنهم . ولكنهم كانوا جد مشغولين ، ولم يسعهم إلا أن يقولوا فى إيجاز ، وبكلمات قليلة، كل ما يمكن أن يقال : إن منطقة سان باسكويل هى بالتأكيد من ممتلكات الحكومة الأمريكية ، وإن الأراضى المحددة فيها ستوزع على من يدفع الثمن طبقاً للقوانين المدنية . وقال هؤلاء المسئولون إنهم لا يتمتعون بأى نفوذ فى تقرير شىء فى هـــذا الموضوع . إن مهمتهم مقصورة فقط على تنفيذ التعليمات وإطاعة الأوامر .

وفهم بدرو مضمون هذا كله ، وإن كانت التفاصيل قد غابت عن إدراكه ، ولكنه لم يندم على قيامه بهذه الرحلة ، لأنه رأى أنه بذل آخر مجهود من أجل قومه . ووعد قسيس لوس أنجليس بأن يكتب بنفسه خطابا إلى حكومة واشنطن ، ليضع الأمر كله بين يدى رئيسها هناك ، ولعل أن يحدث شىء لصلحتهم . وفيما

www.ibtesama.com

كان بدرو فى طريق العودة محزون النفس ، يقطع المسافة يوما بعد يوم ، راح يفكر فى أن الأمر يبدو من الغرابة بمكان أن تسمح حكومة واشنطن بالقضاء على قرية مثل قريتهم . ووصل إلى مشارف الوادى فى ساعة الغروب . ولما نظر من قمة التل الغربى - كما فعل اليساندرو ورامونا فى صباح يوم وصولها ، ورأى الحقول العريضة الممتدة والبساتين والبيوت الهاجعة فى سلام ، تأوه قائلا : « لو أن هؤلاء الذين صنعوا تلك القوانين يرون هذه القرية ، لما طردوا أهلها منها أبدا . إنهم لا يعرفون ماذا يحدث هنا . . قطعا إنهم لا يعرفون » .

وقال له اليساندرو وهو يوقف جواده بنيتو بجانبه فجأة ، بعد أن كان يركض به مسرعا ، حتى اضطر الجواد إلى التراجع :

— ألم أقل لك ؟ ألم أقل ؟ إننى أرى على وجهك ، قبل أن أصل إليك ، إنك جئت كما ذهبت ، أو أسوأ مما ذهبت . لقد كنت فى انتظارك خلال اليومين السابقين ، وقد جاء رجل ثان للإقامة مع الدكتور موردنج ، وهما يقيمان الآن الحواجز والأسوار ، وهذا يعنى أنهما سيربيان الماشية والأغنام ، وسوف ينتهى الأمر إلى أننا لن نجد فى النهاية مراعى لماشيتنا وأغنامنا ، ولهذا سوف أمضى بحيواناتى إلى سان دييجو فى الأسبوع القادم لأبيعها بأى ثمن : الماشية والأغنام . وسوف ترى أنه لا جدوى من بذل أى مجهود .

ولما أخذ بدرو يقص ما جرى بينه و بين المسئولين فى لوس أنجليس ، قاطعه اليساندرو بحدة قائلا :

— لا أريد أن أسمع المزيد من هذا الحديث . إن أسماءهم ، و إن أحاديثهم هى القذى فى عينى وأنفى . وأعتقد أننى سأجن يابدرو . اذهب وأخبر الناس

www.ibtesama.com

الذين ينتظرونك بهذه القصة ـ الناس الذين لا يزالون يعتقدون أن الأمريكيين قد يكونون صادقين .

وكان اليساندرو حازما فى عزمه . ففى الأسبوع التالى ، ساق ماشيته وأغنامه إلى سان ديجو وباعها بخسارة كبيرة وهو يقول : « إن هذا أحسن من لا شىء . إنها لن تباع الآن على يدى المأمور ، كما حدث لقطعان أبى فى تيمبكيولا » . أما المال الذى حصل عليه ، فقد أخذه إلى الأب جاسبارا وقال له بصوت متهدج :

— لقد بعت حيواناتى حتى لا أنتظر الأمريكيين ليبيعوها ويأخذوا ثمنها . إننى لم أحصل حقا على مبلغ كبير ، ولكنه أحسن من لا شىء . هل تحتفظ به من أجلى يا أبى ؟ إننى لا أستطيع الاحتفاظ به فى سان باسكويل ، لأن سان باسكويل ستغدو مثل تيميكيولا ، وقد يحدث هذا غداً .

ولما اقترح عليه الأب جاسبارا أن يضع ماله فى مصرف مالى بسان ديجو ، صاح اليساندرو قائلاً :

— خير لى أن ألقى به فى الطريق ! إننى لم أعد آمن أحدا منذ اليوم ، وإنما آمن فقط الكنيسة . . احتفظ به لى يا أبى ، أرجوك .

ولم يستطع الأب أن يرفض رجاءه ، وقال :

— وما هى مشروعاتك الآن ؟

فقال اليساندرو مردداً :

— مشروعاتى ؟ أتقول مشروعاتى يا أبى ؟ أى مشروعات يمكن أن تكون لى ؟ سوف أبقى فى البيت بقدر ما يسمح لى الأمريكيون . لقد رأيت بيتنا الصغير يا أبى . . .

www.ibtesama.com

وهنا تهدج صوته وسكت برهة عن الحديث قبل أن يستطرد قائلا :

— وإن لى حقولا واسعة من الحنطة ، فلو استطعت أن أظفر منها بمحصول آخر ، فسأكون محظوظاً ، ولكن أرضى من أخصب أراضى الوادى ، وإذا رآها الأمريكيون ، فسوف يشتهونها . وداعا يا أبى . وشكراً لاحتفاظك بمالى ، ولكل ما قلت للسارق موردنج . لقد أخبرنى بدرو بكل شىء .. وداعا.

ثم انطلق يعدو على جواده السريع بنيتو قبل أن يجيبه الأب جاسبارا بشىء . ومن ثم قال لنفسه :

— ونسيت أن أسأله من تكون زوجته. لسوف أعيد النظر فى السجل .

وتناول السجل القديم ، وراح ينظر فى عقود الزواج التى تمت فى ذلك العام . ولم يكن عدد الزيجات التى تعقد فى كنيسة الأب جاسبارا كبيراً بحيث يحتاج الإنسان إلى وقت طويل لمراجعتها. وكان استهلال عقد زواج اليساندرو مطموساً ، لأن الأب كان فى عجلة من أمره يومذاك . ومن ثم قرأه « اليساندرو أسيس — ما جيللا فا — » ولم يستطع أن يقرأ أكثر من هذا . ولم يدل الاسم على شىء فى نظر الأب جاسبارا وقال لنفسه : « الواضح أنه اسم هندى ومع ذلك فهى تبدو ممتازة عنهم فى كل شىء .. إننى لأعجب من أين جاءت بهذا الاسم ؟ » .

ومضى فصل الشتاء فى سان باسكويل بهدوء . . وكانت الأمطار الغزيرة الحسنة التى سقطت فى أوائله قد بشرت بمحصول جيد . ومن ثم كان سكان الوادى يرون أنه من المؤسف ألا يظفروا بأوفر مايمكن من هذا المحصول ، فراحوا يحرثون حقولا جديدة .. جميعهم ، إلا اليساندرو الذى قال :

www.ibtesama.com

— لو استطعت أن أحصد كل ما لدى ، فسوف أشكر السماء . ولهذا لن أحرث مزيداً من الأرض لأولئك اللصوص .

ولكن بعد أن زرع جميع حقوله ، والأمطار المحسنة لا تزال تتساقط ، وسفوح التلال حول الوادى قدبدأت تتحول إلى خضرة جميلة قبل أوانها بكثير قال لرامونا ذات صباح :

— أعتقد أنى سأحرث حقلا آخر للقمح ، فإن الموسم يبشر بمحصول وافر هذا العام . ولعلنا سنترك فى سلام حتى ننتهى من جمع المحصول .

وقالت رامونا باستبشار :

— أوه .. نعم .. ولعدة مواسم قادمة أيضا ياعزيزى اليساندرو . إنك دائما تنظر إلى الجانب المظلم من الحياة .

فأجاب قائلا :

— ليس هناك غير هذا الجانب المظلم يا ماجيللا . إننى لا أجد غير الظلام أينما أدرت عينى . وإنك لن ترى قط موسما آخر لجمع المحصول فى سان باسكويل بعد هذا الموسم . بل لو أننا ظفرنا بمحصول هذا العام لكنا محظوظين . لقد رأيت الرجال البيض يروحون ويجيئون على جيادهم فى جنبات الوادى . بل إنى لمحت فى ذلك اليوم قطعاً من دعائم أخشابهم اللعينة ذات الأرقام موضوعة فى حقولى ولكننى انتزعتها وحرقتها . ومع ذلك فسوف أحرث حقلا جديداً هذا الأسبوع . هذا وإن كنت لا أعرف لماذا أحرثه ، لأن عقلى

www.ibtesama.com

لا يؤيدنى فى القيام بهذا العمل ولكننى سأفعلى . ولن أذهب وأعود فى اليوم مرتين لأن الحقل بعيد جداً ، ولهذا لن أعود إلى البيت إلا مساء ، وسأقضى النهار كله فى الحرث .

قال هذا وانحنى وقبل الطفلة ، ثم قبل رامونا ، وانصرف .

ووقفت رامونا بالباب وراحت ترقبه وهو يشد الجوادين «بابا» و بنيتو إلى المحراث . ولم يلتفت إليها مرة واحدة ، وإنما بدا وجهه زاخراً بالأفكار ، ويداه تعملان بطريقة آلية . وبعد أن ابتعد عن البيت قصبات قليلة ، توقف وراح يفكر لحظات ، ثم استأنف السير فى تردد ، ثم عاد وتوقف ، ولكنه أخيراً سار قدماً ، ولم يلبث أن اختفى بين التلال الخفيضة ناحية الشرق . وتنهدت رامونا بعمق ، واستدارت عائدة إلى أعمالها المنزلية . ولكن قلبها كان مفعماً بالقلق ، ولم تستطع أن تمنع الدموع من الانحدار على وجهها .

وقالت لنفسها :

ـــ لشد ما تغير اليساندرو ! إنه ليفزعنى أن أراه هكذا . سوف أتحدث مع العذراء المباركة فى هذا الأمر .

ثم ركعت أمام محراب العذراء، وراحت تطيل الابتهال بحرارة حتى نهضت أخيراً وهى تشعر بالراحة ، وجذبت مهد الطفلة إلى الشرفة ، وجلست بجوارها تعمل فى قطعة تطريز . وكانت براعتها فى أشغال الإبرة قد زودت الأسرة بدخل إضافى كبير ، إذ كانت مخرماتها الرقيقة الفاخرة تجد فى أسواق سان دييجو من يتلهفون على شرائها بأسعار طيبة .

www.ibtesama.com

وبدا لها أنها لم تمض فى جلستها هذه غير وقت قصير حين رفعت وجهها إلى الشمس ورأت أنها تقترب من سمت الظهيرة . فى تلك اللحظة رأت اليساندرو مقبلا بجواديه ، فقالت فى نفسها فى استياء :

« إننى لم أعد طعاما للغداء ، لأنه قال إنه سيأتى فى المساء » .

ثم وثبت وأوشكت أن تهرع إليه ، لأنها لاحظت عندئذ أنه لم يكن بمفرده . وإنما كان ثمة رجل ممتلىء الجسم يسير بجانبه ، وكان الاثنان يتحدثان باهتمام شديد . أما الرجل فكان أبيض الجنس . . فما معنى هذا ؟ وأخيرا توقفا . ورأت اليساندرو يشير إلى البيت ، وإلى أكواخ البوص الملحقة به ، وكان يلوح عليه الانفعال وهو يتحدث ، وكذلك كان حال الرجل الأبيض . وارتعدت رامونا بالخوف ووقفت ساكنة ترهف السمع والبصر ، ولكنها لم تسمع شيئا ، إلا أن الحركات التى رأتها كانت واضحة الدلالة — ترى . . هل حدث ما كان يتوقعه اليساندرو ؟ هل سيطردون فى هذا اليوم الذى لاح لها أن العذراء قد وعدتها فيه بالحماية والعون ؟

وتحركت الطفلة ، واستيقظت ، وبدأت تبكى ، فحملتها الأم إلى صدرها وهدهدتها بالربت عليها فى حنان ورفق ، وبعد أن ضمتها بقوة إلى صدرها ، سارت بضع خطوات نحو اليساندرو الذى أشار إليها ، حين رآها ، لكى تتراجع . وعادت إلى الشرفة بقلب محزون وجلست تنتظر .

وفى لحظات قليلة رأت الرجل الأبيض يضع عددا من النقود فى يد اليساندرو ، ثم يستدير وينصرف واليساندرو لا يزال واقفا كأنما تسمر فى مكانه محدقا فى

www.ibtesama.com

راحة يده ، غافلا عن بنيتو و«بابا» اللذين ظلا يسيران حتى تجاوزاه . وأخيرا بدا كأنه يفيق من غفوته ، فالتقط أعنة الجوادين وأقبل ببطء نحو رامونا ، ومرة أخرى همت بالتقدم نحوه لاستقباله. ولكنه أشار إليها مرة أخرى يأمرها بالتراجع، فعادت وجاءت وكل عصب فى جسمها يختلج . وكانت رامونا قد بدأت تخشى اليساندرو . وكانت تفزع ، دون أن تدرى لماذا ، كلما استبدت به هذه النوبات العنيفة من الاكتئاب . كان يلوح لها أنه ليس اليساندرو الذى أحبته .

وراح يرفع الأعنة عن الجوادين فى بطء متعمد ، ثم يعيدها إلى المربط . وبنفس البطء المتعمد راح يقترب من البيت ، ويمضى إلى الباب ، مجتازا رامونا دون أن ينطق بكلمة . وكانت وجنتاه تتوهجان بحمرة قانية ، وعيناه تلمعان . وفى صمت أخذت رامونا تتبعه وتراه وهو يتناول من جيبه قبضة من القطع الذهبية ويلقى بها على المائدة ثم يرسل ضحكة رهيبة أقسى من البكاء ـ ضحكة جعلتها تصرخ رغما عنها قائلة :

ـ أوه .. ياحبيبى اليساندرو .. ماذا حدث ، هل جننت ؟ !

فقال وهو يستدير إليها ويطوقها مع الطفلة بذراعيه فى عناق كاد يؤلمها :

ـ لا ياحبيبتى ماجيل . لا .. لست مجنونا ، ولكننى أعتقد أنى سأجن عن قريب . أتعرفين معنى هذا الذهب ، إنه ثمن هذا البيت يا ماجيللا ، وثمن الأرض أيضا ـ ثمن كل ما كنا نمتلكه فى سان باسكويل . وغدا سنعود مرة أخرى إلى العالم الواسع ، سأبحث عن مكان لايراه الأمريكيون .

ولم تكن القصة بحاجة إلى كلمات كثيرة لسردها . فإن اليساندرو ما كاد

www.ibtesama.com

يعمل فى الحقل الجديد نحو ساعة حتى سمع صوتا غريبا ، فالتفت وراءه حيث رأى رجلا يضع حملا من دعائم الخشب على مسافة يسيرة منه . وتوقف اليساندرو فى وسط الخط المحروث من الحقل وراح ينظر . وكذلك أخذ الرجل ينظر إلى اليساندرو ، وأخيرا أقبل نحوه وقال بخشونة :

— اسمع . ! عليك أن تنصرف حالا ، إن هذه أرضى ، وسوف أقيم بها منزلا .

وقال له اليساندرو :

— لقد كانت هذه أرضى بالأمس فقط ، فكيف صارت أرضك اليوم ؟

ويلوح أن شيئا ما فى كلمات اليساندرو أو فى نبرات صوته نفذ إلى ضمير الرجل ، أو إلى قلبه أو إلى شىء يرمز لضميره أو قلبه ، جعله يقول :

— مهلا أيها الزميل الطيب . إنك تبدو عاقلا . عليك أن ترحل ولا تثر الشغب . إن هذه الأرض ملكى ، وقد اشتريت كل الأراضى المحيطة بها أيضا .
ثم أدار ذراعه فى شبه دائرة وأردف يقول :

— ثلاثمائة وعشرون فدانا ، أنا وأخى . . وسوف نأتى لنستقر فيها بعد أن تسلمنا مستندات الملكية فى الأسبوع الماضى من واشنطن . إننى أمتلكها بحكم القانون ، وعليك أن تنصرف فى سلام ، و بلا أى شغب . . فما رأيك ؟

ولم يفعل اليساندرو شيئا ، لأنه كان يرى هذا الموقف منذ شهور ، رآه كثيرا فى أحلامه ، وفى أفكاره ، وعاش فيه دائما يتوقاه ويتوقع حدوثه .

www.ibtesama.com

وقال أخيرا وهو يجنح إلى الحكمة والهدوء :

— إننى لست مندهشا ، لقد كنت أتوقع هذا . ولكننى كنت آمل ألا يجىء هذا اليوم إلا بعد جمع المحصول . وأنا لن أثير لك أية مشكلات ، لأننى لا أستطيع ، ولو استطعت لما سلمت بهذه البساطة . ولكننى سمعت عن كل هذه القوانين الجديدة التى تعطى أراضى الهنود للأمريكيين ، ونحن عاجزون عن القيام بشىء للدفاع عن حقوقنا ، وإن كان الأمر صعبا علينا ياسيدى .

ثم توقف عن الحديث .

وشعر الرجل الأبيض بارتباك واضطراب شديدين لأنه لم يكن يتوقع أنه يجد فى طريقه هذا الهندى . وأخيراً قال متلعثما :

— طبعا طبعا . . إنى أعرف أن هذا الأمر صعب على رجل مثلك مكافح ، بذل جهده فى زراعة هذه الأرض . ولكن الأرض كانت معروضة للبيع ، وقد دفعت ثمنها .

فسأله اليساندرو قائلا :

— هل ينوى السيد أن يبنى لنفسه بيتا ؟

— نعم . إن أسرتى فى سان ديجو ، وأريد أن آتى بها لتستقر فى أسرع وقت ممكن . وإن زوجتى لن تشعر بالراحة والأمن إلا إذا عاشت فى بيت خاص بها . إننا وافدون من الولايات المتحدة ، وقد اعتادت أن يكون كل شىء ميسرا لها .

وقال اليساندرو بنفس الصوت الهادىء المتزن :

www.ibtesama.com

— وأنا لى زوجة وطفلة أيها السيد ، ولنا بيت جميل مكون من غرفتين ، وسوف يستريح السيد من عناء إقامة بيت جديد إذا اشتراه .

— وأين يقع ؟ إنى لا أستطيع أن أحدد مساحة أرضى الآن ، لأن علامات التحديد انتزعت !

— نعم أيها السيد ، لقد انتزعتها وأحرقتها ، لأنها كانت موضوعة فى أرضى ، وإن بيتى يقع غربا ، أبعد من علامات التحديد ، ولى هناك أيضا حقول حنطة واسعة ، فدادين عديدة ، كلها منزرعة .

وتألقت عينا الرجل وهو يرى أن أمامه فرصة سانحة ، يستطيع أن يحسن استغلالها إذا هو أعطى ذلك المندى ثمنا للبيت ولمحصول الأرض الأخرى معا . ولكن عليه أولا أن يرى ذلك البيت ، ولهذا الغرض سار مع اليساندرو فى أثناء عودته . ولما رأى البيت الأبيض النظيف وشرفته الواسعة وملحقاته من أكواخ ومرابط ، كلها فى حالة جيدة ، قرر الحصول عليها بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة .

وقال اليساندرو :

— إن محصول القمح الذى سيحصد فى شهر يولية كما ترى بنفسك أيها السيد يساوى ثلاثمائة دولار ولن تستطيع أن تبنى بيتا كهذا بملحقاته بأقل من مائة دولار . فما هو الثمن الذى ستدفعه لى ؟

وقال الرجل بوقاحة :

— أعتقد أنى أستطيع أن أمتلك هذا كله بدون أن أدفع شيئا إذا أردت .

www.ibtesama.com

ـــ لا ياسيدى .

فقال الرجل وهو يكشر عن أنيابه :

ــ من يستطيع أن يمنعنى ، أريد أن أعرف ؟ ! إنك لا تملك أية حقوق هنا ، طبقا للقانون .

فرد اليساندرو قائلا بنفس الصوت الهادىء :

ــ أنا أستطيع أن أمنعك أيها السيد ، أستطيع أن أحرق الأجران والمرابط وأهدم البيت ، وأحرق القمح قبل أن يحصد أحد عوداً منه .

فقال الرجل ساخطا :

ــ كم تريد ثمناً ؟

ــ مائتى دولار.

ــ حسنا . أترك المحراث والمركبة وسوف أعطيك ما تريد. ولا شك أنى أحمق كبير ، وسأكون موضع السخرية والتنـــدر لأنى دفعت ثمن شىء لأحد الهنود .

ــ إن المركبة أيها السيد كلفتنى مائة وثلاثين دولارا حين صنعتها فى سان ديجو ، ولن تستطيع أن تحصل على واحدة مثلها بأقل من هذا الثمن . ولكننى لن أبيعها ، لأنى سأحمل متاعى . أما المحراث فيمكنك أن تأخذه وهو يساوى عشرين دولاراً . .

ــ حسنا . . اتفقنا .

www.ibtesama.com

وأخرج الرجل كيساً جلديا مليئاً بالنقود الذهبية ، وراح ينقد اليساندرو مائتى دولار بالعملة الذهبية . ولما فرغ قال :

ــ هل هناك شيء آخر ؟

فرد اليساندرو قائلا :

ــ هــذا هو المبلغ الذى طلبته ياسيدى . ويمكنك غداً ، فى الظهر ، أن تتسلم البيت . فسأله الرجل وقد تأثر مرة أخرى من سلوك اليساندرو :

ــ إلى أين ستذهب ؟ لماذا لاتبقى فى مكان ما هنا ؟ أعتقد أنك ستجد عملا هنا ، وأن كثيراً من المزارعين سيأتون ، وسيحتاجون إلى الكثير من الأيدى العاملة :

واندفع إلى شفتى اليساندرو طوفان عنيف من العبارات القاسية ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

ــ إنى لا أدرى أين سأذهب ، ولكننى لا أريد البقاء هنا .

وانتهت المقابلة عند هذا الحد .

وقال الرجل الأمريكى لنفسه وهـــو عائد ببطء إلى أكوام الخشب التى جاء بها :

ــ لا أستطيع أن ألومه قط على شعوره هذا . ولا شك أننى لو كنت مكانه لخامرنى نفس الشعور .

وما كاد اليساندرو يفرغ من سرد قصته حتى بدأ يدور فى الغرفة ، ينتزع

www.ibtesama.com

الأشياء المعلقة بالجدران و يطوى هذا أو ذاك ، و يفتح و يغلق الأوانى والعلب، وكانت أمارات القلق والارتباك رهيبة على وجهه وهو يقول :

ـ أريد أن أتحرك من هــذا البيت مع شروق الشمس . فإننى أبغض البقاء فى بيت لا أمتلــكه بغضى للموت .

ولم تــكن رامونا قد نطقت بكلمة واحدة بعــد صيحتها الأولى التى ندت عنها حين سمعت ضحكته الرهيبة . وكان كمن أصيب بضربة أخرسته . وكان وقع الصدمة عليها أشد من وقعها على اليساندرو ، ذلك أنه كان يعيش متوقعاً ماحدث منذ أ كثر من عام . أما هى فإنها لم تفقد الأمل يوما . على أن الشىء الذى اعتصر قلبها أ كثر من فقد البيت ، هو رؤيتها لوجه اليساندرو المتغير ، وسماعها لصوته المتغير أيضا ، ومن ثم فقد طغى حزنها من أجله على أى شىء آخر . وهكذا راحت تطيعه آليا ، وتعمل بسرعة متزايدة كلما ازداد هو حماسة فى تعجله . وقبل أن تغيب الشمس كان كل شىء فى البيت قد حمل إلى المركبة ، فيما عدا السرير والموقد .

وقال اليساندرو :

ـ والآن علينا أن نعد طعامنا للرحلة .

وسألته رامونا الباكية :

ـ وإلى أين سنمضى ؟

فقال بنبرات ساخرة، ولـكنها كانت من الحدة بحيث جعلت دموع رامونا تتزز

www.ibtesama.com

وهى تنحدر من جديد :

-، إلى أين ؟ إلى أين ؟ إننى لا أدرى ياماچيللا ! سنمضى إلى الجبال التى لا يستوطنها الرجل الأبيض ، ولسوف نبدأ الرحيل مع شروق الشمس .

وأرادت رامونا أن تودع صديقاتها . وكان فى القرية نساء تحمل لهن أرق الحب ، ولكن اليساندرو رفض قائلا :

ـ لسوف يتم الوداع بالبكاء والعويل ياماچيللا ! ولهـذا أرجوك ألا تتحدثى مع أحد ، إذ لماذا نزيد من دموعنا . هلم نختف فى سكون ، وسوف أخبر بدرو بالأمر، وسيقوم هو بإخبارهن .

وأحست رامونا بمزيد من الحزن ، وكانت فى أعماق قلبها تشعر بالتمرد لأول مرة على إحـدى رغبات اليساندرو . ولكنها لم تستطع أن تحزنه ، ألا يكفى ما يحمله من عبء الآن ؟ !

وبلا كلمة وداع لأحد ، غادرا القرية مع الفجر قبل أن يتحرك فيها مخلوق؟ وكانت المركبة محملة بالمتاع ، وعلى مقعدها الأمامى جلست رامونا والطفلة ، وقد سار اليساندرو على قدميه، لأن الحمل كان على المركبة ثقيلا . ومن ثم أخذ بنيتو و « بابا » يجرانها ببطء ، أما الكلب كابيتان فكانت أمارات الشقاء تبدو فى فى عينيه وهو ينظر أولا إلى رامونا ، ثم إلى اليساندرو فى أثناء سيره بجوار المركبة فى وفاء . وكان يدرك بغريزته أن الأمور ليست كما ينبغى أن تكون .

وفيما كان اليساندرو ينعطف بالجوادين إلى طريق غير مطروق يؤدى إلى الناحية الشمالية الشرقية قالت رامونا بشهقة بكاء :

www.ibtesama.com

ـ إلى أين يمضى بنا هذا الطريق ياأليساندرو ؟

ـ إلى سان جاكنتو .. إلى جبـــل سان جاكنتو . لا تلتفتى وراءك ياماچيللا .. لا تلتفتى وراءك !

قال هـــذا صائحاً حين رأى رامونا تلتفت إلى سان باسكويل بعينين غزيرتى الدموع :

ـ لا تنظرى إلى الوراء . . لقـد انتهى كل شيء . صلى للقديسين الآن ياماچيللا . صلى .. صلى .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٢١)

كانت السنيورة موريتو تحتضر ، وكان يخيم على البيت جو من الكآبة والحزن فى العامين السابقين ، فبعد أن هدأ الاضطراب الذى حدث عقب رحيل رامونا ، عادت الحياة ، ظاهريا ، إلى مجراها القديم ، ولكن شيئا ما لم يعد كما كان من قبل . كما أن السعادة لم تعد تخامر قلب أحد . وتحطم قلب الهرم جوان كانيتو ، لأن الرجل المكسيكى الذى كان يخشى حضوره ، جىء به ليكون رئيسا للرعاة والعمال . ولم تتكاثر الأغنام كالمعتاد ، لأن كثرة فترات الجفاف أدت إلى موت عدد كبير منها جوعا ، ولم يكن للمكسيكى المشرف الجديد، يد فى هذا ، وإن كان جوان قد شمت به ، وراح يردد من الصباح إلى المساء أنه لولا ساقه المهيضة ، أو لو كان الشاب اليساندرو موجودا ، لكان محصول الصوف كبيراً كالمعتاد . ولم يكن بين الخدم أو العمال من يحب هذا المكسيكى .

www.ibtesama.com

ومن ثم كان المسكين فى حالة يرثى لها . ذلك أن كل رجل أو امرأة ، فى البيت أو المزرعة ، كان يتخيل سببا يدعوه إلى كراهيته . فالبعض كان يكرهه عطفا على الشيخ جوان ، والبعض الآخر بدافع الكسل أو نفاد الصبر . وكانت مرجريتا أشدهم كراهية له لأنه لم يكن اليساندرو . وكان قلب الفتاة قد امتلأ بالتعاسة بسبب ندمها على موقفها من رامونا ، وخيبة أملها واستيائها من اليساندرو، وبدلا من أن تواسيها أمها أو تخفف عنها ، راحت تضاعف من تعاستها بالندب دائما على مصير رامونا . وكان الفراغ الذى تركته رامونا فى قلوب الجميع ضخما بحيث لم يستطع أحد أو شىء أن يملأه . ولم يكن ثمة وسيلة للنسيان ، ففى كل يوم كان بعضهم يذكرها بالخير ، و بالندم و بالإشفاق والرثاء . ترى أين ذهبت ؟ هل دخلت الدير حقاً كما قالت ، أم هربت مع اليساندرو ؟

وكانت مرجريتا على استعداد للتضحية بيدها اليمنى لتعرف الحقيقة . وكان الشيخ جوان كانيتو فقط هو الذى يعرف الحقيقة عن يقين ؛ إذ لم يكن فى رأيه من يستطيع استدراج الجواد « بابا » من مربطه بالمقدرة والذكاء إلا اليساندرو ودون أن يسقط شىء من السياج ؟ والسرج الثقيل أيضاً ؟ إنه لشاب ذكى حقاً، لقد بذل خير ما يستطيع من أجل السنيوريتا . ولكن ياللعذراء المقدسة ، ماذا دفع السنيوريتا لكى تهرب هكذا مع شاب هندى ، حتى لو كان اليساندرو ؟ لا شك أن الأبالسة قد سحروها .

وراح جوان ، بلا ملل ، يسأل كل مسافر ، وكل راع جائل ، ولكن أحدا لم يعرف عن اليساندرو شيئاً أكثر من أن هنود تيميكيولا قد طردوا من القرية ، وأنه لم يعد هناك ، فى الوادى هندى واحد . وسرت إشاعة بأن كلا من اليساندرو ووالده ماتا . ولكن لم يكن ثمة من يعرف الحقيقة على وجه اليقين ،

www.ibtesama.com

ذلك أن هنود تيميكيولا قد اختفوا ـ هذا هو كل شيء .. اختفوا كالحيوانات البرية ، كالثعالب والذئاب التي تصاد وتطارد ، حتى تخلص الوادي منهم . ولكن ماذا عن السنيوريتا ؟ هل كانت مع الهاربين ؟ إن هذا مستحيل ، وإن السماء لا ترضى به .

وكان جوان كانيتو يقول للويجو :

ـ لو كانت ساق سليمة لذهبت وتحريت بنفسي . فإن الإنسان ليستريح حتى لو علم أسوأ ما في الأمر . واللعنة على السنيورة التي دفعتها إلى هذا المصير ! نعم ، دفعتها إلى هذا المصير ! وهذا ما أقوله يالويجو .

وكان يقول في بعض لحظات الغضب الشديد :

ـ ليس بينكم من يعرف حقيقة السنيوريتا غيري ، وإن السنيورة كانت شديدة الحزم في تربيتها منذ بادىء الأمر وإن السنيورة لامرأة عجيبة ! إنها تعرف كيف تسيطر على أي إنسان .

ولكن نفوذ السنيورة كان قد اهتز الآن . وكان أشد مالاح من تغيير في مظاهر الحياة ببيت آل مورينو ، هو العلاقة بين السنيورة وبين ابنها فيليب . ففي الصباح التالي لرحيل رامونا تبادل الابن والأم كلمات قاسية من النوع الذي لايمكن أن ينساه أحدهما . والواقع أن السنيورة كانت تعتقد أنها في سبيل الموت بسبب هذه الكلمات ، وهل يكون هذا غير بعيد عن الحقيقة ؟ وكان السبب الذي جعل قواها ترفض مقاومة المرض ، يرجع بلاشك إلى أنها لم تعد راغبة في الحياة .

www.ibtesama.com

وكان فيليب قد وجد الرسالة التى تركتها رامونا له على الفراش . وكان قد استيقظ قبيل الفجر وتقلب متململا فى فراشه تحت الغطاء الخفيف ، فسمع حفيف الورقة ، وعرف، بغريزته ، أنها من رامونا ، ومن ثم نهض فورا ليتأكد، وقبل أن تفتح أمه نافذتها ، كان قد قرأها . وشعر وهو يقرؤها كإنسان فقد حواسه جميعاً . رامونا ذهبت . . ذهبت مع اليساندرو ؟ أخته الصغيرة العزيزة الجميلة تتسلل فى ظلمة الليل كاللص ! آه ، ياللعار الشديد ! وبدا كأن الأستار قد رفعت عن عينى فيليب وهو راقد بلا حراك يفكر فيما حدث.. إنه لعار . . عار شديد ! وإنه هو ووالدته قد جلبا هذا العار على رأس رامونا ، وعلى بيت آل مورينو ، وأحس كأنه واقع تحت تأثير قوة سحرية طوال ذلك الوقت ، فلم يدرك هذا كله وقال لنفسه متوجعاً : «هذا ما قلته لأمى ، قلت لها إن هذه المعاملة سوف تدفعها إلى الهرب ! أوه ، يا حبيبتى رامونا ! ترى ماذا سيكون مصيرها ؟ سوف أمضى وراءها وأعود بهما » ونهض فيليب ، وارتدى ملابسه متعجلا ، وهبط بسرعة من الشرفة ليكسب مزيداً من الوقت للتفكير . وعاد بعد قليل ليجد أمه واقفة بالباب شاحبة الوجه ، خائفة السمات ، تقول له :

— فيليب ! إن رامونا ليست هنا !

فرد بصوت غاضب :

— أعرف هذا . هذا ما قلت إنه سيحدث — لقد دفعناها للهرب مع اليساندرو .

فقاطعته قائلة :

— مع اليساندرو ؟

www.ibtesama.com

— نعم ، مع اليساندرو المندى · ولعلك ترين أن عار آل أورتينا وموريتو سيكون أهون عند هربها معه ، من أن تبقى هنا وتتزوجه ، إننى لا أرى هذا ، و إنه ليوم أسود ، يوم أن اشتركت فى تحطيم قلب المسكينة ! إننى ذاهب وراءهما لأعود بهما .

ولو أن السماء انفتحت وأمطرت نارا ، لما جزعت السنيورة ودهشت ، كما حدث لها حين سمعت هذه الكلمات ! ولكن حتى نيران السماء ما كانت لتجعلها تستسلم إلا إذا لم يكن من الاستسلام بد . ومن ثم قالت :

— ومن أين عرفت أنها هربت مع اليساندرو ؟

فصاح فيليب متحديا وملوحا بالرسالة أمامها :

— لأنها كتبت هذا هنا . لقد تركت هذه الرسالة لتودعنى باركها الله . لقد كتبت وكأنها قديسة تشكرنى على كل مافعلت من أجلها - تشكرنى أنا الذى دفعتها للتسلل من بيتى كأنها لص !

وصلت عبارة « من بيتى » إلى أذن السنيورة كأنها آتية من عالم آخر ، وكان هذا فى الواقع ، حقا لأنها صدرت من عالم جديد كان فيليب يعيش فيه منذ ساعة . وتوهجت وجنتاها ، وفتحت فمها لترد . ولكنها قبل أن تنطق بكلمة ، جاء لويجو يجرى من وراء المنعطف ، وجوان كانيتو يظلع وراءه بعكازيه فى سرعة عجيبة . وكان الاثنان يصيحان قائلين :

— سنيور فيليب ، سنيور فيليب ، أوه سنيور فيليب ، كان هنا لصوص فى الليل . لقد اختفى الجواد « بابا » وسرج السنيور يتا .

www.ibtesama.com

وارتسمت ابتسامة شريرة على وجه السنيورة وهى تستدير إلى فيليب وتقول بصوت ـ ياله من صوت . لقد شعر فيليب أن عليه أن يضع يديه على أذنيه حتى لا يسمعه . وإن فيليب لا ينسى هذا الصوت أبدا :

ـــ كما قلت . . مثل اللص فى الليل !

وبحركة سريعة لم يسبق أن شوهد فيليب يقوم بها ، تقدم نحو أمه وقال لها بصوت خافت :

ـــ بحق السماء . . لا تقولى شيئا أمامهما .

ثم أردف قائلا للويجو :

ـــ ماذا تقول يالويجو ؟ هل اختفى الجواد «بابا» ، يجب أن نفتش المرابط . لسوف آتى بعد الإفطار وأنظر فى الأمر .

واستدار بظهره إليهما ، وجذب أمه إلى البيت بيد حازمة لم تستطع أن تقاومها .

ولما حملقت فيه بعجب عقد لسانها عن الكلام ، قال لها :

ـــ أجل يا أماه ، من حقك أن تعجبى ، لأننى لست رجلا إذ تركت أختى المتبناة ، أيا كانت الدماء التى تجرى فى عروقها ، تندفع إلى هذا الطريق . لسوف أمضى وراءها اليوم وأعود بها .

فردت السنيورة بوجه بالغ الامتقاع :

ـــ إن اليوم الذى تفعل فيه هذا ، ستجدنى فيه ميتة فى هذا البيت . إنك تستطيع أن تربى وترعى من الأمر المفسدية فى هذا البيت ما تشاء ، ولكننى عندئذ سأكون فى قبرى .

www.ibtesama.com

ورغم غضبها ، فقد غلب عليها الحزن وجملها ، فى اللحظة التالية ، تنفجر بالبكاء ، وتتهاوى متخاذلة مرتعدة إلى مقعد . ولم يعد هناك مجال للمناورة، ولا للتظاهر . لقد تحطم قلب السنيورة عندما قالت هذه الكلمات لابنها الحبيب فيليب الذى ألقى بنفسه على ركبتيه ، حين رآها على هذه الحال وقبل يدها المعروقة المتهالكة فى ارتماد على حجرها ، وهتف قائلا :

-- أوه . . يا أمى الحبيبة ، لسوف تحطمين قلبى إذا تحدثت هكذا ! أوه ، لماذا تأمرين أن أفعل مالا ينبغى أن يفعله الرجل ؟ إننى على استعداد لإطاعتك يا أماه ، ولكن كيف أترك أختى تهيم على وجهها مشردة فى البرارى .

فقالت السنيورة وهى تتمالك نفسها بعض الشىء :

— أعتقد أن هذا المدعو اليساندرو لديه شىء يسميه بيتا . أليس لديهما مشروعات ؟ ألم تقل فى رسالتها ماذا ستفعل ؟

— قالت فقط إنهما سيذهبان إلى الأب سالفيرديرا أولا .

فقالت السنيورة فى دهشة مفاجئة :

— آه . . .

ولكنها حين أعادت التفكير ، رأت أن هذا خير ما يمكن أن يحدث م فأردفت قائلة :

— إن الأب سالفيرديرا سوف يشير عليهما بما يجب أن يفعلا . إنه يستطيع بلا شك أن يعد لهما سبل الاستقرار فى سانتا باربارا على نحو ما ، إنك

www.ibtesama.com

ياولدى حين تفكر فى الأمر ستجد أن من المستحيل إعادتهما ،ساعدهما بأية وسيلة ترضاها ولكن ، لاتأت بهما .

ثم توقفت هنيهة قبل أن تستطرد قائلة :

ــ إلا بعد أن أموت يافيليب ، وان يطول بى العمر .

ووضع فيليب رأسه فى حجر أمه ، وأخذت هى تمسح على شعره فى حنان بالغ ، قائلة :

ــ ياولدى فيليب ، إنها لقسوة من القدر أن تحرمنى منك فى النهاية .

فصاح قائلا فى ألم شديد :

ــ أماه ، أماه ، إننى ابنك ، ملك يديك ، فلماذا تعذبيننى هكذا ؟ !

فقالت فى إعياء وبصوت واهن :

ــ إننى لن أعذبك بعد ذلك ، ولكننى أطلب منك شيئا واحدا ، وهو ألا تدعنى أسمع مرة أخرى اسم هذه الفتاة التعسة التى جلبت كل هذه الأحزان على بيتنا . لاتدع أحداً فى هذا المكان ، رجلا كان أم امرأة ، أم طفلا ينطق باسمها إلا إذا ذكرها كلص . . كلص جياد !

فوثب فيليب واقفا وقال :

ــ أماه . إن الجواد « بابا » ملكها . لقد أعطيته لها بنفسى عند مولده .

ولم تجب السنيورة ، لأنها سقطت مغشيا عليها . وأسرع فيليب ، فى حزن وفزع ينادى الخادمات ثم حملها إلى فراشها حيث لزمته أياما عديدة ،وكانت خلالها تتأرجح بين الموت والحياة . وراح فيليب يرعاها رعاية الحبيب لحبيبته ،

www.ibtesama.com

وكان يرقب كل خلجة منها بنظرات باكية . ولم تتحدث هى إلا قليلا ، بسبب ضعفها من ناحية ، ولما خامرها من يأس من ناحية أخرى ؛ ذلك أن السنيورة كانت قد تلقت الضربة القاضية ورغم أن موتها لم يكن وشيكا ، إلا أنهـا كانت تعرف أنها فى الطريق إليه بسرعة .

ولكن فيليب لم يكن يعرف هذا . فلما رآها من ثم تروح وتغدو فى البيت مرة أخرى ، وإن كانت خطواتها أبطأ قليلا ، وبوجه ليس عليه تغيير كبير، كما كان يخشى ، أدرك أنها ستعود إلى ما كانت عليه بعد فترة وجيزة . ورأى أن الوقت قد حان ليمضى باحثا عن رامونا . وكان يرجو أن يجدها مع اليساندرو فى سانتا باربارا . فإذا وجدها فإن عليه أن يتركهما هنـاك ، أو فى أى مكان يجدهما فيه . لأنه لم يعد يفكر قط فى احتمال إعادتهما إلى البيت . ولكن عليه أن يراهما ، وأن يساعدهما إذا لزم الأمر ، لأنه لاينبغى أن تشعر رامونا بأنهـا منبوذة مشردة وهو على قيد الحياة .

وفى ذات ليلة ، قال لأمه فى اهتياج :

— إنك الآن فى صحة طيبة يا أماه ، ولهـذا أرى أن أقوم برحلة ، ولن أغيب طويلا — لا أكثر من أسبوع .

وفهمت هى مراده ، وقالت متنهدة :

— إن صحتى ليست طيبة ، ولكننى سأبقى على أحسن ما أستطيع من قوة . فإذا لم يكن بد من قيامك بهذه الرحلة ، فقم بها الآن .

ما أشد التغيير الذى طرأ عليها ! هـكذا فكر فيليب وهو يقول :

www.ibtesama.com

— هذا ما يجب يا أماه ، و إلا لما تركتك أبداً . ولأنى سأبدؤها قبل شروق الشمس ، فيحسن أن أودعك الآن .

ولكن عندما بدأ أولى خطواته فى الصباح ، فتحت أمه نافذة غرفتها ووقفت فيها شاحبة ، واهنة ، صامتة ، ثم قالت أخيراً :

— ألا مفر من ذهابك ياولدى ؟

فقال فيليب وهو يطوقها بذراعيه و يقبلها المرة بعد الأخرى :

— أجل يا أماه العزيزة . أرجوك أن تبتسمى ! ألا تستطيعين ؟

— لا ياولدى . لا أستطيع . وداعاً ، ولتحفظك السماء . وداعاً .

ثم استدارت حتى لا تراه وهو يرحل .

ومضى فيليب بقلب حزين . ولكن عزيمته لم تهن . و بعد أن انطلق قدماً فى طريق النهر إلى البحر انعطف واستمر فى انطلاقه على طول الساحل ، يسأل هنا وهناك ، بحذر ، عن شخصين تنطبق عليهما أوصاف زامونا واليساندرو . ولكنه لم يجد أحداً رأى هذين الشخصين .

ولما وصل فى مساء اليوم التالى إلى إرسالية سانتا باربارا ، كان أول شخص رآه ، هو الأب المبجل سانفيرديرا جالساً فى الردهة . وأشرق وجه الأب سروراً حين رأى فيليب مقبلا عليه ، ثم تقدم نحوه متمنراً على عكازتيه ، قائلا :

— على الرحب يا ولدى . هل أنت بخير ؟ إنك ترانى ضعيفاً جداً ، وقد خذلتنى ساقاى إلى حد كبير فى هذا الخريف .

وشعر فيليب بخيبة الأمل حين سمع هذه الكلمات الأولى ، إذ أدرك أن

www.ibtesama.com

الأب ما كان يقولها لو أنه رأى رامونا ، وبعد أن رد على التحية باقتضاب قال للأب :

— أبى ، لقد جئت باحثاً عن رامونا ، أليست معك ؟

وارتسمت الإجابة على وجه الأب وهو يهتف قائلا :

— تبحث عن رامونا ؟ ماذا حدث للطفلة المباركة ؟

ولم يسع فيليب إلا أن يسرد عليه القصة المريرة ، دون أن يعفى نفسه من أية لائمة . وقد كان من الممكن أن يكون عناؤه أقل في سرد القصة لو أنه علم كيف أن الأب كان يدرك تماماً أمر السنيورة ومدى نفوذها العميق على كل من حولها . ولم يصدم الأب سالفيرديرا عند سماعه عن حب رامونا لاليساندرو . لقد تألم فقط لما حدث ، ولكنه لم يجد مايدعو إلى العار الذى أوجدته السنيورة . أما فيليب، فقد أدرك بمزيد من الوضوح ، وهو يسرد القصة ، مدى ظلم أمه لاليساندرو وقسوتها عليه .

وقال الأب سالفيرديرا :

— إنه شاب نبيل . وكان والده من أحب المساعدين للأب بيرى . وعليك يافيليب أن تعثر عليهما . وإنى لأعجب لماذا لم يأتيا إلى؟ لعلهما سيأتيان فيما بعد . فإذا وجدتهما ، فاحمل إليهما بركاتى وقل لهما إنى أريد أن يأتيا . فإنى أحب أن أمنحهما بركتى قبل أن أموت يا فيليب . وإنى لن أغادر سانتا باربارا مرة أخرى ، لأن منيتى قد حانت .

www.ibtesama.com

وكان فيليب شديد اللهفة على مواصلة البحث ، بحيث لم يكد يسمع كلمات الأب ، وأخيراً قال :

— إننى لن أهدأ أو أستريح حتى أجدهما . سوف أرحل الآن إلى فنتورا لأصل إليها مساء .

— أرسل إلى كلمة مع رسول إذا وجدتهما . أسأل الله ألا يكون قد وقع لهما مكروه . سوف أصلى من أجلهما يافيليب .

ثم عاد على عكازتين ودخل الكنيسة .

وكان ذهن فيليب ، وهو يعود إلى الطريق ، مفعماً بالحيرة والألم ، كان عاجزاً تماماً عن استنتاج أى الطرق التى اتخذها اليساندرو وراமونا ، أو السبب الذى جعلهما يتخليان عن عزمهما على الذهاب إلى الأب سالفيرديرا . وبدا له أن تيميكيولا هى المكان الوحيد الذى يمكن أن يبحث عنهما فيه . ومع ذلك فقد كان فيليب قد سمع ، قبل قيامه بهذه الرحلة بأيام قليلة ، أنه لم يعد فى الوادى هندى واحد . ولكنه يستطيع ، على الأقل، أن يعرف أين ذهب الهنود . ورغم ضآلة هذا الأمل ، فلم يكن أمامه طريق آخر ، وراح فيليب يدفع جواده بقسوة فى طريق العودة ، حارماً نفسه وجواده من الراحة ولو ساعة واحدة . وهكذا كاد الجواد ينفق حين وصل به إلى مدخل الخور المؤدى إلى تيميكيولا . ومن ثم وثب عند أشد الأماكن ارتفاعاً وسار على قدميه ليوفر قوى الجواد . وفيما هو يشق طريقه صعدا بجهد وبطء فى ممر صخرى ضيق ، لمح فجأة رأس هندى يسترق النظر إليه من حافة عليا ، وأشار له بالهبوط ، واستدار الهندى برأسه كأنما يستشير

www.ibtesama.com

شخصاً معه ثم إذا بعدد من الأشخاص يظهرون الواحد بعد الآخر ، و يشيرون إلى فيليب لكي يصعد إليهم ، وقال فيليب لنفسه : «يا للمساكين! إنهم خائفون» ثم صاح قائلا لهم إن جواده متعب ولا يستطيع أن يصعد هذا المرتفع الشديد ، ولكنهم إذا أقبلوا نحوه فسوف يعطيهم مالا . ولوح لهم بكيس نقوده الذهبية ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم ، أخذوا ينحدرون ببطء ، ويتوقفون بين الحين والآخر ، ويرمقونه بنظرات لا تخلو من الشك . وعاد يلوح لهم بكيس النقود الذهبية و يغريهم . ولما استطاعوا أخيراً أن يروا وجهه بوضوح ، أقبلوا عليه مسرعين ، لأنهم رأوا أنه ليس وجه عدو .

ولم يكن بينهم غير واحد يستطيع ان يتكلم الإسبانية . وما كاد هذا الرجل يفرغ من الإجابة على أول سؤال لفيليب ، حتى تقدمت امرأة كانت ترهف السمع ، فسمعت اسم اليساندرو ، وتحدثت بسرعة بلغتها الهندية ، وقال الرجل لفيليب :

— هذه المرأة تقول إنها رأت اليساندرو .

قال فيليب في لهفة :

— أين ؟

— في تيميكيولا ، منذ أسبوعين .

— اسألها : هل كان معه أحد ؟ .

— لا . . كان بمفرده .

واختلج وجه فيليب وهو يردد هذه الكلمة « بمفرده » . ما معنى هذا ؟ هكذا راح يفكر . وعاد يسأل والمرأة تراقب وجهه بإمعان :

www.ibtesama.com

— هل هي واثقة بأنه كان بمفرده . ألم يكن معه أحد قط ؟

— نعم .. كل الثقة .

— وهل كان راكبا جوادا أسود كبيرا ؟

فردت المرأة فورا :

— لا . . كان راكبا جوادا أبيض . . جوادا أبيض صغيرا .

وكانت تلك المرأة هي نفسها كارمينا التي أرادت ، بكل وسيلة ، أن تحير وتضلل هذا الرجل الذي يطارد اليساندرو وراموناً . وفكر فيليب مرة أخرى وعاد يقول للرجل :

— اسألها هل رأته مدة طويلة ؟ ماهي المدة التي رأته خلالها ؟

— تقول إنه أمضى الليلة في نفس المكان الذي أمضتها هي فيه .

وقال فيليب في يأس :

— وهل تعرف أين هو الآن ؟ !

— كان في طريقه إلى محلة سان لويس ليستقل السفينة إلى مونتيري .

— لمـــاذا ؟

— إنها لا تعرف .

— هل قال متى سيعود ؟

— نعم .

— متى . .

www.ibtesama.com

ــ أبداً . . قال إنه لن يضع قدمه مرة أخرى فى تيميكيولا .

ــ هل تعرفه جيداً .

ــ تعرفه كما لو كان أخاً لها .

أية أسئلة أخرى يستطيع فيليب أن يوجهها ؟ وبآهة حرى ندت من أعماق قلبه ، ألقى إلى الرجل بقطعة نقد ذهبية ، وإلى المرأة بمثلها ، ثم قال :

ــ إننى آسف لقد كان اليساندرو صديقاً لى . وكنت أريد أن أراه .

ثم انصرف مبتعداً وكارمينا تشيعه بنظرات زاخرة بمشاعر الانتصار .

ولكن عندما ترجمت لها عبارته الأخيرة ، جفلت ، وبدا كأنها تريد أن تلحق به ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت مفكرة : لا ، لعله كاذب ، ولعله أن يكون عدوا رغم كل شىء . إننى لن أخبره بشىء . لقد أراد اليساندرو ألا يعثر عليه أحد . ولهذا لن أخبره بشىء .

وهكذا تلاشت آخر فرصة لإغاثة رامونا . تلاشت فى لحظة ، وكأنها هباء ذرته الرياح فى نفخة واحدة ، نفخة صديقة محبة كذبت لتنقذها . وعاد فيليب مفعم النفس بالحزن إلى بيته ، لقد كانت رامونا مريضة جداً عندما رحلت عن البيت ، فهل تراها ماتت ؟ ودفنت بيدى اليساندرو الحزين الوحيد ؟ وهل كان هذا هو السبب فى رحيل اليساندرو نحو الشمال عازما ألا يعود أبداً ؟ لا شك أنه كان أحمق حين رفض أن يذكر اسم رامونا أمام الهنود . لا بد أن يعود إذن ويعيد السؤال والاستفسار . إنه بمجرد أن يرى والدته ، سوف يعود ولا يكف عن البحث عنها حتى يعثر عليها أو على قبرها . ولكن ما إن دخل فيليب

البيت ورأى وجه أمه حتى أدرك أنه لن يغادرها مرة أخرى حتى يريح جثمانه في مقره الأخير .

وقالت أمه بصوت واهن :

— حمداً لله على عودتك . لقد خشيت ألا تعود فى الوقت المناسب لتوديعى . إننى فى الطريق إلى تركك يا ولدى .

ثم انحدرت الدموع على وجنتيها .

ورغم أنها لم تكن راغبة فى الحياة ، فإنها أيضاً لم تكن راغبة فى الموت — هذه السنيورة المسكينة الحادة المزاج ، المتكبرة المنهزمة ، المحرومة فى النهاية . لقد بدا أن كل عزاء يمكن أن تستمده من مذهبها الدينى ، لم يعد له جدوى . لقد ابتهلت بحرارة واستمرار ، ولكنها لم تجـــد السكينة والسلام . وأخذت تركز عينيها المتوسلتين على وجه السيدة العذراء وعلى وجوه القديسين ، ولكن الجميع كانوا ينظرون إليها ، كما لاح لها ، بنظرات صارمة . وكانت تتأوه قائلة :

— لو كان الأب سانفيرديرا يأتى فقط ، إذن لأمكنه أن يملأ نفسى بالسكينة . اشد ما أتمنى لو عشت حتى يأتى .

ولما أخبرها فيليب بحالة الأب السيئة ، وبأنه لن يستطيع أبداً أن يقوم بالرحلة إلى المزرعة مرة أخرى ، استدارت بوجهها إلى الجدار وراحت تبكى . إنها لم تكن تريد رؤيته من أجل سكينة النفس وحسب ، وإنما لتضع بين يديه جواهر أورتيغا أيضاً . ترى أى مصير ستنتهى إليه هذه الجواهر ؟ وإلى أى إنسان يجب أن تعهد بها إليه ؟ هل يوجد قسيس قريب من المكان يمكن أن تأتمنه على هـذا

www.ibtesama.com

هذا الكنز؟ فعندما ذكرت أختها اسم « السكنيسة » فى تعليماتها ، كانت تعنى كما فهمت السنيورة مور ينو ، كنيسة الفرنسكان ، ورغم أن السنيورة لم تكن تجرؤ على استشارة فيليب ، إلا أنها كانت ترى أن هذا ضرورى . وأخذ إحساسها المتزايد يوما بعد يوم بالحيرة والقلق يوهن قواها ، ويرفع باطراد درجة حرارتها . وكانت لم تسأل فيليب عن نتيجة رحلته ، ولم يجرؤ هو على أن يذكر اسم رامونا أمامها . ولما لم يعد يقوى فى النهاية على الاحتمال أكثر مما فعل ، قال لها ذات يوم :

— أماه . . إننى لم أجد أثراً لرامونا ، ولا أعرف إطلاقا أين هى . إن الأب سالفيرديرا لم يرها ولم يسمع عنها ، وأخشى أن تكون قد ماتت .

وكانت الإجابة الوحيدة التى ردت بها السنيورة هى :

— هذا أحسن .

ثم استغرقت مرة أخرى فى أفكار الحيرة والقلق الدائرة حول الكنز المخبوء . وفى كل يوم كانت تؤكد لنفسها قائلة : « غداً سأخبر فيليب » ، ثم يأتى الغد ، وترجىء الأمر مرة أخرى . وأخيراً قررت ألا تخبره إلا فى ساعة الاحتضار ، فمن يدرى ، فربما جاء الأب سالفيرديرا مرة أخرى ، وعندئذ يغدو كل شىء على ما يرام . وكتبت بيد مرتعدة رسالة إليه ترجوه أن يأتى إليها ، ثم أرسلتها مع رسول كلفته بأن يستأجر محفة وأربعة رجال لحمل الأب سالفيرديرا طوال الطريق إليها فى رفق وعناية . ولكن عندما وصل الرسول إلى سانتاباربارا كان الأب فى حالة من الضعف لا تمكنه من مجرد الحركة ، بل ومن مجرد الكتابة . ولكنه استطاع بجهد أن يكتب بضع عبارات عبر فيها عن بركته لها ، وعن أمله فى أن

www.ibtesama.com

تكون الابنة المتبناة قد عادت إلى رعاية أصدقائها . وكان الأب فى حالة قلق شديد بعد أن أخذت الشهور تتوالى دون أن يسمع شيئاً عن « الطفلة المباركة » .

وسرعان ما وردت الأنباء بعد هذا بأن الأب سالفيرديرا قد مات . وكانت تلك ضربة رهيبة للسنيورة جعلتها لا تترك فراشها قط . وهكذا مر العام ، وفيليب لا يكف عن الشعور بالعذاب المرير بسبب حزنه على أمه المحتضرة ، ومخاوفه المستبدة به على رامونا المفقودة .

وغدت النهاية جد قريبة الآن . . وبدا بوضوح أن السنيورة أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ولم يعد الدكتور المقيم فى فنتورا يتردد عليها قائلا إنه لا يستطيع أن يفعل من أجلها شيئاً . ولم يبق أمام أحد شىء إلا أن يخفف عنها آلام الاحتضار بقدر الإمكان . وكان الواضح أنها ستلفظ آخر أنفاسها فى خلال يوم أو يومين . وكان فيليب لا يكاد ينتقل من جوار سريرها . ولعله يكون من النادر أن نجد أى أم ابنا مثله يحبها و يمرضها على هذا النحو . بل ليس هناك ابنة يمكن أن تكون أكثر حنانا ووفاء . وفى خلال هذه الأيام الأخيرة التى اشتدت فيها الروابط بينهما ، زال من قلب كل منهما الشعور بالعداء والنفور .

كانت تهمهم قائلة :

— يا حبيبى فيليب ! لقد كنت لى نعم الابن .

وكان فيليب يرد عليها قائلا وهو يحنى رأسه بين يديها :

— يا أمى الحبيبة . . كيف سأعيش بعدك ؟

وكانت يداها قد بلغتا من الهزال والشحوب والضعف بحيث لا يكاد أحد يصدق أنهما نفس اليدين القاسيتين القويتين منذ عام فقط . إن حالة السنيورة

www.ibtesama.com

الآن لا شك تجعل أى إنسان لا يضن عليها بالصفح . ولو أن رامونا رأتها ، لذرفت عليها دموع العطف والإشفاق . وكانت نظرات السنيورة تنم أحيانا عن الفزع . إنها تفكر فى السر : تفكر فى كيف تفضى به إلى فيليب ، وماذا سيقول فيليب . وحانت اللحظة أخيراً . وكانت قد تنبهت بصعوبة من إغماءة طويلة ، ولا شك أن الإغماءة التالية ستكون القاضية . هكذا كانت تعرف أكثر مما يعرف المحيطون بها . ولما استردت حواسها ، لهثت قائلة :

— فيليب ... فيليب بمفرده !

وفهم فيليب ما تريد ، فأشار للباقين بالانصراف .

وقالت هى مرة أخرى ، وقد أدارت عينيها نحو الباب :

— بمفرده ! .

وقال فيليب :

— غادروا الغرفة جميعاً ، وانتظروا فى الخارج .

ثم أغلق الباب وراءهم . وترددت السنيورة حتى فى هذه اللحظة الأخيرة . وشعرت أنها تكاد تكون على استعداد لأن تموت ، تاركة الكنز المخبوء للمصادفة تكشف عنه ، بدلا من أن تذكر بنفسها لفيليب ما تراه الآن — ما تراه بنظرات الموت النافذة القوية الواضحة الرهيبة ، مما سيجعله حتى بعد موتها ، يعاتبها بأفكاره .

ولكنها لم تجرؤ على الكتمان . ومن ثم أشارت إلى تمثال سانت كاترين التى كان وجهها — كما خيل إليها — مقطبا لا أثر فيه للصفح عنها ، ثم قالت :

www.ibtesama.com

ـ فيليب .. انظر فيما وراء هذا التمثال .

وظن فيليب أنها تهذى ، ومن ثم قال بحنان :

ـ لا شىء هناك يا أمى العزيزة . اطمئنى ، إننى معك .

وخامر المرأة المحتضرة فزع جديد ، ترى هل تجبر على أن تحمل السر إلى قبرها ، هل ستحرم من هذا الاعتراف الأخير ؟

ـ لا لا يا فيليب . هناك باب سرى .. انظر وافتحه . إذ يجب أن أخبرك .

وأسرع فيليب بإزاحة التمثال ، حيث رأى حقا الباب الذى تحدثت عنه .

وقال :

ـ لا تقولى شيئاً الآن يا أماه ، انتظرى حتى تتمالكى قوتك .

وفيما هو يتحدث ، استدار ورأى ، بجزع ، أمه جالسة منتصبة فى فراشها ، ويدها اليمنى ممدودة تشير إلى الباب ، وعيناها تلمعان بنظرات زجاجية غائرة ، ووجهها يختلج بشدة . وقبل أن تند عن شفتيه صيحة ، تهالكت السنيورة مرة أخرى ، ولفظت أنفاسها الأخيرة .

وأسرعت النسوة ، الواقفات خارج الغرفة ، عند سماعهن صيحة فيليب ، إلى الداخل ، وشرعن فى البكاء بأصوات مرتفعة عندما رأين ، من النظرة الأولى ، أن كل شىء قد انتهى . أما فيليب ، فقد انتهز فرصة الاضطراب ، وأعاد التمثال إلى مكانه بوجه شاحب مزموم الشفتين . وحتى فى تلك اللحظة غمره

www.ibtesama.com

إحساس من الفزع لما سوف يرى . ترى ماذا سيجد ، هو الابن ، وراء هذا الباب السرى الذى ماتت أمه وهى تحملق فيه بنظرات ملؤها الفزع والألم ؟ وقد ظل هذا الإحساس المريب يخامره طوال الأيام الأربعة التالية التى وارى فيها أمه الثرى . وكانت الجنازة مهيبة ، ولم تتسع الكنيسة لربع الذين جاءوا للعزاء من بعيد ومن قريب ؛ إذ كان كل شخص فى المنطقة راغباً فى تشييع السنيورة إلى مقرها الأخير . ومن فنتورا جاء قسيس ، ومن محلة سان لويس جاء آخر ، ولما تم كل شىء ، حملت السنيورة إلى المدافن فى سفح التل ووضعت بجوار زوجها وأبنائها ، وهكذا رقد فى النهاية ، بسكون وهدوء ، القلب العاطفى القلق المتكبر ! ولما رأى الخدم ، فى الليلة التالية للجنازة ، فيليب يدخل غرفة أمه ، ارتعدوا وتهامسوا فيما بينهم : «أوه .. لا ينبغى أن يفعل هذا . إنه سيحطم قلبه . ما أشد حبه لها !! » .

وجرؤت العجوز ماردا على متابعته ، وقالت له وهى على عتبة الباب :

ـ ياعزيزى السنيور فيليب ، لا تفعل هذا ؟ أرجوك أن تعود .

ولكنه أبعدها برفق وقال لها :

ـ إننى أفضل أن أبقى هنا ياماردا العطوف .

ثم أغلق على نفسه الباب من الداخل .

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما خرج بوجه مزموم الشفتين . لقد أحس أنه دفن أمه مرة أخرى . ولا شك أنها كانت على حق فى شعورها بالفزع عند إخبارها له بقصة كنز أورتينا .

www.ibtesama.com

وكان قد ظل فى حيرة كاملة حتى عثر على رسالة أورتينا فى قاع صندوق الكنز . وبعد أن فرغ من قراءتها ، جلس بلا حراك فترة طويلة ، ووجهه مطمور بين يديه ، والألم المرير يعتصر روحه . وقال لنفسه فى حزن ومرارة :

ــ كانت ترى مافعلته رامونا عاراً ، إذن فما هذا ؟

ولكن شيئاً واحداً بقى أمام فيليب الآن . فإذا كانت رامونا على قيد الحياة فلا بدأن يعثر عليها ، وأن يرد لها مقتنياتها هذه الشرعية . أما إذا كانت قد ماتت فيجب أن تحول هذه الجواهر إلى إرسالية سانتا باربارا .

وعاد يقول لنفسه :

ــ لاشك أن أمى كانت تنوى أن تقدم هذه الجواهر إلى الكنيسة . ولكن لماذا احتفظت بها كل هذا الوقت ؟ إن هذا السر هو الذى قتلها ؟ فيا للعار . . يا للفضيحة ! .

وأحس فيليب أن أمه لن تبعث إلى العالم الآخر من القبر الذى دفنت فيه!

وبعد أن أعاد كل شىء كما كان فى المخبأ الأمين ، جلس وكتب رسالة إلى رئيس إرسالية سانتا باربارا يخبره فيها بوجود هذه الجواهر الثمينة التى سوف تصبح فى ظروف معينة ، ملكا للإرسالية . وفى الصباح الباكر ، سلم الرسالة إلى جوان كانيتو قائلا :

ــ سأمضى الآن فى رحلة يا جوان ، فإذا حدث لى شىء ولم أعد منها ، فابعث بهذه الرسالة مع شخص تثق به إلى إرسالية سانتا باربارا .

www.ibtesama.com

فسأله الهرم چوان فى قلق :

— هل ستطول غيبتك ياسنيور فيليب ؟

— لا أعرف يا چوان . قد تطول غيبتى ، وقد تقصر ، وإنى سأترك كل شىء فى رعايتك ، وسوف تحسن التصرف بخبرتك ، وأنا أعرف هذا . وسوف أعلن للجميع أنك ستقوم هنا مقامى .

فقال الشيخ چوان وهو يحس بسعادة لم تخامره منذ عامين :

— شكرا يا سنيور فيليب . شكرا . يمكنك حقا أن تثق بى . فأنا لم يشغلنى عن التفكير فى شئون هذا البيت شىء مذ كنت طفلا ياسنيورفيليب .

ولو أن السنيورة كانت فى الجنة ، لخامرها الأسى والحزن كما لو كانت فى الجحيم ، إذا عرفت ما كان يدور بذهن فيليب وهو يركض بجواده فى ذلك الصباح، خارجا من البوابة التى خرج منها فى اليوم السابق باكيا وراء نعشها .

وكان يقول لنفسه :

— وكانت ترى أن ما فعلته هى ليس عارا على بيت آل مورينو ! يا إلهى !؟

www.ibtesama.com

(٢٢)

لم يتبادل اليساندرو مع رامونا غير عبارات قليلة طيلة اليوم الأول من رحلتهما الحزينة . وكان اليساندرو يسير عند رأسى الجرادين ورأسه هو مطرق ، وعيناه مركزتان على الطريق . وأخذت رامونا ترقبه فى لهفة وخوف ، ولم يكن هو يستجيب حتى لصوت الطفلة ومناغاتها الضاحكة . و بعد أن أقاما خيمة النوم ، قالت له رامونا :

— يا عزيزى اليساندرو . . ألا تخبرنى إلى أين نمضى ؟

وكان فى صوتها ، رغم تلطفها ، نبرة خفيفة من الإحساس الجريح . ومن ثم ألقى اليساندرو بنفسه على ركبتيه أمامها وهتف قائلا :

ـ يا ماجيللتى . يا ماجيللتى . . إنه ليلوح لى أننى سأجن . إننى لاأعرف ماذا أفعل ، ولا فيم أفكر . إن أفكارى كلها تبدو كأنها تدور كأوراق

www.ibtesama.com

الشجر فى الجداول حين المطر فى الربيع . أتظنين أنى سأفقد عقلى ، إن ماحدث يكفى لأن يحدث لى هذا .

وأخذت رامونا ، وقلبها معتصر بالخوف ، تخفف عنه بقدر ما تستطيع ، ثم قالت :

ـ يا عزيزى اليساندرو . هل نذهب إلى لوس أنجليس ، حيث لا نعيش مع الهنود مرة أخرى . وهناك يمكنك أن تجد عملا ، ويمكنك أن تعزف فى فى الحفلات الراقصة بين الحين والحين ولا بد أن هناك أعمالا كثيرة . وفى مقدورى أن أجد المزيد من أعمال الحياكة أيضاً . ولسوف يكون الحال هناك أفضل فى رأيى .

وارتسم الفزع الشديد على وجهه إزاء هذه الفكرة ، وصاح قائلا :

ـ أتعيشين بين البيض ؟ ما ظن ماچيللا بمصير هندى أو هنديين يعيشان وحيدين بين قوم من البيض . إذا كانوا يأتون إلى قرانا ويطردوننا بالمئات فى المرة الواحدة ، فماذا يفعلون بالرجل الواحد ، أوه ! إنها لحماقة يا ماچيللا !

فقالت بإلحاح :

ـ ولكن هناك عدداً كبيراً من قومك يعملون فى خدمة البيض فى سان برناردينو وغيرها من المدن . فلماذا لا نستطيع أن نفعل مثلهم .

فقال بحرارة :

ـ نعم . . فى خدمة البيض . كما يعملون ! إن ماچيللا لا تعرف الحقيقة ؛ إذ ليس هناك رجل أبيض يدفع للهنود غير نصف الأجر . وحتى منذ أمد بعيد ،

www.ibtesama.com

قبل أن يرحل جميع الرهبان الذين كانوا يحاولون مساعدة الهنود ، أخبرني أبي أن التقليد جرى على أن ينال الهندى نصف الأجر الذى يناله الرجل الأبيض أو المكسيكى عن العمل الواحد . وقد كان المكسيكيون يفعلون هذا أيضاً يا ماچيللا . وإنهم الآن يدفعون للهنود نصف الأجر مالا أحياناً ، أو دقيقاً رديئا ، أو أشياء أخرى يزهدون فيها أحياناً ، وفى بعض الأحيان يكون الأجر الضئيل مشروبات روحية ، وإذا رفض الهندى ذلك وطالب بأجره مالا ، ضحكوا منه ، واستغنوا عنه . وقد حدث فى سان برناردينو فى العام الماضى أن أطلق أحدهم النار على هندى رفض أن يأخذ على عمل يوم كامل زجاجة خمر رديئة ، وجرحه فى وجهه وطلب منه أن يلتزم الأدب بعد ذلك . أوه . . ماچيللا ، لاتطلبى منى العمل فى المدن لأنى قد أقتل أحداً إذا رأيت أشياء كهذه ياماچيللا .

وارتعدت رامونا والتزمت الصمت . واستطرد اليساندرو يقول :

— إذا لم تكن ماچيللا خائفة فأنا أعرف فى أعلى الجبال مكاناً لم ولن تطأه قدم رجل أبيض . وقد اكتشفته عندما كنت أطارد دباً . وكان ذلك الوحش قد قادنى إلى هناك ، حيث عرينه . وقلت لنفسى عندئذ إن هذا المكان يصلح مخبأ لرجل . وهناك نبع من الماء ، وواد أخضر صغير ، يمكننا أن نعيش هناك ، ولكن حياتنا ستكون مجرد البقاء على قيد الحياة . إنه صغير جداً . . ذلك الوادى . فهل تشعر ماچيللا بالخوف ؟

— نعم يا اليساندرو . . سوف أشعر بالخوف وأنا أعيش هناك فى الجبل المرتفع . أرجوك ألا تذهب إلى هناك . حاول أن تبحث لنا عن مكان آخر أولا ، أليس ثمة قرية أخرى تعرفها ؟

www.ibtesama.com

ـــ هناك قرية سابوبا فى سفح جبل سان جا كنتو . وقد سبق أن فكرت فى هذا . وقد ذهب بعض قومى إلى هناك من تيميكيولا ، إلا أنها قرية صغيرة فقيرة ياماچيللا . وأعتقد أنك لن تحبى الحياة فيها ، وكذلك لا أظن أنها ستكون أكثر أمنا من سان باسكويل ، وإن هناك رجلا مسنا عطوفا يمتلك الوادى كله ـ إنه السنيور رفاللو . وقد أنشأ هذه القرية عندما جاء إلى المنطقة . وهى تعتبر من أقدم القرى . وهذا الرجل شفيق بجميع الهنود ، وقد قال لهم إن فى مقدورهم أن يعيشوا فى سلام دائم ، وقد مات ، وورثه أبناؤه الثلاثة ، وأعتقد أنهم سيحافظون على وعد أبيهم للهنود . ولكن ، من يدرى يا ماچيللا . إنهم سيموتون يوما ما أو يعودون إلى المكسيك ، كما فعل السنيور ڤالديز ، وعندئذ يستولى عليها الأمريكيون ، كما فعلوا فى تيميكيولا . بل إن هناك الآن رجالا من البيض يعيشون فى الوادى . وعلى أية حال سوف نذهب إليها لترى ماچيللا ماذا ينبغى أن نفعل ، فإذا رأت أن نبقى فسوف نبقى .

وكان الوقت فى ساعة مبكرة من بعد الظهر حين دخلا الوادى العريض فى جبال سان جا كنتو . وكانا قد دخلاه من الغرب ، ورغم أن السماء كانت فوقهما ، وهما يدخلان ، داكنة مظللة ، إلا أنها بدت من جانب الوادى الشرق والشمال الشرق ، تفيض بنور عجيب ، وردى باهر ، وذهبى فى وقت واحد . وكان المنظر فى جملته رائعا . . إذ بدت قمة الجبل بمرتفعاتها كأنها أبراج ومراقب قلعة مشيدة بالياقوت ، وكان الوهج يبدو كأنه ينفذ بين جدرانها .

وصاح اليساندرو قائلا :

ـــ انظرى إلى جبل سان جا كنتو .

وقالت رامونا بابتهاج :

www.ibtesama.com

— إنه فأل حسن ، فإننا ذاهبان من الظلام إلى النور .

وعادت تنظر وراءها إلى الغرب ، حيث السماء داكنة مظلمة .

وقال اليساندرو :

— إنني لست متفائلا ، لأن العتمة تمتد بسرعة أكثر مما ينبغي .

وكانت تلك هي الحقيقة ، لأن الرياح ، وهو يتحدث ، هبت بعنف من الشمال ، منتزعة قطعا من السحب السوداء ، ومرسلة بها في كتل عبر صفحة السماء ، وما هي غير لحظات حتى بدأت ندف الثلوج تتساقط .

وقال اليساندرو هاتفا وهو يدرك تماما معنى ماحدث :

— ياللعذراء المقدسة .

وأخذ يحث الجوادين ويجرى مسرعا بجوارهما ، ولكن بلا جدوى . لأن الأمر كان فوق طاقة «بابا» وبنيتو ، وهما يجران تلك المركبة الثقيلة .

وقال اليساندرو متأوها :

— إن هناك مربطا للغنم وكوخا على مسافة ميل ، هذا لو استطعنا الوصول إليهما ، أخشى ياماچيلا أن تتجمدى من فرط البرد مع الطفلة .

وقالت رامونا :

— إنها دافئة على صدرى . ولكن أى نوع من الجليد فى هذه الرياح ؟ إنه كأسنة السكاكين على ظهرى .

وبدرت عن اليساندرو غمغمة استياء أخرى ، إذ كان الجليد يتراكم بسرعة

www.ibtesama.com

بحيث غطى وجه الطريق، ثم هبطت سرعة الرياح شيئا ما ، مما جعل رامونا تقول بأسنان تصطك ، وهى تزيد فى ضم الطفلة إلى صدرها :

ـ حمدا لله . . إن الرياح لم تعد تلذع كما كانت .

ـ بل كنت أفضل أن تستمر فى الهبوب على الركود ، لأنها فى هبوبها تحمل الجليد أمامها ، وإذا استمر الحال هكذا فترة أخرى ، فلن نستطيع أن نرى ما حولنا فى ليل دامس .

وظل الجليد يتراكم ويتساقط بسرعة متزايدة ، وتكاثف الهواء ، وبدت حالة الجو ـ كما قال اليساندرو ـ أسوأ من ظلمة الليل لقد كان هذا الضباب الأبيض الغريب الكثيف يجمد الأنفاس ويخنقها . ولم يلبث اليساندرو أن أدرك من تعثر المركبة بشدة ، أنه حاد عن الطريق ، وتوقف الجوادان ، ورفضا الاستمرار فى المسير .

وصاح اليساندرو قائلا :

ـ إذا بقينا هنا فقد ضعنا ، هلم يا بنيتو العزيز . . هلم . .

ثم أمسك برأسه وجذبه بقوة إلى الطريق ، وأرغمه على متابعة السير وكان الموقف رهيبا جعل قلب راموناً يغوص فى صدرها . وأحست بالخدر يتمشى فى ذراعيها ، وتساءلت إلى متى تستطيع أن تحافظ على سلامة طفلتها ؟ ونادت اليساندرو ولكنه لم يسمعها ، إذ كانت الرياح قد عادت الى الهبوب بقوة ، وأخذت ندف الجليد تتطاير كتلا ، وبدا كأن المرء يسير فى قلب عاصفة من ندف هذا الجليد .

www.ibtesama.com

وقالت رامونا لنفسها : «لسوف نموت . . ولعل هذا يكون خيرا» وكان هذا آخر إحساسها بالحياة حتى أفاقت وسمعت هتافا، ووجدت نفسها تضرب وتهز بقوة ، كما سمعت صوتا غريبا يقول :

— آسف لمعاملتك هكذا بقسوة ياسيدتى ، ولكن كان لا بد من حملك إلى النار ..

النار !! هل هناك أشياء جميلة مثل النار والدفء ؟! ووضعت طفلتها بطريقة آلية بين ذراعى المتحدث المجهول ، ثم حاولت أن تنهض عن مقعدها إلا أنها لم تستطع . وعاد الصوت الغريب يقول لها :

— اجلسى حيث أنت . لسوف أحمل الطفلة إلى زوجتى ثم أعود لأحملك . لقد كنت أعرف أنك لن تستطيعى الوقوف على قدميك .

ثم اختفى الطيف الطويل . ولم تلبث الطفلة أن شرعت تبكى حين وجدت نفسها تنتقل هكذا من الدفء الذى كانت ناعمة به .

وصاح اليساندرو وهو يسير عند رأسى الجوادين الخائضين فى الجليد :

— حمداً لله . . إن الطفلة على قيد الحياة ياماجيللا .

فقالت رامونا بوهن وهبات الرياح تكتسح صوتها فيبدو وكأنه الصدى الآتى من بعيد :

— أجل يا اليساندرو .

www.ibtesama.com

وكانت نجاتهم بمعجزة ؛ ذلك أنهم كانوا أقرب إلى الكوخ ومربط الغنم مما كان اليساندرو يعتقد ، ولكن لولا أن بعض المسافرين الهاربين من العاصمة وصلوا إليهما قبل اليساندرو ، لما استطاع أن يعرف الطريق ؛ ذلك أنه حين بدأ يشعر بقواه تخور ويقول لنفسه في يأس ، كما قالت رامونا : « إن هذه هي نهاية متاعبنا »، لمح ضوءا خافتاً إلى اليسار ، وسرعان ما أدار رأس الجوادين تجاهه . وكانت الأرض وعرة متكسرة ، وقد عانى أكثر من مرة خطر انقلاب المركبة . إلا أنه تابع المسير ، هاتفا بين الحين والآخر في طلب العون . وأخيراً سمعت استغاثاته ، وظهر ضوء آخر كان في هذه المرة يتأرجح وهو في الطريق إليه . ثم سمع اليساندرو هذه العبارة بوضوح كما لو أنها قيلت بلغة سان لويزينو ، وكان قائلها رجلا يتقدم نحوه والمصباح في يده :

— حسنا أيها الغريب . أعتقد أنك في محنة !

ولكن إجابة اليساندرو الشاكرة ، باللغة الإسبانية لم تكن كذلك في سمع الرجل الذي كان يدعى جيف هاير والذي قال لنفسه :

« يبدو أن هؤلاء المكسيكيين لا ينتهون بحق السماء ! اللعنة علىّ إذا أنا عشت طيلة حياتي في هذه المنطقة ، ثم أسمح لنفسي بالوقوع في قبضة عاصفة كهذه ! »

وفيما هو يضع الطفلة الباكية بين ذراعي زوجته ،قال في شيء من الضيق :

— لو كنت أعلم أنهم مكسيكيون يارى ، لما خرجت اليوم ، إنهم أشد احتمالا لمثل هذه الأجواء مني . .

وردت زوجته، قائلة، وهى تحمل الطفلة التى أحست بحنان الأمومة عند لمسة يديها، فأمسكت عن البكاء:

— لا ياجيف. أنت تعلم أنك لا تستطيع أن تترك أى مخلوق بشرى يمر أمام نارك الدافئة ليموت فى جو عاصف كهذا.

ثم هتفت للطفلة قائلة:

— يالك من مخلوقة صغيرة جميلة زرقاء العينين!

وأردفت قائلة لزوجها:

— تصور ياجيف وجود طفلة رقيقة كهذه فى مثل هذه العاصفة. لسوف أدفىء لها فورا بعض اللبن.

وقال جيف وهو يكاد يحمل رامونا إلى الكوخ:

— الأفضل أن تنظرى فى أمر الأم أولا يارى.. إنها تكاد تتجمد من البرد.

ولكن منظر الطفلة وهى تبتسم فى أمان كان أفضل شىء أعاد إلى رامونا إحساسها بالحياة، وما هى غير لحظات حتى استردت قواها كاملة، ووجدت نفسها بين جماعة غريبة. فعلى حشية فى ركن الكوخ كان يرقد شاب يبدو فى نحو الخامسة والعشرين، ينم اضطرام وجهه، والتماع عينيه، عن المرض الذى يعانيه. أما زوجة جيف الطويلة الدميمة فلم يكن منظرها يسر العين بوجهها المعروق، ويديها الجافتين المنقبضتين، وثوبها البالى، وحذائها الرث، وشعرها الجاف الخفيف المقصوص بإهمال فى عقدة وراء رأسها، والمتطايرة منه خصلات على جبينها. ولكن على الرغم من مظهرها الذى ينم على الإهمال فقد كان لها سمت وقور، وفى عينيها نظرات عطوف تثير فى النفس الشعور بالثقة والمودة فوراً. وكانت

www.ibtesama.com

عيناها الزرقاوان الباهتتان، محتفظتين بقوة البصر، ومن ثم قالت لنفسها وهى تركزهما على رامونا « هذه ليست مكسيكية عادية ، لاشك فى هذا » ، ثم قالت بصوت مسموع :

— هل أنتم من الرحل ؟ !

وحلقت رامونا بلا فهم ، لأن القليل الذى تعرفه من اللغة الإنجليزية لم يساعدها على فهم عبارة المرأة ، ومن ثم قالت فى أسف :

— آه .. سيدتى .. إننى لا أعــرف الحديث بالانجليزية ، وإنما بالإسبانية فقط .

— الإسبانية ؟ أتعنين المكسيكية ؟ إن جوس هنا يستطيع الحديث بها إلى حدما . ولكن الحديث يتعبه الآن ، لأنه يعانى من المرض الصدرى . وهذا ما دعانا إلى إحضاره هنا — حيث الجو دافىء .

ثم أرسلت ضحكة تهكم خفيفة ، وأردفت قائلة وهى ترمق الشاب المريض بنظرة حنان — كما يبدو الآن : اسألها ياجوس من تكون .

واعتمد جوس على مرفقه ، وركز عينيه اللامعتين على رامونا ، وقال بالإسبانية :

— إن أمى تسألكم .. هل أنتم مسافرون ؟ !

فقالت رامونا :

— نعم ، لقد جئنا على طول الطريق من سان دييجو .. ونحن من الهنود .

www.ibtesama.com

وهتفت أم جوس :

— هنود ؟ ليرحمنا الله ياجوس . هل استضفنا هنوداً حقاً ؟ حسنا ، حسنا ! إنها ملهوفة على طفلتها كأية امرأة بيضاء . فهذا واضح .. وسواء أ كانوا هنودا أم غير هنود ، فلابد لهم من البقاء الآن . إننا لا نستطيع أن نطرد كلبا فى مثل هذا الجو . أراهن أن والد الطفلة من الجنس الأبيض .. انظر إلى عينيها الزرقاوين .

وأنصتت رامونا وأرهفت النظر ، ولكنها لم تستطع أن تفهم شيئاً ، بل لقد خامرها الشك فى أن المرأة تتكلم بالإنجليزية ؛ ذلك لأنه لم يسبق لها من قبل أنها سمعت كل هذه العبارات الإنجليزية دون أن تفهم كلة واحدة منها . والواقع أن لهجة أهالى ولاية تنيسى كانت تغير الكلمات بحيث لم تستطع رامونا أن تفهم حتى البسيطة منها . ومن ثم استدارت إلى جوس وقالت برفق :

— إننى لا أفهم .. هل يرهقك أن تترجم لى ما تقوله والدتك ؟

ولم يكن جوس يقل عن أمه مرحا ، فقال لها :

— إنها تريد منى أن أخبرها بما قلت يا أمى . ولكننى لن أنقل إليها إلا العبارات التى ترضيها ..

ثم قال لرامونا :

— إن أمى تقول إن فى مقدورك البقاء هنا حتى تنتهى العاصفة .

وبأسرع من البرق ، أمسكت رامونا بيد المرأة ، ووضعتها على قلبها ، إعرابا عن شكرها واعترافها بالجميل ، وقالت هاتفة :

www.ibtesama.com

— شكراً .. شكراً يا سنيورة .

وسألت الأم ابنها :

— بماذا تناديني يا جوس ؟

— بلقب سنيورة .. وهو يعني يا سيدتي .

— أوه جوس . ! قل لها إنني لست أية سيدة ، وأخبرها أن كل شخص هنا يناديني باسم « العمة ري » أو « المسز هاير » ويمكنها أن تناديني بأيهما إذا سمحت .. يبدو أنها عذبة اللسان .

وفي شيء من الصعوبة شرح جوس وجهة نظر أمه بشأن الألقاب ، وهنا أخذت رامونا ، وهي تبتسم للأم والابن معا ، تردد الاسمين ، وبعد أن أحسنت النطق بهما ، قالت :

— إنني أفضل اسم « العمة ري » ، لأنها بشفقتها تعتبر عمة للجميع .

وقالت العمة ري :

— أليس هذا عجيباً يا جوس ، أن نجد في هذه البراري إنسانة تقول هذا ، كما يقول الجميع هنا ! إنني لا أعرف أني أكثر شفقة من أي شخص آخر . كل ما في الأمر أنني لا أريد أن أرى إنسانا يعاني أية محنة إذا أمكنني مساعدته . على أن هذا ليس بالشيء العجيب ، ولا أفهم كيف يمكن لأي شخص آخر ألا يكون هكذا .

فقال جوس بحنان :

— هناك الكثيرون الذين لا يشعرون بهذا يا أمي . ولو أنك خرجت إلى

الحياة فيما وراء هذه المنطقة لرأيت هؤلاء الكثيرين . ولا شك أن الذين هم أشفق منك بالغير قليلون جداً .

وكانت رامونا قابعة فى الركن بجوار المدفأة ، وطفلتها مستكنة فى صدرها وكان المكان الذى بدا لها فى أول الأمر جنة من الدفء ، قد ظهر على حقيقته مجرد كوخ بسيط لا يكاد يحمى الإنسان من العاصفة الهوجاء فى الخارج . وكان مشيداً من ألواح الخشب غير المصقولة ، ثبت بعضها إلى البعض الآخر فى غير إتقان ليكون مثابة مؤقتة لأحد الرعاة . وكان كما يبدو قد ظل مهجورا مدة طويلة ، إذ أن الكثير من ألواحه كان مخلخلا ومكسورا . ومن خلال فجواته ، ومع كل هبة رياح ، كانت ندف الجليد تتسلل إليه . وفى المدفأة كان ثمة أعواد تحترق من حطب القطن الجاف الذى جمعه جيف هاير بسرعة قبل أن تشتد العاصفة . وكان ثمة أعواد أخرى مكومة بجوار المدفأة ، وقد رمقتها العمة رى فى قلق وهى ترى أنها لا تكاد تكفى لنشر الدفء طيلة ليلة باردة كهذه . ومن ثم سألت ابنها :

— هل أنت مستدفىء يا جوس ؟

ـ ليس إلى حد كبير يا أماه . . ولكننى لا أشعر بالبرد أيضاً . وهذا ليس بالقليل .

وكان هذا هو أسلوب أسرة هاير فى التكيف مع الظروف . وكانت هذه الفضيلة تجعلهم لا يعانون من شظف الحياة إلا بالقدر الضئيل . ولهذا لم يكن هناك فى جنوبى ولاية تنيسى أسرة أكثر قناعة ، وأقل رخاء وحظا من هذه الأسرة . ومع هذا لم يكن أحدهم يتذمر وأيا كان السوء الذى يتعرضون له

www.ibtesama.com

أو الحاجة التى يعانون منها ، فإنهم لا يزيدون على القول : هذا مجرد سوء حظ . دون أن يفعلوا شيئا — أو يحاولوا أن يفعلوا شيئا — إزاءه . وكانوا فى جلتهم يتمتعون بالطيبة والعطف على غيرهم ، والمرح ـ وأيا كان الأمر فقد كانوا ينعمون فى الحياة براحة أكثر من عدد كبير من أفراد الأسر التى يبدو من ظواهر أحوالهم أنهم أحسن كثيرا منهم . وعندما انهارت صحة الابن الأكبر ، والوحيد ، جوس ، وتعرض للنزيف بعد النزيف ، وقال الطبيب إن الأمل الوحيد فى إنقاذه هو حمله فى مركبة عبر السهول إلى كاليفورنيا ، قال الزوجان :

— ما أسعد حظنا إذ تزوجت ليزى فى العام الماضى . . يمكننا الآن أن أن نبيع المزرعة ونرحل .

وباعوا مزرعتهم الصغيرة بنصف ثمنها ، واشتروا بثمن الماشية جوادين ومركبة مسقوفة ، وبدأوا الرحيل فى حالة مالية يرثى لها ، وابنهم المريض راقد فى سرير بقاع المركبة ، ولكنهم كانوا على جانب من المرح والاستبشار . وكأنهم جماعة من الأغنياء يقومون برحلة للنزهة والترفيه . وساروا ومعهم مهران ليريحا الجوادين أو يساعداهما فى جر المركبة ، وبقرة ليطعموا المريض من لبنها ، وظلوا فى ترحالهم البطىء يقطعون الطريق على مراحل ، وقد يعسكرون فى مكان واحد لمـــدة أسبوع ، حتى وصلوا إلى وادى سان جاكنتو . وكافأتهم الأقدار بتحسن صحة جوس ، ورأوا أن مدة أشهر أخرى ستكون كفيلة بشفائه التام . ولن يتيسر لى أى إنسان أن يحاول اقناع جيف وجميمة رى بأنهما ليسا أسعد الناس حظا ! ألم يستطيعا أن ينقذا ابنهما جوس ؟

وكان إطلاق الأسماء المختصرة « الترخيم » تقليدا شائعا بين أسر

www.ibtesama.com

البيض فى الجنوب ، كما هو الشأن فى مقاطعة الفوج فى نيوانجلاند . ورغم تناقض المبررات ، فإن سكان ولاية تنيسى الكسالى المتواكلين ، وسكان فيرمونت بنيوانجلاند النشيطين المتحمسين ، يختصرون أسماءهم إلى أقصى حد . فسكان فيرمونت يرون أن النطق باسم مكون من ثلاثة مقاطع يعتبر مضيعة للوقت إذا أمكن اختصاره إلى مقطع واحد وسكان تنيسى يرون فى هذا مشقة لاداعى لها ، فالمسز هاير لاتكاد تذكر أنها منذ طفولتها حتى زواجها سمعت أحدا يناديها باسمها الكامل « ماريا » وإنما باسمها المختصر « رى » ، وبمجرد أن أصبح لها بيت خاص ، وأن صارت مركزا للضيافة وبذل العون للغير ، أطلق عليها الجيران بمحض إرادتهم اسم « العمة رى » . وكان هذا تكريما فى نظرها لم تحلم به ، وهكذا لم يكن هناك رجل أو امرأة أو طفل يعرفها إلا ناداها باسم « العمة رى » .

وقالت هى فى قلق :

— لا أدرى هل يحسن أن أزيد النار اشتعالا أم لا ؟ إذا استمرت هذه العاصفة فى هبوبها حتى الصباح ، فسوف نعانى من نقص الوقود .. وهذا واضح.

وفيما هى تتكلم ، انفتح الباب بقوة ، ودخل زوجها متعثرا ، يتبعه اليساندرو وكلاهما مكسوان بالثلوج ، وسواعدهما مليئة بالوقود وكان اليساندرو لحسن الحظ يعرف مكان منطقة صغيرة مزروعة بأعواد القطن فى خور صغير لا يبعد عن الكوخ إلا مسافة قصيرة ، وكان أول شىء فكر فيه ، بعد أن شد الجوادين بين الكوخ والمركبة ، هو الحصول على الوقود . ولما رآه جيف يتناول من المركبة منجلا صغيرا أدرك ما يرمى إليه ، فتناول هو أيضا منجلا وتبعه . وهكذا أمسى لديهم من الوقود ما يكفى لاستدفائهم ساعات طوالا وما إن ألقى اليساندرو بحمولته ، حتى اندفع إلى رامونا وركع بجوارها ونظر بلهفة إلى

www.ibtesama.com

وجه الطفلة ، ثم إلى وجهها ، ثم قال بحرارة :

— حمداً لله ياماچيللا .. إنها معجزة .

وأنصت جوس إلى هذه العبارة باستياء ، وقال لنفسه : « يبدو أنهم كاثوليكيون ، ترى أى نوع من الهنود هؤلاء ؟ إننى لأتعجب ! ولكننى لن أخبر أمى بأنهم كاثوليكيون ، وإلا لاستاءت جداً . أما أنا ، فلا يهمنى أمر عقيدتهم ، وإن هذه الفتاة تتمتع بأجمل عينين رأيتهما فى حياتى منذ ولدت .

وسرعان ما أمست الأسرتان — بفضل ترجمة جوس — متعارفتين ، كل منهما تعرف عن الأخرى ، ظروفها وأهدافها . ولم يلبث أن نما بينهم جميعـا إحساس مشترك بالمودة رغم تلك الظروف المحيطة بهم .

وقالت العمة رى :

— جيف . إنهم لايستطيعون أن يفهموا كلمة مما نقول .. ولهذا أعتقد أنه لابأس من أن نتكلم أمامهم ، وإن كان ينبغى كما يبدو أن نستغل جهلهم بأية لغة إلا لغتهم . ولكن لابد أن أقول إننى تلقيت درسا فيما يتعلق بالهنود ، فأنا دائما لا أشعر نحوهم بأى حب ، ولا أرغب أبدا فى الاقتراب منهم أو فى اقترابهم منى ولكن هذه المرأة هنا حلوة كأحلى مايمكن أن تكون المخلوقة . وهى متعلقة بهذه الطفلة ، كما تتعلق أية أم فى الدنيا بطفلتها . أما هذا الشاب ، فيمكنك ياجيف أن ترى أنه يكاد يعبد الأرض التى تسير عليها زوجته . هذه هى الحقيقة ياجيف ، ولم أر فى حياتى رجلا أبيض يهتم هكذا بامرأة . حتى أنت ياجيف ، هل تظن أنك اهتممت بى يوما مثل هذا الاهتمام ؟

www.ibtesama.com

وكانت العمة رى مهتاجة النفس ، لأن التجربة كانت فى نظرها غريبة . ذلك لأن آراءها عن الهنود كانت تستمد دائما مما تقرأه فى الصحف ، أو مما قرأته فى رواية أو اثنتين عن المذابح التى يشنها الهنود على البيض ، أو من رؤيتها بين الحين والآخر لجماعات أو أسر من الهنود المشردين الذين التقت بهم عبر السهول فى أثناء رحلتها . أما الآن فإنها تجد نفسها جالسة جنبا إلى جنب تتحدث فى مودة وألفة مع رجل هندى ، وزوجة هندية ، ينم مظهرهما وسلوكهما عن رقة جذابة ، حتى إنه لم يسعها إلا أن تشعر بالميل إليهما .

وقالت الزوجة :

ــ يمكننى أن أعترف ياجيف بأنى لا أكاد أصدق هذا . فأنا لم أر أحدا أسود أو أبيض أو رماديا منذ غادرت موطنى شعرت بالميل إليه كما أشعر الآن نحو هذين الزوجين ، هذا مع أنهما سوداوان كأى زنجى فى تنيسى . والرجل هندى خالص . والمرأة من والد أبيض كما تقول ، ولكنها لا تعتبر نفسها إلا هندية خالصة ، مثله . هل تلاحظ كيف تنظر إليه ياجيف ؟ ألا ترى أنها تحبه أشد الحب ؟. وإن لها العذر .

وكان جوس فى الواقع قد لاحظ هذا ؛ إذ لم يكن هناك رجل يرى رامونا مع اليساندرو دون أن يلاحظ مدى تفانيها فى حبه . وقد أضيف الآن إلى هذا التفانى فى الحب ، عنصر القلق الشديد الذى دعم قوته وزاد حرارته . إذ كانت رامونا تخشى أن يفقد اليساندرو عقله . إنها حقا لم تصارح نفسها بهذا ، ولكن الخوف الرهيب من هذا الاحتمال كان يكمن فى أعماق نفسها . وكانت تحس أن أية صدمة أخرى قد تكون فوق طاقته .

www.ibtesama.com

واستمرت العاصفة ساعات قليلة فقط . فلما انتهت ، بدا الوادى كأنه قطعة ضخمة بيضاء متماسكة ، والنجوم تلمع وكأنها فى سماء المنطقة القطبية .

وقال اليساندرو لجوس الذى كان يخشى طقس اليوم التالى :

— لسوف تذوب هذه الثلوج كلها عند منتصف الغد .

— أحقا ؟

— سوف ترى ، لقد شاهدت هذه الأحوال كثيرا . . إنها تبدو كالموت فى أثناء حدوثها . . ولكنها لا تبقى طويلا .

وكانت الأسرة فى طريقها إلى بعض الينابيع الدافئة فى الجانب الشمالى من الوادى . وكانت قد قررت أن تعسكر هناك ثلاثة أشهر للاستفادة بهذه المياه الدافئة فى علاج جوس . وكانت مزودة بخيمة وبكل الضروريات اللازمة للحياة فى الخلاء . وكانت العمة رى تتطلع بلهفة إلى بلوغ هذه الغاية حيث الراحة والاستقرار ، لأنها ملت إلى حد كبير هذا الترحال . أما أهداف زوجها بعد الوصول إلى غايتهم فكانت أبعد وأشد إثارة ، ذلك لأنه سمع أن الصيد موفور فى جبل سان جاكنتو . ولما عرف أن اليساندرو خبير بهذه المنطقة ، وأنه يفكر فى الاستقرار بها ، ابتهج واقترح عليه أن يكون رفيقه ومرشده فى رحلات الصيد . وتلقفت رامونا هذا الاقتراح بحماسة ، إذ رأت أن من المؤكد أن هذه المصاحبة سوف تفيد اليساندرو إلى حد كبير .. فالمصاحبة ، والحياة فى الخلاء ، وانفعالات الصيد كلها مما تستهوى عواطفه . وكان الخور الذى تقع فيه ينابيع الماء الدافىء لا تبعد

www.ibtesama.com

غير مسافة يسيرة من قرية سابوبا التي سبق الحديث عنها باعتبارها المقر المنتظر ، والتي رغبت في أول الأمر أن تجرب الإقامة فيها — ذلك أنها لم تعد تنفر من التفكير في الحياة في قرية هندية ، وإنما أصبحت تشعر فعلا بالأمن والأمان مع الهنود ، أى أصبحت — كما قالت كارمينا — « واحدة منهم » ..

وما هى غير أيام قليلة حتى استقرت الأسرتان فى الموطن الجديد : آل هاير فى خيمتهم ومركبتهم عند ينابيع الماء الدافئة ، واليساندرو وراموना والطفلة فى بيت صغير بقرية سابوبا . وكان البيت ملكا لامرأة هندية عجوز هجرته ، بعد وفاة زوجها ، ومضت للإقامة مع ابنتها ، وقد سرها كل السرور أن تظفر ببضعة دولارات إيجارا للبيت . وكان البيت حقيراً ، لا يزيد على مجرد غرفة صغيرة مشيدة بالآجر ، ومسقوفة بالقاب ، ولها نافذة واحدة ، وأرضيتها غير مرصوفة . وعندما سمع اليساندرو راموना تقول بابتهاج : « إنه بيت مناسب عندما يصلح أمره قليلا » تقلص وجهه وأشاح به جانباً دون أن يقول شيئاً . إلا أنه لم يكن فى القرية بيت خال غيره ، كما لم يكن بها إلا بيوت قليلة أفضل منه . وبعد شهرين تغيرت معالم البيت حتى لا يكاد أحد يعرفه . وكان الحظ قد حالف اليساندرو فى الصيد ، ومن ثم استطاع أن يفرش الأرضية بجلد غزالين ، وفرش السرير بجلد غزال ثالث ، وزين الجدران بالقرون ، كما اتخذ منها مشاجب لتعليق الملابس . وكذلك زينت راموना السرير بالستائر القرمزية ، وبجانبه قام المهد المضفر على قوائمه القابية الحمراء ، وفتحت فى الباب نافذة صغيرة ، وأخرى فى الجدار ، مما ضاعف من كمية الضوء والهواء المناسبة إلى الغرفة . وعلى رف بجوار إحدى هذه النوافذ قام تمثال السيدة العذراء ، الصغير ، المكلل بأوراق الكروم ، كما كان الشأن فى باسكويل .

www.ibtesama.com

ولما رأت العمة رى الغرفة لأول مرة بعد أن صارت على هذا النحو، وقفت عاقدة الذراعين على صدرها ، فاغرة الفم ، ممتلئة العينين دهشة وعجباً. وأخيراً تحول عجبها إلى هذه العبارة : « حسناً .. أعتقد أنكم قد استقر بكم المقام » .

وكانت العمة رى فى أحسن حالاتها لم تمتلك غرفة لها هذا الطابع الذى أسبغته رامونا عليها ، رغم كونها من الآجر والطين ، إنها لم تدر كيف أصبحت هكذا ، وكلما أمعنت فى تأملها ، وازدادت حيرة وعجباً . ومن ثم قالت لابنها جوس عند عودتها إلى الخيمة :

— إننى فى أشد العجب إذ أرى هذه المرأة الهندية تصنع كل هذا من لا شىء . إن البيت لا يزيد على كوخ . . كوخ من الطين ، وليس أكبر من هذه الخيمة يا جوس . ومع ذلك فقد اتسع لثلاثتهم وللسرير ، والموقد ، وكل شىء ، وأقسم يا جوس إنها جعلته مثل غرفة فاخرة فى قصر . إننى لا أكاد أفهم كيف تم هذا . وأتمنى لو استطعت أن ترى بنفسك .

ولما رآه جوس ، وجيف ، خامرهما من العجب والدهشة ما خامر العمة رى. والواقع أنهما رأيا شيئاً جديداً لم يسبق أن عرفاه فى حياتهما . إنهما لا يعرفان اسماً لهذا الشىء الجديد ، وليس فى مقدورهما أن يعرفاه أو ينقلاه أو يشرحاه للسيدة العجوز الطيبة التى كانت زوجة وأماً طيلة سنوات مليئة بالاضطرابات وإن لم ينقصها الحب المتبادل . إلا أنهما شعرا بروعة ذلك المكان الجميل . وفى ذات يوم ، بعد عودة اليساندرو وجيف من رحلة صيد ناجحة بصفة خاصة ، جلست الأسرتان معاً إلى عشاء من طهو رامونا — خرشوف ولحم فى حساء طيب

www.ibtesama.com

السكهة ، ولحم بالفول وحلوى ـ وقد بلغ من فرط إعجاب آل هاير بهذا الطعام أن قالت العمة رى :

ـ اسألها يا جوس، أهذه هى طريقة الهنود فى طهو الطعام؟ ، إننى لم أكن أعرف أن للفول المطهو مثل هذا المذاق الجميل !

وضحكت رامونا قائلة :

ـ لا . . هذه طريقة مكسيكية ، لقد تعلمتها من سيدة مكسيكية عجوز .

ـ حسنا . . إننى أتمنى أن أعرف هذه الطريقة ، وإن كنت لن أجد الوقت الكافى لإتقانها .ولكن يحسن أن أعرفها ما دمت هنا الآن .

وكان اليساندرو قد تخفف من تشاؤمه بعض الشيء ، وكان قد اكتسب مبلغاً من المال . كما أن الصحبة الطيبة كان لها أثرها فى تخفيف كآبته . ولما رأى رامونا مستبشرة ، والطفلة الصغيرة مشرقة، عاوده مرة أخرى ذلك الشعور القوى الذى يكاد يبلغ شعوره بحب رامونا ، وهو الرغبة فى الاستقرار والإحساس بمتعة الحياة المنزلية المستقرة . وهكذا بدأ يتحدث عن بناء بيت خاص ، بعد أن رأى الأحوال فى القرية أفضل مما كان يظن . حقاً إنها لم تكن تزيد عن عدد قليل من الهنود الفقراء جداً ، إلا أنهم كانو يعيشون فيها بلا مزعجات . وكان الوادى فسيحا تنطلق فيه ماشيتهم على حريتها ، وكان الرجال البيض القليلون المقيمون بالوادى ، أحدهم فى الطرف الأعلى واثنان أو ثلاثة فى الناحية الجنوبية، [illegible] يوماً أن يزاحموا الهنود فى حياتهم . وكانت [illegible] كن ابناء رافللو لايزالون يقيمون [illegible] بهم فى الوادى . وفى هذا وحده ما كان يكفى لضمان الأمن ، أو هذا ما رآه اليساندرو ، وكانت رامونا راضية قانعة بعد أن وجدت لها صديقات ، وبدأ

شيء قريب من الأمل ينمو فى صدر اليساندرو . إنه سيبنى بيتاً .. وإن ماچيللا لن تستمر فى الحياة فى هذا الكوخ . ولكن رامونا قالت له — لدهشته حين اخبرها — إنها لا توافق ، لأنها أصبحت فى غير حاجة إلى مزيد . أليس اليساندرو مستريحاً ، حسنا إنها أيضاً مستريحة ، ولهذا يحسن أن ينتظر قليلا قبل أن يبدأ البناء .

وكانت رامونا قد عرفت أشياء كثيرة لم يعرفها اليساندرو . ففى أثناء غيابه فى رحلات الصيد، تحدثت مع أشخاص كثيرين لم يرهم أبداً ،ذلك أنها كانت قد ذهبت عدة مرات إلى المتجر الكبير ، ومكتب البريد لتستبدل بالسلال المضفورة أو بالمخرمات ، دقيقاً ، وهناك سمعت أحاديث أزعجتها . وهكذا لم تعد تؤمن بأن قرية سابوبا تتمتع بالأمن . وقد سمعت ذات يوم رجلا يقول :

« إذا حدثت نوبة جفاف ، فسوف نفقد الكثير من الماشية قبل حلول الشتاء» ورد عليه آخر : « نعم .. ومع هذا فإن أولئك الهنود الملاعين فى سابوبا ينعمون بالماء الجارى دائماً فى قريتهم . وإنه لعار أن تكون لهم هذه الينابيع خالصة » .

وقررت رامونا ألا تذكر هذا لاليساندرو بأى حال من الأحوال . لقد أخفت هذا السر فى صدرها ، إلا أنه ظل يزعجها ويملأ حياتها بالحذر والتشاؤم، وعندما عادت إلى البيت فى ذلك اليوم الذى سمعت فيه الحديث، مضت إلى النبع الجارى فى وسط القرية، ووقفت برهة تنظر إلى الماء المتدفق ، وأدركت أنه حقاً كنز لا يقدر بثمن. وكانت ثمة قناة رى تمتد منه إلى قاع الوادى حيث الحقول المزرعة قمحاً وشعيراً وخضراً . وكان لاليساندرو نفسه هناك حقول يستطيع أن يظفر منها بما يكفى لإطعام الجوادين والبقرة طيلة فصل الشتاء إذا حدث وجفت

www.ibtesama.com

المراعى . فإذا أخذ البيض هذا النبع ، فإن الدمار سوف يحل بقرية سابوبا . على أنه لم يكن فى مقدورهم أن يأخذوا النبع الجارى فى وسط القرية إلا إذا دمروها ، ولهذا قالت لنفسها : « و إن أبناء رافللو لن يسمحوا بهذا . وما داموا على قيد الحياة ، فلن يحدث شىء من هذا القبيل » .

وكان يوما حزيناً فى حياة اليساندرو ورامونا عندما طوى آل هاير خيمتهم وغادروا الوادى ، وكانت الشهور الثلاثة التى قرروا البقاء خلالها ، قد امتدت إلى ستة أشهر ، حيث استمتعوا بالطقس الجميل والمياه التى أفادت جوس إلى حد كبير . وقالت العمة رى :

— إننا لسنا من الأثرياء بأى حال ، ولهذا فإن علينا أن نبحث لنا عن مقر فى إحدى المدن التى توجد بها محلات للتجارة و إن جيف لنجار بارع ، و إن كنتما لا تظنان هذا . وأنا بارعة أيضاً فى صناعة السجاد .. إننى أحب هذه الصناعة أشد الحب ، ولست أدرى كيف عشت سنة أو نحو سنة دون منسجى . وقد قال لى جيف يوماً : « اسمى يارى .. أتعتقدين أنك ستكونين سعيدة فى السماء بدون منسجك » وقد أجبته بصراحة إننى لن أكون كذلك .

وصاحت رامونا قائلة :

— هل من الصعب أن أتعلم هذه الصناعة ؟

وكان من دواعى العجب ذلك التقدم المطرد فى قدرة رامونا على فهم اللغة الإنجليزية والتحدث بها خلال الشهور الستة . ومن ثم فقد استطاعت أن تفهم كل ما يقال لها ، وإن كانت تعجز عن متابعة الأحاديث والاستطرادات المتشابكة .

www.ibtesama.com

وردت العمة رى قائلة :

— قد يكون تعلمها صعباً وقد لا يكون .. فأنا لا أستطيع أن أحكم فى هذا الشأن، لأنى لا أتذكر متى تعلمتها . وإنما أذكر أنى بدأت العمل فى النسيج قبل أن تصل قدماى إلى الأرض حين أجلس . ولكننى لا أذكر كيف تعلمت . وقد حاولت أن أعلم الكثيرين هذه الصناعة ، وقد تعلمها بعضهم بسرعة ، ولم يستطع بعضهم أن يتعلمها إطلاقاً ، ولكننى أعتقد أن لديك يدين بارعتين فى صنع أى شىء . وعندما يستقر بنا المقام فى سان برناردينو ، يمكنك أن تأتى إلينا حيث أعلمك كل ما أعرفه عن هذه الصناعة وبكل سرور . ولكننى لا أدرى هل يوجد فى هذه المناطق من الأسمال البالية ما يكفى لصناعة السجاد ؟ إن الناس هنا يرتدون هذه الأسمال بدلا من أن يلقوا بها لاستعمالها فى هذه الصناعة . إن الناس هنا يرتدون ملابس لا تصلح فى الحقيقة إلا لنسج السجاد . إنهم جماعة مزعجون ، متعبون .. هؤلاء المكسيكيون ، وكذلك الهنود أيضاً . . وأنا حين أتحدث عن الهنود لا أعنيكما كما تعلمان ، فإنكما فى نظرى لا تقلان شأناً عن البيض .

وقالت رامونا :

— إن معظم قومنا لم تتح لهم أية فرصة للتقدم فى الحياة ، ولعلك لا تصدقين ما أقوله لك عما تعرضوا له من نهب وسلب واحتيال وطرد من بيوتهم .

ثم سردت مأساة تيميكيولا وباسكويل ، بالإسبانية ، لجوس الذى ترجم حديثها كاملا لوالديه . وفزعت العمة رى من هول ما سمعت ، ولم تجد ما تعبر به عن سخطها أكثر من قولها :

www.ibtesama.com

— إننى لا أصدق أن الحكومة تعرف شيئاً من هذا كله ؟ إن السلطات الحكومية فى تنيسى تصدر حكمها بالإعدام فى جرائم أقل من هذه شأنا وخطرا. لابد أن يذهب أحد إلى واشنطن ويخبر الحكومة بما يجرى هنا .

وقالت رامونا بحزن :

— أعتقد أن سلطات واشنطن هى التى فعلت هذا كله . . أليست هى التى تصدر هذه القوانين ؟

فقالت العمة رى :

— أظن هذا ؟ أليس كذلك يا جوس ؟ أليست الحكومة فى واشنطن هى التى تصدر القوانين ؟

وقال جوس :

— أظن هذا ، إنهم يصدرون بعض القوانين على كل حال ، ولكنى لاأظن أن كل القوانين صادرة عنهم .

وقالت رامونا :

— إن كل ما حدث كان بناء على القانون الأمريكى . وليس فى مقدور أحد أن يقاوم لأن مقاومة القانون معناها السجن أو القتل . هذا ما قاله المأمور لاليساندرو فى تيميكيولا . وكان عليه أن يطيع القانون وألا يفعل شيئا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وهزت العمة رى رأسها فى غير اقتناع وقالت :

— لسوف أهتم بالبحث عن الحقيقة فى هذا الأمر . وأعتقد أن الهنود لم

www.ibtesama.com

يأخذوا حقهم بعد . ولا شك أن هناك عمليات احتيال وخداع .

فقالت رامونا :

— إن كل حادث ليس إلا احتيالا وخداعا . . ولكن لا حيلة لنا فى الأمر يا عمتى رى. إن الأمريكيين لا يعتبرون الاحتيال من أجل الحصول على المال عارا.

فهتفت العمة رى قائلة :

— إننى أمريكية وكذلك جيف هايرو جوس . إننا أمريكيون ، ولكننا لا نحتال على أحد ، عن قصد ، من أجل دولار واحد . إننا لفقراء ، وأعتقد أننا سنبقى دائما هكذا . ولكننا لا نقبل الاحتيال . وأقول لك الآن إن الأمريكيين لا يرضون أن يحدث هذا الاحتيال . وسوف أسأل جيف عن هذا . إن هذا الذى حدث ليجلل بالعار رأس أية دولة . ومن ثم لا بد من اتخاذ إجراء ما فى هذا الشأن ، وإنى على استعداد للذهاب إلى واشنطن إذا لم يذهب أحد آخر .

وكانت أن زرعت فى ذهن العمة رى بذرة لم يكن ينقصها الخصب اللازم للنماء . لقد امتلأت نفسها بالغضب والاستنكار والرغبة فى عمل شىء . وقد استطردت تقول :

— إنني امرأة لا أهمية لها . ولكن من حقى أن يكون لى رأى فى شئون البلد الذى أعيش فيه ، وفى الطريقة التى تجرى بها الأمور أو أن يكون هذا كله لجيف على الأقل .. اسمع يا جوس ، إننى لن أستريح أو أدعك تستريح أنت ووالدك حتى نعرف معنى كل ما حدث هنا .

ولكن متاعب أشد حدة ، وأكثر أهمية من أية متاعب أخرى تتعلق بالحقوق فى الأرض والسكن كانت تنتظر اليساندرو ورامونا . ذلك أن طفلتهما كانت تزداد هزالا يوما بعد يوم طيلة فصل الصيف . وكان الهزال بطيئا

www.ibtesama.com

مما جعل رامونا تخدع نفسها ، وتظن فى كل يوم أنه توقف ، وأن هناك احتمالا فى التحسن ولكنها حيث عادت بذاكرتها من الخريف إلى الربيع ، ثم من الشتاء الآن إلى الخريف ، لم يعد لديها شك فى أن صحة الطفلة تسوء باطراد .
ومنذ ذلك اليوم العاصف القارس البرد ، لم تعد الطفلة إلى ما كانت عليه فى رأى رامونا . أما قبل ذلك فكانت قوية .. قوية دائما ، وجميلة دائما ومرحة دائما . ولكن وجهها الصغير المضيء قد أصبح الآن فى حالة يرثى لها ،وفى بعض الأحيان كانت تبكى بصوت واهن لمدة ساعة دون سبب واضح . وكانت كل وسائل العلاج البسيطة التى تعرفها العمة رى قد فشلت معها . والواقع أن العمة رى كانت فى حيرة أمام أعراض مرض الطفلة . وظل اليساندرو يركع بجوار المهد يوما بعد يوم ، معقود اليدين ، جامد الوجه ، كما ظل ساعة بعد ساعة ، فى الليل والنهار ، وفى داخل البيت وخارجه ، يحملها بين يديه ليخفف عنها . وظلت رامونا تبتهل وتبتهل للعذراء ، وللقديسين وتضىء الشموع بالعشرات ، رغم قلة المال ، أمام تمثال العذراء ولكن بلا جدوى . وأخيرا توسلت إلى اليساندرو أن يذهب إلى سان برنارديو ليعرض الأمر على طبيب وقالت :

— ابحث عن العمة رى ، إنها ستذهب معك ، هى وجوس ، وستتحدث إلى الطبيب وستجعله يفهم كل شىء ، وقل للعمة رى إنها لاتزال كما هى ، منذ أن كانت هنا ، إلا أنها أضعف وأنحف .

ووجد اليساندرو العمة رى فى شىء يشبه الكوخ بضواحى سان برنارديو، وقد قالت : « إننا لم نستقر بعد » ـ وكأنما كان هناك احتمال فى الاستقرار . وكان جيف قد وجد عملا ، وكذلك استطاع أن يعمل فى الأيام ذات الطقس الحسن . وكان قد صنع لها بيتاً لا يزيد على غرفة واحدة خشنة الجدران ، بلا

www.ibtesama.com

أرضية مرصوفة ، ولها نافذة واحدة وباب ، ولكن العمة رى كانت ترى هذا الكوخ أفضل من قصر منيف . كانت قد صنعت لنفسها سجادة من الأمشاج البالية ، وبدأت تصنع غيرها لأحد الجيران، ووعدت بصنع أكبر عدد ممكن قبل حلول فصل الربيع . وكانت الأنباء عن وصول نـاجة سجاجيد أمشاج قد انتشرت فى المناطق الشعبية بمدينة سان برناردينو . وقد قالت العمة رى عن عن هذه الطبقات الشعبية :

ـــ لم أكن أعتقد أن لديهم كل هذه الأسمال فوق ما يرتدون .

وذلك عندما أخذت أكياس الأسمال تتراكم بعضها فوق بعض عند باب بيتها . وكانت أيضاً قد عرفت دخائل الحياة فى القرية عن طريق اتصالاتها الودية المطوف بعشرات من السكان ، فعرفت شخصياتهم وأحوالهم ، وظروفهم أكثر من أى ساكن قديم بالمدينة .

ولما رأت الجواد بنيتو يركض إلى بابها، وثبت من مقعدها المرتفع أمام المنسج، وأسرعت حافية القدمين إلى البوابة قبل أن يترجل اليساندرو وقالت :

ـــ إنك الشخص الذى أريد أن أراه . لقد كنت أتخذ الترتيبات لكى نذهب ونراكم ، ولكن جيف لم يستطع أن يترك عمله الذى حصل عليه ، كما أن أعمالى هنا تكاثرت بحيث لم يكن فى استطاعتى الرحيل . كيف حالكم جميعاً ؟. لماذا لم تأتوا جميعاً فى المركبة ؟ إن لدى كثيراً من الأخبار . وأعتقد أنكم لم تنالوا بعد حقوقكم فى كل شىء . لقد ثبت لى أن الحكومة ليست فى جانب هؤلاء اللصوص كما تقولون . لقد كنت أعرف أن هذا غير ممكن . وقد أرسلت

www.ibtesama.com

الحكومة مندوباً ليتحرى الأمور بشأنكم ، ويتولى رعاية الهنود ، ولا شيء آخر ، وهذا هو سبب مجيئه ، لقد جاء منذ شهر ، وهو رجل لطيف حقاً . وقد قابلته وتحدثت معه طويلا فى الأسبوع الماضى ، وسوف أصنع لزوجته سجادة أمشاج . ويوجد هنا أيضاً طبيب لعلاج المرضى ، والحكومة تدفع له الأجر ، ولهذا فهو لا يتناول أجراً من المرضى . وهذه فائدة كبرى ، أن يجد الإنسان علاجاً بالمجان .

ولهثت أنفاس العمة رى . ولم يستطع اليساندرو أن يفهم نصف أقوالها . وتلفت حوله فى يأس باحثاً عن جوس . ولكن هذا لم يكن موجودا . ومن ثم حاول بإنجليزيته الركيكة أن يشرح لها ما تريده راموتا منها .

— طبيب ؟ إن هذا ما كنت أحدثك عنه ؟ إن هنا طبيباً ينال أجره من الحكومة ليعالج الهنود بالمجان ، لسوف أذهب وأعرفك ببيته . وسوف أخبره بحالة الطفلة ، وربما ذهب فى مركبته ليراها .

آه لو حدث هذا ؟ ماذا ستقول ماجيللا حين تراه مقبلا عليها ومعه الطبيب . ومن حسن الحظ عاد جوس فى الوقت المناسب ليصحبهما إلى الطبيب ويقوم بدور المترجم . وكان اليساندرو فى حيرة لأنه لم يفهم معنى هذه الأوضاع الجديدة . هل يمكن أن يكون هذا كله حقاً ؟ لقد راح فى لهفة شديدة وبعض الأمل ينصت إلى ترجمة جوس لما حدثته به العمة رى .

وكان الطبيب فى مكتبه ، وقد سمع فى غير اهتمام حديث العمة رى عن مهمة اليساندرو ، ثم قال :

— هل هو هندى من الوكالة ؟

— من ماذا ؟ !

— هل هو مقيد بالوكالة ؟ هل اسمه مسجل فى ملفات الوكالة ؟

— لا . . إنه لم ينتم إلى أية وكالة حتى هذه اللحظة . ولكننا نعرفه ونعرف زوجته فى سان جاكنتو ، إنه يقيم فى قرية سابوبا ، ولم يأت قط إلى سان برناردينو منذ أنشئت بها الوكالة .

فقال الطبيب فى ضيق :

— حسناً . . هل هو مستعد لتسجيل اسمه فى الوكالة . إن عليك أن تمضى به إلى الوكالة أولا .

وسألته العمة رى فى غضب شديد :

— ألست طبيب الحكومة لجميع الهنود ؟ إن هذا ما سمعته .

— حسناً أيتها المرأة الطيبة .. يبدو أنك سمعت الشىء الكثير كما أظن ، ولكن ليس ما سمعت حقاً .

وضحك الطبيب بخشونة ، ولكن بلا خبث . وكان اليساندرو فى خلال هذا يدرس وجه الطبيب بلهفة الإنسان الذى يترقب الموت أو الحياة . وعاد الطبيب يقول :

— إننى طبيب الوكالة ، وأعتقد أن جميع الهنود سوف يأتون ويسجلون أسماءهم بها إن عاجلا أو آجلا ، ولهذا يحسن أن تصحبى هذا الشاب إليها الآن .. ماذا تنتظرين ؟

وبدأت العمة رى تشرح حالة الطفلة ، ولكن الطبيب قاطعها قائلا :

www.ibtesama.com

— نعم ، نعم . . إننى فاهم ، لسوف أصف له شيئاً يفيدها .

ثم مضى إلى غرفة داخلية ، ولم يلبث أن عاد حاملا زجاجة بها سائل قاتم اللون ، ثم كتب طريقة العلاج ، وقدم الاثنين إلى اليساندرو قائلا :

— أعتقد أن هذا سيفيدها .

وقال اليساندرو :

— شكراً يا دكتور . . شكراً .

وحلق الطبيب فى وجهه وقال :

— هذا أول هندى يشكرنى فى حياتى هذه . اذكرى لمدير الوكالة أنك أحضرت له حالة نادرة .

وقالت العمة رى لجوس وهم ينصرفون :

— ما هذا الذى قاله الطبيب ياجوس ؟

— لاأدرى . . إننى لاأحب هذا الرجل على كل حال يا أمى . إنه ليس طيبا .

ونظر اليساندرو إلى زجاجة الدواء وكأنه فى حلم . ترى هل ستجعل الطفلة أحسن حالا؟! هل أعطتها له حقا تلك الحكومة العظيمة فى واشنطون؟ هل سيكون موضع الحماية الآن ؟ هل سيتمكن هذا الرجل الذى أوفد لرعاية الهنود من استرداد مزرعته فى سان باسكويل له ؟ إن الأفكار حقاً كانت تعصف برأس اليساندرو .

ومن عيادة الطبيب ذهبوا إلى دار الوكالة ، وهنا أحست العمة رى بأنها فى بيتها . وقالت وهى تشير إلى اليساندرو :

www.ibtesama.com

— لقد أحضرت إليكم الهندى الذى حدثتكم عنه . وقد ذهبنا إلى ذلك الطبيب لنحصل منه على دواء لطفلته . إنها مريضة حقاً .

وقال مدير الوكالة وهو يجلس إلى مكتبه ويفتح سجلا أمامه :

— إن هذا الرجل لم يأت إلى هنا من قبل .

فردت العمة رى قائلة :

— لا .

— ما اسمه ؟

وذكر جوس اسم اليساندرو ، وأخذ مدير الوكالة يكتب فى السجل . ولكن اليساندرو صاح لجوس قائلا فى اهتياج :

— أوقفه عن الكتابة .. لا تدعه يكتب شيئاً حتى أعرف لماذا يريد أن يسجل اسمى عنده .

وقال جوس للمدير :

— انتظر . إنه لا يريد أن تكتب اسمه فى السجل حتى يعرف السبب .

واستدار المدير بوجه ينم عن الضيق المكبوت ، ولكنه حاول أن يتلطف فى الحديث وهو يقول :

— يبدو أنه لاجدوى من جعل هؤلاء الهنود يفهمون شيئاً ، إذ يخيل إليهم أن تسجيلى لأسمائهم فى هذا السجل يعطينى نوعاً من السيطرة عليهم .

فقالت العمة رى بصراحتها :

www.ibtesama.com

— أليست هذه هى الحقيقة ؟ أليس لك نفوذ عليهم ؟ فإذا لم يكن نفوذك عليهم ، فعلى من يكون إذن، ماذا تنوى أن تفعل من أجلهم ؟

وضحك مدير الوكالة مرغما وقال :

— حسنا يا عمتى رى . .

وكانت قد صارت « العمة رى » لموظفى الوكالة جميعاً ، وقد استطرد المدير قائلا :

— هذه هى مشكلتى مع الوكالة . لو أن جميع هنودى يلتزمون هذا التحفظ لما استطعنا أن نفعل لهم شيئا .

وفهم اليساندرو كلمة « هنودى » ، لأنه سمعها من قبل ، ومن ثم سأل جوس بحدة .

— ماذا يعنى بكلمة هنودى يا جوس ؟ إننى لن أسجل اسمى هنا إذا أدى الأمر إلى أن أكون ملكا له .

ولما ترجم جوس هذا مكرها ، ثار مدير الوكالة وقال :

— هذا هو كل ما نجنيه من محاولاتنا مساعدتهم . دعه ينصرف إذن ما دام لا يريد العون من الحكومة .

وصاحت العمة رى :

— لا . لا . لا . . اشرح الأمر لجوس وسوف يجعله يفهم .

وتجهم وجه اليساندور وقد بدا له أن هذا كله يدعو إلى الارتياب . هل

www.ibtesama.com

يمكن أن تكون العمة رى وجوس — وهما أول أناس يوض يثق بهم بعد هارسل ـ يخدعانه ! لا . . إن هذا مستحيل . ولكن ربما كانا هما مخدوعين ؟ وإن اليساندرو ليعلم مدى جهلهما وبساطتهما . ومن ثم قال :

ـ هل ننصرف . . إننى لا أريد أن أوقع على شىء هنا .

فقالت له العمة رى :

ـ لا . . لا تكن أحمق . إنك لن توقع على شىء . قل له يا جوس إن هذا الإجراء لن يربطه بشىء ، إنه فقط يتيح للوكالة أن تساعد المنود أينما يكونوا . هذا هو كل ما فى الأمر .

ثم استدارت للمدير وقالت له :

ـ أخبره أنه لا يستطيع الاستفادة من خدمات طبيب الوكالة إذا لم يسجل اسمه فيها .

ـ ألا يستفيد من الطبيب ، أيرد إليه الدواء الثمين الذى قد ينقذ حياة ابنته ؟

لا . إنه لا يستطيع أن يفعل هذا . إن ماچيللا ستفضل تسجيل الاسم على حرمان الطفلة من الدواء .

وقال اليساندرو فى إصرار :

ـ دعه يكتب الاسم إذن .

ولكنه غادر الغرفة وهو يشعر أنه وضع قيداً حول عنقه .

www.ibtesama.com

(٢٣)

لم تستفد الطفلة من الدواء بشىء . بل لقد أساء إليها فى الواقع ؛ ذلك لأنها كانت أضعف من أن تحتمل الأدوية القوية . ومن ثم وقف اليساندرو ، فى خلال أسبوع ، أمام باب الوكالة مرة أخرى . وكان فى هذه المرة قد جاء وله رجاء بدا له معقولا . لقد أحضر معه الجواد « بابا » ليركبه الطبيب . فهل يمكن أن يرفض الطبيب عندئذ أن يذهب معه إلى سابوبا؟ إن « بابا » سيحمله إليها فى ثلاث ساعات ، وسوف يشعر فى أثناء ركوبه كأنه فى مهد رقيق . وإن اسم اليساندرو مسجل فى ملفات الوكالة . ولهذا السبب رضى أن يسجله ــ لهذا السبب فقط ، لا لشىء آخر . . لإنقاذ حياة طفلته . فبعد أن سجل اسمه كواحد من هنود الوكالة ، صار له حق على طبيبها . وحتى يتخذ طلبه الصفة الرسمية ، اصطحب معه مترجماً من الوكالة ، وكان يخامره من قبل الشك فى أن ثرثرة العمة الطيبة رى قد جعلت

www.ibtesama.com

الطبيب يسىء فهم الحالة ، وإن اليساندرو ليؤمن بالمثل القائل : خير الحديث ما قل ودل .

ومن نافلة القول أن نذكر أن طبيب الوكالة دهش حين علم أن المطلوب منه أن يقطع مسافة ثلاثين ميلا لفحص طفلة هندية ، إنه لم يتمالك نفسه من الضحك حين قيل له إن هذا هو رجاء والد الطفلة .

وقال وهو يستدير إلى صديق له تصادف أن كان جالساً فى العيادة :

— يا للسماء ! هل سمعت ما يقوله هذا المتسول ، لست أدرى ماذا يظن بى ، لأن الحكومة تأجرنى على معالجة الهنود ؟

ولفت نظر الطبيب منظر اليساندرو وهو يرهف السمع إليه ، فقال بحدة :

— هل تفهم الإنجليزية ؟

— قليلا جداً يا سيدى .

ورأى الطبيب أن يكون أكثر حذرا فى حديثه عندئذ . ولكنه أوضح بكل تأكيد أن ما يطلبه اليساندرو ليس خارجا عن الموضوع فحسب ، ولكنه شاذ ومستحيل . وتوسل اليساندرو له قائلا إن فى مقدوره أن يفعل هذا من أجل الطفلة . وقال إن بالباب جوادا ليس له مثيل فى منطقة سان برناردينو كلها . إنه ينطلق كالريح دون أن يشعر الإنسان أنه راكب شيئاً . وإن الأمر سيكون سهلا .. ألا يأتى الطبيب و يلقى نظرة على هــــذا الجواد ؟ إنه حينئذ سيرى ركوبه متعة .

وقال الطبيب :

— أوه .. لقد رأيت كثيرا من جيادكم الهندية وأعلم أنها سريعة فعلا .

وتلكأ اليساندرو . إنه لم يستطع أن يفقد الأمل . وانحدرت الدموع من عينيه وقال :

ـ إنها ابنتنا الوحيدة يا سيدى . وإن الأمر لن يكلفك غير ست ساعات ، وإن زوجتى تعد الدقائق على حضورك . وإذا ماتت الطفلة ، فسوف تموت هى أيضا .

وقال الطبيب الذى مل التوسل إليه :

ـ لا . لا . . قل للرجل إن هذا مستحيل . إننى لن أنعم بالراحة قط إذا بدأت التجول فى المنطقة على هــــذا النحو . إنهم سوف يستدعوننى بعد ذلك للذهاب إلى أجوا كالينت ، ومعهم جيادهم ليحملونى .

وسأل اليساندرو :

ـ ألن يأتى معى ؟

وهز المترجم رأسه وقال :

ـ إنه لا يستطيع .

وغادر اليساندرو الغرفة دون أن يقول شيئاً ، ثم ما لبث أن عاد وقال :

ـ اسأله ، هل يأتى معى نظير أجر معين ، إن لدى ذهبا فى البيت ، وسوف أدفع له ما يدفعه أى رجل أبيض .

www.ibtesama.com

ورد الطبيب قائلا :

ـ قل له إنه لا يوجد أى رجل ، مهما يكن لونه ، يستطيع أن يدفع لى أجرا على قطعى مسافة ستين ميلا .

وانصرف اليساندرو مرة أخرى ببطء ، ومن ثم سمع الضحكة الغليظة والكلمات المصاحبة لها ، قبل أن يغادر العيادة .

ـ ذهب !! أيبدو عليه أنه يمتلك ذهبا ؟

ولما رأته رامونا آتيا بمفرده ، ضربت كفا بكف ، وشعرت كأن قلبها ينفطر ، وكانت الطفلة قد راحت فى شبه غيبوبة منذ الظهيرة ، وكان الواضح أنها فى حالة أسوأ ، ومن ثم لم تكف رامونا عن الذهاب إلى الباب من المهد ، وإلى المهد من الباب ساعة بعد أخرى فى انتظار النجدة المأمولة ، ولم يخطر ببالها لحظة أن الطبيب لن يحضر ، ذلك أنها تقبلت فى ثقة أشد من ثقة اليساندرو أنباء تعيين الحكومة لهذين الرجلين لرعاية الهنود ، وإلا فما القصد من تعيينهما ما لم يكن الهدف إنصاف الهنود ؟ ولما رأت اليساندرو عائدا بمفرده ، خطر لهـــا ، لبساطتها ، أن الطبيب لا بد قد مات .

وقال اليساندرو وهو يترجل عن جواده فى إعياء :

ـ لقد أبى أن يحضر .

وصاحت رامونا قائلة :

ـ أبى ! أتقول أبى ؟ ألم تقل إن الحكومة عينته ليكون طبيبا للهنود !

ـ هذا ما قالوه ، ومن ثم ترين أنها أكذوبة كغيرها من الأكاذيب !

www.ibtesama.com

ولكننى عرضت عليه مالا ذهبا ، ورفض مع ذلك . لامفر من موت الطفلة يا ماجيللا .

وصاحت رامونا :

- إنها لن تموت . . لسوف نحملها إليه .

وفاجأتها هذه الفكرة كأنها الإلهام . لماذا لم يفكروا فى شىء كهذا من قبل؟

وعادت رامونا تقول مستطردة :

— لسوف تشد المهد على ظهر « بابا » ، وسيحملها برفق بحيث تظن أنها تلعب ، وسوف أسير بجانبها أو تسير أنت ، طيلة الطريق . و يمكننا أن ننام فى بيت العمة رى . أوه . . لماذا ؟ لماذا لم نفعل هذا من قبل ؟

— لسوف نبدأ الرحلة فى بكور الغد .

وجلسا طيلة الليل يرعيان الطفلة الصغيرة . ولو أنهما شاهدا أحداً يموت من قبل ، لعرفا أنه لم يكن هناك أى أمل فى نجاتها . ولكن أنى لرامونا والياندرو أن يعلما ؟ !

و بزغت الشمس مشرقة دافئة . وما هى غير فترة وجيزة حتى كان المهد قد شد بعناية ورفق إلى ظهر الجواد «بابا» ، ولما وضعت الطفلة فيه ، افتر ثغرها عن ابتسامة جعلت رامونا تهتف قائلة : « إنها أول ابتسامة لها منذ أيام . إن الهواء نفسه سوف يفيدها . . أوه . . دعنى أسر أنا أولا بجانبها . هلم يا « بابا » . . يا «بابا» العزيز » .

وسارت رامونا فى شىء من الابتهاج بجوار الجواد ، وركب اليساندرو

جواده بنيتو ، وفى أثناء السير لم تتحول عيونهما لحظة عن وجه الطفلة ، وقالت رامونا بصوت خافت :

— اليساندرو . . إننى أخشى أن أقول لك مافعلت . . لقد أخذت التمثال الصغير للسيد المسيح من ذراع السيدة العذراء وأخفيته . ألم تسمع من قبل أن السيدة العذراء تحقق أمل كل من يعيد التمثال إلى ذراعيها مرة أخرى ، ألم تسمع هذا من قبل ؟

فهتف اليساندرو بصوت ملؤه الفزع :

— لا ، أبداً يا ماجيللا ! كيف جرؤت على هذا ؟

— إننى لم أعد أهاب شيئاً الآن . لقد كنت أفكر فى هذا منذ أيام . . كنت أفكر فى أن أقول لها إنها لن تتلقى ابنها مرة أخرى إلا إذا أعادت إلى ابنتى كما كانت قوية سليمة . ولكننى لم أكن أجرؤ على البقاء والنظر إليها وهى وحيدة بدون طفلها بين ذراعيها ، ولهذا لم أنفذ الخطة . أما الآن ونحن بعيدان عنها ، فقد فكرت فى أن الوقت حان وقلت لها : « عندما نعود وطفلتنا فى حاله حسنة، فسوف أعيد إليك مسيحك الصغير مرة أخرى . والآن أيتها الأم المقدسة ، تعالى معنا واجعلى الطبيب يشفى طفلتنا » أوه . . لقد سمعت فى مرات عديدة النساء يقلن للسنيورة إنهن فعلن مثل هذا ، وحققن كل آمالهن . إنها لا تسمح قط أن يبقى ابنها المسيح بعيداً عن ذراعيها أكثر من ثلاثة أسابيع قبل أن تستجيب لأى دعاء يرفع إليها . لقد أعادتك إلى بهذه الطريقة ،ولم أذكرلك هذا من قبل لأنى كنت خائفة . وأعتقد أنه كان فى الإمكان أن تردك أسرع مما فعلت

www.ibtesama.com

لولا أنى لم أكن أجرؤ على إخفاء طفلها إلا فى الليل فقط . أما فى النهار ، فلم أستطع خوفاً من السنيورة ، ولهذا لم تفتقده كثيراً ، وإلا لأعادتك إلى بأسرع مما فعلت .

وقال اليساندرو المنطقى :

— ولكننى يا ماچيلا لم أستطع أن أعود إليك ، لأنى لم أقدر على ترك أبى . وبمجرد أن واريته الثرى عدت إليك .

وبدأ فى الساعة الأولى من هذه الرحلة الحزينة أن الطفلة تحسنت حقا. ذلك أن الهــــواء والشمس والحركة الجديدة والأم الباسمة بجوارها ، والجـــوادين الكبيرين اللذين تعلمت كيف تحبهما — كل هذا أدى إلى تحسن فى صحتهــا لم يطرأ عليها من قبل . ولــكن هذا التحسن كان الومضة الأخيرة فى حياتها ، إذ مالبثت عيناها أن أغمضتا ، وشاع فى وجهها شحوب عجيب . ولمح اليساندرو هذا كله أولا ، لأنه كان يسير بجانبهــا ، وراءونا على الجواد بنيتو ، ومن ثم هتف قائلا بصوت نم على كل شىء :

— يا ماچيلا .

وفى لمح البصر كانت رامونا بجوارها ، وقد أرسلت صيحة نفذت إلى أعماق الطفلة المحتضرة ، فرفعت أجفانها ، وعرفت أمها ، ولكن نوبة سريعـة هزت كيانها كله ، وطافت على وجهها اختلاجة ألم ، ثم رقدت فى سلام . وأخـذت صيحات رامونا تمزق قلب اليساندرو وهى تبعده عنها وتحاول أن تهدهد الطفلة ، ثم رفعت ذراعيها إلى السماء هاتفة : « لقد قتلتها . . قتلتها . . أريد أن أموت » .

www.ibtesama.com

وفيما كان اليساندرو يدير ببطء رأس «بابا» إلى البيت مرة أخرى ، أخذت رامونا تقول بأنفاس لاهثة :

– احملها إلى . . سأضمها إلى صدرى لكى تبقى دافئة .

وفى صمت وضع اليساندرو جسد الطفلة بين ذراعيها . ولم يكن قد نطق بكلمة بعد صيحته الأولى ، ولو أن رامونا نظرت إليه ، لنسيت حزنها على طفلتها المتوفاة ، ذلك لأن وجه اليساندرو لاح كأنما تحول إلى صخر .

ولما وصلا إلى البيت ، وضعت رامونا الطفلة على السرير ، وأسرعت إلى ركن فى الغرفة ، ورفعت جلد الغزال ، وأخذت التمثال الخشبى الصغير للمسيح من مخبئه ، وأعادته إلى ذراعى السيدة العذراء ودموعها تنهمر على وجنتيها ، ثم ألقت بنفسها على ركبتيها وأخذت تبتهل باكية فى طلب الغفران . ووقف اليساندرو فى نهاية السرير ، عاقدا ذراعيه على صدره ، مركزا نظراته على الطفلة ، ثم مالبث أن غادر البيت وهو لايزال صامتا . وسرعان ماسمعت رامونا صرير المنشار ، فتأوهت بصوت مرتفع والدموع تنهمر بسرعة متزايدة ، إذ أدركت أن اليساندرو يصنع للطفلة تابوتا . وأخيراً نهضت بطريقة آلية ، وتحركت فى الغرفة كإنسان نصف مشلول ، وكست الصغيرة بملابس بيضاء للدفن ، وبعد أن أرقدتها فى المهد ، بسطت عليها الغطاء الجميل الذى كانت قد صنعته للمذبح ، وفيما هى تبسط ثنياته ، حملتها الذكريات إلى الوقت الذى صنعت فيه هذا الغطاء وهى جالسة فى شرفة السنيورة ، وتغريد العصافير والبلابل ، وابتسامة فيليب ، واليساندرو جالساً على السلم يرسل من كمانه أعذب النغم . أكانت هى تلك الفتاة الجالسة هناك تطرز الخيوط لتصنع ذلك الكساء الجميل ؟ أحدث هذا منذ مائة عام ؟ أكان

www.ibtesama.com

ذلك عالماً آخر ؟ أهذا هو نفس اليساندرو الذى يدق المسامير فى التابوت ؟ بالمطرقات التى ترتفع وترتفع حتى بدا الجو كأنه مزدحم بها . وتهالكت رامونا على الأرض ويداها تضغطان على جانبى جبهتها ، وغمرتها غشية رحيمة أنستها إلى حين آلامها .

ولما فتحت عينيها وجدت نفسها راقدة على الفراش ، إذ كان اليساندرو قد رفعها ووضعها هناك دون أن يبذل أى جهد لإفاقتها . وخطر له أنها سوف تموت أيضاً . وحتى هذا الخاطر لم يخرجه من ذهوله الحزين ، ولما فتحت عينيها ونظرت إليه ، لم يقل شيئاً . وأغمضت عينيها . . ولم يتحرك من مكانه . وعادت وفتحتهما مرة أخرى وقالت :

— سمعتك وأنت فى الخارج .

— نعم لقد صنعته .

ثم أشار إلى صندوق صغير من الخشب غير المصقول كان بجوار المهد وقال:

— هل ماجيللا على استعداد للذهاب إلى الجبل الآن ؟

— أجل يا اليساندرو ، إننى مستعدة .

— لسوف نختفى إلى الأبد .

— هذا لن يغير من الأمر شيئاً .

ولا يعرف أحد ما ذا كان رأى نساء سابوبا فى رامونا . إنها لم ترتبط بهن بنفس الرباط العاطفى الذى ربطها بنساء سان باسكويل ، ذلك أن علاقتها الوطيدة

بآل هابر كانت كالحاجز الذى عجزت نساء سابوبا عن اجتيازه للوصول إليها . وكان رأيهن أنه لا يمكن أن يكون إنسان ما قوى الصلة بالبيض ، ثم يكون فى الوقت نفسه هنديا صميما ! ومن ثم ابتعدن عنها . ولكنهن لم يلبثن أن اجتمعن حولها فى حزنها وشرعن يبكين عند رؤية وجه الطفلة المتوفاة وهى راقدة صندوقها الصغير . وكانت رامونا قد كست الصندوق من الداخل بالقماش الأبيض وغطته بكساء المذبح الذى تدلت أطرافه إلى الأرض . وقالت الأمهات فى سابوبا فيما بينهن : « لماذا لا تبكى هذه الأم ؟ أهى مثل البيض الذين بلا قلوب ؟ » وشعرن بالحرج أمامها ، ولم يدرين ماذا يقلن . وأدركت رامونا مايدور بأنفسهن ولكن لم يكن لديها من الرغبة مايدفعها للحديث إليهن ، ذلك لأن قلبها كان مليئاً الآن بفزع دينى أعنف من حزنها على طفلتها . لقد أغضبت السيدة العذراء وارتكبت خطيئة لاتغتفر . وهكذا عاقبتها السيدة العذراء فى ساعة قصيرة ، وقضت على طفلتها أمام عينيها ، وهاهو ذا اليساندرو يفقد عقله تدريجيا ؛ إذخيل إليها أنها ترى مايطرأ على نفسه من تغيير ساعة بعد أخرى ، ترى أى نوع من الانتقام ستوقعه السيدة العذراء عليها بعد ذلك ، هل ستجعل من اليساندرو مجنوناً ثائراً ينتهى به الأمر إلى قتلها وقتل نفسه ! . لقد لاح لرامونا أن هذا هو المصير المحتمل الذى ينتظرها . ولما انتهت مراسم الجناز ، وعادت مع اليساندرو إلى بيتهما الموحش ، ورأت المهد الخالى ، انهارت رامونا وصاحت قائلة :

— أوه . . خذنى بعيداً يا اليساندرو . . بعيداً . . لايهمنى أين . . إن أى مكان أفضل من هنا .

— هل ستكون ماجيلا خائفة الآن . . هناك فى أعلى الجبل . . فى المكان الذى حدثتها عنه ؟

www.ibtesama.com

فأجابت بلهفة :

ـ لا .. لم أعد خائفة من شيء .. المهم أن تمضي بي بعيدا .

وطافت بوجه اليساندرو ومضة ابتهاج شديد وقال :

ـ حسنا ياماچيالا .. سوف نمضي إلى الجبل ، وسنكون هناك في مأمن .

ومرة أخرى اتسمت تصرفاته كلها بنفس التملل الشديد الذي كان يملأ نفسه في سان باسكويل . وأخذ عقله يعمل بلا توقف في تدبير تفصيلات رحيلهما وبدء حياتهما الجديدة . وراح يذكر هذه التفصيلات الواحدة بعد الأخرى لرامونا ، فقال إنهما لا يستطيعان أن يأخذا معهما الجوادين معاً ، لأن العشب لن يكون موفورا ، كما أنه لن يكون هناك مايدعو لاقتناء جوادين ، وكذلك لابد لهما من الاستغناء عن البقرة . ولسوف يذبحها اليساندرو ، ويجفف لحمها الذي سيوفر لهما الطعام مدة طويلة . أما المركبة فإنه يأمل في بيعها وشراء قطيع من الأغنام والماعز ، لأن هذه تستطيع الحياة بسهولة في المرتفعات الذاهبين إليها ، وهناك سيشعران بالأمان في النهاية .. نعم الأمان ، لا الأمان فقط من البيض الذين لن يرغبوا في ذلك الوادي لضيق مساحته ، بل ومن الهنود أيضا . ذلك لأن هؤلاء الهنود السذج اعتادوا الخوف من مرتفعات سان جا كنتو ؛ إذ يعتقدون أن الشيطان يقيم هناك ، ومن ثم فإن أي مبلغ من المال لا يمكن أن يغري هنود قرية سابوبا بالذهاب إلى ذلك الوادي المرتفع الذي اكتشفه اليساندرو . وكانت بهجته شديدة كلما ذكر إحدى هذه الظواهر التي تؤكد أمنهما في ذلك المخبأ .

ـ عندما رأيته أول مرة ياماچيالا ، اعتقدت أن القديسين هم الذين ساقوني

إليه . وقالت : إن هذا مخبأ أمين . ولم يخطر ببالى عندئذ أنى قد أحتاج إلى مكان كهذا لأحفظ ماجيلالا فى أمان . . أمان . أوه ماجيلالى ! .

ثم ضمها إلى صدره فى عاطفة مشبوبة عارمة .

ولم يكن من السهل على أى هندى أن يبيع جواداً أو مركبة فى وادى سان جاكنتو إلا إذا تخلى عنهما تماما . وقد عانى اليساندرو مشقة بالغة فى الإجابة بأدب على الأشخاص الذين أرادوا شراء بنيتو والمركبة بربع قيمتهما . وكان يعلم أنهم ما كانوا ليجرؤوا على مجرد ذكر هذا الثمن لرجل أبيض، وأخيرا استطاعت رامونا التى كانت تشك كثيرا فى جدوى هذا التخلى عن أثمن مقتنياتهما ، أن تقنعه بأخذ الجوادين والمركبة إلى سان برناردينو لتستعملهما أسرة هاير فى فصل الشتاء.

وكان ذلك من أنسب الأعمال لجوس ، لكى يبقى فى الهواء الطلق إذا كان لديه أعمال فى مجال النقل يقوم بها . وكانت واثقة أنه سوف يشعر بالغبطة لهذه الفرصة . وقد قالت :

— إنه يحب الجواد مثلنا تماما يا اليساندرو ، ولهذا سيعنى بها أشد العناية. وإذا لم ترضنا الحياة فى الجبل ، فيمكننا أن نسترد الجوادين والمركبة عند عودتنا أو يمكن لجوس أن يبيعها فى سان برناردينو ، وما أظن أحدا يرى بنيتو و«بابا» مشدودين إلى المركبة دون أن يرغب فى شرائهما .

وهتف اليساندرو قائلا :

— إن ماجيللا أعقل من الحمامة . لقد فكرت فى خير ما ينبغى أن نفعله . سوف أمضى بالمركبة والجوادين إلى آل هاير .

www.ibtesama.com

ولما استعد للرحيل ، طلب من رامونا أن تصحبه ، ولـكنها رفضت قائلة والرعب فى عينيها :

— لا ، أبدا . . لن أمشى خطوة واحدة على ذلك الطريق المشئوم ، لن أسير على هذا الطريق إلا محمولة كما حملناها عائدين ميتة .

وكذلك لم ترغب رامونا فى رؤية العمة رى ، لأنها لم تكن على استعداد لاحتمال مواساتها رغم كل ما تنطوى عليه من عطف وحنان .

— قل لها إننى أحبها ، ولـكننى لا أريد أن أرى أحدا الآن . ربما أزورها فى العام القادم عندما نهبط من الجبل ، وعندما يكون هناك طريق آخر إليها .

ولـكن العمة رى حزنت أشد الحزن ، ولم تستطع أن تفهم مشاعر رامونا. ومن ثم قالت لابنها جوس :

— أعتقد أننى لا أصدق كلمة من كلماتها ، وأؤكد أنها لن تفعل شيئا مما تقول . والواقع أننا لن نراها بعد ذلك أبداً يا جوس . هذا هو شعورى . ويلوح أنها خرجت من عالمنا هذا إلى عالم آخر .

وكان جرم جبل سان جاكنتو الهائل يلوح فى الأفق الجنوبى لوادى سان برناردينو . وكان يبدو بوضوح شديد من باب الـكوخ الصغير الذى يقوم فيه منسج سجاد العمة رى . وكانت وهى تجلس فيه الساعة بعد الأخرى ، وربما سبع ساعات فى اليوم تعمل بإبرتها الغليظة ، فى صنع السجاد ، ترنو بشوق وحنان إلى القمة الشامخة المتألقة التى كانت تتوهج كالنار عندما تنسكب عليها أشعة الغروب أو تختفى تماما فى الأيام الملبدة بالسحب .

www.ibtesama.com

وكانت تقول لابنها جوس :

— يبدو أن هذه القمة هي الخطوة قبل الأخيرة إلى السماء يا جوس . ولا أستطيع أن أصف لك شعوري وأنا أنظر إليها منذ أن عرفت أنها هناك . وإنها لتلمع بقوة تبهر الأعين أحيانا . وأعتقد أن هذا الضوء لا يكون ساطعا هكذا عندما يصعد الإنسان إليها ، وإلا لما استطاع أن يعيش فيها . وأعتقد يا جوس أن الحياة هناك كالموت . ألا ترى هذا ؟ لقد قال إنه لا يمكن لأحد أن يصل إليها هناك ، وأن أحدا لم ير هذا المكان قبله ، لقد اكتشفه أثناء الصيد . وهناك ماء أيضا ، ولا شك أن هذا هو كل شيء هناك ، وأعتقد أننا لن نراها مرة أخرى .

والوقع أن الجوادين والمركبة كانا كأنهما هبة من السماء لجوس . كانت هذه الأشياء هي ما يحلم بالحصول عليه دائما ، لأنها هيأ له العمل الوحيد الذي يستطيع أن يقوم به وهو في حالته الصحية تلك . وكانت عمليات النقل كثيرة في سان برناردينو ، إلا أن عملية شراء مركبة وجوادين لهذا الغرض كانت فوق طاقتهم المالية يومذاك . وكان أكثر مما تطمع العمة رى في تحقيقه أن تدخر في نهاية العام ما يكفي لشراء جواد واحد . وقد حاولت الأسرة ، عبثا أن تستبدل بالمركبة الثقيلة ، أخرى خفيفة صالحة لأعمال النقل . وقد قالت العمة رى :

ـ أشعر أحيانا أني أموت خجلا كلما فكرت في حسن حظ جوس بحصوله على هذه المركبة والجوادين المهذبين ولكن إذا استمر جوس في كسب المال على هذا النحو ، فسوف يستطيع أن يدفع للهندي نصيبه في الربح عندما يعود . ولا شك أن هذا أقل ما يجب أن يفعله جوس . إن هذين الجوادين يقومان في اليوم الواحد بعمل يومين . إنني لم أر مثلهما في حياتي . إنهما متحابان كالقطط

www.ibtesama.com

الصغيرة الأليفة وأنا أعرف أنها تحب ذلك الجواد الأسود حبا جما ، لأنهـا تولت رعايته منذ أن كان وليدا ! يا للمسكينة ! يبدو أنها لن تراه بعد ذلك .

وكان اليساندرو قد ظل يرجيء ، يوما بعد يوم ، ذبح البقرة . كان يشق عليه أن يذبح هذه المخلوقة الوفية التي كانت تعرفه وتأتي إليه عندما تسمع صوته . وكان بعد وفاة الطفلة يأخذها إلى مرعى يبعد عن الشمال الشرقي للقرية بنحو ثلاثة أميال ، وكان مرعى في خور أخضر جميل مظلل بأشجار البلوط ، ومزود بنبع مائي . وكان ينوي أن يبني بيته في هـذا المكان لو أنه استقر في قرية سابوبا إلا أن اليساندرو أخذ يضحك لنفسه بحرارة وهو يتذكر هذا الحلم ، ذلك أن الأنباء كانت قد وردت إلى سابوبا بأن شركة ما تكونت لاستثمار وادي سان جاكنتو ، وكان الإخوة راقاللو قد باعوا للشركة حق استغلال جانب كبير من الوادي . وكذلك أخذ المزارعون البيض في الوادي يقيمون الأسوار حول ممتلكاتهم . وهكذا لم يعد ثمة مجال لرعي الماشية بلا حدود أو قيود . ولما كان سكان سابوبا أفقر من أن يقيموا أميالا بعد أميال من الأسوار ، فقد كان عليهم أن يتخلوا عن امتلاك الماشية ، وبعد ذلك كان لا بد من طردهم ، كما حدث لسكان تيميكيولا . ولهذا كان قد أقنع ماجيلا في الوقت المناسب بالهرب إلى الجبل ، لأنهما ، هناك ، يستطيعان على الأقل أن يعيشا ويموتا في سلام . وأيا كانت حالة الفاقة التي سيعيشانها ، ونوع الموت الذي سيواتيهما ، فإن عزاءهما أن كلا منهما سيظل مع الآخر . وإنه لمن الخير أن ماتت الطفلة ، إذ أعفيت بالموت من هذا الشقاء . لأنها لو عاشت وصارت امرأة ، لما وجدت مـكانا في كل أنحاء المنطقة يمكن أن يلجأ إليه أحد الهنود . وبمثل هذه الأفكار الحزينة ، ذهب اليساندرو إلى الخور ذات صباح ، وكان عليه أن يذبح البقرة أخيرا ، بعد أن

www.ibtesama.com

تم كل شيء للرحلة . وحتى حاجاتهما البسيطة كان نقلها إلى أعلى الجبل سيستغرق أياما عديدة ، ذلك لأن الجواد الذى استبدلاه ببنيتو و «بابا» لم يكن فى مقدوره أن يصعدفي الجبل بحمل ثقيل. وفى خلال هذه الأيام القليلة ، تكون رامونا قد فرغت من تجفيف اللحم البقرى الذى سيوفر لهما الطعام عدة أشهر . و بعد ذلك يرحلان نهائياً .

وعاد إلى البيت ظهراً بأول حمل من لحم البقرة ، وبدأت رامونا فى تقطيعه إلى شرائح على الطريقة المكسيكية فى تجفيف اللحوم . وعاد اليساندرو ليأتى بالجزء الباقى من لحم البقرة . وفيما كانت رامونا تروح وتغدو قائمة بعملها فى ساعة مبكرة من بعد الظهر إذا بها ترى جماعة من راكبى الجياد ينتقلون من بيت إلى إلى آخر فى الجانب الأعلى من القرية ، ورأت النسوة يخرجن جريا فى اهتياج من كل بيت بعد أن يغادره الراكبون ، ثم إذا واحدة منهن تمرق بسرعة عبر التل إلى بيت رامونا وتهتف بها فى أنفاس لاهثة :

— خبئى اللحم . . خبئى اللحم . إنهم رجال ميريل فى آخر الوادى . لقد ضاعت منهم بقرة وهم يزعمون أننا سرقناها . وقد عثروا على المكان الذى ذبحت فيه ملوثا بالدماء . وهم يقولون إننا فعلنا هذا . خبئى اللحم . لقد أخذوا كل ما كان لدى فرناندو من لحوم . وهى ملكه ، اشتراها بماله ، ولا يعرف شيئاً عن بقرتهم الضائعة .

وهتفت رامونا قائلة فى استنكار :

— إننى لن أخفى شيئاً . إنها بقرتنا وقد ذبحها اليساندرو اليوم .

فقالت المرأة فى ضنى :

www.ibtesama.com

— إنهم لن يصدقوك . لسوف يأخذونه كله . خبئى جزءاً منه على الأقل .

ثم جذبت جانباً من اللحم ودفعت به إلى ما تحت السرير ، ورامونا واقفة فى ذهول .

وقبل أن تتحدث مرة أخرى ، كانت أجسام الراكبين المسرعين قد ألقت بظلالها السوداء على جانب البيت . وهتف أولهم وهو يثب من فوق جواده :

— يا إلهى . . ها هو ذا باقى اللحم . يالهم من لصوص ملاعين ! انظروا إلى هذه المرأة وهى تقطع اللحم ! كفى عن هذا أيتها المرأة ! أتسمعين ؟ لسوف نعفيك من تجفيف اللحم من أجلنا ، فضلا عن ذبحك للبقرة ! قدمى إلينا الآن كل قطعة أمامك أيتها . .

ثم وجه إليها وصفاً بذيئا .

وانحسرت عن وجه رامونا كل قطرة من الدماء ، وتوهجت عيناها غضباً ، ووثبت متقدمة والسكين فى يدها ، وقالت :

— اخرجوا من بيتى أيها الكلاب البيض ! إن اللحم ملكنا ، وقد ذبح زوجى بقرتنا الخاصة فى هذا الصباح .

وفوجىء الرجال بصوتها و بموقفها ، وكانوا ستة ازدحموا فى الغرفة الصغيرة . وقال أحدهم :

— مهلا ياميريل . إن الهندية تقول إن زوجها ذبح البقرة هذا الصباح فقط وإنها بقرتهم حقاً .

www.ibtesama.com

واستدارت رامونا إليه بسرعة البرق وصاحت قائلة :

ـــ هل أنتم كذابون . . جميعاً ، حتى تظنوا أننى كاذبة مثلكم ؟ إننى أقول لكم إن هذه لحومنا ، وليس فى هذه القرية هندى واحد يسرق إحدى الماشية .

واستقبل الرجال هذا الحديث بعاصفة من ضحكات التهكم . وفى تلك اللحظة لمح كبيرهم آثار الدماء المتخلفة من جذب قطعة اللحم إلى ما تحت السرير ، فوثب إليه ورفع طرف جلد الغزال ، وأشار متهكماً إلى اللحم المخبوء وقال :

ـــ لعلكم حين تعرفون الهنود كما أعرفهم ، لا تصدقون كل ما يقولونه ، لو كان هذا اللحم ملكهم ، فلماذا تخفيه هذه المرأة هنا ؟

ثم انحنى ليجذب اللحم من تحت السرير وهو يردف قائلا :

ـــ ساعدنى يا چاك .

واستبدت برامونا سورة غضب مجنونة ، وصاحت وهى تقفز بين الرجال والسكين تلمع فى يدها :

ـــ إذا لمست هذا اللحم فسوف أقتلك !

وهتف چاك متراجعاً :

ـــ ويلى . . ويلى ! إنها لهندية جميلة حين تغضب ! ما رأيكم يا رفاق فى أن نترك لها بعض اللحم ؟ إذ لا ذنب لها طبعاً وهى تصدق ما قاله لها زوجها .

وغمغم ميريل وهو يجذب اللحم من تحت السرير :

ـــ إنك لغبى أحمق يا چاك .

www.ibtesama.com

وهنا سمع الجميع صوتاً عميقاً صادراً من ناحية الباب :

ـــ ما معنى هذا كله ؟! .

وصاحت رامونا بابتهاج وهى تستدير نحو الباب ، حيث رأت اليساندرو واقفاً وقد نمت ملامحه ، وهو يرى ما حدث ، عن استنكار رهيب أفزعها . وكانت أبلغ سمات التحدى على وجهه وهو يضع يده على بندقيته ويتساءل مرة أخرى رغم إدراكه ما حدث :

- مامعنى هذا كله ؟

وقال أحد الرجال بصوت خفيض لميريل

ـــ إنه أحد هنود تيميكيولا . ولو كنت أعرف أن هذا بيته ، لما جعلتكم تأتون إليه . لقد أخطأنا الطريق بكل تأكيد .

وألقى ميريل باللحم الذى كان يجذبه ، على الأرض ، واستدار ليواجه نظرات اليساندرو ، ولم يلبث أن أطرق بوجهه بعد أن أدرك خطأه . ولما حاول أن يتكلم ، قاطعه اليساندرو قائلا بلغة إسبانية ركيكة وهو يشير إلى جواده الواقف بالباب ، وعلى ظهره بقية اللحم ملفوفا فى الجلد :

ـــ هاهو ذا بقية اللحم. لقد ذبحت البقرة هذا الصباح فى الخور ويمكننى أن أصحب السنيور ميريل إلى المكان إذا شاء . إن بقرة السنيور ميريل ذبحت أمس تحت نخيلة الصفصاف .

وقال أحد الرجال المتحلقين حوله :

www.ibtesama.com

ـــ نعم .. هـذا ما حدث . كيف عرفت ؟ من فعل هذا ؟

ولم يجب اليساندرو . وإنما نظر إلى رامونا التي كانت قد وضعت شالا على رأسها ، كما فعلت المرأة الأخرى ، وقبعت معها في ركن الغرفة ، وقد أشاحت بوجهها ، لأنها لم تقو على النظر ، بعد أن أيقنت أن اليساندرو سوف يقتل أحد الرجال . ولكن ما حدث لم يكن من الدوافع التي تثير في نفس اليساندرو سورة خطيرة من الغضب ، بل لقد شعر في أعماق نفسه بالابتهاج وهو يرى ارتباك الرجال الأشداء الباحثين عن أشياء مسروقة . ومن ثم التزم الصمت إزاء كل أسئلتهم الخاصة بالبقرة المسروقة ورفض أن يفتح فمه تماماً . وأخيراً انطلق الرجال على جيادهم وهم يضجون و يصخبون بعد أن قذفوه بوابل من شتائمهم ، بسبب إصراره على الصمت . ومضى اليساندرو إلى جانب رامونا التي كانت ترتعد ويداها باردتان كالثلج . وقالت له لاهثة الأنفاس :

ـــ هل نذهب إلى الجبل الليلة .. ؟ خذني إلى حيث لا أرى بعد اليوم وجه رجل أبيض .

والتمعت في عيني اليساندرو نظرة ابتهاج مزدوجة بالأسى . أخيرا أصبحت رامونا تشعر نحو هؤلاء البيض بمثل شعوره .

ـــ إنني لا أستطيع أن أترك ماجيلا هنا ، بمفردها ، بلا بيت . ولا بد لي من الذهاب والعودة مرات عديدة قبل أن أنقل كل شيء .

فقالت رامونا وقد انفجرت باكية وهي تتذكر نظرات جاك الوقحة إليها :

www.ibtesama.com

— إن الخطر هناك أقل مما هو هنا . أوه . إننى لم أعد قادرة على البقاء هنا بعد اليوم .

— إن الأمر لن يستغرق أياما عديدة يا ماجيللا . سوف أستعير جواد فرناندو لأضاعف الأحمال التى أنقلها كل يوم . وعندئذ نستطيع أن نرحل فى أقرب وقت .

— ومن الذى سرق بقرة هذا الرجل ؟ لماذا لم تخبرهم . لقد بدا عليهم كأنما تمنوا لو قتلوك .

— إنه ذلك المكسيكى المقيم فى قاع الوادى ، جوزيه كاسترو . لقد فاجأته وهو يقطع لحم البقرة، ولكنه قال إنها ملكه . إلا أننى عرفت من طريقته فى الحديث أنه كاذب . ولكن لماذا أخبرهم ؟ إنهم يظنون أن الهنود فقط هم الذين يسرقون الماشية . ويمكننى أن أقول لهم إن المكسيكيين أكثر لصوصية .

وقالت رامونا باستنكار :

— ولكننى أخبرتهم أنه لا يوجد فى هذه القرية هندى يسرق الماشية .

فأجاب أليساندرو بحزن :

— ليست هذه هى الحقيقة يا ماجيللا. إنهم عندما يشتد بهم الجوع يسرقون بقرة أو عجلا . إنهم يفقدون الكثير من ماشيتهم، ولهذا يقولون إنه لن يحدث ضرر كبير لو أخذوا بقرة أو عجلا من أحد البيض إن أمكنهم . إن هذا الرجل

www.ibtesama.com

ميريل وسم بعلامته الخاصة عشرين عجلا فى الربيع الماضى ، مع علمه بأنها من عجول سكان قرية سابوبا .

فهتفت رامونا قائلة :

— ولماذا لم يرغموه على إعادتها إليهم ؟

— ألم تر ماجيلا كيف عجز الهنود عن عمل شىء أمام هؤلاء الرجال ؟ إنه ليس فى مقدورهم إلا أن يختبئوا .

ولكن رعباً جديداً ملأ حياة رامونا ! إنها لم تجرؤ على أن تفضى بمخاوفها إلى اليساندرو ، بل إنها لا تكاد تجد الشجاعة الكافية لأن تعبر عن خواطرها ، إلا أنها ظلت تشعر بالفزع كلما تذكرت وجه جاك ونظراته إليها ، وكأنما هو شبح رهيب . ومن ثم أخذت تنتحل الأسباب المختلفة لتضمن بقاء إحدى نساء القرية معها فى البيت كلما غاب اليساندرو فى مهمته بالجبل . وفى كل يوم كانت ترى الرجل يمر أمام البيت على جواده . وفى ذات مرة توقف أمام الباب المفتوح ، وأطل برأسه وتحدث معها فى مودة ثم ركب عائداً . وكانت رامونا صادقة فى حدسها . وكان جاك فى انتظار الفرصة المناسبة . وكان قد أزمع أن يستقر بضع سنوات فى وادى سان جاكنتو ، وأن يظفر بامرأة هندية لتعيش معه وتدير بيته ، وكان أخوه هناك فى سانتا ايزابلا ، قد عاش لمدة ثلاث سنوات مع عشيقة هندية ، ولما باع مزرعته ورحل عن سانتا إيزابلا منح المرأة مائة دولار ومنزلا لتقيم فيه مع ابنها منه : ولم ترض المرأة بما حدث فحسب ، وإنما اعتبرت نفسها — بسبب علاقتها المؤقتة بأحد الرجال البيض — أنها أعلى شأنا من أقاربها وأصحابها الهنود . ولما أراد هندى أن يتزوجها ، أجابته باحتقار أنها لن تتزوج هندياً — إنها قد

www.ibtesama.com

تتزوج رجلا أبيض آخر — أما الزواج بهندى ، فلا . . أبدا . أما أخوه ، فإنه لم يفقد احترامه فى نظر أحد بسبب هذه العلاقة ، لأنها كانت مألوفة فى تلك المنطقة . فإذا استطاع جاك أن يغرى هذه المندية التى لم ير فى حياته أجمل منها بين المنديات بالحياة معه ، فسوف يعتبر نفسه رجلا سعيد الحظ كما سيرى أنه سيؤدى للهندية صنيعاً جميلا . إن كل شىء كان فى ذهنه بسيطاً وواضحاً .ومن ثم حين رأى رامونا تسير بمفردها فى القرية ذات صباح لحق بها ، وسار بجانبها ، وشرع يجس نبضها فيما يتعلق بمشروعه وهو يكاد يؤمن بالنتيجة . وارتعدت رامونا حين اقترب منها ، وأسرعت فى السير دون أن تلتفت إليه ، ولكنه فى جهالته ، أخطأ فهم هذه الأمارات .

وقال أخيرا :

— هل أنت متزوجة ، من زوجك ؟ إنه لمكان حقير ذلك الذى هيأه لسكناك ، أما إذا جئت وعشت معى ، فسيكون لك أحسن بيت فى الوادى كله ، بيت لا يقل عن بيت آل رافاللو ، و . .

ولم يستكمل جاك حديثه ، لأن رامونا وثبت من جانبه كأنما تهم أن تجرى وقد أرسلت صيحة ظلت تفزعه ذكراها سنوات عديدة، ثم توقفت فجأة وواجهته بعينين كالجمر ، وقالت بأنفاس متلاحقة :

— أيها الحيوان!

ثم بصقت نحوه واستدارت ولاذت بأقرب بيت حيث تهالكت على الأرض وانفجرت باكية قائلة إن ذلك الرجل السائر فى الطريق قد أساء إليها .

www.ibtesama.com

وقالت النسوة إنه حقاً رجل شرير ، وإنهن يعرفن هذا عنه . ولكن رامونا لم تقل شيئاً من هذا لإليساندرو ، لأنها لم تجرؤ على ذلك خشية أن يقتله .

ولما أفضى جاك - للهتاج - بهذا كله لصديقه ميريل وأصحابه الساخطين ، ضحك ميريل منه قائلا :

- لو أنك أخبرتنى لنصحتك بترك هذه المرأة وشأنها ، إنها متزوجة فعلا . وإن هناك كثيرات غيرها إذا أردت . وهن بارعات جداً فى إدارة المنازل ومخلصات كالكلاب ، ويمكنك أن تأتمنهن على أموالك بلا أدنى خوف .

ولم تشعر رامونا ، منذ ذلك اليوم ، بلحظة من الراحة والهدوء حتى وقفت أخيراً على حافة الوادى الذى لاذت به ، هناك فى أعلى سان جاكنتو . ثم أخذت بعد ذلك تتلفت حولها ، وتتطلع إلى القمة التى بدت كأنها تنفذ فى السحاب ثم تعود وتنظر إلى العالم فى أسفل - العالم الذى لاح لها بلا حدود أو نهاية . وقد امتد عند قدميها .. وعندئذ شعرت أنها قريبة من السماء ، بعيدة عن الأرض التى تتصل بها فقط عن طريق هذه المرتفعات ، وأخيراً هتفت قائلة وهى تتنهد بعمق وابتهاج :

- أخيراً .. أخيراً ياإليساندرو ، ها نحن أولاء فى أمان ، هذه هى الحرية ، هذه هى السعادة .

وقال إليساندرو :

- هل يمكن لماجيلا أن ترضى بهذا ؟

www.ibtesama.com

فصاحت بوحى من المنظر الرائع :

— إن من الممكن أن أكون سعيدة . لم أكن أحلم بأن هذا المكان على كل هذا الجمال .

وكان الوادى عجباً وكأنما ارتفعت الجبال خاصة لتصنعه . وكان يقع فى منتصف المسافة إلى القمة، ويمتد مستعرضاً على جانب الجبل وكان طرفه الغربى أو الجدوبى الغربى أخفض كثيراً من طرفه الشرقى. وكان كل من طرفيه، المرتفع والمنخفض،مسدوداً بالأحجار والأشجار الساقطةالمتشابكة، وكانت القمة الصخرية للجبل نفسه هى جداره الجنوبى ، أما الناحية الشمالية ، أو الحافة الشمالية ، فكانت مكسوة بأشجار الشربين ،ومن ثم فإن المرء قد يتجول فى الجبل سنوات وسنوات دون أن يفطن إلى وجود هذا الوادى . ومن الناحية العليا كان ثمة نبع رقراق ينبثق ويتهادى — أكثر مما يجرى — إلى القاع الأخضر على طول الوادى ، ثم يختفى عند الصخور فى الطرف الأدنى ، ولا يعود للظهور . وقد حاول اليساندرو مرات عديدة أن يعثر عليه فيما وراء هذه الصخور ، ولكن على غير جدوى . وفى أثناء الصيف ، عندما كان يصطاد مع جيف ، تسلق فى مرات عديدة الصخور التى تسد طرفه الأدنى ، وهبط فيما وراءها ، ليرى هل الجدول لا يزال يتهادى فى مجراه ، حتى فى شهر يولية ، ولشد ما كانت فرحته عندما رآه ثرار الماء كما لو كان فى شهر يناير . وهذا يعنى أن الجفاف لا يؤثر فيه. فما أروع هذا الجدول ! إن مياهه الصافية المعدنية تبدو كما لو كانت نابعة من السماء.

وعلى مسافة يسيرة من الوادى كان ثمة مرتفع آخر ، يمتد فى اتساع وكأنه هضبة . وكان فى هذا المتسع أشجار كثيرة من البلوط وثماره الصالحة لصناعة الخبز . وتحت هذه الأشجار كان ثمة فجوات فى الصخر مصقولة ، اعتاد الهنود

www.ibtesama.com

فى الأجيال السابقة أن يطحنوا فيها الثمار . ويبدو أن ذلك كان حقا منذ أجيال بعيدة سحيقة ، لأنه لم يكن بين أكبر المعمرين الأحياء من يتذكر أن الهنود تجرأوا يوما على الصعود إلى هذا الوادى المرتفع من سان جاكنتو . وكانوا يرون أن الموت مترصد لمن يحاول الصعود إلى القمة ، وأن من الحماقة البالغة أن يحاول أحد ، على الأكثر ، الصعود إلى جوانبه .

وكان الوادى بمثابة المصحة لاليساندرو ورامونا ؛ إذ سرعان ما لأم جراح نفسيهما ، وخفف من مرارة أحزانها على الطفلة المتوفاة . لقد بدت لهما أنها لم تعد بعيدة عنهما بعد أن أصبحا قريبين على هذا النحو من السماء . وفى أول الأمر أقاما تحت خيمة ، إذ لم يكن هناك وقت لبناء بيت حتى تتم زراعة القمح والخضر فى الأرض الخصبة ، وقد دهش اليساندرو من فرط خصب الأرض حين راح يحرثها . وكان الوادى قد تكون فى المنخفضات والحفر بالجانب الجنوبى من الجدار . وقد سره أن يحرث هذه المجمعات الخصبة المظللة بالجدار المرتفع بدلا من أن يفسد المنخفض الآخر المستطيل الملىء بالأزهار . وما إن فرغ من تمهيد الأرض للزراعة ووضع البذور ، حتى بدأ يسقط الأشجار ليصنع منها بيتا . إنه لن يقيم فى هذه المرة بيتا صغيرا من الطين ، وإنما كوخا جميلا من خشب البلوط نصف المصقول ، بحيث تبدو الألواح على لونين ، الأصفر والبنى ، وكأنما صنعتها أيدى أناس سعداء القلب . وكان السقف المصنوع من الغاب وأعواد شجرة اليوكا ، يمتد كالمظلة على الواجهة ، ليكون فى نفس الوقت سقفا لشرفة واسعة مستطيلة وقد دعم اليساندرو هذا الجزء الممتد من السقف بأعمدة من جذوع أشجار الشربين التى أبقاها بلحائها . وهكذا كان فى مقدور رامونا أن تجلس

www.ibtesama.com

مرة أخرى فى شرفة تنفرد تحت سقفها الشراشر والعصافير، كما كان الأمر فى بيت السيورة وبعد أن أقام مربطا للأغنام ، وآخر للجواد ، تمت عمليات بناء البيت الذى كان أحسن بيت أقاما فيه منذ زواجهما . وهنا ، فى الشرفة المشمسة ، عندما حل فصل الخريف ، كانت رامونا تجلس وتصنع من الأغصان الصغيرة العاطرة لشجرة الصفصاف مهد طفل . أما المهد الآخر الذى ذرفت فوقه تلك الدموع المريرة فى الوادى ، فقد أحرقته فى آخر ليلة لها فى قرية سابوبا . لقد كان الخريف فى بكوره حين جلست تصنع ذلك المهد الثانى . وكانت الأرض حولها مفروشة بالأعناب الملقاة لتجف . وكانت أسراب النحل تحط عليها فى كثرة جعلت رامونا تنهض بين الحين والآخر لتهشها قائلة : « أيها النحل الطيب ، اصنع عسلك من شىء آخر ، لأننا لن نستفيد شيئا إذا امتصصت الرحيق من أعنابنا ، إننا نريد أن نجفف هذا العنب لمؤونة الشتاء . وكانت وهى تقول هذا تنطلق بخيالها إلى الشتاء . إن السيدة العذراء لا شك قد غفرت لها ، لأنها ستمنحها مرة أخرى بهجة الشعور بوجود ابن أو ابنة بين ذراعيها . نعم .. إنها لبهجة رغم الفقر ، ورغم الأخطار ، ورغم كل ما تنطوى عليه الحياة من ظلم وقسوة . إنها لبهجة حقيقة أن تحمل بين ذراعيها طفلها .

وولدت الطفلة قبل حلول الشتاء وكانت المرأة الهندية العجوز التى أجرت لهما البيت فى سابوبا قد جاءت لتعيش مع رامونا . وكانت قد أصبحت وحيدة فى الحياة بعد أن ماتت ابنتها ، ومن ثم سعدت بأن تعيش مع رامونا كأم لها . ورغم جهلها وضعفها ، فقد ظلت رامونا ترى فيها دائما صورة لأمها التى لعلها الآن تعيش معذبة أو مشردة دون أن تدرى رامونا أين ، أو ماذا ألم بها . وهكذا وجدت غرائز البنوة فيها شيئا من البهجة فى رعاية هذه المرأة العجوز الوحيدة فى الحياة .

www.ibtesama.com

وكانت رامونا معها على الجبل عندما حانت ساعة الوضع . وكان اليساندرو قد هبط إلى الوادى ليغيب يومين . ومع هذا لم تشعر رامونا بالخوف . ولما عاد اليساندرو، وضعت بين يديه المولود وهى تقول بابتسامة عاد إليها إشراقها السابق:

— انظر يا حبيبى ، لقد سامحتنا السيدة العذراء ومنحتنا ابنة مرة أخرى .

ولكن اليساندرو لم يبتسم ، وإنما نظر إلى وجه الطفلة متفحصا ، ثم تنهد قائلا :

— ولكن وا أسفاه يا ماچيللا ، إن عينيها كعينى ، لا كعينيك .

فهتفت راموناقائلة :

-- إننى سعيدة بذلك . . لقد سعدت حين رأيت هذا لأول مرة .

فهز رأسه وقال :

— إن من سوء الطالع أن يكون لها عينان كعينى اليساندرو. إنهما لا تريان إلا الأحزان .

ثم وضع الطفلة على صدر راموناووقف يرنو إليها بحزن .

وقالت رامونا :

-- يا عزيزى اليساندرو ، إن من الخطيئة أن يتمادى الإنسان فى الحزن وقد كان الأب سالفيرديرا يقول إننا إذا أفرطنا فى الحزن ، فسوف تضاعف لنا الأحزان ، وسوف نعرض لما هو أسوأ دائما .

— نعم .. هذا حق . لسوف نعرض لما هو أسوأ .

— ثم سار بعيداً ورأسه مطرق على صدره .

www.ibtesama.com

(٢٤)

لم يكن هناك مايشفى نفس اليساندرو تماماً ، كانت جراحه عميقة ، وكان قلبه الحساس لا يكف عن الشعور الحزين بالمظالم التى وقعت عليه ، وبالتشاؤم فيما يتعلق بمصير قومه ، وأهم من هذا كله،بما يحتمل أن يكون فى انتظار رامونه من آلام وشقاء ، ومن ثم ظل هذا الشعور يمتص من قلبه كل إحساس بالسعادة . وكان من الممكن أن ينقذه من هذه الحالة ، الحديث ، أو الشكوى ، أو الصراع ضد أعداء معروفين ، ولكن هذه العوامل كلها كانت غريبة على نفسه المنطوية ، وطبيعته المكبوتة. ولم تستطع رامونا أن تعرف فى أية ساعة أو فى أى يوم تحولت مخاوفها الرهيبة لأول مرة إلى يقين بأنه سوف يفقد عقله ، وأن الشيء الذى كانت تفزع منه يوم رحيلها عن سان باسكوېل قد حدث له . ومن العجب ، بل من الرحمة أنه لم يعرف هذه الحقيقة عندما وقع ما كانت هى تخشاه. كان يعرف فقط أنه يفيق فجأة من غيبوبة عقله بين الحين والآخر ليجد نفسه

www.ibtesama.com

فى مواقف غريبة لا معنى لها ، ومن ثم يستغرق وقتاً ، طويلا أو قصيراً ،ليتذكر ما حدث فى فترة ما من الزمن . إلا أنه كان يظن أن الأمر لايعدو أن يكون نوعاً من المرض، ومن ثم لم يكن يعرف أن تصرفاته فى تلك الفترات، كانت تصرفات رجل مجنون وإن لم تكن ذات طابع عنيف أو ضار بأى شخص ، أو مدمر .
وكان من دواعى إثارة الشفقة رؤيته فى تلك الفترات وهو يتصور أنه يعيش مرة أخرى فى أشد حالات المحن التى مرت بحياته . فكان يخيل إليه أحياناً أن الأمريكيين يطاردونه، أو ينتزعون منه راموناً ويهربون بها، فيمضى لمطاردتهم. وفى مثل هذه الأوقات كان يجرى بسرعة جنونية ساعات بعد ساعات حتى يسقط مرهقاً على الأرض ، ثم يسترد ببطء صوابه بسبب هذا الإرهاق . وفى أوقات أخرى كان يعتقد أنه يمتلك قطعاناً هائلة من الماشية ومن ثم كان يدخل فى أى مكان للماشية داخل الأسوار ، ويتجول بينها ويتحدث عنها مع المارة على أنها ملكه الخاص . وفى بعض الأحيان كان يحاول أن يسوق هذه القطعان أمامه ، فإذا عجز عن ذلك ، كف عن المحاولة وهو فى أشد حالات الدهشة . وفى ذات مرة وجد نفسه فجأة فى الطريق يسوق أمامه قطيعاً من الماعز لا يعرف من أين جاء به أو من هو صاحبه . وعندئذ كان يجلس على جانب الطريق ، ويضع رأسه بين يديه ويقول لنفسه: « ماذا حدث لذاكرتى ؟ لابد أنى مريض بالحمى » وفى أثناء جلوسه هكذا ، كانت الماعز تستدير من تلقاء نفسها وتعود جرياً إلى المربط القريب ، الذى كان صاحبه يقف عند مدخله ويضحك . فإذا أقبل عليه اليساندرو معتذراً ، قال له بسماحة :

— لا عليك يا اليساندرو .. لقد رأيتك وأنت تسوق ماعزى ، ولكننى كنت أعرف أنك ستعود بها .

وكان كل من فى الوادى يعرفه، ويعرف حالته. ولكن هذا لم يكن يؤثر فى قدرته على العمل فى معظم الوقت. إذ كان أحسن حلاق غنم فى المنطقة كلها، وأحسن مروض للجياد البرية. وكانت خدماته دائماً موضع الطلب رغم الخوف من أن تفاجئه إحدى نوبات المرض فى أثناء العمل. وكانت رامونا تشعر بالحزن الشديد عندما تدفعه النوبة إلى الغياب عنها فترات طويلة أو قصيرة، ولم يكن خوفها راجعاً إلى شعورها بالوحدة وحسب، وإنما خوفاً من أن يتخذ مرضه العقلى طابع العنف والتدمير فجأة. وكان هذا الحزن يزداد عمقاً لأنها تكتم عليه صدرها ولأن غرائزها القائمة على الحب والاتزان كانت تؤكد لها أن من الخطر الشديد أن يعرف حقيقة حالته. وفى أكثر من مرة كان يعود إلى البيت لاهثاً، منقطع الأنفاس، يصيح والعرق يتفصد على وجهه:

— لقد عثر الأمريكيون علينا يا ماجيللا! إنهم فى الطريق، ولكنى خدعتهم وجئت من طريق آخر.

وفى مثل هذه الأوقات كانت تهدىء نفسه، كطفل، وتغريه بالرقاد والراحة، فإذا أفاق وتعجب لشعوره بالتعب، قالت له:

— لقد كنت منقطع النفس عندما جئت ياعزيزى، لا ينبغى أن تتسلق الجبل بمثل هذه السرعة، فإن من الحماقة أن يجهد الإنسان نفسه هكذا.

وفى تلك الأيام بدأت رامونا تفكر بلهفة فى فيليب. وكانت تعتقد تماما أن من الممكن شفاء اليساندرو، ولاشك أن فى مقدور الطبيب البارع أن يصنع له شيئا. ولو أن فيليب عرف أية محنة تعانيها الآن، لما تردد فى مساعدتها. ولكن

كيف يمكنها الاتصال بفيليب دون أن تعرف السنيورة بهذا ؟ وأكثر من هذا كيف يمكنها إرسال خطاب إلى فيليب دون أن يعرف اليساندرو ماذا كتبت فيه ؟ لقد كانت رامونا ، رغم حريتها التامة فى تلك الآفاق الجبلية ، عاجزة تماما كما لو كانت مقيدة اليدين والقدمين .

وعلى هذا النحو أخذ الشتاء ينصرم ، ثم الربيع . وما كان أروع القمح الذى نما هناك ، فى طبقات الهواء العليا .. وما أروع الشوفان البرى الذى كان يموق كل منخفض أو فجوة أو ركن . أما الماعز فكانت تزداد سمنة وصوفها يزداد نعومة ، وكذلك الأغنام ، عادت مثقلة بالصوف رغم أن الصيف لم يكن قد حل . وكانت أمطار الربيع وافرة ، والجدول فياضا ، والأزهار تنمو بكثرة على حافات الوادى وكأنها فى أحواض بستان .

وكذلك الطفلة نمت ، وسمنت ، وغدت مخلوقة صغيرة ضاحكة كأنما لم يعرف الحزن طريقه إلى قلب أمها يوما . وكانت رامونا تقول لنفسها : « إن المسكينة قد رضعت منى الأحزان التى عشت فيها دائما طيلة هذا العام ، ومع ذلك فقد حفظتها السيدة العذراء من كل سوء » .

ولو كان الفضل فى حفظ الطفلة من كل سوء راجعا إلى الابتهال ، فلاشك أن هذا ما حدث لأن رامونا التقية المؤمنة كانت تركع فى الليل وفى النهار أمام السيدة العذراء وتبتهل على حبات للسبحة الذهبية حتى كادت هذه الحبات الرقيقة تذوب .

وفى فصل الصيف اعتادت قرية سابوبا أن تحتفل بعيد دينى يحضره قسيس

www.ibtesama.com

من سان برناردينو ورأت رامونا أن هذا هو الوقت المناسب لتحمل الطفلة لكى تعمد ، ولتكتب الرسالة إلى فيليب وتعهد بها إلى العمة رى التى يمكنها أن ترسلها نيابة عنها ، من سان برناردينو . وخامر رامونا شعور بالذنب وهى جالسة تفكر فيما ستكتبه ، وفى الطريقة التى ستبعث الرسالة بها — كيف يمكن أن تفعل هذا وهى التى لم تخف قط سرا عن اليساندرو فى صدرها الوفى النقى منذ تم زواجها به ، ولكن هذا كله من أجله هو . وعندما تتحسن حالته سوف يشكرها .

وكتبت الرسالة بتحفظ وحــــذر شديد . وقد كاد خوفها من أن تقرأها السنيورة ، يشل قلمها عن الكتابة . وفى أكثر من مرة مزقت الصفحات حين رأت أن ما كتبته أقدس من أن تقع عليه عين كارهة . وقبل الاحتفال بيوم ، فرغت أخيرا من كتابة الرسالة وأخفتها فى مكان أمين . وكذلك كانت قد فرغت من تطريز رداء الطفلة الأبيض ، وأتمت غسله وكيه . وكانت رامونا ترى أنه لن يكون فى الاحتفال كله طفلة فى بهاء ابنتها وروعة ملابسها ، وكان اليساندرو قد وافق في النهاية على أن تسمى ابنته ماچيللا ، وكانت موافقة مغتصبة ، أعلنها لإرضاء رامونا وحسب . وكانت هى — على نقيض ما اعتادت — قد صممت أن تحقق فى هذه الحالة رغبتها دون رغبته هو . ذلك لأنها عقدت العزم على أن تسجل اسمها فى سجل المعمودية ليضاف إلى الاسم الذى أحبته كل هذا الحب ، وقد قالت لنفسها : «فإذا مت ، فسوف يسمد اليساندرو ، لأن اسم ماچيللا لم يغب عنه » .

ولما أتمت جميع ترتيباتها ، كان النهار لم ينتصف بعد ، ومن ثم جلست فى الشرفة تترقب اليساندرو الذى كان غائبا لمدة يومين ، على أن يعود فى الليلة

www.ibtesama.com

السابقة ليساعدها فى القيام بالرحلة إلى قرية سابوبا . وكانت تشعر بالقلق لتخلفه عن العودة فى الوقت المحدد . ولما أخذت الساعات تنصرم ببطء دون أن يحضر ، ازداد شعورها بالقلق . وقبل أن يعود كانت الشمس قد مالت عن وسط السماء بنحو ساعة . وكان فى عودته يركض بجواده مسرعا ، وقد سمعت من ثم دقدقة حوافر الجواد المسرع قبل أن تراه . وقالت لنفسها وهى تنطلق لاستقباله : «ترى لماذا يأتى مسرعاً هكذا ؟ » وفيما هو يقترب ، رأت لدهشتها أنه يمتطى صهوة جواد جديد ، فهتفت قائلة : « عجباً ياأليساندرو ! أى جواد هذا ؟ » .

ونظر إليها مدهوشا ، ثم نظر إلى الجواد . حقا إنه ليس جواده ؟ وضرب جبينه بيده محاولا أن يستجمع أفكاره ، ثم قال : « أين جوادى إذن ؟ » .

وصاحت رامونا قائلة :

— يا إلهى يا اليساندرو ! عد بالجواد فوراً وإلا زعموا أنك سرقته .

— ولكننى تركت جوادى هناك فى المربط . ولسوف يعلمون أننى لم أتعمد السرقة . كيف أمكن أن أقع فى هذا الخطأ ؟ إننى لا أذكر شيئاً يا ماجيللا . لا بد أننى تعرضت لإحدى نوبات مرضى .

واعتصر الخوف قلب رامونا ، لأنها كانت تعلم تمام العلم أى عقوبة تفرض على سارق الجياد فى تلك المنطقة ، ومن ثم هتفت قائلة :

— دعنى أعود به يا عزيزى . دعنى أهبط به ، إنهم سوف يصدقوننى .

فرد عليها قائلا فى عجب :

— أتظنين ياماجيللا أننى أرضى أن أرسل بك إلى أنياب الذئب ! بك

www.ibtesama.com

أنت يا يمامة الغاب ! لقد تركت جوادى فى مربط جياد جيم فارار ، وقد كنت هناك فى الليلة الماضية لأتفق معه على عملية جز أصواف أغنامه فى الخريف . وكان هذا آخر ما أذكره . لسوف أعود إليه بمجرد أن أستريح لأنى أشعر بالرغبة الشديدة فى النوم .

ووافقت رامونا - رغم إحساسها الشديد بالخطر - ورأت أنه من الأسلم أن ينام نحو ساعة مادام عقله لا يزال مضطرباً كما بدا لها . و بعد أن تناولت من المربط كمية من التبن الجديد ، راحت بيدها تدلك الجواد . وكان جوادا أسود قويا رائع المنظر ، ويبدو أن اليساندرو كان قد دفعه بقسوة إلى الصعود بكل سرعة ، لأن جوانبه كانت تخفق بشدة ، والزبد يعلو شدقيه . وطفرت الدموع إلى عينى را ونا وهى تبذل جهدها فى التخفيف عنه . وأدرك الجواد نواياها الطيبة نحوه ، فراح يتحسس وجهها بأنفه . أما هى فقد قالت لنفسها : « لا شك أن اليساندرو قد أخطأ فى أخــذه لأنه أسود اللون مثل بنيتو . أوه . . يا أم المسيح . . ساعدينا على إعادة الجواد سليما » .

ولما عادت إلى البيت ، كان اليساندرو نائماً ، ونظرت إلى الشمس ووجدتها فى سمت الغروب . وأدركت من ثم أن اليساندرو لن يستطيع أن يمضى بالجواد إلى فارار ثم يعود قبل حلول المساء . وفيما كانت تهم بإيقاظه ، إذا بنباح الكلب كابيتان وغيره من الكلاب ، يوقظه فوراً ، و يدفعه إلى الوثوب من الفراش والانطلاق إلى الخارج ليرى ماحدث . وتبعته رامونا بعد لحظة - بعد لحظة واحدة . أو بعد جزء من لحظة ، ومع ذلك فما كادت تصل إلى عتبة الباب ، حتى سمعت دوى طلق نارى ، ثم رأت اليساندرو يسقط على الأرض ، وفى

www.ibtesama.com

نفس الوقت ، وثب رجل غليظ السمات من فوق جواده ، ووقف بجوار اليساندرو المسجى ، وكرر إطلاق النار من مسدسه مرة ومرتين . . فى الجبهة ، وفى الخد ، ثم راح ، وهو يطلق وابلا من السباب الذى وصل إلى سمع رامونا المذهولة كأنه الرعد ، يفك الجواد الأسود من الوتد الذى شدته إليه رامونا ، ثم وثب على صهوة جواده ، وجذب وراءه الجواد الأسود . وفيما هو يبتعد لوح بقبضته فى وجه رامونا التى ركعت بجوار اليساندرو وحاولت أن ترفع رأسه لتوقف النزيف الدموى المنبثق من الجراح الرهيبة ، وصاح المجرم : « لكى تتعلموا أيها الهنود الملاعين كيف تقلعون عن سرقة جيادنا » . ثم اختفى عن الأنظار بعد أن أطلق وابلا آخر من السباب الرهيب .

وبهدوء أقسى من أية صيحة حزن ، جلست رامونا بجوار جسد اليساندرو ، على الأرض ، وأمسكت بيديه بين يديها . ولم يكن فى وسعها أن تفعل شيئاً ؛ ذلك لأن الرصاصة الأولى كانت قاتلة بعد أن نفذت بالقرب من القلب ــ لقد أتقن القاتل التصويب ، ولم تكن الطلقات الأخيرة ، من مسدسه ، إلا نابعة من الوحشية الكامنة فيه . وبعد لحظات ، نهضت رامونا ودخلت المنزل ، ثم عادت حاملة كساء المذبح وغطت به الوجه الممزق . وفيما هى تفعل هذا ، تذكرت كلمات سمعتها من الأب سالفيرديرا كان قد نقلها عن الأب جونيبيرو عندما قتل أحد الرهبان الفرنسسكان بأيدى الهنود فى سان دييجو « حمداً لله . . لقد ارتوت الأرض الآن بدماء شهيد » .

وخيل إلى رامونا أن كلمات « دماء شهيد » تسبح فى الجو لتطهره من تجديف القاتل البذىء وقالت :

www.ibtesama.com

— يا حبيبي اليساندرو .. اذهب إلى القديسين شهيداً من أقدس الشهداء ولسوف ينصتون إلى ما يقول الشهيد .

وكانت يداه لا تزالان دافئتين ، فوضعتهما على صدرها وراحت تقبلهما المرة بعد الأخرى ، ثم تمددت بجانبه على الأرض ، ووضعت ذراعها فوقه وهمست في أذنه :

— يا حبيبي .. يا اليساندرو .. تحدث مرة أخرى إلى ماچيللا . لماذا لا أحزن أكثر من هذا ؟ يا اليساندرو ؟ ألم تشمله رحمة الله فعلا ، ألن نكون معه في أسرع وقت ؟ لقد كانت الأعباء ثقيلة جداً ، ولم يكن في وسعه أن يحملها، ثم غمرتها موجة من الحزن ، فاندفعت تبكي بحرقة ، ولكن الدموع ظلت مستعصية عليها ، وفجأة وثبت واقفة ، ونظرت حولها بوحشية ، وكانت الشمس لا تزال في سمت الغروب ، ترى هل يمكن أن تسرع في طلب النجدة ، ومن أين ؟ لقد ذهبت المرأة العجوز مع الغنم ، ولن تعود إلا بعد الغروب . ولكن لا ينبغي أن يبقى اليساندرو ملقى على الأرض . فإلى من تذهب ؟ إن الذهاب إلى سابوبا كان مستحيلا . ولكن هناك قرية أخرى أقرب . إنها قرية كاويلا الواقعة على إحدى هضاب جبل سان جاكنتو ، لقد ذهبت إليها ذات مرة ، فهل يمكن أن تعرف الطريق إليها الآن ، يجب أن تحاول ، لأنه لا يوجد حولها إنسان يمكن أن تلوذ به .

وبعد أن حملت الطفلة بين ذراعيها ، وركعت بجوار اليساندرو ، وقبلته همست :

www.ibtesama.com

« وداعا يا حبيبي ، لن تطول غيبتي عنك ، لسوف آتى لك بأصدقاء »
وفيما هي تنطلق مسرعة ، وثب الكلب كابيتان الذى كان قابعا بجوار اليساندرو يرسل عواء يمزق القلوب ، وراح يتبعها ، ولكنها قالت : « لا يا كابيتان » ثم عادت به إلى الجثة ، وأخذت رأسه بين يديها ونظرت فى عينيه وقالت :

« كابيتان .. ابق هنا للحراسة » .

وراح الكلب يلعق يديها مهمهما ، ثم تمدد بجوار الجثة وقد فهم وقرر أن يطيع ، إلا أنه راح يشيعها بنظراته فى أسى حتى غابت عن عينيه .

وكان الطريق الضيق وعرا لا تكاد معالمه تبين . ومن ثم توقفت أكثر من مرة فى حيرة وارتباك بين حافات الصخور والمرتفعات . وتمزقت ملابسها ، وامتلأ وجهها بالخدوش من أشواك النباتات وخيل إليها أن قدميها ثقيلتان وهى تشق طريقها ببطء . وكانت ممرات الجبل مظلمة وهى تصعد المرتفع بعد الآخر فلا ترى شيئا إلا غابات الصنوبر أو الساحات العارية . وغاص قلبها فى صدرها حين أدركت أنها ضلت الطريق أو أوشكت . لقد كان اليساندرو معها فى المرة الأولى وكانت الرحلة بهيجة فى يوم ساطع ، وكانا يتلكآن حيث يرغبان ، ومع ذلك لم يكن الطريق طويلا هكذا . واستبد بها الخوف من أن تكون قد ضلت الطريق تماما ، فإذا صح هذا ، فسوف تكون فى الصباح مع اليساندرو لأن الوحوش البرية اعتادت أن تهيم فى جبل سان جاكنتو ليلا ، ولكن لا .. من أجل الطفلة لا ينبغى أن تموت . ومن ثم واصلت السير بإصرار وحماسة . وأخيراً ، عندما بدأ الظلام يتكاثف حتى لم تعد ترى ما يبعد عنها ببضعة

www.ibtesama.com

أشبار ، وعندما لهثت أنفاسها من الخوف أكثر من الجرى ، إذا هى ترى الأضواء تتألق لجأة أمامها ، على مسافة قصبات قليلة . إنها أضواء قرية كاويلا. وإن رامونا لتصل إليها بعد لحظات قليلة أخرى .

وكانت القرية تنم عن الفقر المدقع ، ولا تزيد على عدد قليل من البيوت الطينية والأكواخ المقامة فى ساحة صخرية وعرة بجبل سان جا كنتو . وكان أهلها ، رغم فقرهم الشديد ، على جانب كبير من الأنفة والكبرياء والبراعة فى تسلق الجبال ، وقوة البطش ، وحب الاعتماد على النفس .

وكان لاليساندرو أصدقاء أوفياء بين سكانها ، وسرعان ما انتشرت ، كالنار فى الهشيم ، أنباء مقتله ، وإسراع زوجته بكل قواها عبر الجبال ، والطفلة بين ذراعيها فى طلب النجدة . وتجمع السكان فى جماعات ثائرة حول البيت الذى لاذت به رامونا ، وكانت راقدة فى شبه إغماء على سرير ؛ إذ بمجرد أن سردت قصتها الرهيبة بأنفاس لاهثة ، سقطت على الأرض مغشيا عليها ، ولكن الطفلة انتزعت من ذراعيها فى الوقت المناسب لإنقاذها ، ولم يبد عليها أنها افتقدت الطفلة ، ولم تطلبها أو تلاحظ أنها ردت إليها حين ردت ، وبدا كأن غشية رحيمة تسللت إلى حواسها ، إلا أنها تحدثت بما يكفى لإثارة مشاعر القرية بأكملها .. وظل الانفعال يزداد ويزداد .. الرجال فى كل مكان يمتطون جيادهم لكى يمضى بعضهم لإحضار جثة اليساندرو ، وقررت جماعة منهم أن تتوجه إلى بيت فارار وإطلاق النار عليه ، وكان أعضاء هذه الجماعة من الشبان أصدقاء اليساندرو . ولكن زعيم القرية الهرم راح يطالبهم — فى لهفة — بعدم اتخاذ مثل هذه الخطوة . وقد قال لهم :

www.ibtesama.com

— لماذا ينتهي الأمر بقتل عشرة منا بدلا من واحد يا أبنائي؟ هل تريدون أن تتركوا زوجاتكم وأبناءكم هكذا ؟ إن البيض سوف يقتلوننا جميعاً إذا مسستم ذلك الرجل بسوء . ولعلهم سيعاقبونه بأنفسهم .

وأرسلت الجماعة ضحكات التهكم ، لأنهم لم يسمعوا قط أن رجلا أبيض عوقب على قتله أحد الهنود وإن الزعيم يعرف هذا مثلهم تماماً ، فلماذا يأمرهم بالخضوع كالنساء ، دون أن يفعلوا شيئا للانتقام من مصرع صديق لهم ؟

ورد الرجل المسن الحكيم :

ـ لأنني شيخ وأنتم شباب ، وقد أدركت أننا نحارب في معركة خاسرة . إنني لست راضياً عما حدث مثلكم . إن نيران الغضب تلهب دمائي ، ولكنني شيخ هرم ، رأيت الكثير ، ولهذا أمنعكم من الذهاب .

وأضافت النساء توسلاتهن إلى أمره ، ولم يسع الشبان إلا أن يتراجعوا عن هدفهم . غير أنه كان تراجعاً ممزوجاً بالسخط وبالهمهمة الصادرة من كل جانب فإن وقت الانتقام سوف يحين يوماً . إن الوسائل كثيرة لقتل رجل . وإن فارار لن يعيش طويلا ، لأن اليساندرو لابد أن يثأر له .

وفيما كان فارار يهبط من الجبل ، ممسكا بعنان الجواد المتمرد السائر خلفه ، أخذ يدير في ذهنه الأفكار فيما ينبغي أن يفعل . لقد كان في إمكانه ، قبل ذلك بأعوام قليلة ، أن يعود إلى بيته في اطمئنان بعد أن يقتل هنديا ، تماما كما لو أنه قتل ثعلباً أو ذئباً ولكن الأحوال تغيرت الآن ، لأن ذلك المندوب الذي رأت الحكومة أن ترسله لرعاية الهنود ، قد تمادى في هذه الرعاية ، وأزعج إلى حد كبير

جماعة من سان برناردينو أساءوا معاملة أحد الهنود ، بل قد تمادى إلى حد القبض على عدد كبير من تجار الخمر لأنهم باعوا - ببساطة - الويسكى للهنود . فلا شك إذن ، والحالة هذه ، أن يكون ماحدث لاليساندرو خطيراً بالنسبة له . ولهذا قرر فارار أن خير مايفعله هو أن يواجه الأمر بشجاعة وبراءة ويسلم نفسه إلى أقرب قاض ، باعتباره قاتلا لرجل فى حالة دفاع عن النفس . وعلى هذا سار قدما إلى بيت القاضى ويلز الذى يقوم وراء قرية سابوبا ببضعة أميال ، وطلب أن يسلم نفسه باعتباره مرتكباً لجريمة « لها مايبررها » فى حق هندى أو مكسيكى .. لايدرى أيهما سرق جواده . وسرد قصة معقولة . واعترف أنه لم يكن يعرف السارق ، ولا مكان إقامته ، ولكنه لم يستطع أن يشرح كيف أمكنه إذن أن يمضى فوراً إلى مسكنه ويقتله .

إلا أنه قال :

— لقد تتبعت آثاره فترة من الوقت ، ولكننى فقدت هذه الآثار حين انعطفت فى الطريق . وخطر لى أن الجواد قد وضعت فى حوافره ألياف الكيلا يترك وراءه أثراً . إلا أننى واصلت السير ، وعبرت الخور ، ثم عثرت على الآثار مرة أخرى فى أرض رخوة . وكان هذا الجانب من الجبل مجهولا لدى ، وموحشا إلى حد كبير . وأخيرا وصلت إلى مرتفع استطعت منه أن أرى مزرعة صغيرة ، فلما اقتربت منها واكتشفت وجود جوادى مربوطا إلى شجرة بجوار البيت ، أخذت الكلاب تنبح . وعلى صوتها أقبل شاب هندى - أو مكسيكى لاأدرى - مسرعا وفى يده سكين كبيرة .

www.ibtesama.com

وصحت به متسائلا :

— جواد من هذا ؟

فقـال :

— إنه جوادى .

— من أين جئت به ؟

— من سان جاكنتو .

وكان مستمرا فى الاقتراب منى بسكينه ، فقلت له :

— قف وإلا أطلقت النار عليك .

ولـكنه لم يقف ، فأطلقت النار عليه ، وظل فى تقدمه ، وعدت أطلق النار ، ولما لم يقع ، ضربته بمؤخرة البندقية ، ثم أطلقت النار عليه من مسدس مرتين بعد أن سقط على الأرض .

وكانت مهمة القاضى فى حالة كهذه واضحة ، وهى أن يأمر بسجن المتهم . ومن ثم أرسله الى السجن ، وبعث برسول ليستدعى ستة رجال محلفين ليشتركوا فى تحقيق مقتل الهندى — أو المكسيكى للذكور — وفى بكور اليوم التالى اقتيد فارار إلى الجبل ، حتى إذا وصل مع المحلفين إلى المزرعة الصغيرة ، وجدوا جثة اليساندرو قد رفعت ، والبيت مغلقاً ، ولا أثر للمأساة التى وقعت فى الليلة السابقة فيما عدا بقعاً قليلة من الدماء فى المكان الذى سقط فيه اليساندرو . وبدا أن فارار استراح كثيراً لهذا الوضع المفاجىء . إلا أنه كاد يفقد عقله من فرط

www.ibtesama.com

الخوف حين علم أن القاضى ويلز اقترح أن يقضوا الليلة فى مزرعة قريبة من قرية كاويلا بدلا من العودة إلى الوادى وأعلن فارار أن سكان كاويلا سوف يأتون ، ولا ريب ، فى بهيم الليل ويقتلونه ، وراح يتوسل أن يبقى الحراس معه لحراسته .

وفى منتصف الليل ، استيقظ القاضى ويلز عند وصول زعيم قرية كاويلا وشيوخها ، وكانوا قد سمعوا بحضوره مع المحلفين ، فجاءوا لاصطحابهم إلى القرية حيث توجد جثة اليساندرو القتيل . ولكنهم شعروا بالأسى العميق حين علموا أنهم أخطأوا فى رفع الجثة من مكان الحادث ، وأنه لا جدوى من عقد جلسة للتحقيق .

على أن القاضى ويلز ذهب بنفسه معهم ، وشاهد الجثة ، وسمع تفاصيل ماحدث كما ذكرته رامونا بمجرد وصولها . ولم يكن فى الإمكان أن يعرف منها المزيد بعد أن سقطت صريعة الحمى والهذيان ، حتى لم تعد تعرف أحدا ، حتى ولا ابنتها ، عندما وضعوها على صدرها . لقد ظلت راقدة فى عامل ، تتقلب على جانبيها ولا تكف عن الهذيان ، قابضة على المسبحة بيديها ، مازجة عبارات الابتهال مع صيحات ندائها على اليساندرو وفيليب . وكان المظهر الوحيد لانتباهها إلى ما يجرى حولها ، هو تشبثها الشديد بالمسبحة ، ومحاولتها إخفاءها فى صدرها كلما حاولوا أخذها منها .

وكان القاضى ويلز من رجال الحدود ، وأبعد ما يكون عن التأثر العاطفى ، إلا أن الدموع طفرت فى عينيه وهو واقف ينظر إلى رامونا المغشى عليها .

وكان فارار قد طالب بأن يبدأ التحقيق التمهيدي فوراً . ولكن القاضي ويلز ، بعد زيارته للقرية ، رفض الطلب ، وقرر أن تعقد الجلسة بعد أسبوع من ذلك اليوم ، حتى تسترد رامونا صوابها وتقف في التحقيق شاهدة . وأوضح للهنود ، بقدر مايستطيع أهمية ظهورها كشاهدة ؛ ذلك أنه كان من الواضح أن اعترافات فارار باطلة من أولها إلى آخرها . إذ لم يكن لدى اليساندرو سكين، ولم يكن قد استطاع أن يبتعد عن باب البيت خطوات ، وكانت رامونا قد سمعت وابل السباب والطلقة النارية في وقت واحد وهي تجرى إلى الباب . ولم يكن في مقدور اليساندرو أن ينطق بكلمات كثيرة كما زعم فارار .

وجاء يوم التحقيق ، وكان فارار قد أفرج عنه بكفالة على أن يقوم بأعماله خلال ذلك الأسبوع ، ثم يحضر التحقيق في الموعد المحدد . ولكن القاضي ويلز شعر بمزيج من الأسى والراحة النفسية عندما حلت ساعة التحقيق دون أن يحضر أحد من الشهود غيرفارار . لقد كانت المنطقة كلها تعرف أن فارار مجرم وحشي وأن هذه الجريمة الأخيرة ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة من الجرائم ، وأشد ما كان يسر القاضي لوأنه استطاع أن يحاكمه ويفرض عليه العقوبة التي يستحقها. ولكن وادى سان جاكنتو رغم بعده عن العمران وقلة سكانه ، كانت له تقاليده وعاداته التي لاتقل ثباتا عن أية تقاليد وعادات في أية منطقة متحضرة . ولهذا لم يكن في مقدور القاضي أن يغامر بمستقبله السياسي إذا هو أظهر بوضوح عطفه على الهنود . وكانت كلمة « العدالة » قد فقدت معناها ، إن كان لها أي معنى من قبل بالنسبة للهنود . وكان سكان الوادى متحدين في هذا الموضوع أيا كانت انقساماتهم في المسائل الأخرى . وعلى الجملة شعر القاضي بالراحة النفسية وإن لم يخل هذا الشعور من بعض المرارة والندم ، كشأن الإنسان بعد عمل

www.ibtesama.com

خاطىء أو بعد إساءة إلى صديق ، ذلك لأنه كان يعرف اليساندرو تمام المعرفة .
ومع ذلك ، فقد أحس - على الجملة - بالراحة عندما اضطر إلى إجابة طلب محامى فارار بوجوب « الإفراج عن المتهم الذى ارتكب جريمة لها مبرراتها ، وبناء على عدم ظهور شهود ضده » .

... وراح يعزى نفسه بالتفكير - وكان له العذر ولاشك - فى أن القضية حتى لو عرضت على المحلفين لكانت النتيجة واحدة . ذلك لأنه لم يحدث قط فى منطقة سان دييجو أن أدان المحلفون رجلا أبيض بتهمة قتله أحد الهنود إذا لم يكن هناك شهود إثبات غير زوجة الهندى القتيل . غير أنه لم يستمد إلا شعوراً ضئيلا بالعزاء فى هذه القضية ، لأن وجه اليساندر كان يطارده ، وكذلك صورة رامونا وهى تتقلب وتتوجع فى الكوخ الحقير بقرية ما كويلا . وكان يعرف أن استمرار مرضها أو موتها هو الحائل الوحيد لعدم حضورها المحاكمة . ولو أنها كانت على قيد الحياة أو متمالكة حواسها ، لحملها الهنود على سواعدهم إلى المحكمة .

وكان القاضى قد رآها هى واليساندرو عدة مرات خلال الصيف الذى أمضاه فى قرية سابوبا ، وأعجب أشد الإعجاب بميزاتها النادرة . وكان أولاده يعرفونها ويحبونها ، ويترددون عليها كثيرا فى بيتها ، وكثيراً ما صنعت المخرمات لزوجته . وكذلك عمل اليساندرو لحسابه ، ولم يكن هناك من يعرف أكثر من القاضى ويلز بأن اليساندرو لا يمكن ، فى حالته الطبيعية ، أن يسرق جواد رجل أبيض فى الوادى . وكان فارار يعرف هذا ، وكل إنسان يعرف هذا أيضا ، وكذلك كان كل إنسان يعرف حالته العقلية والنوبات الغريبة التى تعتريه ، وأن هذه

النوبات حين تحل به ، تجعله غير مسئول إطلاقا عما يبدر منه ، وكان فارار يعرف هذا تماما . وإن التفسير الوحيد لسلوك فارار هو أنه حين رأى جواده مرهقا لاهث الأنفاس بعد أن أرغم على صعود ذلك الجبل المرتفع ، استبد به غضب عارم ، وأطلق النار فورا قبل أن يعرف ماذا هو فاعل . ولكن القاضى عاد يقول لنفسه : « لا إنه ما كان يفعل هذا لو لم يكن اليساندرو هنديا . ولا شك أنه كان سيتردد كثيرا قبل أن يقتل رجلا أبيض على هذا النحو » .

وظلت مثل هذه الأفكار تطارد القاضى يوما بعد يوم ، دون أن يتمكن من التحرر منها . وخامره إحساس قوى بأنه صار مدينا بشىء ما لرامونا ، أو لطفلتها ، لو أن رامونا قد ماتت . ولعل أن يكون هناك نوع من التعويض لمقتل اليساندرو المهدور الدماء . إنه قد يأخذ الطفلة وينشئها مع أبنائه فى بيته . ولم يكن هذا بالشىء الغريب فى الوادى . وكلما أمعن التفكير فى هذه الرغبة ازداد إحساسا بالراحة النفسية . ومن ثم قرر أن ينتهز أول وقت فراغ ويمضى إلى قرية كاويلا ، ويرى ماذا ينبغى أن يفعل .

ولكن القدر شاء ألا تكون راحة رامونا على يدى رجل غريب ، ذلك لأن فيليب كان قد اهتدى إلى آثارها وصار فى الطريق إليها .

www.ibtesama.com

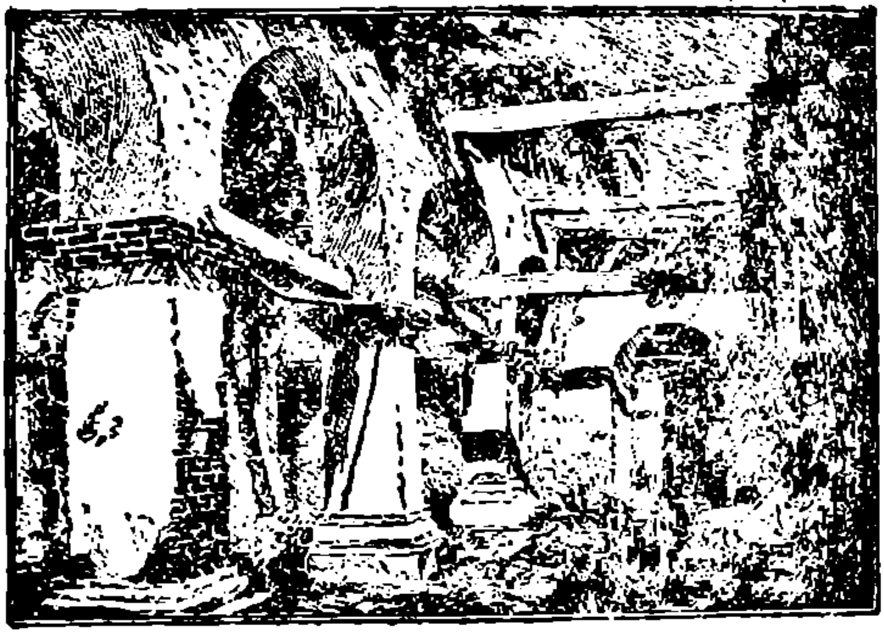

(٢٥)

بعد أن ضللت كارمينا – بدافع الوفاء – فيليب ، بدأ هذا بحثه عن اليساندرو بالتوجه فوراً إلى مونتيرى . وهناك وجد عدداً قليلا من الهنود الذين لم يكن بينهم من سمع باسم اليساندرو ، وكان ثمة محلة لهم على مسافة ستة أميال من المدينة، يختبئون فيها حول قيعان نهر سان كارلوس بالقرب من مبنى الإرسالية القديمة . وقد نصحه قس كاثوليكى بالبحث هناك ، قائلا إن اللاجئين من كل نوع يلوذون أحياناً بهذه المحلة ، ويعيشون فيها بضعة أشهر ثم يختفون بنفس الهدوء الذى جاءوا به . وبحث فيليب هناك أيضاً بلا جدوى .

وسأل كل البحارة فى الميناء ، وكل صانعى السفن ، ولكنهم أجمعوا على أنهم لم يروا أى هندى يبحر على ظهر إحدى السفن، بل قالوا إن أى ربان لابد أن يتردد كثيراً قبل أن يضم إلى بحارته واحداً من الهنود .

www.ibtesama.com

ـــ ولـكن هذا الهندى من أبرع العمال... إنه يستطيع أن يقوم بأى عمل، ولعله أبحر على إحدى السفن باعتباره بحاراً .

فقالوا له :

ـــ ربما . ولـكن أحداً لم يسمع شيئاً كهذا قط . .

وتعجب الجميع أشد العجب لفرط اهتمام هـذا المكسيكى الشـاب الحزين بالبحث عن واحد من الهنود .

وضيع فيليب بضعة أسابيع فى مونتيرى ، إذ ظل يتلـكأ فيها بعد أن فقد الأمل فى العثور على اليساندرو مدة طويلة . كان يشعر كأنه يريد البقاء حتى تعود كل سفينة أبحرت من الميناء منذ ثلاثة أعوام . وكلما سمع عن واحدة وصلت إلى الميناء ، أسرع إلى الشاطىء وراح يرقب بإمعان الهابطين منها ، وهكذا أصبح وجهه الحزين بنظراته الملهوفة الفاحصة من المناظر المألوفة لـكل شخص . حتى الأطفال عرفوا أن هذا السيد الشاحب يبحث عن شخص ما لا يستطيع أن يعثر عليه ورثت النساء له وأخذن يحدقن فيه بحنان وهن يتعجبن متسائلات : هل يمكن أن يبحث إنسان عن شخص ما بكل هذه اللهفة إلا أن يكون حبيباً ؟ ولم يفض فيليب بذات نفسه إلى أحد ، وإنما كان ببساطة يسأل كل من يلتقى به ، يوماً بعد يوم ، عن هندى يدعى اليساندرو أسيس ؟

وأخيراً حرر نفسه من قبضة المـكان الخانقة ، وولى وجهه شطر الجنوب مرة أخرى ، وسار فى الطريق الذى كان الرهبان الفرنسسكان يستخدمونه عندما لم يكن هناك طريق آخر على شاطىء كاليفورنيا يؤدى من إرسالية إلى

أخرى . وكان فيليب قد سمع من الأب سالفيرديرا أنه لا يزال يوجد بجوار كل إرسالية قديمة قرية أو أسرة هندية ، ومن ثم خطر لفيليب أنه من المحتمل أن يكون اسم اليساندرو معروفاً لدى هؤلاء الهنود بسبب علاقة والده الطويلة بإرسالية سان لويس راى . إنه لن يترك مكاناً دون أن يبحث فيه ، ولا قرية هندية دون أن يذهب إليها ، ولا هندياً دون أن يسأله .

ومضى أولا إلى سان جوان بوتستا ، ثم سوليداد ، ثم سان أنطونيو ، ثم سان ماجويل ، ثم سان لويس أوبسبو ، ثم سانتا إينيز ، ومنها إلى سانتاباربارا . وقد أنفق فى هذه الرحلة شهرين وفى كل من هذه الأماكن وجد هنوداً تعساء ، معظمهم يكاد يموت من فرط سوء التغذية وتألم قلب فيليب وثارت دماؤه من فرط الخجل وهو يرى أحوالهم . وكانت أنقاض الإرساليات القديمة تثير الحزن ، ولكن الأنقاض البشرية كانت تثير حزناً أشد . وقد عرف فيليب الآن لماذا تحطم قلب الأب سالفيرديرا ؟ ولماذا كانت أمه تشعر بأشد الاستنكار لهذا الاغتصاب المرطق والنهب والسلب لما كان يمتلكه الآباء الفرنسسكان ؟ ولم يستطع أن يدرك لماذا خضعت الكنيسة بلا مقاومة لمثل هذا الهوان والاغتصاب ؟ لقد سمع فى كل إرسالية قصصاً رهيبة عما لقيه الآباء الفرنسسكان من تعذيب بسبب تعلقهم حتى النهاية بكنائسهم ، ثم موتهم بجوارها . وفى قرية سوليداد ، أشار له هندى هرم — وهو يبكى — على قبر الأب ساريا الذى مات جوعاً . وقد قال الرجل :

لقد أعطانا حتى النهاية كل ما كان معه . وكان ينام مثلنا على جلد خشن فوق الأرض . وفى ذات صباح وقبل أن يفرغ من صلاة القداس ، سقط على

www.ibtesama.com

للذبح ومات ، ولما وضعناه فى القبر ، كان جسمه عظاما بلا لحم . لقد عاش أيامه الأخيرة بلا طعام ، لأنه كان يعطيه لنا .

فى كل هذه الإرساليات ، سأل فيليب - بلا جدوى - عن اليساندرو .

وكان هؤلاء الهنود الشماليون لا يعرفون إلا القليل جداً — كما قالوا له — عن هنود الجنوب ، إذ كان من النادر جداً أن يرحل واحد من هؤلاء إلى الشمال. وأكثر من هذا لم يكن بعضهم يفهم لغة البعض الآخر . وكان فيليب كلما أمعن فى البحث ، وفى التفكير ، ازداد شكا فى أن اليساندرو ذهب إلى مونتيرى على الإطلاق . وفى سانتا باربارا مكث مدة طويلة إذ بالغ رهبان الإرسالية فى الحفاوة به . وكانوا قد سمعوا من الأب سالفيرديرا قصة رامونا الحزينة ، وشاركوا فيليب فى الحزن، لأن أحدا لم يعرف ماذا حدث لها . وقالوا إن ماحدث لها أحزن قلب الأب سالفيرديرا حتى آخر عمره ، وظل يصلى من أجلها كل يوم ، ولكنه كان يقول إنه لم يشعر روحيا بأن صلاته من أجلها قد أجيبت . وهو لم يقل هذا إلا قبل وفاته بيوم ، وللأب فرانسيس الراهب البرازيلى الشاب، الذى كان يحبه إلى حد كبير .

وبدا لذهن فيليب المنهك أن ما سمعه فأل سيء رهيب ! ومن ثم واصل رحلته بقلب مثقل بمزيد من الأسى . لقد اعتقد أخيرا أن رامونا ماتت ، وأنها دفنت فى بقعة مجهولة لا يمكن الاهتداء إليها ، ومع ذلك فقد آلى على نفسه أن يواصل البحث . وفيما هو يمضى جنوبا ، بدأ يجد أشخاصا يعرفون اليساندرو ، بل ويعرفون والده المسن بابلو ، أيضا . ولكنه لم يجد بينهم من يعرف أين ذهب بعد طرد قومه من قرية تيميكيولا . بل لم يعرف أحد أين يقيم سكان قرية تيميكيولا الآن وقال بعض الهنود عنهم : « لقد تفرقوا

www.ibtesama.com

مثل سرب من البط البرى حين يسمع دوى طلق نارى . . إنك لا تستطيع أن ترى هذا السرب من البط مجتمعاً مرة أخرى فى مكان واحد . لقد أصبح سكان تيميكيولا هنا وهناك وفى كل مكان بمنطقة سان دييجو . إلا أنه يوجد واحد منهم على كل حال فى قرية سان جوان كابسترانو . ويحسن بالسيد أن يراه ، لأنه لاشك يعرف شيئا عن اليساندرو . وهو يقيم فى غرفة ببناية الإرسالية القديمة ، أعطاها له القس نظير تنظيفه لغرفته — غرفة القس — فضلا عن إيجار بسيط ، إنه ، أى القس ، رجل بخيل ، وهو لا يتردد فى أخذ آخر دولار من رجل فقير » .

ورغم وصول فيليب إلى سان جوان كابسترانو فى ساعة متأخرة من الليل ، إلا أنه أبى أن ينام قبل أن يرى ذلك الرجل . وهنا وجد أول طرف من الخيط المؤدى إلى غايته . لقد عثر على الرجل مع زوجته وأبنائه ، فى غرفة ركنية كبيرة تؤدى إلى الفناء الداخلى لمبنى الإرسالية المربع ، وكانت غرفة مظلمة رطبة كالقبو .

وفى جانب منها ثمة نار خافتة فى مدفأة كبيرة تراكم بجوارها عدد قليل من الجلود والأمشاج البالية التى رقدت عليها ، امرأة مريضة كما يبدو . وكانت الأرضية الهابطة باردة كالثلج تحت الأقدام . أما الرياح فكانت تجتاحها من عشرة أماكن محطمة فى جدار الردهة . كما لو لم يكن بها أية قطعة من الأثاث ، وقد قال فيليب لنفسه وهو يدخلها :

— يا للسماء ! أيمكن أن يتقاضى قسيس من طائفتنا إيجارا على مثل هذه الغرفة .

ولم يكن ثمة ضوء إلا المنبعث فى خفوت من النار . وقد قال الرجل وهو يتقدمه :

— إنى آسف لأنى لا أملك سراجا ياسيدى . إن زوجتى مريضة ، ونحن جد فقراء .

وقال فيليب وقد وضع يده على كيس نقوده :

ـ لا عليك ، أريد فقط أن أوجه إليك أسئلة قليلة . إنك من تيميكيولا كما قيل لى !

وقال الرجل بصوت حزين ، لأنه لم يكن هناك رجل من هذه القرية يسمع اسمها دون أن يشعر بلذعة الأسى :

ــ أجل ياسيدى . . كنت من سكان تيميكيولا .

فقال فيليب ملهوفاً :

ــ أريد أن أعثر على هندى يدعى اليساندرو أسيس كان يعيش بها ، ولا شك أنك تعرفه .

وفى تلك اللحظة تكسرت جمرة فى النار الخافتة ، وسطع ضوء متوهج لمدة لحظة واحدة . . واحدة فقط ، ثم عاد انظلام ولكن الوهج سطع على وجه فيليب . . وجفل الهندى فجأة ، دون أن يلحظه فيليب ، حين عرف شخصية زائره . . ومن ثم قال لنفسه « ها . . أيها السيد فيليب مورينو . . لقد أخطأت الطريق فى البحث عن أنباء اليساندرو أسيس » .

ولم يكن الرجل أحداً غير أنطونيو ـ أنطونيو الذى كان بين فريق حلاق الغنم ، أنطونيو الذى كان يعرف أكثر مما تعرف كارمينا ؛ إذ كان يعرف أية معجزة حدثت حين أحبت فتاة جميلة من بيت مورينو الشاب الهندى اليساندرو وتزوجته . وكذلك كان يعرف أن اليساندرو ، فى ليلة هربه مع رامونا ، استطاع أن يستدرج من مربط خيول آل مورينو ، جواداً جميلا لكى تركبه .

www.ibtesama.com

وكان اليساندرو قد حدثه عن هذا كله ـ عن « بابا » . الجواد الرائع ، الأسود كالليل ، ذى النجمة البيضاء فى جبهته • يا للسماء ! لقد كان عملا جريئا . . أن يسرق أحد جوادا كهذا ، له علامة مميزة كهذه . فلا عجب أن يستمر السنيور فيليب ، حتى بعد انقضاء ثلاث سنوات ، فى البحث عنه . ولا شك أنه لا يريد غير الجواد فى هذا البحث . ها . . أيعتقد إذن أنه سيجد أى عون من أنطونيو فى هذا الشأن ؟

وأجاب قائلا :

— أجل يا سنيور .. إننى أعرفه .

— أتعرف أين هو الآن ؟

— لا يا سنيور .

— ألا تعرف أين ذهب بعد رحيله عن تيميكيولا ؟

— لا يا سنيور .

— لقد أخبرتنى امرأة أنه ذهب إلى مونتيرى ، ولكننى لم أجده هناك .

— سمعت أيضا أنه ذهب إلى مونتيرى .

— متى رأيته آخر مرة ؟

— فى تيميكيولا .

— أكان بمفرده ؟

— نعم ياسنيور .

www.ibtesama.com

— ألم تسمع قط أنه تزوج !

— لا يا سنيور .

— أين الجانب الأكبر من سكان تيميكيولا الآن ؟

فأشار الرجل بمرارة إلى زوجته وقال :

— مثل هذه . إن معظمنا غدوا متسولين . . قليل هنا . . وقليل هناك ، و بعضهم ذهب إلى الزعيم جراند ، فى مكان ما بالجانب الأدنى من كاليفورنيا .
واستمر فيليب ، بصبر ، يوجه الأسئلة - بلا جدوى - إلى الرجل . ولم يخامره الشك لحظة فى أن الرجل يخدعه . وأخيرا تنهد بعمق وقال :

— كنت أرجو أن أعثر على اليساندرو بمساعدتك . لشد ما أشعر بالاستياء الآن .

وقال أنطونيو لنفسه : لا شك فى ذلك يا سنيور فيليب مورينو . ولكنه قال بصوت مسموع .

— إننى شديد الأسف يا سنيور .

وشعر بوخز الضمير حين وضع فيليب فى يده منحة كبيرة من القطع الذهبية وهو يقول :

— هذا مبلغ بسيط لك . إننى آسف إذ أراك فقيراً هكذا .

ورنت عبارات الشكر التى نطق بها ، مترددة غليظة ، ذلك لأنه كان يشعر بالندم الشديد . وتذكر كيف كان السنيورفيليب كريما معهم دائما ، وكيف كانوا

www.ibtesama.com

دائما موضع الحفاوة فى بيته . وإنه لعار إذن أن يكذب عليه ، ومع ذلك فإن ولاءه ينبغى أن يكون لاليساندرو أولا ، ولا حيلة فى هذا . ومن ثم ضاعت للمرة الثانية الفرصة لمساعدة رامونا فى محنتها .

ولكن فيليب استطاع أن يعرف لأول مرة شيئا حقيقيا عن اليساندرو من المسز هارسل فى تيميكيولا ، ولكن ما عرفه أكد له فى أول أمره مخاوفه . لقد عرف أن اليساندرو ذهب إلى المسز هارسل، بمفرده وعلى قدميه ، وقال إنه سوف يسير طيلة المسافة إلى سان باسكويل ليبحث عن عمل يرتزق منه .

ولشد ما كانت المرأة الطيبة واثقة من قولها الحقيقة الكاملة . وبعد أن أجهدت ذاكرتها . وقارنت بين الأحداث عند وقوعها ، استطاعت أن تحدد على وجه التقريب اليوم الذى زارها فيه اليساندرو ، وقد تلاءم هذا مع مخاوف فيليب أيضا . أى إنه ، بعد أسبوع تقريبا من هرب رامونا قام اليساندرو بزيارة للمسز هارسل على قدميه ، و بدون رامونا ، وفى حالة اضطراب شديد كما قالت السيدة . ولقد أقرضته مالا من ثمن الكمان عند بيعه ، ولكن الكمان لم يبع، ولا يزال موجوداً لديها وهى من ثم واثقة كل الثقة بأن اليساندرو قد مات ، و إلا لعاد ليسدد لها دينه ، ولأنه كان من أشد الناس الذين عرفتهم أمانة . ألا يرى السنيور فيليب هذا أيضا ؟ ألم يجده كذلك دائما ؟ إنه لا يوجد بين الهنود أحد مثل اليساندرو وأبيه ولو كان هناك مثلهما ، لتحسنت أحوال الهنود ، وقد قالت فى هذا الشأن :

— لو أنهم كانوا جميعاً مثل اليساندرو ، لما استطاع أى مأمور فى سان دييجو أن يخرجهم من قريتهم .

www.ibtesama.com

فسألها فيليب قائلا :

— ولكن ماذا كان فى وسعهم أن يفعلوا يامسز هارسل ، لقد كان القانون ضدهم ، وما كان فى وسع أحدنا أن يفعل شيئاً ضد القانون .. إننى شخصيا فقدت نصف ممتلكاتى .

— حسنا .. كان فى مقدورهم على كل حال ألا يمضوا بلا قتال .. لقد كانوا جميعا يقولون .. آه لو أن اليساندرو كان هنا .

ولما طلب فيليب أن يرى الكمان ، قال :

— ولكنها ليست كمان اليساندرو . إننى أعرف كمانه .

ـ لا . . هل قلت لك إنها كمانه ؟ إنها كمان أبيه ، وقد أحضرها أحد الهنود لإخفائها لدينا عند طردهم من القرية . وهى كما يقولون كمان قديمة جدا وتساوى مبلغا كبيرا من المال إذا وجدت الرجل الذى يعرف قيمتها و يشتريها . إن هذا الرجل لم يأت بعد ، ولكنه سوف يأتى يوما . إن كل ما أخشاه أننا قد نبيعها بأكثر مما أعطينا اليساندرو . ولو كان حيا ، لجاء إلينا منذ مدة طويلة .

ولما رأى فيليب هذه المودة من المسز هارسل ، قرر فجأة أن يخبرها بالقصة كلها . وقد غمرتها الدهشة والأسى فى أول الأمر ، ومن ثم استغرقت فى أفكارها برهة ، ثم وثبت واقفة وهتفت قائلة :

ـ إذا كانت معه هذه الفتاة ، فلا بد أنه مختبىء فى مكان ما . وليس هناك من هو أبرع من الهنود فى الاختباء . فإذا كان مختبئا ، فلابد أن يعرف

www.ibtesama.com

هذه الحقيقة كل هندى . وإنك لتضيع وقتك سدى فى سؤالهم عنه . وإن كلا منهم مستعد للموت قبل أن يخبرك بشىء عنه. إنهم جميعا متكتمون كالقبر. وإنهم جميعا ، بلا استثناء ، يقدسون اليساندرو .. إنهم يرون أنه سوف يتزعمهم بعد والده بابلو العجوز ، وهم جدفخورين به لأنه يعرف القراءة والكتابة وأكثر من معظمهم معرفة .

واستطردت المسز هارسل تقول :

– ولو كنت فى مكانك لما نفضت يدى . . وإنما ذهبت إلى سان باسكويل ، ولعلها كانت معه فى الليلة التى جاء فيها إلينا من أجل المال بعد أن خبأها فى مكان ما . لقد حاولت أن أغريه بالبقاء معنا فى تلك الليلة ، ولكنه قال إنه لا يستطيع . ولكننى لا أدرى أين أمكنه أن يخبئها ريثما جاء إلينا .

ولم يحدث فى حياة المسز هارسل أن بلغت بها الدهشة والحيرة كما حدث لها الآن . إلا أن عطفها ، وثقتها فى أن اليساندرو قد يكون على قيد الحياة رغم كل شىء ، زودا فيليب بإحساس لا حد له من الاستبشار . ومن ثم قال وهو يهم بالانصراف :

– إذا وجدتهما يامسز هارسل ، فسوف أعود بهما إلى بيتى . ولسوف نعود من هذا الطريق لكى نراك .

وظلت هذه الكلمات نفسها تفعم قلبه بالأمل طـــوال الطريق إلى سان باسكويل . إلا أنه استغرق قبل مضى ساعة عليه فى سان باسكويل فى حالة من الحيرة والاستياء أعمق مما شعر من قبل . لقد وجد القرية فى حالة اضطراب

www.ibtesama.com

شديد ، والحقول مهملة ، وكثيراً من البيوت مهجورة ، والباق يستعد سكانها للرحيل عنها . وكان ثمة أسرة من البيض قد أقامت في بيت بدرو، قريب اليساندرو ، نفس أسرة الرجل الأبيض الذى استولى على معظم الحقول التى كان يعيش عليها سكان القرية . كان بدرو قد استفاد من تجربة اليساندرو ، عندما وجد أنه لا جدوى من المقاومة ، وأن الرجل الأمريكى يحمل كل المستندات الرسمية من إدارة الأملاك ، فقرر أن يبيع البيت للرجل أو يشعل فيه النار . واشترى الأمريكى البيت ، ورحل بدرو عن القرية قبل وصول فيليب إليها بأسبوع فقط — رحل بكل ماتبقى له من ممتلكات إلى ليزا جراند . وقد كان من الممكن أن يخبر فيليب عن اليساندرو ، هكذا قال الناس له بأ كثر مما يمكن أن يخبره أى واحد آخر فى القرية ، بل إن بدرو نفسه لم يكن يعرف أين قرر أن يستقر اليساندرو . إنه لم يخبر أحدا عن مقره الجديد ، وإنما ذهب شمالا . . وهذا كل ما يعرفه سكان القرية .

إلى الشمال .. الشمال الذى لم يترك فيه فيليب مكانا دون أن يبحث فيه ؟ وتنهد عند سماعه هذه الكلمة . ولكن يمكن للسيد ، إذا أراد ، أن يرى البيت الذى عاش فيه اليساندرو . إنه هناك فى الناحية الجنوبية من الوادى ، عند سفح التلال ، وإن بعض الأمريكيين يقيمون فيه الآن . ولقد كانت مزرعة اليساندرو رائعة . لقد اشتراها الأمريكى منه ، ولكنهم لا يعرفون الثمن . وليتهم أنصتوا إلى نصيحته . . لقد كان يقول لهم دائماً إن هذا ما سوف يحدث . أما الآن ، فقد ضاعت الفرصة للحصول على أى ثمن لمزارعهم . لقد اشترى رجل واحد كل أراضى القرية ، واشترى بيت بدرو ، لأنه أحسن بيوتها . وهكذا لم يعد فى مقدورهم أن يظفروا بشىء . . لقد تحطمت قلوبهم واستبد بهم اليأس .

www.ibtesama.com

وكاد فيليب ينسى أحزانه من فرط عطفه عليهم ، ثم قال لكثير منهم :

— وإلى أين أنتم ذاهبون ؟

وتلقى هذه الإجابة :

— من يدرى ياسنيور ؟ إلى أين يمكن أن نمضى بعد أن سدت فى وجوهنا السبل ؟

ولما سأل فيليب عن زوجة اليساندرو ، سمعهم يتحدثون عنها باسم « ماچيللا » فازدادت حيرته ، ثم سألهم ، أخيراً ، ما إذا كان أحدهم سمع اسم رامونا ، وكانت الإجابة :

— لا . . أبداً .

فما معنى هذا ؟ أيمكن أن يكون حديثهم عن اليساندرو آخر غير الذى يبحث عنه ؟ .

وخطر لفيليب أن اليساندرو قد تزوج مرة أخرى . وسألهم من ثم عن المكان الذى عقد فيه اليساندرو على هذه الزوجة التى كان حديثهم عنها يذكره على نحو ما برامونا .

نعم .. لقد تزوج اليساندرو فى سان ديجو على يدى الأب جاسبارا .

وركب الحائر فيليب ، وهو يأمل ضد الأمل ، فى الطريق إلى سان ديجو . وهناك شاء سوء الحظ ألا يجد الأب جاسبارا الذى كان سيفهم كل شىء من

www.ibtesama.com

أول سؤال ، ولكنه وجد قساً أيرلنديا شابا جاء منذ عهد قريب ليكون مساعداً للأب جاسبارا. وكان الأب غائباً فى رحلة بالجبال . فى سانتا ايزابلا . ولكن المساعد الشاب كان فى مقدوره أن يقوم بالخدمة المطلوبة و يفحص السجلات . وكان عطوفا مجاملا ، ولم يلبث أن استخرج السجلات القديمة المهلهلة ، وراح فيليب ينظر من وراء كتفه وأنفاسه تلهث بالانفعال والخوف . وقرأ بخط يد الأب جاسبارا غير الواضح بسبب سرعته وتعجله فى كتابة الأسماء اليساندرو أسيس وماچيللا .

وانصرف فيليب بقلب محزون . إنه لا يعتقد إطلاقا أن رامونا يمكن أن تتزوج باسم آخر غير اسمها ، فمن تكون إذن تلك المرأة التى تزوجها اليساندرو فى أقل من عشرة أيام بعد الليلة التى غادرت فيها رامونا البيت . أهى امرأة هندية كان يحبها ، أو كان مرتبطا معها بعهد الزواج ! و إن صح هذا فأين ، وفى أية بقعة موحشة نائية يقوم قبر رامونا .

وأيقن فيليب أخيراً أن رامونا ماتت ، وأنه لم يعد ثمة جدوى فى مزيد من البحث ، إلا أنه بعد عودته إلى البيت عاوده الشعور بالقلق ، فجلس وكتب رسالة إلى كل قسيس بين سان ديجو ومونتيرى يسأله عما إذا كان فى سجلات الزواج اسمى اليساندرو أسيس ورامونا أورتينا .

لم يكن من المستحيل أن يكون هناك احتمال فى وجود اليساندرو آخر . إذ كان الآباء القدامى يجدون مشقة بالغة فى ابتكار أسماء جديدة لعشرات الآلاف من الهنود المتنصرين . فلعل أن يكون هناك أشخاص آخرون يحملون اسم أسيس غير بابلو، أما اسم اليساندرو فإن عشرات الهنود يحملونه فى كل مكان.

www.ibtesama.com

وضاع هذا الأمل الأخير أيضاً ، لأنه لم يوجد فى سجلات الزواج اسم اليساندرو أسيس إلا ما هو موجود فى سجل الأب جاسبارا .

وعندما كان فيليب فى طريق الانصراف من سان باسكويل ، شاهد هنديا وهندية يسيران بجوار بغال مثقلة بالأحمال ، وكان ثمة طفلان صغيران ، أضعف من أن يستطيعا السير موضوعين بين هذه الأحمال ، بحيث لم يكن يبدو منهما غير الوجهين فقط ، وكانت المرأة تبكى بمرارة ، ومن ثم قال فيليب لنفسه : مزيد من المشردين ، ليساعد الله هؤلاء البؤساء .

ثم تناول كيس نقوده وأعطى المرأة قطعة ذهبية ، ورفعت المرأة وجهها بدهشة ، وكأنما هبطت القطعة الذهبية عليها من السماء وقالت :

ـــ شكراً . . شكراً يا سيدى .

ـــ وأقبل الرجل عليه أيضا وقال :

ـــ ليحسن الله جزاءك ياسيدى . . إن هذا أكبر مبلغ من المال حصلت عليه طول عمرى ، ألا يعرف السيد مكانا يمكن أن أجد فيه عملا .

وتمنى فيليب أن يقول نعم ، تعال إلى مزرعتى . . وهناك ستجد عملا . إذ كان فى الأيام الخوالى يستطيع أن يفعل هذا بلا أدنى تردد ، لأن المرأة والرجل كانا وسيمين ، شابين ، قويين ، ولكن قائمة الأجور فى مزرعة مورينو أصبحت أكثر مما تحتملها موارد المزرعة . ومن ثم قال :

ـــ لا يا رجل . . ليؤسفنى إذ أجبت بالنفى . وأنا أقيم فى مكان بعيد من هنا . وأنت . . إلى أين ستمضى ؟

www.ibtesama.com

— إلى مكان ما فى جبال سان جا كنتو . إذ يقال إن الأمريكيين لم يصلوا إلى تلك المنطقة بعد . و إن لى أخا يقيم هناك . شكراً يا سيدى ، ولتجزك السماء عنا خير الجزاء .

« سان جا كنتو ؟ » إن هذا الاسم ظل يطارد ذهن فيليب بعد عودته إلى بيته . وكانت القمة الجبلية الشامخة التى تحمل هذا الاسم قد رآها من الأفق من أماكن كثيرة مختلفة . وفى ذات يوم قال للهرم جوان :

— جوان كانيتو ؟ أيوجد هنود كثيرون فى سان جا كنتو ؟

— الجبل ؟

— نعم . . أعتقد هذا . . وإلا فهل هناك شىء آخر يحمل هذا الاسم ؟

— هناك واد أيضاً ، إن وادى سان جا كنتو من الوديان الجبلية الواسعة رغم أن النهر الجارى فيه لايعتبر نهراً حقيقياً، لأنه يجف فترة طويلة فى كل عام. إلا أن هناك مراعى طيبة. وهناك ، فى الوادى ، قرية هندية أعرفها ، و إن بعض هنود إرسالية سان لويس راى جاءوا منها . وهناك فى الجبل ، قرية أخرى كبيرة . . إنها أكثر قرى الهنود بدائية وهجمية . أوه . . إن سكانها مقاتلون أشداء .

وفى صباح اليوم التالى، شد فيليب الرحال إلى سان جا كنتو وهو يتساءل: لماذا لم يذكر أحد أمامه هذه القرى . ؟ ولماذا لم يعرف هو عنها شيئاً؟ ر بما لا يزال هناك قرى أخرى لم يسمع بها . و بعث الأمل فى قلب فيليب الطيب بنفس البساطة التى خبا بها ، فهو قد يسعد بالأمل و يشقى باليأس فى خلال ساعة واحدة،

www.ibtesama.com

ور بما فى خلال لحظات معدودة . وعندما مضى بجواده فى الشارع القروى الخامل بمدينة سان برناردينو ورأى فى الأفق الجنوبى القريب قمة جبل شامخة تتدرج ألوانها من الوردى إلى القرمزى، ومن هذا إلى الوردى مرة أخرى ، قال لنفسه : « إنها هناك . . لقد وجدتها » .

لقد أثار الجبل فى نفسه نفس المشاعر التى طالما أثارها فى نفس العمة رى ، مشاعر يمتزج فيها الغموض والرهبة والإحساس بالجمال .. وقال لأحد المارة العابرين وهو يشير إلى قمة الجبل بسوطه :

ــ أهذا جبل سان جاكنتو ؟

ورد الرجل :

ــ نعم يا سيدى .

وفيما هو يتحدث ، إذا بزوج من الجياد السوداء يمرقان من المنعطف بسرعة جملته يفسح لهما الطريق قبل أن يصطدما به، ومن ثم قال بعد أن استرد توازنه:

ــ إن هذا الشاب الوافد من تنيسى سوف يدوس بجواديه هذين شخصاً ما ذات يوم إذا لم يأخذ حذره .

ونظر فيليب إلى الجوادين ، ثم إذا هو يلكز جواده بعنف وينطلق وراءهما وهو يهتف بانفعال وبصوت مرتفع دون أن يحفل بشىء إلا بأن يزيد من سرعة جواده :

ــ إنه الجواد «بابا» . . يا للسماء . . ! أوقفوا هذا الرجل . . أوقفوا هذا الرجل ذا الجوادين الأسودين .

www.ibtesama.com

ولما سمع جوس الهتاف باسمه من كل ناحية ، شد أعنة الجوادين بنيتو و«بابا» بكل قواه، وراح يتلفت حوله بدهشة ليرى ماذا حدث. وقبل أن يتسنى له توجيه أى سؤال،كان فيليب قد لحق به ، ومضى رأساً إلى الجواد «بابا»، ثم وثب عن جواده وأمسك بعنان « بابا » وهتف قائلا :

ـ « بابا » .. « بابا » .. !!

وعرف « بابا » صوته فبدأ يهمهم ويحاول التخلص من عنانه .. وكاد فيليب يفقد توازنه ويسقط على الأرض ، وكان قد نسى ، لمدة لحظة ، كل شىء ، فى حين أخذ عدد من الناس يتجمعون حوله . والواقع أنه كثيراً ما خامر نفوس أهالى سان برناردينو الشك فى ملكية جوس للجوادين. ومن ثم لم يدهش كثيراً من المتفرجين سماعهم لصيحة فيليب ، فراحوا ينظرون فى ارتياب إلى جوس وهم يسمعون فيليب يهتف به :

ـ من أين جئت بهذا الجواد ؟!

ولم يكن جوس سريع الخاطر بطبيعته ، كما لم يكن فى حياته متعجلا. وكذلك عاش حياته دون أن يشعر بأن هناك ما يستحق أن يحرمه من الإجابة عن أى سؤال فى حديث متراخ ممطوط. ولهذا شرع ، قبل أن يبدأ فى الإجابة، فى وضع ساق على ساق ، والنظر إلى فيليب متفحصا ، ثم قال بصوت لطيف:

ـ حسناً أيها السيد.. أعتقد أنك سيد من سماتك.. إن الأمر قد يستغرق وقتاً طويلا لأشرح لك كيف حصلت على هذا الجواد ، وعلى الآخر أيضاً . إنهما ليسا ملكى .. لا هذا ولا ذاك .

www.ibtesama.com

وكان حديث جوس غير مفهوم لفيليب ، كما كان لرامونا ، وأدرك الشاب هذه الحقيقة فأرسل ضحكة قصيرة وأردف قائلا :

— لعلك تستطيع أن تفهمني أكثر إذا تحدثت معك باللغة المكسيكية .

ثم راح يكرر بلغة إسبانية واضحة إلى حد ما ، ما سبق أن قاله ، وأضاف :

— إنهما ملك شاب هندي هناك في سان جاكنتو . أو على الأقل الجواد الآخر . . أما الجواد الذي تمسك به الآن ، فهو ملك زوجته . . ملكها منذ أن كانت فتاة صغيرة . . ولم أر في حياتي أناسا يهتمون بالجياد مثلهما .

وقبل أن يفرغ من حديثه ، كان فيليب قد وثب إلى المركبة ، وألقى بعنان جواده الخاص إلى غلام بين المجتمعين قائلا له :

— اتبعني به . . أتسمح ؟ إنني أريد أن أتحدث إلى هذا الرجل .

لقد وجدتها . . وجدتها . . حمدا لله . . أخيرا وجدتها . . كيف أشرح للرجل شعوري بسرعة . . كيف أشكره بما يستحق ؟ .

وهتف لجوس قائلا وهو يضع يده على ركبته :

— إنني لا أستطيع أن أشرح لك كل شيء الآن . . لا أستطيع . . ولكن يكفي أن أدعو السماء لتباركك ، لا شك أنها هي التي ساقتك إلى .

وقال جوس لنفسه : « أوه . . يا إلهي . . رجل آخر من أولئك الكاثوليكيين ! »

ثم قال بصوت مسموع لفيليب بلغته التنيسية :

www.ibtesama.com

— بل أعتقد يا سيدى أن الذى ساقنى إليك هو السيد توم وارمسى . . لقد كنت فى طريق لأنقل متاعه بعد ظهر اليوم .

وقال فيليب وهو لا يزال يرتعد من فرط الانفعال :

— اصطحبنى إلى بيتك ، إننا لا نستطيع أن نتحدث هنا فى الطريق . أريد أن أسمع منك كل ما لديك من معلومات عنهما . لقد كنت أبحث عنهما فى كل أنحاء كاليفورنيا .

وأشرق وجه جوس وهو يدرك أن هذا الشاب يحمل إلى رامونا اللطيفة بلا شك الغوث والحظ الحسن . وقال :

— سوف أمضى بك رأسا إلى بيتى ، ولكن يجب أولاً أن أمر على توم لأنه ينتظرنى .

وتفرق المجتمعون فى استياء ، لأن أملهم فى رؤية أحد سارق الجياد مقبوضا عليه قد خاب ، ولكنهم لم يعفوه من هذه التعليقات :

— تستحق ما سوف يحدث لك أيها التنيسى .

— لسوف تفترق عن هذا الجواد الأسود أخيرا يا جوس .

وكانت عوامل الإثارة نادرة فى سان برناردينو ، ولهذا أبى المجتمعون أن تمر المسألة هكذا ببساطة و بدون مثل هذه التعليقات .

وفيما كان جوس ينعطف إلى الشارع الذى يقيم فيه ، رأى والدته مقبلة نحوه

www.ibtesama.com

بسرعة وقد انزاحت قبعتها إلى مؤخرة رأسها ، وتعلقت نظارتها فى خصلات شعرها ، مما جعل جوس يهتف متعجبا :

ـــ هذه أمى ؟ ترى ماذا حدث ؟

وقبل أن يفرغ من حديثه ، لمحت هى الجوادين الأسودين ، فرفعت قبعتها ولوحت بها هاتفة :

ـــ جوس •• جوس •• انتظر •• إننى أبحث عنك •

واستمرت فى حديثها لاهثة الأنفاس بحيث كان نصف كلماتها يضيع فى صرير العجلات . و يبدو أنها لم تر ذلك الغريب الجالس بجوار جوس وهى تقول:

ـــ أوه •• جوس •• لقد سمعت أسوأ نبأ فى حياتى •• لقد قتل ذلك الهندى اليساندرو •• قتل •• أتسمعنى •• قتل •• لقد جاء هندى من الجبل يحمل رسالة إلى مدير وكالة رعاية الهنود ••

وصاح فيليب بصوت يمزق نياط القلوب :

ـــ يا إلهى ! هل قتل اليساندرو ؟

وتنقل جوس بنظراته الحائرة من وجه أمه إلى وجه فيليب • وبدا كأن تعقيد الموقف أصبح فوق مستوى تفكيره • وأخيرا قال لفيليب لاهث الأنفاس:

ـــ يا إلهى •• هذه أمى •• وكانت شديدة الحب لهما حقا ••

ثم استدار إلى أمه وأردف قائلا :

ـــ إن هذا السيد هو أخوها •• لقد عرفنى بواسطة الجواد « بابا » •• فى

www.ibtesama.com

الطريق . لقد كان يبحث عنهما فى كل مكان .

وأحاطت العمة رى بالموقف فوراً ، فقالت با كية وهى تمسح دموعها :

ـــ حسنا . . ! أليست هذه هى العناية الإلهية كما يقولون ! لاشك أنها العناية الإلهية التى جاءت بك فى هذه الآونة . إننى أعرف من أنت ، إنك أخوها فيليب. أليس كذلك؟ فما أكثر ما حدثتنى عنك ؟ يا إلهى . . ! كيف سنتمكن من الوصول إليها أعتقد أنها ماتت . . أعتقد أنها لن تعيش بعد رؤيتها مقتل زوجها أمام عينيها . لقد قال لى إنه لا يوجد من يستطيع الوصول إلى مقره الجديد . . وكان يعنى الرجال البيض . . يا الهى . . يا إلهى !.

وتسمر فيليب فى مكانه من فرط الخوف ، ثم التفت إلى جوس فى يأس وقال :

ـــ أخبرنى بما قالت بالإسبانية . . إننى لم أفهم حديثها .

وفيما كان جوس يترجم حديث أمه المضطرب إلى الإسبانية ، صاح فيليب متوجعا :

ـــ آه . . جئت بعد فوات الأوان . . بعد فوات الأوان .

وكان يشعر هو أيضاً ـ مثل العمة رى ـ أن رامونا لن تقوى على الحياة بعد صدمة رؤيتها لزوجها وهو يقتل أمامها ، وعاد يصيح قائلا وهو يدخل البيت مترنحا :

ـــ لقد ماتت بكل تأكيد من هول المنظر .

قال جوس :

www.ibtesama.com

— ولـكننى أعتقد أنها لم تمت . . إن لديها ابنتها الصغيرة التى لابد لها أن ترعاها.

وقالت الدمة رى:

- إنك على صواب ياجوس ، نعم . . لا شىء يمكن أن يقتلها ، إلا إذا كان وحشا جبليا - مادامت ابنتها بين ذراعيها . إنها لم تمت إن كانت ابنتها على قيد الحياة . وهذا بعض عزائنا .

وجلس فيليب ووجهه مطمور بين راحتيه . وفجأة رفع رأسه وقال :

- كم يبعدمقرها الجبلى؟

وأجاب جوس قائلا :

- ثلاثون ميلا أوأكثر للوصول إلى الوادى ، ولايعرف إلا الله طول المسافة إلى الجبل الذى كانت تعيش فيه مع اليساندرو . إنه مرتفع كجدار البيت . . هكذا يقول أبى . . لقد كان يصيد فيه مع اليساندرو طيلة فصل الصيف .

ما أعجب وما أغرب أن يسمع فيليب اسم اليساندرو ينطق هكذا بطريقة مألوفة على لسانى هذين الشخصين اللذين عرفاه منذ عهد قريب ، واللذين يشعران بالحزن من أجله وكأنهما صديقان حميمان له . وشعر فيليب كأنه فى غيبوبة عجيبة، ولـكنه نبه نفسه وقال :

- يجب أن نذهب . . يجب أن نبدأ الرحلة فورا . . هل ستسمح لى بأخذ الجوادين ، فبدأ جوس الحديث قائلا فى حرارة ناسيا نفسه :

www.ibtesama.com

ـ نعم . . إنك أحق بهما من أى شخص آخر .

ولـكنه تنبه وتخلى عن لغته التنيسية ، وأكمل حديثه بالإسبانية قائلا إن الجوادين سيكونان تحت أمر فيليب .

وصاحت العمة رى قائلة :

ـ جوس . . لا بد أن يأخذنى معه . . إننى لا أستطيع أن أبقى هنا ساكنة ، بينما تلك الفتاة فى هذه المحنة . وإذا كانت ماتت ، فهناك الطفلة المحتاجة للرعاية ، كما أنه لا يستطيع أن يذهب هكذا بمفرده .

وأعرب فيليب عن شكره العميق لصاحبة العمه رى له . . وكانت حرارته فى التعبير عن شكره سببا لشعور العمة رى بالارتباك ، ومن ثم قالت :

ـ أخبره ياجوس أننى لم أتعود أن ينادينى أحد بلقب سنيورة . أخبره أن أخته اعتادت أن تنادينى باسم العمة رى ، وأتمنى أن يفعل مثلها . وأعتقد أننا سنتفاهم تماما ، فإنه يبدو لى كأنى أعرفه طول عمرى ، تماما كما حدث لى مع الفتاة حين رأيتها أول مرة وأعترف أننى أحببت هؤلاء المكسيكيين أكثر مما أحب هؤلاء الأمريكيين الملاعين القساة . . أكثر جدا . . ولـكننى لا أطيق أن ينادينى أحد بلقب سنيورة . قل له هذا ياجوس . وأعتقد أن هذه الـكلمة معناها عمتى بالمكسيكية . أليس كذلك . ويبدو لى أنه لا توجد لغة ليس فيها كلمة عمتى . ولسوف يفهم ما أعنى . ولسوف أكون أكثر راحة معه فى رحلتنا إذا نادانى بلقب العمة رى الذى اعتدت عليه ، أو المـزهاير إذا لم يكن بد . ولـكن العمة رى أفضل .

www.ibtesama.com

ولما أعرب جوس عن خوفه من أن تخذل الذاكرة أمه فى معرفة الطريق إلى سان جاكنتو ، ضحكت قائلة :

ـ لا داعى للقلق الشديد . أراهنك أنى أستطيع العودة بمفردى إلى الولاية التى جئنا منها ، وأعتقد أن كل ميل فى الطريق مرسوم فى ذهنى كالخارطة . وهذا مالا تستطيع أن تفعله لا أنت ولا أبوك . أما ما سوف نفعله للصعود إلى الجبل ، فهذا شىء آخر . إننى لا أعرف بعد ما يمكن أن نفعله ، ولكننا سنتركه للظروف . وأنا واثقة يا جوس ، ثقتى بأنك ابنى ، أن الله سوف يسدد خطانا لإنقاذ رامونا هذه المرة . . إننى واثقة تماما بهذا . .

ولم يكن فى مقدور فيليب أن يجد رفيقا أفضل من العمة رى . وقد ظهر فى النهاية أن الصمت النسبى الذى فرض عليهما بسبب عجز كل منهما عن فهم الآخر ، أفضل من الثرثرة التى لاجدوى منها فى مثل هذه الظروف . ولكن كان كل منهما يفهم الآخر بطريقة عملية ، وكان اتحادهما فى الهدف ، وفى حب رامونا ، أقوى فى الربط بينهما من أى حديث .

وكان الوقت بعد الغروب بكثير عندما غادروا سان برناردينو ، إلا أن القمر فى تمامه أضاء لهما الطريق وكأنهما فى وضح النهار . . وعندما بزغ فى السماء ، أشارت العمة رى إليه وقالت باقتضاب :

ـ هذا فأل حسن .

وقال فيليب دون أن يفهم كلمة من كلماتها إلا بداهة :

ـ نعم . . شىء جميل . . إنه ينير لنا الطريق .

www.ibtesama.com

وقالت العمة رى لنفسها : « ومع ذلك يقول إنه لايفهم الإنجليزية » .
وانطلق «بنيتو» و «بابا» وكأنهما يدركان المهمة التى من أجلها يسرعان . ومن ثم ركضا أربعين ميلا دون أن تتخاذل قواهما . وأخيرا أشارت العمة رى إلى أول بيت رأياه فى الطريق بعد أميال عديدة ، وقالت :

— سوف ننام هنا . إننى لا أعرف الطريق بعد ذلك . أعتقد أن سكانه ذهبوا إلى مضاجعهم . ولكن عليهم أن ينهضوا ليستقبلونا . لقد اعتادوا ذلك بسبب كثرة المسافرين على هذا الطريق . إننى أعرفهم .. أصدقاء طيبين ، وعلى كل حال فقد اقترب موعد استيقاظهم ، إنهم يستيقظون عادة فى السحر ليطعموا ماشيتهم ويستعدوا لأعمالهم اليومية . وقد اعتدت أن أراهم وأسمعهم عندما كنا معسكرين هنا . ولما رأيتهم لأول مرة وهم يستيقظون هكذا قبل شروق الشمس ظننت أن أحداً منهم سقط مريضا فى أثناء الليل . ولكننا عرفنا بعد ذلك أن هذه هى عادتهم . ولما قلت للوالد هذا « أرأيت فى حياتك أناسا يستيقظون قبل شروق الشمس ليطعموا ماشيتهم . وليطعموا أنفسهم أيضا ، لأنهم يفرغون من الإفطار ، ويغسلون « الأطباق » قبل شروق الشمس أيضا ، وهم يؤدون الصلاة بجوار الأسرة .. إنهم من طائفة الميثودست .. على جانب كبير من التقوى والصلاح . لقد اعتدت أن أقول لهم إنهم يتحدثون كثيرا عن إيمانهم بالله ، ولكنهم كما يبدون لى ، يعبدون أعمالهم أكثر من عبادتهم لله . والإيمان والعبادة شيئان مختلفان . وأنت لاترى مثل هذا فى تنيسى . إذ أعتقد أن الله يسمح لنا بأن نأخذ قسطا كاملا من النوم . وأنا قانعة بالوقت المنير الذى يعطيه لنا . ولكن آل ميريل هؤلاء أناس طيبون حقا رغم هذا كله كما أقول لك » .
ثم قالت لنفسها حين رأت الحيرة بادية على وجه فيليب « يا إلهى .. أعتقد أنه

www.ibtesama.com

لم يفهم كلمة واحدة مما أقول . لاجدوى من الحديث إلا بكلمة نعم أولا . . . بين اثنين لايفهم أحدهما لغة الآخر . ولهذا لاداعى لكثرة الحديث بين أناس على هذه الشاكلة » .

ولما علم آل ميريل برغبة فيليب فى الذهاب إلى قرية كاويلا بالجبال ، حاولوا منعه من أخذ جواديه معه ؛ إذ كانوا يعتقدون أن هذا الصعود سيقتل هذين الجوادين الرائعين ، لأن الطريق شديد الوعورة . وأشاروا إلى الخط الملتوى الذى يرتسم على وجه المرتفع ، والذى يبدو كأنه طريق صالح فقط للماعز أو الغزلان . وارتعدت العمة رى من هذا المنظر ، ولكنها لم تقل شيئا . إلا أنها قالت لنفسها بحزم :

« سوف أذهب حيث يذهب . إننى لن أرتد عائدة الآن ، وإنما سأفعل ما كان سيفعله زوجى جيف هاير » .

وأحس فيليب نفسه بالنفور مما رأى وسمع عن هذا الطريق الذى كان قد أنشىء أساسا للهبوط بأخشاب الشجر ، والذى كانت منعطفاته مسافة ستة أميال شديدة الخطر . وبعدها يظل يتلوى على الحافات والأخوار حتى يصل إلى قلب غابة أشجار بلوط هائلة حيث يوجد مصنع لنشر الخشب . وبعد المصنع ، يمتد طريق إلى مناطق أشد ظلمة وأكثف أشجارا مسافة خمسة عشر ميلا ، وبعدها يصل إلى ساحات ضخمة ، ومراع ، وسفوح تلال معشبة ودون أن يخرج عن جوانب الجبل الشامخ الجنوبية أو الشرقية . ومنها يمتد طريق آخر شديد الانحدار لايزيد على ممر ضيق ، يتجه جنوبا ثم يصعد إلى قرية كاويلا . وكانت الرحلة الشاقة تستغرق على أقل تقدير يوما ونصف يوم من بيت آل ميريل . أما الجزء

www.ibtesama.com

الآخر من الطريق ، فكان لابد من وجود دليل مع أى شخص غير خبير بتلك المنطقة . وأخيرا تمت الترتيبات على أن يمضى أصغر أبناء آل ميريل فى هذه المهمة مع فيليب والعمة رى ، وأن يصحب معه اثنين من أقوى الجياد المعتادة على السير فى هذه المناطق . وقد ساعد هذان الجوادان على صعود الجبل بلا مشقة رغم أن الجواد « بابا » ظل فى أول الأمر يصهل ويرفس يستنكر مذلة ربطه فى ذيل جواد آخر .

ولولا الحزن الذى كان يطبع تلك المهمة ، لشعر كل من فيليب والعمة رى بالبهجة والانفعال الممتع فى أثناء ذلك الصعود . وكانت المناظر ، كلما انعطفوا فى أحدى الممرات المرتفعة ، تكشف عن مزيد من الاتساع ناحيتى الجنوب والغرب حتى أصبح كل وادى سان جا كنتو مكشوفا تحتهم . وكانت أشجار البلوط ترتفع شامخة وكأنها الأعمدة .. أما إذا كانت ساقطة ، فإن ارتفاع استدارة جذعها يزيد على ارتفاع قامة الرجل .. هكذا كانت من كبر الحجم ! وكان اللحاء على معظمها مثقوبا بثقوب كثيرة من الجذور إلى الفروع ، وكأنما أصيب بوابل من الرصاص . وفى هذه الثقوب كانت تختزن ـ بمقر طبيعى ـ ثمار الأكرون غذاء سكان الغابات .

وقالت العمة رى القوية الملاحظة فى تعجب :

ـ أنظروا إلى هذا ؟ ثم يقولون عن هؤلاء السكان إنهم مخلوقات خرساء بلا عقول . ولكننى أرى أنهم ليسوا خرسا بالنسبة لبعضهم البعض ! بل إننا الذين نخرس عندما نلتقى بالغرباء . وهأنذا أبدو خرساء بجانب هذا المسافر معى .

www.ibtesama.com

وأجاب سام ميريل قائلا :

— نعم .. هذا صحيح ، فعندما جئت لأول مرة كدت أفقد عقلى وأنه أحاول أن أجعل هؤلاء المكسيكيين يفهمون حديثى . وبدا لى أن لسانى لم يعد ذا فائدة لى . ولكننى الآن أتحدث لغتهم درجة أولى . أما أبى فإنه لا يعرف حتى الآن كيف يتحدث معهم . إنه لم يتعلم بعد الكلمة الأولى من لغتهم مع أنه أمضى هنا مدة أطول بعامين مما أمضينا .

وبدت الأميال كأنها فراسخ فى نظر فيليب . وكانت ثرثرة العمة رى مع الشاب سام ميريل تزيد من توتر أعصابه . يالقدرتها على الثرثرة ! ولكنه لم يلبث بعد لحظات قليلة أن رآها تمسح دموعها ، فانعطف بقلبه إليها مرة أخرى .

وأمضوا الليلة الأولى فى كوخ صغير بإحدى الساحات الخالية من الشجر ، ثم استأنفوا الرحيل فى فجر اليوم التالى حتى وصلوا إلى قرية كاويلا قبيل الظهر . ولما ظهرت مركبتهم للعيان ، إذا بأشخاص كثيرين يجرون هنا وهناك . ذلك لأن ظهور مركبة سفر يجرها أربعة جياد يعتبر فى القرية حدثا هاما لم يسبق له مثيل . وكانت حالة الاهتياج التى غمرت الأهالى بسبب مقتل اليساندرو لم تخف بعد بأية حال من الأحوال . ومن ثم كانوا جميعا فى حالة تحفز وارتياب فى كل وافد جديد على القرية ، وكانت الأنباء قد وردت منذ عهد قريب بأن القاتل فارار قد أطلق سراحه ، وأنه لن يعاقب على جريمته ، ومن ثم تأججت مرة أخرى فى ذلك الصباح نيران الاستنكار والرغبة فى الانتقام ، التى بذل فى محاولة إخمادها فى أول الأمر الزعيم المسن جهدا بالغا . ولهذا كانت وجوه الذين

www.ibtesama.com

اجتمعوا حول المركبة عند وقوفها أمام بيت الزعيم ، تنم عن العداء والتحدى .

وكان وجه العمة رى صورة تستحق الدراسة لما امتزج فيه من الفزع والتحدى والاحتقار . وقد قالت بصوت خافت لسام ميريل :

— من هؤلاء الصعاليك البؤساء التافهون الذين لم أر مثلهم فى حياتى ؟ يبدولى أنهم لن يترددوا فى سحقنا فى لحظة لو قرروا هذا . وإذا لم نجدها هنا ، فإن موقفنا سيكون حرجا جدا .

فضحك ميريل وقال :

— لا .. إنهم أصدقاء ، ولكنهم مهتاجون فقط بسبب مقتل ذلك الهندى . وهذا مايجعلهم يلوحون قساة متوحشين . ولا عجب ، لقد ارتكب فارار جريمة بشعة بإطلاقه النار على الرجل بعد أن مات . وأنا لا ألومه على قتله للهندى ، لأنى ما كنت لأتردد عن قتل أى رجل يسرق جوادا لى رائعا كهذا ويرغمه على الصعود إلى هذه المرتفعات . إن هذا هو القانون الوحيد الذى يحمينا نحن ملاك الماشية والجياد فى هذه المنطقة ، وإن من حقنا أن نحمى أنفسنا . ولكن من الفظاعة بمكان أن يمزق إنسان بالرصاص وجه رجل ميت . على أن فارار رجل مشهور بالقسوة ، ولا شك أنه فقد صوابه حين رأى جواده يلهث من فرط الإرهاق ، فلم يعرف ماذا جنت يداه .

وكادت العمة رى تفقد صوابها من فرط الدهشة عند سماعها هذا الحديث . وكان فيليب قد وثب من المركبة ، وبعد أن تبادل كلمات قليلة مع زعيم القرية ، دخل مسرعا معه إلى البيت . ويبدو أنه نسى أن العمة رى لاتزال

www.ibtesama.com

جالسة فى المركبة ، وكان دخوله البيت على هـذا النحو يدل على أن رامونه فيه ، وكانت العمة رى ، رغم كل دهشتها واستنكارها تشعر بسلسلة الأفكار التى تجرى فى ذهنها ،ولكن رغم احتمال رؤيتها لرامونا ، لم تحاول أن تمسك لسانها أو ترجىء الرد على الحديث الذى سمعته فى تلك اللحظة . وبدت الكلمات كأنها تخنقها وهى تنطلق من شفتيها :

– أيها الشاب .. إننى لا أعرف الكثير عن نشأتك . ولكننى سمعت أنكم شديدو التدين . ومع أننى وجيف لسنا كذلك ، إلا أننى أقول لو أنى سمعت ابنى جوس – وهو فى مثل سنك ، ولكنه أطول منك وإن كان أضيق صدراً – يقول ماقلته أنت الآن،لطلبت أن تحل عليه صاعقة من السماء ، لأنه سيكون مستحقا لها .

ولا يعرف أحد ماذا كانت العمة رى ستقوله أيضا للشاب ميريل المدهوش، لأن الزعيم المسن عاد إلى الباب فى تلك اللحظة وأشار لهـا بالدخول ، فوثبت من مقعدها إلى الأرض ، رافضة بحزم يد سام الممتدة إليها ، ودخلت البيت مهرعة ، وفيما هى تجتاز عتبة الباب ، رأت فيليب يستدير نحوها بوجه مفعم بالألم ويقول :

– تعال وتحدثى إليها .

وكان راكعاً بجوار الفراش الحقير الموضوع على أرضية الغرفة. ترى أهذه هى رامونا الراقدة عليه – هذا الجسد الممدد،والشعر الشعث،والعينان اللامعتان، والوجنتان المضطرمتان ، والأصابع التى تعبث –بلا معنى كأصابع مجنون– بحبات

www.ibtesama.com

مسبحة ذهبية ! نعم .. إنها رامونا .. وإنها ظلت راقدة هكذا عشرة أيام استنفد الأهالى خلالها كل مهاراتهم البسيطة لإسعافها ، بلا جدوى .

وانفجرت العمة رى باكية قائلة :

— ياإلهى .. لو كان معى « نبات الرجل المرم » هنا لأمكننى أن أشفيها من الحمى . ولكننى أعتقد أننى رأيت بعضاً منه ينمو على مسافة ميل من هنا .

ودون أن تلقى نظرة أو كلمة أخرى ، أسرعت إلى الخارج ، ووثبت إلى المركبة ، وقالت بسرعة لم تتحدث بمثلها منذ ثلاثين عاماً :

— استدر بالمركبة وامض إلى الطريق الذى جئنا منه . أعتقد أننى سأجد العشب الذى سيكسر حدة الحمى ، أسرع .. أسرع .. ألهب الجياد ، إن المكان لا يبعد عن ميل من هنا .

وظلت تفحص بنظراتها كل بوصة من الأرض للمارين عليها ، وأخيراً هتفت قائلة :

— انتظر هنا .. أعتقد أنى شممت رائحة النبات المر فى مكان قريب .

وبعد لحظات كانت تمسك بحزمة من النبات اللامع الرقيق الريشى الأوراق ، وتطلب من سام الإسراع بالعودة وهى تقول :

— هذا النبات سوف يشفيها من الحمى .

ولكن قلبها غاص بين جنبيها حين دخلت الغرفة ورأت عينى رامونا

www.ibtesama.com

تهيمان بذهول فى وجه فيليب دون أن تعرفه . ومن ثم قالت بشفتين مرتعدتين :

— إن حالتها سيئة جداً . ولكنها لن تموت مادام هناك أمل .. هذا هو شعارنا . إن الأوان لا يعتبر قد فات فى رأينا إلا بعد أن يفوت حقاً !.

وأخذت تدنى من أنف رامونا أكوابا بعد أكواب من ماء النبات المر المغلى المتصاعد منه رائحة نفاذة .. وفى صبر بالغ شرعت تسقيها منه قطرة بعد قطرة ، وتتوسل به يديها ورأسها فى كفاح مرير ضد الموت . وأخيراً انتصر الحب وانتصرت الحياة . وقبل أن يأتى المساء ، كانت رامونا قد استغرقت فى النوم .

وجلس فيليب والعمة ربى بجوارها .. غريبان ، ولكن بشعور متحد ، يستمد كل منهما الأمل من إخلاص الآخر لحبيب مشترك . وظلت رامونا نائمة طوال الليل . وفيما كان فيليب يرقبها تذكر إصابته هو بالحمى ، وكيف كانت تركع بجوار سريره وتصلى من أجله ، وتلفت فى جوانب الغرفة ، ورأى فى أحد جدرانها صورة بدائية للسيدة العذراء ، وأمامها شمعة واحدة مضاءة . لقد شق سكان القرية على أنفسهم ، وحرموها من أشياء كثيرة لكى يوفروا الشموع المضاءة عشر ليالى أمام السيدة العذراء من أجل اليساندرو ورامونا . وكانت المسبحة قد سقطت من يد رامونا ، فأخذها فيليب بحذر ، ومضى إلى صورة السيدة العذراء ، وركع أمامها ، وبدأ يصلى ببساطة وكأنه فى الغرفة بمفرده ، وركع الجنود الواقفون عند الباب أيضا ، ولم تلبث همهمة صلواتهم أن ارتفعت فى سكون الليل .

ونظرت العمة ربى برهة إلى الراكعين فى احتقار ، وقالت لنفسها :

www.ibtesama.com

« أوه . . ! يا إلهى . . إن الوثنيين المساكين يصلون أمام صورة ! »

وفجأة استبد بها إحساس عميق جعلها تقول :

« لا أظن أنى سأبقى الإنسانة الوحيدة بين هؤلاء جميعاً، التى لا تبتهل من أجل رامونا .. سوف أشترك فى الصلاة أيضا .. ولكن صلاتى لن تكون لصورة » .

ثم ركعت العمة رى . ولما دست إحدى المتديات الراكعات بجوارها مسبحة فى يدها ، لم ترفضها ، وإنما أخفتها بين طيات ثوبها حتى انتهت الصلاة .. وكانت لحظة ... وكان درسا .. لم تنسهما العمة مدى الحياة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٢٦)

كان بيت الزعيم يواجه الشرفة . فعندما أسفر الصباح وتدفق الضوء على الباب المفتوح ، فتحت رامونا عينيها ، وكان فيليب والعمة رى بجانبها ، ومن ثم أخذت تحملق فيهما بنظرات ملؤها الفزع.

وقالت العمة رى بهدوء وهى تضع أصابعها على أجفان رامونا وتغلقها :

— عليك الآن أن تغمضى عينيك وتنامى مرة أخرى ياحبيبتى . إننا هنا ، فيليب وأنا ، وسوف نبقى ، فلا داعى للخوف . . هلم نامى ياحبيبتى .

واختلجت الأجفان تحت أصابع العمة رى ، وشقت الدموع طريقها وانحدرت على الوجنتين ، وارتعدت الشفتان ، وحاول الصوت أن يخرج فى كلمات ، ولكنه لم يتعد الهمس الخفيف وهى تسأل :

— فيليب ! ؟

www.ibtesama.com

فهمس فيليب قائلا :

ـــ نعم ياعزيزتى . . إننى هنا . نامى الآن . . إننا لن نتركك .

ومرة أخرى استغرقت رامونا فى النوم الذى كان فيه النجاة لحياتها .

وقالت العمة رى وهى تتنهد بعمق :

ـــ كلما طال نومها ، كان هذا فى صالحها . وأعتقد أنى لم أكن أتوقع أن تشفى . أما الآن ، فسوف تعود إلى الحياة مرة أخرى .

ولكن العمة رى لم تكن تعرف أى قوى من المقاومة كانت تجتمع فى أعماق نفس رامونا خلال هذه الأعوام الأخيرة المريرة . لقد صنع من طبيعتها الرقيقة ذلك النسيج البطولى الذى صنعت منه نفوس الشهداء وكان هذا كله ، مع إيمانها العميق الثابت قد زودها بالقوة مثل أولئك القدامى الذين « امتحنوا بالسخرية القاسية ، وبالتشرد ، وبالظلم ، وبالعذاب ، وبالتجوال فى الصحراوات والجبال فى كهوف الأرض ومخابئها » .

ولما استيقظت للمرة الثانية ، كان وجهها هادئا يكاد يشرق بالابتسام وهى ترنو إلى فيليب وتهمس :

ـــ كيف عثرت على ياعزيزى فيليب !

وفهم فيليب حديثها من حركات شفتيها أكثر من سماع همسها ، ذلك أنها لم تكن قد استردت من القوة ما يكفى لأن تتحدث بصوت مسموع . ولما وضعوا طفلتها على صدرها ، ابتسمت مرة أخرى وحاولت أن تحتضنها ، لولا أنها كانت أضعف من أن تفعل هذا . ولكنها أشارت إلى عينى الطفلة وهمست قائلة وهى ترنو بلهفة إلى فيليب:

www.ibtesama.com

— اليساندرو !

واختلج وجهها بالألم وهى تنطق بهذه الكلمة وانسابت دموعها .

ولم يستطع فيليب أن يقول شيئا ، وإنما نظر فى يأس إلى العمة رى التى استجابت فورا وقالت :

— الآن ياحبيبتى . . لاتتحدثى . . إن الحديث يضرك . لقد جئت هنا مع فيليب بسرعة شديدة لكى نعيد إليك قوتك وصحتك ونخرجك من هذه المحنة .

وتوقفت العمة رى هنا وكأنما لا تجد فى جعبة كلماتها ما يصلح للتعبير عما تريد ولكنها استطردت تقول :

— أعتقد أنك فى حاجة إلى أسبوع لتستردى صحتك وتعودى معنا . . ولكن إذا أخذت فى الحديث فلا يعلم إلا الله متى تستردين كامل صحتك . ماعليك إلا أن تسكتى ياحبيبتى ، وسوف نقوم من أجلك بكل شىء .

وفى ضعف شديد أدارت رامونا نظراتها الشاكرة المتسائلة إلى وجه فيليب ، وتحركت شفتاها لتقول :

— معك ؟

فقال فيليب وهو يمسك بيدها :

— نعم ياعزيزتى . . معى إلى البيت . لقد كنت أبحث عنك طوال هذه المدة .

www.ibtesama.com

وطافت بالوجه الجميل نظرة قلق . . وأدرك فيليب معناها ، فما أكثر مارأى مثل هذه النظرة فى الأيام الخوالى . . لكنه خشى أن يصدمها إذا فاجأها بنبأ موت السنيورة . ولكن هذا لن يضرها كما يضرها الشعور الدائم بالقلق . ومن ثم قال هامسا :

ــ لقد أصبحت وحيداً فى الحياة ياعزيزتى رامونا . لم يعد لى الآن إلا أنت. أيتها الأخت لرعايتى ، أما أمى فقد ماتت منذ عام .

والتمعت العينان ، ولكنهما لم تلبثا أن امتلأتا بدموع العطف وهى تتنهد هامسة :

ــ ياعزيزى فيليب !

ولكن قلبها استراح واشتد . لقد كانت عبارة فيليب كالإلهام . . لقد بين لها أن هناك واجبا آخر . . عملا آخر . . وفاء جديدا فى انتظارها . إنها لن تعيش فقط من أجل ابنتها ، وإنما « لرعاية فيليب أيضا » . إن رامونا لن تموت . . وإن الشباب ، وقوة الأمومة ، وحب الأخت ، والواجب . . كل هذا فى جانب الحياة . . لقد انتصرت الحياة فى المعركة . . وبسرعة مذهلة . .

ولاح الأمر فى نظر سكان كاويلا البسطاء كأنه معجزة . وراحوا ينظرون إلى وجه العمة رى الملوح بعوامل الجو فيما يشبه الرهبة والخشوع . إنهم أنفسهم لم يكونوا يجهلون فائدة ذلك العشب الذى أدى إلى هذا الشفاء المعجز ، إلا أنهم حاولوا تجربته مرات عديدة مع رامونا بلا جدوى . إذن فلابد أن فى يد العمة رى قوة ساحرة ! ولهذا فقد كانوا يشكون فى قولها لهم ــ كلما ألحوا فى

www.ibtesama.com

سؤالها ـ أنها لم تستعمل إلا الماء الساخن « ونبات الرجل الهرم » ـ الاسم الذى أطلقته هى على نبات « الورمود » البرى ـ والذى ترك فى نفوسهم أثرا عميقا عن نتيجة العلاج به بعد أن شرحت لهم طريقة استعماله .

وانتشرت الأقوال عن فيليب بسرعة فى أرجاء المنطقة كلها ؛ ذلك أن وصول مكسيكى ثرى إلى قرية كاويلا ، ينفق الذهب كالماء ، ويستأجر الناس بركائبهم ليذهبوا فى الليل والنهار للحصول على أى شىء من أجل أخته المريضة ـ لم يكن بالحديث البسيط الذى يمر هكذا دون تعليقات كثيرة فى منطقة نائية كهذه . لقد سافر فى كل أرجاء كاليفورنيا بأربعة جياد للبحث عنها . . وهو ينتظر شفاءها ليعود بها إلى بيته فى الجنوب . . وبعد ذلك سوف يقبض على الرجل الذى قتل زوجها ويعمل على شنقه ! نعم . . لاشك فى هذا . وإذا كان القانون لن يعاقبه ، فلايزال هناك الرصاص . إن هذا السيد المكسيكى الثرى سيعمل على قتله بالرصاص إذا لم يجد حبل المشنقة الطريق إلى عنقه . وسمع جيم فارار هذه الأقوال وشعر بالخوف يعتصر نفسه المذنبة . إنه لم يكن يخشى الحبل المشنقة ، لأنه يعرف مشاعر القضاة والمحلفين فى سان دييجو تجاه جريمة من هذا النوع . أما الرصاص ، فهذا شىء آخر ، وإن هؤلاء المكسيكيين لايقلون تصميما عن الهنود فى الأخذ بالثأر .

إن مرور الوقت لايهزمهم ، وإن ذاكرتهم لاتعرف النسيان . وإن فارار ليامن اليوم الذى جعل أعصابه فيه تفلت منه فى هذه البقعة الجبلية الموحشة . وكم كان من الأفضل له لو أنه تمالك نفسه ، إن أحدا لايعرف الحقيقة إلا هو — هو وراموناً فقط — بل إن رامونا لم تكن تعرف الحقيقة المرة كاملة . كانت تعرف فقط أن اليساندرو لم يكن معه سكين ، وأنه لم يخرج لملاقاة فارار

www.ibtesama.com

فى حالة عداء . أما فيما عدا هذا فلم تكن تعرف شيئا . إن القاتل فقط هو الذى يعرف أن الحوار الذى ذكره للقاضى والمحلفين ليبرر جريمته ، كان مزيفا ، وأن الكلمات التى قيلت بدلا منه ، لم تزد على أربع ، قالها اليساندرو : « دعنى أشرح الأمر ياسيدى . . » وأنه ظل - بعد الطلقة الأولى التى نفذت إلى صدره والدماء التى كانت تختنق فى زوره - يتقدم رافعا يديه محاولا أن يقول المزيد ليشرح الموقف ، قبل أن يسقط جثة هامدة ، ورغم قسوة فارار ، ورغم إدراكه التام أن قتل هندى لن يضيره فى شىء ، فإنه ظل يرفض أن يسترد فى ذاكرته صوت اليساندرو للعذب ، ومنظر وجهه وهو يسقط على الأرض . لم يكن يحب أن يتذكر هذا حتى قبل أن يسمع عن وصول هذا المكسيكى الثرى ، أخى زوجة اليساندرو ، أما الآن ، فإنه يجد الذكريات أشد مرارة مما كانت لأن الخوف فيها امتزج بالندم . وكان هناك أكثر من هذا ، شىء آخر ، غفل عنه الجميع لدهشته البالغة أو على الأقل ، لم يذكره أحد رغم دلالته ، لأن إعادة المحاكمة ، إذا أعيدت مع التحقيق الدقيق ، فسوف تكون وبالا عليه .. ذلك الشىء هو أن اليساندرو المسكين الفاقد العقل كان قد ترك جواده الخاص فى مربط فارار عندما أخذ جواد فارار . فهل هـذا يدل على أنه كان ينوى السرقة ؟! إن العرق البارد يتصبب على جبين فارار كلما تذكر إمكان إبراز هذه الحقيقة ، مع ماهو معروف عن حالة اليساندرو العقلية ، إذا أعيدت محاكمته بتهمة القتل العمد . وقد كان بقدر قسوته جبانا . والمعروف أن هاتين الصفتين لا تفترقان أبدا فى الطبيعة البشرية . ومن ثم قرر فى النهاية بعد أيام قليلة من هذا العذاب والخوف أن يرحل عن المنطقة - إن لم يكن للأبد ، فلمدة بضع سنوات يكون هذا المكسيكى الثرى قد انزاح عن الطريق خلالها . ولم يضع

www.ibtesama.com

فارار وقتا فى تنفيذ قراره هذا . وحسنا فعل ، لأن فيليب ، بعد ثلاثة أيام فقط من اختفائه ، ذهب إلى مكتب القاضى ويلز ذات صباح ليقوم بالسؤال عن المحاكمة التمهيدية التى عقدت للتحقيق فى مقتل الهندى اليساندرو أسس بيد المدعو جيم فارار . ولما تناول القاضى الملفات وقرأ لفيليب مذكرته عن القضية ، استطرد قائلا :

ـ إذا كانت شهادة فارار صادقة ، فإن شهادة رامونا ، زوجة القتيل ، تكون كاذبة . وعلى كل حال ، فلن يكون لشهادتها أى وزن عند أى واحد من المحلفين .

ووثب فيليب واقفا وهتف قائلا :

ـ إن هذه التى تتحدث عنها ، هى أختى بالتبنى ، وأقسم لك بالله ياسيدى إنى إذا عثرت على هذا الرجل فسوف أقتله بالرصاص كأنه كلب مسعور ، وسوف أرى عندئذ هل سيحكم على المحلفون فى سان ديجو بالإعدام لأنى طهرت المنطقة من مثل هذا الوحش .

وكان فيليب مصرا على أن ينفذ تهديده ، ومن ثم فقد أحسن فارار صنعه عندما لاذ بالهرب .

ولما علمت العمة رى بأن فارار هرب من المنطقة ، دفعت نظارتها إلى أعلى وحملقت مفكرة فى وجه حامل الخبر الذى ، كان الشاب ميريل ، ثم قالت :

ـ هرب من المنطقة ؟ أفعل هذا ؟ حسنا .. ليهرب إلى أى مكان يريد ..

www.ibtesama.com

فإن هذا لن يجديه نفعاً . إننى أعرف إنكم أيها الناس المقيمون هنا لا تعتبرون قتل هندى جريمة ، ولكنى أقول لك ، وسوف تعرف قيمة قولى يوماً قبل أن تموت .. سوف تعرفه على نحو ما .. ولكن المهم أن تسمع ما أقول ولا تنساه .. إن هذا المجرم التعس ، هذا الفارار الذى هرب من هذه البلاد ليس إلا صعلوكاً حقيراً ، ولكن الله لن يرحمه .. وحسنا فعل بهربه من هنا. لأنى لا أومن أبداً بالشنق ، لأن الشنق معناه قتل اثنين بدلا من واحد . وأنا لا أحب أن أرى رجلا يشنق مهما تكن جريمته ، كما لا أحب أن أرى رجلا يصرع بالرصاص مهما حدث منه . وإن قلبي لشديد الغضب الآن ، وإنه لن يتردد فى قتل فارار بسرعة البرق لورآه يوماً ولهذا فإن من الخير رحيل فارار عن البلاد ، ولكنى أقول لك الآن إن فراره لن يجديه نفعاً .. إن هذا الهندى الذى قتله سوف يطارده ليلا ونهاراً حتى يموت ، وبعد الموت أيضا . وسوف يتمنى أن يموت قبل أن يحين أجله بمدة طويلة . وأعتقد أنه يتمنى الموت من الآن . لسوف يكون مثل رجل كنت أعرفه فى تنيسى ، ورغم أنى كنت يومذاك طفلة ، إلا أننى لم أنس ماحدث يومها . وكانت هذه المنطقة مشهورة بتربية الدجاج .. شرق تنيسى حيث نشأت .. وكان هناك بيتان ليس بينهما سور ، وهكذا كان دجاجهما ينطلق هنا وهناك . وحدث أن أخذ أحد الأطفال دجاجة من البيت الآخر ، ونشاجر أهل البيتين .. النساء أولا ، ثم الرجال .. وأخيراً تناول راؤول سكينه وشحذها وذبح بها كليبورن وقطعه إرباً . وقدم راؤول للمحاكمة ، ولكنه ظفر بحكم البراءة على نحو ما .. ولا أدرى كيف حدث هذا ، ولكن المهم أنهم أطلقوا سراحه ، وعاش بعد ذلك ، ولكنه عاش شقياً تعيساً لا يجد الراحة أو السلام فى حياته . وقد جاء إلينا ذات يوم وقال : « جاك » لأنهم كانوا يسمون

www.ibtesama.com

أبى هناك « جاك » أقول جاء وقال لأبى : « جاك إننى لا أستطيع الحياة هنا » فقال له أبى : « لماذا وقد برأتك المحكمة ؟ » فقال راؤول : « نعم . ولكن محكمة السماء لم تبرئنى .. وأنا أشعر دائما بوجود كايبورن معى .. ومهما يكن الطريق الذى أسير فيه ضيقا ، فإنى أشعر أنه بجانبى فيه طول اليوم .. وفى الليل معى ، و ينام بجانبى من ناحية وزوجتى من الناحية الأخرى، ولهذا لم أعد أحتمل أكثر من ذلك» . هذه هى نفس كلماته التى سمعتها منه رغم أنى كنت صغيرة ، ولكننى لم أنسها . وأخيراً ذهب إلى الغرب .. فى طريقه هنا إلى كاليفورنيا ، ولكنه لم يطق البقاء طويلا ، فعاد إلى تنيسى وكنت قد كبرت وأصبحت فتاة وقد سمعت أبى يقول له « ها .. هل تبعك كليبورن ؟ » فقال راؤول : « نعم تبعنى ، ولن أستطيع أن أتخلص منه فى هذه الدنيا ، إنه دائما بجوارى فى كل مكان . أترى .. إنه ضميره الذى يعذبه .. هذا هو كل شىء ، أو على الأقل هذا ما أراه .. رغم ما يقال من أن شبح كليبورن الذى طارده . وسيكون هذا هو نفس الحال مع ذلك التعس فارار . لسوف يعيش وهو يتمنى لو يشنق أو يقتل بالرصاص حتى يتخلص من عذابه » .

وكان الشاب ميريل ينصت باهتمام إلى حديث العمة رى الذى بلغ من أعماق نفسه درجة لم يصلها أى حديث آخر من قبل .. بلغ أعماقا بعيدة الغور عن السطح ، ذلك أنه كان لسكان الحدود فى الغرب طبائع فريدة من نوعها . إنها مزيج من التربية والمعتقدات منذ الصغر ، يضاف إليها شىء كثير من التجارب العتيقة التى هى طابع مثل هذه المناطق ، ولهذا كثيرا ما نجد تحت مظاهر أشد الطبائع عنفا وقسوة بقايا عالم من المعتقدات والمبادىء والمواعظ الدينية التى عرفها غلاما و يتذكرها رجلا . هذا العالم الكامن فى أعماق النفس يرتفع

www.ibtesama.com

إلى السطح عند الصدمات القوية أو الكوارث التى تعترض الرجل فى كفاحه العنيف من أجل البقاء . إن كلمات القداس ، والمناولة ، والصلاة والعبادة التى تعلمها ولم يفكر فيها منذ صباه ، تعود وترن فى أذنيه وتدفع به إلى حالة من الارتباك والاضطراب فى أحاديثه وفى مشاعره بسبب الصراع الذى يجرى بين المشاعر القديمة والجديدة فى نفسه . ومن هذه الزاوية نفذت كلمات العمة رى إلى أعماق نفس الشاب ميريل . إنه لم يكن قد ابتعد سنوات طويلة عن التعاليم الدينية الصارمة التى تلقاها فى بيئته الأولى بنيوانجلاند . ورغم أن الحياة البرية التى يحياها على الحدود قد جذبته وأغرقته ، كالدوامة ، إلا أن نشأته الدينية لا تزال كامنة فى قلبه . ومن ثم قال :

— هذا حق ياعمتى رى . . هذا حق ، لاأعتقد أن الرجل الذى يرتكب جريمة قتل يمكن أن يجد الراحة والسلام فى هذا العالم أو العالم الآخر دون أن يتوب ويندم . ولكن سرقة الجياد كما ترين مسألة أخرى ، وليس من الجريمة فى شىء أن يقتل أحد سارق الجياد ، مهما يختلف الرأى فى هذا . والجميع متفقون على هذا الرأى . وإن الشخص الذى يضبط متلبسا بسرقة جواد يجب أن يقتل . وهذا ما سيناله دائما من عقاب فى هذه البلاد .

وانتشرت على وجه العمة رى سمات اليأس الممزوج بالضيق ، وقالت :

— إننى لاأجد ماأقوله لك بعد الآن . . إنك تتحدث عن سرقة الجياد ، كما لو كان الجواد أفضل من الإنسان . وإذا صرفنا النظر عن هذا ، فقد كان ذلك المندى مجنونا . والجميع هنا يعرفون هذه الحقيقة . وكذلك فارار . وهل تعتقد أنه لو أراد سرقة الجواد ، أكان يترك جواده الخاص فى المربط وكأنما

www.ibtesama.com

يترك بطاقته ، كما تقولون ، ليقول إنه هو الذى فعل هذا . كما أنه ربط جواد فارلر أمام بيته ، ولم يحاول أن يخفيه عن الأنظار .

ورد ميريل قائلا :

— ترك جواده وراءه ، أفعل هذا ؟ لاشك أنه ترك جوادا هزيلا بائسا لايساوى عشرين دولارا ، أما جواد فارار فيساوى أكثر من مائتى دولار .

فقالت العمة رى بإصرار :

— إن هذا لا يقدم أو يؤخر فى الموضوع الذى تتحدث عنه ، إننى لم أتحدث عن قيمة هذا الجواد أو ذاك . ولكننى أقول إنه لم يحاول أن يخفى آثار سرقته إذا كان متعمد السرقة . لقد اعتدنا أن نسمع عن سارق الجياد فى تنيسى ، ولكننا لم نسمع عن واحد منهم يترك جواده وراءه ليدل عليه ، أو يربط الجواد المسروق أمام بيته بعد أن يسرقه . وأرى ألا نطيل الحديث فى هذا الموضوع ، لأننا لو فعلنا فسوف نتشاجر فى النهاية .

ولم يستطع ميريل بعد ذلك أن يستدرج العمة رى إلى مزيد من الحديث عن مقتل اليساندرو ، ولكن كان هناك موضوع آخر لاتمل من الحديث عنه بزلاقة وكان للموضوع عن طيبة وعطف أهالى قرية كاويلا ، لقد أذابت مودتهم وبساطتهم كل أثر باق فى نفسها ضد الهنود . ومن ثم قالت :

— إننى لن أسمح لأحد بعد اليوم أن يتحدث أمامى بكلمة ضدهم . . أبدا . . حتى آخر يوم من حياتى . إن حرمان هؤلاء المساكين أنفسهم من كل شىء لمساعدة رامونا فاق كل ما يمكن أن يحدث بين البيض . وقد عشت طويلا

www.ibtesama.com

ورأيت كثيرا ، وأرى أنهم يفعلون هذا فى غير انتظار لجزاء ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون أن لها أهلا فى أى مكان — حتى جئت أنا مع فيليب — وكانوا على استعداد لرعايتها حتى آخر يوم فى عمرها . إنهم يقولون إن المرضى منهم يكونون دائما تحت رعايتهم حتى لوضحوا فى سبيلهم بكل ما لديهم . . هكذا نشأوا . وأعتقد أن على الناس البيض أن يتلقوا منهم درسا فى هذا الموضوع ، وفى موضوعات أخرى كثيرة . أوه . . إننى لن أتحدث بعد اليوم ضد الهنود . . لاتنس هذا . ويبدو لى أن على الإنسان ألا يصدق شيئا إلا إذا رآه بنفسه . . لقد كنت مخطئة من قبل . . وليس من حقى أن أتحدث على هذا النحو ، ولكننى أتمنى لو أن العالم كله رأى مارأيت . . هذا هو كل شىء .

وكان يوما حزينا فى القرية عندما رحلت عنها رامونا وأصحابها . إذ بقدر ما سعد سكانها الطيبون لعثور رامونا على من يرعاها ويرعى طفلتها ، وبقدر شعورهم الودى العميق نحو فيليب والعمة رى ، واعترافهم بجميلهما ، بقدر ما أحسوا بعد رحيلهم بالفراغ الشديد . . لقد عادوا مرة أخرى إلى عزلتهم التامة عن العالم . بل لقد ازداد إحساسهم عمقا بهذه العزلة وبما هم عليه من فقر شديد . لقد كانت رامونا ، زوجة اليساندرو بمثابة أخت لهم ، واحدة منهم ، من حقها أن تشاركهم فى كل مالديهم فى الحياة وكل ما يمكن أن يقدموه لها . ولكن لم يكن لديهم إلا الحرمان والفاقة والبؤس . ومن ثم فقد أسعدهم أنها حلت بعيدا عن هذا كله ، ناجية من الموت ، ومن حياة هى أقسى من الموت .

وانهمرت الدموع من عينى رامونا وهى تودعهم ، وقد ظلت تعانق ، المرة بعد الأخرى ، الأم الشابة التى أرضعت ابنتها أياما عديدة ، حارمة — كما قيل

www.ibtesama.com

لها ـ ابنتها الأشد حاجة ، من لبنها ، حتى لا يزداد عذاب رامونا . وقد هتفت قائلة لها فى ساعة الوداع

ـ أختى .. لقد أعدت إلى ابنتى .. ولن أستطيع أبدا أن أفيك حقك من الشكر ، ولكننى سوف أبتهل من أجلك طول عمرى .

ولم تسأل فيليب عن مشروعاته ، وإنما وضعت نفسها ، كطفلة صغيرة ، بين يديه ، وكان ثمة قوة أعظم منها ترسم لها طريقها ، وما فيليب إلا أداتها ، وما كان هناك صوت آخر غير صوته يقودها إلى هذا الطريق . وإن البساطة والاستسلام اللذين طبعا حياتها اليومية وهى طفلة ، واللذين زوداها بالصبر والابتسام ـ الصبر على الشدائد ، والابتسام وهى تؤدى واجباتها اليومية ـ حفظا عليها قوة نفسها خلال المحن ، فعاشت هادئة ، وإن لم تكن باسمة خلال المحن الأخيرة التى طبعت حياتها ـ هاتان الصفتان ، لم تتخليا عنها حتى فى هذه اللحظات الأخيرة .

ورنت العمة رى إليها بقدر ما يمكن أن تحمله طبيعتها الساخرة الواقعية الجافة من إحساس قريب من الخشوع ، ثم قالت :

ـ يبدو لى أننى بدأت أقترب من الإيمان بالقديسين الآن ولا شك أنى سأفعل لو عشت طويلا بجانب هذه الفتاة ـ يبدو لى أنها أكثر من إنسانة ، وإنى انى حيرة من قدرتها على مواجهة المحن . قد يقول بعضهم إنها جامدة الشعور ، ولكننى أعتقد أنها أرهف شعورا من معظم الناس ، فهذا واضح ، ولا أستطيع أن أقول إن صلواتها أمام صور القديسين وابتهالاتها على حبات

المسيحة هما السبب فى قدرتها على هذا الاحتمال ، إذ أعتقد أن هناك شيئا أكبر من هذا . إننى لن أقول شيئا بعد اليوم ضد الصلاة أو ضد المنود . ويبدو أننى أحشر فى رأسى كميات ضخمة من الأفكار الجديدة فى هذه الأيام ، وأخشى أن أتحول إلى هندية قبل أن ينتهى هذا كله .

وكان وداع العمة رى أقسى لحظات الوداع كلها . لقد تعلقت راموتا بها كأنها أم . وقد شعرت فى بعض اللحظات أنها تفضل البقاء معها بدلا من العودة مع فيليب إلى البيت . ولكنها كانت تعود فتؤنب نفسها على مثل هذه الأفكار باعتبارها خيانة وجحودا لفيليب . وشعر فيليب بما كان يجرى فى رأسها ولم يعجب ، وإنما قال لنفسه : « ياللطفلة العزيزة ، لقد وجدت فى العمة رى حنان الأم الذى لم تشعر به فى حياتها .. » ومن ثم ظل متخلفا فى سان برناردينو الأسبوع بعد الآخر زعما أن راموتا لم تبلغ بعد من القوة ما يجعلها قادرة على احتمال رحلة العودة إلى البيت ، وكان الحافز الوحيد فى الواقع ، هو كراهيته لحرمانها من صحبة العمة رى وحنانها .

كانت العمة رى مشغولة بصنع سجادة أمشاج للزوجة الهندية التى تزوجها مدير وكالة رعاية الهنود ، وكانت قد نسجت بضع بوصات فقط عندما بلغها نبأ مصرع اليساندرو فى ذلك الصباح الرهيب ! وكانت تصنع السجادة بالشكل المحبوب لديها ، والذى كانت تسميه : « غرزة فى المليان ، وغرزة فى الفاضى » أى الشكل الذى يختلف عن مجرد خطوط متباينة الألوان .. وإنما الألوان فيه كانت تمتزج بعضها ببعض على أرضية ثابتة اللون . وكان تناسق الألوان مع ثباتها يثير فى نفسها الشعور بالبهجة ، وبالأفكار الفلسفية أيضا .

وكانت تقول فى ذلك الشأن :

- إنهم يسمونها «غرزة فى المليان ، وغرزة فى الفاضى» . ولكن الحقيقة أن الغرز فى المليان أكثر من الغرز فى الفاضى . ولا يمكن لأحد أن يحصى هذه وتلك ، وإنما الألوان تتشكل فى النهاية كأنها بفعل السحر وفى رأيى أن كثيرا من مظاهر الحياة تتكون على هذا النمط . إننا جميعا نعيش فى المليان وفى الفاضى ولا جدوى من محاولاتنا أن نعرف متى حدث هذا أو ذاك ، وإنما يكفى أن حياتنا تمتد هكذا بكل ما فيها من ألوان مختلفة ، وهى على هذا النحو أفضل مما نظن ، ونحن مهما حاولنا أن نعرف لون حياتنا فإننا نفاجأ فى النهاية بألوان جديدة لم تخطر ببالنا .. ولعلها فى الغالب أجمل مما كنا نتصور وهذا ما يحدث دائما كلما أقبل إلى بعضهم حاملين الأمشاج لأصنع لهم السجاد منها .. إنهم يتصورون ألوان هذه السجادة بعد أن يتم صنعها . ولكنهم لا يأتون و يتفرجون على كيفية الصنع ، ومن ثم يفاجأون بألوان وأشكال أخرى لم يكونوا يتوقعونها ، وقد تعلمت من هذا درسا .. ولذلك فإنى أجعل كل واحد منهم يكتب بخط يده الطول والعرض والألوان والخطوط التى يريدها حتى لا يزعم بعد ذلك أننى غيرت شيئا من الأمشاج التى جاءنى بها . ولما فرغت من صنع السجادة طوتها وحملتها بنفسها الى بيت مدير الوكالة . وكانت فى انتظار هذه الفرصة لكى تذهب إليه ، لأن عقلها كان مثقلا بأسئلة أرادت أن تحملها إليه . وقد اختارت لذهابها الوقت الذى عرفت أنها ستلقاه فيه بالبيت .

وهناك قالت له :

- أعتقد أنك تعرف لماذا تأخرت فى صنع هذه السجادة عن الموعد المحدد؟ لقد كنت فى جبل سان جا كنتو ، حيث لقى ذلك المندى مصرعه . وقد عدنا

www.ibtesama.com

بأرملته وابنتها . . أنا وأخوها . وسوف يعود بها إلى بيته لتعيش معه .. إنه رجل ميسور .

نعم .. لقد سمع مدير الوكالة بهذا . وكان يعجب من امتناع الأرملة عن الحضور إليه ، إذ كان يتوقع أن يسمع منها ما حدث .

— حسناً .. وقد لمحت لها بأنك ربما تستطيع أن تفعل من أجلها شيئاً إذا هي جاءت وأخبرتك بما حدث . ولكنها قالت إن هذا لا جدوى فيه ، لأن القاضي أكد لها أن شهادتها لن تغير من الأمر شيئاً مع المحلفين ، وهذا ما جئت لأسألك عنه .. هل هذا صحيح ؟ !

فقال مدير الوكالة :

— نعم . . هذا ما أخبرنا به المحامون هنا كنت أنوى استصدار أمر بالقبض على الرجل ، ولكنهم قالوا لى إن من الحماقة تقديمه إلى المحكمة ، لأن أحداً لن يصدق شهادة الأرملة .

فقالت له العمة بحرارة :

— إن لديك من السلطة ما يجعلك قادرا على عقاب أى رجل يبيع الخمر للهنود ، أليس كذلك ، لقد رأيت مساعدك يقبض — مع المأمور — على رجل من تجار الخمور فى الشهر الماضى ، وكان هذا بناء على أمرك . وقد قيل لى إنك لن ترحم أحداً يبيع الخمر للهنود .. أليس كذلك ؟

— نعم .. هذا صحيح . . إننى مصر على القضاء على تجارة بيع الخمر للهنود . . لأن أية محاولات تبذل لصالحهم لن تجدى ماداموا سكارى .. إن دفعهم إلى السكر خطيئة وعار . .

www.ibtesama.com

ـــ حسناً جداً . إنك على حق فى هذا ، ولكن ما دامت لك السلطة لتضع رجلا فى السجن بتهمة بيع الخمر للهنود ، ألا يكون لك مثل هذه السلطة لمعاقبة رجل يقتل هنديا ؟ إن الأمر يبدو لى عجيباً محيراً .

ـــ هذه هى المشكلة التى أعانيها فى مركزى هنا . والواقع أننى لا أملك الكفاية من السلطة على شئون هنودى ..

ـــ لماذا تسميهم هنودك ؟ !

واضطرم وجه مدير الوكالة . وكانت العمة رى رغم غرابة أطوارها ، منطقية فى حديثها . ومن ثم لم يسعه إلا أن يقول :

ـــ أعنى الهنود الذين هم فى رعايتى وتحت مسئوليتى . ولست أعنى أنهم تابعون لى أو ملك يدى .

فردت العمة رى قائلة :

ـ طبعاً .. طبعاً .. إنهم ليسوا ملكا لأحد ، لأنهم يكسبون أرزاقهم بأيديهم ، وإن كان ما يكسبونه شيئاً تافهاً . . لقد عشت بينهم أسبوعين ، وأقول لك إننى رأيت أشياء جديدة لا تخطر بالبال . ثم من هذا الطبيب الذى يقولون إنه طبيب الوكالة . . ماذا يفعل ؟

فأجاب المدير فوراً :

ـ ليعالج الهنود المرضى المنتسبين للوكالة .

ـ حسناً.. هذا ما سمعت . وهذا ماقلته أنت من قبل،وهذا ماجعل اليساندرو

www.ibtesama.com

ـ الهندي القتيل ـ يسجل اسمه فى الوكالة رغماً عنه ، لأنه كان رجلا قوى الإرادة ويحب أن يعنى بنفسه دون مساعدة أحد، ولكنه ظل يتشرد من مكان إلى آخر حتى لحقه الفقر . . وقد جاء يوماً ما يتوسل إلى هذا الطبيب ليرى ابنته الصغيرة، ولكن الطبيب رفض . وأكثر من هذا ضحك ساخراً من هذا الطلب. وعندئذ وضع الوالدان طفلتهما المريضة على جواد ليأتيا بها إلى هنا، ولكنها ماتت قبل أن يسير بها الجواد ميلا واحداً . . وهذا من أهم الأسباب التى أدت فى النهاية إلى جنونه . إن نوبات الجنون لم تعتره إلا بعد ذلك . ولا شك أن هذا الطبيب قد أخطأ كثيراً ، ولو كنت منك لما أبقيت عليه فى هذه الوكالة . ولكن لعلك لم تسمع بهذا الذى حدث، وقد قلت لراموناإننى أعتقد أنك لم تسمع بذلك، وإلا لما أبقيت عليه هنا .

— لا يا أيتها العمة رى . . لم يكن فى مقدورى أن أفعل هذا ، لأنه معين لعلاج الهنود الذين يأتون إلى عيادته فقط . .

فردت العمة رى قائلة :

— أعتقد إذن أنه لا فائدة تذكر من وجوده هنا . . لأنه لا يكاد يوجد هنا كما يبدو غير عدد قليل من الهنود ، ولا شك أنه ينال أجراً كبيراً ! !

وتوقفت عن الحديث فى انتظار الرد . . ولكنها لم تسمع شيئاً ، لأن مدير الوكالة رأى أنه ليس مضطراً لأن يذكر للعمة رى المرتب الذى تدفعه الحكومة لطبيب سان برناردينو الذى يعالج المرضى الهنود من عيادته كيفما يكون .

وبعد برهة صمت استأنفت العمة رى حديثها قائلة :

www.ibtesama.com

— إذا لم يكن فى هذا ما يغضبك ، فإنى أحب أن أعرف طبيعة مهمتك هنا من أجل الهنود. لقد تأثرت مشاعرى كل التأثر عندما أقمت بينهم ، وعندما علمت بمقتل ذلك الهندى الذى كنت أعرفه . أليست لديك السلطة لتعطيهم أى شىء — كالطعام مثلا ؟ إنهم فقراء جدا . . الغالبية الكبرى منهم .

فأجاب مدير الوكالة قائلا :

— لدى رصيد بسيط لشراء الطعام لهم فى حالات المجاعة . إنه رصيد ضئيل ، ولكن المصلحة الحكومية رصدت لهم مبالغ أخرى لشراء المركبات والمحاريث ، ولكن هذا المبلغ لا يكفى لجميع القرى الهندية . ومن هذا ترين أن الهنود يعتمدون على أنفسهم فى أغلب الأحيان . .

فقالت العمة رى بإلحاح :

— هذه هى الحقيقة التى أريد أن أصل إليها . ولهذا أردت أن أعرف لماذا عينتك الحكومة لرعايتهم ما دام الأمر كذلك . فإذا كنت لا تستطيع أن تطعمهم ، ولا أن تضع فى السجن الذين يسرقونهم أو يحتالون عليهم فضلا عن الذين يقتلونهم . . إذا كنت لا تستطيع أن ترعاهم بأكثر من منع بيع الويسكى لهم ، فإن من حقى أن أقول . .

ثم توقفت برهة لأنها لم تشأ أن تعلق على عدم فائدة وجوده ، ومن ثم اختتمت حديثها بعبارة لم تكن فى نيتها أن تقولها فى أول الأمر :

— من حقى أن أقول إننى لا أحب أن أكون فى موضعك .

فضحك مدير الوكالة راضيا ثم قال :

www.ibtesama.com

— من حقك أن تقولى لى هذا أيتها العمة رى . . فإن العمل فى هذه الوكالة من أشد الأعمال تعبا وأقلها فائدة .

فردت العمة رى قائلة وقد بدت الحيرة الحقيقية على وجهها :

— أعتقد أنه حقا من أقلها فائدة ، ولكننى لا أرى أنه متعب ، إذا كان كل عملك هو ما قلت لى الآن .

وقال مدير الوكالة فى انتصار وهو يشير إلى كومة من الكتب والأوراق :

— انظرى أيتها العمة رى . . إن على أن أطلع على كل هذه السجلات ، وأن أكتب تقريراً كل شهر ، وأن أسجل ثمن كل قلم رصاص أشتريه . أؤكد لك أننى أجهد نفسى فى هذا العمل كما لم أفعل من قبل فى أى عمل ، وبأجر أقل .

فقالت العمة رى بتهكم ممزوج بالمرح :

— إذن فقد كنت من قبل بلا عمل تقريباً مادام هذا العمل البسيط يجهدك .

ثم انصرفت دون أن تعرف شيئاً عن طبيعة المهمة الحقيقية التى من أجلها أنشئت هذه الوكالة لرعاية الهنود .

وخيل إلى رامونا ، طيلة رحلتها إلى البيت ، كأنها فى حلم : طفلتها بين ذراعيها ، والجوادان الوفيان ، «بابا» و بنيتو ينطلقان فى ابتهاج ، و بسرعة جعلت المركبة تبدو كأنها تنساب انسيابا .. و بجوارها فيليب العزيز ، فى عينيه تلك النظرة القديمة المفعمة بالحب . ! ترى أى شىء عجيب حدث جعلها تشعر كأن هذا كله ليس من الواقع فى شىء ؟ حتى طفلتها الصغيرة بين ذراعيها ؟ . لقد بدت لها هى أيضاً لا تمت إلى الواقع بسبب ! إن رامونا لا تعرف إلا أن أعصابها لا تزال

مخدرة إلى حد ما ؛ ذلك أن الطبيعة ترسل الخدر الرحيم فى الأعصاب عند الصدمات التى توشك أن تقتلنا . وفى بعض الأحيان تحمل الضربة القاصمة معها بوادر العلاج . ولسوف يمر وقت طويل قبل أن تدرك رامونا تماما أن اليساندرو مات . ولهذا فإن عذابها لم يكن قد حل بها بعد .

ولم يكن فيليب يعرف هذا أو يفهمه . ومن ثم شعر بالابتهاج وهو يرى رامونا تبدو يوماً بعد يوم هادئة ، على استعداد دائم لأن تبتسم كلما تحدث إليها. وكان كل اعتراف منها بالجميل ، لكل بادرة رعاية تبدر منه ، ينفذ إلى قلبه كأنه عتاب ، لا سيما كلما تذكر أن قلبها الرقيق لم ينطو يوما على عتاب له . ومن ثم قال لنفسه :

« إنها شاكرة لى .. لى أنا الذى كان يمكننى أن أجنبها كل هذه المحن لو أنى كنت قويا ؟ »

إن فيليب لن يغفر لنفسه أبدا . لا ولا حتى آخر يوم من عمره ، وإن حياته كلها ينبغى أن يكرسها لرامونا ولطفلتها ، ولكن .. ما أقل ماسوف يقدمه !

وفيما كانوا يقتربون من البيت ، رأى رامونا وهى تحاول فى أوقات كثيرة أن تخفى عنه دموعها ، وأخيرا قال لها :

- ياعزيزتى رامونا ، لاتخشى من البكاء أمامى إننى لا أريد أن أكون عبئاً على أعصابك . وإنه لمن الخير لك ياأختاه أن تدعى دموعك تنهمر بحريتها لأنها البلسم للجراح .

www.ibtesama.com

فأجابت رامونا قائلة :

— إننى لا أدرى هذا يافيليب . إن الدموع ليست إلا دليل الضعف والأنانية ، إنها كالصيحة التى تنم عن الألم . وليس من الممكن دائما أن يكتمها الإنسان . إلا أننى أشعر بالخجل من بكائى ، وأرى أيضاً أننى ارتكبت ذنباً لأنى أبديت للغير جانبى الحزين . لقد كان الأب سالفيرديرا يقول دائماً إن من واجبنا أن نبدو سعداء أيا كانت الآلام التى قد نعانى منها .

— إن هذا فوق طاقة أى مخلوق آدمى .

— لا أظن هذا ، ولو كان الأمر كما تقول ، لما طالب به الأب سالفيرديرا . أولا تذكر يافيليب أى ابتسام دائم كان يشرق به وجهه ؟ وذلك رغم أن قلبه كان مفطوراً سنوات وسنوات قبل موته . لقد اعتاد وهو يصلى وحده فى سكون الليل أن يبكى بسبب المحنة الهائلة التى يعانيها أمام الله كما قال لى . ولكننا لم نره أبداً إلا باسما ، وعندما يطلق الإنسان لأفكاره العنان ، وهو وحيد فى البرارى ، فإنه يرى الأشياء أكثر صفاء يافيليب . لقد كنت أتعلم خلال كل هذه السنوات فى البرارى وكأن بجانبى معلما حكيما . وكان يخيل إلى فى أحيان كثيرة أن روح الأب سالفيرديرا هى التى بجانبى لتوحى إلى ذهنى بالأفكار ، وإنى لأرجو أن أنقل هذه الأفكار إلى ابنتى عندما تكبر . ولاشك أنها ستستوعبها بأسرع مما فعلت ، لأن فى أعماقها روح اليساندرو ، وإن فى مقدورك أن ترى هذا فى عينيها . وإن كل هذه الأشياء التى أتحدث عنها كانت فى قلبه منذ طفولته . إنها مستمدة من الهواء والسماء والشمس ، وكل الأشجار تعرفها .

وكان فيليب يلتزم الصمت عندما تتحدث رامونا عن اليساندرو على هذا النحو ، إذ كان هو نفسه يخشى أن يذكر اسم اليساندرو ، أما هى فكانت

www.ibtesama.com

تتحدث عنه وكأنه لايزال بجانبها . ولم يستطع فيليب أن يفهم هذا . وكانت هناك أشياء كثيرة أخرى لن يستطيع أن يفهمها عن هذه الأخت الجميلة، الحزينة ، الباسمة .

ولما وصلوا إلى البيت ، كان الخدم ، الذين ظلوا فى الانتظار أياما، مجتمعين بالفناء ، وفى مقدمتهم ماردا العجوز ، وجوان كانيتو . ولم يكن غائباً منهم غير اثنين فقط : مارجريتا ولويجو . وكانا قد تزوجا قبل ذلك ببضعة أشهر ، ومضيا للحياة فى مزرعة أورتينا ، حيث كان لويجو ، لدهشة جوان المرزوجة بالازدراء ، قد عين رئيسا للرعاة .

وارتسمت على جميع الوجوه الابتسامات ، وندت عن الشفاه صيحات البهجة والترحيب . ولكن هذه القلوب المحبة كانت فى نفس الوقت ترتعد خوفا من أن تكون هذه العودة ذات طابع حزين . ذلك أنهم لم يكونوا يعرفون إلا القليل الغامض عما عانته السنيوريتا العزيزة منذ رحيلها عنهم . لقد بدا لهم أنها لابد قد تغيرت إلى حد كبير بسبب ماحل بها من أحزان ، وأنه ليس من السهل عليها أن تعود هكذا إلى المكان الذى يثير فى نفسها ذكريات أليمة . وقال أحد عمال المزرعة وهم واقفون يتبادلون الحديث :

— وقد ماتت السنيورة أيضا . وهذا يعنى أن المكان لم يعد كما كان عندما رحلت عنه السنيوريتا .

وقال جوان كانيتو بمزيد من الترفع والتعالى ، لأنه كان فى العام الأخير المشرف الوحيد على البيت والمزرعة :

www.ibtesama.com

ـــ هه .. هه ! أهذا كل ماتعرفه ؟ لقد أحسنت السنيورة بانتقالها إلى العالم الآخر ، أؤكد لك ، وإلا لما أمكننا أن نرى السنيوريتا هنا مرة أخرى . هذا ماأقوله لك ياولدى ، ومن ناحيتى ، فإنى أفضل جدا أن أكون تحت رئاسة السنيور فيليب والسنيوريتا من أن أكون مرءوسا للسنيورة رحمها الله . لقد عاشت حياتها ، ومن حق هذين أن يعيشا حياتهما أيضا .

ولما رأى هؤلاء التابعون المهتاجون الأوفياء رامونا مقبلة نحوهم وطفلتها بين ذراعيها ، ووجهها شاحب ، ولكن الابتسامة تعلوه ، انطلقوا هاتفين مرحبين والدموع تملأ عيونهم .

ولمحت رامونا العجوز ماردا بين المجتمعين ، فقالت لها بصوتها الحانى العذب القديم وهى تقدم إليها طفلتها :

ـــ إنى واثقة بأنك ستحبين طفلتى ياماردا .

وهتف الجميع :

ـــ سنيوريتا .. سنيوريتا .. ليباركك الله .

ثم تحلقوا حول الطفلة يلمسونها ويمتدحونها ويتبادلون حملها .

ووقفت رامونا برهة وجيزة ترقبهم ، ثم قالت وهى تمضى إلى الباب الداخلى :

ـــ هاتها يا ماردا .. سوف أحملها بنفسى إلى داخل البيت .

وهتف فيليب قائلا :

ـــ من هنا ياعزيزتى .. من هنا .. لقد أعددت لك غرفة الأب سالفيردير ، لأنها مشمسة ومناسبة للطفلة .

وصاحت رامونا قائلة وعيناها تحملان من المعانى أكثر مما فى الكلمات :

ـ شكرا ياعزيزى العطوف فيليب .

وكانت تعرف أنه يدرك الشيء الوحيد الرهيب الذى ظلت تخشاه طوال العودة إلى البيت . . وهو اجتيازها مرة أخرى عتبة غرفتها . . إن هذه الغرفة سوف تبقى مدة طويلة قبل أن تجرؤ راموناعلى دخولها . ولعلها لن تدخلها قط . . فما أرق فيليب وأحكمه .

نعم .. لقد كان فيليب عندئذ رقيقا وحكيما . . ولكن إلى متى ستظل حكمته قابضة على زمام رقته والأيام تنصرم تباعا ، وهو يرى أمامه هذه السيدة الجميلة ، التى غدت أبهى جمالا مما كانت وهى فتاة قبل الزواج . بل إن فيليب كان يرى أحيانا ، وهو يرنو إليها ، أن ملامحها نفسها تغيرت إلى أجمل . إلا أنه كان يكمن فى هذا التغيير قوة سحرية ظلت ـ مدة طويلة ـ تحيط بها ، وتبعدها عن أفكار وخواطر الحب ، وكأنها محصنة بحراس أقوياء من الأرواح ؛ إذ كانت على وجهها مسحة روحية قدسية لم يكن يغفل عن الشعور بها أقل الناس إدراكا وأضعفهم بصيرة . بل إنها كانت فى بعض الأحيان تثير فى النفس الرهبة والخشوع . إنها نفس المسحة التى أثرت فى نفسية العمة رى وأثارت فى أعماقها ذلك الإحساس بالرهبة والخشوع . وقد أحسنت العجوز ماردا التعبير عنهاعندما أجابت ذات يوم على جوان كانيتو حين همس قائلا فى رهبة :

ـ كم كان من الأفضل لو أن السنوريتا تزوجت السنيور فيليب منذ أعوام بعيدة . وماذا لو أنه تزوجها الآن ؟

www.ibtesama.com

إذ أجابت هي أيضا بنفس الصوت الهامس :

ـ إن هذا بمثابة التفكير في زواجه من القديسة كاترين نفسها .. ولكن لو أمكن هذا لكان أمرا عظيما ..

وتحقق الآن الأمل الذي طالما راود السنيورة ـ وهو وجود طفلة صغيرة في بيتها في الشرفة .. وفي الحديقة .. وفي كل مكان . طفلة باسمة ، سعيدة ، تملأ بوجودها المكان بهاء . ولكن الأمل تحقق على نحو مختلف جدا .. إنها ليست ابنة فيليب كما كانت تتخيل بزهو وفخر .. وإنما هي ابنة رامونا .. رامونا الوحيدة ، رامونا الطريدة .. لقد عادت الآن بكل جلال وسلام لتكون ربة البيت . إنها رامونا أرملة المندى اليساندرو . ولو أن الطفلة كانت ابنة فيليب ، لما شعر نحوها بحب أقوى . لقد تعلقت الطفلة به منذ اللحظة الأولى كما لو كان أبا حقيقيا لها . وكانت تنام بين ذراعيه ساعات وإحدى يديها الصغيرتين مدفونة في لحيته الصغيرة بالقرب من فمه ، وكان يقبلها المرة بعد الأخرى حين لا يكون هناك من يراه . وكانت الطفلة تحتل من قلبه المكانة التالية مباشرة بعد رامونا . إلا أنه كان يسكب عليها من الحب والحنان ما لم يكن يجرؤ أن يسكبه على رامونا . وأخذ فيليب شهرا بعد شهر يزداد تأكيدا بأن النبع الذي تستمد منه رامونا حياتها ليس نبعا أرضيا ؛ إذ كانت تعيش دائما وكأنها في رفقة أطياف غير منظورة . ولم يكن يخدعه هدوؤها وهي تذكر اليساندور دائما ، لأن هذا لم يكن معناه أن حزنها عليه خف ، وإنما معناه أن علاقتها به لم تتغير .

إلا أن شيئا واحدا كان يجثم بقوة على ذهن فيليب — ألا وهو الكنز المخبوء . وكان الشعور بالمهانة هو الذي منعه من الحديث عنه يوما بعد يوم .

www.ibtesama.com

إلا أنه كان يشعر بأنه لن يعرف معنى السكينة النفسية إلا إذا عرفت رامونا بأمره . وكانت كل ساعة تمر دون أن يكشف أمره ، تجعله يشعر بأنه مذنب فى حق رامونا ، تماماً كما كانت أمه فى رأيه . وأخيراً تحدث . إلا أنه ما كاد ينطق بكلمات قليلة حتى قاطعته رامونا قائلة :

— نعم .. نعم .. إننى أعرف هذا الموضوع ، لقد حدثتنى به والدتك فى أثناء الأزمة . ولشد ما تمنيت فى بعض الأحيان لو كان لدى القليل من هذه الجواهر ، ولكنها تحولت كلها إلى الكنيسة .. هذا ما أرادت السنيورة أورتينا أن يحدث إذا أنا تزوجت بدون موافقة والدتك .

وأجاب فيليب فى صوت مفعم بالخجل :

— يا عزيزتى رامونا ، ، إن الجواهر لم تحول إلى الكنيسة ، وأنت تعرفين أن الأب سالفيرديرا مات ، وأعتقد أن والدتى لم تدر ماذا تفعل بها ، إنها لم تحدثنى بشأنها إلا عند وفاتها .

فسألته رامونا قائلة ببساطة :

— ولماذا لم تحولها إلى الكنيسة يا عزيزى .

فصاح فيليب قائلا :

— عجباً ! لأنى قلت لهم إن هذه الجواهر هى ملكك ، ملكك أنت وحدك ، وما كنت لأحولها إلى الكنيسة إلا إذا ثبت لى بالدليل القاطع أنك مت بلا ذرية .

وكانت نظرات رامونا مركزة فى لهفة على وجه فيليب وهى تقول :

www.ibtesama.com

إنك لم تقرأ رسالة السنيورة أورتينا إذن ؟

— بل قرأتها.. كل كلمة فيها .

— ولكن الرسالة تقول إننى أفقد حقى فى الجواهر إذا تزوجت بدون موافقة السنيورة مورينو .

وتأوه فيليب ، ترى هل كذبت والدته عليها ، وقال :

— لا يا عزيزتى .. إن المقصود هو أنك إذا تزوجت من شخص غير كفء لك .

وفكرت رامونا برهة ثم قالت :

— إننى لا أتذكر الكلمات . لأنى كنت فى حالة خوف شديد . ولكننى ظننت أنها تعنى هذا . وأنا لم أتزوج من شخص غير كفء . فهل أنت واثق يا فيليب أن من حقى أن أحصل على هذه الجواهر لابنتى .

— كل الثقة .

— هل تعتقد أن الأب سالفيرديرا كان سيرى أن من حقى الحصول عليها ؟

— إننى واثق من هذا يا عزيزتى .

— لسوف أفكر فى الأمر يافيليب . إننى لن أتسرع فى اتخاذ قرار . لقد كانت والدتك ترى أنه لاحق لى فيها إذا تزوجت اليساندرو . وهذا ما دعاها لأن تطالعنى عليها ، مع أنى لم أكن أعرف عنها شيئا إلا حينذاك . وقد

www.ibtesama.com

أخذت من الصندوق شيئا واحدا ـ منديل أبى . ولشد ما كنت سعيدة به ، ولكننى فقدته أثناء رحيلنا من سان باسكويل وقد عاد اليساندرو أدراجه مسافة نصف يوم ليعيده إلى ، ولكنه كان قد ضاع . ولشد ما كان حزنى عليه .

وفى اليوم التالى قالت رامونا لفيليب :

ـــ ياعزيزى فيليب ! لقد فكرت طويلا فى شأن هذه الجواهر . وأعتقد أنه سيكون من حق ابنتى أن تحصل عليها . هل هناك نوع من الإقرارات يمكن أن أكتبه وأوقعه لكى تحول هذه الجواهر كلها إلى الكنيسة فى حالة وفاة ابنتى ! إلى كنيسة الأب سالفيرديرا فى سانتا باربارا . إنها الكنيسة التى أفضل أن تحول الجواهر إليها .

فقال فيليب :

ـــ حسنا ياعزيزتى . والآن يجب أن نودعها فى مكان آمن . لسوف أحملها إلى لوس أنجليس حين أذهب إليها . وإنه لمن المدهش أن تنجو هذه الجواهر من السرقة كل هذه السنوات .

وهكذا للمرة الثانية ، تحولت جواهر أورتينا ، بإقرار مكتوب ، إلى خزانة هذا الشىء الغامض المؤكد وغير المؤكد ، ألا وهو مانسميه المستقبل ، ونخدع نوهم أنفسنا بالخيال فى قدرتنا على رسمه وتخطيطه .

* * *

وسارت الحياة هادئة فى بيت مورينو ـــ هادئة سطحيا . ولم يكن هناك

www.ibtesama.com

فى نظر الرائى ،اهو أجمل وأهدأ من الحياة اليومية فى ذلك البيت ، بمباهجها البسيطة وأعمالها الخفيفة ، وسهولة العيش ويسره . وكان الصيف ، مثل الشتاء ، مشرقا عذبا ، لكل منهما مباهجه ومسراته ، ولم يكن يشوب هذه الحياة الحلوة شىء من العداء أو البغض . أما الطفلة الصغيرة ... رامونا الصغيرة التى أوت فى سعادة ومرح إلى هذا الملاذ الظليل ، فكانت تمرق ذهابا وجيئة من شرفة إلى شرفة . ومن حديقة الى أخرى ، ومن غرفة الى غرفة ، تتلقفها الحفاوة فى كل مكان ، ومن كل إنسان وهى تجرى وتنساب وتمرق وتلعب وتضحك فى بشر وابتهاج ، غير شاعرة بما قد ينطوى عليه المصير من أحداث وآلام تماما ، كالزهور التى تسعد بالاعب بها ، وكانت تبدو أحيانا فى نظر أمها أنها ، منذ ولادتها ، وبطريقة غامضة ، قد انفصلت عن آلام الحياة ، وحررت من كل ما يمكن أن يشدها إلى الأحزان .

ولم يكن ثمة شىء فى رامونا نفسها ينم عن الحزن . بل لقد ازداد وجهها الجميل إشراقا . وذلك رغم أنه جاءت فترة من الوقت ، بعد عودتها مباشرة ، استيقظت فيها على صوت الحقيقة المرة .. حقيقة آلامها وحرمانها ، وغدت ترى وتسمع كل شىء يصيح بها ، و يسخر منها ، ويذكرها باليساندرو ، ولكنها ظلت تقاوم وتصارع هذا الحزن المرير وكأنه خطيئة تريد الخلاص منها ، مركزة كل قوة فى إرادتها باطراد للقيام بواجباتها اليومية ، وأهمها واجبات الإحساس ببهجة الحياة . وكانت تكرر لنفسها أقوال الأب سالفيرديرا حتى أصبحت تحفظها عن ظهر قلب . كما كانت تمضى ساعات طويلة فى الصلاة والابتهال كما كان يفعل فى حياته .

ولم يكن هناك أحد غير فيليب يعرف شيئا عما يدور بنفسها من صراع

www.ibtesama.com

ومقاومة . لقد عرف هذا كله ، وعرف أيضا متى توقف هذا الصراع ، ومتى امتزج الضوء الجديد بالنصر الجديد على وجه رامونا . إلا أن صراعها النفسى لم يشعره باليأس ، لا ولا انتصارها على الحزن أفعم قلبه بالأمل . لقد أصبح فيليب الآن حبيباً بعيد النظر عما كان فى صدر صباه . ومن ثم كان يعلم أنه ليس له مكان فى العالم الذى تعيش فيه رامونا ، وذلك رغم أن كل حركة ، وكل كلمة وكل نظرة كانت تنم عن سعادتها برعايته ، وعن هنائها بصحبته . . وكان فيليب يشعر بأنه غير بائس بقلقه ما دامت الحياة مستمرة على هذا النحو .

وكانت هناك دوافع أخرى تزيد من شعوره بالقلق الناتج من شوقه الشديد إلى الظفر برامونا زوجة له . فقد كانت أحوال الحياة فى كاليفورنيا تزيده نفوراً منها عاماً بعـــد عام ، إذ كانت الوسائل والغايات والمبادىء التى يحملها الأمريكيون الوافدون لا تتفق مع طبيعته ـ وكان تفاخرهم بالنصر وتزاحمهم فى الاستعمار ، ومشروعاتهم للإقامة والنمـو توتر أعصابه وتثير استياءه . وكان تكالبهم على المال ، وتهورهم فى إنفاقه ، والثروات التى تجمع فى ساعة ، وتضيع فى أخرى تجعل فيليب يرى أنهم أقرب إلى جماعة من الأفاقين المقامرين منهم إلى سادة مهذبين ، ومن ثم كان يحتقرهم ، ويرى أن الحياة فى ظل الحكم الجديد لا تطاق ، لأن طبائعه الموروثة ومبادئه ومزاجه كانت كلها تنفر منها . وهكذا راح يشعر يوماً بعد يوم بعزلته فى تلك المنطقة ، حتى اللغة الإسبانية بدأ الحديث بها يقل تدريجياً ، ومن ثم أخذ الشوق يستبد به للحياة فى المكسيك ـــ هذه البلاد التى لم يرها قط ، ومع ذلك كان يهفو إليها كما يهفو المنفى إلى وطنه ، فهناك قد لا يزال يتاح له العيش بين قوم من جنسه ، ومن مكانته، يشتركون معه فى مبادئه وأهدافه .وكان كلما فكر فى هذا

www.ibtesama.com

تذكر رامونا ترى هل تقبل أن ترحل معه ، هل يمكن أن يكون ثمة شيء يربطها بهذه البلاد التي لم تعرف فيها غير العذاب !

وأخيراً سألها .. وأجابت رامونا لدهشته البالغة ، قائلة :

ــ فيليب ، ليباركك القديسون ، إنني ما كنت لأجرؤ على مصارحتك . وما كنت أظن أنك ترضى بالرحيل عن هذه المزرعة ، ولكن أجمل أحلامي عن رامونا الصغيرة كانت تدور حول نشأتها في بلاد المكسيك .

وفي أثناء حديثها أدرك فيليب ، بما يشبه الإلهام، وبالدهشة لأنه لم يفكر في هذا من قبل ، إنها كانت تتمنى أن تجنب ابنتها المحن التي استطاعت هي أن تخوضها بشجاعة ، والتي نشأت عن التمييز العنصري .

وتم الاتفاق، وبدأ فيليب بإحساس من السعادة لم يكن يتوقعه ، في الاتصال ببعض الأغنياء الأمريكيين من ملاك الأراضي الذين كانوا يريدون شراء مزرعة موريتو ، وكانت أسعار الأراضي في الوادي قد ارتفعت إلى حد أنه باع المزرعة بثمن لم يكن يحلم به . وهكذا كان الثمن أكثر مما تخيله لتحقيق كل مشروعاته في حياته الجديدة بالمكسيك. ولما تم كل شيء وتحددت ساعة الإبحار إلى الوطن الجديد ، طافت بوجه رامونا أمارات جديدة . لقد توهج خيالها ، ولاح لها في الأفق مستقبل سعيد.. مستقبل يمكنها أن تحيط به وتعززه من أجل ابنتها . ورأى فيليب هذه الأمارات ، وشعر بما يدور في نفسها ، وانبثق الأمل في قلبه للمرة الأولى ، لسوف يعيش معها في عالم جديد، وفي حياة جديدة ، فلماذا لا يكون هناك حب جديد. إنها لن تستطيع أن تبقى دائماً في غفلة عن تفانيه في حبه لها.

www.ibtesama.com

وعندما ترى هذا ، فهل ترفض أن تجاز يه ؟ وقرر أن يتذرع بالصبر ، وأن يلوذ بالانتظار الطويل ، وإذا كان قد تذرع بالصبر كل هذه المدة الطويلة بلا أمل ، فهل يعجز عن الصبر الآن وقد بزغ فى قلبه الأمل ، إلا أن الصبر ليس بمثابة الأمل فى قلوب العشاق . فمنذ اليوم الذى قال فيه لنفسه لأول مرة « لسوف تكون زوجتى » أصبح من العسير عليه أن يستمر فى منع نفسه من الإفضاء بحبه لها . وكذلك أصبح عطفها الأخوى الرقيق ، الذى طالما هدأ نفسه وأسعدها ، لا يطاق فى بعض الأحيان ، وكانت تصرفاته هذه الغامضة عليها تجعلها تشعر — بطبيعتها الرقيقة — بالاضطراب خوفا من أن تكون هى السبب على نحو ما .

وكان قد قرر فى ذات نفسه ألا يجعل أى شىء يغريه بمفاتحتها بحبه وأحلامه إلا بعد وصولهما إلى الوطن الجديد ، إلا أنه جاءت عليه لحظة عجز فيها عن المقاومة فتحدث .

وكان ذلك فى مونتيرى ، وكان المقرر أن يبحرا فى اليوم التالى ، وكان قد صعد إلى السفينة ليقوم بآخر الترتيبات . ثم بدأ فى العودة إلى الشاطىء فى زورق صغير . وكان القمر بدرا ، وراموناجالسة عارية الرأس ، فى نهاية الزورق ، وانعكاس المياه الفضية تحيط بها وتتراقص حولها كأنها حشد من الهالات المضيئة . وظل فيليب يحملق فيها حتى دار رأسه . ولما أخذت تهبط من الزورق إلى الشاطىء ، مدت يدها إلى يده وقالت له كما سبق أن قالت مئات المرات :

— يا عزيزى فيليب ، ما أطيب قلبك ؟

وهنا أمسك بيديها فى قوة وهتف قائلا :

— رامونا يا حبيبتى . . ألا تستطيعين أن تحبينى ؟

www.ibtesama.com

وكان نور القمر ساطعاً كضوء النهار . وكانا على الشاطىء بمفردهما . وقد رنت إليه رامونا فى دهشة ، برهة . . برهة واحدة ثم أدركت كل شىء ، إلا أنها هتفت قائلة وهى تمد يديها كأنما تحذره :

— فيليب . أخى ! ؟

فصاح قائلا :

— لا . . لست أخاك . . ولن أكون . . إننى أفضل الموت على هذا ! .

وهتفت رامونا مرة أخرى :

— فيليب !

وأعاد صوتها فى هذه المرة صوابه ، إذ كان صوتا مفعما بالفزع والألم .

وقال هو :

— سامحينى ياعزيزتى ! ان أقول هذا مرة أخرى أبدا . . ولكن لشدما طال حبى لك ! ! .

وأطرقت رامونا برأسها ، وركزت عينيها على الرمال اللامعة ، وأخذت الأمواج عند قدميها تعلو وتهبط ، وتعلو وتهبط كالآهات .. وفى تلك اللحظة ، انكشفت لرامونا أشياء كثيرة . لقد رأت فى لحظة انطلاق فيليب من كل تمويه نفسى ، حياته الماضية كلها فى ضوء جديد . ومن ثم اعتصر الندم قلبها وقالت وهى تعتصر كفيها :

— يا عزيزى فيليب ! لقد كنت غارقة فى أنانيتى ، فلم أعرف .

www.ibtesama.com

فقاطعها فيليب قائلا :

— طبعاً لم تكونى تعرفين .. الحب ! وكيف كان يمكنك هذا ؟ ولكننى لم أحب أحداً فى حياتى غيرك . وكدت دائما أحبك . ألا يمكن أن تتعلمى كيف تحبيننى يوما ! إننى لم أقصد أن أخبرك بهذا إلا بعد مدة طويلة . ولكننى فعلت الآن ، ولم يعد فى مقدورى أن أخفى عنك شيئا .

واقتربت رامونا منه وهى لا تزال معتصرة كفيها ، ثم قالت :

— وأنا كنت أحبك دائماً ، ولا أحب أى رجل آخر على قيد الحياة الآن ، ولكن يا فيليب ...

ثم انخفض صوتها إلى الهمس وهى تردف قائلة :

— ألا تعرف يا فيليب أن جزءاً منى قد مات . . مات ولن يعود إلى الحياة مرة أخرى . إنك لا تستطيع أن تتخذ منى زوجة وأنت تعلم أن جزءاً منى قد مات .

وألقى فيليب ذراعيه حولها وقد كاد يفقد عقله من فرط الابتهاج ، وهتف قائلاً :

— إنك ما كنت تقولين هذا لو لم ترى أن فى مقدورك أن تصبحى زوجة لى . هبينى نفسك فقط ، ولا يهمنى بعد ذلك أن تكون ميتة أو على قيد الحياة .

واستكانت رامونا بهدوء بين ذراعيه . آه . . إنه لخير لفيليب ألا يعرف ، وألا يستطيع قط أن يعرف ، رامونا التى عرفها اليساندرو . إن رامونا الرقيقة الوفية الشاكرة لتسأل نفسها الآن بحرارة هل هى تسىء إلى أخيها حين يبدو لها أنها تسلم إليه جزءاً يسيرا محطما من حياتها . إنها تزن كلماته ، لا فى ضوء العاطفة

www.ibtesama.com

المشبوبة ، وإنما في ضوء الحب الهادىء الرصين الخالي من الأنانية.. آه .. ما أشد الفرق بينها الآن ، وبين رامونا التي سبق أن ألقت بنفسها بين ذراعي اليساندرو هاتفة « خذني معك . إنني أفضل الموت على تركك لي » .

لقد كانت رامونا صادقة . إن جزءاً منها قد مات حقا . ولكنها رأت الآن ، بإحساس صادق ، أن فيليب يحبها كما أحبت هي اليساندرو . فهل يمكنها أن تحرم فيليب من السعادة بعد أن أنقذها وأنقذ طفلتها ؟ فماذا بقي أمامها بعد أن صارح كل منهما الآخر بذات نفسه ؟

وقالت بهدوء و بطء :

— لسوف أكون زوجتك يا عزيزي فيليب إذا كنت واثقا بأن هـذا سيسعدك ، و بأنه الوضع الصحيح .

وصاح فيليب وقد كادت السعادة المفاجئة تفقده عقله :

— الوضع الصحيح ؟ ليس هناك وضع أصح منه . لسوف أحبك يا رامونتي إلى الحد الذي ينسيك قولك إن جزءاً منك قد مات .

وطافت لمحة على وجه رامونا أدهشت فيليب . . ولعلها كانت شعاعاً من ضوء القمر . . ولكنها اختفت ، ولم يرها فيليب بعد ذلك .

وكان اسم الجنرال موريتو لا يزال منقوشا بأحرف الحب والتقدير في نفوس المكسيكيين . ومن ثم وجد فيليب نفسه بين أهل وأحباب ، وفي اليوم التالي لوصولها ، تزوج فيليب رامونا في الكاتدرائية وكانت ماردا العجوز ، وجوان كانيتو ، بمكازيه ، يركعان وراءهما في زهو وابتهاج . وكانت قصة حبهما التي انتشرت على نطاق واسع ، قد زادت من اهتمام المكسيكيين في

www.ibtesama.com

الحفاوة بهما . وهكذا غدت السنيورة مور ينو، الشابة الجميلة ، موضوع الأحاديث في المدينة ، وراح قلب فيليب يخفق بالزهو والفخر وهو يرى كيف كانت زوجته تمتاز في كل اجتماع بالوقار والجمال ، وكان عالماً جديداً حقاً ، وحياة جديدة . ولعل أن يكون لرامونا العذر إذا هي ارتابت في شخصيتها الجديدة . إلا أن ذكرياتها الخالدة ظلت قائمة في صدرها كالحراس . فعندما كانت تسمع الحمائم تتناجى و ينادى بعضها البعض ، ترفع عينيها إلى السماء وقد خيل اليها أنها سمعت صوتا يناديها « ماجيللا » وكان هذا هو السر الوحيد الذى أخفته عن فيليب فى أعماق قلبها الوفى المحب . وكان قلبا وفياً محبا حقا . وفيا محبا . . وإن الأزواج السعداء مثل فيليب مور ينو لقليلون .

وإلى الدنيا جاء أبناء و بنات يحملون اسمه. وكانت البنات جميلات إلا أن أجملهن ، كما قيل ، وأحبهن إلى الأب والأم ، هى الابنة الكبرى . . الابنة التى تحمل اسم أمها ، والتى كانت ابنة زوجة السنيور فيليب — رامونا — رامونا ابنة أليساندرو الهندى .

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

مطبعة المعرفة

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

هذا الكتاب

هذه قصة لايدانيها فى مجال الشهرة سوى قصص قليلة ، فهى تصوير صادق أمين لحياة الجاليات الهندية والمكسيكية فى أثر حرب المكسيك الدموية ، وبعد ضم جنوب كاليفورنيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

والقصة غنية بألوانها المتشعبة التى تصور الحياة فى تلك البلاد . فنراها تصور الكفاح المرح فى المراعى فى موسم جز الصوف ، كما تصور الكروم الشاسعة الراقدة تحت أشعة الشمس المشرقة ، والمزارع الصاخبة بالعمل المتواصل ، والقرية التى يقطنها الهنود الحمر بطابعها القوى الذى يستبين من ثنايا هذه القصة .

ومع أن القصة خيالية ، فقد بلغ من تأثيرها فى نفوس أهل كاليفورنيا منذ صدرت فى سنة ١٨٨٤ حتى اليوم أنهم لا يزالون يشيرون بفخر واعتزاز إلى البقاع التى عاشت فيها « رامونا » والأماكن التى اختلفت إليها ، والغدير الذى رأت وجهها الفاتن منعكسا على صفحته الرقراقة ، رغم أن هذه الأماكن كلها من نسج خيال المؤلفة .

سبتمبر سنة ١٩٦٤

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com